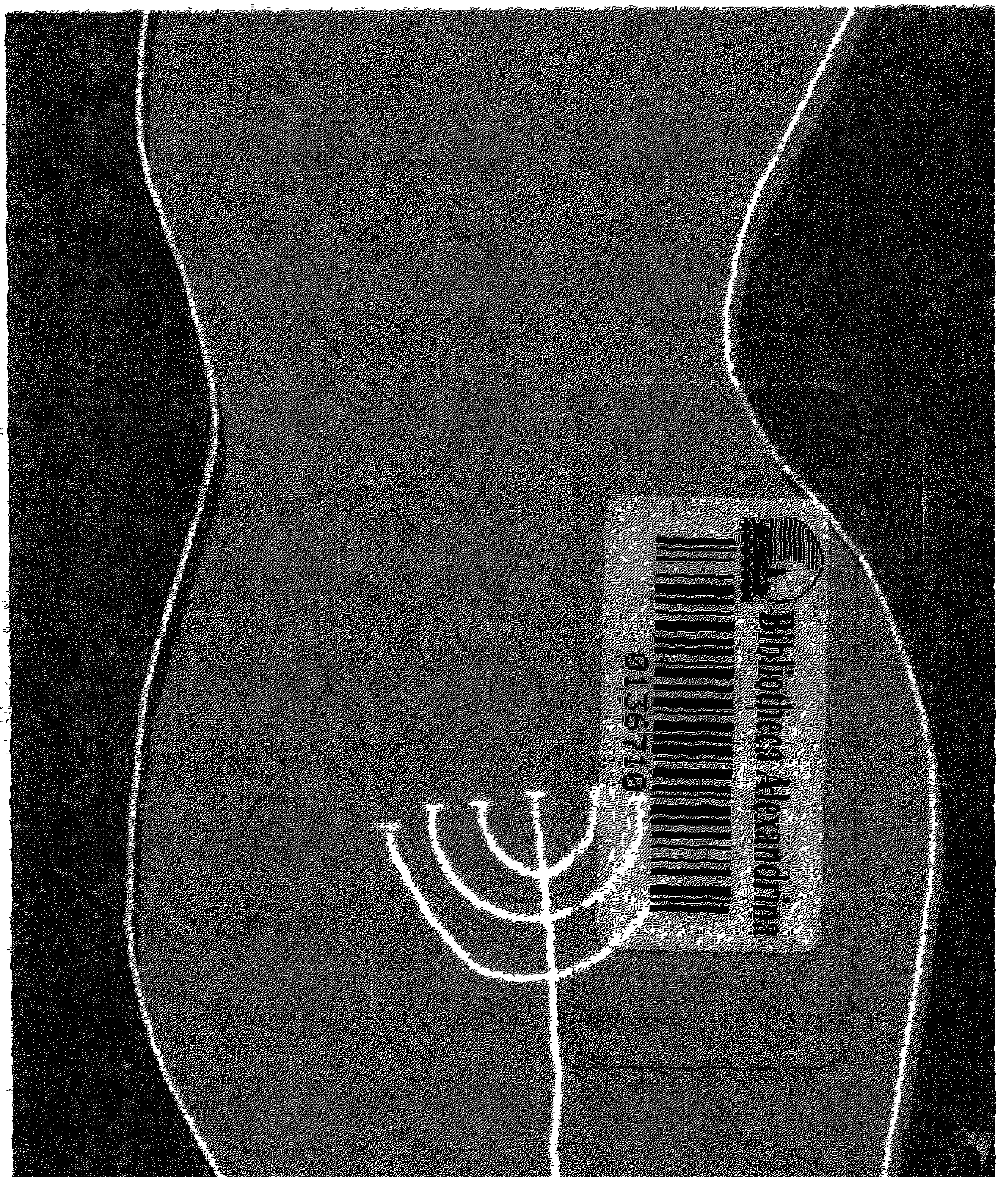
شفيق مقّار

الجنس في التوراة
وسائر العهد القديم



الكتاب الأول

من الإلاهة الأم
إلى الإله الأب

شفيق مقار

الجنس في التوراة
وسائر العهد القديم
(الكتاب الأول)
من الإلاهة الأم إلى الإله الأب

عنوان الكتاب: الجنس في التوراة وسائر العهد القديم: من الإلآهة الأم إلى الإلهة الأب.

– المؤلف: شفيق مقار

– الطبعة: الأولى ١٩٩٨

– عدد النسخ ٢٠٠٠

الناشر: دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع – دمشق – سورية ص.ب ٤٩٤٥

هـ: ٢٣١٢٥٠٩ – فاكس: ٢٢٣٤٣٣٦ ت– تلكس: ٤١١٣٢٦

Curfa برقياً دار يعرب.

– صمم الغلاف الفنان: علي المحمود

S. C. Magar

* * *

Sex in the Bible
(Book One)
From Mother Goddess to Male Deity

محتويات الكتاب

الموضوع — رقم الصفحة

* * *

"يميل الكائن الانسانيّ إلى تناسي الحقيقة الماثلة في أن ما كان يصلح لزمان مضى لا يظلّ بالضرورة صالحاً لكل زمان إلى الأبد. وتحت تأثير ذلك الميل، يتشبّث الإنسان بالطرق القديمة التي كانت ذات صلاحية في زمانها، بعد أن تكون قد فقدت صلاحيتها، ولا يتوصّل إلى التحرر مما يجعله يفعل ذلك إلا بأفدح التضحيات وبتحمّل آلام لا توصف.

"وذلك يصدُق على أجلّ الأمور مثلما يصدق على أهونها شأناً. فأساليب الطفولة وعاداتها، التي كانت أصلح ما تكون لمرحلة الطفولة، لا يكاد يمكن التخلّي عنها وتنحيتها جانبا حتى بعد أن تكون الآثار الضارة الناجمة عن التعلّق بها قد قام البرهان على أنها ضارة منذ وقت طويل. ونفس الشيء يصدق، بشكل أفدح وأخطر، فيما يتعلّق بتغيير المواقف. فالموقف الجمعيّ الذي يتخذه البشر تجاه أيّ موضوع من موضوعات حياتهم شيء أشبه بدين يعتنقونه. ونحن نعرف أن التغيّرات الدينيّة شكّلت دائما أحد أفظع الفصول إيلاماً في تاريخ العالم.

"وفيما يتعلّق بذلك، نجد أن عصرنا يعاني من ضرب من العمى لا مثيل أو قرين له يجعلنا نتصوّر أننا بمجرّد أن نسلّم بأن هذا البند أو ذاك من بنود الإيمان قد فقد صلاحيته إذ تبيّن لنا أنه غير صائب، نكون قد بتنا بمأمن من فعل الآثار التقليدية لمثل تلك البنود التي تقادمت في المسيحية واليهودية، متناسين تماما أن الدين إنما هو موقف سيكولوجيّ وأسلوب محدّد من أساليب التكيّف للعالم ظاهراً وباطناً وأنه يصنع لنا نمطاً ثقافياً محدّدا نعيش في إطاره، ويخلق لنا جواً عاماً يظلّ غير قابل للتأثّر بأيّ نفي أو تكذيب عقلانيّ. حقيقة أن تغيير الواجهة الخارجية له أهميته كموشّر على إمكانات مستقبلة، غير أن الذات تظلُ – على مستوى أعمق – شغّالة، لوقت طويل، على هدي الموقف القديم بفعل قوانين العطالة النفسية".(*)

(*) C. G. Jung : "Psychological Types", the Collected Works, tr. R. Hull, Routledge & Kegan Paul, London, Vol. VI.

"قرب أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، انفتح مجال دراسة جديد وغير متوقّع أمام علم الأساطير المقارن. فحوالي ذلك الوقت أمكن فكّ شفرة الكتابة الهيروغليفية المصريّة والكتابة المسماريّة البابليّة، وبذا أمكن الكشف عن واخراج الكثير من المادة الأسطوريّة من الظلام الذي كان يحتويها. ومما أضفى على ذلك المجال من مجالات البحث إثارةً وأعطاه زخماً مضافاً أنه أتاح استخدام نهج أكثر علميّة في دراسة العهد القديم. لأنه - بالوقوف على المادة الميثولوجيّة المصريّة والبابليّة التي أخذت تتكشّف تدريجياً - بات من الواضح أن بعض مادة العهد القديم ذات طبيعة أسطوريّة، وذلك من خلال ما تبين من تشابه وتوازٍ بينها وبين الأساطير التي اكتشفت من المصادر المصريّة والبابليّة"(*) .

(*) المصدر (المرجع ٢٧) :
Samuel Noah Kramer: "Sumerian Mythology", Greenwood Press, Westport, Connecticut, 1988, p. 26.

تقديم

لا شكّ في أن قراءة "العهد القديم" أو أيّ جزء منه، وبخاصة أسفاره الخمسة الأولى، خبرة فريدة بحقّ. وقد لا يختلف معنا قارئ ممن أثار ذلك المؤلّف الفريد فضولهم أو شدّهم الإيمان إلى قراءته، حول أن تلك القراءة بذهن متيقّظ غير مغيَّب في ضباب الإيمانيّات خبرة تثير كثرة من التساؤلات، حتى لا نقول من الشكوك، وتولّد من تلك التساؤلات فروضاً يتوق العقل - ما لم يُقْعِده الورع أو يشلّه الخوف - إلى استظهار وجه الحقّ من وجه الباطل فيها.

في المبحث الأول من سلسلة دراسات التوراة التي استدرجتنا تلك التساؤلات، لا الشكوك، إليها، "قراءة سياسيّة للتوراة"، انصرف الجهد الى محاولة اختبار صحّة أو خطأ فرض مشروع يظلّ يطرح نفسه بقوّة وبإلحاح في كلّ تعامل عقلانّي مع "العهد القديم"، هو أن الكتاب - بمضامينه وبتِقْنية تجميعه وتحريره، وبما هو ناطق به من مطامع دنيوية منصبّة على حيازة الأرض وإقامة المُلْك والتسيدّ، وعلى تكديس الثروة، نص يظلّ مفتوحاً من كل جوانبه للتفسير السياسيّ، لا استنادا فحسب الى نصوصه ذاتها التي تجعل منح الثروة والأرض والتمكين من التسيّد أو الحرمان منها مدار العلاقة بين المعبود وعباده، بل واستبصاراً بالحقيقة المعاصرة الماثلة في أن الكتاب قد استخدم كـ"طبعة زرقاء" (blueprint) لتصميم معماريّ شاسع وكسند غيبيّ لمخطط دنيويّ بالغ الضخامة لا حدود لطموحه يراه المعاصرون رأي العين وهم أشبه بالمنوَّمين أو المُقْعَدين وهو متّجه بسرعة وبقوة ومضاء لا يقف في وجهه شيء الى تحقيق حلم صهيون حاكمة الأمم.

وفي المبحث الثاني من السلسلة، "السحر في التوراة والعهد القديم"، تركّز الجهد على محاولة اختبار مدى صحّة أو خطأ فرض آخر يطرح نفسه بقدر من القوّة والإلحاح لا يقلّ عن سابقه، مداره غلبة الطابع السحريّ على العقائديّات والممارسات والطقوس والشعائر كما هي واردة في الكتاب، المؤلّف الأدبيّ الرئيسيّ، "العهد القديم"، والمؤلّفات الثانوية المساعدة المفسّرة والمكملة له كـ "الزُهار" و "التلمود". ومنشأ الفرض ما هو واضح وضوحاً لا يقبل الإخفاء والتمويه أو يسمح بالتعامي، في ذلك المؤلّف وفي توابعه، من أن المعبود، عندما جيء به إلى مصر من مضارب المديانيين العرب على أطراف الجنوب الشرقي لشبه جزيرة سيناء، كان ذلك في جعبة مؤسِّس الديانة الذي لاذ بالمديانيين هربا من انتقام كهنة آمون وما اضطلعوا به من تصفيات دمويّة لكل من كانت له علاقة بمن اعتبروه فرعونا هرطيقا، أي إخناتون. وإذا عاد ذلك المؤسِّس بالمعبود الذي تعلّم عبادته من مضيفيه العرب، بعد انتهاء فترة الهروب الأسطوريّ الحتميّة في اسطوريّات كل الأبطال الثقافيين، عاد به وفي صدره مشروع - ينطق به حكي "العهد القديم" - أراد أن يعوض به ما كان قد خسره، بموت سيّده إخناتون، من حظوة ومكانة ومستقبل ملوكيّ كان يتوقّعه كفرعون لمصر.

وفيما يوقفنا عليه حكي "العهد القديم"، كان تعويض ذلك الطموح بلصوق مؤسِّس الديانة بنفر من كهنة مصريين عُرفوا باسم "اللاويين" (وهو اسم مصريّ لا شك في مصريته ما زال مستخدما في مصر في أسماء مثل "لاوي"، و"عبد اللاوي")(*) وهم كهنة أتونيّون (نسبة إلى "آتون") كانوا يطلبون النجاة من تجاوزات كهنة آمون وما أحدثوه في مصر من اضطرابات سياسيّة/دينيّة وما ظلوا منغمسين فيه، لوقت طويل بعد موت إخناتون وتخريب عاصمته المتحضرة العظيمة "أَخِتْ آتون" (أي مطلع أو أفق أتون)، من مطارده وتصفية لكل من كانت له علاقة به. ومن حكي التوراة، يبدو أن أولئك اللاويين وجدوا فرصة النجاة متاحة بالانخراط وسط من أسمتهم التوراة بالأسلوب المتعجّل الغامض المعهود باسم "لفيف كثير" (خروج ١٢ : ٣٨) من عبيد آبقين وغير مرغوب فيهم مطرودين. وبأولئك الكهنة المصريين اللاويّين، الذين عُبْرِنوا في الحكي اغتصاباً ونسبوا ليعقوب بوصفهم من سلالة "ليفي"، وباللفيف الكثير، اتّجه الطموح إلى إقامة مُلْك لاهوتيّ ("أمة من الكهنة") يتربع مؤسِّسُه على قمتِه، قرينا لفرعون، في سياق معمار دينيّ أُقيم على ما استنسِخ من الديانة المصرية ،(*) وبخاصة من التعاويذ السحريّة التابوتيّة التي وجدت صالحة للتسلّط على عقول بدوٍ كانوا ما زالوا في المرحلة الرعوية السابقة لما نعرفه اليوم باسم "التمدين". إلا أنه بالنظر إلى الحرص، في سياق ذلك الاستنساخ، على طمسٍ كل ما كان من شأنه أن يكشف أو أن يشير، ولو من بعيد، إلى الأصل المصريّ الذي نهب، أي بالذات عبادة أوسير (أوزيريس) ولاهوتيّة آتون التوحيديّة، طمس اللاويّون البُعْد الأخرويّ (أي المتعلّق بالعالم الآخر وبالثواب والعقاب بعد الموت) وهو البُعْد الجوهريّ في الديانة المصرية ،(**) وبذلك فُصِل العنصر السحريّ الذي أُخِذ من مصر عن سياقه الدينيّ الذي تعلّق ذلك الوجه السحريّ منه بتأمين الروح في رحلتها بعد الممات عبر مهالك العالم

(*) على الرغم مما قد يجده البعض في هذا القول من غرابة، يوجد من الباحثين الغربيين اليهود من يسلّم بمصرية اللاويين بغير ملاحاة. انظر، مثلا، ريتشارد فريدمان في مبحثه الهام، "من الذي ألف الكتاب المقدّس؟". فبالاضافة إلى تسليمه بأن أسماء اللاويين، وبخاصة "موسى" و"حُفْني" و"فينحاس" مصريّة لا عبريّة، يوقفنا هذا المتخصص على الحقيقة الماثلة في أن "سبط" اللاويين تألف من كهنة مصريين، وهو ما يؤكده أن اللاويين كانوا الوحيدين الذين لم يحصلوا على أي من الأرض التي استولى "الشعب" عليها. (المرجع رقم ١٤٦ بقائمة المراجع بآخر الكتاب وبالأخصّ ص ص ٨٢، ٨٥، ٨٦، ١١٨، ١٢٠ – ١٢٢، ١٢٩، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨).

وانظر أيضا ماكس فيبر في كتابه العمدة، "اليهوديّة القديمة" الذي يسلّم فيه بأن اسم "ليفي" (أي "لاوي") ليس عبرانيا، وينبّه إلى أن مباركة يعقوب للأسباط (تكوين ٤٩) لا ذكر فيها لليفي أو اللاويين في حين ركز عليهم موسى في بركته الأخيرة (تثنية ٣٣:٨ – ١١). (المرجع رقم ١٢٠ بقائمة المراجع بآخر الكتاب، ١٦٩ – ١٨٧) .

(**) وهنا أيضا يستند البحث إلى ما سلّم به ولاحظه سيجموند فرويد في كتابه عن "موسى والتوحيد" من تعمّد إهدار الجزء المتعلق بالعالم الآخر والحساب والثواب والعقاب مما أخذ من الديانة المصرية إخفاءً للأصل المصريّ. (المرجع رقم ٨٢ بقائمة المراجع الواردة بآخر الكتاب، وبالذات ص ٢٦٣/٢٦٤). وارجع أيضا إلى "قراءة سياسية للتوراة" الصفحات من ٣٠٩ إلى ٣٤٠ .

الآخر لتحاكم في قاعات أوسير (أوزيريس)، وبذا اقتصر السحر التوراتيّ على الدنيويات وعلى الشعائر والطقوس وعلى التلغيز العدديّ لمقولات التوراة.

وفي المبحث الثالث من السلسلة، "المسيحيّة والتوراة"، كان التركيز على ما وصفه البعض أحيانا - بقدر لم يعد المرء يستغربه من الغباء الغليظ والارتعاب القاعد القميء من أي محاولة لإلقاء بصيص نور يبدّد شيئاً من ظلمة الجُحْر - بـ "تلك التواريخ القديمة"، ربطاً لها، تلك "التواريخ"، بالواقع المعاش الخطر، وبما ينذر به من بشاعات عديدة مقبلة بالنسبة لشعوب بأكملها، نتيجة للانتماء المسيحيّ الغربيّ عبر إيمانيّات البروتستانتية، وسعياً إلى استجلاء ما قد يكون كامناً من مسبّبات إيمانية ودوافع أرضية في جذور ذلك الانتماء العبرانيّ، وهو انتماء يصل - في بعض الحالات المتدهورة - إلى حد الانضواء الكامل بل والعبادة للمستخدمين للفكر التوراتيّ كما في حالة التيار الأصوليّ لدى الغربيين، وفي الولايات المتحدة بالذات. وعملا على استكشاف بعض متاهات ذلك الانتماء، اتّجه البحث في الكتاب إلى محاولة تبيّن ما إذا كان للدين وحده الفعل في صنع وتكييف الدور الذي تقوم به الأصوليّة المسيحية الغربية في صنع وتكييف الدور بالغ الفعالية الظاهرة آثاره عالمياً في تنفيذ وتطوير المشروع الصهيونيّ، أو ما إذا كان الدور مدخولا بعوامل أخرى، مع محاولة استقصاء نوعية الفعل الذي يمارسه الانتماء، ومحاولة إلقاء بعض ضوء على خباياه، واستبصار بعض ما يمكن أن يفضي إليه في خاتمة المطاف.

أما في هذا المبحث، فجهدنا محاولة اختبار مدى صحة أو خطأ فرض آخر يطرحه بقوة شيوع المضامين الجنسيّة في الكتاب كما أُلِّف وحُوِّر وحُرِّر ورُوجع عبر عصور طويلة من عملية متصفة بالتصميم، ومستمرة من خلال "الترجمات" الجديدة التي تجاوز عددها حتى الآن الخمسين، من التنميق والحذف والاضافة.

ولقد يبدو من الغريب الصادم أن يتناول الفكر النصوص الدينية والجنس في سياق واحد. إلا أنه، حتى إذا ما صرفنا نظراً أو تغافلنا -على سبيل الورع- عن وضوح العنصر الجنسيّ في الكتاب وضوحا لا يدع مجالا للصدمة أو الاستغراب، لا ينبغي للعقل، ما لم يُقْعده الارتعاب، أن ينكص عن التعامل فكرياً مع الحقيقة الماثلة في أن الموضوع هنا يظلّ - بشكل جوهريّ - موضوع ما يمكن أن نسمّيه بالمجيء والذهاب. المجيء إلى هذا العالم، والذهاب عنه. الحضور فيه، والغياب عنه. الخَلْق، والمآل. وذلك - فيما يخصّ العقل - مسار نجد في بدايته واقعة الميلاد وما قبله، وفي نهايته واقعة الموت وما بعده، ما لم نسلّم بما انتهى إليه المؤلِّفون والمحرِّرون التوراتيوّن من أن الموت بعده العدم. وفيما بين الواقعتين، أي في غمار ما نسمّيه بـ "الحياة الدنيا" أي الأرضية، يقترب الفكر الدينيّ من الأخلاق والقانون حتى يوشك على التوحُّد بهما، باعتبار قواعد ذلك الفكر ونواهيه ومحرّماته تنظيماً أخلاقياً قانونياً يتطلب الإيمان من المؤمن أن يعيش في إطاره حياة أرضيّة سويّة متّصفة بالصلاح يتقبّلها المعبود ويرضى عنها فيثيب المؤمن عليها، إما نجاحاً وثراءً هنا في الدنيا، على الأرض، كما في العقيدة التوراتيّة التي لا بقاء بعد الموت فيها، بل العدم

الذي آمن به السومريّون والبابليوّن، وإما في عالم آخر باق بعد الموت تثاب الروح فيه أو تعاقب على ما فعلته على الأرض. أما عند قطبيّ ذلك المسار الدنيويّ، فتنطق واقعة الخلْق والميلاد بدور الجنس، تماما كما تنطق به واقعة الموت في السياق الأخرويّ القائم على أمل ميلاد ثان هو البعث والنشور.

ونحن، متى تحررنا من الحواذ التطهريّ الذي أقحمته الأقلام الكهنوتية على قصّة الخليقة بحكاية "العُري" و"الخطيئة الأصليّة" وهي الخطيئة التي أدت تبعا للحكي إلى فاجعة الطرد من الجنّة، نقول إننا متى تحررنا من تلك التطهّريّة الناقضة لقول الإلـه للانسان "بعد أن خلقه على صورته، ذكرا وأنثى .. وباركهم وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واخضعوها (تكوين ١ : ٢٧ و٢٨)، لن نجد مدعاة أو مبرراً عقلانياً لأيّ تنصُّل من الجنس بوصفه شيئاً بذيئاً أو قبيحاً، لأنه بدونه كيف كان البشر الذين خلقهم الإله على صورته سيثمرون ويكثرون ويُخضعون الأرض ؟ بالانقسام كالأموبا ؟ فالجنس، متى استبعد ذلك الحواذ التطهريّ، جزء طبيعيّ من شغلة الحياة ذاتها وضعه الإله ذاته ولولاه لما تمخّض خلقُ الكائناتِ عن تكاثرها. وتلك حقيقة سلّمت بها ديانات الشرق الأدنى القديم الباترياركيّة (أي ذات الآلهة الذكور) التي لم تلتِو لاهوتيّاتها بالدعاوى التطهريّة، وقدّستها الديانات السابقة لها، أي الماترياركيّة (المكرسّة لعبادة الإلاهة الأم)، وعلى الحالين كانت عملية خلق الكون والكائنات عملية إنجابٍ كونيّة من رحم الفوضى الأولى تمخضت عن إيجاد العالم وما فيه ومن فيه.

غير أن ذلك لم يكن من الممكن، في حالة التوراة، وقد ورّطها مؤلّفوها ومحرروها في مأزق "العُري" و"الخطيئة الأصلية" الذي تردّت فيه الكنيسة المسيحية عندما جعلت كتابها الدينيّ تذييلا لـ"العهد القديم". ولذا فإن التوراة لم تسر في شأن الجنس كما سارت في شأن غيره على الدروب العاقلة المأمونة غير المتناقضة مع ذاتها التي سارت عليها ديانات الشرق الأدنى القديم، ماترياركيّة وباترياركيّة، وهي ديانات اقتبس منها واغترف المؤلّفون التوراتيّون الشيء الكثير.

ولقد كان ذلك الخروج عن القياس منشأ تناقضٍ آخر خطير من تناقضات التوراة العديدة، اضطّر المؤلفون والمحررون حياله - حتى لا يبيّت صارخا - الى تقمّص موقف تطهريّ، فيما له علاقة بالجنس، لم يناقض فحسب ما أُترِع به الكتاب من مضامين وايحاءات جنسيّة لا سبيل إلى المماراة في شأنها، بل ومع طبيعة "الشعب" نفسه، وهي طبيعة ظلّت - كما يوقفنا "العهد القديم" ذاته - سريعة الانغماس في ممارسات القصف الجنسيّ والعربدة الحسّية، كما تناقض أيضا مع العمق الجنسيّ للعبادة التي أقيمت على أساس رابطة سحريّة/جنسية مدّعاة بين "الشعب" المختن في لحم غُرْلته، الذي أكسبه ذلك التختن خصوصيّة فريدة، وبين الألوهة التي صوّرت في صورة قضيبيّة مختتنة واحتكِرت لـ "الشعب" كألوهة خاصّة به مختصّة به وحده دون سائر البشر.

وهناك كثرة من الباحثين والنقّاد التوراتيين توحي كتاباتها، إما عن عمد أو عن شرود ذهن، بأن "نشيد الأنشاد" هو الوحيد من كتب "العهد القديم" الذي قد تكون فيه شبهة جنس، وأنه - بذلك - نشاز غريب في كتاب ديانة أسبغ عليها دعاتها ومريدوها صفة الصرامة فائقة الحدّ في كل ما له علاقة بالجسد، وكل ما من شأنه أن يوفّر لأتباعها ما ينعم عليهم في نظر المعبود يهوه بالرضى أو يورطهم فيما يستجلب عليهم السخط. غير أن هذا الادّعاء - كالكثير غيره - أبعد ما يكون عن الواقع التوراتيّ. فابتداء، ليس هناك في "العهد القديم"، من أول كلمة إلى آخر كلمة فيه، ما يتيح القول بأن الفكر الدينيّ المسجّل فيه منشغل بالروحانيات. لأن الكتاب لا يستخدم مفهوم الروح، ويشير إلى الإنسان الحيّ بلفظة "نفس" (= بالعبرانية، "نَفَشْ") أي كائن حيّ، ولأن الكتاب لا ذكر فيه لبقاء ما يمكن أن يوصف بأنه "روح"، بعد الموت، ولأن انشغاله الرئيسيّ بالجسد الحيّ في وجوده الأرضيّ. وبجانب ذلك كله، لا مجال للادّعاء الذي أشرنا إليه بشأن "نشيد الأنشاد"، لأن ذلك النشيد - على ما فيه من تصورات جنسيّة باذخة بحق، ليس المنفذ الحقيقيّ لوجود الجنس كمكوّن رئيسيّ من مكونات الفكر التوراتيّ، وليس العَرَض الوحيد الناطق بغَلَبة الرؤيّة الحسيّة والتصورات الجنسيّة على الإبداع الأدبي الذي عرفته أجيال وراء أجيال من البشر باسم "العهد القديم"، أخذا بالتسمية المسيحية لذلك المؤلّف الفريد.

ولسنا هنا، حتى لا تختلط الأمور، في مجال مفاضلة بين ديانة وديانة، أو في مجال انتقاد متألّه متعالٍ كالكثير مما تفرزه الأقلام، وكأن المجال مجال ملاحاة وتشهير ومجال مفاخرة بما هو عند المرء وليس عند الآخرين من إيمان وتقوى وصلاح متين.

وغني عن القول، فيما نأمل، أننا لسنا بمعرض دغدغة حواس أو إثارة شهوات. فهمُّنا منصبٌّ على محاولة استجلاء وجه آخر هام بالغ القيمة من أوجه ديانة توحيدية كبرى ظلّ أدبها الديني من المؤثرات الرئيسية التي شكلت عقائد كثيرة عاشت في ظلّها وبمقتضاها، لأزمنة طويلة، ملايين فوق ملايين من البشر، هو وجهها المتعلّق بذلك النشاط الإنسانيّ الأساسيّ، الجنس، بعد أن حاولنا استجلاء وجهها السياسي، ووجهها السحري، وما مارسته من تاثير على ديانة أخرى هي المسيحيّة.

وفي محاولتنا استجلاء ذلك الوجه الجنسيّ، انصرف الجهد في هذا الجزء من السلسلة التوراتيّة، إلى سبر غور المضمون الجنسيّ واستظهار دوره في عقيدة بدأت سيرتها - متى أخذنا بما يتمسّك به مؤلّفو أسفارها المقدسة من أنها بدأت "بعهد" أُبرم بين "إله قدير اسمه الشدّاي" وبين أب تاريخيّ اسمه أبرام - بعملية جراحية تمسّك ذلك الإله تمسّكاً لافتاً للنظر بضرورة إجرائها تشكيلاً لقضيب أبرام وبعد أبرام كلّ ذكر من عباده الذين التزم الإله بموجب "العهد" بأن يصبح إلهاً خاصّاً لهم :

"هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن منكم كلّ ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم. فيكون الختان علامة عهد بيني وبينكم،

يكون عهدي في لحمكم عهداً أبديا. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختتن في لحم غرلته، فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث بعهدي".
(تكوين ١٧ : ٩-١١ و١٣ و١٤)

وواضح من قوله "تقطع تلك النفس من شعبها"، أي "يجتثّ غير المختّن من الشعب بقتله"، أن الإله اعتبر النكوص عن تشكيل القضيب بتلك العملية الجراحية في لحم الغرلة (قلفة الذكر) معصية بالغة الخطورة عقابها الموت. فلا بد إذن أنه كانت للقضيب في ذهن القائل، سواء كان إلهاً أو كان مؤلّفاً بشرياً أجرى الكلام على لسان إله، ولكل ما تعلّق بالقضيب، أهمية فائقة وُضعت على رأس قائمة أولويّات علاقة المعبود بالعباد، وإلا لما كانت سيرة تلك العبادة – متى أخذنا بتأكيد مؤلّفي "العهد القديم" أن تلك السيرة بدأت بذلك التعاقد القضيبيّ بين المعبود وبين الحبر أبرام الآراميّ يوم بلغ ذلك الحبر التاسعة والتسعين من العمر: "أنا الشداي. سر أمامي وكن كاملا، فأجعل عهدي بيني وبينك، وأكثّرك كثيرا جدا .. وتكون أبا لجمهور من الأمم .. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا، لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك" (تكوين ١٧ : ١-٧)، ولما كان الشرط الأوحد الذي اشترطه الإله كيما يسير أبرام أمامه ويصبح كاملا وكيما يصبح هو بالتالي إلها لأبرام ولنسله من بعده هو أن يختّن ذلك الحبر الذي بلغ التاسعة والتسعين في لحم غرلته، وأن يختتن كذلك كل نسله ابتداء من الذكر ابن ثمانية أيام. (تكوين ١٧ : ١٢).

فمن الواضح الذي لا يقبل العقل المراوغة في شأنه أن تلك كانت مسألة بالغة الخطورة وهامة إلى الحدّ الذي جعل من الضروريّ النصّ تأكيدا بالتكرار في النص التوراتيّ على وجوب تختين كل طفل ذكر بمجرد بلوغه سنّ ثمانية أيّام. ولا شكّ في أن ذلك كان احتياطاً لاهوتيّاً واجباً، بالنظر إلى أن المعبود كان قد اشترط – كشرط أساسيّ في التعاقد – أن يُقدَّم إليه ضحيّةً بشريّةً غضّةً على مذبحه كل ذكر بكر ابن ثمانية أيام، وبالنظر إلى أن تلك ممارسة ظلّت مُلزمة ومنفَّذة إلى أن استبدلها الكهنة، بقدر كبير من رجاحة العقل، بحيلة "بديون هـ - إبنَ" (فدية الإبن). فلم يكن مما يقبله المعبود أن يقدّم إليه ذلك الرضيع ضحيّة إلا إذا كان قضيبه قد تشكّل بالشكل الواجب عن طريق التختين في لحم الغرلة .(*)

ومن هذه الحقيقة نبدأ، مع الوعي بأن المسألة هنا ليست مسألة بذاءة. فالقضيب، كما يعرف كل دارس جاد لتواريخ العبادات، كان ذا رمزية بالغة المغزى في عبادات قديمة عديدة، ومن المؤكّد أنه – بهذا الوصف – لا دخل للبذاءة في شأنه، تماما كما أنه لا يستقيم، كما ينبهنا كارل يونج، أن نتعامل مع الرمز الرئيسيّ للمسيحية، مثلا، أي الصليب، باعتباره مجرد علامة على الموت .(١)

(*) ارجع في ذلك إلى "قراءة سياسيّة للتوراة"، بالصفحات ٦٢، ٢١٣ - ٢١٥، ٢٦٨ .
وإلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، بالصفحات ١٠٥، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٥٥، ٢٧٢، ٣٢٤، ٣٦٧، ٤٣٩، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٣، ٥٢٤ .

وإذ نأخذ منطلقنا الفكريّ من ذلك المنفذ، تنفتح أمامنا دروب ومسارب عديدة نجد أنها مفضية كلها إلى فرضٍ لحوح يظل يطرح نفسه بقوة، مفاده أنه عندما اقتُبست عادة الختان من المصريين وأُدمجت إدماجا سحريًّا في صلب العبادة التي أُنشِئت حول معبود المديانيين القضيبيّ يهوه الذي كان رمزه الأصلي نبات "الفطر المقدس" (الأمانيتا موسكاريا) كما في الشكل رقم (١)، كان ذلك السطو على عادة الختان المصرية بمثابة توفيق مجدود وضع في خدمة العبادة اليهيوية أداة ثقافيّة فعّالة جعلت بالوسع ترسيخ وهم الخصوصيّة الحصرية في جذور تلك العبادة وفي تصوّر "الشعب" لنفسه ولعلاقته الحيازيّة بالمعبود، ومكّنت الكهنة الذين ورثوا السلطة الثيوقراطيّة على "الشعب" ووضعوا "الكتاب" بادعاء أن فصوله الخمسة الأولى وضعها مؤسس العبادة بإيحاء من المعبود، من إعطاء "الشعب" الذي اتجه الطموح من مبدأ الأمر الى صنعه وإقامة المُلْك به من شراذم المطرودين والآبقين من مصر تحت قيادة سبط "الأفعى"، لاوي، ما أتاح لذلك "الشعب" التشبّث المستميت بهويّة كان فيها سر بقائه حتى اليوم ككيان بشريّ وصل الادّعاء فيما يخصه الى حد القول بأنه "جنس" قائم بذاته بين أجناس البشر.

ولا حاجة بنا إلى تكرار ما فنّدنا ذلك الإدّعاء عديم الأساس به قبلا(*)، إلا أنه قد يجدي أن نذكّر بأن وجه العوار الرئيسيّ في الادّعاء لـ"الشعب" بأنه "جنس" ماثل في الافتقار، الذي لا حاجة للتدليل عليه، إلى أية خصائص جسديّة يمكن القول ولو تجاوزاً بأنها تجعل من القوم "جنساً" أو حتى "شعباً"، من حيث إن كل ما يجمع بينهم هو أنهم أناس كغيرهم من البشر يعتنقون ديانة بعينها، وأن ذلك المعيار الثقافيّ اللاماديّ اللاجسديّ لا يمكن القول بأنه يشكّل ما يجعل المعتنقين لتلك الديانة أو لأية ديانة غيرها من عديد الديانات التي يعتنقها البشر جنساً، أو سلالةً، أو عائلةً.(٢)

خاصيّة جسديّة واحدة، مكتسبة لا أصيلة، هي التي اشترك فيها القوم على اختلاف سحنهم وأعراقهم وألوان بشرتهم، هي "التختن في لحم غرلاتهم" المباركة. وحقيقة أن تلك "الخاصية" استعِيرت من المصريين كما استعير الكثير الذي لا يحصى، إلا أنها – عندما استعِيرت لهم – ادُّعي أنها ممارسة خاصّة بهم وحدهم ومملاة من معبودهم القبليّ الخاص بهم وحدهم، وهو ما كان بالوسع الادعاء به نظرا للشكل القضيبيّ للمعبود الذي استعير من المديانيين العرب، وما ظل من الضروري التركيز عليه بعد أن صار التأكيد لـ"الشعب" – الذي لم يرقه ذلك الكلام إطلاقا – أن ذلك المعبود المستورد من أطراف سيناء كان، من قديم الأزل، "إلها لآبائهم"، ولو أنه لم يُعرَف لدى أولئك الآباء باسمه يهوه". وعملا على ترسيخ ذلك، تعاقب المنشدون الجوّالون من الكهنة، والقادة الذين عنوا كيشوع – كلما تملّص "الشعب" من عادة الختان المصرية التي فرِضت عليه، بـ"دحرجة

(*) ارجع في ذلك إلى "قراءة سياسيّة للتوراة" بالصفحات ١٧ – ٢٨ .
وارجع أيضا إلى مؤلف الأستاذ رافائيل باتاي "اسطورة الجنس اليهودي"، المرجع رقم ١٦٤ بقائمة المراجع الواردة بآخر الكتاب .



الشكل رقم (١)
"الفطر المقدّس"
(الأمانيتا موسكاريا - بشكله القضيبيّ الواضح)
وقد كان الكهنة والـ"نبييم" يمضغونه ويستحلبون عصيره المحدِث لحالة من الدروشة
والهذيان يبدو أنها صوّرت لهم الجلوس إلى المعبود
(الممثّل بذلك الشكل القضيبيّ عينه) والتخاطب معه وجها لوجه

عار مصر" أي دحرجة عار عدم التختّن عنه (يشوع ٥ : ٥-٩). وبعد المنشدين الجوالين والقادة، عُني المحررون وبخاصة "الكاتب عزرا" والمناضل نحميا بتمتين وضع الإله القضيبيّ المختّن وجعل صورته تلك رمزا دينيا بالغ الخصوصية تلاحمت من خلاله هوية "الشعب" بهوية معبوده الخاص به.

وفي كل ذلك تداخلت وتشابكت فتعقّدت خيوط الكهانة وخيوط السياسة وخيوط السحر وخيوط الجنس وتماسكت في خلق عقائدية شديدة المراس صلبة العنق بحق، مستميتة في البقاء والتحقق، غير عابئة لما ظلت تثيره حولها من عداوات وما ظلت تستجلبه على أصحابها من اضطهاد وعذاب وما عرضتهم له من مذابح، ذاهبة بتصميم منقطع النظير إلى ما ظلت تعلّم بأنه تنفيذ ممعِن في التقوى لغرض الإله من خلق العالم، وهو جعل "ابنه البكر"، أي "الشعب"، وريثاً نهائياً للعالم وما فيه ومن فيه.

وبفضل ما أُضفي بإلحاح من سواتر الصلاح والورع والتقوى، وما استُخدِم باستماتة نادرة المثال من أساليب التلغيز والتمويه والغموض، وبفضل ما تبرّع به الأغيار الأمميون على سبيل الصلاح والتقوى، من ممالأة فكرية وما اتصفوا به من تبعية روحيّة تحولت إلى عبادة للإله بالوكالة من خلال عبادة "ابنه البكر"، أي "الشعب" المبارك ممثلا في دولته وفي منظماته الفاعلة المتنفّذة على كل الأصعدة عالميا، بات من أصعب الأمور فكّ ذلك التداخل والتشابك واستظهار خيوط الكهانة من خيوط السياسة من خيوط السحر وخيوط الجنس، وبات من قبيل الحرث في الماء فرز الطبقات المتراكبة بعضها فوق بعض من آثار التحرير والتحوير والإضافة والحذف والإسقاط تلسكوبيّا وراءً إلى أغوار الزمان عملا على إعطاء العبادة و"الشعب" عمقاً تاريخياً ضارباً في القِدَم يضفي مصداقيّة وقداسة على كل ذلك الكمّ من الاستنساخ والاقتباس والنقل والتأليف والتحرير والتعديل الذي نعرفه اليوم باسم "العهد القديم".

نحن هنا، في النهاية، أمام نصوص مهولة أُكسِبت قداسة خاصّة سلّمت بها ملايين وراء ملايين من البشر طوال قرون، وهي نصوص إبداع أدبي لم يعد هناك من يماري بشكل جديّ أو بشكل تقوم له قائمة في أنها كذلك. لكنها نصوص من نوع فريد، لا بحكم ما أُكسِبته من قداسة مُبطِلة للعقل فحسب، بل وبحكم استخدامها كرسم هندسي أساسيّ لمعمار أيديولوجيّ لا يشك عاقل أو مفكر في خطورته.

وقصارى الجهد، حيال نصوص هذا شأنها، أن نحاول جعلها، كما يحاول الناقد جعل أي نصَ أدبيّ، تنطق بما فيها، من خلال تعقّب خيوطها المتشابكة، والكشف عن مساربها الخفية، والخروج من متاهاتها، والرجوع إلى منابعها العديدة الأسطوريّة، الاعتقاديّة، والتاريخيّة، للخروج – من كل ذلك – بصورة صائبة متكاملة لما هي منطوية عليه، وما غلّفه فيها الإبداع الأدبي لمؤلّفيها ولغّزه الاجتهاد التحريريّ لمحرريها، من مرامٍ عمليّة للغاية وجادّة جدية مميتة هي – في النهاية – أبعد ما تكون عما يعزى إلى تلك

النصوص من جواز شعريّ، وما يوصف منها بأنه حكي مجازيّ ممعن في الطيبة والبراءة ولا غاية من ورائه إلا الحضّ على الصلاح والتقوى وعبادة خالق الأكوان.

منذ صدر الكتاب الأول من كتب هذه السلسلة، "قراءة سياسية للتوراة"، كثرت التساؤلات، ودع عنك الدمدمات الهزيلة عن خوف من أن القصد هو "تقويض أسس الكتاب المقدّس"، عن السر في كل هذا الاهتمام "الغريب" بـ"تلك التواريخ القديمة"، أي التي فات زمانها ولم يعد هناك ما يدعو إلى الانشغال بها. ذلك ما سألنا اياه الكثيرون، غير ما كتبه البعض ممن احمرت عيونه غضبا أو استنكر الخوض في مسائل كهذه استقر الناس على الأخذ بها منذ قرون عديدة.

وبصرف النظر عن الحقيقة التي لا مهرب منها، وهي أنه ليس كالتاريخ معلّم، تظلّ الإجابة البسيطة هي أن "السرّ في كل هذا الاهتمام الغريب بتلك التواريخ القديمة" رغبة جادّة في محاولة الفهم. وقد لا نختلف على أنه كيما يعيش أي فرد أو تعيش أية جماعة بشرية حياة سويّة غير مفتقرة لمقوّمات الآدمية، يتطلب الأمر أن يحاول الفرد وتجتهد الجماعة في فهم البيئة الحياتية المحيطة. والاجتهاد في الفهم هنا لا يعني أكثر من التعامل مع تلك البيئة المحيطة بأداة العقل .. المنقذ من المهالك. فالعقل، كما قد يوافقنا القارئ، هو بصر الروح. وما لم تكن الروح راغبة - من فرط كسل أو فرط بلادة أو فرط ارتعاب - في السير وهي مغمضة العينين، غير مبصرة، والتعرّض بذلك للخطر الحقيقي للغاية الذي يجب أن يتوقعه كل من سار في الطريق مغمض العينين، وهو أن يسقط في بالوعة، أو يتردّى في حفرة، أو تدهسه سيارة مسرعة، ما لم تكن الروح راغبة في ذلك، تعيّن الوعي بأنها محتاجة إلى الفهم. وفي زمان مضى، عندما كان المصريون يهتمون اهتماما حقيقيا بشغلة الحياة، كان "الفهم" لديهم مرادفا للعقل، ومن فرط اهتمام به تصوّروه في صميم الجسد الحيّ، في القلب. فروح الانسان، متى كان راغبا في أن يظل انساناً، تظل محتاجة إلى العقل والفهم كيما تتعامل تعاملاً إنسانياً سويّاً غير أعمى وغير ملتاث مع البيئة المحيطة، أي العالم الخارجيّ المليء بالبالوعات والحفر والشرور والوحوش الضارية.

ومتى سلّمنا بهذه الحقيقة الأساسيّة، وهي أن الحفاظ على آدميّة الفرد والجماعة، والحرص على البقاء والنجاة من المهالك يقتضيان الاجتهاد في فهم البيئة المحيطة، بات من الواضح الجليّ الذي لا يحتاج إلى برهان أنه يتعين فهم الظواهر الخطرة الماثلة في تلك البيئة - ولو من قبيل الفضول والتوق إلى المعرفة اللذين بدونهما كان الإنسان مخلوقاً مُشعِراً كريهاً محنيّ الظهر وكان حرياً بأن يظل كذلك ويظلّ مهمهماً في كهف معتم من المخاوف والظُلمة زاحفاً تحت أقدام "القوى الخفيّة" - ويتعيّن فهمها، تلك الظواهر الخطرة، وسبر غورها، بالعودة إلى منابعها والنبش في "تواريخها القديمة".

والذي قد لا يتوه عنه العقل، في محاولته فهم البيئة المحيطة والوعي بمخاطرها المميتة، أن "العهد القديم"، العمل الأدبي المؤلّف الذي حُرّر ورُوجع عشرات المرات والذي لا تكفّ الأقلام النشطة الملتزمة عن ترجمته وإعادة ترجمته عشرات المرات عملا

علي إخراجه – كأي عمل أدبي مؤلّف – في طبعة تلو طبعة منقحَة مزيدة مراجعة مجتزأة، تبعاً لمقتضى الحال، كتاب تلقى دراسته ضوءاً كاشفاً قوياً على الكثير المحيِّر من ظواهر البيئة المحيطة وعلى منابعها الكامنة في "تواريخها القديمة".

ومن تلك المنابع الطموحات السياسية والشهوات المتعلقة بالأرض والثروة وإقامة المُلْك، ومنها الاعتقادات الضاربة في القدم القائمة على الإيمان بمضاء سلاح السحر، ومنها أيضا العمق الجنسيّ لذلك المؤلَّف الفريد الذي بات مستخدماً كدليل عمليّ متمتّع بحصانة القداسة في العملية الكوكبية الشاسعة المتجهة إلى تنفيذ ما هو موصوف بإلحاح وبمنتهى التقوى بأنه الغرض الحقيقيّ للخالق ومخططه لكل خليقته.

سعياً إلى استكشاف ذلك العمق الجنسي واستظهار مدى صلاحية الفرض القائل بغلبته ومضائه أو عوار ذلك الفرض، انصرف الجهد في هذا البحث إلى محاولة الوقوف على ما إذا كان هناك وجود لرابطة سحريّة/جنسية بين المعبود والعباد، وذلك من خلال استقصاء أية تجلّيات لرابطة ذلك شأنها في النص المؤلَّف، ومحاولة الوقوف على مترتباتها بالنسبة لتوابعهم الأغيار الملتزمين بهم العابدين للمعبود بالوكالة من خلالهم، وبالنسبة للمنكوبين من أغيار آخرين.

وكما قد يلاحظ القارئ، كانت المادة الأساسيّة للبحث، أي مصادره الأوليّة، النصوص المؤلّفة ذاتها كما هي موثّقة بأرقامها وأسفارها في المتن، أما المادة الثانوية المرجعية فكانت – في معظم الأمر – أبحاث ومؤلّفات أعلام من القوم أنفسهم مباعدَة للباحث والبحث عن شبهة التجني أو الافتئات في مجال بالغ الحساسية كهذا، وهي مباحث ومؤلّفات أوردنا بياناتها الببليوغرافية في القائمة الواردة بآخر الكتاب.

مارس/آذار ١٩٩٧ **شفيق مقار**

الباب الأول

قبل القضيب الإلهيّ كان الرحم الكونيّ

مدخل

قبل قرون عديدة من وقوع موسى على معبود المديانيين العرب يهوه وعودته إلى مصر مؤكّدا – لمن أسمتهم التوراة بـ"الآراميين التائهين" من الرعاة الساميين الذين تسربوا من الصحراء هربا من الجوع واستقرّوا في شرق الدلتا ليظلّوا على مقربة من الصحراء، في ظل الرعاة الساميين الهكسوس، وتلبّثت فلولٌ منهم بعد طرد أولئك المغيرين – أنه "التقى إله آبائهم في صحراء سيناء"، وأن ذلك الإله "كلفه بإخراجهم من مصر" (كما حكت التوراة)، كان إنسان الشرق الأدنى القديم – في معرض سعيه الأسطوريّ إلى عبادَة القوى الخفيّة وقوى الطبيعة اتقاءً لشرِّها ولوذاً بحماها – قد صنع لنفسه إلاهات إناث عرفن في تاريخ الديانات بأسماء عديدة أكثرها شيوعا "الإلاهة الأم"، و"الأم العظمى"، وعرفن في أسفار "العهد القديم" بأشيرا وعشتروت وملكة السموات.

في غمار ذلك المسعى، الذي أوصله الفكر الدينيّ المصريّ إلى ذروته بمفهوم التوحيد، فسبق كل فكر دينيّ آخر وأضاء له الطريق وأغدق عليه من كنوزه، أظهر الإنسان ميلاً قوياً ومستمراً إلى تصوّر القوى الخفية وقوى الطبيعة التي ظل يتخذها معبودات له تصوراً تشبيهياً (أنتروبومورفيا) بات سمة ملازمة لما لم يكفّ عن إبداعه أسطورياً من معبودات.

وفي سياق تلك التشبيهية، بدا للإنسان القديم أنه توصل بأساطيره إلى حلّ لغز المنشأ : لغز وجود العالم وظهور المخلوقات، من خلال إسقاط خبرته الإنسانية على عملية "ولادة" العالم وكلّ حي، وتحويلها بذلك إلى عملية إخصاب جنسي، وحمل، وميلاد من رحم أمٍ أولى كونيّة.

ولقد كان ذلك من أكثر الأشياء طبيعية بالنسبة للعقل القديم. فعملية الحمل والولادة بدت للإنسان القديم، فيما توقفنا عليه تماثيله مضخمة الأعضاء الأنثوية(*) وأسطورياته، كظاهرة خارقة محفوفة بالأسرار. وكان الأكثر من ذلك طبيعية أن تتخذ القيمة السحرية لدور الذكر في الإخصاب مكانة ثانوية بإزاء دور الأنثى في الحمل والولادة، إن لم يكن لشيء فلطول مدة الحمل، وللتغيّرات الملموسة المرئيّة المتعلّقة بالوظائف الجسدية للأنثى.

فابتداءً، كان من دواعي العَجَب (والخوف والتفكّر فيما قد يكون وراء ذلك من أسرار غامضة) أن المرأة تنزف دما (تحيض) ولا تموت، في حين يموت الرجل عندما ينزف ما لم يتداركه سحرٌ قويٌّ يوقف نزف دمه وينقذ حياته. ومما جعل الأمر أشد مدعاة للاعتقاد في وجود أسرار غامضة والإيمان بتمتّع الأنثى بقوىً سحرية خاصة تتجلى في قدرتها على أن تنزف دون أن تموت، أن ذلك النزف الشهريّ ارتبط بالقمر ودورته الشهرية

(*) انظر، مثلا : Marija Gimbutis: "The Language of the Goddess", Harper & Row .

ارتباطاً نجده مذكوراً بالحاح، باعتباره ذا مضامين سحرية بالغة القوة، في معتقدات وديانات وأساطير، بل و"علوم"، شعوب كثيرة. فبليني[٣]، مثلا، كرّس فصلا كاملاً من مؤلفه الكبير، "التاريخ الطبيعي"، لذلك الاعتقاد بسحرية ارتباط دورة الطمث ودورة القمر، أورد فيه قائمة طويلة بالغة الإمتاع من القدرات الخيّرة والقدرات الشّريرة للمرأة الطامث، كقدرتها على إماتة النباتات وبخاصة الكروم بمجرد اللمس، وجَعْلها النحل يهجر خلاياه بمجرد مرورها بقربه، وجعل المخمل الأرجواني يفقد لونه الدمويّ بمجرد وضع يدها عليه، وجعل الأقمشة الكتانية تسود بمجرد وضع إصبعها في ماء غسيلها، وجعلها المهرة الحامل تجهض، ومنها أيضا قدرتها على تخليص الحقول من آفة الجرذان بالدوران حول الحقول عارية قبل طلوع الشمس، وقدرتها على تهدئة العواصف في البحر بتعرية فرجها في وجه العاصفة، وقدرتها على شفاء الدمامل والعقم بمجرد اللمس. ونحن واجدون ذلك الاعتقاد في سحرية الطمث والولادة ماثلاً بقوة في "التوراة" في التابُو المتعلّق بـ"نجاسة المرأة"،[*] وواجدونه أيضا فيما يؤكّده التلمود من أن مرور امرأة طامث بين رجلين مفضٍ لا محالة إلى موت أحد الرجلين.[٤]

جنبا إلى جنب مع هذه الرؤية السحريَّة لظاهرة النزف الدوريّ عند المرأة، ظلّت هناك الغوامض المتعلّقة بالحمل والولادة، من تضخم بطن المرأة بالجنين، إلى ما يطرأ عليها من تغيّرات جسدية خلال الحمل، إلى أوجاع المخاض، الى بزوغ حياة جديدة من فرجها على شكل انسان مصغّر مربوط اليها بحبل دمويّ، إلى امتلاء ثدييها باللبن، وإرضاعها الوليد.

كل تلك الغوامض جعلت الانسان القديم يربط ما بين الأنوثة وبين مجيء المخلوقات الى العالم. وكدأبه الذي توقفنا عليه كل أسطورياته، ترك الانسان القديم إبداعه الأسطوريّ يحل له لغز ذلك المجيء إلي العالم باعتقادٍ في ألوهة إلاهة أُمّ، رَبَط ما بينها وبين الأرض التي تنبت منها الحياة وتعود اليها الحياة بعد أن تذوى وتموت. فالاعتقاد بخواص سحرّية رآها العقل القديم ناطقة في وظائف جسد الأنثى كان معبراً قصيرا إلى الاعتقاد بوجود قوة خفيّة أنثوية كونيّة بدا للانسان أنها لا بد كامنة وراء كل ذلك الظهور للحياة الجديدة و"الابتلاع" للحياة القديمة، أي وراء أشد ظاهرتين من ظواهر الوجود إثارة للحيرة والخوف : الميلاد، والموت.

تلك الحيرة وذلك الخوف وما حاول العقل القديم أن يستولده من إجابات أسطورية شافية على ما ظلا يثيرانه من تساؤل، كانت كلها المحفز الذي قاد إنسان الشرق الأدنى القديم، في "واحات" الحضارات العليا، مصر، وأرض الرافدين، وكنعان، إلى التقدّم – في معرض سعيه اللحوح إلى استجلاء ما وجده محيطا به من أسرار – من مرحلة

---

[*] انظر في ذلك : "السحر في التوراة والعهد القديم" – تحت "تابُو الطمث والولادة" ص ص ٤٣٤–٤٣٦.

الاسقاطات التشبيهية لخبراته البشريّة الخاصة بالاتصال الجنسيّ والإخصاب والحمل والولادة – تلك المرحلة التي بلغت ذروتها في الاعتقاد البدئيّ المصريّ بأن العالم وُجد نتيجة لاتصال جنسيّ كونيّ بين الإله جبْ والإلاهة نوت – إلى مراحل من التأمل الفكريّ والإبداع الأسطوريّ كان من المقضي به أن تفضي، كما أفضت في حالة الفكر الدينيّ المصريّ في أزمنة مبكرة للغاية، إلى رؤية توحيدية للقوة الخفية التي أوجدت الكون وأنجبت المخلوقات.

غير أن تلك الرؤية اتخّذت –في بداية رحلة التأمل الفكريّ والإبداع الأسطوري– منحى غير ما يتداعى إلى الذهن الآن كلما جاء ذكر للفظ "توحيد". فذلك التوحيد الأسبق والأول كان إعلاءً لألوهة مؤنثة، أي ألوهة "الإلاهة الأمّ العظمى".

ولقد كان ذلك تطوراً منطقياً ومتسقاً مع ما تلمّسنا بعض ملامحه من عَجَب وصل إلى حد قاد إلى الاعتقاد في وجود سحرٍ قويّ، وتساؤل عما قد يكون وراء عملية الحمل والولادة ودور الأنثى في ظهور الحياة الجديدة من أسرار خبيئة قاد الى الانسحار بوظائفها الجسدية الأنثوية والنظر الى تلك الوظائف ونتائجها بوصفها خوارق متجددة يترتب عليها ظهور بشر جدد صغار من الخواء أو العدم.

فتحت تأثير ذلك العَجَب، وفي خضم ما أثاره من تساؤل، انصب اهتمام العقل القديم – في تقدّمه من مرحلة إسقاط الخبرة الإنسانية تشبيهيا على ظواهر الخلق، إلى مراحل التأمل النظري في تلك الظواهر وإعمال المخيلة الجَمْعية المبدعة للحلول الأسطورية لغوامض العالم بحثاً عما قد يكون مُحدِثاً لتلك الظواهر – على الدور الغامض والمبهر للأنثى بقدرٍ جنب من دائرة الاهتمام والتأمل دور الذكر في عملية الإخصاب، وهي – بطبيعتها – عملية لا يصحبها ما يغلّفها بغوامض تركّز الاهتمام عليها.

وعلى الرغم من أن الفكر الديني المصري لم يطُل به الوقت قبل أن يصل الى تصور خالق مذكّر، هو الإله أتوم، ويراجع بذلك التصوّر الأسطورية البدئية الخاصة بمنشأ جب (الإلهُ الأرض) وأخته نوت (الإلاهة السماء)، فيجعل منهما الإبن الأول والإبنة الأولى لأتوم، فإن هناك من الأدلة القوية، كما يقول فرانكفورت(٥)، ما يشير إلى سَبْق عبادة الإلاهة الأم العظمى، إيزيس (آست)، التي قُدّست بوصفها عرش مصر المؤلّه. وهو ما قد يكون له سند قويّ من الطريقة التي كُتِب بها اسم الإلاهة ذاته هيروغليفيا بـ "حروف" تعني "العرش"، ومن تصويرها دائما، حيثما لم تكن متوجة الرأس بقرص الشمس بين القرنين، برمز العرش على رأسها. والذي يقوله فرانكفورت أن العرش كان عند المصريين "فيتش" (Fetish، أي شيئاً مادياً اعتبر مشحوناً بقوى سحرية فعالة)، وأنهم قدّسوه باعتباره محتوياً على القدرة الخفية المكوِّنةَ للمُلْك. فالأمير الذي يجلس عليه، يصبح – بمجرد جلوسه عليه – فرعون مصر، ويصبح – بذلك – ابن رع الإله الشمس، ونائبا عن رع في حكم مصر. ومن هنا باتت إيزيس، آست "العرش الصانع للملك"، الأم العظمى المخلصة لابنها حورس، والزوجة المتفانية عبر كل عذاباتها في حب أخيها وزوجها أوزيريس (أُسير، أُسار، أُوسير).

وتماماً كايزيس، الإلاهة العرش، اعتُبرت نوت (الإلاهة السماء) إلاهة أم، كتجلٍّ من تجلّيات أمومة آست (إيزيس). وفي ذلك، اختلف الفكر الدينيّ المصريّ اختلافا جذريا عن الفكر الديني للثقافات الأخرى في الشرق الأدنى القديم. ففي تلك الثقافات، كانت الإلاهة الأمّ العظمى هي الإلاهة الأرض التي تبزغ الحياة منها وتؤول الحياة اليها عند الموت. لكن الفكر الدينيّ المصريّ جعل ألوهة الأرض مذكّرة، وجعل لها إلها مذكّراً هو جب، في حين جعل السماء، أي الجَلَد، إلاهة أنثى هي نوت. ومن عملية الجماع الكونية بين جب ونوت، وُجد العالم في الأسطورية البدئيّة التي ما لبث الفكر الديني المصريّ أن عدّلهاَ بإنجاب خالقَ مذكّر هو الإله أتوم لكل من جب ونوت ليصبحا إبنا وإبنة له.

فلِمَ كان اختلاف الفكر الديني المصري عَن فكر الثقافات الأخرى في العالم القديم؟ لسببٍ جوهريٍ لا يجب أن يغيب عن الذهن كلما تعاملنا مع الديانة المصرية، هو الإيمان بخلود الروح والحياة الأخرى والانبعاث بعد الموت. فالثقافات التي رأت في واقعة الموت انتهاءً نهائياً للحياة، كان من الطبيعي أن تعتبر الأرض منشأ للحياة (العضوية) ومآلا نهائياً لتلك الحياة على النحو الذي نجده في مفهوم "الجب" و"الهاوية" و"شيول" في عقائد الرافدين وفي الديانة اليهودية.

أما في الديانة المصرية، فقد ظلت الحياة، من أقدم عصور تلك الديانة، "نفخة إلهية" في طين الانسان، وظل الموت انتقالاً لا انتهاءً للروح. ولذلك مثّلت نوت، الإلاهة السماء، الوجه الآخر من أوجه الإلاهة الأم العظمى (إيزيس). فإيزيس اعتبرت "الإلاهة واهبة الحياة"، ونوت ظلت الإلاهة التي كان المصريون يؤمّنون لأرواحهم الصعود (إلى السماء، لا الإندثار في طين الأرض) بعد الموت برسم صورة لها باتّساع توابيتهم، حتى يستقر الجسد، عندما يسجى في التابوت، بين ذراعيها فيعود، الميّت إلى الإلاهة، أي الى الأم التي وهبته الحياة، ويؤمّن – بذلك – الخلود لروحه.

في هذا الاعتقاد المصريّ الضارب في القدم، تجّسد تصوُّر المصريين للبعث كميلادٍ ثان يعود من خلاله الميت إلى الرحم الذي "ولد منه كل حي"، رحم الإلاهة الأم العظمى، ليُولد من جديد. وفي إطار ذلك الاعتقاد، يوجد ما لم يعد سبيل إلى دحضه من أدلة على أن عبادة الإلاهة الأم العظمى، بهذا المفهوم السماوي المعلّى القائم على "نَفَس الحياة"، والروح، وبقاء الروح، سبقت في مصر عبادة الإلة الشمس رع. فهناك الآن تسليم عام بين الدارسين بأن إلاهة المصريين الأم العظمى كانت إيزيس التي انتشرت عبادتها إلى ما وراء حدود مصر فوصلت حتى إلى اليونان والرومان، والتي لم يحدث لها ما حدث لكل ألوهة مؤنثة بعد الاجتياح الباترياركي (التحوُّل إلى عبادة الألوهة المذكّرة)، فهي لم تعطَ – بعد ذلك الاجتياح – مكانة ثانوية في الديانة المصرية، بل ظلّت – في أسطورية أوزيريس، عندما أُعِليت عبادته – الإلاهة الأم العظمى واهبة الحياة، وهي التي جمعت أشلاء أوزيريس بعد قتله وأعادت الحياة إليه.

والواقع أنه قبل قرون عديدة من ادّعاء الكاهن المصري الآبق موسى بأن إلهاً لم يكن أحد يعرفه قبلا فاجأه في الصحراء وقال له "أنا هو"(*)، سبقته إيزيس إلى ذلك الإعلان السياديّ للألوهة بقولها "أنا هي المبدأ والمنتهى":

"أنا هي الأم الطبيعية لكل موجود، أنا هي سيدة كل العناصر وحاكمتها، أنا هي منجبة كل العالمين، القادرة على كل شيء، ملكة ما تحت الأرض، وسيدة كل ما في السماء، المتجسدة فيّ وحدي كلّ الإلاهات وكلّ الآلهة، وأنا هي التي بمشيئتها تتحرك الأفلاك في السماء، وتهبّ الرياح على البحار، ويسود الصمت في العالم السفلي. أنا هي المعبودُ اسمُها المقدّسة ألوهتها في كلّ أنحاء الأرض بطقوس عديدة وأسماء كثيرة"(٦).

وهذه كلها اختصاصات إلهية أُخِذت من عبادة الإلاهة الأم العظمى (إيزيس، في هذه الحالة)، وأعطيت للمعبود المذكّر يهوه في سياق محاولة موسى عديمة التورّع، لمآربه السياسيّة الخاصة، إسباغ هويّة "إلهية" محترمة ترفع يهوه من مستوى الوثن القضيبيّ الذي عبده المديانيون العرب بذلك الاسم أخذاً عن المؤابيين الذين عبدوا وثنهم باسم بعل فغور.

ولا غرابة أو تجديد في ذلك الاختلاس الديني. فموسى قد سار في ذلك على درب كل كهنة الشرق الأدنى القديم – ألفّوا أسطوريات معبوداتهم اختلاساً، استنساخا من أسطوريات من سبقوا تلك المعبودات من آلهة وإلاهات، على النحو الذي يستوضحه الباحث إدوارد كيبيرا(٧) فيما كتبه عن أسطورة الخلق السومرية/البابلية/الآشورية، "عندما في العلى"(**) قائلا إن مردوخ، الإله المُحِدث نعمة نسبياً، لم يكن من حقه أن يغتصب لنفسه (أو، بالأحرى، يغتصب له كهنته الذين ألفوا أسطوريته، مثلما ألّف موسى أسطورية يهوه) صفة "خالق العالم" ممن سبقوه من الآلهة خالقي العالم ذوي الأسطوريات الأقدم، تماما كما لم يكن من حق آشور أن يدعيّ له كهنته صفة "الرب الأول" بمجرد أخذهم لألواح الأسطورية البابلية واستنساخهم إياها واضعين اسم آشور محل اسم مردوخ.

وذلك عين ما فعله موسى وكهنته اللاويون خلال عملية طويلة معقدة كثيرة الالتواءات والمنعطفات جمّعوا عبرها أسطورية دينية مهيبة لوثنهم القضيبي يهوه عن طريق إحلالهم اسمه محل أسماء مردوخ وإيل وحداد وبعل صفون وأوزيريس ورع في كل ما انتقوه واستنسخوه له من عبادات أولئك الآلهة الذكور(***)، ومحل أسماء إينانا وإيزيس

(*) وفي سفر إشعياء قول كاشف للمعنى: "أنا الربّ الأول، ومع الآخرين أنا هو" (إشعياء ٤١ : ٤) وهو ما يعود يهوه فيؤكده على لسان إشعياء قائلاً: "أنا هو. أنا الأول وأنا الآخر" (إشعياء ٤٨ : ١٢).

(**) ارجع إلى: "قراءة سياسية للتوراة"، ص ١٥٠ – ١٦٥.

(***) المرجع السابق نفسه، الصفحات المبينة بالفهرس الأبجدي تحت أسماء أولئك الآلهة.

وعشيرة وعشتار وعشتروت فيما اختلسوه له من عبادات الإلاهة الأم العظمى التي سبقت بقرون عديدة عبادات الإعلاء الباترياركي.

وإن كان مؤلّفو أسطورية يهوه قد تساهلوا في مواضع كثيرة فأفلتت في تأليفهم اشارات واضحة إلى أن يهوه نشأ بين حشد عميم من آلهة ذكور، مع التأكيد بأنه – فيما تبين من منجزاته – أوضح أنه "إله الآلهة"، و"الرب الأول"، و"الملك في مجمّع الآلهة"، فإنهم لم يبدوا أدنى استعداد للتساهل في حالة الإلاهة الأم العظمى التي أُجمِلَت بشكل عام تحت مسمّى "العشتاروت" أو "ملكة السموات"، بل عنوا عناية خاصة بمحاولة طمس وجودها ومحو كل أثر لها.

ومع ذلك، لم يفلح أولئك الكهنة الباترياركيون فيما أخذوه على عواتقهم من قضاء على كل ما من شأنه أن يكشف عن الوجود القويّ والفاعل للإلاهة في عبادتهم، بل وفي هويّة معبودهم. فتماما كما أفلتت إشارات واضحة وكاشفة (كما لاحظ كيرا في حالة مردوخ، وكما استوضحنا في حالتي إيل وبعل صفون بالذات(*)) سلّطت الضوء على أولئك الآلهة الذكور الذين نهبت أسطورياتهم لحساب يهوه، أفلتت اشارات أقلها واضح وضوحا لا يمارى فيه، وأكثرها معالج مموّه ملغز، إلى الإلاهة الأم العظمى.

– – – – –

(*) "قراءة سياسية للتوراة"، الصفحات المبينة بالفهرس الأبجدي تحت "إيل، إله الكنعانيين" و"بعل صفون".

١- يعقوب وبركات الثديين والرحم

الذي لا يغيب عن أي دارس للتوراة وسائر أسفار العهد القديم أن ذلك الخليط من التجميع الأسطوريّ والتأليف الأدبيّ الذي وصلنا تحت هذه المسميات كنتاج لعملية استمرت قروناً عديدة من الاستنساخ، والتأليف، والتلفيق، والمراجعة، والتحوير، والتحرير، والحذف، والاضافة، واعادة الصياغة، أُترِع - عبر تلك العملية وبخاصة على أيدي المحررين الذين أعطوه صيغته ولم يجدوا حرجاً في تمتينه باختلاق الأحداث وتلوين الشخوص - بقدر يمكن أن يصبح محبطاً للعقل من حيل الإرباك، والإتاهة، والتلغيز، والتمويه، والتعمية.

ولندع جانبا ما كسبه المحررون من مرونة اللغة وسهولة التجادل حول معاني كلماتها، وما اكتسبه تأليفهم وتحريرهم من احترامٍ وقداسةٍ بفضل التقوى والورع وانحيازات الشرّاح والمفسّرين والمعتذرين والمترجمين الإيمانية، ولنركّز على "السيناريو" التاريخي الذي وضعوه للديانة بكل ذلك التجميع والاستنساخ والتأليف والتحرير عملا على إرجاع بداية وجودها إلى بداية وجود العالم، أو إن توخّينا الدقة - إرجاع بداية وجود العالم إلى بداية وجود الديانة.

فذلك السيناريو، أو التاريخ المقدّس، علّم - وما زال يعلّم - أجيالاً وراء أجيال من البشر أن الوثن القضيبي "ياه"، "ياهو"، "يهوه" هو الله خالق العالم وما فيه ومن فيه، وأنه فعل ذلك حوالي سنة ٤٠٠٠ ق.م.، بل وقد تفضل بعض جهابذة اللاهوت فحددوا اكتمال هذا الانجاز الكوني باليوم والساعة : تمام الساعة التاسعة صباحاً يوم ٢٦ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق.م.! أي أن العالم لم يخلق إلا منذ حوالي ستة آلاف سنة. كما يعلّم ذلك السيناريو أنه عندما مارس ذلك المعبود شغلة الخلق التي، انخرط فيها طوال ستة أيام فتعب واستراح في اليوم السابع، فعل ذلك بـ"الكلمة" (قال ليكن فكان) وأن ذلك التكلّم الخلاّق كان باللغة العبرية التي باتت - لذلك - "اللسان المقدّس" إذ هي "لغة الله" وأول لغة تكلمها البشر - إلى أن حُلّت المشكلة بحكاية "برج بابل"(*) التي "بلبل" فيها يهوه ألسنة البشر فتكلموا كل أمة بلسان.

ويعلّم السيناريو أن "اليهود" (= مواطني "مملكة" يهوذا ٩٢٢ - ٥٨٦ ق.م) بدأ وجودهم على الأرض بصنع يهوه لمخلوقه الأول، آدم، وأنهم، منذ ذلك الوقت، لم يكن لهم إله إلا يهوه، وأنهم - ممثّلين في نوح وسلالته من ابنه سام، ثم في ابرام وسلالته من "الآراميين التائهين"، ثم في يعقوب وسلالته الذين تراوحت حكاية موسى في تسميتهم بين "العبرانيين" و "بني اسرائيل"، ثم في تلك الأشتات التي يحكي سفر الخروج أن موسى أخرجها من مصر - ظلّوا، من مبدأ الأمر، طيلة الوقت، بثبات وإيمان، يعبدون يهوه، حتى

(*) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة"، "حكاية برج بابل"، ص ص ١٩٩ - ٢٠١، ٢١٢، ٢١٤ .

وإن قال يهوه لموسى عندما التقاه قرب مضارب المديانيين، أنه لم يكن معروفا لهم من قبل (خروج ٦ : ٣).

ذلك السيناريو، مثلما أعطى "الشعب" أصولا عريقة ضاربة في القدم تعود إلى بدء وجود العالم والنوع البشري، بل وتجعل ذلك "الشعب" بداية للنوع البشري كله، أعطى "يهوه"، المعبود القَبَلي لـ"الشعب"، أصلاً عريقاً ضارباً في القدم هو الآخر، جعل بمكنة واضعي السيناريو أن يطلقوا عليه أسماء من قبيل "إله الآباء"، و"قديم الأيام". والأهم من ذلك أن عملية التجميع والتأليف والتحوير والتعديل والتحرير(*) جعلت بمكنة من اضطلعوا بها من الكهنة اللاويين أن يطمسوا هوية يهوه كنصب حجري على شكل القضيب المنتصب المختن كان يعبد، في بعض الطقوس، مغلّفاً بالذهب، وفي طقوس أخرى، كعمود حجري مغطى بالزيت، وأتاحت لهم أن يحولوا ذلك الوثن القضيبي الذي عبده المؤابيون باسم "بعل فغور" (أي "الرب السيد الفحل فاتح الأرحام") وأخذه عنهم المديانيون فعبدوه باسم "هوى"، "ياهو"، "يهوه"، إلى "إلهٍ متعالٍ سماويّ عالميّ

(*) فالمادة التي تألفت منها أسفار التوراة الخمسة، وأسفار يشوع، والقضاة، وراعوث، وصموئيل الأول والثاني، بكل ما جمّع فيها وعولج المرة تلو المرة من أساطير، وحكايات فولكلورية، استعيرت من ثقافات شعوب الشرق الأدنى القديم، و"تشريعات" إلهية استنسخت من الديانة المصرية ومن شريعة حمورابي، لم تتخذ شكلها الحالي الذي وصلتنا به إلا في آخر القرن الخامس قبل الميلاد بعد أن عملت فيها بنشاط أقلام عدة محررين أشهرهم الكاتب عزرا .

وفي تقييم تلك المادة، نجد أنه :

" لا يكاد يكون هناك من بات بوسعه أن يدّعي أي قيمة تاريخية للحكي عن خلق العالم (في سفر التكوين) وما أشبه ذلك من حكايات. وفيما يخص "الآباء" "ابراهام، واسحق، ويعقوب، ما زال هناك من المؤمنين المتصفين بالتصميم من يجد بمكنته الدفاع عن "حقيقتهم التاريخية والجوهرية"، إلا أن هناك من الأدلة ما هو أقوى على أن حكي التوراة عن أولئك "الآباء" إن هو إلا مجموعة من الحكايات الأسطورية عن شخصيات دينية فلسطينية اتخذها بنو اسرائيل، بعد غزو فلسطين، أسلافا لهم. وفي حبك القصة، كان لا بد من أن يساق أبناء يعقوب بفعل الجوع إلى مصر حتى يمكن الادعاء بأن من خرجوا من مصر وغزو فلسطين بعد ٤٧٠ سنة (٤٣٠ سنة "اقامة" في مصر و ٤٠ سنة "تيه" في القفر) كانوا سلالة يعقوب. وذلك على الرغم من أن يعقوبا وأبناءه لم يكد يستقر بهم المقام في مصر حتى فقد العهد القديم كل اتصال بهم أو علم باقامتهم، وهو ما يشير بوضوح إلى أنه لا وجود لتقليد متصل يربط ما بين "زمن الآباء" المدّعى حوالي ١٧٠٠ ق.م. وبين الخروج الذي يتعين، تبعا للتسلسل الزمني للتأريخ التوراتي أن يوضع تاريخه في النصف الأول من القرن الثالث عشر ق.م.

"..وسائر التفاصيل، بعد ذلك، خرافية .. فـ"العهد" الذي قطع في سيناء قد يكون اخترع اختراعا عملا على ادّعاء أصول موسوية لطقوس وشعائر كنعانية .. و"العهد" يعني الالتزام باطاعة القانون المقول بأنه "شريعة يهوه" رغم أن معبودا صحراويا كيهوه يستبعد أن يكون مشرّعا.." المصدر (المرجع رقم ٥) :

"The Columbia History of the World", Eds. J. Garraty & Peter Gay, Publisher: Harper & Row, N.Y. 1986, pp. 140/141.

محتجب"، لا جسديٍّ ولا جنسي. وبهذه الطريقة، توصل الكهنة إلى محو كل تلك القرون التي انقضت ما بين تعلّم موسى من يثرون الكاهن الأكبر للمديانيين عبادة ذلك الوثن، وبين صيحة إشعياء الثاني (أو اشعياء التثنية) المباغتة، في عصر السبي : "حقا إنك لإله محتجب، يايهوه" !.

ومثلما طمس المؤلفون والمحررون هويّة يهوه الأصلية، اجتهدوا في تمكين يهوه من استيعاب وابتلاع هويات آلهة الشرق الأدنى القديم التي اختلِست من مبدأ الأمر تشكيلا لهويته، عملاً على التخلّص من تلك الآلهة المنافسة التي وصفت في العهد القديم بـ"الدخيلة" و"الغريبة"، وأطلق عليها اسم عام شامل هو "البعليم"(*) (جمع "بعل" التي تعني "الرب، السيد"). وذلك تقليد أرساه في أسس الديانة أصلا الكاهن المصري الآبق موسى بكل ما لجأ إليه من اختلاس ديني وما استخدمه من حيل لطمس كل ما اختلسه من الديانة المصرية صنعا لأسطورية دينية رآها كفيلة باضفاء الاحترام والمصداقية على الوثن القضيبيّ الذي عاد بعبادته من اقامته الجبرية، هربا من انتقام كهنة آمون، بمضارب المديانيين.

والمشاهد في كل ذلك، كما لاحظ فرويد(٨)، أن حيل الإخفاء والتمويه وعمليات الطمس التي لجأ اليها الكهنة في عصر السبي أثناء صوغهم لكتاب الديانة في الصورة التي وصلنا بها، لم تكن بارعة كل البراعة أو محكمة غاية الإحكام. فتلك الحيل ظلت – في مواضع كثيرة من النصوص المعالجة – كاشفة عما أدخل على النصوص من تغيير وتعديل، مفصحةً عن عمليات المراجعة التي زيّفت النصوص عملا على جعلها متفقة والمرامي الخفية لمن قاموا بمراجعتها فحرّفوها، وشوّهوها، وزيّدوها، وانتقصوا منها، بل وقلبوها إلى عكسها. وفي نفس الوقت، أفلتت ممن حرروا النصوص، في مواضع أخرى، جمل، وعبارات، وفقرات، لم يتناولها الحذف أو التغيير، تسبب افلاتها في الكثير من تناقضات النصوص وكشف عن حقائق لم يكن من المقصود ولا من المرغوب فيه إطلاقاً الكشف عنها !

– – – – –

(*) ارجع في ذلك إلى "قراءة سياسية للتوراة"، بالفهرس الأبجدي، تحت بنود "إيل"، "بعل – بعليم"، "حداد"، "مردوخ"، "بعل صفون".
وارجع أيضا إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، بالصفحات ١٦٠، ١٧١-١٧٦، ١٨٠/١٨١، ٢١٩، ٣٢٣-٣٢٦.

(١/أ) الألوهة المؤنثة المطمورة في نصوص العهد القديم

من تلك الحقائق التي لم يكن من المقصود ولا من المرغوب فيه الكشف عنها في النصوص المعالَجة، لكنها انكشفت على أي حال، حقائق ينبغي أن تستوقف العقل في شأن الألوهة المؤنثة.

فعلى الرغم من الاجتهاد في إزالة أيّ أثر لأيّ "إلاهة" في كل موضع من النصوص كما وصلتنا في التوراة وسائر أسفار العهد القديم، يظلّ البحث الجاد يصطدم في تلك النصوص بإشارات بعضها، كما قلنا، واضح بما فيه الكفاية، وبعضها الآخر مموّه ملغّز مسدلة عليه أستار أشد كثافة من أستار قدس الأقداس، وكلها – سواء في ذلك الواضح أو المسدلة عليه الأستار – يكشف عن وجود الإلاهة في صميم أسطوريّة يهوه.

والمشاهَد الآن، في مجال البحوث التوراتية، أن هناك ميلاً إلى التسليم – بقدر كبير من الـ"موضوعية" التي من قبيل "مجبرٌ أخاك لا موضوعيّ" – بأن "الشعب" عبد إلاهة أنثى، مع التحفظ في معظم الاعترافات الموضوعية التي من هذا القبيل من خلال القول : (١) بأن ذلك كان في العبادة "الشعبية" لا في "الديانة الرسمية"، و(٢) أن ذلك الزيغ الشعبي حدث نتيجة لعيش "الشعب" بين الكنعانيين واتخاذ أبنائه زوجات لهم من بنات الكنعانيين. ومؤدى التحفظين أن عبادة الإلاهة عُرفت في "اسرائيل" بعد غزو كنعان والاختلاط بأهل البلاد الأصليين، وأن تلك العبادة لم تلوّث عبادة يهوه الرسمية التي ظلت على نقائها التوحيدي الباترياركي.

غير أن ذلك يتناقض تناقضا صريحا مع النصوص ذاتها.

فابتداء، ما زالت النصوص، رغم المعالجات المتلاحقة، تتضمن أقوالا "مقدسة"، يفترض – في حالة أسفار التوراة – أنها من إملاء يهوه ذاته على موسى، تقطع بأن يهوه لم يكن – كما أراد موسى أن يدّعي بما اختلسه له من صلوات مصرية – "الإله الواحد الوحيد الذي لا وجود لآخر (أو لأخرى) معه".

في سفر الخروج، مثلا، بعد أن "أغرق يهوه جيش فرعون في البحر "لحساب موسى و"الشعب"، لم يجد موسى ما يرنّم به تمجيدا ليهوه إلا قوله متفاخرا بيهوه، "رجل الحرب" : "من مثلك بين الآلهة، يايهوه" ! (خروج ١٥ : ٣ و ١١). فيهوه، إذن لم يكن وحده، بل كان إلها بين آلهة،[*] حتى وإن جعله الحكي يتفوق على كل أولئك الآخرين بفتوته الحربية. وكل ما في الأمر أنه، فيما ظل يؤكده لموسى، إله غيور تجعله الغيرة سيء الطبع متى استثير : "أنا يهوه إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع" (خروج ١٥ : ٥)، "لأن يهوه اسمه غيور. إله غيور هو" (خروج ٣٤ : ١٤).

(*) ارجع في تعدّد الآلهة في التوراة إلى "قراءة سياسية للتوراة" ص ص ٢١١ – ٢١٤ وما بعد .

وإعمالاً لتلك الغيرة (التي سيعود حزقيال، بعد موسى بقرون، فيحدثنا عنهـا حديثاً كاشفاً) أصدر يهوه تعليمات إلهية صارمة إلى "الشعب" عن طريق موسى : "لا يكـون لـك آلهة أخرى أمامي" (خروج ٢٠ : ٣)، "لا تسجد لآلهتهم (آلهة الكنعانيين) ولا تعبدهـا ولا تعمل كأعمالهم. بل تبيدهم وتكسر أنصابهم. وتعبدون يهوه إلهكم" (خروج ٢٣ : ٢٤ و ٢٥)، "احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فخا فـي وسطك. بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم. فإنك لا تسجد لإله آخر .. احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض. فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهـم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم. وتأخذ من بناتهم لبنيك. فتزني بنـاتهم وراء آلهتهـن ويجعلـون بنيك يزنون وراء آلهتهن" (خروج ٣٤ : ١٢ - ١٦)، وذلك هو عين ما حدث لآخـاب بـن عمري الذي ملك علـى اسـرائيل سنة ٨٧٥ ق.م. بسـبب زوجتـه ايزابـل ابنـة أثبعـل ملـك الصيدونيين (الملوك الأول ١٦ : ٢٩ - ٣٤)، وحدث قبله لسليمان ذاته الذي تـرك نسـاءه يملـن قلبـه وراء آلهـة أخـرى فذهـب وراء عشتورث إلاهـة الصيدونييـن وملكـوم رجـس العمونيين (الملوك الأول ١١ : ٤ و٥).

ولقد كان الذنب في ذلك "الزني" كله ذنب يهوه، في الواقع، لأنه لـم يـفِ بوعـده لموسى و"الشعب"، ولـم "يقرض" للقوم العموريين والكنعانيين والحثيين والفرزين والحوييـن واليبوسيين، ولـم "يطردهم"، بل ترك مهمة إبادتهم لــ"الشـعب" وقادتـه، فلـم يسـتطع حتـى يشوع السفاح أن يحقق ذلك الانجاز، مما اضطر "المؤرخ" المقدس إلى أن يتلمّس مخرجا ليهوه في تأليفه لسفر القضاة بقولـه إن يهـوه مـا تقـاعس عـن "قـرض" سـكان الأرض أمـام "شعبه" إلا ليمتحن ذلك "الشعب" :

> "فترك يهوه أولئك الأمم ولـم يطردهم سريعا ولـم يدفعهـم ليد يشوع (لـم يمكن يشوع من ابادتهم). فهؤلاء هم الأمم الذيـن تركهم الرب ليمتحـن بهـم اسـرائيل .. (هـؤلاء) كـانوا لامتحـان اسرائيل بهم لكـي يعلـم هـل يسـمعون وصايـاه التـي أوصـى بهـا آباءهم عن يد موسى"! (قضاة ٢ : ٢٣، و ٣ : ١ و٤).

ولـم يخطر لمن تلمّـس ذلـك العـذر ليهـوه فـي عـدم "قـرض" الكنعـانيين والحثييـن والعموريين والفرزين والحويين واليبوسيين كما ظل يعد ابتداء من خروج ٣ : ٨[*]، أنـه -

---

[*] ومن الطريف حقا أن مؤلف سفر التثنية الذي وضع بعد موسى بقرون وعزي إلى موسى فاته أن يغطي ذلك التناقض بين "تأريخ" سفر القضاة ووعود يهـوه فـي التـوراة بشـأن إبـادة أصحـاب الأرض مـن أمـام "الشعب" فوضع في النص ما زاد التناقض وضوحا وتحدّدا :

> "اسمع يا اسرائيل. أنت اليـوم عـابر الأردن لكـي تدخـل وتمتلـك شعوبا أكبر وأعظم منك ومدنا عظيمة محصنة إلى السماء .. فاعلم اليوم أن يهوه إلهك هو العابر أمامك نارا آكلة. هو يبيدهم ويذلهم أمـامك فتطردهـم وتهلكهم سريعا كما كلمك (وعدك) يهوه إلهك .. لكي يفي بالكلام الذي أقسم عليه لآبائك ابراهام واسحق ويعقوب" (تثنية ٩ : ١ و ٣ و٥).

وهو يتلمس ذلك العذر - فاته أنه كان من المفـروض إلهيـا أن يكـون يهـوه، مـا دام إلهـاً، قادراً على رؤية ما سوف يحدث في المستقبل وما سوف يفعله "الشعب" وغـير "الشـعب" في هذه الخصوصية أو تلك بغير حاجة إلى ذلك "الامتحان" الضار.

لكن لمؤلف ذلك الكلام عذره، فقد ظل الكهنة في مأزق حقيقـي تعلـق بمصداقيـة المعمار الروائيّ كله، بسبب تقاعس بطل الرواية، يهوه، أو عجزه عن تحقيق ما أكد موسى طيلة الوقت أن ذلك المعبود المحارب البطل رب الجنود وعد به من مذابح دمويـة شاسـعة وحاسمة تزيح من أمام "الشعب" كل أصحاب الأرض الأصليين، يقودها هو بنفسه كما قال موسى أن رب الجنود ذاك أكد له : "يهوه إلهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكـم" (تثنيـة ١ : ٣٠).

وبعقلية انسان العالم القديم، تمثّلت خطورة ذلك الفشل في إبادة أصحـاب الأرض وإزاحتهم من أمام "الشعب" في أن "الشـعب" كـان قـادرا علـى أن يسـتنتج لنفسـه بنفسـه الاستنتاج الوحيد الممكن من ذلك الفشل وهو أن سحر آلهة أصحـاب الأرض كـان أقـوى وأفعل من سحر يهوه.

ومتى جعلنا نصب أعيننا تأصّل المرامي السياسية والاقليمية المتعلقة بحيـازة الأرض وإقامة المُلْك في ظل هيكل يهوه الموحَّد الموحِّد، في صلب الديانة، وأخذنـا فـي الاعتبـار مدى فعاليتها كأسس جوهرية ودوافع رئيسية لصنع الديانة أصلا، أمكننا أن نقف على مـدى الخطورة التي انطوى عليها احتمال انصراف "الشعب" عن عبادة يهوه واستيعابه في عبادات آلهة أصحاب الأرض الأصليين. فما من شك في أن الكهنـة اللاويـين، أصحـاب المشـروع وأعظم المستفيدين منه، اعتبروا ذلك أكبر كارثة كان من الممكن أن تحل بهـم وتحرمهـم من جني ثمار مشروعهم الموسويّ بعد أن كانوا قد تمكنوا من البدء في عملية الاسـتيطان، وتمكنوا من إضافة السلطة الزمنية إلى سلطاتهم "الروحية" تحت اسم "القضاة".

وفي الصياغة النهائيـة لسـفر "القضـاة"، بعـد عصـر أولئـك القضـاة بقـرون، تلبثـت المخارج التي كان أولئك الكهنة الحكّام قد لجأوا اليها في مواجهـة "الشـعب"، حتـى وإن ناقضوا بها كل ما كان موسى قـد أكّـد أن يهـوه تعهـد لـه بـه، والتـي حـاولوا بهـا إعطـاء تفسيرات "لاهوتية" لعدم تمكّن يهوه من "قرض"، أي إبادة، سكّان البلاد الأصليين وإحـلال "الشعب" محلهم.

وفي سياق ذلك، يستطرد "المؤرخ المقدّس"، قائلا :

"فسـكن بنـو اسـرائيل فـي وسـط الكنعـانيين والحثّيـن والآموريـين والفرزيـين والحويـين واليبوسـيين. واتخـذوا بنـاتهم

فعلى ضوء هذا الكلام القاطع في سفر معتبر من أهم أسفار التوراة، يبدو الكلام الذي ماحك بـه مؤلف أو مؤلفو سفر القضاة شديد الشبه بما يصوّب إلى أدمغة الناس في زماننا من تلفيقات الإعـلام إبـان عمليات احتواء الضرر عندما ينكشف أمر جريمة أو أكذوبة أو تنفجر فضيحـة مـا، وهـو مـا يعـرف فـي الرطانة المعاصرة المتعلقة بعمليات غسل المخ بـ "Spin" .

لأنفسهم نساءً وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم. فعمل بنو اسرائيل الشر في عيني يهوه ونسوا يهوه إلههم وعبدوا البعليم والسواري". (قضاة ٣ : ٥ - ٧)

وبصرف النظر عن أن ذلك "المؤرخ" كان قد أرجع عدم وفاء يهوه بتعهده لـ"الشعب"، قبل حكاية "امتحان اسرائيل" بقليل، إلا أن "سكان الوادي كانت لهم مركبات حديد" (قضاة ١ : ١٩)، فإن الذي حدث، سواء كان ذلك بسبب عجز ربّ الجنود عن محاربة العجلات الحربية، أو بسبب رغبته في "امتحان" اسرائيل، تمثّل في بداية عملية استيعاب كان من الممكن إذا ما استمرت أن تنتهي بذوبان "الشعب" في الكنعانيين وانهيار الحلم الكهنوتي الموسويّ بإقامة المُلْك.

وبطبيعة الحال، لم يستسلم كهنة يهوه ولم يفرّطوا في حلم موسى، بل خاضوا غمار معركة طويلة ضارية مع "الشعب" الزائغ، ومع آلهة أصحاب الأرض الأصليين وكهنتهم المنافسين. وقد استمرت تلك المعركة طوال قرون حَكَم القضاة خلالها، وطالت، إلى عصر "الملوك"، وزمن "النبييم" "الأكابر" و "الأصاغر" على السواء،[*] كما يوقفنا هذا النص من سفر إرميا :

"انظروا هل صار مثل هذا أبدا ؟ هل بدلت أمة آلهة وهي ليست بآلهة. أما شعبي فقد بدل مجده بما لا ينفع .. شعبي عمل شرّين. تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آبارا مشققة لا تضبط ماء". (إرميا ٢ : ١١ و ١٣)

- - - - -

[*] ارجع في ذلك إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" تحت بنود "الكهنة"، و "صراعهم مع الشعب" و "صراعاتهم مع الكهنة المنافسين"، و "النبييم". بالفهرس الأبجديّ.

(١/ب) ثيمة الزنى الشائعة في "الأسفار المقدسة"

والذي لا ينبغي أن يغيب عن الذهن في تعاملنا مع "وقائع" ذلك التاريخ الطويل والدموي من الصراع الكهنوتي، أن كل ما وصلنا عن تلك الوقائع، ككل شيء آخر في نصوص التوراة والعهد القديم، معالَج، مموَّه، ملغزّ.

ولنأخذ مثلا تعليمات يهوه التي قرر موسى أنها صدرت إليه في النص الذي استشهدنا به من سفر الخروج (٣٤ : ١٢-١٦). في ذلك النص، استخدمت لفظة الزنى ثلاث مرات، وبالمثل استخدمت لفظة "السواري" (أي الصواري، جمع صارية)، في النص، بمعنى الأعمدة الخشبية، ثم استخدمت في نص سفر القضاة (٣ : ٥-٧) بمعنى الإلاهة الأنثى في قوله "وعبدوا البعليم (جمع بعل) والسواري (بمعنى العشيروث، جمع عشيرة)".

ولنعد إلى لفظة الزنى، وقد وردت في ترجمة الملك جيمس "go a whoring". من الواضح الذي ليس بحاجة إلى إيضاح أن اللفظة ليست من المصطلحات الدينية. وواضح أيضا (وقائلها "إله") أنه لو كان المقصود بها الكفر أو "الزيغ" أو الضلال لكانت أي كلمة من هذه الكلمات قد استخدمت وباتت أبلغ وأصدق تعبيرا عن المعنى الديني من الزنى أو الـ"whoring". فالزنا أو الـ"whoring" هو الفجْر الجنسي، التسيب الجنسي، ارتكاب الفحشاء والخيانة الزوجية، أيّ شيء إلا استبدال عبادة بعبادة أو إله بإله .. أو بإلاهة.

فما الذي جعل يهوه يستخدم لفظة "الزنى" هنا ؟

مفتاحنا إلى ذلك لفظة "السواري" (الصواري) التي أوضح معناها مؤرخ سفر الملوك الأول عندما تحدث عن سليمان فقال إن نساءه أملن قلبه وجعلنه "يذهب وراء عشتروث إلاهة الصيدونيين" (١١ : ٥).

فالكهنة المؤلّفون والمحررون - في حين أسهبوا في وصف أوجه الصراع مع "الآلهة الدخيلة والغريبة" - عُنوا عناية خاصة بتنقية النصوص من كل ما وجدوه حريا بأن ينزل بيهوه، الإله الذكر الفحل المحارب، الى مستوى الصراع مع إلاهة أنثى،(*) ولذا فإنهم - باستثناءات محدودة للغاية - صوّروا يهوه منخرطا في نضال بطولي مع آلهة ذكور - حتى وإن كانت على شكل سمكة كما صور الحكي داجون إله الفلسطينيين، غير عابيء إطلاقا لأي ألوهة مؤنثة.

ومع ذلك، كما قلنا أفلتت الألوهة المؤنثة من ذلك الحصار الكهنوتي، وظلت تطل بمفاتنها الأنثوية من وراء الأستار الكثيفة التي أسدلت عليها، رغم كل اجتهادات الكهنة وحيلهم.

ففي سفر التكوين، مثلا، و"الأب" يعقوب/اسرائيل على فراش الموت آخذ في مباركة يوسف، تباغتنا الإلاهة الأم بشكل غير متوقع اطلاقا في قول يعقوب :

(*) رغم استعارتهم بطولاته الحربية من إلآهة أنثى هي عانات، انظر ٦/أ/٦ أدناه.

"ومن القادر على كل شيء الـذي يبـاركك (أي إيـل إلـه اسرائيل، لكن المفروض - تبعا للصياغة التوراتية - أنه يهوه) تأتي بركات السماء من فوق، (وتأتي) بركات الغمـر الرابـض تحـت، بركات الثديين والرحم". (تكوين ٤٩ : ٢٥)

فلمن الثديان والرحم ؟ ليس ليهوه، بكـل تـأكيد، اللهـم إلا إذا جنحنـا إلـى الأخـذ بمفهوم الإله "الأندروجينـي" الخنثـى. فهـل كـان يعقـوب، متـى أخذنـا الكـلام الـوارد فـي الاصحاح ٤٩ من سفر التكوين ككلام قاله يعقوب فعلا وهو على فـراش المـوت، يسـتنزل على رأس يوسف بركات ثديي يهوه ورحم يهوه ؟ أم كـان، يـا تـرى، يسـتمد مـن التـراث الديني القديم الذي ملأ به قومه مخلاتهم الثقافية في غمار تيههم الطويل بـأراضي الشـعوب صاحبة الثقافات الدينية في الشرق الأدنى القديم، بركة رأى أن يضعها جنبا إلـى جنـب مـع بركة الإله الأب الذكر السماوي إيل، هي بركة الإلاهة الأم عشيرة ؟

لكن ذلـك - حتـى إذا سـلّمنا بمـا أراد مؤلفـو الحكايـات ومحرروهـا أن يجعلـوا قراءهم يسلّمون به، وهو أن "القادر على كل شيء الذي يبارك (يوسف) فتـأتي بركاتـه مـن السماء من فوق "كان يهوه الذي قال لموسى أن يعقوبا لم يكن يعرفه (خـروج ٦ : ٣)، لا إيل - تعيّن أن نتذكر أن ذلك كان قبل قرون بأكملها من اضطرار "الشعب "الى العيش بيـن الكنعانيين بسبب فشل يهوه في إبادتهم، وبالتالي قبل قرون من "زنى" بني اسرائيل وعبادتهم لعشيرة.

فهل كان "الآباء"، كما استمات مؤلّفو "التاريخ المقـدس" فـي تسـميتهم، يعبـدون ألوهة مؤنثة جنبا إلى جنب مع عبادتهم لحدّاد الذي أصبح بعل صفون، وإيل، وكـل أولئـك البعليم ؟

يقودنا القول الذي أفلت من مقصّـات الرقبـاء المحرريـن فـي سـفر الخـروج : "لا تسجد لهـن ولا تعبدهـن" (خـروج ٢٠ : ٥)، وترجمتـه ليسـت مؤنثـة اعتباطيـا بـل اتّباعـا للتأنيث في الأصل، إلـى الاعتقـاد بـأن "الآراميـين التـائهين"، كمـا أسـمت التـوراة "الآبـاء" وأبناءهم وسلالتهم، قبل الخـروج بقـرون، وقبـل موسـى ويشـوع والاسـتيطان فـي كنعـان بقرون، كانوا - كغيرهم من أقوام الشرق الأدنى القديم - يعبدون الإلاهة الأم.

فيما يكشف عنه البحث من عمليات الطمـس والإخفـاء طمـراً لتلـك الحقيقـة فـي وسائل الورع والتقوى، لم يُحسن مؤلفو الأسفار المقدسة تخليص التوراة والعهد القديم كله من وجود الإلاهة، أو - بالأحرى - لم يسـتطيعوا ذلـك نظـرا لاستحالته بغير إعـادة كليـة شاملة لتأليف سلاسل حكايات الديانة ابتداء من أسطورية الخلق (التكوين).

وذلك ما بات الباحثون، حتى اليهود منهم، يسلّمون به، من بـاب لا بـد ممـا ليـس منه بد، ولكن مع تحفظ يقول، كما أسلفنا، أنه حدث نتيجة عدوى من العبادات الكنعانية.

فالأستاذ باتاي، مثلا،[٢] يقول إنه كان مما لا مهرب منه أن تخترق عبادة الإلاهة الأم العظمى الكنعانية (عشيرة) التي قدّست في الكثير من أنحاء الشرق الأدنى القديم الأخرى غير كنعان، الديانة العبرانية أيضا. لكن ذلك الباحث الجاد والهام لا يخرج على العرف الذي اتّبع في ذلك التسليم بما لم يعد مهرب من التسليم به، فيضيف قائلا أن الوقت لم يظل بعد الغزو، خلال فترة "الاستيطان المختلط الاسرائيلي - الكنعاني" قبل أن يقع ذلك الاختراق جنبا إلى جنب مع التزاوج بين بني اسرائيل والكنعانيين.

- - - - -

[٢] ارجع في ذلك إلى ص ٣٨ من المرجع [١٧١] :
Raphael Patai: "The Hebrew Goddess", Wayne State University Press, Detroit 1990.

(٣) في البدء كانت الإلاهة ؟

إن كان قد ظل بالوسع التحدث عن "ديانة عبرانية"، فإن أصحاب الفضل في ذلك هم من وضعوا "التاريخ المقدس" بما ألّفوه من أسفار نسبوها إلى "الله" وما أبدعوه من نتاج أدبي أكملوا به صنع ذلك التاريخ الذي خلطوا في صنعه العصور ولفّقوا به الأصول ووفروا متصلية مفتعلة لسيناريو جعل من الوثن القضيبي يهوه الذي اكتشفه موسى وأنشأ حوله ديانة (حوالي ١٣٠٠ ق.م.)، إلهاً لمن ادُّعي أنهم "الآباء" (من ١٩٠٠ أو ١٨٠٠ ق.م.).

وبذلك ظل بالوسع إرجاع ما لم يعد هناك سبيل إلى الإعراض عنه أو تجاهله من أدلة على عبادة الإلاهة الأم إلى "عدوى" أصابت تلك "الديانة العبرانية" من عبادات كنعان في عصر القضاة وعصر "الملوك".

لكن معنى الأخذ بذلك التسليم بأن اصحاب "الديانة العبرانية" أولئك كانوا (وهذا هو ماانصرف الجهد في تأليف الكهنة وتحريرهم إلى قوله) "جنساً" فريداً من البشر، وجنساً ذا متصلية تاريخية لم تنقطع منذ خلق آدم، ومتصلية روحية لم تتغير منذ خلق يهوه العالم والانسان تمثلت في عبادة ذلك الخالق، يهوه.

وبهذا فعلاً يصبح القوم "جنساً أخصّ" و "شعباً مختاراً"، وابن الله البكر الذي خُلق العالم به، وخُلقت الخليقة ليتسيَّدها تماماً كما يؤكد سفر التكوين أن يهوه "قال لهم: اثمروا وتكاثروا واملأوا الأرض وأخضعوها" (تكوين ١ : ٢٨).

وهذه رؤية مثالية وضيئة ومبهرة بغير شك. ولكن هل هي صحيحة؟ لندع جانباً حكاية ظهور العالم من العدم وخلق الأحياء والانسان منذ أقل من ستة آلاف سنة، فهذه حكاية لعلها - بما انطوت عليه من سذاجة وجهل بالتاريخ الحقيقي للعالم في نص ادّعي له أنه من إملاء إله - من أقوى الأسباب التي أبعدت السواد الأعظم من المعاصرين عن الدين وجعلتهم ملاحدة، ولنركز على أولئك الآباء المدّعين الذين، عملاً على ادعاء أبوتهم لـ "الشعب"، حُوِّلوا من آراميين تائهين، وعموريين وحثيين (متى أخذنا بكلام حزقيال)، الى عبرانيين (متى أخذنا بكلام يهوه الى موسى قبل الخروج)، الى "بني اسرائيل"، الى "يهود".

تخبرنا التوراة أن مسقط رأس أبرام (أي "الأب المعلّى")، الذي تغير اسمه بعد أن تختن الى ابراهام (أي "الأب القوي المنجب لحشد من الأمم")، كان أور بأرض الرافدين (تكوين ١١ : ٣١). وطبقاً للحكاية التوراتية، كان أبرام - عندما أخذه تارح أبوه من أور الى مدينة حاران الكنعانية - رجلاً ناضجاً متزوجاً من امرأة آرامية مثله عاقر لا تنجب اسمها ساراي. وهو - متى أخذنا بحكي التوراة - دليل على أن "الأب" ابراهام كان قد عاش في رحاب الحضارة السومرية عدداً لا يستهان به من السنين، وعلى أن أباه تارح وعشيرته جميعاً كانوا قد عاشوا في رحاب تلك الحضارة وقتاً طويلاً قبل أن يهاجروا الى حاران.

ولنحاذر، ونحن نقرأ التواريخ التوراتية، مما هو متكاثر فيها جنباً إلى جنب مع حيل التعمية والتلغيز من أخطاء تاريخية، كالخطأ الذي وقع فيه مؤلف الجزء الخاص بالهجرة من سومر في سلسلة حكايات "الأب" ابـرام/ابراهـام، وربمـا محررهـا الـذي عالجهـا أو أعـاد كتابتها في بابل، إبان السبي، معتمداً في معالجته لها على مصادر بابلية، عندما دعـى مدينـة أور (في نص "مقدس" مفروض أن الذي أمـلاه إلـه عـارف بالتـاريخ) بـ "أور الكلدانييـن". فأور، عندما هاجر منها ابراهام وعشيرته في منتصف القرن العشرين أو مطلع القـرن التاسـع عشر قبل الميلاد كانت مازالت المدينة/ الدولة السومرية الرئيسـية ولـم تكـن قـد أصبحـت "كلدانية" بعد، حيث لم يرتفع نجم أسرة بابل الكلدانية وتـأخذ فـي بسـط نفوذهـا إلا بعـد سقوط الدولة الأشورية سنة ٦١٢ ق.م.

فابرام/ ابراهام، عندما هاجر مع عشيرته بسـبب المتـاعب التـي تحلّقـت أسـرة أور السومرية الأكّدية الثالثة، كانت هجرته من بيئـة تسـيدتها الثقافـة السـومرية. ولـم يكـن مـن المتصور أن يكون قد هاجر وهو خالي الوفاض ثقافياً بعد إقامة طويلـة مسـتقرة فـي رحـاب السومريين. والذي يوقفنا عليه العلم أن العشيرة عندما خرجت من أور خرجت بثروة تمثلت فيما كانت قد اكتسبته من الإبداع الفكريّ والدينيّ للثقافة السـومرية/ الأكّديـة وأسـاطيرها التي تعلمها ابراهام وقومه والتي نجد بصماتها واضحة قوية في أكثر مـن موضـع فـي العهـد القديم، كما في أسطورة الطوفان مثلا(٩).

وما من شك في أن أقلام المؤلفيـن الكهنـة التـي سـجلت وحـررت مـاظل متنـاقلاً كتراث شفهي من تلك الأساطير قد فعلت فعلها أيضاً في سلسـلة حكايـات ابراهـام وسـائر "الآباء"، فرفعت منها الكثير وأضافت اليها الكثير. لكن ذلك – في النهاية – لم يجد كثيراً، إن لم يكن لشيء فلتلك الخصلة المزعجة التي تتصف بها الحقيقة فتجعلها تفلت بعنـاد مـن حصار التعمية والتلغيز، سواء كان ذلك الافلات بفضل الورع والتورع أو كان نتيجـة لعـدم إحكام الرقابة.

من المواضع التي أفلتت فيها الحقيقة، سلسلة حكايات "الأب" يعقـوب/ اسـرائيل. ففي تلك السلسلة نجد حكاية توقفنا على معنى قول يهوه لـ "الشعب" في سفر التثنية "لئـلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً، صورة مثـال مـا، شبه ذكـر أو شـبه أنثـى" (تثنيـة ٤:١٦)، هي حكاية الترافيم التي سرقتها راحيل من أبيها لابان، والتـي تزيـل أي لبـس فيمـا يتعلق بتحذيره الذي سبقت الاشـارة اليـه فـي قولـه لموسى "لا تسـجد لهـن ولا تعبدهـن" (خروج ٢٠ : ٥).

في تلك الحكاية، سرقت راحيل، ابنة لابان خال يعقـوب، "أصنـام أبيهـا" (تكويـن ٣١ : ١٩). وعندما اكتشف "لابان الآرامي" السرقة، واجه ابن أختـه يعقـوب قـائلاً "لمـاذا سرقت آلهتي؟" فأجاب يعقوب قائلاً "الذي تجد آلهتك معـه لا يعيـش (يقتـل). ولـم يكـن يعقوب يعلم أن راحيل سرقتها". وعندما فتش لابان الجميع، لم يجد آلهته، لأن ابنته راحيل "كانت قد أخذت الأصنام ووضعتها في حداجة الجمل وجلست عليها. فجـس لابـان كـل

الخباء ولم يجد. وقالت راحيل لأبيها لا يغتظ سيدي أني لا أستطيع أن أقوم لأن عليّ عـادة النساء. ففتش ولم يجد الأصنام" (تكوين ٣١ : ٣٠-٣٥).

- - - - -

(٢/أ) ترافيم لابان المخبأة تحت عجز راحيل

"آلهة" لابان الآرامي، خال يعقوب، هذه إذن كانت "أصناماً"، أي تماثيل حجرية صغيرة، أو "ترافيم" كان من الممكن أن تخبأ في حداجة جمل، وتجلس فوقها راحيل.

فتماثيل أية معبودات كانت تلك الترافيم؟ ولم انزعج لابان كل ذلك الانزعاج عندما اكتشف أنها سرقت منه؟ ولماذا سرقتها راحيل(*) ؟

قد نتلمس طريقنا الى الإجابة على التساؤل الأول، عبر إجابة على التساؤلين التاليين له. ولنبدأ من سبب سرقة راحيل لها. يرى ابن عزرا أن راحيل سرقت ترافيم لابان حتى لا يتمكن هذا الأخير من الوقوف عن طريق سحر تلك الترافيم على خط سير يعقوب في هربه من مضارب لابان(١٠). وهو ما يعني أن تلك التماثيل كانت أوثاناً "عرّافة" كاشفة للغيب، وهو ما يعززه قول لابان ليعقوب قبل ذلك بقليل أنه تبين عن طريق "العِرافة "أن الإله (إيل) قد باركه بسبب حلول يعقوب بمضاربه، وهو القول الذي أخذ المترجمون إلى العربية على عواتقهم - تحت تأثير الورع - طمسه بتغييره إلى "قد تفاءلت فباركني الرب بسببك"! (تكوين ٣٠ : ٢٧) وأخذ مترجمو نص الملك جيمس على عواتقهم أيضاً مهمة تغييره من "learned through augury" إلى "I have learned by experience" ولولا أمانة المعلق التوراتي ابن عزرا لكان المعنى قد ظل مطموراً في رمال هذه البراعة من جانب المترجمين حرصاً منهم على "عفة" النص!.

أما يوسف ابن ماتياس، فيقول في "التواريخ القديمة" (Antiquities)(١١) أن راحيل سرقت الترافيم لتوفر لها حماية أثناء الهرب من مضارب أبيها، رغم أنها "لم تكن مؤمنة بها"! فراحيل، طبقاً للحكاية، كانت "موحّدة" تعبد إلهاً مذكّراً (هو إيل، الذي بذل محررو

(*) والغريب في شأن "حيرة" كثرة من الباحثين فيما تعلق بتلك الترافيم في سياق سلسلة حكايات "الأب" يعقوب أن أحداً منهم لم يتوقف عند: (١) واقعة تخبئة الترافيم تحت عجز راحيل وبالتالي تحت فرجها، و(٢) كون راحيل، عندما وضعت الترافيم تحتها، أو تحت حداجة الجمل، كانت، أو ادعت أنها كانت طامثاً، "لا يغتظ سيدي أني لا أستطيع أن أقوم لأن عليّ عادة النساء" (تكوين ٣١: ٣٥). فكلا التفصيلين دليل واضح على أن حكاية يعقوب وراحيل وترافيم لابان أدخلت في سلسلة الحكايات، كغيرها من الحكي عن "الآباء" من تقاليد أقدم وتقاليد مختلفة تماماً عن السياق اليهيوي. ولنبدأ بالطمث. فراحيل، بذلك الطمث، أو بادعائه، كانت - تبعاً للتابو اليهيوي الخاص بالطمث بل وبالولادة (انظر "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص ٤٣٤ - ٤٣٦) - نجسة نجاسة تحرم تماماً وضع أية ترافيم أو رموز مقدسة تحت مصدر تلك النجاسة، أي تحت عجزها وفرجها، حتى وإن كانت الترافيم تحت حداجة الجمل. أما الاعتبار الآخر وهو وضع تلك الترافيم تحت منطقة العجز والفرج أصلاً فيشير إلى عمق آخر لوضع راحيل، هو كونها كاهنة للإلآهة، كغيرها من الشخصيات النسائية في حكي التوراة، ابتداء من ساراي/ سارة، على النحو الذي نستظهره بتوسع في الجزء الخاص بـ "البغاء المقدس والتكهن للإلآهة" في الكتاب الثاني من هذا البحث. والذي يعنينا هنا تحديداً أن التفصيل الخاص براحيل والترافيم يشير بقوة إلى أنه من تقليد سابق بكثير على التابو اليهيوي، ويشير بنفس القوة إلى كمون الإلاهة في الخلفية الدينية لـ "الآباء" ونساء أولئك "الآباء" بالمناقضة الكاملة للادعاء اللاوي القائل بأن "آباء الشعب" المدعين أولئك لم يعبدوا أحداً من مبدأ الأمر إلا يهوه.

التوراة جهوداً خارقة لابتلاعه في شخص يهوه)، لكنهـا لـم تقـدر علـى التخلـص مـن تـأثير الخرافات القبلية المتوارثة، ومنها قدرة تلك الترافيم على كشف الغيب وعلى توفير الحمايـة للمسافر مما قد يتحلقه أو يلاحقه من أخطار.

غير أن التياع لابان الآرامي يناقض هذا المعنى الذي أراد محرر الحكاية أن يوحـي به، ويشير إلى ما اتصفت به تلك الـترافيم مـن أهميـة بالغـة لـدى "الآراميـين التـائهين"، أي "الآباء".

ولكن، لماذا إذن، عندما اقترب يعقوب وبيته وكل من معه من بيت إيل (معبد الإله إيل)، سارع يعقوب فقال "لكل من كان معه اعزلـوا الآلهـة الغريبـة التـي بينكـم وتطهـروا وأبدلوا ثيابكم ولنقم ولنصعد إلى بيت إيـل" (تكويـن ٣٥ : ٢ و٣) ؟ ولمـاذا أخـذ يعقـوب "كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم والأقراط التي فـي آذانهـم فطمرهـا عنـد البطمـة (بلوطـة العائفين) التي عند شكيم" (٣٥ : ٤) ؟

مـن الواضـح، تبعـاً لحكايـة التـوراة، أن "الآراميـين التـائهين" كـانوا حديثـي عهـد بالاستيطان في كنعان، وأن لقاء يعقوب بالإله الكنعاني إيل ومصارعته إياه كانت بعد هـرب يعقوب من وجه أخيه عيسو في أواخر أيام اسحق. فحكاية التوراة صريحة فـي تأكيدهـا أن الأب يعقوب لم يكن يعرف الإله إيل قبل أن يظهـر لـه ذلـك الإلـه فـي الحلـم علـى "سـلم منصوبة على الأرض ورأسها في السماء" في مكان اسمه لوز بيـن بـئر سـبع وحـاران، ولـم يكن قد رآه رأى العين وتماسك معه إلا عندما اشـتبك معـه فـي مبـاراة مصارعـة استمرت طوال الليل حتى طلوع الفجر أصبح اسمه بعدهـا "اسرا - إيـل" (تكويـن ٢٨ : ١٠-١٩، و٣٢ : ٢٤-٣١).

فيعقوب وقومه كانوا حديثي عهد بعبادة إيـل الكنعانية، فيمـا توقفنـا عليـه حكايـة التوراة كثيرة الالتواءات والمنعطفات. ورغم عبادتهم لإيل مجسَّداً على شكل نصب قضيبي (عمود حجارة منتصب سكب يعقوب عليه زيتاً عند أول لقـاء لـه بذلـك الإلـه فـي الموقـع الذي كان يدعى لوز ودعي بعد ذلك ببيت إيل، وعمـود الحجارة الذي أقامه بعـد شحانه مع لابان ليكون شاهداً بينهما عند رجمة يجر سهدوثا (تكوين ٣١ : ٤٥ - ٥٢)، فإنهم - فيما يوقفنا عليه حكي التوراة أيضاً - كانوا يعبدون آلهة أخرى هي، على حد تعبـير لابـان، آلهة ناحور وآلهة أبيهما" (تكوين ٣١ : ٥٣) وناحور هـو ابن تارح، وتارح هو أبو ابراهام وناحور وهاران. وواضح من النص المعالج "إله ابراهام وآلهة نـاحور وآلهـة أبيهمـا" أن يـد المحرر هي التي حولت "آلهة ابراهام" إلـى "إلـه ابراهـام". فابراهـام، كإبنـه يعقـوب، كـان حديث لقاء بالإله الكنعاني إيل (الذي حُوّل فـي المعالجـة الكهنوتيـة للنصـوص إلـى "اللـه" و"الشدّاي" و"يهوه")، وكان لقاؤه بذلك الإله بعد طرده من مصـر نتيجـة لمشـكلة زوجتـه التي ادّعى أنها أخته وأعارها لفرعون، وسكناه في أرض كنعان، واقامتـه مذبحـاً لإيـل عنـد بلوطات ممرا التي في حبرون (الخليل، أي خِلّ إيل).

فماذا كانت آلهة ابراهام وناحور وأبيهما تارح؟ أية آلهة عبد القوم طوال عيشهم في أور بأرض الرافدين في رحاب الحضارة السومرية؟

الثابت، والذي لا كبير خلاف عليه نظراً لذكورة المعبود، أن العشيرة عندما خرجت من أور خرجت مشبعة بالتراث الديني السومري عابدة لمعبود مذكر رئيسي هو إله العواصف المحتكم في المياه ورب التعاقدات أدد، حداد، متى أخذنا باسمه السامي لا باسمه السومري "إيشكور". وفي الميثولوجيا السومرية كان ذلك المعبود إبناً للإله آن (أنو)، إله السماء السومري.

وعندما استوطنت العشائر الآرامية أرض كنعان، وتكنعنت معبوداتها، اصبح إلهها أدد، حداد، (أو هدد كما تدعوه أقلام الكهنة أحياناً)، بعلاً من بعليم كنعان، أسبغت عليه هوية بعل ابن الإله إيل. وكان ذلك الاسباغ للهوية ميسّراً. فكلا المعبودين كان رمزه الثور. وعندما بات جبل صفون مركزاً رئيسياً لعبادة بعل، تحول بعل حداد إلى بعل صفون الذي اعترفت التوراة بأسلوبها الدائري بأن من اعتبروا سلالة "الآباء" كانوا يعبدونه في مركز عبادة أقاموه له قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط ببلدة بيلزيوم المصرية(*).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، وبإلحاح، هو: هل شذت العشائر الآرامية التائهة التي تغربت في كنعان بعد عيش طويل في رحاب الحضارة السومرية عن كل شعوب الشرق الأدنى القديم، فلم تتخذ لها أية معبودات مؤنثة؟

ذلك هو السؤال عينه الذي طرحه الأستاذ باتاي في كتابه "الإلاهة العبرانية"، لكنه رأى أن يجيب عليه بقوله، كما أسلفنا، أنه كان مما لا مهرب منه أن تخترق عبادة الإلاهة الأم العظمى الكنعانية، عشيرة، الديانة العبرانية مثلما اخترقت غيرها من ديانات في الشرق الأدنى القديم، موحياً بذلك أن ما أسماه بـ "الاختراق" وقع بعد بدء الاستيطان في كنعان وتعايُش "الشعب" مع الكنعانيين.

لكن ذلك الضرب من المسايرة للعرف الذي جرى عليه المفسرون والشرّاح اليهود في شأن الإلاهة الأم العظمى، والألوهة المؤنثة بشكل عام، كان المدى الذي سمح هذا العالم الحقيقي لنفسه بالذهاب إليه على سبيل التقوى ربما، وعلى سبيل المجاملة الدينية فيما نعتقد. فكتابه الفذ والشجاع، "الإلاهة العبرانية" لم يتعثر ولم يتورع ولم يبد أدنى خشية، كما تقول المثّالة ميرلين ستون، وهي بدورها باحثة لايستهان بوزنها في مجال التوراتيات، في مقدمتها لطبعة ١٩٩٠ من كتابه، "في طرحه لفرضيته القائلة بمتصلية تقديس الإلاهة في اليهودية (مما جعل) كتابه كنزاً علمياً اتصف بالأستاذية الرفيعة وجعله قدوة ملهمة بأمانته العلمية التي تمثلت في تقرير ما قد يفضل كثيرون عدم الخوض فيه أو حتى رؤيته(١٢).

(*) ارجع في ذلك إلى "قراءة سياسية للوراة"، تحت بندي "إيل" و "بعل صفون".

ولنتدبر، على سبيل المثال، قوله في تقديمه لبحثه العمدة(١٣) أنه، بالنظر إلى النزوع السيكولوجي الانساني العام إلى الاعتقاد في الإلاهات الإناث وعبادتهن، يكون من الغريب حقاً الادعاء بأن الديانة "العبرانية - اليهودية" التي ازدهرت طوال قرون في منطقة من العالم تكاثفت فيها عبادات الإلاهة - قد شذّت بكونها ظلت ذات مناعة ضد تلك العبادات. إلا أن ذلك، فيما يشير إليه هذا الباحث اليهودي الكبير، هو - على وجه التحديد - الانطباع الذي يخرج به المرء من النظر في "الديانة العبرانية" من خلال تفحُّص التشريعات الموسوية وتعاليم النبييم. فطبقاً لهذه الرؤية، تكشّف الإله على مراحل متتابعة لآدم، ونوح، وابراهام، واسحق، ويعقوب، وأعطى شريعته لموسى على جبل سيناء، وهو ما يجعل من الديانة التوراتية ديانة توحيدية أخلاقية عالمية صيغت في قالب شعائري - قانوني.

إلا أن التفحص التاريخي، فيما يقرره الأستاذ باتاي، يكشف عن أن هذه الديانة ظلت لقرون عديدة بعد التاريخ التقليدي للوحي في سيناء، رغم ما نُسب إليها بأثر رجعي (أي إسقاطاً على عصر "الآباء") من صفات مثالية معلاّة، مطلباً أكثر مما كانت حقيقة واقعة. ويقول الباحث أن البحث الذي طرح نتائجه في كتابه يشير إلى أنه "سادت بين العبرانيين التوراتيين (أي "الآراميين التائهين"، أو "الآباء" كما أسمتهم التوراة) تيارات دينية أخرى كانت قوية الجاذبية لا بالنسبة للعامة فقط بل وبالنسبة لقادتهم أيضاً، وهي تيارات لعبت عبادة الإلاهة فيها دوراً هاماً ماثل الدور الذي لعبته في كل مكان آخر في المراحل القرينة من التطور الديني".

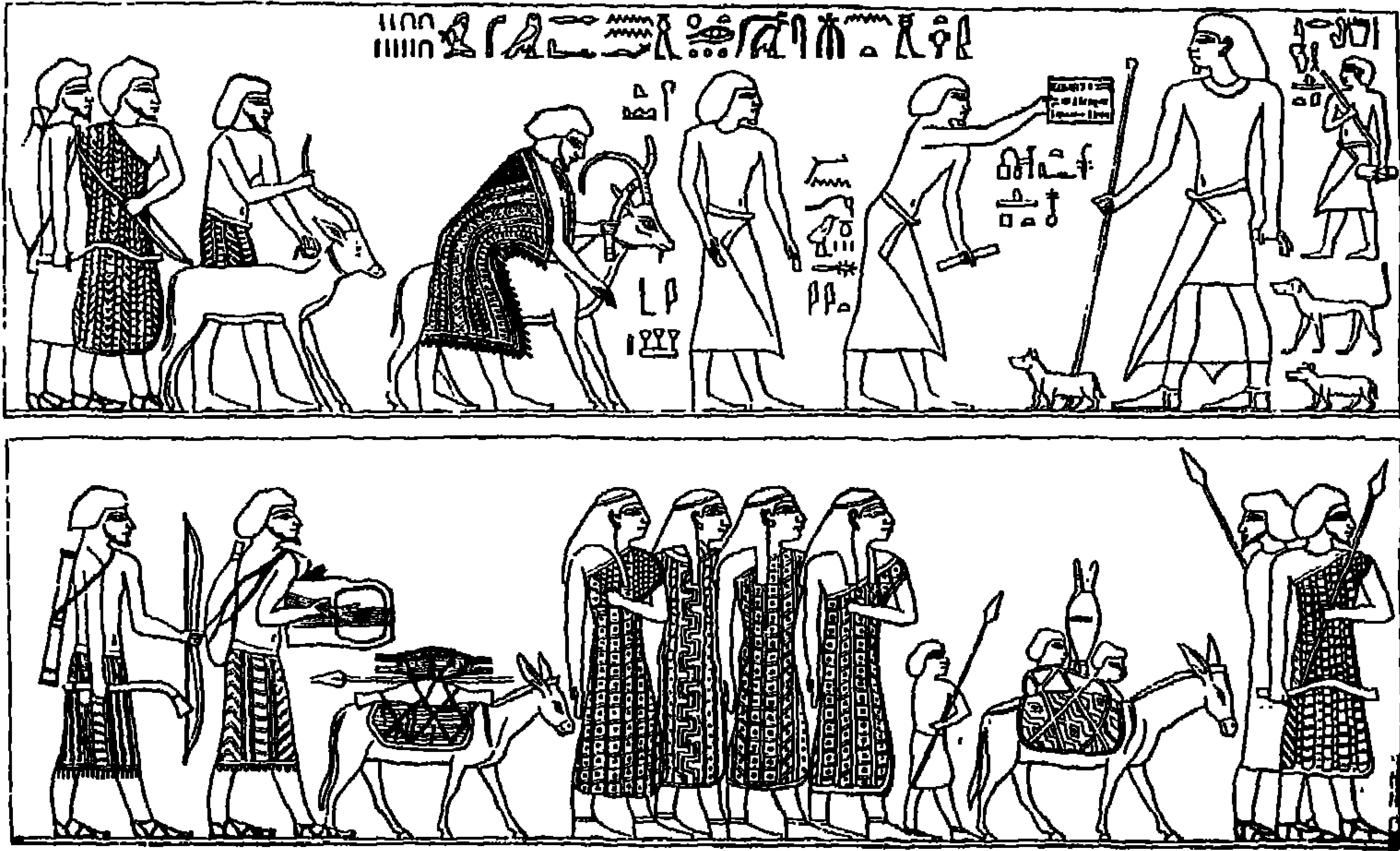
والذي يقوله الدكتور باتاي هنا أنه - بالمناقضة للصورة المثالية المعلّاة للديانة التي يخرج بها المرء من قراءة كتابها - أن من عرفوا باسم "الآباء" (وهم السبب في تسميته الديانة بـ "العبرانية - اليهودية"، لا "اليهودية" فحسب) عبدوا الإلاهة الأم العظمى كما عبدها غيرهُم من معاصريهم الذين كانوا على نفس المستوى من التطور الديني في الشرق الأدنى القديم.

وهو ما يتفق مع ويلقي مزيداً من الضوء على قول أناتي(١٤) أن "الرعاة الآسيويين" (وقد دعتهم التوراة بـ "الآراميين التائهين") عندما وفدوا على مصر، هرباً من الجوع، بحميرهم، ونسائهم وعيالهم، حاملين أقواسهم وسهامهم وحرابهم وآلاتهم الموسيقية، لم تكن تلك الأسلحة والآلات الموسيقية هي كل ما "انحدروا إلى مصر" به من عتاد، إذ حملوا معهم أيضاً، بين أمتعتهم (كما تخبرنا التوراة أن راحيل فعلت) تماثيل أنثوية صغيرة لإلاهة أو "معبودة خصب"(*).

كتب أناتي ذلك في سياق استقصائه لتاريخ فلسطين قبل العبرانيين معلقاً على لوحة جدارية (الشكل رقم ٢) من مقبرة خنوم حوتب، المحافظ الاقليمي لشرق الدلتا، وهي المنطقة التي عرفت في التوراة باسم "أرض جاسان"، والتي يحتمل أن موسى عمل محافظا

(*) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٣٢١ - ٣٢٣.

لها في مرحلة من مراحل حياته كموظف مصري. ويعود تاريخ المقبرة إلـى حوالـي ١٨٩٠ ق.م. أو ما بعد ذلك، أي في نطاق الفترة الزمنية التي هاجرت خلالها أسـرة تـارح مـن أورٍ إلى حاران و "انحدر" أبرام وساراي بعدها إلى مصر للتغرب هناك لأن الجوع كان شـديداً. (تكوين ١١: ٢١ و٢٢، و١٢: ١٠).



الشكل رقم (٢)

لوحة جدارية من مقبة خنوم حوتب ١٨٩٠ ق.م.

سجّلت توافد "سكّان الرمل" من البدو الساميين الرحّل على مصر

"لأن الجوع كان شديدا في الأرض" (تكوين ١٢ :١٠)

وفي تعليقه على نفس اللوحة، يقول رومر أنها "لأسرة من البدو الرحّل يرتدي رجالها الملتحون أردية ملونة – كـ"القميص الملون" الذي صنعه يعقوب لابنه يوسف (تكوين ٣٧: ٣) – على الحدود المصرية" ويشير إلى أن "البعض رأى في تلك اللوحة ابراهام وسارة" ويقول أنه متى كان ابراهام وامرأته قد عاشا عيش البدو الرحّل في الصحراء، فإن متصلية الحياة البدوية واستمرارية طريقة عيشها تجعلان من هذه اللوحة تصويراً واقعياً لهما"(١٥).

في تعليقه، يشير رومر إلى "مثيلات" لتلك اللوحة. وربما قصد بذلك لوحة جدارية أخرى، بالنقش البارز (الشكل رقم ٢/أ) في مقبرة القائد المصري ثم الفرعون حور محب (آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة) الذي أمسك بزمام أمور مصر وأعاد إليها الاستقرار الذي كانت قد فقدته إثر موت اخناتون وتولّي زوج ابنته الشاب توت عنخ آمون العرش لسنوات قصار أعقبتها فترة أقصر وأشد اضطراباً في ظل الفرعون الهرم آي.

وعندما تقدم حور محب، الذي كان قائداً عاماً للجيش، لإنقاذ مصر كما أنقذها قبلاً أحمس طارد الهكسوس وأول ملوك تلك الأسرة المجيدة، لم يفعل ذلك بانقلاب عسكري بل اعتلى العرش من خلال زواجه بالأميرة نوثمت، أخت نفرتيتي زوجة إخناتون، وابنة الفرعون الهرم آي ووريثته. وهناك البعض ممن يرون أن طرد الشراذم ولصوق موسى بها كان في عهد ذلك الفرعون المحارب قوي الشكيمة، لا في عهد توت عنخ آمون الذي أسماه فرويد بـ "فرعون الخروج". إلا أنه سواء كان ذلك الخروج، الذي يؤكد مانيتو أنه كان طرداً لتلك الشراذم خوفاً من أمراضها الجلدية، قد وقع في عهد توت عنخ آمون أو في عهد حور محب، فإنه كان من الطبيعي أن تزيّن جدار مقبرة حور محب تلك اللوحة بالغة التعبير عن نظرة المصريين إلى من كانوا قد تسللوا إلى أرض مصر من أولئك الرعاة الذين وصفهم الكتبة المصريون بـ "الآسويين المنكودين الذين لايكاد يقر لهم قرار فيرتحلون من مكان إلى مكان تحت ضغط العوز والجوع" وهو وصف يعتبر – كما يلاحظ رومر–(١٦) أسوأ ما يمكن أن يوصف به إنسان في عرف المصريين المحبين للاستقرار. (الشكل رقم ٢/ب).

والذي يعنينا هنا على أي حال موضوع الترافيم. فراحيل سرقت ترافيم أبيها لابان. وأختها ليئة، زوجة يعقوب الثانية، عندما "توقفت عن الولادة، أخذت زلفة جاريتها وأعطتها ليعقوب زوجة" لتلد له نيابة عن سيدتها. وعندما وضعت الجارية زلفة ابناً ليعقوب، تفاءلت ليئة كثيراً وقالت، تبعاً للترجمة العربية، "بسعد" أي يا لسعادتي، أو يا لحسن الطالع، لكنها – طبقاً لترجمة الملك جيمس – قالت قولاً غريباً: "فرقة من الجند قادمة"! (A troop cometh) (تكوين ٣٠ : ١١).



الشكل رقم (٢/أ)

لوحة جدارية بالنقش البارز من مقبرة حور محب (١٣١٧ ق.م.)
صورت البدو الساميين الجياع وهم يشحذون الطعام أو يتسولون الدخول ،
هربا من الجوع ، على حدود مصر (تكوين ١٢ : ١٠)



الشكل رقم (٢/ب)

رسم مستنسخ من لوحة جداريّة صورت توزيع القمح على البدو الساميين
على حدود مصر

فلماذا "فرقة من الجند"؟ وهل القول مجرد صيحة تهلل لمجيء ذلك المولود الذي أنجبته زلفة، جارية ليئة التي أعطتها هذه الأخيرة ليعقوب لتصبح محظية له؟

ليس تماماً. فالسيدة ليئة ما تلبث أن تزودنا بمفتاح لذلك اللغز الصغير عندما تعلن عن غبطتها لميلاد ابن جاريتها الثاني من زوجها يعقوب قائلة، طبقاً لترجمة الملك جيمس "And Leah said happy am I, for the daughters will call me blessed": (وهو القول الذي مُوِّه في الترجمة العربية إلى "لأنه تغبطني بنات" (تكوين ٣٠ : ١٣). فبنات من اللواتي سوف يدعونها مباركة؟ ومباركة ممن؟ هذا ما يرشدنا إليه الاسم الذي اختارته ليئة للمولود، وهو "أشير" أو "عشير" فالاسم وهو يعني القضيب، تذكير لاسم الإلاهة الأم عشيرة (أو أشيرا كما تدعوها التوراة)، وما "البنات" اللواتي سيدعون ليئة مباركة إلا النساء بعامة، بنات الإلاهة، وهي التي تضرعت إليها ليئة عندما وقعت الجفوة بينها وبين يعقوب صباح اليوم التالي لليلة عرسهما. فيعقوب غضب إذ خدعه خاله لابان فزوّجه من ليئة، الابنة الكبرى غير الحسناء، بدلاً من راحيل الأصغر والأجمل، وقال للابان "ما هذا الذي صنعت بي؟ أليس براحيل خدمت عندكِ (ألم أخدم عندك سبع سنين كيما تعطيني راحيل زوجة)؟ فلماذا خدعتني؟ فقال لابان لا تُعطىَ الصغيرة قبل الكبيرة" (تكوين ٢٩ : ٢٣-٢٦). وفي الجزء الذي رفع من الحكاية عند التحرير فبات جزءاً من حكايات الديانة(١٧) غضبت ليئة فأغلظت القول ليعقوب وهو يتهم أباها بالخداع إذ زوَّجه منها، فقالت له أنه آخر من يحق لها اتهام الآخرين بالمكر والخداع، إشارة منها إلى سرقته لحقّ المولد وبركة الأب من أخيه الأكبر عيسو عن طريق الخداع مستغلاً في ذلك ضعف بصر أبيه اسحق(*).

وهناك في حكاية يعقوب وليئة وراحيل تذكرة أخرى بجزئية هامة أخرى من سيرة يعقوب. فراحيل، التي تخبرنا الحكاية "أنها كانت عاقراً" (تكوين ٢٩ : ٣١)" لما رأت أنها لم تلد ليعقوب، غارت من أختها ليئة وقالت ليعقوب هب لي بنين وإلا فأنا أموت. فحمى غضب يعقوب على راحيل وقال ألعلي أنا إيل (وردت في النص المعالج بأيدي المحررين "ألعلّي أنا الله"؟) الذي منع عنك ثمرة البطن. فقالت هو ذا جاريتي بلهة. أدخل عليها فتلد على ركبتي (نيابة عني) وأرزق منها بنين. فأعطته بلهة جاريتها زوجة. فدخل عليها يعقوب. فحبلت بلهة وولدت ليعقوب ابناً. فقالت راحيل قد قضى لي إيل وسمع أيضاً لصوتي وأعطاني ابناً. لذلك دعت اسمه داناً. وحبلت أيضاً بلهة جارية راحيل وولدت ابناً ثانياً ليعقوب. فقالت راحيل مصارَعَات "الله" "قد صارعت أختي وغَلَبْت" (تكوين ٣٠ : ١-٨) وبهذا القول الأخير عن "مصارَعات الله" ذكّرت راحيل بحدث رئيسي بالغ الأهمية في تكوين أسطورية البطل يعقوب/ اسرائيل، هو اشتباكه في مباراة المصارعة التي طالت ليلة كاملة حتى طلوع النهار عند مخاضة يبوق(*). فالبطل الفحل الذي صارع الآلهة

(*) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة" ص ص ٤٣ - ٥٢.

(*) ارجع في ذلك الى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٥٣-٥٩.

("لأنك جاهدت مع الله.. وغلبت" تكوين ٣٢ : ٢٨) قد وطأ جارية راحيل فجعلها تحبل وبذا جعل راحيل تنتصر على اختها ليئة، أو بالأقل، تسجل نقطة ضدها في تلك المباراة التناسلية بين الأختين، سواء بالأصالة أو بالوكالة من خلال جاريتيهما.

ولكن، في هذا السياق الجنسي "المقدس"، ماذا كان دور الإلاهة؟

عندما خرج "الآراميون التائهون" من أور، كما أسلفنا، لم تقتصر العدة الثقافية التي خرجوا بها على الألوهة المذكرة التي تمثلت اساساً في أدد - هدد - حداد الذي تحول، عندما كنعِن، إلى بعل صفون، بل شملت تلك العدة أيضاً الإلاهة الأم العظمى السومرية إينانا في مختلف تجسداتها ووظائفها وبأسمائها المختلفة وأهمها اسمها الأكدي الذي عرفت به بابلياً، وهو عشتار وفي التوراة عشتارت.

في مناقشته للمسألة، يرجع رافائيل باتاي(١٨) إلى الأدلة الآثارية، ويلاحظ أن الإلاهة عشتارت ذكرت في العهد القديم تسع مرات فقط بالمقارنة إلى أربعين مرة ذكرت فيها الإلاهة عشيرة (أشيرا)، ويقول إن العهد القديم، بذلك، قصر دون إعطاء قرّاء نصوصه أي فكرة عن مدى شيوع انتشار عبادة "عشتارت" بين العبرانيين، ولذا فإن السبيل الوحيد للوقوف على الحقيقة يظل الرجوع إلى علم الآثار. فالأدلة الآثارية التي خرجت إلى ضوء النهار نتيجة للحفائر الآثارية المتلاحقة في فلسطين خلال العقود الأخيرة هي التي تزودنا بفكرة حقيقية عن مدى انتشار عبادة إينانا/ عشتار/ عشتارت بين العبرانيين.

ويستطرد الأستاذ باتاي قائلاً إنه بحلول مطلع عقد الأربعينيات، كشفت الحفريات التي أجريت في أماكن مختلفة من فلسطين عما لم يقل عن ثلاثمائة من الطين النضيج من التماثيل المصغرة ومن اللوحات المنقوشة تمثل كلها إناثاً عرايا. وفي كل تلك التماثيل واللوحات، كان هناك تركيز على الأثداء والبطن والفرج، سواء ما يشير إليه باتاي منها كأدلة على عبادة الإلاهة التي وجدت في فلسطين، أو ما عثر عليه في أي مكان آخر، كما تلاحظ الأستاذة ماريجا جيمبوتيس في كتابها "لغة الإلاهة"، وكان ذلك إما عن طريق تضخيم تلك الأجزاء من جسم الأنثى، وإما عن طريق استخدام يديّ التمثال أو الشكل الأنثوي الذي تمثله اللوحة، ورفع الثديين بهما، أو وضع إحدى اليدين فوق أحد الثديين ووضع الأخرى فوق الفرج، مع الاهتمام بإبراز امتلاء الردفين والإليتين. وفي بعض التماثيل واللوحات، صُوِّرت الأنثى (الإلاهة) حاملاً. (الشكلان ٣/أ و ٣/ب).

. يرجع الدكتور باتاي إلى كتاب الأستاذ جيمس بريتشارد الهام "تماثيل فلسطينية مصغرة لعدد من الإلاهات المعروفات عن طريق النصوص الأدبية"(١٩) ويلاحظ مع بريتشارد شيوع تماثيل الإلاهة هذه، وكثرتها في كل الحفائر الآثارية الرئيسية في فلسطين، ويركز على غلبتها في طبقات الحفر التي يؤرخها الآثاريون إلى عصر البرونز الوسيط (الذي



الشكل رقم (٣/أ)
لوحة عاجيّة من "لوحات عشتارت" ، الاسم الفينيقيّ للإلآهة ،
كشفت عنها الحفائر الآثاريّة بمنطقة الميناء برأس شمرا (أوغاريت)



الشكل رقم (٣/ب)
تمثال من الطين النضيج (تراف)، من "الترافيم"، التماثيل المصغّرة التي استخدمت
في العبادة المنزلية (تكوين ٣١ : ١٩ و ٣٠-٣٥). لاحظ ابراز
الثديين والبطن والردفين والفخذين وهضبة العانة

يختار الدكتور باتاي أن يذكرنا بأنه من ٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠ ق.م. تجنباً لذكر "الآباء" صراحة)، ويقول إنها كلها تماثيل مرتبطة، برمزيتها، بإلاهة جنس، وبخاصة ما كان مندرجاً منها تحت نمط الإلاهة قادش.

وقادش (التي تحرَّف – عن عمد – إلى "قاتش" و "قتش") إلاهة كنعانية فينيقية من إلاهات الهلال الخصيب عبدت كإلاهة للجماع واللذة الجنسية. وكما في حالة عانات (وهي، بدورها، من إلاهات شمال كنعان) وعشيرة، عرفت عبادة قادش طريقها إلى مصر بالاحتكاك الثقافي، وكان دخولها الديانة المصرية في بدايات عصر المملكة الجديدة (١٥٦٧ – ١٠٨٥ ق.م.)، وإذ أُدخلت في الديانة المصرية، أسبغت عليها هوية حت حور (هاتور)، لكنها ظلت – استمراراً لهويتها الكنعانية، وبوصفها سليلة أسطوريتي إينانا السومرية وعشتار البابلية – واقفة على أو راكبة ظهر أسد، وهو المطية الأسطورية التقليدية للألوهة المؤنثة.

ولقادش تصوير بالنقش البارز على بلاطة جنائزية من عهد الأسرة الرابعة عشرة (حوالي ١٢٥٠ ق.م.) محفوظة بالمتحف البريطاني، وإلى يسارها صوّر الإله الكنعاني الفينيقي رِشِف الذي أدخل، هو الآخر، في الديانة المصرية كإله حرب، وإلى يمينها صوّر الإله المصري القديم مين، وصوّرت الإلاهة ممسكة، في مواجهة مين بحزمة من أعواد اللوتس، وفي مواجهة رِشِف باثنتين من الأفاعي.

والإله مين معبود أنتروبومورفي (إنساني الصورة) مصري ضارب في القدم اعتبر الرمز الأقصى للخصوبة الجنسية وقدرة الإنجاب الذكرية، كما كان من الآلهة الحامية لمناطق التعدين في سيناء، وقد صوّر أحياناً كسهم رائش، أي كفيتش مرمِّز للقضيب، لكنه صوّر في معظم الأحيان، كما نجد على جدران معبد إدفو، بهيئة إنسانية وبقضيب منتصب مهيب. وقد استمرت عبادة مين إلى عهد بطليموس الثاني وأقيم له معبد في قفط ما زالت أحجاره قائمة، ومن الصفات التي ربطت ما بين ذلك المعبود ومعبودات كنعان والتي يرجح أنها أدخلته بين حشد منافسي يهوه، صفته كإله مانح خصب قدّمت إليه بواكير الغلة في الأعياد الدينية، كما أصر موسى على أن تقدم ليهوه، وصفته كإله مرمّز برمز الفحولة الجنسية، الثور. فالحيوان المقدس لمين كان الثور الأبيض.

ولذا فإنه لا عجب في ورود ذكر مين، جنباً إلى جنب مع رِشِف، بالأسلوب المموّه الملتوي المألوف، في سفر التثنية، إذ يبدو أن "الشعب"، في إعراضه المتواصل عن عبادة يهوه، ورفضه للقسر الديني الذي مارسه موسى واللاويون، عبد بين من عبد من "آلهة غريبة" كلاً من مين ورشِف. ولما كان رشِف قد عزي إليه في عبادات شمال كنعان كونه "رب القسّي" بوصفه إله حرب، وكونه – كالإله السومري البابلي المخيف عيرّا – "رب الأوبئة"، وكان مين قد رمّز بـ "السهم الرائش"، فإن مؤلف سفر التثنية نظم معركة بين يهوه وبين هذين المعبودين المنافسين ليهوه بحيازتهما لتلك الاختصاصات، وصفها على النحو التالي تأريخاً مستقبلياً بالتمني : "(لأنهم) ذبحوا لأوثان ليست هي يهوه.. (فاني) أجمع

عليهم شروراً وأنفذ سهامي (أنا) فيهم. إذ هم خاوون من جوع ومنهوكون من حمى وداء سام (وباء من صنعي أنا) ومن حمة زواحف الأرض" (٣٢: ١٧ و٢٣ و٢٤). وهو ما يعود فيؤكده سفر المزامير بتغنيه بـ "سحق يهوه للقسي البارقة (قسيّ مين ورِشِف)، في المزمور ٧٦:٣.

فقادش (لا "قاتش" أو "قتش") التي عبدت في هذا الثالوث الفذ الذي جمع بين الوظيفتين الرئيسيتين للألوهة المؤنثة، الجنس والموت، وهو ثالوث جسّد الاتجاه المصري الى التلاحم - لا التضاد والصراع - بين الإلاهة (الرحم الكوني) والألوهة المذكّرة (القضيب الإلهي)، بنفس التناغم الذي نجده في سومر، كانت - مما يشير إليه الأستاذ باتاي بشأن التماثيل (الترافيم) التي كشفت عنها الحفائر الآثارية في تربة فلسطين - معبودة رائجة العبادة في كنعان، جنباً إلى جنب مع الإلاهة عشيرة التي يقول باتاي أن معظم المتخصصين يرون أن الأنماط الأخرى من التماثيل واللوحات (أي التي ليست من نمط قادش) تمثلها. وعشيرة هي "أشيرا" التوراة التي لم يتسن حتى الآن التمييز بينها وبين عانات بشكل حاسم أو مباشر، على الرغم من وجود وفرة من الأدلة يشير إلى أن عشيرة كانت الإلاهة الأنثى الرئيسية في جنوب كنعان والتجسد الكنعاني لآست (ايزيس) المصرية وإينانا السومرية، وإلى أن عانات كانت الإلاهة الأنثى الرئيسية في شمال كنعان (والتي عُبدت في صُور باسم عشتارت) والتجسد الكنعاني لحت حور/سخمت المصرية، وعشتار البابلية. ومما يزيد الصورة تعقداً (ويساعد على المزيد من الإتاهة) أنه ما زال مطروحاً للتساؤل، كما يقول بريتشارد في "تماثيل فلسطينية مصغّرة" السابق الإشارة إليه، ما إذا كانت كل تلك التماثيل العارية تصور الإلاهة ذاتها أو تصور "كاهنة - بغي" من كاهناتها، أو كانت مجرد طلاسم وتعاويذ استخدمت في تلك الأزمنة في شعائر السحر التعاطفي وفي تحفيز عمليات الإنجاب.

غير أن مثل هذه التحفظات تظل ضرباً من الترف الفكري المتوافر الآن للبحث العلمي في معرض تمسكه بمنهجياته المستحدثة. أما بالنسبة للعقل الذي كان معاصراً لصنع تلك التماثيل، فكان الأمر مختلفاً كل الاختلاف، وعلى النحو الذي نلمسه في محنة لابان الحقيقية للغاية نتيجة لسرقة ترافيمه.

ونحن نلاحظ هنا أن باحثاً كالدكتور باتاي، وأن توقف وقدمه على عتبة الخوض في قضية عبادة الإلاهة في زمن "الآباء"، قد غلّب - على الرغم من التورع - أمانة الباحث، حتى وإن اقتصر على الإلاهة عشيرة، فذكر أن هناك وفرة من الأدلة الآثارية تثبت أهمية عبادة الإلاهة كمعبودة بيتية ممثلة في "ضرب من الترافيم" التي اتخذت أشكال تماثيل مصغرة لإناث عاريات وجدت في كل مكان بفلسطين، وأشار إلى أن تلك التماثيل يمكن إرجاع تواريخ نحتها بيقين إلى ما أسماه بـ "الفترة الاسرائيلية" من تاريخ فلسطين.

وبطبيعة الحال، لا يلقي مثل هذا الباحث الجاد الكلام على عواهنه. فهو يستقرئ الأدلة الآثارية نعم، لكنه يستند بظهره مطمئناً إلى أن ما تناوله بالبحث مذكور على طول

العهد القديم وعرضه، ابتداء من التكوين ٣١، مروراً بالقضاة ١٧ و١٨، وصموئيل الأول ١٥ و١٩، والملوك الثاني ٢٣، إلى حزقيال ٢١، إلى هوشع ٣، وزكريا ٢.

وهذه أرومة لا يستهان بوزنها لتلك التماثيل المصغرة لإلاهات عاريات عُبدن، من أزمنة ضاربة في القدم في تاريخ "الآراميين التائهين" ("الآباء") مثلما عبدن حتى عصور متأخرة للغاية في تاريخ ديانة يهوه.

ومما يدل على أن تلك الترافيم وما مثلته (أي كونها عدة شعائرية في عبادة الإلاهة الأم) لم تكن مسألة هامشية إطلاقاً أو مسألة شذوذ عارض، وعلى أنها ظلت – على الرغم من الطمس والتمويه والإخفاء – جزءاً حيوياً من العبادة ومن طريقة حياة "الشعب"، قول المتنبئ هوشع (حوالي القرن الثامن ق.م.) أن بني اسرائيل – كعقاب لهم – "سوف يقعدون أياماً كثيرة بلا ملك، وبلا رئيس، وبلا ذبيحة، وبلا تمثال، وبلا أفود وترافيم" (٣ : ٤)، باعتبار كل تلك الضروب من الحرمان بلايا عظيمة سوف تحل بهم. فالحرمان من الترافيم عودل بالحرمان من كل تلك الأشياء الهامة الأخرى. ومما له مغزى أن هوشع جمع بين الأفود والترافيم. والأفود جبّة الكاهن الأكبر التي سُرقت من أردية كهنة مصر، وكانت – في استنتساخ موسى لها – تصنع لكاهن يهوه من قماش أزرق ويوشّى ذيلها بوشي ثمار رمان وبشرّابات زرقاء وأرجوانية وقرمزية وأجراس ذهبية صغيرة (جلاجل) كانت تعلق في ذيل الأفود بين وشي كل رمانة ورمانة، تبعاً للتصميم بالغ الدقة الذي قال موسى في سفر الخروج أن يهوه وضعه بنفسه للأفود (الجبّة) والذي كان هارون أول من ارتداه ورفل في أبهته الملكية وظل من بعده عدة شعائرية مقدسة (خروج ٢٨ : ٣١ – ٣٤).

- - - - -

(٢/ب) رمزية الرمان من فرج الإلاهة إلى دم عشيقها الصريع

هذه الجبة ذات الجلاجل والرمّانات - التي يبدو واضحاً أن موسى اهتم بها اهتماماً خاصاً وصل إلى حد جَعلِه يهوه يتحول إلى مصمم أزياء حريص على تنفيذ تصميماته كما توقفنا أقوال غير إلهية إطلاقاً كقوله "ويكون لفتحتها حاشية صنعة الحائك"!، و "تطرّز أذيالها بجلاجل من ذهب ورمّانات: جلجل من ذهب ورمانة، جلجل من ذهب ورمانة! - لم يكن من الغريب أن يضعها هوشع بجلاجلها ورمّاناتها، بعد موسى بقرون، على نفس مستوى الأهمية الشعائرية لـ "الترافيم"، أي التماثيل المصغرة العارية للإلاهة الأم.

ولكن، لمَ؟ أو - بالحقيقة - كيف؟

الجواب على ذلك ماثل فيما يوقفنا عليه تاريخ الديانة من أن الكهنة اللاويين لم يلتزموا بما قد توحي به أقوال النبييم والنصوص المعالجة من صرامة توحيدية باترة. وهذا واقع تاريخي تؤكّده نصوص العهد القديم تأكيداً لا يدع كبير مجال للمراوغة التقية. فهوشع، مثلاً، يقول (موصلاً فيما يبدو كلاماً مغيظاً قاله له يهوه): "شعبي يسأل خشبة (أي، بشفرة العهد القديم، "سارية"، أي رمز القضيب المغروس في فرج الإلاهة الأم) وعصاه (أي صاريته) تخبره، لأن روح الزنى أضلتهم فزنوا من تحت إلههم (يهوه)" (هوشع ٤ : ١٢). ولنلاحظ استخدامه، هو الآخر، للفظة "زنى" في التعبير عن زيغ "الشعب" من تحت يهوه وعبادته للإلاهة الأم، أو عشيرة (أشيرا) في تسميتها المكنعنة.

لم يفرق هوشع في الإدانة بين "الشعب" والكهنة، بل قال "كما الشعب، هكذا الكاهن" وأكد أن يهوه أخبره قائلاً "(ولذلك) أعاقبهم على طرقهم، وأردّ أعمالهم عليهم. فيأكلون (وتبين النصوص أن "الأكل حتى الشبع" كان على رأس قائمة أولويات "الشعب" والكهنة) ولا يشبعون، ويزنون ولا يتكاثرون، لأنهم قد تركوا عبادة يهوه" (هوشع ٤ : ٩ و ١٠).

فما الذي فعله الكهنة ليستحقوا تلك الغضبة اليهيوية الضارية؟ هذا ما يوقفنا عليه هوشع مبيناً أن الكهنة و "الشعب"، سواء بسواء : "قد صنعوا فاحشة. في بيت اسرائيل رأيت أمراً فظيعاً. هناك زنى افرايم. تنجس اسرائيل. وأنت أيضا يا يهوذا قد أُعدَّ لك حصاد" (هوشع ٦ : ٩ - ١١). فلم ينج أحد.

وهو ما يوضحه سفر الملوك الثاني اذ يقول "المؤرخ" فيه أنه حتى عندما تدخل يهوه لصالح "شعبه"، وأعطى اسرائيل مخلّصاً من طغيان حزائيل ملك آرام، "أقام بنو اسرائيل في خيامهم كأمس وما قبله (أي عادوا إلى رذائلهم القديمة وكأن شيئاً لم يحدث)، ولم يحيدوا عن خطايا يربعام الذي جعل اسرائيل يخطئ فيعبد الإلاهة وابنها/ عشيقها، بعل، بل واصلوا ما كانوا فيه قبلاً" ووقفت الصارية ثانية في السامرة (أي أقيم رمز الإلاهة الأم من جديد)" (الملوك الثاني ١٣ : ٥ و ٦).

هذا "الزنى" كله يوقفنا على الحقيقة الماثلة في أن هوشع - عندما وضع الأفود (جبة الكاهن الأكبر)، والترافيم (تماثيل الإلاهة العارية) في سلة واحدة، واعتبر الحرمان منه ومنها مصيبة كبرى - كان يحكي بإزاء خلفية ثقافية/ دينية كانت الألوهة المؤنثة - على الرغم من كل تصايح النبييم - قد باتت مكوّناً حيوياً من مكوناتها إلى الحد الذي جعل كبار الكهنة يعلّقون في جببهم، بالاضافة إلى الجلاجل الذهبية والتطريز بالرمانات، ترافيم الإلاهة.

ولكن، لمَ كان من الضروري - الذي بدا كما لو لم يكن منه مهرب - أن يكون تطريز ذيل جبة كاهن يهوه الرئيسي بثمار الرمان بالذات؟

كيما نتوصل إلى إجابة شافية يقبلها العقل وتساندها الحقائق التاريخية، يتعين علينا أن نضع نصب أعيننا ما فطن اليه موسى وهو آخذ في صنع الديانة حول يهوه من ضرورات أملت إعطاء ذلك المعبود، الذي لم يكن من أراد موسى جعلهم يعبدونه قد سمعوا به قبلاً، كل ما أمكن اختلاسه لحسابه من رموز وشعائر وصفات وجد موسى أنها كانت حرية بأن تجعله مقبولاً وذا مصداقية لدى "الشعب".

وفي ذلك، كان موسى جاهداً، وظل ورثته اللاويون بعده جاهدين، لأزمنة طويلة، في إنجاز عملية بالغة الصعوبة من عمليات توفيق العبادات انطوت على نسج الديانة وهوية المعبود من أفكار ومعتقدات ورموز دينية متباينة ومتعارضة. وكان السبب الذي اضطر موسى وورثته الى ركوب ذلك الصعب الديني ما دُعي في التوراة باستمرار بـ "صلابة رقبة الشعب"، أي رفضه العنيد تصديق حكاية "يهوه إله الآباء"، وميل الكساء الديني والأسطوري الفضفاض الذي صنعه له موسى في مبدأ الأمر الى الانزلاق من على وثنه.

والذي توقفنا عليه بشكل لا سبيل الى التجادل في شأنه كل أسفار العهد القديم أن تلك العملية التلفيقية من توفيق العبادات عن طريق الاختلاس الديني والثقافي من الديانات والثقافات الكبرى في الشرق الأدنى القديم، وأولها وأهمها ديانة مصر وثقافتها، ظلت - بعد أن بدأها موسى وأرسى تقليدها - "المهمة المقدسة" التي انخرط في محاولة انجازها، بعد موسى، والى أزمنة أوغلت في العصر الميلادي، كل كهنة "يهوه وحده" وعرافيه (أي "نبيّيمه")، ومؤلفي أسفاره "المقدسة"، ومحرري تلك الأسفار.

وكما توقفنا الدراسة النقدية للعهد القديم، تمثلت تلك المحاولة في حيلة كهنوتية بسيطة في الواقع (ومتكررة في تواريخ الديانات القديمة) هي جعل الإله الوافد على الساحة الذي يجعله كهنته "إله الآلهة" ويجعلونه الأول أو الأعلى أو المفرَد أو الأوحد في لاهوتهم، يبتلع كل ألوهة "غريبة أو دخيلة" منافسة، بأن يغتصبوا له وينسبوا إليه صفات وخصائص ورموز وقدرات، ودائماً سحر، تلك الألوهات المنافسة مع أخذ كل ما يجدونه قابلاً للاستيعاب والتطوير - ومفيداً - من طقوسها وشعائرها، وفي الوقت ذاته تحويل تلك الآلهة الأخرى التي سُلبت إلى آلهة مزيفة وشريرة وشياطين وأبالسة و "أرجاس". وبالمقابل، يُعلى الإله الذي جرى السطو والاغتصاب لحسابه إلى مكانة رفيعة ويُجعل

مخوفاً أكثر وقادراً أكثر وحائزاً لسحر لا يدانيه سحر أي إله آخر يشمل كل ما هو مرئي من ظواهر الطبيعة وما هو خبيء مما وراء الطبيعة.

وقد استعرضنا في أكثر من موضع في المباحث السابقة أوجهاً عديدة من أوجه تلك العملية فيما تعلق بصنع أسطورية يهوه، وبخاصة فيما تعلق بابتلاع يهوه لمعبود "الآراميين التائهين" أَدَد/ هَدَد/حدّاد/شدّاد الذي أسبغت عليه هوية البعل ابن الإله الكنعاني ايل، من خلال "تغرب" أولئك التائهين في كنعان، فجُعل رب جبل صفون، أي بعل صفون. ومن تلك الأوجه رمزية الرمان(*). فحداد/بعل صفون، وقد دُعي في العهد القديم باسم "هَدَدْ رمُّون" (حداد رمان) كان من أوائل – وفي الواقع، من أهم – من تعرض من آلهة كنعان – بعد إيل – لعملية الابتلاع، بعد أن وجد موسى ضرورة سياسية لدمجه في يهوه.

ذلك الإله المرعد، ربّ العواصف، قاذف الصواعق، آمر الرياح، راكب السحاب ("جاعل السحاب مركبته" في نسخته اليهيوية)، ربّ المواثيق والعهود والتعاقدات، مانح المطر ومسبب الجفاف إذا ما أُغضب، كان – في سومر – ابن إله السماء، وبوصفه ذاك، كان أخاً لإينانا، وفي نسخته السامية الأكدية، كان ابناً للإله السماء آنو، وبوصفه ذاك أخاً لعشتار، النسخة السامية من إينانا السومرية. وعندما وصل إلى كنعان في مخلاة الآراميين التائهين الذين "تغرّبوا" هناك كما تقول التوراة، أُسبغت عليه هوية البعل الرئيسي التالي لإيل في الديانة الكنعانية، وإذ كنعن، بات "رب جبل صفون"، وأخاً لعانات. وكسائر آلهة الشرق الأدنى القديم الذكور، كان ذلك المعبود طوال رحلته هذه من سومر إلى كنعان، مزدوج الجنس أندروجينياً، وظلت أخته الإلاهة مكوّنه الأنثوي، وكنمط ألوهة العالم القديم، محبوبته وزوجته.

غير أن أدد/ هدد/ حدّاد، في نسختيه السومرية والأكدية، لم يكن من الأهمية بالنسبة للزرع والخصب بقدر يجعله عشيق الإلاهة أو زوجها. وهكذا فإن إينانا، في سومر، كان لها عشيق آخر (انساني بطل ثم ألّه) هو دوموزي، وعشتار، في بابل، كان لها عشيق كهذا هو تموز.

ولعل السبب في المكانة الإلهية المتأخرة لأدد/ هدد/ حدّاد كونه إله جو ومطر وعواصف. فتلك وظيفة إلهية لم تكن عالية الأهمية أو حيوية في أرض الرافدين التي لم يعتمد الزرع والخصب فيها على المطر، ولم تكن مشكلة أهلها الجفاف بل الوفرة الزائدة من المياه كما توقفنا أسطورة الطوفان التي أخذت ليهوه بين ما أخذ.

غير أن ألوهة العواصف والمطر تلك التي كانت سبباً في مكانة حدّاد في سومر وبابل كانت بعينها السبب في احتلال ذلك المعبود مكانة رفيعة لم تعل عليها إلا مكانة إيل كبير آلهة كنعان. فأسطورية بعل، سيد جبل صفون، في نصوص أوغاريت، توقفنا على أن أهميته تمثلت أساساً في انتصاره على أخيه "يَمّ" وحيازته بذلك السلطة العليا على مورد

(*) ارجع في ذلك الى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٢٧٧ - ٢٨٠.

المياه. ولقد كان من أكثر الأشياء طبيعية أن تسبغ هوية بعـل سيد جبل صفون هـذا علـى حدّاد الذي عبده الآراميون التائهون الوافدون بوصفه "آمـر سـدود السـماء"، عندمـا أخـذوا يتغرّبون في كنعان وأن يأخذه معهم إلى مصر من "انحدر" منهـم فيمـا بعـد بسـبب الجـوع فعلق بجسم مصر في "أرض جاسان".

هذه اعتبارات لم تخف على فطنـة موسـى وظلـت بعـده ماثلـة فـي أذهـان مؤلفـي الأسفار التي عزيت إليه عندما سجلوا في التـوراة أعـراض ابتـلاع ذلـك المعبـود السـومري الأكدي المكنعن لحساب يهوه(*)، مركزين فـي ذلـك تركـيزاً خاصـاً لحوحـاً علـى المطـر والرعد ومنح الخصب أو منعه وركوب السحاب، جاعلين كل ذلـك قـدرات ليهـوه الـذي ظل التهديد الأخطر على لسانه، كلما تمادى "الشـعب" فـي رفـض عبادتـه وضـن بالعشـور والذبائح والطاعة على كهنته، أن يمنع المطر عنه.

ذلك ما يعود بنا الـى مسـألة الرمّـان. فثمـرة الرمّـان ذات رمزيـة مزدوجـة، القاسـم المشترك بين وجهيها هو الدم لكون حب الرمّان، بلونه الأحمر القاني، أشبه بقطرات الـدم. وفي إبداع المخيلـة الشـعرية الجمعيـة لشـعوب الشـرق الأدنـى القديـم أسـطوريات آلهتهـا وإلاهاتها، كان لثمرة الرمان دور هام. فمن جانب، تراءت حمرة حب الرمان القانية ووفرته داخل الثمرة، في السياق الشعري/ الأسطوري، لتلـك المخيّلـة المبدعـة للأسـاطير، كترمـيز موات للغاية، وبالتالي ذي منشأ إلهي بغير شك، لرحم الإلاهة الأم العظمى وفرجهـا. فلـون شفريّ الفرج خاصة في لحظات التهيج الجنسي مماثل للون حبّ الرمـان، واكتظـاظ ثمـرة الرمان بذلك الحَبّ الشهي ذي التداعيـات الحسـية للغايـة ممـاثل لاكتظـاظ رحـم الإلاهـة المعطاء بكل ما يغدقه على الخليقة من نِعَم. وفي الوقت ذاته، اعتـبرت شـجرة الرمـان، فـي أساطير الشرق الأدنى القديم، النبتة المقدسة التي أنبتتهـا الأرض الأم مـن دم البطـل أو الإلـه عشيق الإلاهة (دومـوزي/ تمـوز/ أدونيـس وبعـل صفـون)، واعتـبرت حبـات ثمـرة الرمـان قطرات دم ذلك الإله عشيق الإلاهة الذي تظل الإلاهة تعيده إلى الحياة بعد مقتلـه مسـتنقذة إياه من العالم السفلي. ذلك الأصـل الإلهـي مـزدوج القداسـة لثمـرة الرمـان - طبقـاً لتلـك الأسطوريات - هو السبب في أن تلك الثمرة لا تتعفن ولا يضرب فيها الفساد. وقد كـانت تلك المناعة من التعفن والفساد الحجة التي أعطيت لدخول الرمـان أسـطورية يهـوه الكـاره بشدة للعطب والفساد. غير أن مثـل هـذا التفسير - كـالكثير غـيره مـن مماحكـات العهـد القديم - يظل حيلة شفافة ومسكينة بعض الشيء لإخفاء المغزى الحقيقـي والدافـع الفعلـي لاستعارة الرمان من الإلاهة الأم وعشيقها ليهـوه. لأنـه - مـع التسـليم بـأن ثمـرة الرمـان لا تتعفن - لمَ كان من الضروري إدخال أي ثمرة (والثمار في الديانـات القديمـة كلهـا رمـوز وثنية)، سواء كانت ثمرة الرمان أو ثمرة التين أو التفاح، قدس أقداس ذلك الإله الذي صُـور

(*) ارجع إلى مقارنة القدرات والصفات التي أخذت من بعل صفون ليهوه، بما وَصَفَـت يهـوه بـه أسـفارُ العهد القديم، وبخاصة سفر المزامير، الذي لا شـك فـي كنعانيتـه، بـالجدول الـوارد فـي "قـراءة سياسـية للتوراة" ٢١٥ - ٢١٩ .

كارهاً لكل ما هو وثني رهيباً في صرامته الوحدانية؟ ولمَ كان من المحتم جعل موتيفة الرمان أساسية في زخرفة عمدان المعبد الذي بناه سليمان ليكون "بيتاً" لذلك الإله(*)؟ ولم كانت شجرة الرمان شجرة شاول المقدسة؟

في غيبة أي ردٍ مُقنع على تساؤلات كهذه، لا يجد العقل مهرباً من ضم ثمار الرمان إلى قائمة الاختلاسات التي لا تحصى لحساب أسطورية يهوه من عبادات الشرق الأدنى القديم، وبالأخص عبادة الإلاهة الأم وعشاقها.

غير الرمان، من الرموز والعدّة الشعائرية التي استعيرت ليهوه من الإلاهة، نجد أيضاً جلاجل (أجراس) يهوه الذهبية التي ألح على موسى إلحاحاً لافتاً للنظر أن يعلقها في ذيل جبة الكاهن الأكبر: "جلجل من ذهب ورمّانة، جلجل من ذهب ورمانة (حاذر أن تنسى، يا موسى!)".

لم يحدد النص التوراتي عدد تلك الجلاجل الذهبية، إلا أن التلمود يوقفنا على أن عددها كان ٧٢ جرساً. والعدد ٧٢ من الأعداد السحرية ذات الفعل الذي لا يخيب(**). لكن أي سحر ذاك الذي استلزم تعليق اثنين وسبعين جرساً ذهبياً في ذيل جبّة الكاهن الأكبر؟

الذي يفسر به مؤلفو سفر الخروج ومحرروه المسألة أن الكاهن تعين عليه تعليق كل تلك الجلاجل في ذيل جبّته "لئلا يموت" (خروج ٢٨ : ٣٥) إذا ما دخل قدس الأقداس أو خرج منه بدونها.

فالمسألة أخطر مما قد يتبادر إلى الذهن غير المدقق، لأن عاقبة عدم تعليق تلك الجلاجل كانت وخيمة بحق، وهو ما جعل المفسرين والشرّاح وبخاصة المعتذرين من الأتباع الأمميين يقعون في حيرة ذات جلاجل في شأن تلك الجلاجل الذهبية. فمن قائل أن الغرض منها كان طرد الأرواح النجسة والأبالسة والشياطين التي يبدو أنها - لسبب غير مفهوم - كانت متكاثرة كالذباب داخل قدس الأقداس وحوله، وأنها كانت حرية بأن تقتل الكاهن الأكبر ما لم يكن مسلّحاً في دخوله ذلك القدس وخروجه منه بتلك الجلاجل التي يقول المفسرون والمعتذرون أنها كانت - برنينها المتواصل - تفزع كل تلك الأرواح النجسة والأبالسة وتجعلها تهرب؛ الى قائل بأن الجلاجل كانت وسيلة لإعلان دخول الكاهن قدس الأقداس حتى لا يكون دخوله اقتحاماً للمكان هكذا بدون استئذان فيقتله يهوه كما يقتل أي مَلِك أرضي كل من دخل لديه بغير استئذان؛ إلى قائلٍ بأن الغرض من الجلاجل كان جعل الواقفين خارجاً يعلمون أن كاهنهم الأكبر كان آخذاً بنشاط في القيام بطقوس خدمة الإله.

(*) ارجع الى "قراءة سياسية للتوراة" ص ص ٢٧٨/ ٢٧٩.

(**) ارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" : "سحر الأعداد".

غير أننا – متى جرؤنا فأعملنا العقل في كل هذه المماحكات التقية – سنجد أنها هزيلة ومسكينة بعض الشيء، بل ومتصفة بالاجتراء. لأنه أي أبالسة وأرواح نجسة تلك التي يمكن أن تتكاثر كأسراب ذباب لزج حول أو داخل مكان مقدس كامن فيه إله عارم سريع الغضب تخرج من منخريه نار آكلة ولا يطيق الدخلاء سواء كانوا آلهة أم شياطين نجسة؟ وكيف يمكن أن يقبل العقل احتياج الكاهن إلى جلاجل يعلن بها دخوله حتى لا يفاجأ به إله يرى كل شيء ويسمع دبيب النملة، داخلاً عليه بغير استئذان، فيغتاظ ويقتله؟

حقيقة المسألة أن تلك الجلاجل الذهبية، تماماً كثمار الرمان، كانت جزءاً من العدّة الشعائرية في عبادات الإلاهة الأم، وأنها – كتطريز ثمار الرمان – استعيرت لعبادة يهوه، ووجدها الشراح والمفسرون الأتقياء فاضحة، فأخذوا يدورون حول أنفسهم متطوحين بحثاً عن مخارج من مأزقها.

ذلك كله يأخذنا من أيدينا – ما لم نحرن خوفاً من هذه المواجهات – ويعود بنا إلى الترافيم التي سرقتها راحيل من خباء أبيها لابان الآرامي وادعى محررو التوراة أن يعقوباً عندما "اكتشف" وجودها بين حريمه أخذها فطمرها، هي والحلقان الذهبية (وتلك الحلقان إشارة أخرى إلى الإلاهة)، تحت بلوطة العائفين، زعماً منهم بأنه فعل ذلك لئلا يغضب يهوه، مع أن الرجل كان في طريقه – كما تقول الحكاية التوراتية ذاتها – ذاهباً ليقيم مزاراً قضيبياً آخر للإله الكنعاني إيل الذي لم يكن حرياً بأن يجد وزراً في حيازة يعقوب وأهله لتماثيل الإلاهة (الترافيم)، سواء كانت لزوجته الإلاهة عشيرة (أشيرا التوراة) أو لابنته الإلاهة عانات.

فإذا ما عدنا إلى تلك الترافيم، وجدنا حيرة بالغة لدى المتخصصين في البحث عن أصل تسميتها. وما أكثر تخميناتهم في ذلك الخصوص. غير أن أصح تلك التخمينات وأقربها إلى الحقيقة، فيما نظن، قد يكون ما قال به أساتذة كجيزينوس، وشولتنز، وايكهورن[*] من أن "التراف" (مفرد "ترافيم") مسمى اشتق من المصدر الثلاثي العربي "ترف"، أي رَغَد وتنعّم وعاش في بحبوحة ووفرة. ونقول أن ذلك الإرجاع قد يكون الأصح والأقرب إلى الحقيقة لأن الإلاهة الأم العظمى التي أطلق ذلك الاسم على تماثيلها المصغرة كانت – في كل عباداتها وبأي اسم دعيت، سواء كان ذلك الاسم إينانا، أو عشتار، أو عشتروت، أو عشيرة، أو عانات – مانحة الوفرة والخصب في الزرع والخصوبة

---

[*] جيزينيوس، فلهلم (Gesenius, Wilhelm) ١٧٨٦ – ١٨٤٢ : عالم العبرانيات واللاهوت وأستاذ كرسي اللاهوت بجامعة هال. ترجم معظم أعماله الى الانكليزية (كامبريدج ١٨٢٥، ونيويورك ١٨٣٥)، وأهمها "الأجرومية العبرية"، و "الموسوعة النقدية في فقه اللغة العبرية".

شولتنز، ألبرت (Schultens, Albert) ١٦٨٦ – ١٧٥٠ : عميد كلية اللاهوت بهولندا وأستاذ اللغات الشرقية والعبرانيات القديمة بلايدن، ومؤسس مدرسة فقه اللغة العبرية بهولندا. من أعماله الهامة كتابه عن المينورا (الشمعدان الشعائري اليهودي)، و "أساسيات اللغة العبرية".

إيكهورن، يوهان جوتفريد (Eichhorn, J. Gottfried). ١٧٥٢ – ١٨٢٧: أستاذ اللغات الشرقية بجامعتي يينا وجوتيجن على التوالي. له دراسة حجة عن العهد القديم، ودراسة عن الأبوكريفا.

في النسل (نسل الإنسان ونسل الماشية) والمنعِمَة باللذة الجنسية، وكلها متطلبات إنسانية من الألوهة اعتبرها إنسان الشرق الأدنى القديم من مقومات العيش الرغد "المترَف".

غير أن هناك أيضاً من يعزو الترافيم إلى تارح أبو ابرام/ ابراهام الذي يبدو أن محرري سفر التكوين رفعوا من ذلك السفر كل ما كان فيه من إشارات إلى صنعه الأوثان لعشيرته، فكان أن تلبثت تلك الإشارات في الحكي غير التوراتي أو ما يسمى بأساطير اليهود واستخدمت كدليل على صلاح ابرام/ ابراهام وتوحيده من بداية الأمر بيهوه إذ صوّر غاضباً مستشيطاً غضباً محطماً أوثان أبيه. إلا أنه وإن كانت صناعة تارح للأوثان قد رفعت من سفر الخروج ونحّيت جانباً إلى المواد غير الكتابية (أي المستبعدة من نص "الكتاب") فإنها أفلتت - فيما يبدو في سفر يشوع الذي وبّخ قومه في أواخر حياته قائلاً إن يهوه أخبره أن آباء "الشعب" سكنوا عبر النهر منذ الدهر وأن تارح أبا ابراهام وأبا ناحور جعلهم يعبدون آلهة أخرى (بما كان يصنعه لهم من أوثان) ولذلك وحرصاً على توحيدية ابرام/ ابراهام فيما يبدو أخذ يهوه ذلك الحبر من عبر النهر وسار به في كل أرض كنعان وأكثر نسله وأعطاه ابنه اسحق حتى لا يعبد إلهاً غيره فيما يستقرأ من النص (يشوع ٢٤ : ٢ و٣).

لكنه، أياً كانت الحيرة (أو التظاهر بالحيرة) فيما تعلق بأصل "تراف" وجمعها "ترافيم"، لم تعد هناك حيرة ولم يعد هناك مجال للتظاهر بها في شأن ماهية تلك الترافيم. فهناك الآن تسليم - من قبيل " ما باليد حيلة" - بأن تلك الترافيم، سواء كانت من طين أو من خزف أو من خشب أو من حجارة، كانت تماثيل معبودات "محمولة" متنقلة أو "منزلية" (عُبدت وطلبت بركتها وقدراتها السحرية في البيوت أو في الخيام كما في حالة لابان أو في السَفَر كما في حالة راحيل) وأنها من تلك "الآلهة الغريبة والدخيلة" التي ظل يهوه يتوجع منها وظل نبييمه يثقلون الوطء على "الشعب" لتعلقه بها. وكما يقول باتاي، توقفنا الحفائر الآثارية بشكل متعاظم الآن على أن العدد الأكبر من تلك "الصور المنحوتة" كان لإلاهات إناث صوّرن في معظم الأمر عاريات مضخّمات الأثداء والأعجاز والبطون والعانات.

هذا الكم المتراكم من الأدلة، متى أضيف إلى مباركة يعقوب اللافتة للنظر، وهو على فراش الموت، بـ "بركات الثديين والرحم" (تكوين ٤٩ : ٢٥)، يدع مجالاً رحباً للغاية في الواقع للتساؤل: هل حقيقة عبد "الشعب" الإلاهة الأم" ملكة السموات كضرب من الزيغ وراء "الزانية" نتيجة للعيش بين الكنعانيين و"تلوُّث" عبادة يهوه بعبادات أولئك الكنعانيين الوثنية المنحطة، كما استمات مؤلفو ومحررو أسفار التوراة وسائر العهد القديم في الادعاء، أم ترى عُبدت الإلاهة الأم العظمى ممن أسمتهم التوراة - تارة - بـ "الآراميين التائهين" (أي "الآباء" وعشائرهم)، وتارة بـ "العبرانيين"، قبل أن يقع موسى صدفة على المعبود القضيبي المؤابي/ المدياني بقرون عديدة؟

- - - - -

(٣) قبل الوثن القضيبيّ كان فرج الإلاهة

قد يكون آمن ما يُرجع اليه في محاولة استقصاء ذلك، أسفار العهد القديم ذاتها، وبخاصة أسفار التوراة، بما احتوته من "تاريخ مقدس" لـ "الآباء". وبطبيعة الحال، يظل ذلك المرجع، على الرغم من وصفنا له بأنه آمن ما يرجع إليه، أي لا سبيل إلى مناقضته، مجموعةً من النصوص المعالَجة التي فعلت فيها أقلام المحررين فعلها بالتنعيم والتلوين والحذف والشطب والإضافة والطمس والتمويه.

ومع كل ذلك، كما قلنا، تظل هناك تلك اللحظات النادرة من شرودٍ الذهن، أو السهو، أو الورع والتورع، التي تركت في النصوص ما يمكن أن يلقي بصيصاً من الضوء يكشف عما اجتهدت أقلام المحررين في طمسه وإخفائه، ومنها - متى عدنا إلى سفر التكوين، قول لابان ليعقوب إثر واقعة سرقة الترافيم:

"إله ابراهام (والمعنى الذي رمى اليه المحرر بذلك أن إله ابراهام هو يهوه) وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا" (تكوين ٣١ : ٥٣).

ومتى تجاوزنا عن إفراد إله واحد فقط لابراهام بمقولة أنه يهوه، رغم تأكيد يهوه ذاته لموسى بعد ابراهام بقرون أن ذلك الحبر وقومه لم "يعرفوه" (خروج ٦ : ٣)، وتوقفنا عند "آلهة ناحور" أي آلهة الأخ الأوسط لابراهام، و "آلهة (تارح) أبيهما"، وجدنا دليلاً توراتياً لا سبيل إلى مناقضته على أن القوم كانوا يعبدون آلهة أخرى كثيرة اختلفت - طبقا لتوضيب النص المعالَج تحريرياً - عن الإله الواحد الذي جعله النص إلها لابراهام.

وذلك ما وثّقه سفر السفّاح توثيقاً لا سبيل إلى التملص منه :

"وجمع يشوع جميع أسباط إسرائيل الى شكيم. ودعا شيوخ إسرائيل ورؤسائهم وقضاتهم وعرفاءهم فمثلوا أمام يهوه. وقال يشوع لجميع الشعب هكذا قال يهوه إله اسرائيل : آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر. تارح أبو ابراهام وأبو ناحور، وعبدوا آلهة أخرى. فالآن اخشوا يهوه واعبدوه بكمال وأمانة، وانزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم الذين في عبر النهر وفي مصر واعبدوا يهوه (وحده). وإن ساء في أعينكم أن تعبدوا يهوه (وحده) فاختاروا لأنفسكم من تعبدون إن كان الآلهة الذين عبدهم آباؤكم الذين في عبر النهر وإن كان آلهة الأموريين الذين أنتم ساكنون في أرضهم. وأما أنا وبيتي فنعبد يهوه".

(يشوع ٢٤: ١ و٢ و١٤ و١٥)

وكلام السفّاح واضح : فـ "الآباء عبدوا آلهة غير يهوه، وغير آلهة الكنعانيين الذين عاش "الشعب" في أرضهم، ولم يكن الأمر كما اجتهد المحررون في تصويره عندما أرادوا

الايحاء بأن يهوه، من مبدأ الأمر، أي من عصر "الآباء"، كان الإله الذي عبده القوم، وأن عبادتهم "الآلهة الغريبة" كانت انحرافاً سببه العيش بين الكنعانيين.

وبطبيعة الحال، يقول النص أن "الشعب" عاهَدَ السفّاح على عدم عبادة أي إله آخر غير يهوه، وهو ما أورده المحرر متهللاً، ومن فرط تهلل أفلتت من قلمه إشارة كاشفة أخرى :

> "وقطع يشوع عهداً للشعب في ذلك اليوم وجعل لهم فريضة وحكماً في شكيم. وكتب يشوع هذا الكلام في سفر شريعة يهوه. وأخذ حجراً كبيراً ونصبه هناك تحت البلوطة التي عند مقدس يهوه. ثم قال يشوع لجميع الشعب. إن هذا الحجر يكون شاهداً علينا لأنه قد سمع كل كلام يهوه الذي كلمنا به فيكون شاهداً عليكم لئلا تجحدوا إلهكم".
>
> (يشوع ٢٤ : ٢٥-٢٧)

فيشوع، في "قطع عهد" يهوه مع "الشعب"، أقام وثناً قضيبياً من حجارة باعتبار أن كائناً ساكناً فيه قد سمع بنفسه تعهد الشعب" بألا يعبد إلهاً آخر غير يهوه. وقبل يشوع بقرون، فعل يعقوب ذلك عندما "أقام عموداً من حجارة وصبّ زيتاً على رأسه" (تكوين ٢٨ : ١٨)، وفعله ثانية عندما أخذ حجراً "وأوقفه عموداً" ليكون ذلك الوثن القضيبي المجسد لمعبوده شاهداً بينه وبين خاله وحميه لابان (تكوين ٣١ : ٤٥).

والذي يرجحه العقل أن هذه الإشارات الكاشفة أفلتت من قلم المحرر أو أقلام المحررين تحت دافع الرغبة في التأكيد على ذكورة المعبود، وهي رغبة تندرج تحت بند الورع والتورع مما أشرنا إليه من عوامل تركت في النصوص ما يمكن أن يلقي بصيصاً من الضوء على ما انصرف الجهد إلى طمسه. ففي مثل هذه المآزق الحجرية بالذات، كان على المحرر أن يوازن بين قوة الدفع العام إلى إخفاء الأصول الحجرية للمعبود وبين فائدة إبراز ذكورته من خلال الإبقاء في النص على ما رُمِّز به قضيبياً. والواضح أن كفة ذلك الإبراز لذكورة المعبود هي التي رجحت، إذ اقتضاه تناسق المعمار الأسطوري الباترياركي القائم على القول بخالق مذكّر للكون والإنسان، والإصرار - في حالة اليهيوية كما صاغتها أقلام مؤلفيها ومحرريها - على القول بأن ذلك الخالق المذكر عُبِد منذ أقدم العصور، أي منذ "عصر الآباء"، وأنه يهوه.

وفي ذلك الشأن، يلاحظ الباحث الاسرائيلي إريك نيومان(٢٠) أن الديانات والأسطوريات الباترياركية عوّدتنا على تصور إله مذكّر بوصفه الخالق الذي - كخنوم في مصر أو كيهوه في العهد القديم - صنع الانسان من طين الأرض، ويقول أنه لما كان الانسان - حسبما تقول تلك الأسطوريات - قد صُنع من تراب (أدامه) فإن اسمه صار آدم، ويشير إلى أن هذه أسطورية لها ما يماثلها في عبادات اليونان، والهند، والصين، "إلا أن الطبقة الأصلية المطمورة المغشّاة تحتها تطالعنا بخالقة أنثى". ويذكّرنا ذلك الباحث بأن

منطقة البحر الأبيض المتوسط شهدت، حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م .، إحياءً لعبادة الإلاهة الأم "التي يبدو أنها كانت المعبودة الأعلى والإلاهة المسيطرة قبل ذلك الإحياء بألفي سنة أخرى، أي منذ بدء "التاريخ المقدس" لخلق العالم كما صنعته أسفار التوراة!.

في حين يورد نيومان هذه الملاحظة، يقول باحث يهودي آخر هو رافائيل باتاي(٢١) أن عامة الناس، من اليهود وغيرهم، ما زالوا يتصورون أن "الديانة العبرانية الرسمية" كانت من مبدأ أمرها ديانة توحيدية بدأت بأبراهام الموحّد بيهوه، غير أن المتخصصّين يعطون ظهور التوحيديّة العبرانية تاريخاً لاحقاً لأبراهام وزمانه ببضعة قرون، إذ يرجعون ظهور بدايات التيار التوحيدي إلى زمن النبييم الأكابر. وبأمانة العالِم، يتحفظ باتاي فيقول أنه يجب أن نأخذ في الحسبان أن إرجاع بدايات التيار التوحيدي حتى إلى زمن النبييم الأكابر يجب أن يؤخذ بحذر وتحفظ نظراً إلى ما وجد طريقه إلى الديانة من عقائد باتت جزءاً لا يتجزأ منها في الأزمنة التلمودية وبالنظر أيضاً إلى ما انطوت عليه الإشارات القبّالية من اعتقاد في تعدد الشخوص في شخص الخالق.

ويوضح باتاي بشكل أصرح ما حاول قوله بهذا الكلام، فيضيف قائلاً إنه بالنظر إلى كل ذلك يتعين أن تُعتبر الألوهة المؤنثة (التي كرّس لها كتابه) جزءاً لا يتجزأ من "الديانة العبرانية – اليهودية".

(٣/أ) الإلاهة ذات القرنين وقرنا موسى

وذلك ما تسانده بقوة الإشارات التي أفلتت من الرقباء (أو تُركت لتفلت كما في حالة النُّصُب القضيبية ليهوه) في نصوص التوراة وسائر أسفار العهد القديم.

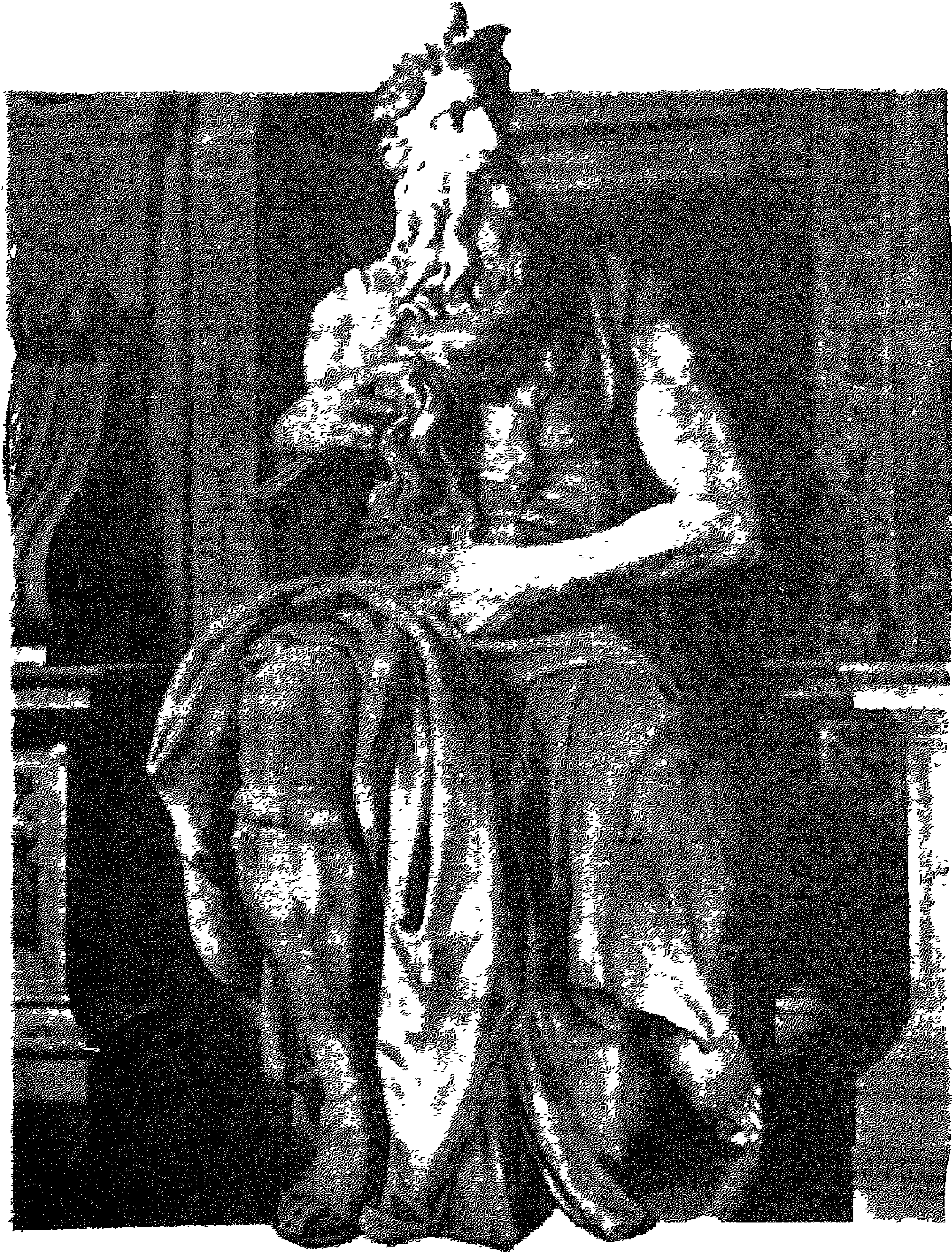
من تلك الإشارات إشارة مقتضبة للغاية في سفر التكوين إلى الإلاهة الأم التي عُبدت من زمن "الآباء"، عشتروت قرنايم (أي عشتار ذات القرنين). حقيقة أن الإشارة وردت بوصفها اسم مكان، إلا أن معبودات الشرق الأدنى القديم أعطت أسماءها باستمرار للأماكن التي كانت مراكز رئيسية لعبادتها. وفي سفر التكوين، نجد أن "كدر لعومر أتى والملوك الذين معه وضربوا الرفائيين في عشتاروت قرنايم (تكوين ١٤ : ٥) وأن "أبرام العبراني" لما سمع أن ابن أخيه لوطاً قد سبي ضمن من سبوا في تلك الحملة "جرّ غلمانه المتمرنين" وحارب المغيرين وكسرهم واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب (تكوين ١٤ : ١٣ – ١٦).

وتوقفنا دراسة الأساطير الآن على أن تلك الإلاهة (عشتار ذات القرنين) تُوّجت بمابدا كقرنين ، لكن ذلك التاج ، لكونها إلاهة قمرية ، كان هلالاً تراءى كقرنين لها . وقد تساعدنا تلك الصورة القرنية على سبر غور الحكاية التوراتية التي قالت إن موسى

عندما نزل من اجتماعه بيهوه على رأسٍ الجبل "كان قد نبت له قرنان في وجهه"(*) . ففكرة نمو قرنين لموسى في رأسه نبعت أصلاً من الرغبة في إعطائه ما يشير إلى تمتعه بقدرة فائقة وسحر عظيم . غير أن إنبات القرنين في رأس موسى كان عملاً من أعمال التأليف أقدم عليه مؤلفو سفر الخروج ثم وُجد بعد ذلك غير مقبول ، فغُيِّر التحول الذي طرأ على هيئة موسى من اختلائه بيهوه على رأس الجبل إلى "لمعان في وجهه" . والمحزن في الأمر أن عملية طمس القرنين لم يضطلع بها المحررون التوراتيون ، بل نهض بعبئها المترجمون الأتقياء ربما عن شعور بالمسؤولية الدينية من جانبهم إكمالاً لجهد المحررين الذي قصر في هذه الخصوصية عن تخليص موسى من قرنين وجدهما المترجمون كاشفين بأكثر مما يجب عن المنابع السحرية التي استمد منها مؤلفو سلسلة حكايات موسى الكثير من مكونات صورته القصصية وخصائصه الشامانية. (الشكل رقم ٤)

والذي يبدو لنا الآن من واقع البحث المقارن أن المترجمين الأتقياء وجدوا تكاثراً غير لائق وغير مقبول في سلسلة الحكايات لملامح كاشفة عن كمون الألوهة المؤنثة فيما وصفه الباحث الاسرائيلي نيومان بـ "الطبقة الأصلية المطمورة المغشاة" تحت أسطورية المعبود الذكر يهوه (وهي الأسطورية التي صنعها له موسى وورثته من كل ما أمكن نهبه له من الديانة المصرية ، ومن أسطوريات وديانات – بل وتشريعات – الشرق الأدنى القديم) .

(*) ارجع في ذلك إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" – "قرنا موسى" ص ص ١٥١ – ١٥٦.



الشكل رقم (٤)
تمثال موسى متوّجاً بقرنيه المهيبين ، لمايكل أنجلو بكنيسة القديس
بطرس بروما - وقد نحت مايكل أنجلو التمثال من واقع ترجمة
سانت جيروم للعهد القديم

(خروج ٣٤ : ٢٩-٣٥)

ونحن ، متى أمعنّا النظر في ذلك النهب الثقافي والاختلاس الديني ، واجدون كمّاً هائلاً من الصفات والوظائف والقدرات قد اختلس ليهوه من الآلهة الآخرين المافسين الذكور الذين اعترف مؤلفو أسفار التوراة بوجودهم جنباً إلى جنب مع يهوه: "من مثلك بين الآلهة يايهوه؟" (خروج ١٥ : ١١) ، وكما تغنى واضعو المزامير: "الرب يهوه إله عظيم . ملك كبير على كل الآلهة" (المزمور ٩٥ : ٣) ، "اسجدوا للرب يهوه يا جميع الآلهة" (المزمور ٩٧ :٧) ، "علوت جداً أيها الرب يهوه على كل الآلهة (٩٧ : ٩) .

ولكننا واجدون أيضاً اجتهاداً خاصاً في التنكر للإلاهات الإناث ، على الرغم مما تنطق به صفات عديدة ، ووظائف وقدرات كثيرة اغتصبت ليهوه من الإلاهة الأم ، جنباً إلى جنب مع ما اختلس له من الآلهة الذكور كحداد/ بعل صفون مثلاً[١] ، وواجدون كذلك – رغم كل تنكر – أن موسى ، أو من ألّف سلسلة حكاياته ، اعترف له بتوسع – في معرض السعي إلى إعلائه وإبراز قدراته السحرية – من أسطوريات الألوهة المؤنثة .

– – – – –

[١] انظر في ذلك "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٢١٧/ ٢١٨ .

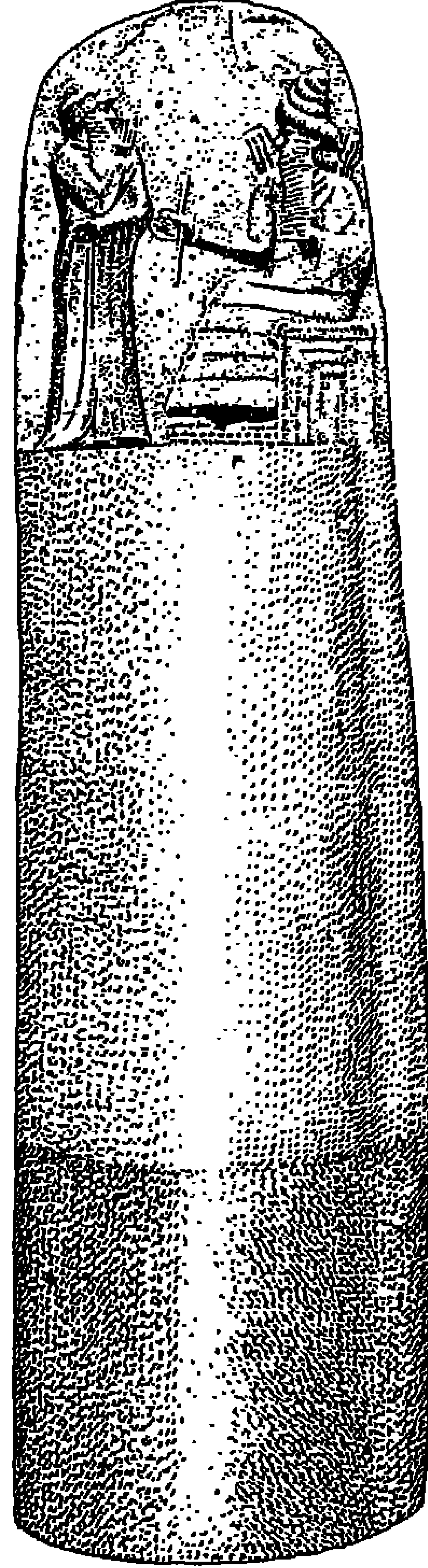
(٣/ب) تجريد الإلاهة الأم لحساب موسى

فموسى، مثلاً، دُعيَ باسم "واضع الشريعة". لكن تلك التسمية المفخّمة تخفي وراءها الإلاهة الأم السومرية/ البابلية نينهورساج. فتلك الإلاهة عُرفت باسم "الإلاهة الجبل". وموسى صعد ليتلقى الشريعة من يهوه، تبعاً لسلسلة الحكايات التي ألفت عنه بعد أن ذبحه السفّاح بقرون، على قمة الجبل. ونينهورساج، التي عُرفت أيضاً باسم "الإلاهة الرحم"، كانت المعبودة التي انتسب إليها الملك البابلي حمورابي فدعى نفسه باسم "ابن نينهورساج". وحمورابي هو الملك المشرِّع الذي اختلست لموسى شريعته ونسبت ليهوه. وهناك بلاطة مخروطية (الشكل رقم ٥) تصوّر حمورابي على قمة الجبل، كما صُوّر موسى في الحكي التوراتي، متلقياً الشريعة من الإله شمش (الشمس)، الذي عُرف سومرياً باسم "أوتو"، وهو إله العدل الذي أعطته الإلاهة الأم العظمى، نينهورساج، تلك الشريعة كما منحته القدرة على رؤية الغيب والتنبوء. فهو – في أساطير بابل – أشبه بكاهنها العرّاف السماوي والموكل بإقامة حكم القانون بين البشر. وفي تلقي حمورابي شرائعه من شمش على "رأس الجبل"، إشارة واضحة إلى نبوع ما حصل عليه ذلك الملك من الإلاهة الأم العظمى، "الإلاهة الجبل".

وكذلك شأن الكثير من "معجزات" موسى الكبرى التي عزيت إلى تفوّق سحر يهوه "الملك على كل الآلهة". فـ "معجزة" العصي والأفاعي واضحة الصلة بالإلاهة الأم العظمى التي كانت الأفعى من رموزها ومن المخلوقات المقدسة لها. و "معجزة" موسى الكبرى، "فلق مياه البحر الأحمر" ليعبر "الشعب" المبارك ولا تبتل له قدم، تضمين أمين، متى استخدمنا هذا التعبير الذي يعني السرقة الأدبية، عن معجزة الإلاهة الأم العظمى آست، أي إيزيس، التي – قبل سرقات موسى بقرون – فلقت المياه وهي عابرة إلى جبيل (بيبلوس)، سعياً وراء تابوت أوزيريس، وهو اختلاس حاول يوسف بن ماتياس التمويه عنه بالإشارة إلى أن "اسكندر المقدوني فلق المياه في غزوه لفارس، فما الذي يمنع من أن يكون موسى قد فلق مياه البحر الأحمر" !(*)

ومعجزة موسى وهرون الدموية التي ادّعى مؤلف تلك الجزئية من سلسلة حكايات موسى أن هروناً تمكن، في قيامه بها تحت إشراف موسى، من تحويل مياه النيل إلى دم وإغراق أرض مصر في ذلك الدم، سرقة هزيلة من الديانة المصرية. فتماماً كما قال مقتبسو أسطورة الطوفان من الأساطير السومرية والبابلية أن يهوه ضاق بزيغ البشر وكثرة معاصيهم فقرر افناءهم بالطوفان، كان الإله الشمس رع – قبل اكتشاف الكاهن المصري الآبق موسى للمعبود القضيبي يهوه بقرون عديدة – قد ضاق ذرعاً بعصيان البشر ولجاجتهم فقرر إفناءهم. إلا أنه لما لم تكن مصر قد تعرضت لما كانت أرض الرافدين تعانيه من فيضانات

(*) انظر في ذلك "قراءة سياسية للتوراة"، ص ٣٢٨.



الشكل رقم (٥)
بلاطة حمورابي – الملك البابليّ يتلقىّ "الشريعة" من الإله شمش
وقد كان شمش ، في ذلك ، الوسيط بين نينهورساج ، الإلآهة الجبل ،
حائزة ألواح الـ "مِي" (الشريعة – الناموس) والملك البشريّ الذي سُرِقت صفته
كمشرّع لموسى واختلِست شريعته ليهوه

(خروج ٢٤ : ١٢)

مدمرة، لم يقرر رع أن يكون الإفناء بالماء، بل كلف "عين رع"، إبنته الإلاهة حت حور (هاتور) بالقضاء على النوع البشري واستئصال شأفته. وإذ نزلت "سيدة السماء" و "الإلاهة الرحم" حت حور إلى الأرض، تقمصتها "القادرة"، ابنة رع الأخرى، الإلاهة سَخمت التي عُرفت بدمويتها الفائقة (فهي الوجه الآخر المدمّر من وجهي الإلاهة الأم منجبة الحياة ومفترسة الحياة ومبتلعتها).

وخاضت سخمت في دماء البشر، فغطى الدم أرض مصر وتحولت مياه النيل إلى دم. وإذ ذاك رق قلب رع وقرر ايقاف المذبحة. لكن حت حور/ سخمت كانت قد انتشت بالدم، فسدرت فيما كانت آخذة فيه من إبادة. ولم يتمكن رع من كبح جماحها إلا بمزيج من الجعة والتراب الأحمر ونبات الماندريك (اللفاح أو "الثعالب الصغيرة" في التوراة ونشيد الأنشاد) كلّف كبير كهنة أون بهليوبوليس بصنعه بكميات هائلة تكفي لجعل كل مكان يمكن أن تطرقه سخمت غارقاً فيه. وإذ استيقظت الإلاهة المدمرة في صباح اليوم التالي لتواصل المذبحة، وجدت الأرض حولها مغطاة، بعمق كبير، بذلك الشراب الأحمر الذي تصوّرته دماً فشربته، وكما أراد رع، سكرت، فهدأت وكفت عن المذبحة.

في تلك الأسطورة المصرية، غير "الدم" الذي سرقه موسى فأغرق فيه أرض مصر وجعل مياه النيل دامية، نجد لفاح التوراة المسمى في نشيد الأنشاد بـ" الثعالب الصغار"، وهو النبات السحري الذي "يهيج الشهوة الجنسية". في الأسطورة المصرية، يُحدِث ذلك النبات أثره الذي أراده رع عندما أمر كبير كهنة أون بمزجه في الجعة، إذ تنسلخ حت حور عن وجهها الآخر الدموي المدمر سَخمت، وتتحول من إلاهة مدمرة إلى إلاهة الحب والشهوة الجنسية، وتدعى - كما أشرنا قبلاً - بـ "الإلاهة الرحم". وفي الاختلاس الموسوي، نجد ذلك النبات السحري المثير للاشتهاء الجنسي مستخدماً في سلسلة حكايات يعقوب وامرأتيه الأختين ليئة وراحيل، كما نجده مستخدماً مموهاً في نشيد الأنشاد.

واقع الأمر أننا إذا ذهبنا وراء تلك السرقات سنجد الكثير الذي لا يكاد يتسع له مبحث واحد، والذي يعنينا هنا استظهار بعض ما اختُلِس في تأليف سلاسل حكايات التوراة من الإلاهة الأم، ومنه ما سبق أن أشرنا اليه من إغراب في بركة يعقوب "بركات الثديين والرحم" (تكوين ٤٩ : ٢٥). فهذه البركة التي ما من شك في أنها غريبة بحق في سياق باترياركي كذلك الذي استمات في إعطائه مؤلفو التوراة ومحرروها، سُرقت من أسطورة مصرية يعود تاريخها إلى عصر الأسرة الثالثة (٢٨٨٧ - ٢٧٨٩ ق.م.) هي نفس المصدر الذي أُخذت منه "السنوات السبع العجاف" لحكاية يوسف.

تقول الأسطورة المصرية إن زوسر، ثالث ملوك الأسرة الثالثة، وصاحب هرم سقارة المدرج، أقلقه هزال أصاب النيل طوال سبع سنين قلّ فيها ماؤه وضعُف فيضانه، ولذا فإنه استشار وزيره الحكيم امحوتب (الذي ألّه بعد مماته، والذي كان مهندس الهرم المدرج)، فنصحه ذلك الوزير باستشارة الكاهنة ماتر، عرّافة الإلاهة ساتحت (التي عُرفت ايضاً باسم

ساتت) في أسوان والنوبة. وإذ بعث زوسر برسله إلى تلك العرّافة، سائلاً إياها عن السبب في شح مياه النيل، أجابته ماتر بأن السبب هو جفاف ثديي الإلاهة، كهفي خرتي، الثديين اللذين تفيض منهما كل النعم "نظراً لغضبها على مصر لإهمال المصريين معبدها المقام على جزيرة اليفانتين.

في الديانة المصرية، أُسبغت هوية ايزيس على تلك الإلاهة فدعيت باسم آست - ساتحت، كما أسبغت عليها في زمان لاحق هوية هاتور، وقد أخذها اليونان ضمن من أخذوا من آلهة مصر وإلاهاتها فأدمجوها في إلآهتهم حيرا(٢٢).

من اسم الإلاهة، وجذره يعني "يفيض" و "يسكب"، نقف على هويتها كوصية على حابي إله فيضان النيل (الذي صُوِّر بثديين)، ومن أسطوريتها نقف على أن كهفها، في أعماق جزيرة اليفانتين، أي رحمها، وُصِف بأنه "مخدع النيل"، ونقف أيضاً على أنها دعيت قبل أن تُجعَل، في العصر الباترياركي من عصور الديانة المصرية، قرينة لخنوم (الإله جابل البشر من الطين على عجلة الخزّاف)، فتؤخذ منها تسميتها القديمة(*) لإله بدئي مذكر هو نون، ليصبح بدلاً منها "الغمر البدئي، هاوية المياه العميقة". ومن إسباغ هوية هاتور عليها، نتبين كيف عُرِفت أيضاً بأنها "إلاهة رحم"، وإلاهة جنس وخصوبة.

ومتى وقفنا على كل ذلك، عدنا إلى تلك البركة التي بدت غريبة ومباغتة في آخر سفر التكوين إذ بارك بها يعقوب وهو على فراش الموت ابنه يوسف (الذي يوجد من الأدلة ما يشير إلى أن مؤلفي حكايته قد يكونون خلطوا بينه وبين زوسر): "بركات الغمر الرابض تحت. بركات الثديين والرحم" (تكوين ٤٩ : ٢٥). وإذا ما عدنا إلى تلك البركة، وجدنا منفذاً آخر عبر جدار التحرير المصمّت يتيح لنا أن نتعقب بعض ما استمات المحررون التوراتيون في تلغيزه من اختلاس لحساب يهوه من الإلاهة الأم.

في ذلك الاختلاس واسع المدى متعدد الطبقات، فعلت فعلها - بطبيعة الحال- مصرية موسى وكهانته لآلهة مصر وإلاهاتها. غير أن الكمّ الهائل المختلَس لعبادة يهوه لم يثبّت كتابة إلا بعد موسى بقرون، وبالآخص في زمن السبي البابلي، وفي بابل بالذات. ولذلك فإن الاختلاس لم يقتصر على الديانة المصرية، بل امتد إلى كل ديانات الشرق الأدنى القديم، من سومر إلى بابل وأشور إلى كنعان. فالجعبة الثقافية الخاوية لمن أطلق عليهم اسم "الشعب" بمقولة أنهم"شعب" بدأ تاريخه من أبراهام وقوم أبراهام، وامتد وجوده عبر موسى إلى زمن القضاة و "الملوك"، اكتظت بما ظل من دعوا بذلك الاسم العام السائب يتسولونه من ثقافات وديانات الشعوب التي حلّوا بأراضيها. وفي زمن السبي، وصل ذلك الكم الهائل المختلط من الاستعارات والاقتباسات والسرقات إلى من وضعوه في صيغته المحررة المكتوبة التي وصلنا بها عبر اجتهادات (وتلفيقات وتدخلات) المترجمين.

(*) وهي نفس تسمية الإلاهة البدئية السومرية نامو.

لذلك نظل نصطدم في تربة العهد القديم كلما حفرنا فيها بحثاً عن "الحقيقة" بمثل ما يعثر عليه الآثاريون في حفائرهم من شظايا أشياء من صنع الإنسان متناثرة هنا وهناك ومغلفة بطبقة هشة للغاية من القداسة باعتبارها "آثاراً إلهية". ومثلما يستقرئ الآثاريون تلك الشظايا والألواح المكسورة والتماثيل والأطلال ليجمّعوا منها "تاريخاً"، يحاول الآخذ في الحفر في تربة التوراة وسائر أسفار العهد القديم أن يستقرئ شظايا الأسطوريات والمعتقدات والممارسات والتقاليد والأفكار التي نُهبت من كنوز ديانات الشرق الأدنى القديم وكُوّمت داخل الجعبة الثقافية التي وصلت إلى محرري التوراة والعهد القديم في بابل فوضّبوها بنشاط وإصرار وحرروها وألصقوها ببعضها البعض مستعينين بما توافر لهم في بابل من تراث ثقافي وديني باذخ ليصنعوا منها كلاً متكاملاً يقيم معماراً دينياً(*) حول معبود كان أصلاً شيطاناً من شياطين البراكين عُبِد، عندما جُسّد، على شكل قضيب مختن منتصب صُنِع من الحجارة وغشي بالذهب.

وهكذا نجد السرقات من مصر مختلطة في ذلك المعمار بالسرقات من بابل ومن سومر ومن كنعان، بل ومن فارس، ملصقة ببعضها البعض، مموّهة ومغشّاة ومرصوصة طبقات فوق طبقات من الحكايات والأساطير والشعائر والطقوس، بادعاء أن ذلك الخليط "تاريخ مقدس"، وأن أجزاءً منه قد أمليت من إله، وأجزاءً قد "كُتبت بإصبعه"، وأجزاء قد جرت كمحادثات ومحاورات ومشاورات بين ذلك الإله وبين مجموعة من العرّافين متعاطي عقار الهلوسة المتطوحين كالدراويش على إيقاعات الدفوف، وأجزاءً قد سُجّلت بأيدي "مؤرّخين" مقدّسين أمناء، وأجزاءً قد تكلم بها "حكماء"، وأجزاء قد هزج بها شعراً ملك معشاق.

وعلى الرغم من الأصل الوثني القضيبي للمعبود البركاني الذي جرت كل تلك السرقات لحسابه، نجد صفحات التوراة وسائر اسفار العهد القديم مترعة بأقوال أجراها المؤلفون وأبرزها المحررون، على لسان ذلك المعبود، إدانة للوثنية والأوثان وتحذيراً من "الصور المنحوتة" وعبادة أية كائنات خفية مما فوق الجلد أو مما تحت الأرض أو في أعماق المياه، ومليئة بتأكيدات عن "لا جنسية" ذلك المعبود القضيبي.

ومثلما ظلت أصول المعبود مغتصَبة مفتعَلة ومليئة بالمتناقضات، ظلت أصول "الشعب" مصنوعة مدعاة ومليئة بضروب التلفيق والإلصاق والإسقاط وراءً على شاشة تاريخ سحيق لم يتمكن العلم - رغم استماتة الباحثين والآثاريين - من إيجاد أي سند

(*) انظر - على سبيل المثال لا الحصر - في شأن عملية لأم وادماج وتوضيب النتف الأسطورية والاقتباسات والإضافات التي وجدت ضرورية لإعطاء مصداقية للحكي [المرجع ٩٢] :
Douglas Knight's contribution on "The Pentateuch", in: "The Hebrew Bible & its Modern Interpreters", eds .Knight and Tucker, Fortress Press, 1985.

وانظر أيضاً المرجع ٩١ :
Martin Noth: "A History of Pentateuchal Traditions", tr. Bernard Anderson, Prentice-Hall, 1972.

حقيقي له. فكل الجهود التي بُذلت وما زالت تبذل بحثاً عن أي نص أو أثر أو شيء مصنوع له أدنى علاقة بأي شخصية من شخصيات الحكي عن "آباء" بدأ بهم وجود "الشعب"، جهود ضاعت وباءت بالفشل. وبالمثل، ظل من غير المستطاع، بالنسبة لأي جهد علمي جاد، الادعاء بوجود أية رابطة بين ما تحكي عنه سلاسل حكايات "الآباء" وبين أية أحداث تاريخية تشير إلى وجود حقيقي لأية أصول تربط ما بين من يدعون اليوم بـ "اليهود" ومن دعوا في التوراة بـ "بني اسرائيل"، و "الشعب"، وبين من وصفوا بإلحاح بأنهم "آباء" أولئك اليهود، أو بني إسرائيل، أو "الشعب".

– – – – –

(٣/ج) فعل القصد السياسي الإقليمي في تمتين الخط القضيبي

في كل ذلك، فعل فعله بقوة القصد السياسي الإقليمي، الأول والأساسي، من تأليف الديانة وتركيبها حول الوثن القضيبي يهوه، أي قصد: (١) تخليق "أمة" موحَّدة، في ظل ذلك الوثن المستورد، من الأشتات التي أُطلق عليها بعد ذلك اسم "الشعب"، و (٢) استخدام تلك الأشتات في انتزاع الأرضِ "التي تفيض لبناً وعسلاً" من أصحابها وإبادتهم والحلول محلهم فيها بوصف ذلك قصداً إلهياً تضمنه مخطط "الله" للعالم والخليقة، (وهو المخطط الذي ظلٍ يوسع منذ ما بعد إعلاء الوثن القضيبي إلى ما فوق الجلد وجعله إلهاًمحتجباً سماوياً للعالم كله مع استمرار احتكار "الشعب" له)(*)، و (٣) إقامة مُلْك على الأرض المنتزعة بعد إخلائها من أهلها يعوّض الكاهن الآبق موسى عما فقده في مصر بموت اختانون وتدمير كهنة أمون للكهنوت الأتوني الذي كان موسى في قمته، ويكافئ الكهنة اللاويين على التفافهم حول موسى ومعاونتهم إياه في فرض شامانيته على الأشتات المطرودة من مصر.

وفي حين غدر اللاويون بموسى عندما بدأت ثمار المغامرة تتضح لهم، فذبحه قادتهم وطمروه في قبر مجهول بالقرب من مركز عبادة بعل فغور، الأصل المؤابي لمعبوده يهوه (تثنية ٣٤ : ٦)، فإن ذلك القصد السياسي الإقليمي ظل القوة المحرّكة للديانة ولورثة موسى اللاويين عبر قيادة السفّاح يشوع لمن دعوا باسم "الشعب"، وعبر تملّك الكهنة باسم "القضاة" حتى عصر "الملوك" الذي بدأ بشاول.

فموسى غرس ذلك القصد السياسي في لحم الديانة، لكن طموحه المعذَّب المحبَط لم يتحقق ويزهر حقيقة إلا بصعود داود إلى "العرش" بعد مصرع شاول. والواقع أن عملية القص واللصق والتوضيب التي تمخضت عن تأليف تاريخ للديانة فيما دعي باسم "الأسفار المقدسة"، أي أسفار التوراة وسائر العهد القديم كما عرفها العالم، نتجت عن ذلك الازدهار المتأخر للحلم الموسوي.

وهكذا فإن التلوين المتصف بما يتغنى به اليوم باحثون كفريدمان من "أستاذية ما بعدها أستاذية"، وإعطاء النبرة الأساسية والتوجّه العام للكل الذي فُبرِك من خلال ذلك القص واللصق والتوضيب، وعن طريق تشكيل الأحداث واختلاقها وتصوير الشخوص روائياً ونسبة الأفعال الخيّرة والشريرة إليها حسب مرمى المؤلف والمحرر، ظل مديناً للطموح السياسي للديانة، ذلك الطموح الذي أينع وازدهر في "العصر الملكي"، ولتصميم الكهنة اللاويين - الذي لم يقف في طريقه شيء : لا الحقيقة، ولا الواقع، ولا التاريخ، ولا العقل - على جعل الخيط متيناً ومتصلاً بين يهوه، وقصده من خلق العالم ومن فيه وما فيه، و

(*) انظر ٩/ب/٥ أدناه : المفارقة الأساسية في أسطورية يهوه وإشكال "عالميته".

"أبوّة" أبراهام، واسحق" ويعقوب لـ "الشعب"، وصولاً إلى بداية تحقق ذلك القصد الإلهي بقيام الملك من نسل يهوذا.

ولعل أوضح دليل يوقفنا على صنع الكهنة الديانة وتاريخها من خلال صياغتهم لـ "الأسفار المقدسة" وصولاً إلى تلك الغاية جعلهم "الأب" يعقوب يختار يهوذا ليكون وريثه بدلاً من ابنه البكر رأوبين رغم وصفه لرأوبين بأنه "قوته وأول قدرته فضل الرفعة وفضل العز" (تكوين ٤٩ : ٣)، وجعلهم إياه يقول ليهوذا: "يهوذا إياك بحمد إخوتك. يدك على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك. يهوذا شبل أسد. . لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع بين رجليه وله يكون خضوع شعوب" (تكوين ٤٩ : ٨ - ١٠). وداود، كما نعرف، سليل يهوذا.

ونحن، متى أخذنا ذلك في الاعتبار، سنتبين وحدة هدف بالغة الفعالية ربطت ما بين المؤلفين والمحررين من الكهنة اللاويين الذين صنعوا كتاب الديانة على ما بين هؤلاء وأولئك من بعد زمني شاسع، حيث يُرجع الدارسون تاريخ تأليف الوثيقتين اليهيوية والإيلوهيمية إلى العصر الملكي (من ١٠٠٠ ق.م.) في حين مارس المحررون عملية القص واللصق والتوضيب خلال القرنين الخامس والرابع ق.م.

ومتى فطنّا إلى وحدة الهدف هذه، سنتبين أن استمرار الخط الذي التزمه المؤلفون والمحررون تطلب واستتبع :

(١) إبرازاً لحكاية الميثاق الذي قطعه الإله الذي يقول خط التأليف والتحرير أنه يهوه، لـ "أب" يقول ذلك الخط أنه أبرام الذي تحول إلى أبراهام : "في ذلك اليوم قطع الرب (بمقولة أنه يهوه) ميثاقاً مع أبرام قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات" (تكوين ١٥ : ١٨). فإبراز عقد التمليك القانوني الإلهي ذاك (وقد كان المحرر الأكبر عزرا رجل قانون فوق كونه "كاتباً متفقهاً في شريعة يهوه") يخدم - كما هو واضح - مشروعية إقامة المُلْك (الهدف الأصلي لموسى من وضع الديانة) ويضفي على خط الإرث كما اجتهد في إرسائه المؤلفون والمحررون ابتداء من آدم ومروراً بنوح وسام، وعبوراً من "الآباء"، ووصولاً إلى يهوذا وسليله داود، مشروعية وديمومة متمتعين بخاتم إلهي لا سبيل إلى مناقضته، ويجعل - بذلك - من داود، الملك، البطل القومي، الوريث الذي بدأ به تحقق "غرض الله من خلق العالم"، ذلك الغرض الذي سيتحقق كاملاً عند مجيء المسيح المنتظر.

وقد تطلب ذلك واستتبع :

(٢) تمتيناً بالغاً لخط الحكي الذي يُرجِع نسب ذلك البطل القومي إلى "الأب" أبراهام(*) حتى يصبح داود المعبر الملكي إلى تحقق ما وسّع إليه حلم موسى المحدود (انتزاع الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً من أهلها وإبادتهم) إلى مجال أوسع وأربح.

وهو ما تطلب واستتبع :

(٣) تمتيناً خاصاً وإحكاماً بالغاً للخط الباترياركي الذي جعل من المعبود البركاني المجسَّد في شكل قضيب حجري مختّن منتصب إلهاً مذكراً لسلالة ملكية باترياركية بادئة بأبراهام، مروراً بإسحق ويعقوب، ووصولاً إلى يهوذا ومنه إلى داود وسليمان.

ولما كانت الديانة قد انبنت على عملية شاسعة من التأليف الأدبي والمراجعة والتحرير خلّق خلالها المعبود وأُبدِعَت أسطوريته كما اختلق "الشعب" وأُبدعت أصوله الأسطورية، لم يصعب إطلاقاً إنجاز ذلك التمتين والإحكام من خلال عملية تطهير تحريري واسعة النطاق لـ "عصر الآباء" عملاً على تنقيته من كل ما كان من شأنه - إذا ما تُرك فيه - أن يكشف عن وجود لألوهة مؤنثة تخل بذلك الإحكام للخط الباترياركي، كما لم يصعب القيام بعملية ترسيخ متصفة بالتصميم لألوهة المعبود الذكر القضيبي يهوه هي ما بات يعرف في رطانة الدراسات التوراتية بـ "حركة يهوه وحده" وهي تسمية توحي بأن "وحده" هذه تعني الاقتصار على عبادة يهوه دون غيره من المعبودات المذكّرة، دونما ذكر لأية ألوهة مؤنثة.

وإذ توقفنا ثقافات وأساطير الشرق الأدنى القديم على أن أي ثقافة من تلك الثقافات (التي تاه بينها "الآراميون التائهون" وتأثروا بها وبعباداتها) لم تخل من عبادة ألوهة مؤنثة، يتبدى لنا مثل هذا التغييب للألوهة المؤنثة في حالة الجماعة البشرية التي جُعِلت هدفاً لـ "حركة يهوه وحده" كضرب من الاعتساف الثقافي والتزييف التاريخي لا يمكن أن يمارس إلا في سياق تأليف روائي محض يسهل على ممارسيه أن يشكّلوا الأشياء ويلونوها وفقاً لأهوائهم وتحقيقاً لمقاصدهم.

ومع ذلك، بقدر من الافتقار إلى "الأستاذية" فيما يبدو، ظلت النصوص ذاتها التي استخدمت روائياً في ذلك التطهير التحريري محتوية على إشارات مقتضبة متناثرة هنا وهناك يكشف التوقف عندها وتعقّب خيوطها عن وجود لا يُدحض للألوهة المؤنثة المنكرة فيها، والمغتصبة رموزها ليهوه.

(*) في كتاب مندنهول تعليق ذكي يقول إن "الأساطير السياسية القديمة أثبتت جدواها كأداة فعالة في التوحيد العقائدي لسكان بينهم اختلافات كثيرة "وأنه" ما من شك في أن الوظيفة الرئيسية (لحكي التوراة كما عولج تحريريا) باتت التأكيد على أن تملك داود على "الشعب" كان بوصفه الخليفة الشرعي للتراث المتمثل في "تاريخ أسرات"(!) ما قبل اسرائيل (أي عشائر الآباء").

انظر في ذلك كتابه :

George Mendenhall: "The Tenth Generation", Johns Hopkins University Press, 1973, pp 182/ 183.

من تلك الإشارات ما تناولناه في حالة مباركة يعقوب ليوسف، وحالة عشـتار ذات القرنين، وحالة قرني موسى وبعض خوارقه، وحالة الترافيم.

- - - - -

(٣/د) اغتصاب رحم الإلاهة ممثلاً في العيون والآبار

ومن تلك الإشارات أيضاً آبار التوراة. فالبئر في أساطير الشرق الأدنى القديم ارتبطت دائماً بالإلاهة الأم ورُمِّز بها الرحم الكوني لتلك الإلاهة. ونحن نجد أن من أهم بطولات يهوه في أسفار العهد القديم انتصاراته على "المياه" كما نلاحظ أنه في أول تعليماته إلى "الشعب" قال "لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن" (خروج ٢٠ : ٤).

في كتابه "الأم العظمى"، يضع الباحث الاسرائيلي نيومان(٢٣) المياه في مكانة مركزية من رمزية الألوهة المؤنثة، مشيراً إلى "المياه التي تحت، مياه الأعماق"، ومسمياً المياه بـ "الرحم البدئي الذي تولد منه الحياة فيما لا يحصى من الأساطير"، ومضيفاً أن المياه لا تنجب الحياة فقط بل وتغذيها من حيث أن كل الكائنات الحية تنمو وتحافظ على بقائها بالمياه التي هي "لبن الأرض"، ويقول أن المياه يمكن أن تربَط رمزياً بالثدي والرحم سواء بسواء (وهو ما يذكرنا بقوة بمباركة يعقوب لابنه "ببركات الغمر الرابض تحت بركات الثديين والرحم"). ويقول ذلك الباحث الهام إن البئر يتبدّى فيها الطابع الأنثوي وأنه ليس من قبيل المصادفة أنها تمثل في الحكايات والأساطير بوابة العالم السفلي والمنفذ إلى مملكة الإلاهة الأرض، أو الأرض الأم.

ونحن، متى أمعنا النظر في حكايات التوراة، واجدون أن الزخم الرئيسي لتلك الحكايات ظل الإنجاب. إنجاب السلالة، إنجاب "الآباء" وإنجاب "الشعب". ومتى أخذنا ذلك في اعتبارنا، وجدنا أن ابتداء كل خط من خطوط ذلك الإنجاب كان عند بئر. فابراهام عندما بعث عبده "ليأخذ زوجة لابنه اسحق"، كان لقاء مبعوثه ذاك برفقة التي أصبحت زوجة لاسحق وأنجبت يعقوباً عند عين ماء : "وقال (العبد) أيها الرب إله سيدي ابراهام يسّر لي الآن واصنع لطفاً إلى سيدي ابراهام. ها أنا واقف على عين الماء. فليكن أن الفتاة التي أقول لها أميلي جرتك لأشرب فتقول اشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً هي التي عينتها (اخترتها لتكون عروساً) لعبدك اسحق. وإذ كان لم يفرغ منَ الكلام إذا رفقة خارجة وجرتها على كتفها" (تكوين ٢٤ : ١٢ - ١٥).

فالعبد، طبقاً للنص المعالَج، طلب معونة الألوهة الكامنة في عين الماء لتختار تلك الألوهة من تصبح زوجة لاسحق، وطبقاً لزخم سلسلة الحكايات، أماً ليعقوب الذي ستخرج من صلبه اسباط "الشعب". وهذه مهمة جليلة للغاية متى أخذنا في اعتبارنا أن سفر التكوين كرّس لتاريخ خلق العالم وكل الأحياء ١١ فصلاً (أصحاحاً) في حين كرّس ٣٩ فصلاً لتلك المهمة.

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة تحت دفع حثيث ولحوح مما توقفنا عليه الدراسة المقارنة للأساطير هو: هل الألوهة التي طلب مبعوث ابراهام العون منها لتختار زوجة

لاسحق كانت "الرب إله سيدي ابراهام"، أم ترى كانت ألوهة مؤنثة، الألوهة الكامنة في المياه والمانحة الخصب والمختصة بالجنس والتناسل، ألوهة الرحم البدئي الكوني الذي انبجست من أغواره كل حياة؟ وإن كان ذلك كذلك، لا شك في أن قلم محرر النص هو الذي طمس ذكر تلك الألوهة المؤنثة خلال عملية القص واللصق، وألصق في الفراغ الذي نجم عن ذلك الطمس "الرب إله ابراهام"، بمقولة أن ذلك الرب هو - منذ ذلك التاريخ - يهوه وحده.

وكذلك كان لقاء يعقوب براحيل التي دُعيت باسم "أم اسرائيل". فيعقوب "رفع رجليه وذهب إلى أرض بني المشرق. ونظر وإذا في الحقل بئر" وعند تلك البئر كان اللقاء، وكانت أول قبلة وبداية حكاية حب طويلة (تكوين ٢٩ : ١ - ١٢).

وكذلك كان لقاء موسى بصفّورة بنت كاهنٍ مديان الذي كان اسمه في بداية الحكي رعوئيل ثم تحول بعد قليل إلى يثرون (طمساً لاسم إيل الإله الذي صارعه يعقوب). فموسى بعد أن قتل المصري وطمره في الرمل" هرب من وجه فرعون وسكن في أرض مديانٍ وجلس عند البئر" وهناك التقى ببنات كاهن مديان السبع (العدد ٧ السحري) وبات نزيلاً في بيت أبيهن الذي أعطاه صفّورة من بينهن زوجة له (خروج ٢ : ١٥ - ٢١).

ومثلما كان إنجاب الأسباط من صلب يعقوب، يمكننا أن نتبين من خط الحكي في سلسلة حكايات موسى أن موسى "أنجب" الشخصيتين الروائيتين الأساسيتين وهما يهوه، و "الشعب" "بإخراجه" الشراذم من مصر وجعلها أمة وجعل يهوه معبوداً لها. فالخروج من مصر، في سلسلة حكايات موسى، كان ميلاداً لـ "الشعب"، والمعبود، وكهنة ذلك المعبود(*).

وبشكل أكثر تحديداً، كان لقاء موسى بصفّورة ابنة الكاهن المدياني عند البئر أشبه، أسطورياً، بابتداء عملية الإخصاب والحمل التي من خلالها وُلِد يهوه، ذلك الوثن الصحراوي البركاني القضيبي المغمور الذي لم يكن أحد قد سمع به قبلاً، باعتراف مؤلف الحكاية الذي أجراه على لسانه. فمن ذلك اللقاء، ابتدأت أسطورية يهوه. ابتدأ الحمل به ونَجَم ميلاده. ولذلك الحمل بالإله سوابق أسطورية لا تحصى في عبادات الإلاهة الأم العظمى في الشرق الأدنى القديم. ففي لاهوتية هليوبوليس، حملت الإلاهة الأم نوت بالآلهة وأنجبتهم. وقد وُصفت ايضاً بـ "أم الأجرام السماوية" وقيل إن تلك الأجرام "تدخل وعاء جسدها من فمها لتولد ثانية من رحمها"، واعتبرت بذلك أم الإله الشمس رع الذي تأخذه داخل جسدها كل مساء لتلده مجدداً كل صباح، وكانت - بذلك - نقطة ابتداء لرمزية البعث في الديانة المصرية. ففيها تمثّل، بقدر كبير من الكمال الأسطوري، وجها الإلاهة الأم العظمى التي تلد كل حياة، والتي تبتلع كل حياة. فمثلما ولدت نوت الآلهة والأجرام

(*) ارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص ٨٩ - ٩١.

السماوية، صُوِّرت في حجرات الدفن وبُطِّنت برموزها التوابيت ليصبح التابوت هو السماء، أي نوت التي تبتلع حياة الميت لتعود فتلده حياً من جديد. وفي الديانة السومرية، حملت الإلاهة الأم نامو بالإله إنكي الذي سُرِقت بعض صفاته ليهوه. وفي الديانة البابلية حملت الإلاهة دامكينا بالإله مردوخ (= أشور في الديانة الأشورية). وقد سُرِق الكثير من أسطورية مردوخ ليهوه، ومنها أسطورة الخلق التي كان بطلها(*) والتي استُخدمت في تأليف سفر التكوين.

ففكرة "الحمل بالإله" ظلت من العدّة الأسطورية لصانعي عبادات الشرق الأدنى القديم، ولم يشذ من وضع عبادة يهوه عن ذلك النمط. وكل ما هنالك من فرق أن "الرجل موسى" كما دعته التوراة أحياناً، أو "رجل الآلهة" كما دعته في أحيان أخرى، كان هو الوعاء الذي قُيِّض لذلك الحمل الأسطوري. وقد لاحظت كثرة من دارسي التوراة أن شخصية يهوه صورت في الحكي على غرار شخصية موسى. فتماماً كما قالت الأسطورة التوراتية أن يهوه "خلق الإنسان على صورته"، يبدو أن موسى في رسمه لشخصية الإله لكهنته فعل نفس الشيء، فخلق ذلك الإله على صورته وبخاصة فيما تعلق بسرعة هياجه، ونفاد صبره، واهتمامه البالغ بـ "المُلْك"، واعتداده بتفوق قدراته السحرية على قدرات كل من عداه (من "الآلهة الدخيلة" في حالة يهوه، ومن الكهنة السحرة في حالة موسى)(**). وما من شك في أن من تولوا تأليف الحكايات وتناقلها من جيل إلى جيل بعد موسى التزموا ذلك الخط في رسم شخصية يهوه في حكيهم، وطوّروه بشكل ظل مفصحاً عن كمون صفات موسى في التصوير الروائي لشخصية المعبود.

والذي يعنينا هنا من كل ذلك، على أية حال، ارتباط عملية الحمل والإنجاب (للأسباط ولآبائها وللمعبود ذاته) أسطورياً، بالقوى السحرية للألوهة المؤنثة المرمَّزة في سلاسل حكايات التوراة بالمياه، وعيون المياه، وآبار المياه.

ومن تعقب حكايات عيون الماء والآبار في التوراة، يبدو أن المحررين لم يفتهم أن تكاثر تلك الآبار ظل قميناً بإشاعة شفافية غير مرغوبة في الحكي يمكن أن تكشف عن الطبقة المطمورة المغشّاة المتعلقة بعبادة الإلاهة الأم قبل يهوه بقرون في زمن "الآباء" وما قبله.

ولم يعدم المحررون حيلة تحريرية تؤمّن النصوص من مثل تلك الشفافية. ففي حكاية هاجر المصرية التي جعلتها التوراة أَمَة لساراي، تقف هاجر على أنها حامل عند عين ماء. وهذا تقليد راسخ في الأساطير. لأن عين الماء هي رحم الإلاهة واهبة الخصوبة وربة الجنس والحمل والولادة. لكن توضيب النص وصياغته في التوراة نطق بعناية خاصة بتذكير الحكي كله:

(*) انظر "قراءة سياسية للتوراة"، أسطورة "عندما في العُلى"، ص ص ١٥٠ – ١٦٥.

(**) انظر "السحر في التوراة والعهد القديم"، الباب الثالث: "سحر من أقوى"؟

"فأذلّتها ساراي، فهربت هاجر من وجهها. فوجدها "ملاك الرب" (إذ لم يجد المحرر من اللائق مع رغبته في التذكير أن يكون الذي يجدها هو يهوه) على عين الماء في البرية. على العين التي في طريق شور. وقال لها يا هاجر يا جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين ؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثّر نسلك فلا يُعَدّ من الكثرة (وهذا هو نفس ما قيل لابراهام قبلاً، بالحرف الواحد، لكن قائله في حالة الحبر كان الإله بشخصه، لا نائبه الملاك). وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا. وتدعين اسمه اسماعيل (سمع إيل) لأن الرب قد سمع لمذلتك. فدعت اسم الرب الذي تكلم معها "أنت إيل رُئي". لذلك دعيت البئر بئر لحى رئي (بئر الحي رُئي)".

(تكوين ١٦ : ٦ - ١٤)

وواضح من تكرار "ملاك الرب" أن ملاك الرب هذه وضعت بإلحاح مكان مسمى آخر. كما أنه واضح من القول في ذلك النص من ٧ إلى ١٢ أن الذي ظهر لهاجر وتكلم معها كان "ملاك الرب"، والقول في ١٣ "فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رُئي (أي أنت إيل قد ظهرت لي ورأيتك رأى العين)" أن النص عولج، وأن معالجته ارتبكت في الأخذ من نصين مختلفين ومن اقحام مسميات مسموح بها مكان المسميات التي رفعت. فالنص يقول أن الذي تكلم معها ملاك، ثم يقول أنه إله وأنها رأته رأى العين وأن البئر دعيت نتيجة لذلك "بئر الحي رُئي".

وكل هذه أشياء تسهل كثيراً على الراغب في جعل النصوص ناطقة بما يريدها أن تنطق به. فنحن - ما لم نبطل عقولنا ونظل "ملكيين أكثر من الملك" ومؤمنين أكثر من أصحاب الحكاية كلها الذين لم يعد منهم من يتمسك بحكاية "الوحي" إذ لم يعد قادراً على ذلك تحت ثقل وصفاقة العلم، ولم يعد في مكنته أن يدّعي أن ذلك الهذيان التلفيقي كله كلام إله - واجدون أننا نتعامل هنا مع نصوص روائية تتغير فيها الأحداث والشخوص والمعاني تبعاً لرغبات المؤلف ومقاصد المحرر.

فلأن "الكومة العشوائية من الحكايات"، كما وصفها سبينوزا، وصلت أيدي المحررين في زمن لاحق لما تدّعي أنها تحكي عنه من أحداث وشخوص وأماكن بقرون كثيرة كثيرة، كان من أسهل الأشياء على أقلام المحررين (وقبلهم، على ألسنة الرواة والمنشدين الجوالين) أن تفعل فعلها في توضيب وتنسيق تلك الكومة العشوائية من الحكايات والإضافة إليها والحذف منها تشذيباً لها وتنقية من كل ما من شأنه الإخلال بالخط الألوهي اليهيوي المذكّر وبث كل ما من شأنه تمتين ذلك الخط.

من تلك الحيل الحكيوية، كما هو واضح، حيلة "بئر الحي رُئي" التي يبدو أن من لجأ إليها شعر بحاجتها إلى التعزيز، فأضاف قائلاً ولسانه في شدقه المبارك" ها هي بين قادش وبارد"(*) (تكوين ١٦ : ١٤)، أي "ومن لم يصدق منكم بوسعه أن يذهب ليرى البئر هناك بين قادش وبارد". وهي حيلة استخدمت ببراعة في الادعاء بأن يهوه كان معروفاً لابراهام، على الرغم من قول يهوه لموسى أن ابراهام لم يعرفه، لا هو ولا سائر "الآباء" باسم يهوه (خروج ٦ : ٣)، بمجرد الزج بكلمتين في النص: "يهوه رئي" (تكوين ٢٢ : ١٤).

وفي اللجوء إلى حيلة "بئر الحي رُئي"، استغل المحرر الجهل الجغرافي الذي ظل باستمرار من أخطر نقاط الضعف الكاشفة في عملية القص واللصق والحذف والإضافة التي مورست بنشاط بالغ في تشكيل تلك الكومة المترهلة المشعثة من الحكايات لتصبح "تاريخاً مقدساً". ذلك الجهل الذي اشترك فيه المؤلفون والمحررون والمستهلكون لتلك الحكايات، تردى فيه المؤلفون والمحررون مرات عن جهل، واستغلوه مرات عن استهانة بكل القيم، وهو جهل يعرفه جيداً كل من درس العهد القديم دراسة ناقدة ويعرف أنه – حيثما استغِل – كان الغرض منه الرغبة في دعم المعمار الروائي الذي تألفت منه الديانة والخط الذي التُزِم في تشييد ذلك المعمار.

ففي النص الذي أوردناه، "يحدد" النص مكان عين المياه التي ذهبت إليها هاجر تعريفاً سائباً مكتفياً بالقول بأنها "العين التي في طريق شور" (تكوين ١٦ : ٧). و "شور" كانت بلدة قرب حدود مصر أطلق اسمها على المنطقة الشمالية المتاخمة للمتوسط من شبه جزيرة سيناء، فعرفت في التوراة بـ "برية شور". وفي سلسلة حكايات ابراهام أنه "انتقل إلى أرض الجنوب (النقب الأعلى) وسكن بين قادش وشور" (تكوين ٢٠ : ١). وفي الحكي المقتضب للغاية عن قوم "سمع إيل" (اسماعيل) أنهم "سكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحور أشور" (تكوين ٢٥ : ١٨). وفي صموئيل الأول أن "شور مقابل مصر" (١٥ : ٧).

فشور، كما نرى، ظلت – في حكايات التوراة وسائر أسفار العهد القديم – نشطة متحركة جيئة وذهاباً، وظلت باستمرار أمام مصر ومقابل مصر وفي أي مكان إلا داخل حدود مصر. غير أننا نفاجأ بها، في سفر الخروج، وقد أصبحت داخل أرض مصر، وقد قامت بينها وبين فلسطين صحراء شاسعة: "ثم ارتحل موسى باسرائيل من بحر سوف وخرجوا إلى برية شور فساروا فيها ولم يجدوا ماء" (خروج ١٥ : ٢٢).

(*) و "بارد" أو "برد" اسم قديم أطلق على بلدة شور في الأزمنة التي تحكي عنها حكايات التوراة. غير أن جريفز وباتاي يَقولان إنه – تبعاً لما ورد في ترجوم يير (Yer) – تبين أن بارد هي "خلسة، وهي بلدة هامة على الطريق من بير سبع إلى مصر".
Graves & Patai: "Hebrew Myths", Anchor, Doubleday, 1989, p.159.

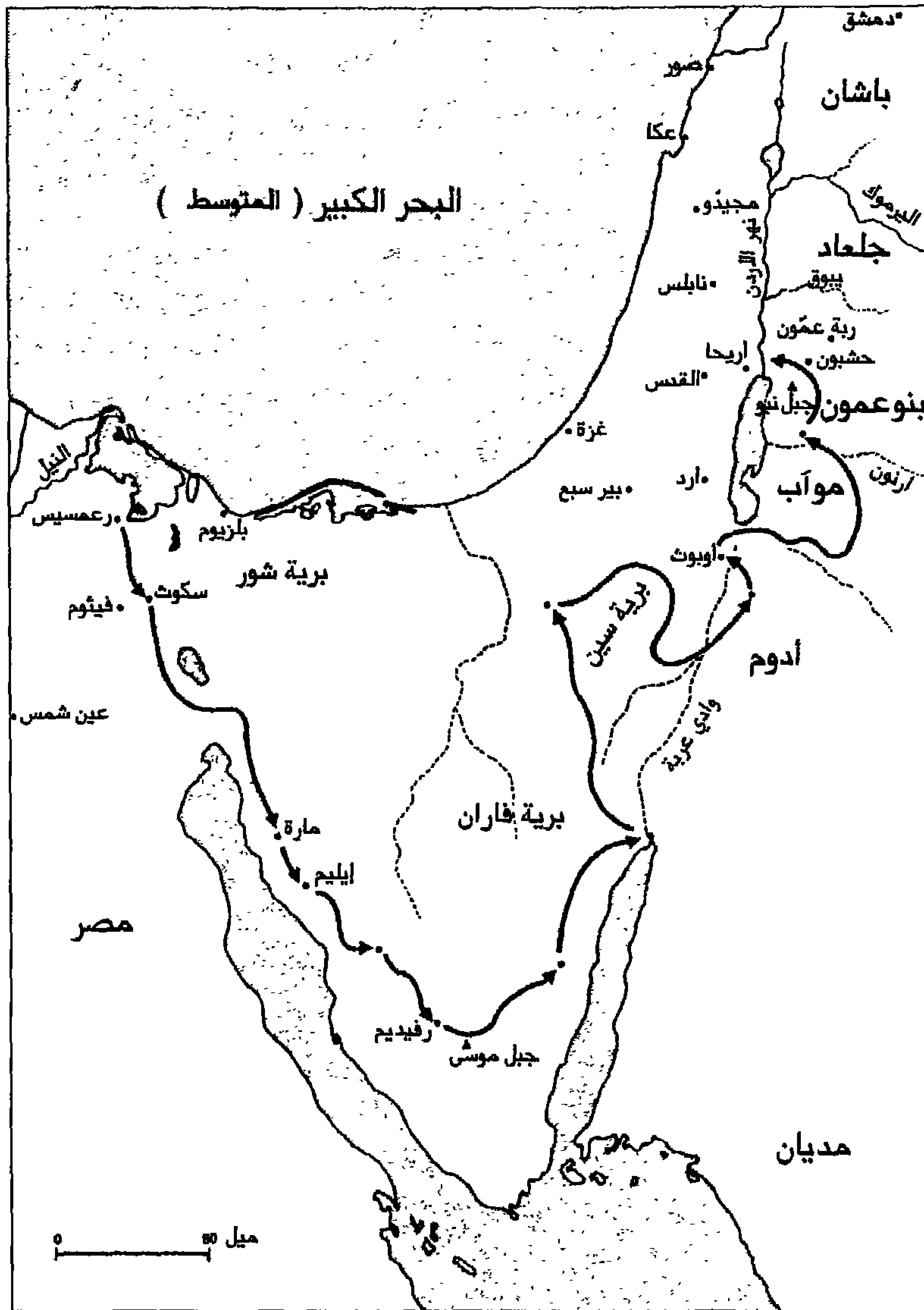
غير أن كل هذا التواثب النزق لا ذنب فيه لشور، البلدة أو الصحراء، فهو من فعل المؤلفين والمحررين، عن جهل أو عن قصد. ولكن لماذا عن قصد؟ هذا ما يوقفنا على سببه، عن غير قصد، يوسف بن ماتياس حين يسجل أن شور هي بيلزيوم(٢٤)، وأن برية شور هي المنطقة الصحراوية المحيطة ببيلزيوم على ساحل المتوسط. فبيلزيوم، كما نعرف(*)، كانت مركز عبادة أَدَدَ/ هَدَدَ/ حدّاد الذي عبده "الآراميون التائهون" (قوم "الآباء" الذين أسمتهم التوراة بذلك الاسم ثم أسمتهم في سفر الخروج بـ "العبرانيين"، ثم بـ "بني اسرائيل") منذ كانوا في سومر وعبدوه بعد ما تغربوا في كنعان فبات بعل حدّاد، وإذ كُنعن، أدخل في بانثيون إيل (الإله الذي صارعه يعقوب وأسمي "إسرا-إيل" لانتصاره عليه) فوحِّد ببعل الكنعاني سيد جبل صفون، وظل من ادعت التوراة أنهم سلالة التائهين يعبدونه في مصر في مركز عبادة أقاموه له شرقي الدلتا بيلزيوم، وظلوا - عندما حاول موسى وكهنته فرض عبادة يهوه عليهم - يخرجون "من تحت يهوه" ويعودون إلى عبادته.

والأشد مراوغة من شور، في حكاية هاجر وحكايات كثيرة غيرها، "قادش". وهو وضع منطقي، لأن أسباب المراوغة فيما يخص "قادش" أخطر وأقوى من أسباب المراوغة في شأن شور.

فسفر التكوين، في حكاية هاجر، وضع قادش في برية شور (تكوين ١٦ : ٦ و١٤). لكن سفر العدد وضعها في برية فاران (انظر الخريطة بالشكل ٦) : فالجواسيس الذين بعث بهم موسى (اثنى عشر جاسوساً من أسباط اسرائيل الاثنى عشر) لتجسس أرض كنعان استعداداً للغزو رجعوا بعد أربعين يوماً (العدد السحري ٤٠)" وساروا حتى أتوا إلى موسى وهرون وكل جماعة بني اسرائيل في قادش في برية فاران" (عدد ١٣ : ٢٦).

لكن نفس السفر ما يلبث أن يضع قادش في برية صين (انظر الخريطة): "وأتى بنو اسرائيل، الجماعة كلها، إلى برية صين وأقام الشعب في قادش وماتت ودفنت هناك ميريام" (عدد ٢٠ : ١). وتأكيداً لوجود قادش في برية صين لا "في طريق شور" ولا "في برية فاران"، يخبرنا نفس الأصحاح من سفر العدد أن "موسى أرسل رسلاً من قادش إلى ملك أدوم (قائلاً) هكذا يقول أخوك اسرائيل.. ها نحن في قادش التي في طرف تخومك دعنا نمر في أرضك" (عدد ٢٠ : ٤١ و١٦/١٧). لكن ملك أدوم رفض وقال لموسى لا تمر لئلا أخرج للقائك بالسيف، "فارتحل بنو اسرائيل الجماعة كلها من قادش وأتوا إلى جبل هور" (عدد ٢٠ : ١٨ و ٢٢). وزيادة في الإتاهة والإرباك، يعود نفس السفر فينقل قادش من حدود أدوم ويضعها باسم قادش برنيع جنوبي بير سبع ويغير ما قرره قبلاً عن خروج

(*) ارجع في شأن ذلك إلى "قراءة سياسية للتوراة" من بنود، "مجدل"، "بعل صفون" وبيلزيوم هي "تل الفرمة" وإلى الجنوب منها حصن مجدل الذي كان من نقاط الحراسة قرب الحدود.



الشكل رقم (٦)

خريطة العالم الحكي التوراتي بيّن واضعها تتبّعه لخط سير المطرودين
من مصر الذين علق بهم موسى وطغمته اللاويّة في حكاية "الخروج" ،
وتبين الخريطة مواقع "البرّيات" المحكي عنها في التوراة "برّية شور" ، و "برّية فاران" ،
و"برّية سين" وموقع قادش برنيع

جواسيس موسى من برية فاران (عدد ١٣ : ٢٦) مؤكداً أن موسى قال لـ "الشعب" "هكذا فعل آباؤكم عندما أرسلتهم من قادش برنيع لينظروا الأرض" (عدد ٢٢ : ٨).

فمؤلفو الحكايات ومحرروها وجدوا مدعاة للتواثب والإتاهة في شأن شور، لكنهم - كما قلنا - وجدوا حاجة أقوى للمراوغة والإتاهة في شأن قادش.

وقد سببت تلك المراوغة حيرة شديدة وضنى سببه التقوى لدى الدارسين والمعتذرين وبخاصة الأمميين منهم. ففي حين تمسك البعض بأن قادش هي هي قادش برنيع، حاول البعض أن يبرهن على العكس، وهو ما ظل متاحاً لهؤلاء وأولئك بفضل تواثب النصوص بذلك الاسم من مكان لآخر في نشاط بالغ وبتصميم واضح على الإتاهة.

غير أن النصوص التوراتية ذاتها، بغير حاجة إلى التعالم المتورِّم بادعاء التقوى التي بغير حدود، أو إلى المجادلات المحتدمة بنيران الإيمان، كفيلة بأن توضح الأمر في شأن قادش بأكثر مما أوضحته مصارحات يوسف بن ماتياس(٢٤) التي أوقفتنا على أن شور هي المُسمَّى الذي أطلقته الشراذم على بيلزيوم طوال الإقامة في "أرض جاسان أفضل الأرض".

فـ "قادش"، اسم الإلاهة قادش(*) (التي حُرِّف اسمها أحياناً لأسباب لا تخفى إلى "قاتش") والتي أدخلت الديانة المصرية كتجسد من تجسدات عشتروت (عشتار ذات القرنين)، ورد ذكرها في التوراة لأول مرة مرتبطاً باسم عشتاروت قرنايم.

ففي سفر التكوين، نجد أن كدر لعومر وحلفاءه، بعد أن ضربوا الرفائيين في عشتاروت قرنايم، ساروا جنوباً عبر أرض مؤاب إلى جبل سعير، أي أرض أدوم، فاجتاحوها، ثم داروا على أعقابهم فـ "رجعوا وجاءوا إلى عين مشفاط التي هي قادش" (تكوين ١٤ : ٥ - ٧).

وعين مشفاط هذه التي عُرفت بعد موسى باسم "عين الوبية" (أي عين البلية) كانت مركزاً رائجاً منذ عصر "الآباء" لعبادة الإلاهة الأم توافدت عليه قبائل البدو الرحل والرعاة سعياً إلى الحصول على "بركات الثديين والرحم" التي بارك بها يعقوب ابنه يوسف، أي بركات الخصب والخصوبة والوفرة، ولسؤال الإلاهة أو كاهنتها، وتقديم النذور. وهو ما يؤكده نص غريب بحق يبدو أنه ترك ليفلت عمداً تمهيداً لما بعده، عن ذهاب موسى "بالشعب" إلى بئر "ترنم موسى عندها بهذا النشيد (الترتيل) : اصعدي أيتها البئر. وأنتم رنموا لها (وقد وردت في الترجمة العربية "أجيبوا لها")" (عدد ٢١ : ١٦ و١٧).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا بإلحاح هو : من خاطب موسى بقوله "اصعدي"؟ بئر ماء ؟ ولمن كان الترنيم الذي أمر به بني اسرائيل؟ لعين ماء ؟.

ويقودنا السؤال إلى سؤال آخر: هل كانت تلك هي البئر التي هربت إليها هاجر من بغي ساراي طلباً للغوث، وعلمت عندها (لا من "ملاك الرب"، بل من الإلاهة أو من

(*) انظر٣/أ أعلاه: "الإلاهة ذات االقرنين وقرنا موسى".

كاهنتها العرّافة) أنها حامل، وأن نسلها من الإبن الذكر الذي كانت حبلى به سيكون نسلاً "لا يُعدّ من الكثرة" أي بوركت من الإلاهة بتلك البركة التي جعلتها تعود إلى مضارب ابرام وتعامل ساراي معاملة الند للند؟ وهو ما يقودنا بدوره إلى التساؤل : ترى هل كانت الإتاهة في شأن موقع البئر وجهاً من أوجه معالجة الحكاية تواكب مع لجوء المحررين إلى رفع الإلاهة من التقليد المتناقل عن زيارة هاجر لذلك المكان المقدس للإلاهة الأم سائلة العون، ومع جعل الحكي مذكّراً بحيلة ملاك الرب" وحيلة "بئر الحي رُئي" حتى وإن اضطروا إلى ذكر اسم إيل صراحة فيما أجروه على لسان هاجر في قولها "أنت إيل رُئي" ؟

ذلك مرجَّح بقوة، وسبب ترجيحه أنه لم يبق أي ذكر في أي موقع له علاقة بقادش لبئر و عين ماء اسمها بئر أنت إيل رُئي، أو بئر الحي رُئي، في حين استمدت قادش اسمها من اسم العين التي فيها وهي "عين قادش" (أي عين المقدّسة)(٢٥).

فقاديش/ قادش/ قاتش (كما حُرّفت) معبودة كنعانية من تجسدات عشتاروت، دخلت الديانة المصرية، كما أسلفنا، بوصفها إلاهة للجماع واللذة الجنسية، وهي - بهذا التخصص - إلاهة حمل وولادة. وسواء كانت معرفة هاجر بها كإلاهة هذا اختصاصها من أرض غربة ابرام، كنعان، أو من وطن هاجر، مصر، فإنه يكون من المنطقي والطبيعي - بمنطق الحكاية - أن تتجه إليها هاجر في محنتها (اضطهاد ساراي لها) لتقف منها على ما ينتظرها، ولتحصل منها على البركة التي يمكن أن تزودها بالسلاح الوحيد في مواجهة امرأة ابرام، أي بمولود ذكر يصبح وريثاً لذلك الحبر. وذلك واضح تماماً في الحكاية. فنحن إذا ما نحينا جانباً "ملاك الرب" الذي أقحم على الحكاية مكان "الإلاهة قادش" أو "قاديشة البئر"، أو "كاهنة الإلاهة"، نجد أن من لاذت بها هاجر وسألتها قالت لها "ها أنت حبلى فتلدين ابناً. وتدعين اسمه إسماع إيل لأن الرب قد سمع لمذلتك" (تكوين ١٦ : ١١). أي : لقد تشفعت لك عند الرب إيل (كبير آلهة كنعان) وسمع لمظلمتك، ولذلك حلت بك البركة فصرت حبلى في ولد ذكر ستلدينه لأبرام، فـ" ارجعي إلى مولاتك (ساراي) واخضعي تحت يدها" (١٦ : ٩)، أي عودي إلى مضارب أبرام وتذرّعي بالصبر واحتملي ما تفعله ساراي بك لأنه "تكثيراً سوف يكثّر نسلك فلا يعدّ من الكثرة" (١٦ : ١٠)، أي ستصبحين بعودتك وولادتك لذلك الإبن أماً لشعوب لا تعد من الكثرة. وهذا عين الوعد الذي تقول سلسلة حكايات أبرام/ أبراهام أن الإله إيل (الإله العليّ) وعده به" واجعل نسلك كتراب الأرض، حتى إذا استطاع أحد أن يعدّ تراب الأرض فنسلك أيضاً يعد" (تكوين ١٣ : ١٦)، "وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال هكذا يكون نسلك" (تكوين ١٥ : ٥). وفي حكاية هاجر، بدا كما لو كان ذلك الوعد سيتحقق عن طريقها. وهو مصير أسوأ من الموت، كما يقولون، لم يكن من الممكن أن تترك مجرد شبهة تشير إليه في صوغ سلسلة حكايات ابرام/ ابراهام، ولذلك عملت أقلام المحررين بنشاط بالغ وبتصميم لا يحيد على "تنقية" النصوص منه وتمتين خط "السلالة" بشطبه.

في هذا الخصوص (حتى نتمكن من فهم أوضاع بالغة التعقيد شديدة المراوغة فهماً سليماً) ينبغي أن نضع نصب أعيننا أن سلاسل حكايات التوراة والعهد القديم كما وصلتنا كُوِّنت من تقاليد مأخوذة من سلاسل حكايات حكيت عن نفس الشخوص (في هذه الحالة "الآباء") بمضامين مختلفة في مناطق جغرافية مختلفة. وفي صوغ الحكي في شكله النهائي بأيدي المحررين، أُخذت تلك التقاليد بمضامينها المتباينة، وجُزِّئت إلى "حلقات" (إن صح التعبير) صغيرة بُعثرت وحُشرت بينها وهي مبعثرة أجزاء تقاليد تحكي حكايات أخرى، ثم صُنعت من تلك التجزئة والبعثرة والحشر النصوص كما وصلتنا.

وابتداء، متى أمعنا النظر في النصوص، ستطالعنا منها سلسلتا حكايات رئيسيتان عن "ابراهامين"، لا عن ابراهام واحد. فهناك سلسلة حكايات أبرام الآرامي، وسلسلة حكايات ابراهام المختّن في لحم غرلته.

– – – – –

(٣/هـ) عمليات الحلول في حكايتي ابرام الآرامي وابراهام المختّن

تبدأ سلسلة حكايات أبرام الآرامي من الخروج الأول، من أور مع أبيه تارح وامرأته العاقر ساراي وابن أخيه لوط، وتستمر عبر الخروج الثاني من حاران مع ساراي ولوط، والخروج الثالث، من مصر مع ساراي، وتنتهي ببلوغ ابرام سن التاسعة والتسعين، فهي سلسلة طويلة استغرقت في النص المحرر من التوراة فصول سفر التكوين (خلق العالم) من ١١ : ٣١ إلى ١٧ : ٤.

وبانتهاء تلك السلسلة، تبدأ سلسلة حكايات ابراهام وفيها - كما يتغير اسم ابرام فيصبح ابراهام، واسم ساراي فيصبح سارة، يتغير اسم الإله من الإله العلي، إيل، إلى الإله القدير، الشدّاي. فالسلسلة تبدأ بظهور إله يقدّم نفسه لبطل الحكاية بقوله "أنا الله القدير"، وكأن الرجل لم يكن يعرفه ولم يكن قد "رآه" قبلاً، على الرغم من أن ابراماً، في سلسلة الحكايات الأولى، كان مخالطاً للإله باستمرار، متكلماً معه، بل ومناقشاً إياه، بل وقائماً له بشعائر كنعانية للغاية (تكوين ١٥ : ٩ - ١١)، بحيث أنه لو كان نفس الشخص (أبرام الذي يقول النص أنه كان قد بلغ سن التاسعة والتسعين في عصور كان متوسط العمر فيها ٣٥ سنة) لما كانت هناك حاجة بالإله إلى أن يقدم نفسه له ويعرّفه بشخصه. فمن الواضح أن ذلك الحكي الجديد ألصق بالحكي المأخوذ من سلسلة حكايات أبرام تأكيداً لمتصلية السيرة التي أُلّفت من سلسلتي الحكايات وتمهيداً لحلول أبراهام محل أبرام بسلاسة وبغير فُواق في السرد ابتداء من قول الإله "لا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك ابراهام" (تكوين ١٧ : ٥). فروائياً، تحول أبرام إلى ابراهام. أما أسطورياً (وقد ارتبط اسم الشخص دائما في العقل القديم بـ "روحه" أو حياته) فبزوال اسم ابرام، مات ابرام في "الآية" رقم ٤، وبظهور اسم ابراهام، ولد ابراهام في "الآية" رقم ٥ من نفس الاصحاح، وبدأت سلسلة (أو بالأصح، بدأت الحكايات التي أخذت للسرد من سلسلة) حكايات ابراهام وسارة.

وكما انتهت سلسلة حكايات ابرام، وبدأت سلسلة حكايات ابراهام وسارة، بدأ الحكي عن نسل جديد، من سارة - هذه المرة - لا من هاجر التي انتهى دورها مع ابرام.

وخلال سلسلة حكايات ابراهام التي استغرقت فصول سفر التكوين من ١٧ : ٥ إلى ٢٥ : ١١، تواثب المحررون، في سياق عملية القص واللصق، بين حبرون (الخليل = نبع إيل = خِلّ إيل) وبير سبع (بير شيبا = بئر القسم)، واضعين جزئية من هذه السلسلة هنا وجزئية من تلك السلسلة هناك عملاً على إدماجهما فيها بوصفها سيرة موحّدة لشخصية واحدة هي شخصية "الأب" ابراهام.

غير أن العملية كانت في الواقع عملية حلول. حلول الشدّاي (وهو اسم قديم من أسماء أَدَدْ/ هَدَدْ/ حدّاد : شدّاد) محل إيل، وحلول ابراهام (الذي كان في الواقع عابد إيل بحكم خلفيته الكنعانية) محل ابرام (الذي كان في الواقع عابد شداد/ الشدّاي، بحكم خلفيته السومرية)، وحلول سارة محل ساراي، والأهم من كل ذلك حلول اسحق محل

اسمعيل. فأول ذكر لإسحق كشخصية رئيسية في سلسلة حكايات ذلك "الأب" الثاني بعد ابراهام، كان وهو آت" من ورود بئر الحي رُئي" (تكوين ٢٤ : ٦٣) وتلك هي بئر عين قاديش التي بدأت عندها سيرة اسمعيل (إسماع إيل).

- - - - -

(٣/و) عين الويبة، الرحم الذي ابتلع موسى

ذلك الحلول المركّب يؤكده النص التوراتي المعالج في قوله أن اسحاقاً "بعد موت ابراهام. سكن عند بئر الحي رئي" (أي بئر قاديش) (تكوين ٢٥ : ١١).

في تحليله لما استخدمت فيه حكايات اسحق في التوارة، يرى مارتين نوث[٢٦] أن تقليد ابراهام – اسحق كان اضافة متأخرة أُدخلت على النصوص عملاً على وصل علاقة النسب بالآباء عوداً إلى الوراء، ويقول أنه "من الواضح أن اسحاق أضيف كأب ليعقوب عن طريق لأمّ تقليد يعقوب وتقليد أسباط راحيل من فلسطين الوسطى بتقليد ابراهام – اسحق الجنوبي، ودمج تلك التقاليد المتوارثة من مناطق جغرافية متباينة في بعضها البعض".

وخلال ذلك الدمج والتمتين لخط النسب الباتريـاركي، استبعِدت تماماً (باستثناء فلتات متناثرة) كل مكوّنات التقاليد المدمَجة التي تعلقت بالإلاهة الأم العظمى، كما رأينا في حالة بئر قاديش التي جُعلت بئر الحي رُئي.

وقد لعبت تلك البئر دوراً بالغ الأهمية في سلسلة حكايات موسى، بل اتخذ نشاط موسى فيما تعلق بها مبرراً لاغتياله هو وهرون قبيل بدء الغزو عن طريق جعل ذلك النشاط "خيانة ليهوه". وقد قلنا إن تلك البئر التي عرفت أصلاً باسم عين مشفاط، ثم باسم بئر قاديش الذي أصبح اسماً للموقع ذاته، قادش، عُرفت بعد موسى باسم عين الويبة، أي عين البلية. والبلية هنا "فضيحة" موسى ونكبته التي انتهت بموته وطمره في قبر مجهول عند بيت فغور بأرض مؤاب.

والحكاية، كما وردت في النصوص المعالَجة، واضحة الاعتساف بشكل لافت للنظر حتى في سياق تأليف روائي قائم على الاعتساف أصلاً.

في سفر المزامير، نجد هذا التحذير لـ "الشعب" من يهوه :

> "لا تقسّوا قلوبكم كما في مريبة (ماء مريبة قادش) مثل يوم مسّة (يوم الغواية) في البرية حيث جربني آباؤكم. اختبروني. أبصروا أيضاً فعلي. أربعين سنة مقتّ ذلك الجيل (الجيل الذي خرج مع موسى) وقلت هم شعب ضالّ قلبُهم لم يعرفوا سبلي".
>
> (مزمور ٩٥ : ٨ – ١٠)

وبعد ذلك بقليل، في نفس السفر، أن "بني اسرائيل" :

> "أسخطوا يهوه على ماء مريبة حتى تأذى موسى بسببهم. لأنهم مرروا روحه (جعلوا حياته مرة بتذمرهم) حتى فرط بشفتيه".
>
> (مزمور ١٠٦ : ٢٢ و٢٣)

وفي الرسالة إلى العبرانيين في العهد الجديد نجد الحكاية متكررة بعبارات كاشفة:

"فلا تقسّوا قلوبكم كما في الإسخاط يوم التجربة في القفر (في نص الملك جيمس : كما في يوم الاستفزاز في يوم الغواية [مسّه] في القفر) حيث جرّبني (استثارني) آباؤكم. انظروا أيها الأخوة (حاذروا) أن يكون في أحدكم قلب شرير عديم الإيمان يرتدّ عن الله الحي". (٣ : ٧ - ٩ و١٢)

ومفتاحنا إلى اللغز هذا القول الوارد بغير لف ولا دوران في الرسالة إلى العبرانيين "حاذروا من أن يكون بينكم من يحدّثه الشر الذي في قلبه بأن يرتد عن الله الحي" الذي لم يعُد يُرى وقت توجيه الرسالة لكنه - في زمن "الآباء" - كان "الإله الحي الذي رُئي".

ولكن يرتد عن "الله الحي" إلى من؟

هذا هو ما نحاول استجلاء غوامضه المتراكبة بعضها فوق بعض طبقات في "ويبة" موسى أو بليته التي مات بسببها:

قبل أن يقتله السفاح بقليل، يقول سفر التثنية أن موسى طلب إلى يهوه أن يريه الأرض، فقال له يهوه:

"اصعد إلى جبل عباريم هذا، جبل نبو الذي في أرض مؤاب الذي قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيتها لبني اسرائيل مِلْكاً. ومت في الجبل الذي تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات أخوك هرون في جبل هور وانضم إلى قومه. لأنكما خنتماني خيانة في وسط بني اسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية صين إذ لم تقدساني في وسط بني اسرائيل". (تثنية٣٢: ٤٨-٥١)

فما هي الخيانة التي ارتكبها موسى وهرون؟

هناك، في الواقع واقعتان في التوراة. أولاهما في سفر الخروج، والأخرى في سفر العدد، وكلتا الواقعتين متعلقة بعين ماء.

في الواقعة الأولى التي يحدد سفر الخروج مكانها برفيديم جنوب غربي سيناء قرب جبل سيناء، أو "جبل موسى" كما يدعى أحياناً، تخبرنا التوراة أن القوم عندما نزلوا في رفيديم "كما أمر الرب"، "لم يكن ماء ليشرب الشعب. فخاصم الشعب موسى وقال اعطونا ماء لنشرب. فقال لهم موسى لماذا تخاصمونني، لماذا تجربون الرب ؟ وعطش هناك الشعب إلى الماء. وتذمر الشعب على موسى وقال لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش ؟ فصرخ موسى إلى الرب قائلاً ماذا أفعل بهذا الشعب ؟ بعد قليل يرجمونني! فقال الرب لموسى مُرّ قدّام الشعب وخذ معك من شيوخ اسرائيل. وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب. ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ اسرائيل. ودعا الموضع مسّة ومريبة من أجل مخاصمة بني اسرائيل ومن أجل تجربتهم للرب قائلين أفي وسطنا الرب أم لا؟" (خروج ١٧ : ١ - ٧).

أما الواقعة الثانية فيحدد مكانها سفر العدد بقادش في صحراء صين، أي على الحافة الغربية للنقب الأعلى وعلى الحدود بين النقب وسيناء وهو المكان الذي يرجح أن هاجر اتجهت اليه يوم هربها من بغي ساراي، فالسائر صوبه يكون سائراً صوب شور داخل الحدود المصرية.

وحكاية تلك الواقعة أن "بني اسرائيل الجماعة كلها أتوا إلى برية صين وأقام الشعب في قادش وماتت هناك ميريام ودفنت هناك. ولم يكن للجماعة ماء فاجتمعوا على موسى وهرون. وخاصم الشعب موسى وكلموه قائلين ليتنا فنينا فناء أخوتنا أمام الرب. لماذا أتيتما بجماعة الرب إلى هذه البرية لنموت فيها نحن ومواشينا ؟ ولماذا أصعدتمانا من مصر لتأتيا بنا إلى هذا المكان الرديء ؟ ليس هو مكان زرع وتين وكرم ورمان ولا فيه ماء للشرب. فأتى موسى وهرون من أمام الجماعة وسقطا على وجهيهما. فتراءى لهما مجد الرب. وكلم الرب موسى قائلاً خذ العصا واجمع الجماعة أنت وهرون أخوك وكلّما الصخرة أمام أعينهم (آمرين إياها) أن تعطي ماء . فتخرج لهم ماء من الصخرة وتسقي الجماعة ومواشيهم. فأخذ موسى العصا من أمام الرب كما أمره. وجمع موسى وهرون الجمهور أمام الصخرة فقال لهم اسمعوا أيها المردة. أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماء ؟ ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين (بدلاً من أن يكلمها آمراً كما أخبره يهوه) فخرج ماء غزير فشربت الجماعة ومواشيها" (عدد ٢٠ : ١ - ١١).

إلى هنا والحكاية تكرار حرفي تقريباً لحكاية الواقعة الأولى التي وضعها سفر الخروج في رفيديم، باستثناء ما أمر به يهوه من تكلم مع الصخرة كيما تخرج ماء، وهو ما لم يفعله موسى على أية حال، إذ فعل نفس الشيء الذي تقول حكاية سفر الخروج أنه فعله في واقعة رفيديم، فضرب الصخرة بعصاه لينبجس منها الماء.

لكن الواقعة الثانية هذه ما لبثت أن انقلبت فجأة (بتحول كتحولات الحلم والكابوس والأسطورة والحكاية الخرافية، مباغت وعديم المنطق) إلى تقصير خطير في حق يهوه من موسى وهرون. إذ أنه بعد انبجاس الماء من الصخرة وارتواء الشعب ومواشيه انقلب يهوه على موسى وهرون قائلاً لهما :

"من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني اسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إياها" (عدد ٢٠: ١٢).

ففي هذا النص لم تكن المسألة قد اختمرت تماماً بعد، لذلك كان المخطئ هو "الشعب" وكان عقاب يهوه لـ "الشعب" قراره بألا يدخل "الشعب" الأرض التي أعطاها له يهوه. وهو ما عززه اختتام الحكاية في ذلك الفصل من سفر العدد بقول الراوية "هذا ماء مريبة حيث خاصم بنو اسرائيل الرب فتقدّس فيهم" (عدد ٢٠ : ١٣).

وابتداء، نلاحظ أن النمط الازدواجي الواضح بقوة في حكايات التوراة تكرر هنا تكراراً لافتاً للنظر. وذلك نمط يحدثنا عنه فريدمان[٢٧] موضحاً أسبابه التكتيكية، فيقول إن أول ما نبه الباحثين الذين بدأوا مابات يعرف باسم "النقد التوراتي" وجود كثرة من الثنائيات

(doublets أي الحكايات التي تتكرر كل حكاية منها مرتين في النص الواحد) في العهد القديم، "فحتى في الترجمة، يسهل على القارئ أن يفطن إلى أن حكايات التوراة تتكرر بتنوع في بعض التفاصيل في مكانين مختلفين من النص".

ويرجع فريدمان ذلك إلى أن الحكي استمد من نصين، أو "وثيقتين"، الوثيقة اليهيوية (Y/J)، التي يقول إنها أُلّفت (فالباحث نحّى جانباً من مبدأ الأمر حكاية إملاء يهوه النصوص على موسى) في يهوذا ما بين ٨٤٨ و ٧٢٢ ق. م .، والوثيقة الايلوهيمية (E) التي يقول إنها أُلّفت في اسرائيل ("المملكة" الشمالية) ما بين ٩٢٢ و ٧٢٢ ق.م.، ثم يتساءل : لمَ كان من المتعين عند التحرير الابقاء على النصين معاً، ولمَ لمْ يكتفِ المحرر أو المحررون بما حكته إحدى "الوثيقتين"، وبالأخص اليهيوية التي كانت أكثر مصداقية وشيوعاً، ويهملوا الأخرى؟

في محاولته إيجاد إجابة على هذا التساءل، يرجح فريدمان أن الاحتفاظ بحكي "الوثيقتين" معاً، وبالتالي تكرّر الحكاية الواحدة مرتين باختلافات في المواقع والتفاصيل (كالاختلاف الذي أشرنا إليه فيما يتعلق بموقع قادش التي وضعت في سفر الخروج جنوب غربي سيناء، ووضعت في سفر العدد على الحافة الغربية للنقب الأعلى على الخط الفاصل بين النقب وسيناء) كان اضطراراً لا اختياراً من جانب المحررين نظراً لأن التقاليد المتضمنة في كلتا الوثيقتين كانت معروفة وشائعة ومحكية على نطاق واسع (من ترديد الكهنة كمنشدين جوالين لها). وذلك ما جعل من غير المستطاع استبعاد الواحدة والاكتفاء بالأخرى بلا عواقب سيئة : "فالمرء لم يكن ليستطيع أن يحكي حكاية عن أحداث وقعت في سيناء دون أن يذكر حكاية العجل الذهبي، مثلاً، خوفاً من أن يهبّ مستمع عارف بتلك الحكاية فيحتج ويتساءل عن السبب في إسقاطها. والمرء لم يكن مستطيعاً أن يحكي عن ابراهام دون ذكر لأحداث الخليل خشية احتجاج مستمع من سكان الخليل"!.

ومن الواضح طبعاً – وهو ما سلم به فريدمان بشجاعة تحمد له – أنه لم يكن بالوسع الابقاء على حكي كل وثيقة من الوثيقتين مستقلاً كتقليد منفصل عن الآخر بوقائعه وسرده للأحداث وتصويره للشخوص، لأنه – بغير ما لجأ إليه المحررون من قص ولصق جزء من هذه الوثيقة هنا وجزء من تلك الوثيقة هناك – كان الحكي كله حرياً بأن يفقد سلطانه الفكري و "الروحي" ويفقد قابليته للتصديق إذ يتكشف عن حكي بشري متناقض بعضه مع بعض بدلاً من أن يصبح كلاماً يلقن لأجيال وراء أجيال من البشر بوصفه "كلام الله" المملى على موسى والذي لا يأتيه الخلط أو التناقض من قدام أو من وراء.

وانتهاء، بعد ملاحظة هذا التلفيق ابتداء، نعود إلى موضوع "الخيانة". ففي أول ذكر للواقعة، انصب اللوم على "الشعب" وكثرة تضرره وعدم ثقته بيهوه، وخصّ "الشعب" بعقوبة عدم دخول الأرض "التي أعطاها يهوه".

لكن المسائل ما لبثت - بعد ذلك - أن تطورت تطوراً مشؤوماً بالنسبة لموسى وهرون. إذ يبدو أن قرار التخلص منهما كليهما كان قد اتّخذ من جانب طغمة من الكهنة اللاويين كان على رأسها ألعازر، ابن هرون، ويشوع السفاح ابن نون خادم موسى.

فبعد أن أنحى النص في الأصحاح ٢٠ من سفر العدد باللوم على "الشعب" ووصف المكان بأنه الموقع "الذي خاصم بنو اسرائيل فيه يهوه فتقدّس يهوه فيهم" (٢٠ : ١٣)، نجد أن الراوية، أو المحرر، أو الاثنين معاً لم يضيعا فرصة الاستفادة من واقعة ماء مريبة هذه في إعطاء عمق إلهي يهيوي لعملية التخلص من هرون ثم من موسى، إذ أن نص نفس الأصحاح، بعد بضعة "آيات" فقط من قوله أن الذين خاصموا يهوه كانوا "الشعب"، جعل يهوه يستدير إلى موسى قائلاً، بعد ما ارتحل القوم من قادش وأتوا إلى جبل هور (وموقعه زئبقي للغاية في النصوص) : "يُضم هرون إلى قومه لأنكم عصيتم قولي عند ماء مريبة خذ هرون وألعازر ابنه واصعد بهما إلى جبل هور. واخلع عن هرون ثيابه (الكهنوتية، أي اشلحه) والبس ألعازر ابنه إياها (نصّب ألعازر مكانه). ففعل موسى كما أمر يهوه وصعدوا إلى جبل هور أمام أعين كل الجماعة. فخلع موسى عن هرون ثيابه وألبس ألعازر ابنه إياها. فمات هرون هناك على رأس الجبل" (عدد ٢٠ : ٢٢ - ٢٨).

فهرون أُخِذ إلى "رأس الجبل" (مكمن يهوه التقليدي أصلاً قبل حكاية التابوت) وذُبح. وليس هناك ما يمكن أن يكشف عن دور موسى في ذلك، وهل كان هو حقيقة الذي صعد مع هرون وذبحه، أم كان الذي صعد وقام بالذبح السفاح. فالنص، كما هو محرَّر وكما وصلنا يقول إن الذي صعد معه موسى ولا يقول إنه ذُبح بل يقول بطريقة غيبية إنه بخلع ثيابه الكهنوتية عنه، مات. وبمنطق الحكاية الخرافية، هذا طبيعي للغاية، فبانتهاء دور الشخصية في الحكاية تختفي أو تموت أو تتبخر أو تحترق أو تبتلعها الأرض أو تتحول إلى مخلوق آخر أو شجرة أو جماد. وقد كان دور هرون منذ البداية وحتى النهاية في سلسلة حكايات موسى أنه أخ لموسى، وأنه يده اليمنى في خبطاته السحرية، وأنه الكاهن الأكبر ليهوه. ولم يستقلّ هرون في أية جزئية من الحكي إلا في واقعة العجل الذهبي التي يبدو من الغريب للغاية أن يهوه لم يعاقبه عليها بإماتته، في حين عاقبه بالموت نتيجة لواقعة غامضة لم يكن له ذنب فيها (اللهم إذا كان ذلك الذنب قد رفع من النص بقلم المحرر) في ماء مريبة قادش.

وبذبح هرون على رأس الجبل، نُفِّذ الجزء الأول من خطة التخلص من القيادة القديمة التي مثلها هرون وموسى، اللهم إلا إذا كان موسى هو الذي ذبح هرون إذ اكتشف بدايات التآمر على التخلص منه هو من جانب الكهنة اللاويين الذين كان هرون رأسهم الحقيقي. وهناك في تاريخ تأليف "الوثائق" وتحريرها ما يشير إلى التأثير الذي باشره ولاء مؤلف هذه الحكاية أو تلك لموسى أو ولاءه لهرون.

غير أن الذي يعنينا هنا، على أية حال، تعقّب خيوط الحكي عن "خيانة موسى وهرون ليهوه عند ماء مريبة قادش" ومحاولة استظهار نوعية تلك الخيانة التي يبدو من الحكي أن يهوه اعتبرها أخطر بكثير من واقعة العجل الذهبي.

ونقطة البدء في ذلك التعقب لخيوط الحكي افتراضنا أن واقعة ماء مريبة قادش استُغلت روائياً (ولن نكل من تكرار أننا هنا بصدد تأليف روائي تصاغ فيه الأحداث وتبرّر، وتصوَّر الشخوص، لتحقق أغراض المؤلف وتحرّر فيه النصوص لتوافق مرامي المحرر) في تغطية عملية تصفية دموية لقيادة "الشعب" قبل البدء في الغزو، وأن استغلال الواقعة في تلك التغطية أعطى العملية عمقاً إلهياً (غضب يهوه على موسى وهرون)، وأضفى عليها مشروعية غيبية استفاد المؤلف والمحرر معاً في إضفائها من الغموض المتعمد الذي سربلا به الحكاية كلها.

فبعد أن كان اللوم، عند أول ذكر للواقعة (ونحن نستخدم "واقعة" هنا جوازاً بمعنى "حدث روائي") منصباً على "الشعب" وحده، كما في نص سفر الخروج الذي ركّز على "مخاصمة" بني اسرائيل ليهوه واستفزازهم إياه بتساؤلهم "أفي وسطنا يهوه أم لا"، أي إن كان حقاً في وسطنا فلم يتركنا نموت عطشاً نحن ومواشينا ؟ (خروج ١٧)، وهو المعنى الذي تأكد في المزمور ٩٥ والمزمور ١٠٦ وتردد في الرسالة إلى العبرانيين، كما أسلفنا، نقول إنه بعد أن كان "الشعب" هو الملوم، وهو الذي "مرّر روح موسى بتذمره حتى فرط موسى بشفتيه"، تحول اللوم كله، في سفريّ العدد والتثنية، فانصبّ على رأسيّ موسى وهرون، واعتبرت الواقعة خيانة منهما ليهوه عقابها الموت (عدد ٢٠، وتثنية ٣٢ و٣٤).

فهل كان ذلك لأن موسى تجاهل أمر يهوه إليه بأن "يكلم الصخرة" لتعطي ماء وفجّر الماء بحيلة السحرة القديمة القديمة: ضرب الصخرة بعصاه السحرية؟

يبدو أنه لا، ويبدو أن الأمر كان مختلفاً كل الاختلاف عما حاول المحررون الإيهام به، فيهوه لم يغضب من واقعة العِجْل الذهبي الغضبة التي اشتعل بها في الحكي بسبب ماء مريبة قادش، على الرغم من الخطورة البالغة لواقعة العجل وانعدام الخطورة (فيما هو وارد بالنص) اصلاً في واقعة تفجير الماء من الصخرة، وهو تفجير تكرر مرتين، بتعليمات من يهوه نفسه (خروج ١٧، وعدد ٢٠).

مفتاحنا إلى محاولة استجلاء اللغز القول الذي يبدو أنه أُفلت من الرقابة في الرسالة إلى العبرانيين بالعهد الجديد، وهو ما قد يكون سببه أن ذلك العهد لم يتعرض لمثل الرقابة الخلاّقة المبدعة التي مر بها العهد القديم. فذلك النص يستعيد ذكرى "يوم الغواية" (مسّة) في القفر، حيث استثار أسلاف العبرانيين الموجهة إليهم الرسالة (أي من خرجوا مع موسى وتاهوا معه في القفر) الرب واستفزوه، ويحذّر من "الارتداد عن الله الحي".

فهل قصد موجه الرسالة أن يشير بطريقة كهنوتية للغاية إلى السر الكامن في تلك الحكاية والذي بسببه اعتبر يهوه كلاً من موسى وهرون خائناً له وأماته، وذلك بتحدثه عن

"الارتداد عن الله الحي" ؟ الارتداد إلى من ؟ والارتداد عن الإله الحي الذي رُئي (في شأن بئر قاديش) بأية طريقة؟

ترى هل يقودنا ذلك إلى قول المزمور ١٠٦ أن بني اسرائيل، بسبب كثرة تذمرهم لقلة الماء، مرروا حياة موسى "حتى فرط بشفتيه" ؟ فرط بشفتيه ففعل أيّ شيء ؟ صلى لرحم الإلاهة، لا ليهوه؟

أتراه قال "اصعدي أيتها البئر، وأنتم يا قوم، يا عطاش، رنموا لها"؟ (عدد ٢١: ٧) حقيقة أن ذلك الاصحاح من سفر العدد (٢١، التالي فوراً للأصحاح ٢٠ الخاص بواقعة ماء مريبة قادش) يقول إن يهوه هو الذي بعث بموسى والقوم إلى تلك البئر:" ومن هناك إلى بئر، وهي البئر التي قال يهوه لموسى اجمع الشعب فاعطيهم ماء (عندها)" (عدد ٢١: ١٦)، إلا أنه – إن كان ذلك هو ما حدث ولم يكنٍ من إبداع المحرر – لمَ لمْ تكن صلاة موسى ليهوه، أو لملاك يهوه، بل كانت للبئر، قائلاً لها "اصعدي" ومستحثا القوم أن "يرنموا لها"؟(*)

إن كان ذلك هو "ما حدث"، استقام تماماً ما أكده سفراً العدد والتثنية من غضب يهوه على موسى وهرون عند ماء مريبة قادش لأنهما هناك "خاناه خيانة" ولم "يقدساه بين بني اسرائيل" أي انتقصا من هيبته باستصراخ الإلاهة أن تهبّ لنجدتهم وتسقيهم ماءً هم ومواشيهم من رحمها، بئرها التي ظلت، منذ زمن الآباء، مقصداً للبدو الرعاة الرحل بقطعانهم والتي أسماها المحررون في حكاية هاجر بـ "بئر الحي رُئي" والتي كان اسمها الحقيقي بئر قاديش، أي بئر الإلاهة قادش، وبات اسمها بعد مصيبة موسى "عين الويبة".

– – – – –

(*) وهو ما قد نجد إشارة إليه في قول إرميا أن يهوه وصف له بني اسرائيل بقوله: "تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آبارا مشققة لا تضبط ماء" (إرميا ٢ : ٣١)

وقد يعزز ذلك الاعتقاد بأن القول الوارد في إرميا أشار إلى السبب في أن يهوه اعتبر الأمر خيانة له من جانب موسى وصف سفر العدد للبئر التي رنم لها موسى قائلاً "اصعدي أيتها البئر" بأنها "بئر حفرها (نقرها في سفر إرميا) رؤساء حفرها شرفاء الشعب بصولجان بعصيّهم". (عدد ٢١ : ١٨).

(٣/ز) طمس الإلاهة ودوره في إفقار اليهودية إلى البعد الأخروي

فـ "الآباء"، الذين بذل من ألفوا حكايات التوراة وحرروها جهوداً لم تكِلّ لاختلاق نسب لـ "الشعب" يربطه بهم، كانوا، كغيرهم من أقوام الشرق الأدنى القديم، يعبدون ألوهة مؤنثة طُمست – خلال تلك الجهود – عبادتهم إياها. وموسى ذاته وكهنته لم يتحرروا من عبادة تلك الألوهة المؤنثة على الرغم من بناء موسى عبادته حول المعبود القضيبي البركاني يهوه. وفي اختتام سلسلة حكايات موسى، استخدمت تلك "الزلة" (التي كانت طبيعية في حالة ذلك الكاهن المصري الآبق الذي نشأ وترعرع في ظل ديانة كانت الإلاهة الأم العظمى آست (ايزيس) من أهم عمدها) في تبرير عملية تصفية موسى وهرون "إلهيا".

وكما هو واضح، وبصرف النظر عن "غيرة" يهوه المشهورة، كان هناك تناقض أساسي بينه وبين الألوهة المؤنثة. فهو وثن قضيبي، والإلاهة الأم العظمى عبدت بوصفها الرحم الكوني الذي وُلد منه الكون وكل المخلوقات، والكهف (القبر – الرحم) الذي يبتلع كل المخلوقات، أي بوصفها المنشأ والمآل. وكما هو ملاحظ في العبادة التي صاغها موسى حول ذلك الوثن القضيبي خلت تلك العبادة تماماً (أو بالأحرى أخلي كل ما اختلس لها من الديانة المصرية القائمة على مفاهيم الخلود والبعث) من بُعد المآل، واقتصر دور المعبود فيها على كونه "المنشأ"، وهو – في التفكير الأنتروبومورفي، التشبيهي – دور القضيب في عملية الإخصاب، ذلك الدور الذي ينتهي بقذف المني في الرحم. وقد اتخذت كل المعبودات القضيبية تلك الصورة، صورة القضيب الكوني الذي – في قمة هياج العاصفة = هزة الجماع التي يبلغ فيها التهيج الجنسي ذروته – يقذف منيه الخالق للحياة في رحم الأرض، وهو – في حالة يهوه – وادي قدرون.

في الديانة المصرية، تلبَّث دور الألوهة المؤنثة حتى بعد التحول الباترياركي، وكان لتلبثه في تلك الديانة دور هام في استمرار مفهوم دورة الميلاد – الموت – الميلاد فيها، وبالتالي تأسسها عقائدياً على مفهوم الحياة الأخرى والانبعاث.

أما في العبادة التي صاغها موسى حول الوثن القضيبي يهوه، فبجانب الرغبة المفهومة من جانب موسى في طمس البعد الأخروي الذي كان كفيلاً بالكشف عن منابع ما اختلِس لمعبوده، كان للاجتهاد في طمس كل وجود للإلاهة الأم العظمى دور بالغ الفعالية في إخلاء عبادة يهوه تماماً من البعد الأخروي(*).

فوق ذلك التناقض الجذري بين يهوه والألوهة المؤنثة، يلاحظ التناقض بين الماء (والماء العنصر المنشئ للحياة وفي الوقت ذاته المبتلع لها في صورته المدمرة، كالطوفان) والنار. ولما كان العقل القديم قد تصور الإلاهة كرحم كوني منجب لكل حياة، ينقلب إلى

(*) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة" : العالم الأخر ومفاهيم البعث والخلود – غيابها من اليهودية والى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص ٤٣٧ – ٤٥٦.

الكهف المبتلع لكل حياة عند الموت ليعود رحماً ينجبها من جديد، ظلت الآبار وعيون المياه من الرموز الأساسية للإلاهة، في حين صُوِّر يهوه باستمرار في العهد القديم بأنه "نار آكلة"، وهي صورة انعكست بقوة في العنف الدموي الذي اتصفت به عبادته، ابتداء من تقديم أبكار الشعب من الذكور كضحايا بشرية له على مذبحه، أي "كمحرقة"(*) ، وانتهاء بإصراره على أن "شعبه" يضل ويخرج من رحمته إذا لم يقم بتنفيذ تعليماته الخاصة بإبادة كل شعب تؤخذ أرضه.

وهكذا فإن كل الأدلة التي يزودنا بها تعقب خيوط الحكي في أسفار التوراة ومحاولة استخلاصها من التعقيدات وضروب الإتاهة والتمويه المتعمدة تقودنا إلى نتيجة مؤداها أن من وصفتهم التوراة بـ "الآباء" لم يشذّوا عن سائر أقوام الشرق الأدنى القديم خلال الأزمنة التي وضعهم مؤلفو التوراة فيها، فسبقت عبادتهم الألوهة المؤنثة أي إفراد لألوهة مذكّرة كذلك الذي اجتهد المؤلفون في نسبته إلى ابرام/ ابراهام بمقولة أن الإفراد كان ليهوه الذي اكتشف موسى وجوده بعد قرون عديدة من تلاشي ابراهام وسلالته من الوجود.

وبطبيعة الحال، يظل قولنا "تلاشي ابراهام وسلالته" متناقضاً مع الزخم الرئيسي بالغ الإصرار للحكي عن يوسف واقامة "الآراميين التائهين" في مصر ومع القصد الجوهري لذلك الحكي وهو وصل نسب من خرجوا مع موسى بيعقوب وقومه، وتبعاً لذلك بـ "الأب الأكبر" أبرام/ ابراهام. غير أن ما يقف في جانب ذلك القول ويواجه زخم الحكي التوراتي ومقصده الصمت المطبق الذي التزمته حكايات التوراة بعد "مجيء" الآراميين التائهين إلى مصر في أعقاب يوسف و "إقامتهم في أفضل الأرض، أرض جاسان" (محافظة الشرقية) وبين "ذلك الملك الجديد الذي قام على مصر ولم يكن يعرف يوسف" (خروج ١ : ٨)، وهو صمت مطبق شكّل هوة فاغرة في الحكي اتساعها أربعمائة سنة، أربعة قرون كاملة.

ومن الواضح في سفر الخروج أن المحرر شعر بوطأة تلك الهوة السحيقة فحاول أن يردمها ببضعة أسطر تحدث فيها عن "أسماء بني اسرائيل (أبناء يعقوب/ اسرائيل) الذين جاءوا مصر" قائلاً إن "جميع النفوس الخارجة من صلب يعقوب كانت سبعين نفساً. ولكن(؟) يوسف كان في مصر. ومات يوسف وأخوته وجميع ذلك الجيل". ورغم أن يوسف وأخوته وجميع ذلك الجيل ماتوا، ورغم أنهم كل من كانوا قد جاءوا إلى مصر، طبقاً للحكي نفسه، فإن المحرر اختتم القول (بغير تفسير يفهم أو يقبله العقل) مؤكداً أنه "أما بنو اسرائيل (أي بنو يعقوب الذين أكد قبل ذلك بأنهم ماتوا كلهم مع يوسف بوصفهم "جميع ذلك الجيل") فأثمروا وتوالدوا ونموا كثيراً جداً وامتلأت بهم الأرض"! (خروج ١ : ١ - ٦).

(*) ارجع الى المرجع السابق نفسه ("السحر"): فدية الابن - تكريس أبكار الشعب.

وكما هو واضح، مطلوب هنا إبطال العقل، والتصديق بغير تساؤل، لأن هذا كلام مملى من إله. غير أنه - مع كل الاحترام الواجب - تظل هناك تلك الهوة السحيقة: أربعمائة سنة، بين "موت يوسف وجميع ذلك الجيل"، وبين من بوغت ملك مصر وذعر فصاح قائلاً "هو ذا بنو اسرائيل شعب أكثر وأعظم منا" (خروج ١ : ٩). فتحت وطأة تلك الهوة من الصمت المطبق الذي حاول المحرر أن يبدده ببضعة أسطر متضاربة متناقضة فيما بينها، يبدو ذلك "الشعب الأكثر والأعظم" لقيطاً روائياً، أي بلا "آباء" على الرغم من التصميم الذي لا يحيد على تزويده، روائياً، بنسب ضارب في القدم يعود إلى منشأ العالم ذاته (منذ ستة آلاف، لا ١٤ بليون، سنة) ابتداء من آدم، ومروراً بنوح، إلى ابراهام.

وعلى ضوء انقطاع الصلة بتلك القرون الأربعة، يكون إبداع موسى لعبادة يهوه نتيجة لعملية الإخصاب والحمل التي بدأت منذ التقائه بصفّورة ابنة كاهن مديان عند البئر، ابتداء، ميلاداً، لمن أسموا بـ "شعب يهوه"، وليهوه ذاته، وتكون ملامح الألوهة المؤنثة التي تظل تباغتنا في سلسلة حكايات موسى، استمراراً لتجلي تلك الألوهة في ديانة موسى الأصلية، الديانة المصرية، ممثلة في آست (ايزيس) وتجلياتها الإلهية الأنثوية (نوت - حت حور (هاتور) وغيرهما من إلاهات العالم القديم)، لا استمراراً لعبادات "الآراميين التائهين" التي ظلوا يستعيرونها أثناء تيههم من عبادات شعوب الشرق الأدنى القديم لإلاهاتها وآلهتها.

- - - - -

(٤) الملكة ذات التيجان السبعين والإلاهة العرش

في ترنيمة بالآرامية لـ "الشكينة" يقول واضعها القبّالي الأشهر اسحق لوريا (١٥٣٤ - ١٥٧٢) أنه استلهمها من ترتيل قديم "يفتح الأبواب على حقول التفاح" في يوم يهوه المقدس، السبت، يرتل اليهود ممجدين "الملكة العروس المتوجة بتيجانها السبعين ..

"تاجاً فوق تاج، في قدس الأقداس،

السيدة التي منها كل العالمين

إذ أنجبتها بالكلمة لتيجانها السبعين.."

وحتى لا نتوه في سراديب القبّالة، نتوقف وقفات قصيرة عند كل "سر" من هذه الأسرار. فـ "الشكينة"(*) كانت أصلاً ابداعاً كهنوتياً استخدم بتوسع وبراعة في التمويه عما وجده المؤلفون الكهنة، في عصور لاحقة بزمن طويل للتأليف الأصلي لأسطورية يهوه، غير متوائم والصورة التي أعطيت لذلك المعبود المخلّق عندما جعل "إلها سماويا أثيريا محتجبا". فبذلك الابداع الشعري/ الأسطوري اللفظي (الذي حوّل فيه الفعل "شكن"، أي سكن وأقام، إلى كيان أنثوي اسطوري، "شكينة") في التخلص من يهوه المتجسد القديم الذي كان ساكناً بشخصه بين "شعبه" داخل تابوت العهد والذي كان يطلع لموسى ثم للسفاح يشوع من داخل ذلك التابوت ليلقي إليهما بتعليماته الدموية وهو متربع على "عرش" محط الرحمة(**)، والقول بيهوه جديد وضيء سكناه بين "شعبه" بالروح ثم بالاسم لا بالتجسد المرئي المسموع الذي ظل الكهنة يحكون عنه منذ اخترعوا أبوّة ابرام/ ابراهام لـ "الشعب" وجعلوا يهوه ينزل لتناول الغداء معه قبل تدمير سدوم وعمورة (تكوين ١٨) إلى أن جعلوه يجلس إلى موسى "يكلمه وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه" (خروج ٣٣ : ١١).

في البدء إذن، عندما أخذ الكهنة يحولون يهوه إلى معبود غيبي، كانت "الشكينة" مفهوماً غائماً تجريبياً غير محدد المعالم عن "سكنى" ذلك المعبود، لكنه فاح في النهاية بعبق أنثوي حميم وغلاب كان هو ما تلقفه القبّاليون تحت شعار "التصوف"، فملأوا صدورهم النشوانة به، واكتشفوا من خلاله درباً دائرية عادت بهم في الواقع إلى الإلاهة الأم العظمى عندما جعلوا من "الشكينة" أماً لاسرائيل، ثم انتهوا بأن جعلوها معشوقة ليهوه زوجة له.

أما "حقول التفاح" فشرحها يطول، وهو شرح سنعود إليه في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وباختصار، نجد أن شجرة التفاح شجرة أضفت عليها الأساطير قيماً سحرية

(*) انظر "الشكينة" بالفصل المعنون "حريم الملك يهوه"، بالباب الأول من الكتاب الثاني: "بورنوجرافيا الدين".

(**) ارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، "خزانة الديانة السحرية"، ص ص ٢١٠ - ٢٩٠ .

وجنسية عديدة ومتنوعة، ونجد أنهـا – لذلـك – قـد اتخـذت مكانـة هامـة فـي القبّالـة، إذ اعتبرت "ثمرة الحياة" التي ما بعدها ثمرة. وقد دعيت الشكينة ببستان التفاح.

وأمـا "الملكـة العـروس المتوجـة بتيجانهـا السـبعين"، فـالمقصود بهـا فـي النـص "الشكينة"، غير أن ذلك يظل اختلاساً آخر بين ما لا يحصى من اختلاسات. فعشيرة (أشيرا العهد القديم) إحدى زوجتي الإله الكنعاني إيل (الذي ابتلعه يهوه)(*)، تجـل كنعـاني لإينانـا (سومر)/ عشتار (بابل) الإلاهة الأم العظمى فـي الهـلال الخصيـب، وصاحبـة ذلـك اللقـب الـذي حازتـه بكونهـا أمـاً لأبنائهـا وبناتهـا مـن آلهـة وإلاهـات مجمـــع الآلهـــة الكنعـاني (الكيدوشيم).(**)

فإذا ما عدنا إلى الترنيمة القبّالية، بعد هــذه الوقفـات القصـار، وفـي أذهاننـا إعـلان الإيمان القبّالي القائل بأن الملكــة أنجبـت كـل العـالمين بــ "الكلمـة" (اللوغـوس، "ليكـن، فيكـون") لتيجانهـا (أبنائهـا وبناتهـا) السبعين، وجدنـا الـترتيل متصـلاً بضراعـة إلـى ملكـة السموات المتوجة هذه أن تغدق من فيض بركاتها، بركات الثديين والرحم التـي بـارك بهـا يعقوب قبل ثلاثة وثلاثين قرناً ابنه يوسف :

"فهي المحتوية لكل موجود بسره المختوم،
وهي المشعة بالنور من داخل قديم الأيام(***)،
وهي التي تنجب من رحمها الخصب
نفوساً جديدة ونفوساً عديدة،
وهي الملاذ السماوي الذي تتحلقه قدراتها فتحرسه
وتصد عنه كل عــدو وكـل شرير وكـل الأبالسـة الذيـن كبلتهـم بالأغلال"(٢٩).

– – – – –

(*) انظر "ابتلاع العليون (الإله العلي) إيل، بالفصل (٨) من الباب الثاني.
(**) انظر الفصل نفسه بالباب الثاني، وانظر أيضاً "الوليمة المسيحانيّة والصانع السـماويّ" بـالفصل (١١) من الباب نفسه أدناه.
(***) "قديم الأيام" مسمّى قبّالي من مسميات يهوه.

(٤/أ) الإلاهة عشيرة وتمثال الغيرة المهيج للغيرة

ففيما بين زمن "الآباء" (١٩٠٠ أو ١٨٠٠ ق. م.)، وبين هذا التصوف القبّالي (القرن السادس عشر الميلادي) ذلك البُعد الشاسع من الزمان والعمق متعدد الأغوار لما مرت به عقول البشر وأرواحهم من خبرات. ومع ذلك، بعدٌ أو لا بعد، عمقٌ أو لا عمق، ظلّت الإلاهة ساكنة الديانة والإله معاً.

وخلال تلك السكنى، سببت ليهوه آلاماً لا توصف ولكهنته أوجاعاً لا تطاق، وظلت مثار "الغيرة" والغيظ الدمويين اللذين لم يكف يهوه عن إبدائهما لكهنته ومتنبئيه تجاه تلك المنافِسة الأنثى، "ملكة السموات"، وتجاه "الشعب" صلب الرقبة الذي لم يرتدع عن عبادتها فجعل المعبود الذكر المستورد من مديان يجأر بلسان إشعياء "يا جميع وحوش البر تعالي. للأكل يا جميع الوحوشِ التي في الوعر أقبلي"! (إشعياء ٥٦ : ٩)، وجعله، ذلك "الشعب" الزاني، ينفجر قائلا "تقدموا هنا يا بني الساحرة نسل الفاسق والزانية. بمن تسخرون وعلى من تفغرون الفم وتدلعون اللسان؟"! (إشعياء ٥٧ : ٣ و٤) ولم يكتف ذلك "الشعب" الزاني طويل اللسان بالسخرية من يهوه، فأمعن في إغاظته، مما جعله يشكو للمتنبئ إرميا:

> "أما ترى ماذا يعملون في مدن يهوذا وفي شوارع أورشليم ؟ الأبناء يلتقطون حطباً والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكاً لملكة السموات. أفإيّاي يغيظون؟".
> (إرميا ٧ : ١٧ - ١٩)

في أسفار النبييم، وبخاصة الإشعياءات الثلاثة(*)، وإرميا، وحزقيال، نار موقدة من الغيظ والغيرة وتهديدات بالذبح : "ها غضبي وغيظي ينسكبان على هذا الموضع على الناس

(*) أدمجت تحريرياً خلال عملية توضيب العهد القديم أقوال ثلاثة متنبئين باسم إشعياء في سفر واحد : فالاصحاحات من ١ إلى ٣٩ تضمنت كلام إشعياء الأول في ظل حزقيا "ملك" يهوذا (٧٢٧ - ٦٩٨ ق.م.) والاصحاحات من ٤٠ إلى ٥٥ تضمنت كلام إشعياء الثاني إبان السبي البابلي (٦٨٥ - ٥٣٩ ق.م.) والاصحاحات من ٥٦ إلى ٦٦ تضمنت كلام إشعياء الثالث بعد زمن السبي (٥٣٩ - ٥١٥ ق.م.).

والأرجح أن ذلك الإدماج لم يكن بدافع التنظيم والتجميع بقدر ما كان لجعل السفر كله يبدو كتنبؤ ما بعده تنبؤ باعتبار كل ما ورد فيه "رؤيا إشعياء بن عاموص التي رآها على يهوذا ويروشلايم في أيام عزّيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا (إشعياء ١:١).

والحيلة التحريرية البارعة هنا أن ما وصف به إشعياء الثاني ما عاصره من أحداث وشخوص عصر السبي وما وصف به إشعياء الثالث ما عاصره من أحداث وشخوص ما بعد السبي بدا كله، من خلال الادماج ونسبة السفر كله إلى متنبئ واحد اسمه إشعياء، كما لو كان عملاً مبهراً من أعمال التنبؤ قام به إشعياء بن عاموص المبارك قبل وقوع ما حُكي عنه بكلام الإشعيائيين التاليين له، لا مجرد تسجيل للأحداث والشخوص قام به إشعياء الثاني وإشعياء الثالث. وبهذه الحيلة المتصفة بالصفاقة المعهودة أو "الشطارة الأستاذية" أمكن جعل سفر إشعياء يبدو متوهجاً بالرؤى النابعة من التقوى وشدة الإيمان.

وعلى البهائم وعلى شجر الحقل وعلى ثمر الأرض فيتقدان ولا ينطفئان" (إرميا ٧ : ٢٠)، "اعبروا في المدينة (يروشلايم) واضربوا. لا تشفق أعينكم ولا تعفوا. الشيخ والشاب والعذراء والطفل اقتلوا للهلاك". (حزقيال ٩ : ٥ و٦).

ومن شدة الغيظ، دهم يهوه المتنبئ الناري حزقيال وهو جالس في عقر داره وفي ضيافته مشايخ يهوذا، في اليوم الخامس من الشهر السادس من السنة السادسة، باليوم والساعة، فمد إليه "شِبْه يد، فأمسكه بشبه اليد من قفاه، ورفعه "روح" بين الأرض والسماء، وأتى به "في رؤى يهوه" إلى يروشلايم، إلى مدخل الباب الداخلي (للهيكل) المتجه نحو الشمال، حيث جلس "تمثال الغيرة المهيج للغيرة"!.

وتمثال الغيرة المهيج لغيرة يهوه هو تمثال الإلاهة الأم في تجسدها الكنعاني، عشيرة، وقد ظل مقاماً حيث رآه حزقيال طوال ٢٣٦ سنة من مجموع ٣٧٠ سنة هي عمر معبد سليمان.

في حين يسلم الأستاذ باتاي[٣٠] بأن عبادة عشيرة أدمجت في "الديانة الرسمية" (أي عبادة يهوه كما مارستها المؤسسة الكهنوتية الحاكمة لـ "الشعب") فباتت جزءاً لم يتجزأ منها، ويقول إن ذلك كان بموافقة عامة من "الملوك" و "البلاط" والكهنة، باستثناءات محدودة للغاية تمثلت في أصوات حفنة صغيرة من النبيين ارتفعت بالمعارضة على فترات متباعدة نسبياً، نجد أن ذلك الباحث الجاد ينكص عن محاولة استظهار الدوافع - التي ما من شك في أنها كانت غلاّبة بقدر جعل الكهنة يوافقون على وضع كذلك - مكتفياً بالاشارة إلى "الإشباع الوجداني". وربما عن شعور بأن ذلك العامل لم يكن كل المسألة، يقول إن "المرء لا يجب أن يستهين" بذلك الإشباع الذي ما من شك في أن عشيرة كانت توفّره لعبادها ("الشعب" وقادته و "ملوكه") وخدّامها (كهنة يهوه) الذين "رأوا فيها الزوجة المحب الوفية لبعل يهوه، وعبدوها بوصفها الإلاهة الأم مانحة الخصب الذي يبدو من الواضح أنهم اعتبروه أعظم النعم طراً".

غير أن ما هو ليس من الواضح هنا (١) لمَ كان مما لا مهرب منه أن يقبل كهنة يهوه، الإله الغيور الواحد الأوحد، بأن يشركوا في عبادة يهوه بإلاهة أنثى أقاموا لها تمثالاً كانوا يسجدون له داخل معبد يهوه متجهين إلى التمثال بوجوههم وظهورهم إلى مكمن يهوه داخل قدسه، ولمَ "زنوا" فجعلوا يهوه يقول لإرميا وهو في غاية الألم: "كخزي السارق إذا وجد (متى أُمسِك متلبساً) هكذا خزي بيت اسرائيل هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم. قائلين للعود (الصارية أي الأشيرة)[*] أنت أبي وللحجر (وثن الإله)

وعلى الرغم من أن نفس الحيلة استخدمت في تحرير أسفار "النبوة" الأخرى، فإن عناية خاصة بذلت في إعطاء سفر إشعياء تلك الصورة، وهو السفر الذي يبرز كأشد أسفار العهد القديم ضراوة في التنبؤ بعلو صهيون النهائي والمحتوم وتسيُّدها على كل الأمم.

(*) وهنا - بغير شك - مكمن "الأستاذية التي ما بعدها أستاذية" التي تغنى بها باحث ملتزم كاليوت فريدمان. وهي أستاذية المغالطة المتصفة بالصفاقة. فلفظة "أشيرا" - لمجرد أن تماثيل من خشب صنعت

أنت ولدتني. لأنهم حوّلوا نحوي القفا لا الوجه (أولوني ظهورهم وسجدوا لعشيرة) وفي وقت بليتهم يقولون قم وخلصنا "(إرميا ٢ : ٢٦ - ٢٨) ؟ ولمَ "فعل كهنة يهوه الشر في عيني يهوه" وجعلوه يقول لهم مهدداً "ويل للرعاة (الكهنة) الذين يُهلكون ويبددون غنم رعيتي. أنتم بددتم غنمي وطردتموها ولم تتعهدوها. هاأنذا أعاقبكم على شر أعمالكم. وأقيم عليها رعاة يرعونها" (إرميا ٢٣ : ١ - ٣)؟

ومن غير الواضح في كل ذلك أيضاً (٢) دور آست (ايزيس) الإلاهة الأم العظمى التي يوجد تسليم عام بأن عبادتها انتشرت من أقدم عصور التاريخ في أرجاء مصر وانتشرت من مصر بين الأقوام المجاورة في فلسطين وسوريا فشكّلت عباداتها، بل وعبرت البحر إلى أثينا وروما.

أما الواضح حقاً فهو أن الوضوح مطلب عسير بالغ العسر في كل محاولة لاستظهار ملامح عبادة الألوهة المؤنثة المطمورة في نصوص التوراة وسائر أسفار العهد القديم وكلها معالَج مضافٌ إليه محذوفٌ منه ومشكَّل بما اتفق ومقاصد من عالجوه وأهمها تصوير "الشعب" متمتعاً باستمرارية ضاربة في القدم، كما أسلفنا، وبأنه اندفق في التاريخ فبدأ ذلك التاريخ ناضجاً توحيدياً بإلهه وديانته بـ "قيادة" نوح أولاً، ثم بـ "قيادة" ابراهام.

- - - - -

للإلآهة عشيرة كما صنعت أيضاً من حجر ومن معادن - جعلت، اعتسافاً، مرادفاً لـ "صارية" ("سارية" في الترجمة العربية، و "أشيره" في الترجمة الانجليزية)، على الرغم من أن أول دخول لـ "صارية " في عبادة يهوه كان من معبد الإله الشمس بعين شمس بمصر استنساخاً للمسلة المصرية التي لم يستطع الكنعانيون و"الشعب" صنعها، فصنعوا بديلاً لها من خشب. والصارية - كما هو واضح - تماماً كعمود الحجارة الذي ظل يعقوب وغيره يقيمونه ويدهنون رأسه بالزيت، رمز قضيبي صريح، تجسيد للقضيب، وإذ تقام "الصارية" في الأرض تقام كترميز لدق قضيب الإله الذكر في فرج الإلاهة الأرض. وفي نص إرميا، وهو "نبي" بارع للغاية في هذه الألاعيب، عُكست الآية، ولكن بطريقة غير متسمة بـ "الأستاذية" إطلاقاً وكاشفة. ففي حين قصد بـ "العود" الصارية (أي عشيرة بلغة العهد القديم)، جُعل "الشعب" يقول لذلك "العود" ("الأشيرا") "أنت أبي". وفي حين قصد بـ "الحجر" العمود، أي الوثن القضيبي، أي تمثال ذكر الرجل، جعل "الشعب" يقول له "أنت ولدتني". وبذلك الخلط، فسدت الحيلة في يد إرميا الهمام إذ عكس - في محاولة الإتاهة - الآية تماماً تمسكاً بحكاية الأشيرا، لكن الأمر اختلط عليه لأنه حكى وفي ذهنه حيلة جعل الإلاهة عشيرة "عوداً من خشب"، وفي ذهنه - في نفس الوقت - تمثال عشيرة المنحوت المقام داخل هيكل يهوه والذي كان "الشعب" يدير القفا" ليهوه، ويسجد للإلآهة أمامه. وفي الكتاب الثاني من البحث استظهار متعمق لمشكلة يهوه مع "عشيرته".

(٤/ ب) "الآباء"، وهل عبدوا الرحم أولاً أم عبدوا القضيب؟

غير أن التوراة ذاتها تصف ابراهام وقومه بأنهم عشيرة من الآراميين التائهين خرجت من أور بأرض الرافدين لـ "تتغرب" في أرض كنعان.

أولئك الآراميون التائهون، الذين هاجروا من أور أو من مضاربهم على مشارف أورٍ عندما بدت نذر الخطر وعدم الاستقرار في أفق أسرة أور الثالثة، كانوا – متى أخذنا تسليماً بمنطق الحكي – قد عاشوا في سومر لآماد طويلة، وبالتالي فإنهم – ما لم نسلم بأنهم كانوا قوماً منحتهم "السماء" مناعة خاصة ضد عوامل التأثر الثقافي – شاركوا سائر سكان سومر، بل وسائر شعوب الشرق الأدنى القديم متي توخينا الدقة، عبادة الألوهة المؤنثة. وذلك ما اجتهد مؤلفو "الأسفار المقدسة" اجتهاداً خاصاً في نفيه بشدة (ولم تكن بأحد حاجة إلى نفي ما لا وجود له ولا داعي لنفيه) مؤكدين أنهم – من خلال صلاح ابرام الذي تحول فيما بعد إلى ابراهام – كانوا موحدين بيهوه طيلة تواجدهم بأور.

غير أن عبادة أولئك القوم كغيرهم للألوهة المؤنثة، رغم كل ذلك الاجتهاد في النفي، وكدأب الحقائق التاريخية التي تطمر تحت كثبان الادعاء، شقت الجلد السميك الذي صنعه المؤلفون ومتّنه المحررون للمعمار الروائي، وخرجت إلى الضوء (الذي قد يكون غسقياً بعض الشيء لكنه ضوء على أية حال) في نوبات الهياج التي انتابت النبييم. ثم جاء العلم الحديث بصفاقته واجترائه، ابتداء من الدراسة المقارنة للأساطير، والدراسة المقارنة للأديان، ومروراً بكشوف علم الآثار، وانتهاء إلى ما بات يعرف باسم "النقد العالي"، فألقى ضوءاً كاشفاً – قد يجده العقل محرقاً لكثير من العُمد الهشة لذلك المعمار الروائي – على ما انصرف الجهد في تأليف "الأسفار المقدسة" وتحريرها إلى نفيه وتغييبه.

والواضح الذي لم يعد الآن بحاجة إلى إيضاح أن هناك استماتة في "توضيب" الحكي وفبركته لينشئ "وقائع تاريخية"، وصلت إلى حد الإقحام لمسميات و "أحداث" القصد منها التأكيد بأن ما أراد المؤلف والمحرر الإيهام به "وقع فعلاً". وقد أوردنا في تعقبنا لخيوط الحكي عن هاجر وهربها من بغي ساراي إلى بئر الإلاهة نموذجاً من نماذج ذلك الإقحام في تسمية البئر بـ "بئر الحي رُئي". وتلك حيلة لجأ اليها المؤلفون والمحررون في شأن ابرام أيضاً.

فبعد أن يخبرنا المؤلف أن "الرب قال لابرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك"(تكوين ١٢ : ١ و٢) نجد ما يشير الى أن المؤلف أو المحرر فطن الى أنه لا وجود في كل ذلك الحكي عن أبرام أو في الحكي عن ابراهام لما يقنع القارىء أويطمئنه الى أن ذلك "الرب" الذي قال لابرام هذا أوذاك من الاشياء وأمره بأن يتختن في لحم غرلته" ليصبح كاملا"(أي ليصبح صاحب قضيب قد وضع عليه المعبود خاتمه بالتختين)، كان يهوه.

ويبدو أن المؤلف أو المحرر، وقد فطن إلى تلك الحقيقة، مارس حرية المبدع قائلاً في سريرته "بسيطة"! وسارع إلى تلافي النقص بأن زج في الحكي بـ "دليل" يثبت أن ذلك "الرب" كان يهوه، وذلك عن طريق القول بأن الأب ابراهام دعا الموضع الذي أوشك أن يقدم فيه ابنه اسحق ضحية بشرية لذلك الرب باسم "يهوه يراه"! (تكوين ٢٢ : ٢٤).

لكن ذلك، لسوء الحظ، تناقض تناقضاً صريحاً (ومبرراً للتشكك في أمانة الراوية والمسجل والمحرر وفي مصداقية الحكي كله وموثوقيته) مع تأكيد يهوه نفسه لموسى في لقاء من لقاءاتهما الأولى قرب خيام المديانيين أنه "لم يُعرف لابراهام واسحق ويعقوب باسم يهوه" (خروج ٦ : ٣).

وبإزاء ذلك، أي القولين نصدق ؟ قول سفر التكوين أن ابراهام عرف يهوه باسمه ودعا الموقع الذي أوشك أن يمارس عنده عادة ذبح الابن تقدمة للإله باسم "يهوه يراه"، أم قول يهوه ذاته لموسى في سفر الخروج أن "الآباء الثلاثة" لم يعرفوه باسمه، يهوه؟

والأدعى للحيرة أن يهوه نفسه، في كلامه مع ارميا نفى نفياً قاطعاً أنه يمكن أن يأمر عباده بمثل هذه الأشياء البربرية التي من قبيل ذبح الأبكار وتقديمهم محرقات :"وبنوا مرتفعات توفه ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار، الأمر الذي لم آمر به ولا صعد على قلبي (ولا خطر لي ببال)" (إرميا ٧:٣١) لأنه، من نصدّق، إرميا ويهوه القائل هذا الكلام لإرميا، أم مؤلف سفر التكوين والإله الذي يقول ذلك السفر أنه قال لابراهام "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واصعد إلى أرض المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك" (تكوين ٢٢ : ٢) ؟.

ولقد لا نختلف على أن الأمر هنا واحد من اثنين: إما (١) أن أحد القولين كاذب، وإما (٢) أن هذا القول تعلق بإله، وذلك القول تعلق بإله آخر، وذلك في أحسن الظن، أما في أسوأه فإن كلا القولين تأليف واختلاق لم يتناوله بالتنسيق والمواءمة محرر يقظ يلتقط مثل هذه التناقضات وينقّي النصوص منها صوناً لموثوقيتها وقابليتها للتصديق.

والذي يرجحه العقل، متى جنح إلى حسن الظن، وساير النصوص فيما قالته، أن الأمر تعلق في أحد القولين بمعبود ذي صياغة قديمة، وتعلق في القول الآخر بمعبود آخر ذي صياغة أحدث وأكثر نقاء. وتشبثاً بحسن الظن، قد يجد العقل أن الفيصل في الموضوع ما قاله يهوه ذاته لموسى قرب خيام المديانيين من أنه "ظهر لابراهام واسحق ويعقوب بأنه الإله القادر على كل شيء"، كما تقول الترجمة العربية "ظهرت بأني"وصحتها "ظهرت لهم باسم"، أما "الإله القادر على كل شيء" فتنعيم لـ "الشدّاي"، "القوي القدير"، شدّاد، حدّاد، وكلها "سير قديمة" رأى المترجمون الأتقياء (إلى العربية وفي ترجمة الملك جيمس) أن من الأفضل كنسها تحت سجادة "القادر على كل شيء"، لأنه منذا الذي يعترض على تسمية الإله بـ "القادر على كل شيء"؟

وهكذا فإنه، بين الشدّاي ويهوه، تردّت محاولات القول بتوحيد يهوه منذ عصر "الآباء" في تناقض ضار بالمصداقية في شأن المعبود موضوع ذلك التوحيد، وهو تناقض تمثّل في تكذيب أحد أسفار التوراة للسفر الذي يليه، بل وفي جعل الإله ذاته يبدو (في سفر الخروج) غير دارٍ بأن ذلك الرجل الصالح الطيب ابراهام كان يعرفه من قديم وأنه دعا الموضع الذي أخذ ابنه ليقدمه محرقة فيه باسمه، يهوه.

– – – – –

(٤/ج) أور، المقلقة لراحة الأتقياء

فالصورة المثالية المعلاّة لـ "الشعب" بوصفه وجوداً بشرياً ذا خصوصية عرقية وثقافية بادئة من بداية العالم والنوع البشري، وممتدة وضيئة موحّدة بيهوه، منذ ذلك الوقت، وعبر الآباء ووصولاً إلى موسى، صورة جعلتها تناقضات النصوص ذاتها مهزوزة مثيرة للشك باعثة على الحيرة.

ثم جاء علم الآثار، فزاد الطين بلة. وفي الواقع جعل تلك الصورة تتزلزل وتمتلئ بالكسور والشروخ منذ الربع الأول من القرن العشرين بفعل كشوفه المتلاحقة في أرض الرافدين وبما أثارته تلك الكشوف من مناظرات بالغة الحدة كانت بدايتها تعليقات سير تشارلس برنارد وولي، عالم الأثريات البريطاني الذي رأس البعثة الآثارية البريطانية الأميركية المشتركة إلى تل المقجّار سنة ١٩٢٣.

فبعد الكشف عن أور (التي دعتها التوراة بـ "أور الكلدانيين") تحت ركام تل القار ذاك، كتب وولي كلاماً[٣١] أثار ثائرة كثيرين أكد فيه أنه بات متعيناً، على ضوء ذلك الكشف، "تعديل الرؤية التقليدية "للأب العبراني" (ابراهام) تعديلاً جذرياً، بعد أن كشفت الحفائر عن نوعية البيئة بالغة التحضّر التي قضى فيها صدر حياته. فقد عاش الرجل، فيما بيّنت الحفائر، في رحاب مدنية عظيمة، وكان - بالتالي - وريثاً هو وقومه لتراث حضارة عريقة ذات تنظيم رفيع اكتشفنا الآن نسخاً من ترانيمها الدينية التي كانت ترتّل في معابدها، كما وجدنا تواريخ تلك المعابد".

وإذ نشر هذا الكلام المقلق للعقلية الراقدة المهوِّمة في ضباب "الأسفار المقدسة"، قامت قيامة كبرى على رأس الرجل. وكان ذلك طبيعياً. فكلام كهذا (حتى وإن قصد به وولي - فيما أفصحت عنه تصريحاته للصحف وما نشرته تلك الصحف استناداً إليه من تصوير جذل لمدى تحضر "الأب العبراني" وقومه - تمجيد ذلك "الأب" وإعلاء شأن قومه بوصفهم عريقين في الحضارة) كلام من الواضح أنه تناقض تناقضاً جذرياً مع الصورة التي رسّخها الحكي التوراتي عن ابراهام بوصفه شيخاً بدوياً طيباً صالحاً موحِّداً بيهوه من مبدأ الأمر، لا رجلاً احتك - نتيجة لعيشه هو وقومه في أور - بحضارة كبرى متقدمة كانت إحدى أهم حضارتين عرفهما العالم القديم، وعرف معابدها وعباداتها وترانيمها وكل ذلك. ولذا فإن أقلاماً ورعة كثيرة هبت متفانية ذوداً عن الصورة التوراتية التي لا يجب أن ننسى أنها من "صنع الله" ذاته حيث أنها صورة تضمنتها التوراة التي أمليت على الرجل موسى. فالمدافعون لم يدافعوا عن ابراهام وقومه فحسب، أو عن التوراة وحدها، بل عن "شرف الله" ذاته، وعن "كلام الله" باعتبار العهد القديم كله، من أول إلى آخر حرف فيه، "كلمة الله"[*]

---

[*] ارجع في ذلك إلى: كتابنا "المسيحية والتوراة".

إلا أن الطريف والممتع حقاً – والكاشف في الوقت ذاته عن سخف مثل هذه الهستريا الإيمانية – أن أولئك الأتقياء – وقد وجدوا "شرف الله" مهدداً بصفاقة العلم، ولم يقدروا على مناقضة الكشوف التي أفضت إلى تلك الصفاقة – لجأوا، من باب الضرورات تبرر المحظورات فيما بدا، إلى حل مستيئس حقاً هو تكذيب ما جاء في سفر التكوين ذاته من أن ابراماً وأباه تارح وكل أولئك البدو الطيبين المؤمنين خرجوا من "أور الكلدانيين" هذه أصلاً.

وكما قلنا قبلاً، وكما لا ينبغي أن ننسى في أي تعامل لنا مع هذه الحكايات، لم يكن من الصعب الممتنع – بالنظر إلى أن الحكي كله تأليف روائي من مبدئه إلى منتهاه – الإقدام على مثل ذلك التكذيب لجزئية منه تعلّقت بذلك المكان الذي أصبح مثيراً للمشاكل، "أور الكلدانيين".

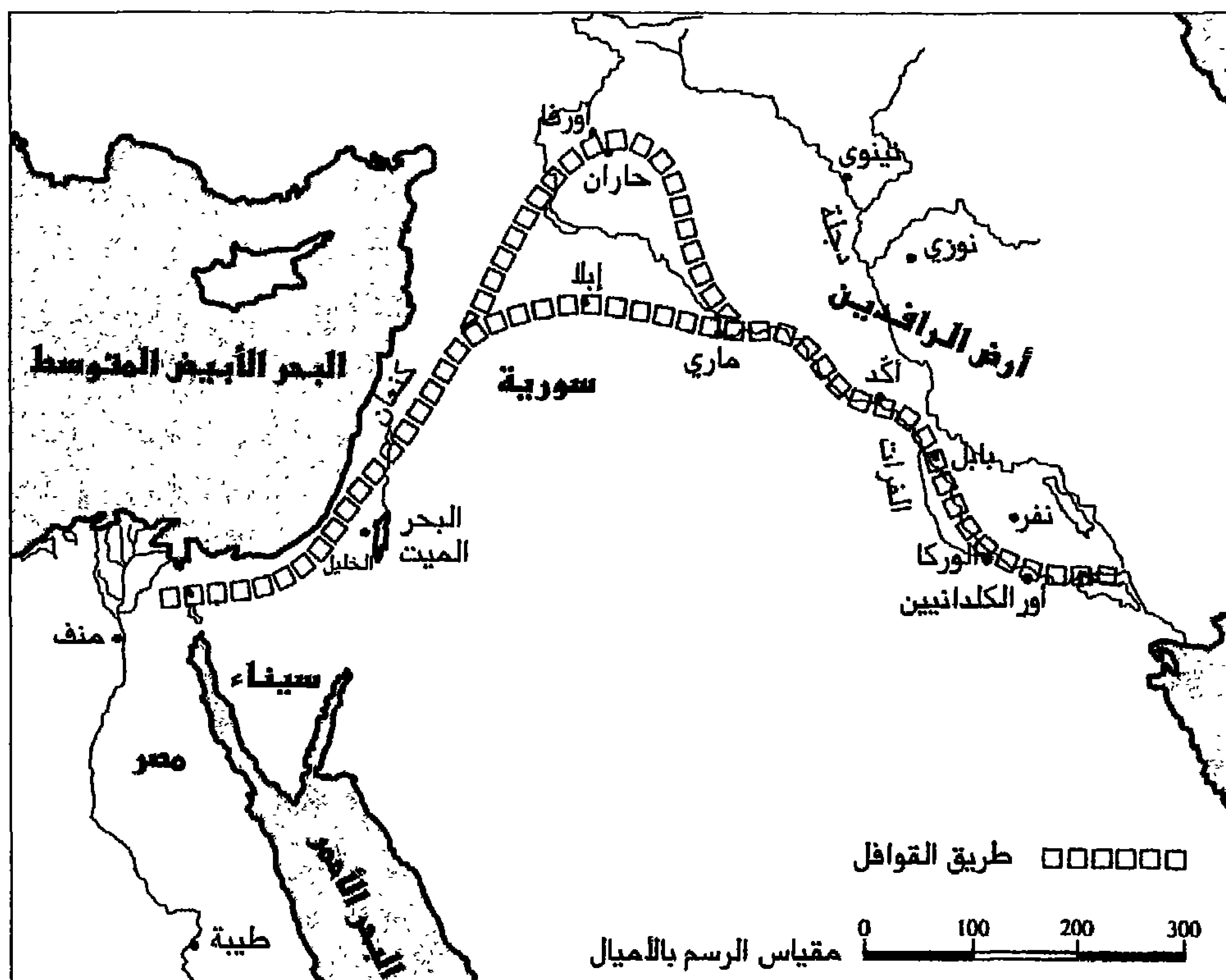
وبالنظر إلى ما هو متوافر بغزارة من تناقضات الحكي، تلك التناقضات التي عُزيت باستمرار وبمنتهى الطمأنينة إلى تعدد "الوثائق"، بحيث أمكن دائماً القول بأن ما هو وارد في جزءٍ من النص بالمناقضة لما هو وارد في جزء آخر، لم يتناقض مع ذلك القول الآخر إلا لأنه استمد من وثيقة ذُكر فيها الأمر على وجه مغاير، كما هي الحال مثلاً فيما تعلق بعدد الحيوانات التي ركبت الفلك مع نوح، إذ حدد الاصحاح السادس من سفر التكوين ذلك العدد باثنين (ذكراً وأنثى من كل حيوان أو طائر)، في حين حدده الاصحاح السابع بـ "سبعة سبعة ذكراً وأنثى من البهائم ومن طيور السماء" (تكوين ٦ : ١٩ و٢٠، و٧ : ٢ و٣).

بفضل تلك الوفرة الزاخرة من التناقضات وما الُتزم دائماً من تسليم ورع بأنها من حق المؤلفين وليست مما يُؤخذ على المحررين لأنها – بغير شك – ناجمة عن قصد إلهي خفي يعلو على أفهام البشر، كان من أيسر الأمور وأكثرها طبيعية أن يجد من هبّوا للذود عن الصورة التقليدية لابراهام أنه كان بوسعهم أن يدحضوا "كلام الله" الوارد بـ "الآية" تكوين ١١ : ٣١ بكلام آخر لله وارد بـ "الآية" تكوين ٢٤ : ١٠. وهكذا فإن "خرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان" (١١ : ٣١) رُفعت عنها حصانة "كلام الله"، وأُلغيت صلاحيتها (تماماً كما مات هرون لمجرد أنه خلع ثياب الكهنوت) وأُخذت منها القداسة فأُضيفت إلى قداسة "مدينة ناحور" (٢٤ : ١٠) باعتبارها المكان الذي خرج منه تارح وأبرام وساراي ولوط، استناداً إلى أن أبراماً بعد ما صار ابراهام بعث عبده "إلى أرضه وعشيرته ليأخذ زوجة لابنه اسحق (٢٤ : ٤) وأن العبد ذهب "إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور" (٢٤ : ١٠) باعتبار أن تلك هي "الأرض التي خرج منها (أيام كان اسمه ابرام)" (٢٤ : ٥).

وواضح هنا أن من وجدوا من الضروري تغيير المكان الذي خرج منه ابرام من "أور الكلدانيين" إلى "مدينة ناحور بآرام النهرين"، تناسوا تماماً أن الخروج من أور كان الخروج الأول لابرام وأبيه وعشيرته وأنه بعد الخروج من أور ذهب القوم" إلى أرض كنعان

فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك" إلى أن "مات تارح عن مائتين وخمس سنين في حاران" (تكوين ١١ : ٣١ و٣٢)، وتغاضوا عن أن الرب عندما قال لأبرام "اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك" (تكوين : ١٢ : ١) أمره بذلك الخروج الثاني من حاران، وغضّوا النظر تماماً عن أن ذلك الخروج الثاني (من حاران التي بأرض كنعان)، طبقاً لـ "كلام الله"، لم يلغ واقعة الخروج الأول من "أور الكلدانيين" طبقاً لنفس كلام الله، ووثبوا وثبة واسعة إلى" مدينة ناحور التي بآرام النهرين"، تاركين وراءهم مدينة أور الرديئة هذه كلية، تجنباً لما باتت تثيره من مشاكل يشعر المؤمنون أنهم في غنى عنها نظراً لما قد تكشف عنه من تلفيق. (انظر الخريطة بالشكل رقم ٧).

ولقد يكون من المفيد والممتع في الوقت ذاته التوقف هنا عند تعليق لاسحق عظيموف (٣٢) على حكاية أور، وحاران، و "مدينة ناحور" هذه. فهو يرى أن ابراماً هاجر من أور لأن "مرحلة الرخاء الذي عرفته أور كانت تقترب من نهايتها" بالإضافة إلى القلقلة التي أحدثتها الصراعات المستمرة بين المدن السومرية، ويقول أنه "ليس مما يثير دهشة أحد، بالنظر إلى تلك الظروف، أن أسرة ابرام لم تجد لها مستقبلاً يغريها بالبقاء في أور، فبارحت سومر كلية"، ولذا فإنها ارتحلت إلى حاران التي يصفها بأنها كانت – في زمان أبرام – مركزاً تجارياً هاماً وبالتالي مكاناً جيداً للاستيطان، ويقول أنها، مثل أور، كانت مركزاً لعبادة إله القمر سين. ويتناول عظيموف الفكرة التي روجها اللاهوتيون الأميركيون، وبخاصة في النسخ التي يروجونها لـ "الكتاب المقدس" (كما في "الأنكر بايبل Anchor Bible، أي "الكتاب المرساة")، عن مسقط رأس ابرام، وكيف أن ذلك المكان لم يكن أور، بل كان حاران، ويعلق على ذلك بقوله أن جعل حاران مسقطاً لرأس ابرام بدلاً من أور يحقق غرض جعل أبرام آرامياً (أو بالأقل مواطناً بإقليم أصبح فيما بعد آرامياً) "وبذا يتواءم الوضع مع ما جاء بسفر التثنية بشأن سلف بني اسرائيل، المفروض أنه ابراهام". أي أن نقل مسقط رأس ابرام من أور إلى حاران، بصرف النظر عن مناقضة "كلام الله" الوارد في سفر التكوين، ينسّق الأمور ويوائمها فيتفق مع ما جاء بسفر التثنية : "ثم تصرخ وتقول أمام الرب يهوه إلهك: آرامياً تائهاً كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة" (٢٦ : ٥). و"الذي انحدر إلى مصر وتغرب في نفر قليل فأصبح أمة مهولة" هو –حسب الحكي- يعقوب/اسرائيل، ولذا فإن ابراز "الوصلة الآرامية" التي يوصل بها يعقوب بأبرام/ابراهام مطلب هام في متصلية النسب. وذلك هو ما أشار إليه عظيموف بغير إفاضة في التفاصيل، وما ألقى عليه حزقيال ظلالاً قوية من الشك بقوله أن يهوه أمره أن يذكّر يروشلايم بأن "أباها عموريّ وأمها حثيّة" (حزقيال ١٦ : ٣) وهو "سباب" إلهي (متى اعتبرنا بأن العموريين أو "الأموريين" في الترجمة العربية، والحثيين كانوا أشرارا غير مرضي عنهم ومن الشعوب التي وعد يهوه "الشعب" بأن يقرضها له)، لا يبين مغزاه المناقض لذلك النسب متى تصورنا أن يهوه كان يوجهه إلى المدينة (يروشلايم) لا إلى "الأمة" (اسرائيل).



الشكل رقم (٧)

خرج ابرام من أور إلى حاران ، ثم خرج من حاران إلى كنعان ،
ثم انحدر إلى مصر هربا من الجوع. وهناك أعار زوجته ساراي التي كانت قد شيّخت لـ"فرعون" الذي فتن بجمالها الساحر فأوشك إله ابرام (المفروضٍ أنه يهوه) أن يفترس فرعون وقومه لولا أن شيّع فرعون إبراما وزوجته الفاتنة وأعطاه مالاً كثيرا ، وبعد خروجه من مصر بنى فرعون حائطا على الحدود
(تكوين ١١ : ٣١ ، و ١٢: ١-٢٠)

وفي ختام تعليقه يقول عظيموف أنه، رغم ما قد يعود من فوائد تـترتب علـى تغيير مسقط رأس ابرام من أور إلى حاران، لا يحتمل أن "يكون الفوز لهذا القـول" (!) نظـراً لأن أور راسخة في التراث بوصفها مسقط رأس ذلك "الأب" الجليل.

فالمسألة، كما نرى، ليست مسألة "حقيقة" أو "تاريخ"، بل مسألة صياغـة حربائيـة لا تكف عن تغيير جلدها ولونها ومحتواها بصرف النظر عن أية حقيقة أو أي تاريخ، اعتباراً لأن "البرهنة" تأخذ أولوية تعلو هنا على أي اعتبار، حتى اعتبار صون عفة النصوص التوراتية والإبقاء على مصداقيتها.

فالبروفسور أولبرايت، مثلاً، وهو أستاذ كبير بجامعة جونز هوبكينز الأميركية، يؤكد لنا بمنتهى الوقار الأكاديمي(٣٣) أن "الرحلة السـابقة مـن أور الكلدانييـن إلـى حـاران ليس لهـا - باستثناء اكتشـاف وجـود مدينـة أور ذاتهـا - أي أسـاس مـن علـم الآثـار". فالبروفسور الأميركي هنـا علمـي للغاية وتجريبـي حتـى أطـراف أناملـه ولا يصـدق إلا مـا يكشف له عنه علم الآثار. لكنه، في الواقع، متى تتبعنا خيـوط تأكيداتـه، لـم يستند إلا إلـى النسخة الأميركية من "الكتاب المقدس" (الأنكر بايبل) الذي استفاد كثيراً من خاصية مرونة اللغة العبرية مرونة مطاطية فشذ عن كل نسخ الكتاب وكل مترجمات النصوص وأشار إلـى "صعوبات معينة" تعترض تقبل تسمية "أور الكلدانيين" و "تسـاءل" ألا يكـون مـن الممكـن القول بشكل أفضل" أن المقصود هنا "أرض الكلدانيين"، لا "أور الكلدانيين"؟!.

وبطبيعة الحال، كان من المتعين أن يقدم البروفسور الأميركي المسألة تقديماً علمياً متيناً، فلم يشر إلى "الصعوبات المعينة" أو إلى أنه "قد يكون من الأفضل"، بل قال - تعزيـزاً لنفيه خروج أبرام من "أور الكلدانيين" وبالتالي نفيه لـ "كلام اللـه" فـي ١١ : ٣١ لحسـاب "كلام الله" في ٢٤ : ١٠ من سفر التكوين - أن هناك حقيقة لافتة للنظـر هـي أن التـرجوم اليوناني (!) للتوراة لم يرد بأي موضع منه ذكر لمدينة أور بالاسم بل أشير فيه "بطريقة أكثر طبيعية" إلى "أرض الكلدانيين" بشكل عام! فالأستاذ الأميركي لم يناقض "كـلام اللـه" الـذي تقول ديانته أنه لا يحرَّف ولا يغيَّر ولا يناقَض من أول حرف إلى آخـر حـرف فـي نصوصـه الواردة بالعهد القديم، بـ "كلام آخر لله"، فحسب، بل ونـاقض بـالترجوم السبعيني الأصـل الذي ترجم منه ذلك الترجوم ببراغماتية أميركية أصيلة ومحقّقة للغايات دائماً، وخلـص مـن ذلك إلى القول، بمنتهى العلمية، أن هذا يعني أن "نقل" مسقط رأس ابرام/ ابراهـام إلـى أور كان، فيما يحتمل ثانوياً، ولم يكن مأخوذاً به بشكل عام في القرن الثالث ق. م. !.

فلم كل هذه الاستماتة وكل هذا التكذيب لما وصف دائماً بأنه "كلام اللـه" عمـلاً على تغيير المكان الذي قال "كلام الله" أنه كان مسقط رأس ابرام.

يتبرع بإعطائنا الإجابة على هذا التساؤل فرنـر كـلر فـي كتابـه المشـهور "الكتـاب المقدس كتاريخ"(٣٤) إذ يقول، بقدر غريب مـن السـذاجة أو ادّعـاء السـذاجة وبشـكل قـد يكون منشؤه الورع وقـد يكـون قناعـاً للانصيـاع، أنـه، "تبيـن"، بعـد اكتشـاف مدينـة أور وظهورها من خلال الحفائر كعاصمة متحضّرة كبرى من عواصـم الممـالك التـي ازدهـرت

في العالم القديم، بآلهتها ومعابدها وتراتيلها الدينية، أي بثقافتها التي لا مهرب من التسليم بأن كل من عاش في رحابها لا بد تأثر بها، أنه "يكاد يكون من المؤكد أنه لم يكن من الممكن أبداً أن يكون الأب ابراهام قد عاش هناك"! لماذا ؟ يقول الهر كلر "لأن ذلك من شأنه أن يناقض تماماً الصورة التي صور بها العهد القديم نوعية الحياة التي عاشها ذلك الأب. فابراهام، كما صورته التوراة، كان ساكن خيام وكان ينتقل بقطعانه من مرعى إلى مرعى ومن بئر إلى بئر، ولم يكن حضرياً ساكن مدن بل صُوِّر في التوراة بدوياً رحالاً"!.

إلى هذا الحد من إبطال العقل يمكن أن تقود التبعية أفضل العقول. فالهر كلر، وهو رجل عالم بحاثة، يقول بهذا الكلام الذي أوردناه أنه لا يجوز أن تتناقض صورة ابرام/ ابراهام وطريقة حياته مع ما صوّرته التوراة، إلا أنه تجوز، عملاً على التخلص من مأزق ذلك التناقض، مناقضة نص صريح من تلك التوراة ذاتها هو النص الذي يقرر أن ابراماً وقومه عاشوا في "أور الكلدانيين"، وأن خروجهم إلى أرض كنعان كان منها.

من الجلي الواضح أنه ليس هناك ما يحتّم أن يكون ابرام وقومه، أثناء عيشهم في أور، قد عاشوا بالضرورة داخل أور نفسها، ومن الواضح أيضاً أن كل مدينة/ دولة من تلك المدن السومرية كانت أشبه بواحة حضرية وسط مدى شاسع من المراعي والأراضي الزراعية على النحو الذي نجده ناطقاً بجلاء في النصوص السومرية التي لم ينقطع فيها ذكر الفلاح والراعي. ومن الواضح أن المزارع والمراعي لم تكن في قلب المدينة بل حولها وعلى أطرافها. فإذا ما أخذنا ذلك في الاعتبار وتخلصنا قليلاً من حواذ الحكي التوراتي، وجدنا أنه ليس هناك ما يمنع العقل إطلاقاً من تصور عيش ابرام وقومه على مشارف أور أو فيما حولها كرعاة وبدو ينتقلون من مرعى إلى مرعى ومن بئر إلى بئر، وأنه ليس هناك ما يتطلب كيما يصح القول بأن مدينة أور كانت موطنهم الذي خرجوا منه إلى كنعان أن يكونوا قد عاشوا كسادة نجب من سكان الحضر داخل أور كما اندفع وولي فصوّرهم معتزاً وهو يصيح "اذن ابراهام لم يكن راعي غنم"! على سبيل الاطراء والتمجيد (بمنطقه الحضاري) لمن لُقِّن منذ الصغر أنهم "آباء اليهود" و "أجداد يسوع"!.

على ضوء ذلك، يبدو للعقل – ما لم نعطّله – أنه لم يكن هناك من داع إلى كل هذه الاستماتة في نفي سكنى أور والتأثر بثقافتها عن القوم كما لو كان ذلك سُبّة أو مأخذاً مشيناً اقتضى الإيمان المعبرن الممعن في البلاهة للأتباع الأمميين "تنظيفهم" منه بنقل موطنهم من الجنوب في سومر إلى الشمال في "مدينة ناحور" بعد أن بيّنت الكشوف الآثارية أن أور المرذولة هذه كانت مركزاً حضارياً ودينياً مزدهراً من مراكز الثقافة السومرية. كما يبدو للعقل – ما لم نطمره تحت ركام الإيمانيات – أن هذه الاستماتة القميئة بعض الشيء والغريبة من أناس "أكاديميين" أمر فرضه الوعي بأن الاستمرار في التسليم بصحة "كلام الله" الوارد في سفر التكوين عن الخروج من أور من شأنه أن يتناقض، لا مع "الصورة التي صورت التوراة بها ابراهاما كساكن خيام لا ساكن مدن" فحسب، بل ومع ما هو أهم من الصورة بكثير، وهو البيئة الثقافية التي عاش ابرام وقومه في

ظلها وتشرّبوا مؤثراتها. فتلك البيئة الثقافية هي مثار كل تلك الهرولة غير اللائقة وغير المستغربة من "ثقاة" و "باحثين" للخروج من المأزق الذي أفضت إليه الحفائر الآثارية عندما بيّنت أي مدينة وأي ثقافة كانت أور تلك التي تقول التوراة أن "الله" بذاته أملى على موسى أن أبراماً خرج منها إلى أرض كنعان مع أبيه تارح وامرأته ساراي وابن أخيه لوط وبقية العشيرة.

فبعد أن كان التصور الذي ساد قبل الحفائر تصوراً لمكان من تلك الأماكن الرومانسية الغريبة البعيدة، ربما كان واحة، أو مضرب خيام، أو مرعى، تبين فجأة، بعد قرون وقرون من تلك التصورات، أن ذلك المكان، "أور الكلدانيين"، كان مدينة كبرى من مدن العالم القديم. وذلك من شأنه أن يثير – في أقل تقدير – شبهة في أن القوم، الذين انصرف الجهد كله إلى تصويرهم كـ "منبع الشعب"، كانوا – إلى أن خرجوا إلى أرض كنعان – قد عاشوا في رحاب بيئة ثقافية متقدمة تقدماً كبيراً بالنسبة لزمانها (من ٢٠٠٠ ق.م)، وأنهم حتى وان كانوا قد عاشوا على الحافة الخارجية لتلك البيئة الثقافية كرعاة وبدو متنقلين من مرعى إلى مرعى "ومن بئر إلى بئر" (ولا حاجة بأحد إلى الآبار في جيرة الفرات)، لا بد تعرضوا لآثار احتكاك ثقافي مستمر ومؤثر بتلك البيئة بمعابدها وعباداتها وآلهتها وإلاهاتها، وبأسطورياتها الدينية. وذلك من شأنه أن يضع موضع الشك أيضاً التصوير اللحوح الذي عني مؤلفو التوراة بترسيخه للقوم كجماعة منغلقة على ذاتها من بدو رحل "عارفين بالله" موحدين بيهوه منذ تلك العصور السحيقة، رغم تأكيدات يهوه ذاته أنهم لم يعرفوه.

– – – – –

(٤/د) أول "صورة منحوتة" كانت تماثيل الإلاهة العارية

والذي يوقفنا عليه تاريخ من أسمتهم التوراة بـ "الآراميين التائهين" أي البدو الساميين الذين "انحدروا" إلى أرض كنعان من أرض الرافدين، سواء كان انحدارهم من جنوبها أو من شمالها، ثم ظلوا "ينحدرون" المرة تلو المرة من كنعان إلى مصر هرباً من الجوع، وظلوا مستميتين في ذلك "الانحدار" رغم عدم ترحيب المصريين بهم إلى أن تمكنت بعض شراذمهم من الاستقرار بها في شرق الدلتا، على مقربة من الصحراء حتى يهجّوا إليها إذا ما تأزمت الأمور، أن أولئك البدو، سواء كان انحدارهم من أور أو من "مدينة ناحور"، لم يكونوا قد سمعوا مجرد سماع بإله اسمه يهوه، إن لم يكن لشيء فلأن إلهاً بذلك الاسم لم يكن قد ظهر بعد إذ لم يكن موسى قد وُجد وهرب فاكتشف المسمى المدياني للمعبود القضيبي المؤابي، بعل فغور، بعد.

ويوقفنا ذلك التاريخ عينه، كما هو مستمد من حكي التوراة المعالَج بغية جعل أولئك التائهين "آباء" لمن أسموا بـ "الشعب"، على أنهم لم يكونوا – بأي معيار – موحِّدين، وأنهم ظلوا يستعيرون الآلهة والإلاهات والعبادات من الأقوام المستقرة المتحضرة التي تطفلوا على أراضيها أو احتكوا بها في تجوالهم الذي أسمتهم التوراة بسببه بـ "التائهين". كما يوقفنا ذلك التاريخ على أن إلههم المذكر الرئيسي الذي خرجوا به من عيشهم في أرض الرافدين كان إله العواصف والمطر والخصب المرعد حدّاد/ شدّاد (ونفس التحريف في النطق ملحوظ في شأن تسمية حاران بـ "شاران"، والحانوكا بـ "الشانوكا"). ومن ذلك الاسم الأخير (شدّاد) جاءت "الشدّاي" إي الإله القوي القادر على كل شيء التي قال مؤلف سفر الخروج بأمانة تحمد له أن يهوه صارحٍ موسى بأن القوم عرفوه بها. وعندما انحدر القوم إلى كنعان، تكنعن شدّادهم، فبات بعلاً من بعليمها عبدوه في كنعان وفي شرق الدلتا بمصر باسم بعل صفون الوارد ذكره صراحة في سفر الخروج (١٤ : ٢) وفي سفر العدد (٣٣ : ٧).

أما الذي يوقفنا عليه تاريخ الشرق الأدنى القديم كله فهو أن قوماً من الأقوام التي عاشت في تلك المنطقة من العالم لم يخلُ تاريخهم الديني من عبادة الإلاهة الأم العظمى، باسم أو بآخر. وصراع يهوه ذاته الوارد صراحة في أسفار العهد القديم مع "ملكة السموات" دليل واضح لا يدحض – طالما أُبقيت أسفار النبييم على ما هي عليه فلم "تعاد ترجمتها" – على أن أولئك الذين وصفتهم التوراة بـ "الشعب" واختلقت لهم امتداداً عرقياً ودينياً وراءً إلى "الآباء" لم يشذّوا عن تلك الوضعية الدينية المميزة لعبادات العالم القديم، وإلا ففيم كان التحريم اليهيوي الوارد في سفر التثنية "لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو شبه أنثى" (تثنية ٤ : ١٦)؟

وذلك ما يستدعي إلى الذهن ملاحظة لمّاحة للحجّة المعاصر في علم الأساطير، جوزف كامبل(٣٥) يقول فيها إن التماثيل التي نحتها الإنسان القديم لنساء عاريات في

أوضـاع مختلفـة كـانت أول مـا هـو متوافـر مـن "صـور منحوتـة" يبـدو أنهـا كـانت أول موضوعات عبادة ذلك الإنسان، وهي ملاحظـة يؤكـد صحتهـا كـمّ متعـاظم مـن البحـوث المتخصصة في ذلك المجال مزدهر ازدهاراً خاصاً منذ بضع سنين.

– – – – –

(٤/هـ) آست (إيزيس) ملكة السموات والتحول الباترياركي في مصر

ونحن، متى دققنا النظر في النصوص التوراتية، واجدون أن من عبدوا بعل صفون في مصر طوال تطفلهم على أرضها في حماية الهكسوس ولصوقهم بها بعد طرد الهكسوس إلى أن وبعد أن أخرجهم موسى بحجة أنه قابل "إله آبائهم" في الصحراء، لم يشذّوا عن غيرهم من أقوام الشرق الأدنى القديم التي عبدت الإلاهة الأم العظمى آست (ايزيس) التي لم تقتبس عبادتها لعشيرة (أشيرا التوراة) أو عانات فحسب، بل وليهوه ذاته.

والواقع أنه يصعب للغاية، على ضوء ما هو ثابت علمياً وتاريخياً من أن عبادة آست (إيزيس) انتشرت انتشاراً واسعاً بين الأمم المجاورة، في سوريا وكنعان، بل ووصلت إلى عبادات الرافدين، كما انتشرت عابرة البحار إلى اليونان في القرن الثالث ق.م. وإلى كل أرجاء الأمبراطورية الرومانية، بل ووصلت متوغلة في أوروبا إلى ضفاف الدانوب والراين، الاعتقاد أو الادعاء بأنه كان من الممكن أن يظل قوم دأبوا على اقتباس العبادات، هم البدو الرحل الساميون الذين أخرج موسى شراذمهم من مصر مع حشد "من عبيد آبقين"، متمتعين بحصانة فريدة جعلتهم بمنجاة من التأثر بعبادة تلك الإلاهة العظمى التي امتد تأثيرها إلى قلب المسيحية، وهم الذين يقرر "التاريخ المقدس" بملء الفم أنهم عاشوا بين عبادها المصريين وعلى الأرض التي عُبدت فيها من أقدم عصور التاريخ المصري، طوال أكثر من أربعة قرون.

غير أننا لا يجب أن يغيب عنا هنا أنه إن كان الكاهن المصري الآبق موسى ومن ألّفوا الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم ونسبوها إليه بوصفها تسجيلاً بيده لوحي من يهوه، ومن حرروا تلك الأسفار بعده بقرون عديدة، قد وجدوا من الضروريّ إهدار البُعْد الأخرويّ الذي لا غنى لديانة توحيدية سماويّة عنه، وحرموا ديانتهم منه اجتهاداً منهم في إخفاء المنابع المصرية لتلك الديانة، فإنه كان من الألزم والأشد حتمية بالنسبة لمن اغترفوا من كنوز الديانة المصرية، ابتداء من موسى، وانتهاء بمحرري الأسفار في عصر السبي البابلي، أن يخفوا بقدر من الصرامة والإصرار أعظم، البُعْد الإيزيسي.

ففيما يخص الإلاهة المصرية الأم العظمى، أضيف إلى مطلب إخفاء المنابع المصرية لعبادة يهوه (وهو إخفاء لم يكن منه بد حرصاً على مصداقية الادعاء بألوهة الوثن القضيبي يهوه والادعاء بأن الفكر الديني والمعتقدات والطقوس والرموز التي استعيرت كانت أصيلة وموحى بها من يهوه، لأنه أين كان سيصبح هذا الادعاء أو ذاك متى تكشفت المنابع المصرية؟)، نقول إنه أضيف إلى مطلب إخفاء تلك الأصول المصرية، البعد المتمثل في كون آست (إيزيس) إلاهة مؤنثة، وملكه عظمى للسموات التي عُبدت بتلك الصفة قبل أن يدخل ذلك المفهوم أي ديانة أخرى من ديانات الشرق الأدنى القديم، اعتبرت النبع الكوني للآلهة والإلاهات والبشر، وإلاهة كلمات القدرة، وإلاهة شجرة الحيوة (الخلود)، والتجسد الإلهي لمفهوم المُلْك (النظام في الكون وبين البشر). ويهوه – كما يوقفنا

تاريخه – ظلت بينه وبين الألوهة المؤنثة عداوة ضارية انبجست من أفواه عرّافيه ومتنبئيه لعنات وتهديدات بالمذابح والخراب العاجل الشامل. ولنلقِ بالاً إلى هذا المثال من سفر المتنبيء آرميا الذي ذهب إلى مصر بأمر من يهوه ليعيد مَن هجوا من عباده وعادوا إلى عبادة الإلاهة الأم العظمى ملكة السموات في مصر:

"هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل : هاأنذا أجعل وجهي عليكم للشر وأقرض كل يهوذا. وآخذ بقية يهوذا الذين جعلوا وجوههم للدخول إلى أرض مصر ليتغربوا هناك فأفنيهم كلهم في أرض مصر. يسقطون بالسيف وبالجوع. يفنون من الصغير إلى الكبير بالسيف والجوع. يموتون ويصيرون حلفاً ودهشة ولعنة وعاراً. وأعاقب الذين يسكنون منهم في أرض مصر كما عاقبت أورشليم بالسيف والجوع والوباء. ولا يكون ناج ولا باق لبقية يهوذا الآتين ليتغربوا في أرض مصر.

"فأجاب إرميا كل الرجال الذين عرفوا أن نساءهم يبخّرن لآلهة أخرى وكل النساء الواقفات محفل كبير وكل الشعب (بني إسرائيل) الساكن في أرض مصر، في فتروس (الاسم الذي أطلق في العهد القديم على الوجه القبلي) قائلين : إننا لا نسمع لك الكلمةالتي كلمتنا بها باسم يهوه. بل سنعمل كل أمر خرج من أفواهنا، فنبخّر لملكة السموات ونسكب لها سكائب كما فعل آباؤنا وفعلنا نحن وملوكنا ورؤساءنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نر شراً. ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السموات وسكب سكائب لها احتجنا إلى كل وفنينا بالسيف والجوع. وإذ كنا نبخّر(*) لملكة السموات ونسكب لها سكائب(**) فهل بدون رجالنا كنا نصنع لها كعكاً لنعبدها ونسكب لها السكائب؟".

(إرميا ٤٤ : ١١ – ١٩)

والنص واضح بما فيه الكفاية، ويوضحه أكثر كدليل على عبادة الإلاهة تأكيد إرميا قبل هذا الكلام بقليل أن يهوه أمره بأن يحمل "الكلمة إلى كل اليهود الساكنين في أرض

(*) حرق البخور في المعابد كجزء من شعائر العبادة تقليد ديني مصري ضارب في القدم. وفي أقدم النصوص الدينية المصرية ترانيم عن "آست العظيمة الجميلة لابسة أنشوطتها ("دم آست") في أخميم، حاملة مبخرتها حارقة البخور أمام ابنها حورس الباحث عن أبيه أوسير" (النص ١٢١٤ من متون الأهرام).

(**) وكذلك "سكب السكائب": "ها قد سكبت السكائب لك أختاك العظيمتان القادرتان آست (ايزيس) ونبتت (نفتيس) اللتان جمعتا أعضاء جسدك المقدس ووصلتا أوصالك وجعلتا عينيك تضيئان ثانية في وجهك" (النص ١٩٧٦ من متون الأهرام).

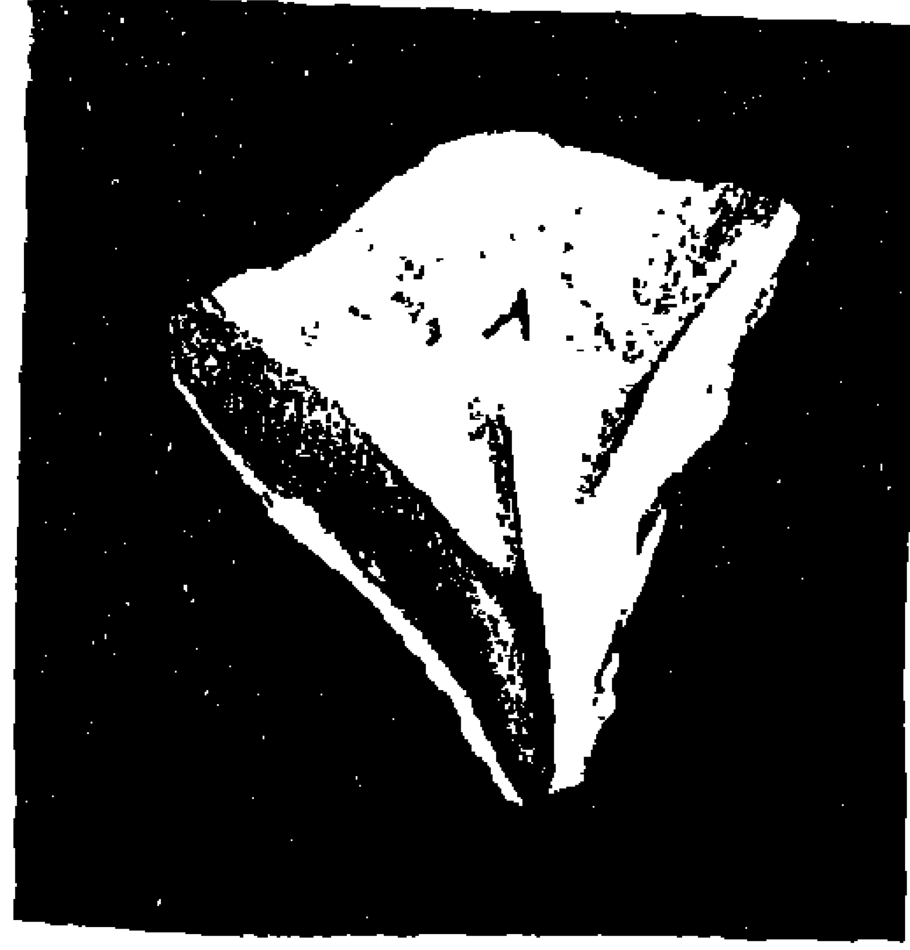
مصر في مجدل وفي تحفنحيس وفي نوف وفي أرض فتروس" قائلاً لهم "لماذا أنتم فاعلون شراً عظيماً ضد أنفسكم (سوف يتسبب في) انقراضكم رجالاً ونساءً أطفالاً ورضعاً ؟ هل نسيتم شرور آبائكم ؟ (إرميا ٤٤ : ١ و٧ و٩).

وتاريخياً، من الثابت أنه منذ بدأت نذر الخطر في آفاق "المملكتين"، وهي النذر التي انتهت بدمار المملكتين على أيدي الآشوريين أولاً ثم البابليين، بدأت هجرة كانت من الأهمية بقدر أزعج الكهنة والنبيم (فيما يبين من النص المستشهد به من سفر إرميا)، إلى مصر حيث استقرت أعداد كبيرة من مواطني اسرائيل ويهوذا تناثرت من شرق الدلتا (مجدل) إلى "أرض فتروس"، الوجه القبلي. والمرجح أن هؤلاء المهاجرين كانوا أسلاف يهود الاسكندرية(٣٦).

ومن الثابت تاريخياً أيضاً أن أولئك اليهود الذين لاذوا بمصر فيما بين ٧٢٢ و٥٨٦ ق.م في موجات متعاقبة، أقاموا لهم معابد فيها كان أشهرها معبد في أقصى جنوب مصر، بأسوان. ومن الواضح، من نص سفر إرميا، أنهم لم يكونوا يعبدون يهوه فيها، بل آست (إيزيس)، ملكة السموات. وهو ما يتضح أكثر عندما نلقي بالاً إلى تكرار ذكر البخور في النص. فحرق البخور من الممارسات الضاربة في القدم بمعابد مصر، وهو إن كان قد استعير لعبادة يهوه بين ما استعير من تقاليد مصر الدينية، فإن حرقه في معبد يهوه كان للتخلص من الروائح الكريهة التي نجمت عن رش الدم وذبح الذبائح وحرقها على مذبحه، كما قال موسى بن ميمون (ميمونيدس)(*).

ومن الواضح أن أولئك الهاربين من يهوه اللائذين بمصر وآلهتها (كما يشهد القول الوارد في الاستشهاد السابق من إرميا : "حين كففنا عن التبخير لملكة السموات وسكب سكائب لها احتجنا إلى كل وفنينا بالسيف والجوع")، لم يكونوا يحرقون البخور في سياق أية شعائر يهيوية، بل كجزء من مراسم عبادة الإلاهة التي شملت ايضاً "سكب السكائب"، وصنع الكعك أو الفطائر لها. ولقد كان "سكب السكائب" جزءاً من طقوس المعابد المصرية اتصف بأهمية جعلت له كهنة متخصصين يقومون به باسم "ساكبي السكائب"(٣٧)، أما "الكعك" فيبدو أنه تقليد كنعاني كان القوم قد تعلموه في فلسطين إذ كان شائعاً في عبادة عشيرة وعانات، ومارسوه عندما لاذوا بمصر فأدخلوه في شعائر آست (إيزيس) على سبيل الاستعارة من شعائر عشيرة وعانات. فعلى الرغم من أن الوثائق الدينية المصرية ذكرت ذلك المكان الباذخ "آمنتت نفرت" (أي آمنتت الجميلة) الذي يستمتع فيه الآلهة بالراحة ويعيشون على الفطائر والجعة(٣٨)، فإن الفطائر التي كان المصريون يرفعونها كتقدمات اختلفت كثيراً عن "كعك" عشيرة الذي كانوا يعجنونه في كنعان مخلوطاً بالعسل والسمسم ويشكلونه على شكل الفرج (الشكل رقم ٨)، وهو ما يفسر

(*) ارجع في شأن أخذ البخور من الديانة المصرية، وفي شأن تحوله إلى غطاء للروائح الكريهة المتصاعدة من مذبحة الذبائح وحرقها على مذبح يهوه إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص ١١٤ - ١١٩.



الشكل رقم (٨)
صورة قالب لصنع الكعك الشعائريّ لملكة السموات
على شكل الفرج ، وهو ما أثار غيرة يهوه وجعله يشكو مر الشكوى
لـ "نبيّه" إرميا

(إرميا ٧ : ١٧-٢٠)

غضبة يهوه الضارية التي جعلته يقول لإرميا إن بني اسرائيل يصنعون ذلك الكعك لملكة السموات كيما يغيظونه (إرميا ٧ : ١٧ - ١٩)!.

عُبدت آست (إيزيس) في مصر منذ ما قبل عصر الأسرات، أي قبل ٣٠٠٠ ق.م، وظلت أكثر آلهة المصريين ذِكراً في النصوص الهيروغليفية. ويقول بدج[٣٩] أن دراسة النصوص المتوافرة من كل فترات التاريخ المصري تثبت أن هذه الإلاهة احتلت لدى المصريين مكانة اختلفت اختلافاً تاماً عما تمتعت به أي إلاهة أخرى، وعلى الرغم من أنه من المؤكد أن بعض أوجه ألوهتها عُبدت في فترات بعينها على نطاق أوسع مما كانت عليه الحال فيما يخصها في فترات أخرى، فإن الثابت أن آست ظلت، منذ ما بين ٤٠٠٠ و٣٠٠٠ ق.م وحتى آخر الأسرات، أعظم إلاهات مصر.

ويضيف بدج قائلاً إن تلك الإلاهة عُبدت بوصفها الأم العظمى الخيِّرة التي شمل سلطانها وحدبها السماء والأرض ومستقر الموتى، وبوصفها التجسد الأعلى لقدرة الخلق الأنثوية التي حَمَلت بكل مخلوق حي وأنجبته، وأوجدت كل موجود، ابتداء من الآلهة والإلاهات في السماء، إلى البشر والحيوانات على الأرض، إلى أصغر حشرة في باطن الأرض، وقدِّست بوصفها الحامية الراعية مانحة الغذاء لكل ما أنجبت، والإلاهة التي كرست ألوهتها لخدمة الحياة مستخدمة قدرتها لا في خلق كل مخلوق فحسب، بل وفي إعادة الحياة إلى كل من يموت.

فإذا ما رجعنا إلى الصفات التي أضفاها موسى على وثنه المدياني ليجعل منه إلهاً يحقق به طموحه إلى صنع أمة وإقامة مُلك، وجدنا الكثير الكثير منها مختلساً من صفات تلك الإلاهة المصرية الأم العظمى التي كانت النمط الأصلي لكل من عبدن في الشرق الأدنى القديم من إلاهات. وإذا ما أمعنا النظر بعد ذلك فيما أضفي على موسى ذاته من قدرات ودققنا في بعض ما عزي إلى ورثته من النبييم السحرة، وجدنا أن الاختلاس الديني من آست (إيزيس) لم يكن لحساب يهوه وحده، بل لحساب صانع أسطوريته الأصلية، "رجل الآلهة" موسى، وبعض ورثته من عرّافي يهوه.

من كنوز الديانة المصرية بردية محفوظة بالمتحف البريطاني تحت رقم ١٠١٨٨ عنوانها "سفر مجيء رع الى الوجود والاطاحة بآبيب"، تزودنا بأقدم صياغة لسفر تكوين مصري سابق على تأليف وتحرير سفر تكوين العهد القديم بعشرات القرون:

سفر التكوين المصري	سفر تكوين العهد القديم
"فى البدء لم تكن سماء ولم تكن أرض. لم يكن شيء إلا غمر المياه الهامد"	"فى البدء خلق يهوه السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة" (١:١ و٢)
"وكنت فوق الغمر وحدي، ولم يكن مكان أقف عليه"	"وروح يهوه يرف على وجه المياه" (١:٢)

"كنت وحدي ولم يكن معي آخر فتوحدت بظلي وفيّ أنجبت شو (الهواء والنور والدفء) وتفنوت (البلولة والرطوبة)"
"من واحد، إذ أنجبت شو وتفنوت، صرت ثالوثاً. ورفعت شو وتفنوت من الغمر نون، وأنجب شو وتفنوت جب (إله الأرض) ونوت (إلاهة السماء)"

"وقال يهوه لتكن أنوار في جلد السماء. فعمل يهوه النورين العظيمين: النور الأكبر (الشمس) لحكم النهار، والنور الأصغر (القمر) لحكم الليل (١:١٤ و١٦)
"ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض (أي كانت هناك تفنوت، "البلولة والرطوبة") (٢:٦)
"فعمل يهوه الجلد، ودعا الجلد سماء. (وعمل) اليابسة، ودعا اليابسة أرضاً" (١:٦ و٨ و٩ و١٠)

في كلا السفرين، كما نرى، وبينهما آلاف من السنين، تخلق (توجد) الألوهة من غمر المياه (الذي وصفه السفر المصري بـ "الهمود" ووصفه الاقتباس التوراتي بـ "الظلمة") ما لم يكن موجوداً من قبل: النور والدفء (الطاقة)، في السفر المصري، والنور الأكبر والنور الأصغر في الاقتباس التوراتي. وفي النص المصري نجد الشمس (نور التوراة الأكبر) قد خصّت بذكر خاص ظل ملازماً لها في الديانة المصرية، إذ يقول النص "وبعثت عيني (الشمس) وراء شو وتفنوت إذ رفعتهما من الغمر نون" ثم يقول إن تلك العين، الشمس، "حكمت الأرض" (وهو ما جعل في التوراة "لحكم النهار") و "أغدقت من القدرة التي وهبتها إياها على الزرع وعلى كل ما يدب على سطح الأرض".

ونلاحظ في النص التوراتي ارتباكاً في شأن مسألة "النور" يبدو أن المتسبب فيه أصلاً كان التصميم على طمس المنابع المصرية التي استقي منها الحكي. ففي حين يقول الناسخ التوراتي في مطلع سفر التكوين أن يهوه خلق النور "قال ليكن نور فكان نور، ورأى النور أنه حسن، وفصل بين النور والظلمة، ودعا النور نهاراً" في اليوم الأول من أيام الخلق، يقول نفس الناسخ أن يهوه لم "يعمل النورين العظيمين" (الشمس والقمر) إلا في اليوم الرابع من أيام الخلق (تكوين ١ : ٣ - ٥ و ١٥ و١٦).

وهذا مستحيل، كما هو واضح، لأنه كيف يكون هناك نور، ويُفصَل النور عن الظلمة قبل ثلاثة أيام كاملة من خلق "أنوار في جلد السماء لتنير على الأرض، وعمل النورين العظيمين" وبالأخص الشمس؟

كما أنه من المستحيل أيضاً أن تكون الأرض، كما يقول النص التوراتي، قد "أخرجت عشباً وبقلاً يبرز بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً" (تكوين ١ : ١٢) في وقت لم تكن الشمس قد "عُمِلت" (أي خلقت) فيه بعد.

فعملية الإتاهة عن المصدر الذي اختلست منه النصوص التوراتية عن طريق تفنيط ما هو مختلس وبعثرته، بطريقة القص واللصق، في مواضع مختلفة من النص الذي جرى الاختلاس لحسابه، أدت فيما يبدو إلى تيه سابق لـ "تيه" موسى في القفر، ضل القائم بالاختلاس طريقه فيه بين اليوم الأول ("خلق النور")، واليوم الثالث ("انبات الأرض عشبا وبقلا وشجرا")، واليوم الرابع ("خلق الشمس")، من أيام الخلق الستة.

ومع ذلك، قد لا يكون من قال بـ "خلق النور"، و "إنبات الأرض" قبل "خلق الشمس"، ساذجاً كل تلك السذاجة، وقد لا يكون تيهه عن غير قصد. وقد ثبت باستمرار أن القصد من التأليف والاستنساخ أُعلي دائماً على أي صواب أو أي حقيقة في تدبيج حكايات التوراة. وتلك - على أية حال - حرية تمتع بها كحق أساسي مبدعو الأعمال الروائية تحت اسم "الجواز الشعري".

ولقد تكون ممارسة مؤلف سفر التكوين لتلك الحرية الابداعية في شأن "الشمس"، ومسايرة المحرر له فيما يخصصها راجعتين كليهما إلى دافع أهم من مجرد الإتاهة عن الأصل الذي اختلس المؤلف منه. فـ "الشمس" هنا تطالعنا بمضامين بالغة الأهمية متى تفكرنا في شأنها بإزاء الخلفية التي تشكلها المعتقدات الدينية المصرية.

فالأمر متعلق هنا بـ "رع الإله الشمس" و بـ "آست (إيزيس)" التي أسميت بعد التحول الذَكريّ (الباترياركي) للديانة المصرية بـ "عين رع". وبإزاء ذلك، يبدو الدافع إلى الطمس فيما يخص المؤلف التوراتي سيراً على التقليد الموسوي القائم على "سلب ديانة المصريين" والتمويه عن السلب بكل حيلة ممكنة، دافعاً مزدوجاً وذا إلحاحية خاصة، إذ هو متعلق بطمس النبع الأنثوي (آست/إيزيس)، لا بمجرد التمويه عن العبادات المصرية المذكّرة (رع وأوزيريس).

فواليس بدج يخبرنا أن البردية يعود تاريخها إلى بداية الإعلاء الباترياركي للألوهة المذكّرة، غير أن محتوى تلك الوثيقة الدينية، كما يشير ذلك الدارس، كان - بما فيه من أفكار ومعتقدات - من عصور أقدم من ذلك بكثير(٤٠).

ولما كانت آست قد أسميت بـ "أم الآلهة والبشر"، فإنها تتراءى - بالأقل في الصيغة الأقدم التي سُجِّل تقليدها في البردية من منطلق باترياركي - في القول الذي نسبته البردية إلى رع - أتوم : "كنت وحدي ولم يكن معي آخر فتوحدت (تزوّجت) بظلي، وفيّ (بداخلي، في رحمي) حملت بشو وتفنوت وأنجبتهما". وهي تتراءى كالأم العذراء التي ظلتها دائماً إذ لم تحمل بحورس إلا "بالروح" بعد موت أوسير.

وتتراءى الإلاهة أم كل حي بتحدد أكثر فيما عزته البردية إلى الإله المركّب المذكّر من قول عن خلق الإنسان : "فجمعت أطرافي وبكيت عليها دموعاً فوجد الإنسان من الدموع التي سكبتها عيناي".

وهذا بالتحديد ما فعلته آست بأوصال أوسير الممزقة : جمعتها من حيث بعثرها ست، وذرفت عليها الدموع، ثم قرّبت من أنفه مفتاح الحياة، الأنخ، الذي صوّرت دائماً ممسكة به، فعاش.

وقد نلاحظ الاختلاف الجذري لفكرة خلق البشر بالدموع هذه عن خلقهم من الطين على عجلة الخزّاف، كما في عبادة خنوم (أسوان)، أو خلق الكون والانسان بالكلمة، كما في عبادة بتاح (منف)، وهما طريقتا الخلق اللتان استعيرتا ليهوه، فصوّر خالقاً الكون بـ "الكلمة" (أو "اللوغوس" كما اسماه اليونان)، وصانعاً الانسان من الطين. وبغير شك، اختلفت فكرة الخلق بدموع الإلاهة بما فيها من إيحاء بما انطوى عليه المصير الإنساني منذ البدء من دواعي البكاء، عن فكرة الخلق بمزيج من الطين ودم المعبود البدئي كينجو، كما في أسطورية مردوخ (بابل). والاختلاف الذي قد نتوقف عنده هنا يوحي بمنطلق أكثر رفقاً وحدباً انطوت عليه فكرة الخلق بالدموع، مغاير تماماً لأفكار الخلق في العبادات الباترياركية، مما يرجح أن نصّ البردية عندما سُجِّل في عنفوان التحول الباترياركي في الديانة المصرية، عولج لانزال الألوهة المؤنثة من مكانة النبع إلى مكانة الرافد، أو من مكانة "سيدة كلٍ من في السماء" و "منجبة الآلهة والبشر"، كما أُسميت آست، إلى مكانة دون الوضع المعلّى لرع الذي أُدمج فيه أتوم عند قمة التاسوع.

فالبردية، كما سجَّل كهنة العصر الباترياركي فيها التقليد الأقدم والأسبق، تقول "أنا أتوم، عندما كان وحده في الغمر نون. وأنا رع عندما أشرق وبدأ يحكم كل ما خلق"، وتخبرنا أن جب (الأرض) ونوت (السماء) تعانقا عناقاً حميماً إثر إنجاب شو وتفنوت لهما، وظلا متَعانقين إلى أن دخل بينهما شو (الهواء)، فانتزع نوت من أحضان جب ورفعها لتصبح الجَلَد (السماء) وترك جب حيث كان، منطرحاً تحتها (وهو الدور الذي استعير ليهوه من شو عندما وصف بأنه فصل الجلد عن اليابسة في سفر التكوين). وكما يقول شورتر(٤١)، صُوِّرت نوت بعد ذلك الفصل بينها وبين جب كإلاهة مخيمة على كل الأرض ورأسها إلى الغرب، وفخذاها اللذان يولد من بينهما الإله الشمس رع في طلعة كل يوم، إلى الشرق. وإذ أدمجت هوية نوت في هوية آست (إيزيس)، باتت هذه الأخيرة الإلاهة الأم المنجبة لرع.

ويوحي كل ذلك بتناقض في صوغ كهنة هليوبوليس للتاسوع وعلى قمته رع - أتوم، وفي قاعدته آست ضمن الأسرة الأوزيريسية، وهو تناقض يتمثل في أن نوت الإلاهة السماء(*)، التي أُسبغت عليها هوية حت حور (بيت حورس - هاتور)، ثم أدمجت هويتها في هوية آست (إيزيس) ملكة السموات ومنجبة الآلهة والبشر، ظلت - على الرغم من رفع كهنة هليوبوليس للألوهة المذكّرة إلى قمة التاسوع وبالمناقضة لذلك الرفع - الإلاهة الأم التي يولد رع من رحمها مجدداً مع طلعة كل نهار.

(*) ارجع إلى نوت-آست، بالمدخل أعلاه.

وهذا تناقض يوحي بأن الوجود الأسبق والأقـدم لآست، الإلاهـة الأم العظمـى قـد يكون أُحِل محله الوجود المعلّى للألوهة المذكـرة مـن خـلال إدمـاج هويـة رع – الإلـه الشمس، الذي تقول البردية إن الألوهة الخالقة من ذاتها إذ توحدت بظلها بعثت به، بوصفه عينها، "ليسير وراء شو وتفنوت" إثر إنجـاب تلـك الألوهـة لهمـا – فـي هويـة أتـوم، الإلـه الخالق في لاهوتية هليوبوليس، والذي عُزي إليه في تلك اللاهوتية الخلق بقذف المنـي مـن قضيبه.

ومما يرجح ذلك أن الألوهة الخالقة التي تروي قصة التكوين المصريـة فـي البرديـة تقول أن الشمس، العين التي بعثت بها "لتسير وراء شو وتفنـوت"، احتدمـت غضبـاً عندمـا أعادها الإله تحوت رب الحكمة (الذي سرقه اليونان وأسموه هرمس) ووجدت أن الألوهـة التي خلقتها قد خلقت "عيناً أخرى" مكانها هي النور الأصغر، أي القمر. ولم تهدأ الشـمس وترضى بالوضع (أي بمشاركة النور الأصغر لها كعيـن أخـرى للألوهـة السـماوية) إلا بعـد تدخل ديبلوماسي من تحوت الحكيم أُعطيت الشمس من خلاله وضع النـور الأكـبر "الـذي يتسيد كل الأرض ويغدق من القدرة التي منحت له على الـزرع وعلـى كـل مـا يسـير علـى الأرض أو يدب على ظهرها".

ولندع جانباً الاختلاس الواضح لحساب يهوه في حكي سـفر التكويـن عـن "عملـه النورين العظيمين: النـور الأكـبر لحكـم النهـار، والنـور الأصغـر لحكـم الليـل" (١ : ١٦)، ونطرح التساؤل الذي تثيره البردية متى حُلِّلت على ضوء الخلفية الدينية للزمن الأقـدم الـذي نبع منه التقليد المسجل فيها. وذلك التساؤل هو : هل كانت تسمية آسـت المدمجـة فيهـا هوية حت حور بـ "عين رع" قلباً للوضعية الدينية الأسبق التـي كـان رع فيهـا عيـن الإلاهـة الأم ملكة السموت ومنجبة الآلهة والبشر ؟

ذلك التساؤل (الذي يقودنا في تعقبنا لخيوط صراع الألوهة الباترياركية مع الإلاهـة الأم في عبادة يهوه إلى المسارب المتعرجة لحكاية الشمس والقمر كما حاولنـا اسـتظهارها بعد)(*)، له – في حالة الديانة المصرية – ما يبرره بالنظر إلى أن تسجيل التقليـد الأقـدم فـي البردية في زمن متأخر نسبياً. كان في ذروة الانتصار الباترياركي الـذي أعيـدت علـى عبابـه صياغة الأسطوريات الأقدم لعبادة الإلاهة الأم العظمى من منطلقات باترياركية أُحلّـت فيهـا الألوهة المذكرة محل ألوهة الأم العظمى(**).

وفي الديانة المصرية واقعة ينقلب فيها حورس على أمه إيزيس فيقطـع رأسـها وهـو في قمة الغضب، وهي واقعة مفصحة بغرابتها وقسوتها التـي لا توصـف عـن ذروة الصـراع

(*) ارجع في ذلك إلى الكتاب الثاني من البحث.

(**) "الواقع أن إيزيس استوعبت، في فترة مبكرة نسبياً من التـاريخ المصـري، صفـات وخـواص إلآهـات مصر البدئيات وكل إلآهات أقاليم مصر المحليات كنخبت، ونت، وبسط، وحت حور (هاتور)، الخ، بل وقد قدِّست بوصفها الوجه الأنثوي لغمر المياه البدئي الذي نبعت منه كل حياة". (المرجع ٢٠) :
(Budge: "The Gods of the Egyptians", op .cit ., vol .II ., M ., p .216) .

الباترياركي مع الإلاهة الأم العظمى. والذي حدث، تبعاً لما ترويه النصوص الدينية(٤٢)، أن حورس أنهى صراعه الطويل مع ست قاتل أوسير (أوزيريس) بمعركة رهيبة دامت ثلاثة أيام بلياليها استخدم حورس خلالها كل أسلحته الماضية وأخطرها الرمح الذي زودته به إلاهة صالحجر (سايس) المحاربة نيث والذي وصف في النصوص القديمة بأنه "الرمح الرائش بأشعة الشمس المزودة سنانه بمخالب الإلاهة مادفت، ربة العقاب". وفي بعض النصوص(٤٣) أن آست رق قلبها لأخيها ست عندما رأت أن الغلبة ستكون لابنها حورس وهو في عنفوان غضبه فصاحت بكلمات القدرة آمرة أسلحة حورس بأن تسقط من يده، فسقطت، ونجا ست. وعندما رأى حورس أن أمه قد انحازت إلى عدوه وقاتل أبيه "اشتعل غضبه عليها كهياج نمر أرقط من نمور الجنوب" فهربت من وجه غضبه، لكنه أدركها فدار بينهما صراع رهيب انتهى بأن جز حورس عنق أمه وفصل رأسها عن جسدها. ويقول هذا النص من نصوص الأسطورة إن إيزيس كانت ستنتهي لو لم يسارع تحوت فينقذها بكلمات القدرة محولاً رأسها إلى رأس بقرة ومعيداً تلك الرأس إلى جسدها (وبذلك العمل السحري، أدمجت إيزيس في حت حور، أي هاتور).

وفي صيغة أخرى لنفس الحكي عن معركة حورس وست (التي تستغرق في كل صيغها ثلاثة أيام بلياليها وهي الفترة ما بين أفول القمر وطلوعه) يفقد ست خصيتيه ويهم حورس بقتله لولا أن تتدخل إيزيس لإنقاذه، فيثور غضب حورس ويطيح برأسها(٤٤).

وكما هو واضح، تمثل عملية قتل إيزيس بفصل رأسها عن جسدها في ختام فترة غياب القمر (الأيام الثلاثة بلياليها التي استغرقتها المعركة بين حورس وست)، وإعادة رأسها إليها بشكل مغاير على يدي تحوت، ذروةً للتحول الباترياركي في الديانة المصرية الذي أُحِلّت على عبابه الألوهة المذكّرة محل عبادة الإلاهة الأم الأسبق والأقدم. فإيزيس الجديدة التي أعاد تحوت رأسها إليها باتت هنا، متى عدنا إلى بردية سفر التكوين المصري، عين رع، بعد أن كان رع فيما يبدو، في التقليد (الذي سُجِّل في زمن الآلهة الذكور في تلك البردية) عين الإلاهة ووليدها، إذ هي أمه.

غير أن عبادة إيزيس كانت -بفضل قِدمها وترسُّخها من عصر ما قبل الأسرات- ذات مكانة في قلوب المصريين ومشاعرهم الدينية لم تغب فيما بدا عن فطنة كهنة الألوهة المذكرة سواء في عين شمس (هليوبوليس)، أو في منف، أو في أبوصير(بوصيريس) مركز العبادة الأصلي لأوزيريس قبل أن يغزو الوجه القبلي فيستقر في أبيدوس، وهي فطنة كفت أيدي الكهنة عن إيزيس فظلت في وثائق الديانة المصرية "الأم المقدسة"، "الواحدة الوحيدة"، "أعظم الآلهة والإلاهات"، "ملكة السموات وسيدة الآلهة"، "رع الأنثى"، و"حورس الأنثى"، "عين رع وتاج رع"، "سيدة السنة وفاتحة العام الجديد"، "صانعة الشروق"، "سيدة السموات"، "مانحة النور من الماء"، "سيدة ريح الشمال"، "ملكة الأرضين المتوجة"، "ملكة الشمال والجنوب"، "القوية القادرة"، "مانحة الدفء وسيدة النار"، "المحسنة إلى الموتى في التُوات (العالم الآخر)"، "أم حورس الذهب"، "الإلاهة

الأم"، "سيدة الحياة"، "سيدة الوفرة"، "ربة المحاصيل الخضراء"، "مانحة الخبز والجعة"، "مانحة الفرح والبهجة"، "الإلاهة الحب"، "صانعة الملوك"، "سيدة البيت الأعظم"، "الجميلة"، "الإآاهة كلمات القدرة"، "ابنة نوت العظيمة"، "قرينة رع"، "قرينة رب الهاوية"، "مانحة الفيضان"، "مانحة الخصب"، و"أقدم القديمات التي خرج منها كل وجود"، متى ذكرنا قِلّة كهذه من ألقابها ومسمياتها وأوصافها التي لا تكاد تحصى في وثائق الديانة المصرية، ولم ننس من تلك الألقاب بشكل خاص لقب "الإلاهة شجرة الحيوة التي يحظى من ينال ثمارها بالخلود"، و"قاهرة الحية الشيطان أبيب وحشودة من جند الظلام"، و"الإلاهة رافعة السماء وفاصلة السماء عن الأرض"، و"القوية المحتكمة في الريح والرعد"، و"الإلاهة المحتكمة في حركة الكون"، و"ربة الصلاح"، و"ربة العدل"، وجدنا كل ما هو خيّر، جميل، ورفيع، ناطقاً في الفكر الديني المصري كتجسُّد لصفة أو خاصّية من صفات آست (إيزيس) وخصائصها. فهي الإلاهة الأم الخالقة التي أوجدت كل موجود وأنجبت كل حي، والإلاهة الأم الرؤوم التي أغدقت من خيرها دائماً على عبادها في هذه الدنيا، ولم تنسهم بعد الموت فظلت المعبودة القادرة التي تعيد للصالحين منهم الحيوة في عالم البقاء.

ونحن واجدون في بردية الملك ميريري بيوب (بيبي) ثالث ملوك الأسرة السادسة (٢٥٧٣-٢٥٥٣ ق.م.) هذه الترنيمة المرتّلة بلسان الكاهن القائم بالمراسم الجنائزية، حاملة أمل البعث إلى روح الملك المسجى في تابوته، بفضل الإلاهة نوت (السماء) المدمجة هويتها في الإلاهة الأم العظمى آست، مؤكدة للملك أن الإلاهة، مثلما لمّت أجزاء جسد أوسير وأعادت إليها الحياة "سوف تعيد إليك أيها الملك بيبي/ أوسير، رأسك فتضعه مكانه من جسدك، وتعيد إليك قلبك فتضعه في صدرك، وتمنحك الحياة"(٤٥).

يخبرنا إيمري(٤٦)، فيما يتعلق ببدء عبادة آست (إيزيس)، أنه كان هناك إلى عهد قريب قدر من التشكك في مدى قدم تلك العبادة (وهي جزء لا يتجزأ من عبادة أوسير [أوزيريس] التي وصفها إيمري بأنها أحب العبادات إلى قلوب المصريين طوال تاريخ مصر المعروف)، إلا أن اكتشاف أنشوطة إيزيس في حلوان بين آثار تعود إلى عصر الأسرة الأولى، جنباً إلى جنب مع عمود الدجيد، الرمز المستخدم في الرسوم الدينية المصرية كبديل لصورة أوزيريس، وكرمز لانبعاثه حياً بفعل إيزيس" يوقفنا على أن تلك العبادة كانت قائمة منذ ما قبل عصر الأسرات" (أي فيما بين ٤٠٠٠ و٣٠٠٠ ق.م).

وفي الوقت ذاته، يخبرنا برستد(٤٧) أن تلك العبادة لم تعلُ في الديانة المصرية بين يوم وليلة، بل كان علوّها عبر عملية تدريجية طويلة استغرقت قروناً منذ ما قبل عصر الأسرات.

ويخبرنا الباحث الاسرائيلي نيومان(٤٨) أنه لم يكن من قبيل الصدفة أن أعظم إلاهة أم في العبادات القديمة كانت إيزيس، أي "المحط" أو "العرش"، الرمز الذي تُوِّج به رأس تلك الإلاهة.

ويزودنا ذلك الباحث الهام بحدس كاشف حقاً عندما يقول إن مؤدّى ذلك الترميز المصري أن الإلاهة الأم المتوجة تتواجد في الرمز العجزي المقدس الذي نعرفه باسم "العرش"، ويشير إلى أن تعبير "اعتلاء العرش" يعني حرفياً أن الملك البشري الذي يعتلي العرش يحوز السلطة على البشر بجلوسه في حِجْرِ الإلاهة الأم العظمى، وبجلوسه ذاك يصبح ابناً لها، وهكذا فإن العرش، الذي كان أصلاً الألوهة ذاتها، عُبِد بوصفه "محط الألوهة".

وذلك ما يعيد إلى الذهن بقوة تابوت يهوه، و"العرش"، "محط الرحمة" المصنوع من ذهب خالص، والذي موّه باسم "غطاء التابوت"(*) رغم أن تعليمات يهوه إلى موسى بشأنه كانت غاية في الوضوح:

"وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك من على العرش/محط الرحمة (الغطاء في الترحمة العربية !) من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة" (خروج ٢٥ : ٢٢).

ويزيد نيومان الأمر إيضاحاً (بغير إشارة صريحة إلى يهوه)، فيقول "وقد كان العرش الأصلي هو الجبل الذي يجمع ما بين رمزية الأرض، والكهف، والجرم، والعلو". ولقد ظل "رأس الجبل" في الفصول الأولى من رواية التوراة العرش الأصلي ليهوه ولم يبرح يهوه عرشه ذاك إلا بعد أن صنع له موسى عرش محط الرحمة فوق التابوت الذي بات مسكناً له.

فإذا ما أعادنا "رأس الجبل" إلى البردية المتضمنة سفر التكوين المصري، وجدنا الإلاهة متجلية بوضوح أكبر في قول النص " كنت فوق الغمر وحدي، ولم يكن مكان أقف عليه. فتوحدت بظلي. ورفعت شو وتفنوت من الغمر نون". فالرفع هنا فوق "تبة الخلق الأولى"، الصعود الأول من غمر اللاوجود لرأس الجبل الأول، أو "تبة الخلق"، التجلي الأول للإلاهة "موجدة كل الوجود". وبغير كبير تيه وراء ذلك الترميز، يمكننا أن نستبصر، متى تتبعنا منطق الإبداع الشعري الأسطوري الآخذ منطلقه من ميل العقل القديم إلى التشبيهية وإسقاط الخبرة الإنسانية على تصوراته التي عبر عنها بذلك الإبداع، عانة الأنثى، تلك الهضبة أو التبة أسفل البطن وابتداء الفخذين، في تلك الهضبة التي قالت أسطوريات الخلق أنها كانت أول ما ظهر من يابسة انبثاقا من غمر مياه اللاوجود الأولى وأن عملية خلق (ولادة) العالم والأحياء بدأت منها، فهي هضبة الرحم الكوني الذي أنجب ما لم يكن موجودا.

وحتى عندما بدأ التحول الباترياركي في ديانات الشرق الأدنى القديم، وبالتالي بدأ إبراز دور الإله المذكّر (في معظم تلك الأسطوريات: القضيب المختن) في عملية الخلق (ولادة الكون والأحياء)، ظل الوجود القوي للإلاهة الأم ماثلاً في الهضبة، التبة، رأس

(*) انظر في ذلك "قراءة سياسية للتوراة" تحت بند "تابوت الله" و "السحر في التوراة" ص ص ٢٣٣ - ٢٥٠ والأشكال أرقام ٢ و٣ و٤ و٥ و٦ و٧ و٨ و٩ و١٠ بذلك المرجع.

الجبل، أو الكهف، حيث يقذف الإله المذكر (عادة رب العواصف والأعاصير، "الأب القوي"، المرعِد راكب السحاب) منيّه المخصب في ذروة هـزة الجماع الكوني التي يختلط فيها الرعد بالبرق بهياج الريح وانهمال السماء، كما يقذف يهوه منيه في وادي قدرون.

- - - - -

(٤/و) السطو على آست (إيزيس) لحساب يهوه

بإزاء كل هذا، لم يكن من الغريب أن تنطق آست العظمى، "أقدم القديمات ومنبع كل وجود" في صفات ووظائف يهوه التي استعارها له موسى من الديانة المصرية، بل وفي موسى ذاته وفي بعض "النجوم" من ورثته الكهان السحرة.

ولنبدأ ببعض ما استعير ليهوه من آست (إيزيس) وبعض ما استوعب في رسم صورته من صفاتها ثم أدمج – بعد التكنعن – فيما استعير له من إيل :(*)

آست	يهوه
"اقدم القديمات"	"قديم الأيام" (دانيال، والقبالة)
"الواحدة الوحيدة"	"اسمع يا اسرائيل. يهوه إلهنا إله واحد" (تثنية ٦: ٤)
"القوية القادرة"	"يمينك يا يهوه معتزة بالقدرة" (خروج ١٥: ٦) "الإله القادر على كل شيء" (خروج ٦: ٣) "من مثلك إله قوي يايهوه ؟ لك ذراع القدرة" (مزمور ٨٩: ٨ و١٣)
"الأم المقدّسة"	"يهوه قدوس اسرائيل" (إشعياء ٣٠: ١٢ و٤٨: ١٧) "قدوس هو.. يهوه إلهنا قدوس" (مزمور ٩٩: ٥ و٩) قدّوس قدّوس قدّوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض" (إشعياء ٦: ٣)
"أعظم الآلهة وإلاهة الإلاهات"	"إله الآلهة هو" (مزمور ٥٠: ١) "إله الآلهة، رب الأرباب" (مزمور ١٣٦: ٢ و٣) "لا قرين لك بين الآلهة" (مزمور ٨٦: ٨) "من فى السماء مثله ؟ من يماثله بين الآلهة؟" (مزمور ٨٩: ٨) "قائم فى مجمع الآلهة وبينهم يقضى" (مزمور ٨٢: ١)

(*) انظر ظواهر ابتلاع الإله الكنعاني إيل في الفصل ٨ من الباب الثاني.

	"اسجدوا له ياجميع الآلهة. علوت جـدا علـى كـل الآلهة" (مزمور ٧:٩٧ و٩)
"ملكة السموات"	"إله عظيم، ملك كبير على كل الآلهة" (مزمور ٣:٩٥)
"سيدة كل من فى السماء"	"جعلت فوق السموات جلالك" (مزمور ١:٨) "يملك إلى الدهر والأبد" (خروج ١٩:١٥) "إله مهوب جداً بين حشد الآلهة ومخوف عند كل من حوله" (مزمور ٧:٨٩) "يداي أنا نشرتا السموات. وكل جندها أمرت" (إشـ !؛ ١٣:٤٥)
"فاصلة السموات عن الأرض"	"اما يهوه فقد صنع السموات" (مزمور ٥:٩٦)
"رافعة السماء"	"سمواتك عمل أصابعك" (مزمور ٣:٨)
"السموات وكل من فيها تحدث بمجدها"	"السموات تُحدِّث بمجد يهوه" (مزمور ١:١٩)
"واهبة النور من السماء"	"الصانع أنوارا عظيمة فى السماء (مزمور ٧:١٣٦)
"القادرة المحتكمة فى الريح"	"أهاج ريحا شرقية فى السماء وساق بقوته جنوبيـة" (مزمور ٢٦:٧٨) "بعاصفتك اطردهم وبزوبعتك روّعهم" (مزمور ١٥:٨٣)
"القوية المحتكمة فى الرعد	"إله المجد أرعد" (مزمور ٣:٢٩)
"إلاهة كلمات القدرة"	"قال ليكن. . فكان" (تكوين:١)
"الأم الطبيعية لكل شيء"	"أنا هو الرب صانع كل شيء" (إشعياء٤٤:٢٤)
"واهبة أنفاس الحياة"	"ونفخ فى أنفه نسمة حيوة. فصار آدم نفسا حية" (تكوين ٧:٢)
"ربة شجرة الحيوة مانحة الخلود"	"والآن لعله (آدم) يمد يده ويأخذ من شجرة الحيوة أيضا ويأكل فيحيا إلى الأبد" (تكوين ٢٢:٣)
"أم كل حى"	"ودعا آدم امرأته حواء لأنها أم كل حى" (تكوين ٢٠:٣)
"المحسنة إلـى الموتـى فـى التُـوات (العالم الآخر)"	

"الإلاهة العرش"(*)	"فى السماء كرسيه (عرشه)" (مزمور ١١:٤) "السموات كرسىّ والأرض موطئ قدمى" (إشعياء ٦٦:١) "رأيت يهوه جالسا على كرسى عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل" (إشعياء ٦:١) "فى السماء ثبّت كرسيه" (مزمور ١٠٣:١٩) "كرسيك مثبتة فى السماء منذ القدم" (مزمور ٩٣:٢)
"ملكة كل الأرض"	"يهوه ملكنا" (اشعياء ٣٣:٢٢) "يهوه ملك كبير على كل الأرض" (مزمور ٤٧:٢) "أمجّدك ياإلهى الملك" (مزمور ١٤٥:١)
"قاهرة الحية آبيب وهازمتها"	"فى ذلك اليوم يعاقب يهوه بسيفه القاسى العظيم الشديد لوياثان الحية الهاربة. لوياثان الحية المتحويّة" (اشعياء ٢٧:١)
"صانعة الملوك"	"بقوتك يفرح الملك وبنعمتك لايتزعزع" (مزمور ٢١:١ و٧)
"سيدة البيت الأعظم"	"ببيتك تليق القداسة أبد الدهر" (مزمور ٩٣:٥)
"مانحة الخصب وربة المحاصيل الخضراء"	"المنبت عشباً للبهائم. المنبت خضرة للانسان" (مزمور ١٠٤:١٤)
"الواهبة الخبز والجعة من السماء"	"الواهب خمرا تفرح الانسان وخبزا يسند قلبه" (مزمور ١٠٤:١٥)

(*) هي عرش الألوهة وعرش المُلْك الأرضي. ارجع إلى تناولنا لمفهوم العرش والاستنساخ الموسوي من عبادة أوسير (أوزيريس) في "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص ٢٤٤-٢٤٨.

"هاأنا أمطر لكم خبزا من السماء"

(خروج ١٦:٤)

"ربة الوفرة" "افغر فاك فأملؤه لك"

(مزمور ٨١:١٠)

"ربة الصلاح" "احمدوه لأنه صالح"

(مزمور ١٨:١)

"ربة العدل"(*) "العدل والحق قاعدة كرسيه"

(مزمور ٨٩:١٤ ومزمور ٩٧:٢)

"ربة الرحمة" "لأن رحمتك الى السموات عظمت"

(مزمور ٥٧:١٠)(**)

"مانحة الفرح والبهجة" "لتفرح قلوب الذين يلتمسون يهوه"

(مزمور١٠٥:٣)

"الجميلة" "من صهيون كمال الجمال يهوه أشرق"

(مزمور ٥٠:٢)

(*) وهي، في هذه الخاصية، كالإهة للعدل والحق، مدمَّجةٌ فيها هوية معات. وقد كانت صلوات مصر في معابد آلهتها تردد أن "الإله يعيش على معات" و"العرش يقوم على معات".

(**) وهو مايتناقض تماما مع "أنا إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع" (خروج ٢٠:٥).

(٤/ز) السطو على آست (إيزيس) لحساب موسى

والذي أوردناه بعض قليل من كمّ كثير اختلس ليهوه من آست ومن عبادتها، التي شكلت جزءاً لم يتجزأ من عبادة أوسير، بين ما اقتبس لذلك المعبود الصحراوي، من الديانة المصرية.

وبطبيعة الحال، لم ينس موسى وهو آخذ في هذا السلب من ديانته الأصلية ليصنع لشراذم أشباه الهمج، الذين انتهز فرصة طردهم من مصر فطمح الى جعلهم أمة، إلهاً يعبدونه ويحكمهم هو من خلال قيامه بدور نائب ذلك الإله والوسيط بينه وبينهم، لم ينس أن ينهب لنفسه مثلما نهب لمعبوده. وقد أشرنا قبلاً(*)، إلى استنساخ الكثير من القدرات "السحرية" التي عزيت إلى موسى من عبادة آست العظيمة التي شاعت بين معظم شعوب الشرق الأدنى القديم وعبرت البحر إلى أثينا وروما وضفاف الدانوب والراين والتيمز، ولم تتمكن المسيحية من التخلص منها حتى بعد صراع طويل استمر إلى أواخر القرن الخامس الميلادي.

ذلك النهب لحساب موسى بدأ مبكراً في صنع سفر الخروج بالقول الغريب الذي أجري على لسان يهوه في كلامه مع موسى: "فقال الرب لموسى انظر: إني جعلتك إلهاً لفرعون، وهرون أخوك يكون نبيّك"! (خروج ٧ : ١)(**). ولقد يبدو القول، إذا ما أخذ بظاهره، كما لو كان من قبيل التأكيد لموسى بأن يهوه، القادر على كل شيء، كان قد قرر أن يُعليه فوق فرعون ويجعله يتسيده. غير أن مثل هذا الفهم لا يتفق وبقية القول "وهرون أخوك يكون نبيّك". فنبوة هرون هنا تعني أن يهوه قرر فعلاً أن ينصّب موسى (الذي ظل اسمه إلى أن عولج توحيدياً، "رجل الآلهة") إلهاً لفرعون والمصريين، أي يحلّه محل آلهة المصريين، ويجعل هرون "نبياً" له.

ويبدو أن طموح الكاهن المصري الذي انهارت أحلامه بموت إخناتون والقضاء على كهنوت آتون، موسى، إلى تعويض ما ضاع منه بالتحوّل من كاهن إلى "إله لفرعون"، شمل الحلول محل آست، الإلاهة العرش التي من ألوهتها نبعت ملوكية فرعون. وقد صوّر فراعنة مصر متخذين من حجر آست "كرسيهم" أي عرشهم، ووصفت تلك الإلاهة العظمى بأنها "مرضعة فرعون اللبن من ثديها".

فإذا ما أخذنا في اعتبارنا أن "الشعب" أُعطي في صوغ المعمار الروائي لميلاد يهوه وشعبه معاً من واقعة الخروج التي يمكن اعتبارها، بالتصور الشعري الأسطوري، "رحم موسى"، اتضح لنا المعنى الألوهي المدّعى في انفجار موسى صائحاً في وجه يهوه "ألعلي حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلي ولدته حتى تقول لي احمله في حضنك كما يحمل

(*) ارجع إلى ٣/ب أعلاه : "تجريد الإلاهة الأم لحساب موسى".
(**) ارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص ٨٥/ ٨٦.

الرضيع إلى الأرض التي حلفت لآبائه؟" (عدد ١١ : ١١) فـ "الشعب"هنا، في الصياغة الموسوية، أُعلي من قطيع من عبيد آبقين ورعاة مطرودين بسبب أمراضهم الجلدية، فأعطي مكان الملك المخوف فرعون (وهي البداية التي بدأ منها ابتلاء أتباع الديانة بأوهام العظمة والعلو والخصوصية) وأعطي "رجل الآلهة موسى"، بالمنطق المصري في شأن آست، صانعة الملوك، مكانة الإلاهة صانعة ذلك "الشعب"/ الملك. ولما لم يكن من الممكن إعطاء موسى كل ذلك لنفسه دون "أخيه"، فإنه أضاف قائلاً "وهرون أخوك يكون نبيك"!.

وفي الوقت ذاته، نجد أن موسى، وقد اتخذ لنفسه دور الشامان (الواسطة بين الجماعة البشرية والقوة الخفية)(*)، حاول إعلاء تلك الشامانية من مستواها البدائي، تماماً كما اجتهد في إعلاء "الشعب" من مكانة البدو أشباه الهمج والعبيد الآبقين، وإعلاء المعبود من مستوى الوثن الحجري القضيبي، من خلال "تلقيه الشريعة" من ذلك المعبود على رأس الجبل.

فبحكاية "تلقي الشريعة" هذه، تمكن موسى من إسباغ الاحترام والمشروعية وسمات التحضر على المعبود (يهوه)، والشامان (موسى)، و "الشعب"، في آن معاً، حتى وإن ظل من الواضح تماماً أن "الشريعة" أي مجموعة القوانين المنظمة لحياة مجموعة بشرية لا توجد إلا في وجود العيش المستقر في إطار حياة حضرية ذات علاقات وأنشطة مركبة معقدة متداخلة. وبهذا المعيار كان من المنطقي أن يصبح حمورابي متلقي شريعة مستقر في وطن ذي طريقة حياة متحضرة بمعايير التحضر في زمانه. لكنه لم يكن من المنطقي (والمنطق هنا منطق الدراسة المنظمة المقارنة للثقافة، أي طريقة حياة الجماعات البشرية) أن يُعزى إلى معبود صحراوي بركاني قضيبي، انحصرت هويته في العنف الوحشي والجنس والخصب أو انتفاء الخصب، أنه مانح شريعة. والثابت على أية حال أن ما وصف بأنه "شريعة" في حالة يهوه وموسى كان سلباً من شرائع الشعوب المستقرة في أوطانها ذات الحضارات في الشرق الأدنى القديم.

وهنا أيضاً، اختلس موسى لنفسه من عبادة آست (إيزيس) المدمجة فيها هوية معات. فالإلاهة عُبدت كربة العدل، كما أشرنا من خلال استيعابها لهوية معات التي تجسدت فيها القوانين الأساسية للوجود السوي (تبعاً لمفاهيم الفكر الديني المصري): النظام، والحقيقة، والعدل. فبغير معات، في ذلك الفكر الرفيع، لم يكن من الممكن أن تكون هناك حياة ولم يكن من الممكن أن توجد ألوهة أو تعبد. فرعٌ وصف بأنه "يقتات على معات" وأن "شرابه معات". والفرعون لم يكن فرعوناً إلا لأن العرش (آست) الذي استمد منه ملوكيته أقيم على معات. فأحد أقدم "حروف" اللغة الهيروغليفية تمثل في الخط المستقيم الذي صُوِّر في النقوش المصرية كوطيدة للعرش الذي جسدته آست وصُوِّرت

(*) "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص ٣٥١-٣٥٣، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٧٩، و ٣٨٥.

متوجة الرأس به. وفي مصر – تبعاً لذلك – كان القضاة يدعون بـ "كهنة معات"، كما أُسميت قاعة وزن قلب الميت في العالم الآخر بإزاء ريشة معات، رمز الصدق، باسم تلك الإلاهة وكذا صُوِّرت تبة الخلق الأول مرتكزة على الرمز الهيروغليفي لمعات.

ذلك المفهوم، الذي يعرف كل دارس جاد غير مغيَّب الذهن أنه غائب تماماً من عبادة المعبود الدموي الصحراوي يهوه، كان جذرياً في أسس الخليقة كما صوّرها الفكر الديني المصري. فالصياغة الباتريار كية لسفر التكوين المصري تخبرنا أن أتوم عندما "جعل قلبه يحيا" (بفكره، بكلمته) كيما يضع في ذلك القلب أسس الخليقة، ويوجدها به، أصغى لصوت الغمر البدئي نون مهمهماً في سمعه "املأ صدرك بابنتك معات، استنشقها بأنفك كيما يحيا قلبك، وحتى لا تفارقك أبداً".

ومن هنا كان إدماج معات في آست أمراً مقضياً به منذ البداية، حتى إذا ما أخذنا بالصياغة الباتريار كية التي أحلت أتوم (الذي أُدمج في رع بعد ذلك) محل الإلاهة الأم العظمى آست. فمعات صُوِّرت واهبة الحياة للفرعون بوضعها الأنخ، مفتاح الحياة، ورمز آست، على أنفه. وهكذا فإنه، سواء كانت آست قد نفخت أنفاس الحياة في كل شيء، في البدء، وهي محتوية معات، أو كان استيعابها لمعات لاحقاً، لا تدع النصوص الدينية المصرية مجالاً للشك في ذلك الاندماج الكامل لآست ومعات كما تترنم به هذه الصلاة المصرية لأوسير (أوزيريس):

"أنت تحيا على معات
أنت تعيش من عبق نداها
أنت موجود لأن معات موجودة
وهي وجدت لأنك موجود".

والمفارقة في شأن موسى والعبادة التي ركّبها حول معبوده يهوه أن تلك العبادة خلت أصلاً من مفهوم العدل والحقيقة وهي التي انبنت على معبود دموي وصفه الباحثون الذين تعمقوا أصوله بأنه شيطان من شياطين البراكين، وأفصحت مؤلفات واضعي أسطوريته، سواء في الأسفار الخمسة الأولى أو في بقية العهد القديم عن أنه آخر من ينسب إليه أنه "يحيا على معات ويعيش على عبق نداها". لكن شيئاً من ذلك لم يكن ليعوق موسى وهو آخذ في الاغتراف من معارفه القديمة ككاهن مصري ليصنع أردية معلاّة لنفسه ولمعبوده. وقد نجح الرجل في ذلك إلى حد جعله موصوفاً حتى الآن بأنه "صانع الشريعة".

ومثلما اختلس موسى وظيفة القانون والنظام والعدل هذه من إيزيس/معات ونمّقها له صانعو أسطوريته بعد ذلك من التراث الديني لسومر وبابل، اختلس أيضاً تلك الصفة التي قد تكون السبب الأكبر في حب كل من عبدوا آست لتلك الإلاهة، سواء في مصر أو في غيرها، ونعني بها صفة الوسيطة الخيّرة الرحيمة بين الألوهة والبشر. ففي أكثر من مكان من سلسلة حكايات موسى كما هي واردة بالتوراة نجد إلحاحاً لا تخطئه العين على تصويره كرادع الألوهة ومانع جبروتها عن "الشعب"، والوسيط بين تلك الألوهة البركانية سريعة

الاشتعال وبين "الشعب". وقد نلاحظ هنا أنه في حين تذكر "الألوهة" في أي مجال ديني آخر، يذكر البشر جميعاً كمتلقين لنعمة الألوهة أو نقمتها، في حين يضيق الأمر كثيراً حيثما ذكرت "ألوهة" يهوه، فلا يذكر إلا "الشعب".

وبطبيعة الحال، وقد عاين الكهنة ورثة موسى النعم التي جناها من ذلك الاختلاس الديني، سواء لنفسه أو ليهوه، ساروا على دربه.

- - - - -

(٤/ح) السطو على آست (إيزيس) لحساب السفاح

فحتى السفاح (يشوع)، وهو آخر من يمكن ذكره في سياق واحد مع الإلاهة الأم آست، سطا واضعو أو مسجلو سيرته الدموية، لحسابه، على عبادة تلك الإلاهة. فالعهد القديم يؤكد لنا أن السفاح عندما رغب في إتمام إحدى مذابحه أمر الشمس "أمام عيون اسرائيل قائلاً يا شمس دومي على جبعون" فتوقفت الشمس "عن الدوران" يوماً كاملاً، ٢٤ ساعة "ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده" (يشوع ١٠ : ١٢-١٤).

وبصرف النظر عما في هذا الكلام من جهل فاضح بقوانين الطبيعة(*) نجد أن "الواقعة" مرفوعة رفعاً - كالكثير غيرها - من الديانة المصرية. ففي قصة ميلاد حورس أن أمه آست تركته مخبأ بين عيدان البردي في مستنقعات الدلتا خوفاً عليه من أذى ست قاتل أبيه. وإذ عادت إليه آست وجدته بين الحياة والموت وقد نفذ سم إلى جسده، فاستنجدت بالإله الشمس رع "وهو مبحر في السماء بقارب ملايين السنين"، فهبط رع إليها، وعندما حاذاها توقفت الشمس ونزل من قارب رع الإله تحوت فنطق بكلمات القدرة وخلّص حورس من السم الذي سرى في عروقه وردّه إلى الحياة، وإذ ذاك عاود قارب الشمس إبحاره صوب الغروب(٤٩).

ولم يتوقف الاختلاس من إيزيس لورثة موسى عند ذلك الايقاف للشمس بأمر من السفاح، بل شمل أيضاً إحياء الموتى. فحكاية "ابن المرأة صاحبة البيت"، في سلسلة حكايات إيليا، التي تكررت بحرفيتها في حكاية "ابن السيدة الشونمية العظيمة"، في سلسلة حكايات أليشع(**) صبي إيليا ووارث عباءة سحره، سُرقت للاثنين من إيزيس.

والحكاية، في حالة إيليا، أنه كان مختبئاً في بيت امرأة بارة، فمرض ابن المرأة ومات، فأخذه إيليا من حضنها وهي قاعدة تعول وصعد به إلى المكان الذي كان مختبئاً فيه بعليّة البيت، وأضجعه على سريره وصرخ إلى يهوه قائلاً أيها السيد الرب أأيضاً إلى المرأة الأرملة التي أنا مختبئ عندها قد أسأت بإماتتك ابنها؟" وتمدد على جثة الولد ثلاث مرات وهو يصرخ إلى يهوه قائلاً لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه، فسمع له يهوه ورجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش" (الملوك الأول ١٧ : ١٧-٢٢).

أما في أليشع، عندما عبر ذلك المبارك الى شونم، كانت هناك امرأة شونمية عظيمة فأمسكته ليأكل خبزاً، وآوته في بيتها. وكما حدث في حالة إيليا، مات الولد ابن السيدة الشونمية العظيمة، فدخل أليشع واضطجع فوق الصبي ووضع فمه على فمه وعينيه على عينيه ويديه على يديه وتمدد عليه فسخن الولد. ثم تركه أليشع وقتاً ريثما يتمشى في البيت

(*) ارجع في ذلك إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص ٤٧٦-٤٧٨.
(**) انتظر في شأن سلسلة حكايات أليشع الصفحات من ٣٨١ إلى ٣٨٩ بالمرجع السابق نفسه.

تارة إلى هنا وتارة إلى هناك، وبعدها عاد إليه وصعد فتمدد فوقه من جديد فعطس الولد سبع مرات ثم فتح عينيه وقد رُدت إليه الحياة (الملوك الثاني ٤ : ٨ و٢٠ و٣٤-٣٦).

وأصل الحكاية[٥٠]:

"أنا آست. عندما وصلت إلى مشارف مستنقعات البردي، ذهبت إلى بيت الحاكم. وعندما رأتني السيدة العظيمة كبيرة النساء مقبلة أقفلت الأبواب في وجهي. لكن امرأة فقيرة فتحت لي بابها وأدخلتني بيتها. ونقمت العقارب على السيدة العظيمة فبعثن واحدة منهن لدغت ابنها. واشتعلت النار في بيتها ولم يكن ماء لإطفاء النار. وإذ ذاك امتلأ قلب من لم تفتح لي الباب ودارت في المدينة تندب فلم يخفّ إلى نجدتها أحد. فرق قلبي من أجل الطفل، وحزنت لأجلها، ورغبت في أن أحييه وهو الذي كان بلا ذنب فناديتها مرتين أن تعالي إليّ، ففي فمي كلمة قدرة ترد الحياة، وتطرد الشر. ووضعت أنا آست يديّ على جسد الصبي لأحييه وأخلصه مما كان قد أقفل حلقه دون أنفاس الحياة. وقلت أيها السم أخرج. أنا آست الإلاهة سيدة كلمات القدرة آمرك أن تخرج من جسم الصبي. آمرك ألا تسري. أنا القوية القادرة صاحبة القول المقدس آمرك. أنا آست الإلاهة العظيمة رأس الآلهة آمرك".

وبغير أن "يعطس الولد سبع مرات"، عاش، كما تروي البردية المصرية. إلا أنه، فيما عدا مسألة العطس في حكاية أليشع، ظلت القصة واحدة مع اختلاف في تفصيل واحد هو إيصاد السيدة العظيمة أبواب بيتها في وجه إيزيس، واستضافة السيدة العظيمة لأليشع وهو اختلاف وجده الناسخون مفيداً.

وفي سلسلة حكايات ذلك الساحر المتنبئ، لم يقتصر الاختلاس على تلك الحكاية، إذ استعيرت له من عبادة أوسير وآست قدرة إحياء الموتى (البعث المصري) بدرجة جعلت عظامه ذاتها بعد موته مليئة بالسحر الذي أعاد الحياة لمن لامسها ولو صدفة: "ومات أليشع فدفنوه. وكان غزاة مؤاب يدخلون الأرض عند دخول السنة. وفيما كان القوم يدفنون ميتاً إذا بهم قد رأوا الغزاة فطرحوا الرجل في قبر أليشع فلما سقط الميت في القبر ومس عظام أليشع عاش وقام على رجليه" (الملوك الثاني ١٣ : ٢٠ و٢١)! فمفهوم خلود الروح وبقائها من خلال الصلاح بعد محاكمتها في عالم البقاء سرى، من خلال تقليد الاختلاس الديني الذي استنّه موسى، في عظام أليشع فباتت تلك العظام بعد موته عصا سحرية تحيي الموتى.

ولا عجب، على ضوء ذلك كله، أن اشتعل يهوه ناراً وهدد – على لسان إرميا "بأن يوقد النار في بيوت آلهة مصر فيحرقها ويسبيها ويتلفع بأرض مصر كما يتلفع الراعي

بعباءته ويخرج من هنــاك بسـلام" (إرميـا ٤٣ : ١٢) وهـو مـا لـم يحـدث، وظلـت ملكـة السموات شوكة حادة في جنب رب الجنود ومصـدراً للخـزي (الـذي شبهه يهـوه بخـزي السارق إذ يُمسك متلبساً) لمؤلفي سلسلة حكاياته وسلاسل حكايات نبييمه.

- - - - -

(٥) السطو على منافسات يهوه من إلاهات الشرق الأدنى القديم – في مصر

(٥/أ) سلب تجليات الإلاهة الأم العظمى

في سفر إشعياء، على الرغم من كل اجتهادات المؤلفين المقتبسين والمحررين المتعاقبين في الطمس والتمويه والإخفاء والإتاهة، تطالعنا – بالصفاقة الناعمة الواثقة بالنفس التي تستمدها الأنثى من معين داخلي لا ينضب تنفرد به في مواجهة الذَّكر – تجليات متعددة متعاقبة للألوهة المؤنثة، مستثيرة غيرة يهوه المشهورة، دافقة شواظ غضبه إلى أنفه بقدر يفقده ما ادُّعي له في أزمنة متأخرة من علو سماوي، مُنزلة إياه إلى مستوى غير إلهي إطلاقاً من السب والشتم الجنسي المقذع الموجه، في سِفر عرّافه إشعياء الثالث، إلى شعبه الأخص وعروسه اللعوب كثيرة "المضاجعات" (مع غيره من الآلهة) اسرائيل:

> "أما أنتم، فتقدموا إلى هنا، يا بني الساحرة، نسل الفاسق والزانية. بمن تسخرون، وعلى من تفغرون الفم وتدلعون اللسان؟ أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب؟ (أمَا أنتم)المتوقّدون للأوثان تحت كل شجرة خضراء، القاتلون الأولاد في الأودية تحت شقوق المعاقل؟ في (أعمدة) حجارة الوادي الملس نصيبك (يا اسرائيل). تلك هي قرعتك. لتلك سكبت سكيباً وأصعدتِ تقدمة. أعن هذه أتعزى؟ على جبل عال ومرتفع وضعتِ مضجعك وإلى هناك صعدتِ لتذبحي ذبيحة. وراء الباب والقائمة وضعت تذكارك لأنك لغيري كشفت وصعدت. أوسعت مضجعك وقطعت عهداً.. شهوتك وجدت، لذلك لم تضعفي".
>
> (إشعياء ٥٧: ٣-١٠)

هذا شحان جليل بين معبود عاشق و "شعب" عاص "صلب الرقبة"، وصفه المعبود الولهان محزوناً جريحاً لعرّافه إرميا بقوله: "بيت اسرائيل هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم (يقولون) للعود أنت أبي وللحجر أنت ولدتني. . هم حوّلوا نحوي القفا لا الوجه. . على عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا" (٢ : ٢٦-٢٨).

في سائر فورات غيرة يهوه المشهورة المشبوبة، سواء كان اندفاق حممها من فم إرميا، أو من فم إشعياء، أو من فم حزقيال أو سواه من نبييم، نجد ذلك الشحان بين يهوه و "شعبه"، عروسه الزائغة اللعوب، ناضحاً – كما أسلفنا – بصور جنسية باذخة عارمة لا شك في أن أقل قدر ممكن من رجاحة العقل حري بأن يوقفنا على أنها مما لا يستقيم إطلاقاً مع ما هو متوقع من إله خطير مُفترض أنه أثيري سماوي لا جسدي ولا جنسي لا يتصور العقل السليم أن أفكاره السامقة وأقواله الإلهية يمكن أن تتداعى متراكبة بعضها فوق

بعض في مدار حسي من العشق والزنى والشهوة والمضجع الموسّع لكل عاشق والمضاجعة (التي يوجد في النصوص ما يرجح – متى فُكّت طلاسمها – أنها سحاقية، بين تلك العروس اللعوب وإلاهة أنثى داعرة) والخيانة الزوجية.

غير أن ذلك كله – على أهميته في الكشف عن خامة النسج الحكوي في ذلك الهذيان المحموم – اعتبار جانبي تنبغي تنحيته (ولكن دون أن نخرجه تماماً من دائرة البصر)، والانصراف إلى ما يعنينا، في المقام الأول، من النص المستشهد به، وهو – تحديداً – ما يفصح عنه هذا الهياج الجنسي السائب من غيرة مشبوبة.

فممن تلك الغيرة؟

هذا سؤال زودنا حزقيال بالجواب عليه بثرثرته عن "تمثال الغيرة المهيّج للغيرة" المقام في مدخل مذبح يهوه (حزقيال ٨ : ٣)، أي تمثال الإلاهة عشيرة الذي سجد له "الشعب" وقادته كهنته و "ظهورهم نحو هيكل يهوه" (حزقيال ٨ : ١٦)، كما أسلفنا، وزودنا به إرميا فيما سجله من رد "الشعب" عليه بقوله "إننا لا نسمع لك الكلمة التي كلمتنا بها باسم (إلهك) يهوه، بل سنبخّر (لإلآهتنا) ملكة السموات ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نر شراً. ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السموات وسكب سكائب لها احتجنا إلى كل وفنينا بالسيف والجوع (فهربنا إلى مصر)" (إرميا ٤٤ : ١٦-١٨).

وقد استعرضنا مضامين هذا الكلام في سياق محاولتنا استظهار ملامح عبادة القوم لملكة السموات الأم العظمى إيزيس (آست)، الإلاهة العرش، في الفصل السابق.

وبطبيعة الحال، كان من غير الممكن – متى أخذنا بحكي التوراة عن إقامة بمصر طالت لأكثر من أربعة قرون – ألا تعبد آست العظيمة وهي التي انتشرت عبادتها من مصر شرقاً وغرباً، وأُخذت صفاتها وأسطوريتها ليهوه ذاته وصانع اسطوريته موسى.

إلا أن هناك أيضاً سريان عبادة آست في عبادات إلاهات كنعان وسوريا وأرض الرافدين. فالإلاهة العرش كانت، في واقع الأمر، محيطة بيهوه وعبادته من كل الاتجاهات، وربما كان المشهد الدرامي بين إرميا ومن هجّوا عائدين إلى مصر في زمانه ليبخّروا لملكة السموات ويسكبوا السكائب لها ذروة لأزمة يهوه مع تلك الإلاهة الأم العظمى. وفي سفر حزقيال ما يوقفنا على أن غيرة يهوه من الألوهة المؤنثة لم تشتعل بعد الاستيطان في كنعان كما أُريد القول بكل ما يكتب عن "تسرب عبادات الكنعانيين إلى ديانة يهوه"، بل توقّدت من قديم، من بدء المغامرة الموسوية والتيه في القفر:

> "عرّفهم رجاسات آبائهم. في يوم اخترت اسرائيل
> ورفعت يدي لنسل بيت يعقوب وعرّفتهم نفسي في أرض مصر
> ورفعت لهم يدي قائلا أنا يهوه إلهكم. في ذلك اليوم رفعت لهم
> يدي لأخرجهم من أرض مصر إلى الأرض التي تجسستها لهم

تفيض لبناً وعسلاً فخر كـل الأراضـي. وقلـت لهـم اطرحـوا كـل إنسان منكم أرجاس عينيـه ولا تتنجسـوا بأصنـام مصـر.. تمـردوا عليّ ولم يريدوا أن يسمعوا لي ولـم يطـرح انسـان منهـم أرجـاس عينيه ولم يتركوا أصنام مصر.. لأجل ذلك كلّم بيت اسرائيل وقل لهـم. . كمـا حـاكمت آبـاءكم فـي بريـة أرض مصـر كذلـك أحاكمكم.. فاذهبوا (إن شئتم) اعبدوا كل إنسـان أصنامَـه إن لـم تسمعوا لي، ولا تنجّسوا إسميَ القدوس بعطاياكم وبأصنامكم".

(حزقيال ٢٠ : ٤ – ٨، ٢٧، ٣٦، ٣٩)

والنص واضح بما فيه الكفاية. فمن خرجوا من مصـر مـع موسى وتـاهوا معه فـي القفر أثاروا نقمة يهوه وغيرته بتمسكهم بعبادات مصر، وكذلك فعل أبناؤهم بعد الاستيطان في الأرض "التي تفيض لبناً وعسلاً" التي "تجسسها" لهم يهوه.

غير أن التمسك بعبادة آلهة مصـر، وبخاصـة عبـادة آسـت ملكـة السـموات، كمـا يوقفنا النص المستشـهد بـه مـن سفر إرميـا (٤٤ : ١٦ – ١٨)، لـم يكـن كـل وزر "آبـاء الشعب" الذين يفترض أنهم خرجوا بفضل "ذراعه القوية" (وصحتهـا "قضيبـه القـوي") مـن مصر مع الرجل موسى، فهم – عندما وصلوا إلى كنعان، بتأكيد يهوه ذاتـه – انخرطـوا فـي عبادة معبودات الكنعانيين أيضاً:

"في هذا جدّف عليّ آباؤكم إذ خانوني خيانة. لما أتيـت بهم إلى الأرض التي رفعت لهم يدي لأعطيهم إياها فرأوا كل تـل عال وكل شجرة غبياء (ملتفـة الأفـرع تخفـي مـا تحتهـا) ذبحـوا هناك ذبائحهم وقرّبوا (قدموا) هناك قرابينهم المغيظة وقدموا هناك روائح سرورهم وسكبوا هناك سكائبهم".

(حزقيال ٢٠ : ٢٧ و٢٨)

ويسأل يهوه "شعبه" بلسان حزقيال، بعد ذلك الاستعراض لخطايا آبائه:

"هـل تنجسـتم بطريـق آبـائكم وزنيتـم وراء أرجاســهم؟ وبتقديـم عطايـاكم وإجـازة أبنـائكم فـي النــار تتنجســون بكـل أصنامكم إلى اليوم يا بيت اسرائيل؟".

(حزقيال ٢٠ : ٣٠ و٣١)

فممن كانت الغيرة؟

نحن نعرف من مكاشـفات النبييـم ومـن تواريـخ الديانـة أن تلـك الغيـرة المشـتعلة تضمنت كل ألوهة منافسة (أي كل كهنوت منافس) سواء تذكـيراً أو تأنيثـاً. وفيمـا يخـص المنافسين من الآلهة القضيبية الأخرى، أُطلقت تسمية عامة على تلك الآلهـة هـي "البعليـم"، جمـع "بعـل"، أي "الـزوج" أو "السـيد". ولكـن، مــاذا عــن "البعــلات "، أي الإلاهــات المنافســات الإنــاث ؟

يبدو من نص إشعياء (٥٧ : ٣ – ١٠)أن ذلك المتنبيء خرج ، من فـرط انفعـال، على عرف الكهنوت اللاوي الذي تمثل فـي التمـادي الـى حـد الاسـفاف ، لا فـي تجـاهل الإلاهة الأنثى فحسب، بل وفي شطب وجودها أصلاً إلى حد تحريف اسمها بحيـث يُنطـق بلفظة تعني "العار". فهو – وقد اكتوي بخبرة السبي – زهقت روحه وفضفض بما لا يقال، فسمّى الأشياء بأسمائها وخاطب قومه باعتبار أن يهوه ذاته هـو الـذي أجـرى الكـلام علـى لسانه، وقال لهم "تعالوا هنا يا أولاد الحرام، يا عباد الساحرة (الإلاهة الأم)، يا نسل الفاسق (الإله الداعر، البعل) والزانية (اسرائيل، التي تركت ذلك الإله الفحل الدخيل يركبها بدلاً من يهوه "الذي خرجت من تحته"). بمن تسخرون وعلـى مـن تتهكمـون وتتقولـون؟ علـيّ أنـا يهوه؟ ألستم أولاد المعصية (أولاد الزنـى الـذي انغمسـت فيـه أمّكـم اسـرائيل فـي أحضـان البعليم) ونسل الكذب؟ ألستم أنتم الذين تركتم هيكلي وقدمتم تقدماتكم إلى تماثيل الإلاهة تحت كل شجرة خضراء؟"(*)

– – – – –

(*) كانت هياكل الإلاهة تقام تحت الأشجار على "المرتفعات" التي أثارت غيظ يهوه ونبييمـه نظـراً لمـا ظل "الشعب"، كآبائه، يقدمه من تقدمات عليها بدلاً من تقديمها ليهوه فـي هيكلـه، فـأجرى علـى لسـان حزقيال، أو بالأحرى أجرى حزقيال على لسان يهوه القول الكاشف عن "قرابينهم المغيظة" التـي قدموهـا إلى الإلاهة تحت كل شجرة عارمة الخضرة على كل تل عال مما دفع يهوه إلى أن يقـول لهـم "مـا هـذه المرتفعة التي تأتون إليها (بدلاً من أن تذهبوا إلى مذبحي) فدعي اسمها مرتفعة إلـى هـذا اليـوم" (حزقيـال ٢٠ : ٢٨ و٢٩)!.

(٥/ب) تكذيب النبييم موسى في معركتهم مع الإلاهة

بعد أن فضفض إشعياء بما كشف عن أن شجار يهوه كان - أساساً- مع الإلاهة، ملكة السموات، حاول أن يمسح في أذيال الإلاهة الممارسة اليهيوية الوحشية التي استنها موسى فقضى بتقديم كل بكر من مواليد "الشعب" ضحية بشرية بذبحه وإحراق جسده على مذبح يهوه إثر تختينه في اليوم الثامن من عمره، كما يبين هذا النص الصريح من سفر الخروج : "وأبكار بنيك تعطيني. كما تفعل ببقرك وغنمك. سبعة أيام يكون مع أمه وفي اليوم الثامن تعطيني إياه" (٢٢ : ٢٩ و٣٠). وقد فعل إشعياء ذلك بأن جعل يهوه يقول لـ "الشعب" (الذي كان قد عانى الأمرين من ذلك الحكم الموسوي فتمرد، ووجد اللاويون من الحكمة مهادنته فاستبدلوا الذبح بفدية نقدية حتى لا يخرجوا من العملية صفر اليدين): "ألستم أنتم القاتلون الأولاد في الأودية تحت شقوق المعاقل؟"! (*)

وفي ذلك الإبراء، سار إشعياء على درب تنظيف صورة يهوه من مثالبه القديمة الكاشفة الممعنة في الوحشية والتشبيهية التي كانت قد تلبّثت في تلك الصورة من الأيام الشريرة القديمة، أيام شيطان البراكين المدياني، والتي كانت قد باتت غير لائقة بعد رفع يهوه إلى ما فوق الجلد كإله سماوي نوراني ترانسندنتاليّ الصورة وجَعْله - في سياق التوسع الذي أفضت إليه خبرة السبي المزلزلة في الطموح السياسي/ الإقليمي، الأساسيّ في الديانة - إلها "عالميا" يحكم العالم ويديره من السماء، مع عدم التخلي عن البعد الخاص بعلاقته بـ "شعبه المختار".

في عملية التنظيف والترميم هذه، انتُهِج: (١) نهج مسح تلك المثالب القديمة الكاشفة التي من قبيل ذبح الأطفال ليلتهمهم يهوه، في ذقن معبود أو آخر من معبودات الكنعانيين التي كانت تقدم إليها هي أيضاً الضحايا البشرية وبخاصة أبناء "الملوك"، أو في أذيال الإلاهة حتى في سياق محاولة طمسها كما ألمح إشعياء في النص المستشهد به، أو (٢) نهج نفي "القديمات"(**) بكنسها تحت سجادة تاريخ الديانة والتبرؤ منها حتى وإن كان ذلك عن طريق تكذيب موسى(***) . والأمثلة على ذلك التكذيب كثيرة، بعضها ملتو

(*) ارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص ٦٨، ١٣٧-١٣٩، ٢٥١، ٢٥٨-٢٦٤، ٣٣٤، ٣٨٣، ٣٨٤.

(**) "لا تذكروا الأوليات والقديمات لا تتأملوا بها. ها أنذا صانع أمراً جديداً" ! (إشعياء ٤٣ : ١٨).

(***) وما الذي يمكن أن يكون أكثر تكذيباً لموسى من هذا النص من إرميا؟:

"هكذا قال رب الجنود يهوه إله اسرائيل: ضموا محرقاتكم إلى ذبائحكم وكلوا (كلوها) لحماً. لأني لم أكلم آباءكم ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من مصر (بأن يقدموا إليّ - وقد موّهها المترجم التقي الى "من جهة") "محرقة وذبيحة" (٧ : ٢١ و٢٢) !

فالنص تكذيب صريح لكل ما قال موسى أنه أصدر إليه من تعليمات محددة بشأن الذبائح والمحرقات في أسفار التوراة وبخاصة الخروج واللاويين.

وبعضها صريح. ومن أصرحها ما أجراه حزقيال على لسان يهوه: "ما لكم تضربون هذا المثل على أرض اسرائيل قائلين الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست؟ حي أنا، يقول يهوه. لا يكون لكم أن تضربوا هذا المثل بعد في اسرائيل. ها كل النفوس لي. نفس الأب كنفس الإبن. كلاهما لي. والنفس التي تخطئ هي التي تموت.. أنتم تقولون (متذمرين) لماذا يحمل الابن إثم الأب؟ أما الإبن فقد فعل حقاً وعدلاً، حفظ جميع فرائضي فحيوة يحيا. النفس التي تخطئ هي التي تموت. الابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الابن. بر البار يكون له، وشر الشرير يكون عليه. (فعلامَ) تقولون ليست طريق يهوه مستوية؟" (حزقيال ١٨ : ٢ - ٥ و٩ و١٩ - ٢١ و٢٥) حقيقة، لم؟

والجواب الوحيد على هذا التساؤل الصفيق، طبعاً، هو : لأن موسى أكد أنك قلت ذلك! فموسى أجرى على لسان يهوه في سفر الخروج قوله: " أنا يهوه إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع" (٢٠ : ٥) ثم عاد فأكد القول "بلسانه هو" في سفر العدد إذ وصف يهوه بأنه "لا يبرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع" (١٤ : ١٨). ويحار المؤمن، أي "النبيين" يصدق، وأيهما يكذب؟ ويحار أيضاً: هل هذه الآيات كلام إلهي أنزل على موسى أم مجرد "مثل كان يضرب في إسرائيل"؟

فبصرف النظر عن غرابة التركيز في نص حزقيال على الموت وكأنه لا يموت إلا من يأثم في حق يهوه، توقفنا صفاقة حزقيال وغيره في تنظيف صورة يهوه إلى حد مناقضة موسى على مدى براغماتية اللاويين في استخدامهم لما ظلوا يجرونه على لسان المعبود، كما يُجري المؤلف الحوار على ألسنة شخوصه، في الإبقاء على مِقود "الشعب" في أيديهم في ظل ذلك المعبود بأي ثمن، حتى مصداقية مؤسس الديانة.

بعد هذه الخدمة التي أداها إشعياء ليهوه تنظيفاً لصورته ومسحاً لوزر دمويته الأصلية في أذيال الإلاهة، يستطرد ذلك العرّاف قائلاً، بادعاء أن ما يقول وحي من عند يهوه، إن المصير الذي اختارته عروس يهوه الزائغة، اسرائيل، بحماقة، قادها إلى استبدال يهوه بأعمدة الحجارة الملساء، أي إلى عبادة المعبودات القضيبية الدخيلة، مخلّصاً معبوده الذي كان قد اضطلع برفعه إلى ما فوق الجلد حديثاً من هويته القضيبية الأصيلة. وإذ فعل

إلا أنه ما دام الأمر كله منذ البداية ضرباً من الاختلاق الروائي لم يكن من المتعذر - تنظيفاً لصورة المعبود الذي خلق اصطناعياً مما سُرق له من عشرات الآلهة والإلاهات من مصر وكنعان وأرض الرافدين - مقارعة جزء من النص الروائي بجزء آخر كالذي أجراه إرميا على لسان يهوه، بغير حرج، أو - بقدر من الصفاقة، كما نجدها عند حزقيال - الاعتراف "بالقديمات" التي من قبيل ذبح الأبكار ضحايا على مذبح يهوه مع جعل يهوه يقول "وأعطيتهم أيضاً فرائض غير صالحة وأحكاماً لا يحيون بها ونجّستهم بعطاياهم إذ (جعلتهم) يجيزون في النار كل فاتح رحم (كل بكر من ذكورهم) لأبيدهم حتى يعلموا أني أنا الرب" (حزقيال ٢٠ : ٢٥ و٢٦)!! فحزقيال هنا، مستيئساً، قد جعل يهوه يعترف بأنه هو الذي أملى على "الشعب" فريضة تقديم بكورهم إليه محرقات على مذبحه بعد حزّ رقابهم، ولكن فقط كيما يلقنهم درساً حتى يعلموا أنه هو الرب !

ذلك، استدار إلى الإلاهة، فنعى على اسرائيل حماقتها التي تمثلت في "سكب السكائب ورفع التقدمات على المرتفعات (هياكل عشيرة/عانات)، مشبهاً ذلك الزيغ وراء البعليم والبعلات بوضع اسرائيل مضجعها في أماكن عبادة تلك المعبودات المنافسة مدفوعة إلى ذلك بـ "شهوتها" (التي تبدو، فيما يتعلق "بالخروج من تحت يهوه" للزنى وراء الإلاهة، شهوة سحاقية) غير عابئة ليهوه الغيور غير مكترثة لما قد تجره عليها وعلى بنيها وبناتها منه ("الشعب") إغاظتها له، "موسعة مضجعها" لمنافسيه ومنافساته، كاشفة عورتها لهم ولهن، صاعدة إلى سرير زناها فوق كل أرض مرتفعة وتحت كل شجرة عارمة خضراء، واضعة تماثيل الإلاهة (الترافيم) في البيوت لتكون معبودات منزلية، مصوِّرة رموز الإلاهة على قوائم الأبواب.

نتيجة لذلك الزيغ كله، حتى لا يبدو تصوير العلاقة بين يهوه واسرائيل عروسه وبنيه وبناته منها كضرب من التمادي أو الاجتراء، نتذكر ما قاله إشعياء التثنية في نفس السفر: "هكذا قال يهوه. أين كتاب طلاق أمكم التي طلقتها أو من هو من غرمائي الذي بعته إياكم؟ هو ذا من أجل آثامكم قد بُعتم ومن أجلِ ذنوبكم طُلِّقت أمكم" (إشعياء ٥٠ : ١)، ونتذكر ما أكد إرميا أن يهوه قاله له: "قائلاً إذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر، فهل يرجع إليها بعد؟ ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة؟ أما أنت (يا اسرائيل) فقد زنيت بأصحاب كثيرين، لكن (مع ذلك) ارجعي إليّ يقول يهوه. هل رأيت (يا إرميا) ما فعلت العاصية اسرائيل؟ انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك. (ومع ذلك) قلت لها بعد ما فعلت كل هذا ارجعي إليّ. فلم ترجع. فرأت أختها الخائنة يهوذا. فرأيت أنه لأجل كل الأسباب إذ زنت العاصية اسرائيل فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها لم تخف الخائنة يهوذا أختها بل مضت وزنت هي أيضاً. وكان من هوان زناها أنها نجّست الأرض وزنت مع الحجر ومع الشجر" (إرميا ٣ : ١ و٦ – ٨) !

في كل هذا الترديد الذي يمس شغاف القلب لأشجان يهوه، يمكننا أن نتبين من هم "عُزّاله" أو غرماؤه (كما أسماهم إشعياء) الذين عزلوه فنحّوه جانباً وأصعدوا امرأته إلى أحضانهم لتزني معهم. فالحجر والشجر واضحا الدلالة، حتى متى سايرنا إشعياء وإرميا وغيرهما فتناسينا أن يهوه نشأ وترعرع عند المؤابيين وعند المديانيين وبين يدي موسى الماهرتين كمعبود قضيبي هو الآخر رُمِّز باستمرار بعمود منتصب من حجر أملس كان المؤابيون والمديانيون يكسونه بغلاف من ذهب ويقدمون إليه بكارات بناتهم. فَذِكْر "الحجر والشجر" في كلام إشعياء وإرميا – مع هذا التحفظ – إشارة واضحة إلى الآلهة القضيبية الأخرى، والألوهة المؤنثة.

– – – – –

(٥/ج) السحر والجنس والدم والعتبات والأبواب

ولكن ما دلالة الأبواب وقوائم الأبواب في نص إشعياء؟

كالكثير من إيماءات المؤلفين والمحررين المعالَجة المقتضبة عن عمد لتحوَّل إلى شبه شفرة سرية يتخاطب بها الكهان بمأمن من فهم الأغيار والعوام من غير الأغيار، يمكن أن يجعلنا اقتضاب هذه الإيماءة التي وردت خطفاً نمر مر الكرام، أو – بالأصح – مر الأتقياء الذين لا يلحفون في السؤال ولا يمعنون في اللجاجة.

غير أنه مما يستوقف العقل، إن تيقّظ فتساءل، أن الأبواب وقوائم الأبواب هذه ورد ذكرها (مقتضباً أيضاً) في سفري الخروج والتثنية. ونحن متى أمعنا النظر فيما وردت الإيماءة بشأنه في هذين السفرين، أحرياء بأن نتمكن من فهم معنى قول يهوه في سفر إشعياء لعروسه اسرائيل الخائنة "وراء الباب والقائمة وضعت تذكارك لأنك لغيري كشفتِ وصعدتِ".

فقبل أن نتساءل عن معنى "وضعت تذكارك"، وعن مرمى قوله "وراء الباب والقائمة"، نعود – أولاً – إلى سفر الخروج.

في ذلك السفر، يقول موسى إن يهوه قال له في مستهل "الأحكام التي تضعها (ياموسى) أمام بني اسرائيل" أنه إذا أراد سيد عبراني عتق عبده العبراني المشترى في سبت شرائه (أي في السنة السابعة من تاريخ الشراء)، وأعلن العبد أنه – حباً في سيده – لا يريد أن يحصل على حريته، فإن سيده:

"يقدمه إلى يهوه (بأن) يقرّبه إلى الباب أو إلى القائمة" (خروج ٢١ : ١ – ٦)

وفي سفر التثنية، يقول واضع السفر إن موسى قال لـ "الشعب":

> "اسمع يا اسرائيل. يهوه إلهنا رب واحد. فتحب يهوه إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ولتكن (وصاياه) على قلبك. .. وتربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك وتكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك". (تثنية ٦ : ٤ – ٨)

من كلا النصين، يطالعنا اعتقاد مدخول بعنصر سحري قوي فعل فيه فعله إيمان العقل القديم بوجود رابطة سحرية بين الاسم والمسمّى، وهو إيمان بلغ ذروته في اليهودية بمفهوم سرية اسم الإله. وبطبيعة الحال، لم يقتصر الاعتقاد ولا الإيمان الذي قوّاه على من ألفوا أسفار التوراة أو على النبييم، فقد كانا كلاهما من عدة العقل القديم في التعامل مع البيئة الطبيعية ومع القوى الخفية التي اعتقد ذلك العقل أنها واجهته من وراء واجهة الطبيعة.

منذ كان الإنسان لائذاً بالكهوف، ظل مدخل الكهف بالنسبة إليه الفوهة السحرية التي تدخل منها القوى الخفية لتفعل به خيراً أو شراً، والمخرج السحري الذي يخرج منه من يموتون.

من هذا التصور البدئي، تطور الاعتقاد المتعلق بالباب وبقوائم البـاب عندمـا خلّـف إنسان العالم القديم الكهوف وراءه وسكن البيوت، لكن الاعتقـاد وإن تطـور ظـل مدخـولاً بعنصر قوي من السحر المِثلي أو السحر المحاكي. فباب البيـت ظـل - كمدخـل الكهـف أيام سكنى الكهوف - المدخـل الـذي تقتحـم أمـن الـدار عـبره الأرواح الخـيرة والشـريرة والآلهة والشياطين، والمخرج الذي تنطلق منه الروح خارجة بعد واقعة الموت.

تحت تأثير ذلك الاعتقاد بسحرية البـاب وقوائمـه، بـل وأقفالـه ومزاليجـه، كـانت شعوب الشرق الأدنى القديم، وما زالت شعوب من الموصوفة في علم الأنثروبولوجيا (علـم الانسان) بـ" البدائية" تعنى بفتح باب البيت على مصراعيه فـي حـالتين : حالـة وجـود امـرأة حامل قد أتاها المخاض، وحالة وجود محتضر توشك روحـه أن تفـارق جسـده. والتصـور السحري الماثل في جذور الاعتقاد والممارسة الناجمة عنه يتلخص في أن فتح الباب يسهل عملية الولادة لأنه يتيح للإله أو الإلاهة الدخول، خاصة متى كـانت رمـوز الإلـه أو الإلاهـة واسمه أو اسمها مصورة أو منقوشة على قوائـم البـاب وعتبتـه العليـا، كمـا أن تـرك البـاب مفتوحاً على مصراعيه يسهل خروج روح الميت في صحبة القوة الخفية التـي تـأتي لتقبـض تلك الروح.

فالاعتقاد القديم في سحرية الإسم وارتباطه بالمسمّى إلى حـد استحضار صـاحب الإسم عن طريق النطق باسمه (مجرداً أو مصحوباً بتعاويذ معينة) أو كتابة الاسم، كمـا فـي حالة قوائم الباب، أفرخ لدى يهوه ذلك الشاغل البابي الذي نجده ناطقاً في سفري الخروج والتثنية، وجعل موسى - أو من ألّف سفر الخـروج وجعـل موسـى يختلـس فيـه تشـريعات حمورابي بادّعاء أنها تشريعات أملاها عليه يهوه - يقول إن المرء عندما يقرّب إنسـاناً إلـى الباب أو إلى قائمة الباب فإنه في الحقيقة يقدمه إلى يهوه (خروج ٢١ : ٦). وبالمثل، جعل ذلك الاعتقاد مؤلف سفر التثنية يجري على لسان موسى وصية إلـى "الشـعب" بـأن يكتـب على قوائم أبوابه وعلى كل أبوابه اسم يهوه مصحوباً بشهادة "إلهنـا رب واحـد" (تثنيـة ٦ : ٤ - ٨).

ونفس ذلك الاعتقاد، في جزئيته المتعلقة بدخول القوة الخفية التي تقبض روح مـن قُضي بموته، جعل مؤلف سفر الخروج في حكيه عن مذبحة أبكار المصريـين التـي نظمهـا يهوه بالاشتراك مع موسى في سياق "الضربـات العشـر"، يكـف المـوت عـن الدخـول إلـى بيوت "الشعب" إبان المذبحة بوضع الرمز السحري الأساسي ليهوه، أي الدم، على مداخـل تلك البيوت :

> "فدعا موسى جميع شيوخ اسرائيل وقـال لهـم. . خـذوا باقة زوفا واغمسوها في الدم ومسّوا العتبة العليا والقائمتين بـالدم. . ولا يخرج أحـد منكـم مـن بـاب بيتـه حتـى الصبـاح لأن يهـوه سيجتاز ليضرب المصريـين. فحيـن يـرى الـدم علـى العتبـة العليـا

والقائمتين يعبر عن الباب ولا يدع المُهلِك يدخل بيوتكم ليضرب"

(خروج ١٢ : ٢١ - ٢٣)

ككل شيء آخر في التركيب الاصطناعي الذي خُلّق عن طريقه المعبود ولُفّقت أسطوريته، نجد عملية الاختلاس واضحة في ممارسة الاستخدام السحري للاسم على قوائم الأبواب وعتباتها العليا، وبخاصة من مصر. فالمصريون، كما يخبرنا ويلكنسون[٥١] كانوا ينقشون على أبواب بيوتهم وقوائمها وعتباتها العليا نقوشاً هيروغليفية توفر الحماية لتلك البيوت مما تضمنته النقوش من أسماء رع وإيزيس. ومن المصريين عرف ذلك الاعتقاد والممارسة المترتبة عليه طريقهما، من خلال سرقات موسى، إلى أسطورية الديانة التي ركّبها حول يهوه مما اختلسه له، وأعطيا اسماً عبرياً هو "الميزوزا" وأضفى عليهما موسى بن ميمون[٥٢] (ميمونيدس) احتراماً بوصفهما "وصية" من وصايا يهوه إلى "شعبه"، بقوله:

"إن الوصية المتعلقة بالميزوزا ملزِمة لكل يهودي، لأنها تكفل وقوع بصره، كلما دخل بيته أو خرج منه، على مايذكّره بالواحد القدّوس تبارك، فيجعله يسير في طريق الصلاح".

والذي يعنينا هنا هو ما كان يُصور على قوائم الأبواب وعتباتها العليا فيذكّر الداخل والخارج بالواحد القدوس تبارك، لا ذلك السير المفترض في طريق الصلاح. فمسألة الميزوزا وتقديس قوائم الأبواب وعتباتها العليا احتلت مكانة في تأريخ يوسف بن ماتياس (يوسفوس)[٥٣] وفي التلمود البابلي وتلمود القدس تشير إلى مدى أهميتها، باعتبارها مسألة يهيوية خالصة ذات مضامين سحرية في علاقة "الشعب" بمعبوده. غير أن إشعياء، عندما يشير خطفاً إلى هياج غضب يهوه واشتعال غيرته لكون عروسه الناشز اسرائيل لم يكفها أنها "خرجت من تحته" فذهبت وزنت مع الحجر ومع "الشجر" (الأيكات = الإلاهة)، "فوضعت وراء الباب والقائمة تذكار زناها "ذلك الزنى الذي كشفت خلاله عورتها وصعدت إلى مضاجع غيره، يوقفنا - في حقيقة الأمر - على أن غيرة يهوه اشتعلت من الإلاهة الأم ملكة السموات. وهكذا فإنه، جنباً إلى جنب مع النص الصريح الوارد في سفر إرميا عن الغيرة من تبخير "الشعب" لملكة السموات، وسكبه السكائب وصنعه الكعك الشعائري (على صورة الفرج) لها، والنص الصريح الوارد في سفر حزقيال عن تمثال الغيرة (تمثال الإلاهة) المهيّج للغيرة، نجد هذا النص المبتسر بعض الشيء في سفر إشعياء ناطقاً - رغم محاولة التمويه - بأن حكاية الميزوزا، ككل شيء آخر غيرها، ليست إلا محاولة خائبة بعض الشيء من جانب المؤلفين والمحررين والمؤرخين (كيوسف بن ماتياس) والمفسّرين (كموسى بن ميمون) والتلموديين، للتعمية عن أن بيوت "الشعب" "قُدِّست" برمز الإلاهة التي ظل "الشعب" متشبثاً بعبادتها، وذلك عن طريق الحيلة المألوفة المتكررة في الديانة، حيلة ابتلاع كل ألوهة منافسة واغتصاب رموزها وخصائصها وشعائرها ليهوه.

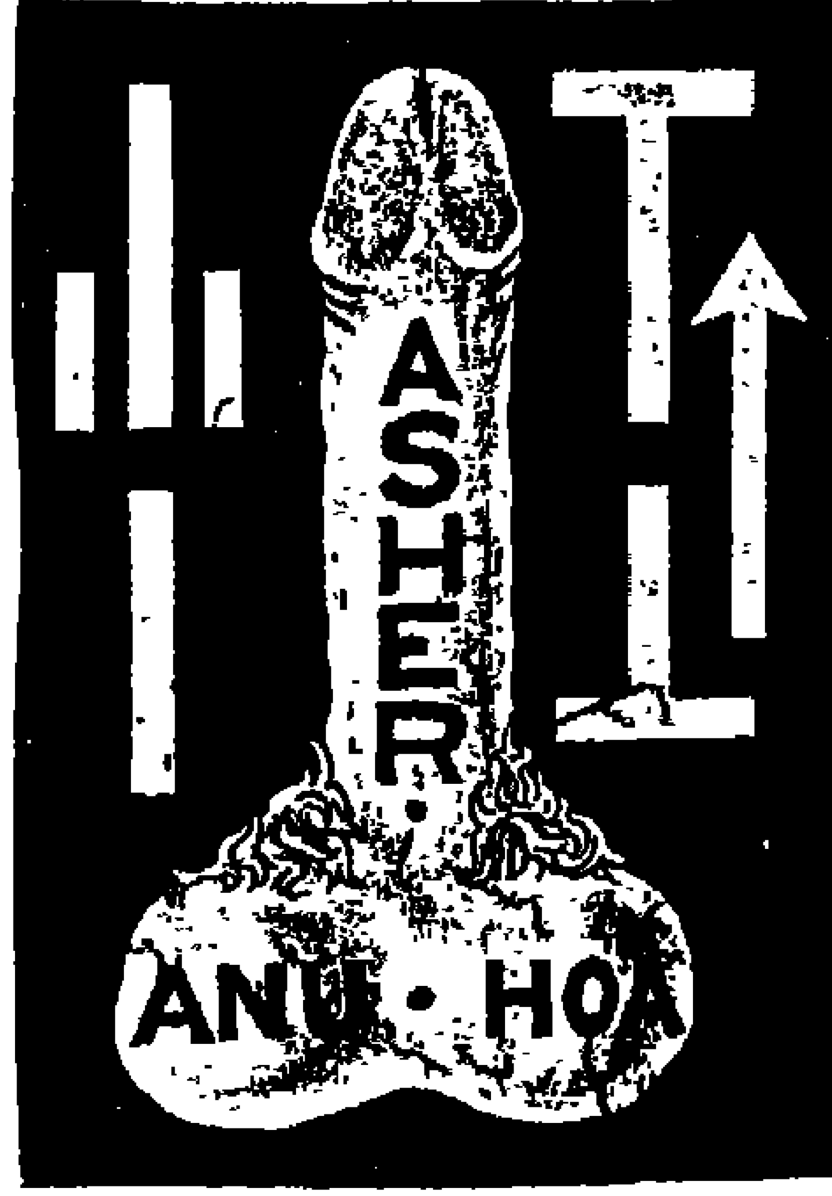
والذنب في كل ذلك الحيص والبيص الذي وقع فيه المؤلفون والمحررون والمؤرخون والمفسرون والتلموديون، إن شئنا الحق، ذنب موسى. فهو - عندما أراد أن يوفر قدراً من الاحترام والرقي للمعبود الصحراوي القضيبي المغمور الذي اختلسه من المديانيين، يهوه، لم يجد ما يختلسه فيجعله رمزاً لذلك المعبود بدلاً من رمزه الأصلي الفاضح الذي تعبّد أمامه المؤابيون بوصفه "بعل فغور" والمديانيون باسم يهوه، أي العمود الحجري المنحوت على شكل قضيب منتصب قاعدته خصيتان (الشكل رقم ٩)، إلا صليب الأنخ المصري مقلوباً.

وبطبيعه الحال، لا يجهر أحد بذلك. غير أن النصوص التوراتية ذاتها، على الرغم من كل المراجعات المتكررة، ظلت منطوية على ما يؤدي النبش تحت قشرته إلى الكشف عن الحقائق التي مُوّهت خلال عمليات التحرير والمراجعة.

من تلك النصوص الكاشفة النص الذي يحكي عن أن موسى طلب من شيوخ "الشعب" أن يأخذوا باقة من الزوفا (النبات المستخدم في طقوس السحر)(*) ويغمسوها في الدم ويمسوا العتبة العليا والقائمتين من كل باب من أبواب بيوت "الشعب" حتى يكفلوا لإبكار بني اسرائيل النجاة من المذبحة التي اتفق عليها مع يهوه للقضاء على أبكار المصريين.

- - - - -

(*) ارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص ١٠٩، ١١٠، ٤٣٧.



الشكل رقم (٩)
"أهيه أشير أهيه" التي موّهت في الترجمة إلى "أهيه الذي أهيه"
-القضيب المختّن المنتصب مرتكزاً على خصيتيه-
قارنه بصليب "التاو" المصري مقلوبا كما في الرسم
(خروج ٣ : ١٤)

(٥/د) صليب التاو، والقبة تبة العانة، ونجمة داود

وبصرف النظر عن أنه من الغريب بحق أن يجد المؤلفون أنـه كـان مـن الضروري لموسى أن يحرص على تجنب دخول يهوه بيوت "شعبه" عـن طريـق الخطـأ ليقبض أرواح أبكار ذلك "الشعب" ضمن مـن كـان قـد اتفـق معـه علـى أن يقبـض أرواحهـم مـن أبكـار المصريين، بوضع علامة بالدم على أبواب بيوت "الشعب"، في حين مـن المفـروض، مـادام يهوه "إلها"، أنه لم تكن بأحد حاجة إلى مثل هذا الاحتياط، حيث أن الآلهة تعلـم طبعـاً مـا في القلوب لا ما في البيوت فحسب - نقول إنه بصرف النظر عن ذلـك ، مـن الثـابت مـن الترجمة اللاتينية المعتمدة لـدى الكنيسـة الكاثوليكيـة (الـ Vulgate) التـي قـام بهـا القديـس جيروم، أن العلامة التـي وضعـت علـى قوائـم الأبـواب وعتباتهـا العليـا كانـــت - نصّيـاً - "علامة التاو". و"التاو" هو الرمز المقدس للإلاهة الأم العظمـى آسـت (ايزيـس)، (انشـوطة إيزيس = دم ايزيس = الأنخ) Ω، وقـد أزيلـت منـه الحلقـة العليـا (رحـم الإلاهـة Ω) فبـات "صليباً" عُرف بالـ crux ansata على شكل T(*) إلا أنه - على الرغـم مـن إزالـة رمـز الرحـم العلوي منه، ظل مجسداً لأندروجينية (أي لأنوثة وذكورة) الإلاهـة "موجـدة كـل موجـود" بتلاحم قضيبه الأفقـي الممثـل للأنوثـه وقضيبـه العمـودي الممثـل للذكـورة. وهـو رمـز لـم يختلسه موسى وحده من عبادة أوسير وآست (أوزيريس وايزيس)، بل أخـذه أيضـاً الأقبـاط المصريون الأول عن طريق الغنوصية(**) .

وحتى لا تتوه المسائل أو تغمض كثيراً، نرجع إلى المتنبئ الناري الدموي حزقيـال، فنجد أن ذلك الصليب الذي أمـر موسـى بترميـز أبـواب بيـوت "الشـعب" بـه بـالدم بريشـة سحرية من نبات الزوفا، هو نفسه "السمة" التي أمر يهوه بأن توسم بها جباه المخلصين له:

> "وصرخ يهـوه فـي سـمعي بصـوت عـال. قـرب وكـلاء المدينة (القائمين على أمر المدينة من لدن يهوه = ملائكته؟) كـل واحد وعدّته المهلكة بيـده. وإذا بستة مقبلين مـن طريـق البـاب الأعلى الذي هو مـن جهـة الشـمال وكـل واحـد عدّتـه السـاحقة بيده. وفي وسطهم (سابع) لابس الكتـــان وعلـــى جانبـــه دواة كاتب. فدخلوا ووقفوا جـانب مذبـح النحـاس. ومجـد يهـوه إلـه اسرائيل صعد عن الكروب الذي كان (راكباً) عليه إلى عتَبَة البيت (العتبة العليا لباب الهيكل). فدعا لابس الكتان الذي دواة الكـاتب

(*) وصليب التاو، "مفتاح الحياة" المصري هذا الذي نجده مصوراً في أيدي آلهة مصر وإلآهاتها يرمز إلى النبع الألوهي الأندروجيني للحياة، وبالانتشار الثقافي انتقل إلى الآشوريين، بـل وإلـى الهنـد، فيمـا توقفنـا عليه جدران معابدها، وبشكل ما وصل إلى ايرلندا التي يطالعنا من عدد من آثارها القديمة.

(**) ارجع في ذلك، وفي شأن الغنوصيـة إلى ملحق المسمّيات فـي آخـر الكتـاب الثـاني "بورنوجرافيـا الدين".

علىٍ جانبه وقال له اعبر في وسط المدينة في وسط أورشليم وسِمْ سِمَةً (وارسم علامة) على جباه الرجال الذين يئنون ويتنهدون (الذين يتوجعون ويتحسرون) على كل الرجاسات المصنوعة في وسطها. وقال لأولئك (الستة) في سمعي اعبروا في المدينة وراءه واضربوا. لا تشفق أعينكم ولا تعفوا. الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك (ولكن لا تقربوا (لا تمسّوا بسوء) أي إنسان عليه السَمة (العلامة) وابتدئوا (المذبحة) من مقدسي (من الهيكل) بادئين بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت".

(٩ : ١ - ٦)

فحزقيال أعاد المذبحة التي نظمها موسى قبل قرون مع يهوه، لكن ضحاياها - هذه المرة - لم يكونوا أبكار المصريين، بل كانوا "الشعب" بشيوخه وشبابه وعذاراه وأطفاله ونسائه وكهنته، لأنهم "خرجوا من تحت يهوه". ولكن إلى من خرجوا ؟ يوقفنا القول عن "الباب الأعلى الذي هو من جهة الشمال" على أن ذلك الهياج الدموي كله كان بسبب الإلاهة الأم ملكة السموات التي جعلت يهوه يصرخ مستشيطاً، على لسان حزقيال، في وجه اسرائيل قائلاً "وصنعت لنفسك مرتفعات موشاة (أي أقمت هياكل مزينة للإلاهة) وزنيت عليها. . بنيت لنفسك قبة(*) وصنعت لنفسك مرتفعة في كل شارع. على رأس كل طريق بنيت مرتفعتك ورجّست (دنست) جمالك وفرّجت رجليك (باعدت ما بين فخذيك - فتحتهما على سعتهما) وأكثرت زناك" (حزقيال ١٦ : ١٦ و٢٤ و٢٥) !

تلك الإلاهة التي أضلّت عروس يهوه الجميلة اللعوب اسرائيل فجعلتها تبني القباب والمرتفعات وتباعد ما بين فخذيها وتكثر الزنى (الذي - كما قلنا - يبدو في هذا السياق سحاقياً)، كانت المعبودة المنافسة الخطرة التي سجد لها "الشعب" برجاله ونسائه وكهنته وحكامه داخل هيكل يهوه ذاته، فأولوا ظهورهم لقدس أقداسه، وركعوا أمام تمثالها، "تمثال الغيرة المهيّج للغيرة" (حزقيال ٨ : ٣) الذي أقيم عند الباب الأعلى المتجه نحو الشمال. ومن هنا كان دخول يهوه وهو في حالة هياج عارم، في رؤيا حزقيال، وهو وأعوانه الستة المسلحين بعدّة الهلاك الساحقة وسابعهم لابس الكتان ككهنة مصر حامل دواة الكاتب على جنبه، من ذلك الباب الأعلى المتجه نحو الشمال، الذي أقيم عنده تمثال الإلاهة. وعملا على طرد وجود الإلاهة وانهاء حلولها السحري بالهيكل ومنافستها يهوه

(*) والقبة رمز جنسي ضارب في القدم لرحم الإلاهة على شكل حرف الأوميجا اليوناني Ω وكذلك "المرتفعة" أي التبّة التي دعيت في أسطوريات الخلق بـ "تبة الخلق الأولى"، فهي تبة العانة بأسفل بطن الأنثى ويمثلها المثلث المقلوب∇، في حين يمثل المثلث القائم Δ الوجه المذكر لتبة الخلق الأولى (ارجع إلى "رأس الجبل والتبة المقدسة" بكتابنا "قراءة سياسية للتوراة ص ص ١٣٧ - ١٤٢). ومن تراكب المثلثين للوجهين الأنثوي والذكري للإله الأندروجيني صنع "مِجَنّ داود" (نجمة داود) المستنسخ قبّالياً من شجرة الحياة في عقيدة معات المصرية. (ارجع إلى كتابنا "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص ٣٠٤ - ٣٠٦ والشكلان ١٥ و١٦ بصفحتي ٣٠٤ و٣٠٥ من ذلك الكتاب).

في عقر داره، صعد يهوه من فوق الكروب الذي كان راكباً عليه "إلى عتبة البيت" أي إلى العتبة العليا لباب الهيكل. فهي عملية حلول سحري كتلك التي انطوى عليها في واقعة حلول يهوه محل الإلاهة، ساكنة بيوت "الشعب" في مصر، في نص سفر الخروج، وواقعة طرد ساكنة "بيت يهوه" أي هيكله، في أورشليم، في نص سفر حزقيال. وهو حلول نفذ عن طريق "الباب"، وعتبته العليا، وقائمتيه. وكل ما هنالك من فرق أنه، بدلاً من ريشة نبات الزوفا السحرية في النص الموسوي، وجد حزقيال من الأنسب – تخلصاً من الإيماءات السحرية الصريحة التي كـ "أشنان داود" – الاكتفاء بريشة الكاتب، وبدلاً من الدم، وجد من الأكثر اتساقاً مع الصورة المحسّنة المعلاّة ليهوه بعد أن رُفع إلى السماء وبات "ينزل" ممتطياً الكروب، الاكتفاء بالحبر الذي في دواة الكاتب.

غير أن ذلك الاستبدال للعدّة الشعائرية القديمة بما هو آمن وأنسب لم يلغ أو يغير الرمز الأساسي الذي يبدو من الغريب حقاً أن كلاً من موسى وحزقيال لم يجد غيره ليهوه، وهو صليب التاو. وإن كان موسى أمر برسمه على قوائم الأبواب وعتباتها العليا متخذاً منه رمزاً سحرياً بالغ المضاء (فيما تمنى وفيما حققته صياغة أسطورة الضربات العشر ليهوه)، فإن حزقيال لجأ (بنفس الضرب من التمني ومن خلال نفس الابتلاع لكل ألوهة منافسة ابتلاعاً تضمن باستمرار اختلاس رموزها وسائر عدّتها ليهوه) إلى وسم جباه المؤمنين بيهوه المخلصين له الرافضين لرجاسات الآخرين من بني "الشعب" وبناته وشيوخه وكهنته بصليب التاو عينه كيما يتخطاهم الهلاك مثلما تخطى في الأسطورة الموسوية أبكار "الشعب".

فالنصوص ذاتها، سواء التوراتية منها أو النبييمية، تظل كاشفة عمّا استمات المؤلفون والمحررون في طمسه من حقائق في صوغهم لتاريخ الديانة وصُنعِهم لصور المعبود.

– – – – –

(٥/هـ) المعبودة المحتقرة في العهد القديم

غير أن مثل هذا الاستقراء لنصوص ملغّزة معالَجة وموصوفة بأنها ذات ستمائة ألف معنى يظل مفتوحاً أمام محاولات المناقضة ما لم تدعمه بحوث العلم المقارنة وكشوفه الآثارية.

والثابت الآن الذي لم يعد يدع مجالاً للمراوغة في شأنه أن عبادة الإلاهة، التي اُسميت في أغلب الأمر، في العهد القديم، حيثما لم تدعَ بلقبها القديم، "ملكة السموات"، باسم عشيرة (أشيرة) أي الإلاهة الكنعانية الأم زوجة الإله إيل الذي أُدمج في يهوه، أو بالاسم العام السائب "العشتروت"، لم تقتصر عبادتها على السجود لها داخل هيكل يهوه، أو على تقديسها في القباب وعلى المرتفعات التي سلّم بوجودها نص حزقيال المستشهد به، بل مورست تلك العبادة على نطاق واسع للغاية داخل البيوت، بوصف الإلاهة معبودةً منزلية، أي معبودة للأسرة، مثلما هي معبودة للمجتمع.

في كتابه "العشيرة في العهد القديم"(٥٤)، يزودنا ريد بوفرة من البراهين العلمية الموثّقة على ما سلم به أيضاً باحثون كرافائيل باتاي وروبرت جريفز وغيرهما من شيوع عبادة الإلاهة الأنثى بين "شعب" يهوه (ولكن بكل طبقاته لا بين عامة ذلك "الشعب" فحسب)، ويزودنا في الوقت ذاته بمنفذ هام يمكّننا من الاستبصار بأسباب ذلك الشيوع وتفهم مضامين ما بدا باستمرار كانحياز من جانب القوم إلى الألوهة المؤنثة حتى في عنفوان العصر الباترياركي وفي غمار حركة "يهوه وحده". ويتمثل ذلك المنفذ في نص عبري من القرن السابع ق.م. يتضمن تعويذة كلها ضراعة إلى الإلاهة عشيرة أن تهب عونها وتسبغ نعمتها على امراة من نساء "الشعب" فتكفل لها ولادة سليمة سلسة وجنيناً يولد حياً. وتلك ضراعة نجد كثرة من مثيلاتها في الأدب الديني المصري للمعبودة تاورت.

فإذا ما أخذنا في اعتبارنا أن شاغلاً أساسياً بالغ الأهمية من شواغل من دعوا بـ"الشعب" ظل باستمرار تأمين كثرة النسل (وهو مطلب عام لشعوب العالم القديم، لكنه اتصف بأهمية خاصة في حالة قوم ظلت الكثرة العددية وتأمين توافر عدد كاف من الذكور القادرين على القتال من أهم متطلبات البقاء والاستمرار لهم بين أقوام أصيلة في أراضيها كارهة لوجود أولئك القوم بين ظهرانيها)، وتذكرنا – من نفس منطلق الحرص على وفرة النسل – الحزازة التي تولدت في نفوس "الشعب" وترسخت تجاه المعبود الدموي يهوه الذي ظل يفترس أبكار "الشعب" منذ استن له موسى ذلك الطقس الوحشي من طقوس التضحية البشرية، وهي حزازة شهد بخطورتها اضطرار الكهنة اللاويين في خاتمة المطاف إلى الأخذ بما أملته الحكمة واستبدال تلك التضحية بحيلة فدية الابن النقدية (حتى لا يخرجوا من العملية بغير كسب ما) – نقول إننا متى أخذنا في الاعتبار شاغل وفرة النسل، وتذكرنا وزر يهوه الدموي ذاك، أمكننا أن نتفهم بسهولة بعض أسباب تفضيل "الشعب" لملكة السموات. ومتى تفهمنا ذلك، بات بوسعنا أن ننفذ إلى ما وراء عمليات التمويه

والإتاهة المتواصلة على صفحات العهد القديم في شأن تلك الإلاهة الأنثى التي لاذ بها "الشعب" (بل وهرب إليها في مصر عندما ساءت أحواله) وبخر لها وسكب السكائب وقدم القرابين ووضع رموزها على أبوابه وقوائمها وعتباتها العليا، بدلاً من رموز يهوه، وعبدها داخل هيكل يهوه ذاته، وفي داخل البيوت، وفي العديد من القباب والهياكل التي لم تقم على المرتفعات فحسب أو في الأيكات فقط، بل وعلى نواصي الشوارع في أورشليم وغيرها.

والسؤال في كل ذلك هو: هل كانت عشيرة الكنعانية، أو - بالأصح - هل كانت الإلاهة الأم في تجليها الكنعاني وباسمها الأوغاريتي (كما استماتت مؤلفو الأسفار المقدسة في محاولة إفهامنا) هي المعبودة الأنثى التي "تلوث" القوم بعبادتها لعدوى أصابتهم من مضيفيهم الكنعانيين، أم أن المسألة هنا مسألة تمويه عن طريق الاقتصار على ذلك الاسم الأوغاريتي، وهو تمويه يضاف إلى حيلة الغيضة والأيكة والخلط بين الإلاهة و"الصارية"؟(*) أي - بعبارة أخرى - هل كانت عشيرة هي كل من عبد "الشعب" من "عشتروت" (باعتبار "عشتروت" اسم جمع عاماً شاملاً للألوهة المؤنثة)؟ أي - سعياً إلى المزيد من الوضوح - هل كانت عشيرة أو "الصارية"، أو "الأيكة" - كما يراد لنا أن نصدق - الإلاهة الأنثى الوحيدة التي أغوت "الشعب" الذي كان - قبل أن يقع في حبائلها - موحِّداً بيهوه من أيام "آبائه"؟.

لا يكاد يوجد من الباحثين الجادين الآن، سواء من الأغيار أو من "شعب" يهوه، من بات قادراً على التشبث بهذا التصوير المفبرك للمسألة. فكما يقول دارس

(*) ومن الحيل المسكينة بعض الشيء التي لجأ إليها مؤلفو الأسفار ومحرروها عملاً على طمس أي ذكر للألوهة المؤنثة، إيرادهم اسم أي إلآهة حيثما ورد ملحقاً باسم بعل أو آخر أو بلفظة بعل على إطلاقها إدماجاً لتلك الإلاهة في حشد البعليم، أي المعبودات القضيبية المذكرة المنافسة ليهوه، باعتبار أنه لا يصح ولا يليق التسليم بأنه كانت هناك إلآهات إناث ينافسن الفحل القضيبي يهوه. ومن تلك الحيل أيضاً خلط رمز الإلاهة باسمها، كما في حالة عشيرة التي اجتهد المؤلفون والمحررون في طمسها عن طريق تسميتها بـ "الصّارية"، خلطاً لرمزها الديني باسمها عشيرة. ومن تلك الحيل كذلك تعمُّد الخطأ في ترجمة اسم عشيرة خلطاً له بالأماكن التي أقيمت فيها مراسم عبادتها، أي الغيضات أو الأيكات، طمساً لاسم الإلاهة وبالتالي لوجودها، بالغيضة أو الأيكة.

والمشاهَد أن سانت جيروم نهج في ترجمته للعهد القديم نفس النهج اللاوي بل وتبرع بأن يكون يهيوياً أكثر من المؤلفين والمحررين اللاويين، فـ "أخطأ" هو الآخر في ترجمة اسم الإلاهة في مواضع كثيرة، محولاً إياه إلى باريابس (Priapos) المعبود القضيبي اليوناني الذي اتخذ اسمه، هيلينياً، علماً على القضيبية. وبارياپس كان الإله الشهواني قبيح الخلقة ضخم الخصيتين والقضيب الذي تحكي الميثولوجيا اليونانية أن أفروديتي، إلآهة الحب والشهوة الجنسية، أنجبته من الإله القضيبي العربيد ديونيسيوس، فمسخته الإلاهة حيرا زوجة كبير آلهة الأوليمب زيوس وأخته.

إلا أن وجه الإلاهة، على الرغم من كل تلك البراعات الكهونتية المسكينة بعض الشيء، ظل يطل من وراء أستار التعمية والتمويه، في النصوص المعالَجة، كما في سفر القضاة، مثلاً: ".. وسجدوا لها وأغاظوا يهوه. تركوا يهوه وعبدوا البعل وعشتاروت" (٢ : ١٢ و١٣)، وفي سفر صموئيل الأول: "فصرخوا إلى يهوه وقالوا أخطأنا لأننا تركنا يهوه وعبدنا البعليم والعشتاروت" (١٢ : ١٠).

كهيستنجز(٥٥)، كانت عشتروت، عشيرة، عشتار، إينانا (هكذا، عوداً من الأحدث إلى الأقدم)، المعبودة الرئيسية لمن أسماهم بـ "البدو الساميين" طوال المرحلة الماترياركية (الأُموية) من تنظيمهم العشائري، إذ عُبدت بوصفها المثيلة المعلاّة للأم البشرية، الأنثى نبع ملذات الجنس، منجبة النسل، مانحة الغذاء، وفوق هذا وذاك رئيسة العشيرة في السلم وقائدتها شديدة المراس بالغة الضراوة في الحرب.

ومن المشاهد أن الإلاهة، سواء عُبدت باسم إينانا، أو عشتار، أو عشيرة، أو عانات، عُبدت فوق عبادتها كمنجبة الحياة وواهبة الغذاء وكإلاهة الحب والجنس والخصوبة والخصب، بوصفها – فوق ذلك – إلاهة حرب ضارية، كما نتبين من أي استعراض لما اختلس من صفات الفتوة الحربية ليهوه من الإلاهة كيما يصبح "رجل الحرب".

فكما أسلفنا ، وكما نجد أن باحثاً جاداً كرافائيل باتاي يسلّم، لم يكن من الممكن فيما يقبله العقل أن يشذّ من أُطلق عليهم اسم "شعب يهوه" وأُعطوا نسباً اعتسافياً ضارباً في القدم يعود إلى بداية العالم، عن كل شعوب الشرق الأدنى القديم، فيخلو تاريخهم الثقافي من عبادة الألوهة المؤنثة، ما لم يكن ذلك "الشعب" قد أُنزل على الأرض من السموات العلى جاهزاً وضيئاً مشعاً بالنور موحِّداً بيهوه، وبذا فريداً في خصوصيته التي تجعله – كما هو مُدّعى له – صنفاً آخر غير سائر البشر وفوق كل أولئك البشر.

في مستهل كتابها الممتع (المتشيطن بعض الشيء) الذي نشر أولاً بعنوان "أوراق الفردوس" ثم أعيد نشره بعنوان "عندما كان الإله امرأة"، تقوم المثالة والباحثة (التي استكتبها الأستاذ باتاي، لا أقل، مقدمة الطبعة الجديدة (١٩٩٠) من مبحثه بالغ الأهمية، "الإلاهة العبرانية") ميرلين ستون(٥٦) أن عشتروت، المعبودة الوثنية المحتقرة في العهد القديم" تكاشفنا – على الرغم من كل اجتهادات "الكتبة التوراتيين" في تمويه هويتها باستخدامهم المتكرر لصيغة المذكّر كلما ورد لها ذِكر – بأنها هي هي عشتارت، الإلاهة الأم العظمى، ملكة السموات، وتوقفنا على أن أولئك الذين أغضبوا يهوه بعبادتهم آلهة دخيلة وغريبة كانوا يتعبدون لإلاهة أنثى عرفت تاريخياً بأسماء متعددة كإينين، وإينانا، ونانا، ونوت، وعانات، وأناهيتا، وعشتار، وايزيس، وآست (وتورده ستون "أوست")، وعشارة، وعشيرة، وعشتارت، وهاتور – وكلها أسماء إلاهة تعددت أسماؤها وظلّت السلف المقدس بأي اسم عرفت، وعُبدت بكل تلك الأسماء على تباينها واختلاف لغات ولهجات من أطلقوها، بوصفها الإلاهة الأم العظمى.

– – – – –

(٥/و) المعبودة الذهبية آست والسطو على تجلياتها من الإلاهات لحساب يهوه

فلنحاول أن نُفلت من حصار الطمس والتزييف والإتاهة التوراتي الذي بات - بفضل صفاقة العلم وإلحاحه واجترائه - رثّاً بعض الشيء، فنذهب في أعقاب تلك الإلاهة الأنثى الفاتنة والمميتة، منقّبين فيما لم تبتلعه رمال الزمن من أسطورياتها وشعائرها وترانيمها، علّنا نقف على بعض ما أفعم صدر يهوه بكل ذلك الغيظ وما أشعل في قلبه كل تلك الغيرة التي وصفها نبييمه منطلقة من منخريه ناراً وكبريتاً.

وتلك رحلة محفوفة بالصعاب بدأناها من البداية، من الإلاهة البدء آست، إيزيس، فلنستأنفها، سعياً وراء تجليات الأم العظمى، من هذه الترنيمة :

"المجد لك، الفرح لك، أيتها المعبودة الذهبية
أيتها الحاكمة الوحيدة، يا صولجان الرب الأعظم ذاته
ياسر الوجود المكنون، يا من تلدين الكائنات المقدسة،
وتصنعين دواب الأرض وتشكّلينها كيفما شئت، وتصنعين البشر.
يا أماه ! يا نبع النور الذي تنحسر الظلمة أمامه،
يا من تغمرين كل مخلوق من البشر بنورك،
المجد لك أيتها العظيمة ذات الأسماء الكثيرة،
يا من أنجبت الآلهة والإلاهات، فكان اسمك آست،
مبارك اسمك يا آست العظيمة،
يا من تهبين أنفاس الحياة، يا ابنة رع
التي أنجبها من فمه فكان اسمك تفنوت،
يانِتْ الرهيبة، يا من تجليت لابسة تاجك الأحمر في زورقك
فبات اسمك مُت لابسة التاجين،
أيتها الأم الجليلة، يا قاهرة أعدائك، فكان اسمك نخبت،
أنت يا من تعرفين كيف تحسنين استخدام القلب،
يا من تقهرين أعدائك فكان اسمك سَخمت،
إنك أنت، المعبودة الذهب، سيدة ما هو مسكر، سيدة النغم،
سيدة الرقص، سيدة البخور، أنت يا تاج العذارى،
أنت يا من يعبدها بنو الإنسان لأنهم يحبونها،
إن ذهب الآلهة يندفق في موسمك، في شهر أبيب،
في يوم بزوغ القمر، في عيد سيدة الخلاص
الذي تفرح فيه السماء، وتتهلل الأرض
ويمتلئ حصن حورس بالبهجة"(٥٧)

توقفنا الترنيمة على حقيقة ذات أهمية فائقة في فهم الديانة المصرية (كان ممن لم تغب عن فطنتهم واليس بدج(*) وغيره من دارسي المصريات حتى وإن ابتلوا بتقلص العقل وتشنج الروح)، وهي أن كثرة الآلهة والإلاهات في الديانة المصرية كان مرجعه اساساً تعدد أسماء الإله أو الإلاهة تبعاً لتعدد الهويات المدمجة فيه أو فيها ولتعدد التسميات لنفس الإله أو الإلاهة في اللاهوتيات المختلفة بمراكز العبادات على مر عصور التاريخ المصري.

فالإلاهة الأم العظمى، آست (ايزيس)، مثلاً، عُبدت من أقدم العصور باسم نِتْ وبأسماء غير تلك المعبودة البدئية من إلاهات. وذلك ما ألمحت إليه الترنيمة بوصفها آست بـ "العظيمة ذات الأسماء الكثيرة"، أي الإلاهة الأعظم التي تجلت في إلاهات عديدات قُدِّسن ببعض صفاتها في اللاهوتيات المختلفة في عصور متعاقبة. فهي ، مثلاً، "المعبودة الذهبية"، و "المعبودة الذهب"، و "ذهب الآلهة المندفق"، أي هي حت حور (هاتور) إلاهة الحب السماوية، وإلاهة الموتى التحتية (وكلا الوظيفتين، ألوهة الجنس وألوهة الموت، من أساسيات ألوهة الإلاهة الأم)، عين رع، وبيت حورس ومرضعته لبن الحياة. وآست أيضاً هي تفنوت، ونت، ومُت، ونخبت، وسَخمت. فكل هذه مسميات لتجليات آست متعددة الأسماء والصفات.

وتفنوت الإلاهة البدئية التي أنجبها أتوم (الإله الخالق الأندروجيني، مزدوج الجنس، كما وُصِف يهوه) من ذاته، من عصارات فمه، فصارت الندى/ الطل/ الرطوبة/ البلولة/ السديم/الضباب(**) ، أي ما يسقي الأرض ويكمن في جذور الحياة. وقد كان لذلك

(*) ارجع – مثلاً – إلى كتابه "آلهة المصريين" الجزء الأول، ص ٤٥١ و ص ٤٦٥ المرجع [٢٠]:
Wallis: "The Gods of the Egyptians", Dover, N.Y.1969 .Budge, E.A
وإلى الفصلين الأول والثالث من كتابه "الديانة المصرية" [المرجع ١٩]
"Egyptian Religion" , Routledge & Kegan Paul, London, 1975
وارجع أيضاً إلى برستد، في "فجر الضمير"، و "تطور الدين والفكر في مصر" المرجعين [١٣ و١٤]:
Breasted, James Henry: "The Dawn of Conscience", Charles Scribner's Sons, N.Y, 1933. "Development of Religion & Thought in Ancient Egypt", Charles Scribner's Sons, N.Y, 1912.

وإلى آلان شورتر في "آلهة مصر" المرجع [٢٣]:
Shorter, Alan: "The Egyptian Gods" , Routledge & Kegan Paul, London, 1983.

(**) وقد ظل ذلك التصور، الذي تسرب إلى أسطورية يهوه من أسطورية الخلق المصرية، ماثلاً حتى زمن سليمان. فذلك "الملك" في تكريسه لـ "البيت الذي بناه لسكنى يهوه "اللابد في تابوته" إلى الأبد"، "قال: الرب يهوه، انه يسكن في الضباب" (الملوك الأول ٨ : ١٢). وربما عاد يهوه إلى سكنى الضباب بعد أن هُدم ذلك البيت عندما دهمه نبوخذ نصر وفتح التابوت فأخرج منه النحت القضيبي الذي كان مودعاً فيه بوصفه أقدس مقدسات الديانة.

وقد كان ذلك طبيعياً، فنحن إذا ما توقفنا عند بركة يعقوب لبنيه وهو على فراش الموت واجدونه مستنزلاً على يوسف "بركات طل السماء الآتي من فوق وبركات ضباب الغمر الرابض تحت"

الضباب دور هام في حكـي أسـطوريات الخلـق المتعـددة، ومنهـا أسـطورية سـفر التكويـن بالتوراة، عن نشوء الحياة. فالرواية الثانية عن خلق العالم والأحياء (الواردة بالأصحاح الثاني من سفر التكوين) تحكي أن يهـوه - بعـد أن "جبـل آدم ترابـاً مـن الأرض، غـرس لـه جنـة (بستاناً)" وكان ذلك ممكناً لأن "ضباباً كان يطلع من الأرض ويسـقي كـل وجـه الأرض"، ولولا ذلك الضباب - الرطوبة - البلولة - الندى - تفنوت المصرية، لما كان من الممكـن أن تنشأ حياة، بل ولم يكن من الممكن أن يجد يهوه ما يعجن به تراب الأرض ليجعله طينـاً يجبل منه آدم، حيث أن نفس النص يؤكد أن "يهوه لـم يكـن قـد أمطـر علـى الأرض" بعـد (تكوين ٢ : ٤ - ٨).

في أسطورية الخلق المصرية، بدأت عملية الخلق بمولد تفنوت من فـم أتـوم الـذي أنجب ذاته من ذاته. فتفنوت (الضباب المشبع ببخار الماء) وُلِدت، ووُلِد معها أخوها التوأم شو، من أنف أتوم، من أنفاسه، فصار الهواء، وبات (حيث هـو أنفـاس الخـالق) نَفَـس كـل حياة. وهو ما نجده مستنسخاً في حكي التوراة في قول المؤلف مقتبـس الأسـاطير" وجبـل يهوه آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حيوة (أي بعث الحياة في طينه بـأن نفـخ فـي أنفه أنفاس أتوم) فصار آدم نفساً حية". (تكوين ٢ : ٧).

وُلِدت تفنوت متعانقة مع أخيها شو، وبتلاحمهما بدأت دورة الخلق الكبرى، فولِد جب (الأرض) وولِدت نوت (السماء) وبدأت عملية تكامل التاسوع.

أما نِتْ (التي دعاها اليونان نيث وعبدوها باسم أثينا) والتـي وُصِفـت بـ "الرهيبـة"، فهي معبودة صالحجر (سايس) بالوجه البحري، والمحاربة الوحيدة من إلاهات مصـر التـي أُسبغت عليها صفة ازدواج الجنس، أي الأندروجينية، بوصفها إلاهـة خالقـة "توجـد مـا لـم يكن له وجود". ولذا كنيت بـ "هي التي هي" (التسمية التي اختلست ليهوه في صيغة "أهيـه الذي أهيه" قبل أن يصبح اسمه "الحركي"، إن صح التعبير، "أهيه أشير أهيه").

ولقد كان الاختلاس ليهوه من التجلي الذي عُبد باسم نِتْ من تجليات الإلاهة الأم العظمى أمراً منطقياً. فـ "نت"، بجانب كونها إلهة خالقـة بـرزت فـي هويتهـا الوظيفـة التـي

وقد تُرجمت بفعل تقوى المترجم بـ "بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت" (تكوين ٤٩ : ٢٥)، وبعدها فوراً إستنزل يعقوب "بركات الثديين والرحم" (انظر (١) أعلاه). وقبل أن يبارك يعقـوب ابنه (الذي بات مصرياً وتزوج، متى أخذنا بالحكي التوراتي، من ابنة الكاهن الأكبر لمعبـد الإلـه الشـمس بهليوبوليس/ عين شمس) ببركة تفنوت، كان اسحق قد بارك يعقوباً بنفس البركة، قـائلاً "فليعطـك الإلـه من ندى السماء" (تكوين ٢٧ : ٢٨)، والأقرب إلى الصواب "فلتعطك الإلاهة من ظلها الذي من السـماء من فوق"، وحرم ابنه الأكبر عيسو (أدوم) من البركة بقوله "بلا ندى السـماء مـن فـوق يكـون مسـكنك" (تكوين ٢٧ : ٣٩).

ولما كانت حكايـة يعقـوب بروفـة لحكايـة موسـى، فـإن نفـس البركـة بحرفيتهـا وبمضمونهـا الأسطوري المصري تكررت في سفر التثنية، حيث يبارك موسى "بنـي اسـرائيل" قبـل موتـه، كمـا بـارك يعقوب أبناءه قبل موته، فيخص يوسف بهذه البركـة، "وليوسـف قـال، مباركـة مـن يهـوه أرضـه بنفـائس السماء: بالندى، وباللجة الرابضة تحت" (٣٣ : ١٣).

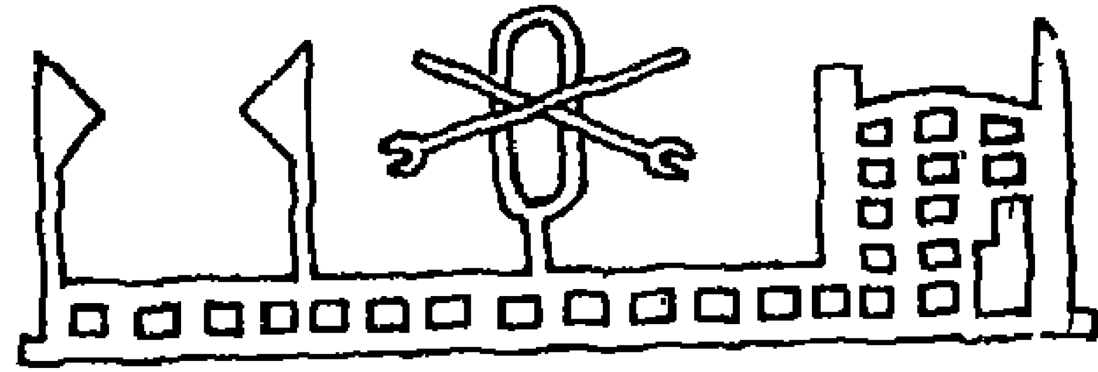
نجدها في أسطوريات إلاهات الشرق الأدنى القديم كإينانا وعانات، أي وظيفة الربة المقاتلة، إلهة الحرب. وذلك تصوير ميثولوجي لازدواح ألوهة الجنس وخلق الحياة وألوهة الموت وابتلاع الحياة في هوية الإلاهة الأم، أبرز بشكل خاص عندما انتشرت عبادة نِتْ إلى الوجه القبلي كما توقفنا النقوش المتعلقة بها في معبد إسنا. وقد انعكس تخصص الحرب ذاك في حالة هذه المعبودة في رمزها، وتاجها الشعائري المكون من درع وسهمين متقاطعين (الشكل رقم ١٠) وعُبِّر عنه بتسميتها بـ "الإلاهة التي تشق الطريق" إذ صورتها أسطوريتها متقدمة الفرعون وجيشه محاربة أعداء مصر، فاتحة الطريق أمام المصريين. ومثلما استنسخت وظيفة "ربة الحرب" ليهوه فدعي بـ "رجل الحرب" و "رب الجنود"، استنسخت أيضاً وظيفة تقدم الجيش وفتح الطريق أمامه. فموسى أكد لـ "الشعب" باستمرار أن يهوه يسير أمامه ويحارب عنه ويفتح أمامه الطريق إلى الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً: "إلهكم يهوه السائر أمامكم هو يحارب عنكم. . السائر أمامكم في الطريق ليلتمس لكم مكاناً لنزولكم" (تثنية ١ : ٣٠ و٣٣)، "لا تخافوا منهم لأن يهوه إلهكم هو المحارب عنكم" (تثنية ٣ : ٢٢) و (يشوع ٢٣ : ٣)، "لكي يطرد من أمامك شعوباً أكبر وأعظم منك ويأتي بك ويعطيك أرضهم نصيباً" (تثنية ٤ : ٣٨)، "ويهوه إلهكم هو ينفيهم من أمامكم ويطردهم من قدامكم فتملكون أرضهم (يشوع ٢٣ : ٥). وعندما عُلِّب يهوه في التابوت على صورة قضيب مختن منتصب بين شفري فرج كنحت من الحجر الأحمر، بات سيره أمام "الشعب" في ذلك التابوت(*)، والادعاء – في الصيغة المحرَّرة التي وصلتنا – أن يهوه سكن التابوت حجرياً نعم، ولكن في لوحي الحجارة اللذين كتبهما لموسى بإصبعه.

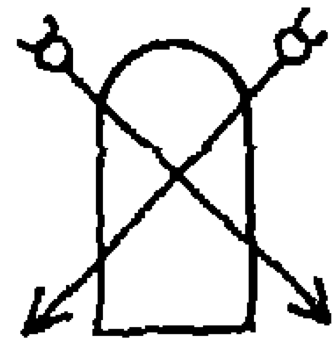
ومما يشير إلى أن أسطورية الإلاهة الأم لم تسرِ في أوصال أسطورية يهوه عن طريق سرقات موسى لحساب ذلك المعبود من الديانة المصرية، فحسب، بل وانتشرت في كل ما حولها، ما تحكيه بردية من عهد الأسرة السادسة تروي تقليداً دينياً مصرياً ضارباً في القدم عن الصراع بين حورس وست وكيف أن الإله الشمس رع طلب مشورة نِتْ رغبة منه في وضع حد لذلك الصراع الذي أزعج كل المصريين لأكثر من ثمانين سنة، فنصحت نِتْ بحل حصيف، كان هو الذي أُخذ به في النهاية، بإعطاء العرش لحورس وإقصاء ست ولكن مع تعويضه بإعطائه الإلاهتين الكنعانيتين عشيرة وعانات(**) زوجتين له. وعندما تباطأ

(*) ارجع إلى "استخدام التابوت كسحر قوي في الغزو والإبادة"، في "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص ٢٨١ – ٢٩٠.

(**) فكل من عشيرة وعانات دخلتا مصر، مثلما دخلتها الإلاهة قادش (انظر ٣/د أعلاه)، بوصفهما إلاهتي جنس وإلاهتي حرب، إلا أن عشيرة – التي كانت أكثرهما شعبية والتي أقيمت لها أماكن عبادة في مصر خدمت فيها كاهنات إناث جنباً إلى جنب مع الكهنة الذكور – حُوِّلت، في عصر الأسرة الثامنة عشرة، إلى إلاهة شفاء، في حين ثبتت أسطورية عانات كإلاهة حرب.

وهناك ميل بين بعض الباحثين إلى (١) اعتبار عانات ابنة لعشيرة لا أخت لها، و(٢) التفرقة بين عشيرة و"عشتارت" والقول بأن "عشتارت" اسم آخر لعانات. غير أن "عشتارت" كان الاسم الذي







الشكل رقم (١٠)
"الإلآهة التي تشق الطريق"
الإلآهة نِتْ ، إحدى تجلّيات آست (إيزيس) والممثّلة لوجه إيزيس كإلآهة حرب وهي إلآهة بدئية أندروجينية عُبِدت في عصر المملكة الجديدة كمنجبة للإله الشمس رعّ، وعبدتِ أيضا كمانحة الغذاء للروح بعد الموت
وقد سرق موسى ليهوه صفاتها الحربية كما سرق له المكابيون في القرن الثاني ق.م. عيدها الديني المسمى بعيد الأضواء فجعلوه عيد الحانوكا

عبدت به عشيرة في صيدا، في القرن الرابع ق.م.، أي بعد عشرة قرون من تسجيل نصوص أوغاريت، وبذا فإن ذلك الاسم، عشتارت، تسمية أخرى لعشيرة، وقد شاع منه، للبس الذي وقع فيه محررو "الأسفار المقدسة"، مسمّى "العشتورث" وصيغة جمع ذلك المسمى "العشتاروث". أما عن صلة القرابة بين عشيرة وعانات، فنصوص أوغاريت توقفنا على أن الأب إيل" صنعهما على النار، عندِ شاطئ البحر" ، ثم وضعهما في "بيته الذي في المكان القصي، عند منابع الأنهار"، وأنه ظل متردداً، أو عاجزاً، عن الانجاب منهما، لكنه - في النهاية - أخصبهما، فحملن منه "من العناق، من القبلة على الشفتين الحلوتين، الأعظم حلاوة من حب الرمان".

رع في الأخذ بنصحها، هددت نِتْ بأن "غضبها سيصعد إلى أنفها" فتجعل السماء تنطبق على الأرض، فكان أن أُخذ بالحل الذي أوصت به. و "صعود غضب يهوه إلى أنفه" تعبير متكرر كثيراً في العهد القديم عن سرعة غضب يهوه المدمر.

فيهوه، كما نرى، تأثّر كثيراً بهذا التجلي من تجليات الإلاهة الأم العظمى آست (ايزيس)، ولم يكن - في ذلك - حالة فريدة بين معبودات الشرق الأدنى القديم. فتأثير مصر الحضاري في كل ما حولها، شرقاً، من كنعان إلى أرض الرافدين، وغرباً إلى ليبيا، وجنوباً إلى "أرض كوش"، شمل بطبيعة الحال ديانات ومعبودات تلك البلدان. ومن أمثلة ذلك وصول عبادة نِتْ إلى ليبيا، وهو ما ورّط روبرت جريفز في خطأ غريب(٥٨) أخذاً عن أفلاطون الذي أسبغ هوية "نيث، الإلاهة الليبية "على أثينا. ويبدو من قول جريفز بعد ذلك أن "نيث (نِتْ) كان لها معبد في سايس (صالحجر)" أنه رأى أن انتشار عبادة نِتْ كان من ليبيا إلى مصر، لا العكس. وهو ما يتناقض وتاريخ الإلاهة تماماً، إذ هي من أقدم تجليات الألوهة المؤنثة في الديانة المصرية. فاليونان بعبادتهم أثينا عبدوا إلاهة مصرية.

وفيما يتعلق بالديانة التي ركّبها موسى حول وثنه القضيبي يهوه مما اختلسه له من الديانة المصرية، لم يقتصر تأثير نِتْ/آست على صورة يهوه ومكوّناتها الحربية وصفاتها الأندروجينية، بل امتد إلى شعائر الديانة وممارساتها. فعيد الأضواء، الحانوكا، الذي يستمر ثمانية أيام من الخامس والعشرين من شهر كسليف (ديسمبر)، والذي دُعي في انجيل يوحنا (١٠ : ٢٢) بعيد التحديد، استنسخ من عيد ديني للإلاهة نِتْ حضره المؤرخ اليوناني هيرودوت ووصفه كشاهد عيان(٥٩) كان يقام سنويا في صالحجر. ومن وصف المؤرخ نقف على أن المصريين كانوا يوقدون مصابيح في بيوتهم خلال ذلك العيد، من بعد هبوط الظلام، وإلى صباح اليوم التالي، بعدد أهل البيت، وكانوا يوقدون كل أنواع الشموع والفتائل الرفيعة المكسوة بالشمع وبمادة كانت تكفل ضوءاً ساطعاً حتى طلوع النهار. وتبعاً لوصف هيرودوت، لم يكن عيد الأضواء المصري ذاك يقتصر على صالحجر، المدينة التي كانت مركزاً لعبادة الإلاهة، بل كان يشمل كل الإقليم الذي كانت تلك المدينة عاصمة له، بغرب الدلتا، والتي منها عرفت عبادة الإلاهة طريقها إلى ليبيا(٦٠).

وكما قلنا، لم تكن ليبيا الأرض الوحيدة التي انتشرت إليها عبادة الإلاهة، فتلك العبادة سرت في أوصال يهوه وأسطوريته مثلما انتشرت في أسطوريات الإلاهات الإناث في فلسطين وسوريا وأرض الرافدين.

ومن اللافت للنظر في صنع أسطورية يهوه لجوء صانعي تلك الأسطورية إلى صراعات الآلهة الأخرى واختلاسها لمعبودهم الذي كان، بحكم المنشأ الصحراوي، مفتقراً إلى أساطير حقيقية تخصه وتقيم أوده كإله يقام له وزن. فصراع مردوخ مثلاً مع تيامات (تعامة) أُخذ ليهوه بوصفه صراعاً مع "لوتان"، التنين الكنعاني الذي أُسمي في العهد القديم "لوياثان". وفي البحث عن حقيقة ذلك التنين، وقع الدارسون على إشارات قادتهم إلى التمساح. وهو ما يرجحه كون التمساح كائناً مقدساً للإلاهة نِتْ التي نهب منها الكثير

ليهوه. فالصراع مع التمساح وانتصار يهوه عليه بوصفه "رَهَب" (رمز مصر في أسفار النبيين)(*) حيلة أسطورية استخدمت بشكل متكرر في تحقيق انتصار شعري/ أسطوري للمعبود الذكر القضيبي يهوه على منابعه الأنثوية والحلول محلها بشكل كامل.

ولقد كان ذلك – في حالة صانعي أسطورية يهوه – مطلباً لا مهرب من الوفاء به، كما نتبين إذا ما توقفنا عند الأوصاف والتسميات المتعددة المشتركة اشتراكاً لافتاً للنظر بين يهوه ونِتْ، مثل "أنا ما كان وما هو كائن وما سوف يكون"، و "الخالقة"، و "المحتجبة"، و "الوحيدة"، و "الأزلية الأبدية المنجبة ذاتها من ذاتها"، و "أم الأمهات وأب الآباء"، وتفكرنا فيما هو حري بأن يثير غيرة يهوه المشهورة من ألقابها التي من قبيل "سيدة السموات"، و "إلاهة الآلهة"، وتدبرنا وجود مركز كبير لعبادتها بجزيرة إلفانتين بأسوان، حيث أقام عباد يهوه (الذين هربوا إلى مصر وهرول إرميا في أعقابهم ليعيدهم إلى يهوه) هيكلاً لعبادة الإلاهة الأم ملكة السموات(**) .

وأما مُتْ، التي تغنت الترنيمة بها كتجل آخر من تجليات آست (إيزيس)، فالإلاهة الأم في ثالوث طيبة المكوّن من آمون، ومت، وابنهما خنسو. ومُت تعني "الأم". وهي تأخذ بذلك دور الإلاهة آست (إيزيس) أم الفرعون، وقد دُعي ابنها خنسو بـ "مشيمة الفرعون" أي غشاء الجنين الملكي. وقد صُوِّرت كسيدة جميلة ممشوقة كاسية رداء من الكتان أزرق أو أحمر وعلى رأسها رداء رأس بصورة عقاب (رمزها الأصلي) فوقه التاج المزدوج وممسكة بصولجان الزنبق. وهي – كتفنوت ونِتْ وسائر الإلاهات الإناث في الشرق الأدنى القديم – وثيقة صلة بالأسد، وقد صُورت أحياناً برأس لبوءة، وكـ "نِتْ" وعانات وغيرهما من إلاهات، كانت إلاهة محاربة صُوِّرت وهي تقدم سيف الحرب إلى الفرعون، وأُطلق على هيكلها – بشكل يدعو إلى التفكر في الترابط الوثيق بين إلاهات مصر وإلاهات كنعان – اسم "عشيرو"، وهو قريب للغاية من اسم المعبودة الكنعانية المحاربة عشيرة، وتضمنت حروف ذلك الاسم هيروغليفياً رمز الأسد الرابض الذي يلعب دوراً هاماً في أسطوريات الشرق الأدنى القديم والذي نجده متجلياً بقوة في وصف التوراة لـ "شعب" يهوه بهذه الكلمات الفاتحة للعين المغمضة ورعاً والأذن المتصاممة على سبيل التقوى: "هو ذا شعب يقوم كلبوءة ويرتفع كأسد" (عدد ٢٣ : ٢٤). فكما استنسخت صفات الألوهة المؤنثة وتجسداتها الأسطورية للمعبود، يهوه، استنسخت أيضاً للبطل الأهم في تلك الأسطورية، أي "الشعب" ذاته.

في البداية، عندما كان آمون معبوداً محلياً مغموراً، كانت مُتْ معبودة ثانوية. إلا أنه برفع آمون إلى حيث أصبح آمون رع، رُفعت مت إلى مكانة الإلاهة الأم الكبرى، وبذلك عرفت هويتها طريقها إلى الاندماج في هوية آست (إيزيس).

(*) ارجع إلى ٦/أ/٥ أدناه: التمساح/التنين "رَهَب" وصديد الكراهية لمصر.
(**) ارجع إلى ٦/أ/٤ أدناه: نكسات المارشال يهوه وانكشاف تهاويل نبييه.

أما نخبت، فإلاهة الكاب المجسِّدة لأمومة العرش في مصر العليا وتقابلها إلاهة تل الفراعين، الممثلة لأمومة العرش في الوجه البحري. وهكذا فإنه عندما وحّدت مصر بات رمزا الإلآهتين، العقاب والأفعى، موحَّدين في التاج المزدوج.

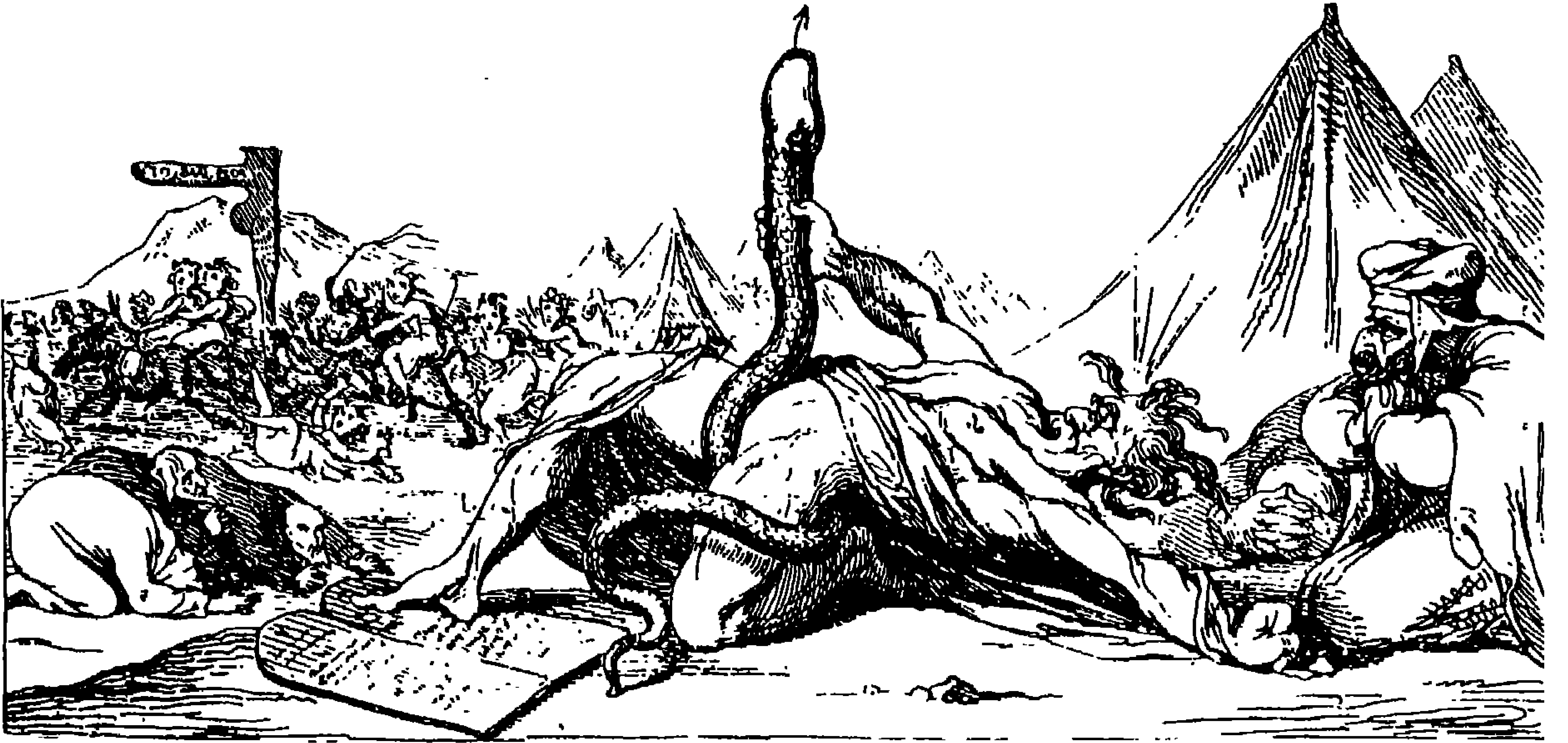
كانت نخبت أيضاً إلاهة محاربة ضارية قالت ترانيم المصريين أنها تسحق أعداء رع وبخاصة الحية المتحوية أبيب (أبوفيس)، وبعدها بقرون وصف يهوه بأنه سحق رأس الحية المتحوية رَهَب (رمز مصر في لغة النبييم) أو لوياثان (لوتان الكنعاني). ويرجّح أن موسى سرق الحيات المحرقة (السرافيم) وسرق حيته النحاس الشهيرة التي عُبدت لقرون بعده من أسطورية هذه الإلاهة المصرية التي صُورت ممسكة بصولجان من زهر النيلوفر ملتفة على ساقه حية، فكان أن صنع موسى "الحية النحاس" حية محرقة وضعها على راية" (عدد ٢١ : ٩)(*). ويقول سفر العدد أن الذي أعطى وصفة تلك الحية التي على رايه كان يهوه. ومن الواضح انعدام المنطق في القول بأن يهوه هو الذي أعطى موسى فكرة تلك الراية الثعبانية، حيث أن موسى استخدمها في كف أذى يهوه عن "الشعب" عندما ظل يهوه يقتل آلافاً من ذلك "الشعب" المبارك بالحيات المحرقة (الشكلان ١١و ١٢)، وقد كان بوسع يهوه أن يكف حيّاته بنفسه بدلاً من أن يمكّن موسى من صنع حيته النحاس السحرية فيكف هو أذى الحيات ويبدو بذلك كما لو كان أمضى سحراً من يهوه مما جعل القوم يعبدون تلك الحية النحاس بدلاً من يهوه إلى أن سحقها فحولها رماداً حزقياً "ملك" يهوذا (٧١٥ – ٦٨٧ ق.م.): "عمل حزقيا بن آحاز ملك يهوذا المستقيم في عيني يهوه مثلما فعل داود أبوه، فأزال المرتفعات، وكسر التماثيل ، وقطع الصواري (تماثيل الإلاهة) وسحق الحية النحاس التي عملها موسى لأن بني اسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون (يتعبدون) لها" (الملوك الثاني ١٨ : ١ و٣ و٤). وبإزاء انعدام المنطق في الادعاء بوحي من إله بصنع وثن سحري كان من المفروض أن يفطن الإله (بحكم علمه بالمستقبل لأنه إله) إلى أنه سيُعبَد بدلاً منه، يرجِّح العقل غير المغيّب في ضباب التلفيق الكهنوتي أن موسى (أو من ألَّف أسطورتيه) لجأ في محاولة ترسيخ الإيمان بشامانيته لدى "الشعب" الرافض له ولإلهه المستورد يهوه، إلى سرقة أخرى من عديد السرقات من الديانة المصرية، مستنسخاً "رايته الثعبانية" من صولجان نخبت ومن التمائم المصرية التي كانت شائعة بين المصريين والتي استخدمت كوقاية من أذى الزواحف السامة. وقد كان صنع تلك التمائم منبنياً على دور الأفعى في أسطورية الإلاهة إيزيس، أم حورس الذي صُوِّر في تلك التمائم واقفاً على ظهر تمساح ويده تهصر الحيات. والتمساح، كما اسلفنا، كان من الرموز الدينية في عبادة الإلاهة نِتْ، مثلما كان الثعبان رمزاً من رموز عبادة نخبت، وكلتا المعبودتين من تجليات الأم العظمى آست.

(*) ارجع في شأن سحر موسى وحيته النحاس إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص ١٢٨، ١٢٩، ١٧٨ – ١٨١، ٣٥٣، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٩٠، ٤٩١.



الشكل رقم (١١)

"فقال يهوه لموسى اصنع لك حيّة محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر إليها يحيا" (عدد ٢١ : ٨) وفي الرسم أعلاه ، وهو من صفيحة نحاسية (كليشيه) صنع سنة ١٧٤٠ ، نلاحظ أن الحية رفعت على "راية" هي صليب التاو المصري (انظر الشكل ٩)



الشكل رقم (١٢)

رسم للمصور الانكليزي جون ردجاشي (١٧٨٧) عنوانه "موسى ينصب الحية النحاس في القفر" – ورؤية الفنان لقضيبيّة الحكاية واضحة وقد عززها في رسمه بالراية القضيبية بيسار الرسم وقد كتب عليها "إلى بعل فغور" و"بالشعب" ، نساء ورجالا وحميرا ، مهرولا في ذلك الاتجاه

"وتعلق اسرائيل ببعل فغور فحمى غضب يهوه على اسرائيل"

(عدد ٢٥ : ٣)

وفي أسطورية الخلق المصرية نجد أن نخبت صُوِّرت كـ "هاوية الغمر العظيم"، و"صانعة النور على الأرض"، ودُعيت هي الأخرى بـ "أب الآباء وأم الأمهات"، فوشائج الرحم بينها وبين ما صُوِّر به يهوه متعددة، كما في حالة التجليات الأخرى من هوية الإلاهة الأم العظمى.

وأما سَخت أو سَخمت التي يعني اسمها "الشديدة القادرة، العنيفة" فكانت الأفعى من رموزها هي أيضاً، كما وصفت وصُورت على رأس الإله الشمس رع قاذفة لهبها الذي يحرق كل أعدائه، وسهامها النارية (= الحيات المحرقة) التي تخترم كل من يعاديه. ولذا، عُرفت باسم "اللهب" وأجري هذا الكلام على لسانها في إحدى الصلوات "أنا من تدفق النار حتى الأفق بين أوسير (أوزيريس) ومن يعاديه، وأبعد عنه خصومه، وأدمر الأشرار". وقد عرفت تلك المعبودة طريقها إلى هوية آست عن طريق توحيدها بحت حور، ونِتْ، وتفنوت، بل ومعات، ومُت. وفي كل ذلك مثّلت الوجه المدمِّر من الوجهين التقليديين في عبادة الإنسان القديم للألوهة المؤنثة منجبة الحياة وحافظتها، ومهلكة الحياة ومبتلعتها. وعندما أطلقت على سخمت، كسائر التجليّات الأخرى لآست (إيزيس)، التسمية التقليدية، "عين رع"، تعلقت التسمية – في حالتها – بالوجه الشرس (المحرق والمهلك) من قدرة ذلك الإله التي رُمِّزت بالشمس. ولذلك نجد أن رع، عندما ضاق بحرونة البشر وزيغهم وقرر أن يفنيهم فكلف حت حور (هاتور) بذلك، تحولت حت حور إلى سخمت فسبحت في دماء البشر وأوشكت أن تقضي على كل وجود لهم فوق سطح البسيطة، لولا أن ترأف رع وأوقف المذبحة، وانفصلت هوية سخمت عن هوية حت حور التي باتت ربة الحب والجنس، وإن ظلتا كلتاهما محتويتين في هوية الإلاهة الأم العظمى آست (إيزيس).

في هذا الوجه المدمر الممعن في الشراسة من وجهي الألوهة المؤنثة الذي جسدته سخمت (وقد صُورت دائماً برأس لبوءة مفترسة، وإن ظلت ممسكة في يد بصولجان اللوتس (رمز الجنس) وفي اليد الأخرى بالأنخ، صليب الحياة الإيزيسي) نجد النبع المصري لصورة يهوه المدمرة شديدة الافتراس الناطقة في نصوص التوراة التي نورد منها على سبيل المثال :

"ترسل سخطك فيأكلهم كالقش (يا يهوه)" (خروج ١٥ : ٧)

"اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم (يا موسى)" (خروج ٣٢ : ١٠)

"فخرجت نار من عند يهوه وأكلت ابنا هرون فماتا أمام يهوه" (لاويين ١٠ : ٢)

"وكان الشعب كأنهم يشتكون شراً في أذني يهوه، وسمع يهوه فحمى غضبه فاشتعلت فيهم نار يهوه" (عدد ١١ :١)

"وخرجت نار من عند الرب يهوه وأكلت المئتين والخمسين رجلاً" (عدد ١٦ : ٣٥)

"هذه النار العظيمة تأكلنا" (تثنية ٥ : ٢٥)

"صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. جمر اشتعلت منه"

(مزمور ١٨ : ٨)

"واشتعلت نار في جماعتهم. اللهيب أحرق الأشرار"

(مزمور ١٠٦ : ١٨)

ولقد كان من أكثر الأشياء طبيعية، في واقع الأمر، أن تسري هوية سخمت النارية المدمرة بهذه السلاسة في أوصال يهوه المعبود البركاني الذي جسّده عباده الأصليون حجرياً على شكل قضيب مختّن منتصب، وأقاموا شعائر عبادته بدم بكارة العذارى حتى يكفّوا دخانه وناره وحممه عنهم.

غير أن سخمت لم تكن معبودة مدمرة بالنار التي تحرق الأشرار وخصوم الإله فقط، بل كانت أيضاً مُحدِثة للوباء، وفي الوقت ذاته قادرة - متى استرضيت بالصلوات والشعائر ووساطة كهنتها (كما وقف موسى، وهرون، وفينحاس ودان بين يهوه و "الشعب") - على كف الوباء والتفضل بالشفاء. وقد كان ذلك الاختصاص الوبائي أيضاً مما سُرق ليهوه كما سُرق اختصاص الشفاء (الشاماني) للكهنة اللاويين:

"إني أضربهم بالوباء وأبيدهم" (عدد ١٤ : ١٢)

"السخط قد خرج من عند يهوه. قد ابتدأ الوباء. وإذ ابتدأ الوباء في الشعب، أخذ (هرون) البخور وكفّر عن الشعب. ووقف بين الموتى والأحياء ، فامتنع الوباء. وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفا وسبعمائة عداً" (عدد ١٦ : ٤٦-٤٩)

"فحمي غضب يهوه على اسرائيل .. وعلق (شنق) موسى كل رؤوس (رؤساء) الشعب مقابل الشمس فارتد حمو غضب يهوه، وامتنع الوباء عن بني اسرائيل (بعد أن بلغ عدد) الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً" (لتعلقهم ببعل فغور) (عدد ٢٥ : ٣ و٤ و٨ و٩).

"وتعلقوا ببعل فغور. . وأغاظوه (أغاظوا يهوه) بأعمالهم، فاقتحمهم الوباء، فوقف فينحاس ودان (بينهم وبين يهوه) فامتنع الوباء" (مزمور ١٠٦ : ٢٨-٣٠)

في كل ذلك، كانت عملية طمس الإلاهة وابتلاعها واغتصاب رموزها وأسطوريتها عملية محكمة ممعنة في الإصرار لا سبيل إلى الكشف عنها وحفر رمالها استظهاراً للألوهة المؤنثة المطمورة في تلك الرمال إلا باستقراء: (١) الحَدَث في حكي الأسطورة الأصلية التي سلبت، و(٢) صفات الإلاهة التي جرى السلب منها، وخصائصها وترابطاتها ورمزيتها فيما سرق ليهوه ولكهنته.

وكما نجد، في النصوص المستشهد بها من أسفار التوراة ومن سفر المزامير، تطالعنا من صورة يهوه، بوضوح بالغ، الإلاهة المصرية سخمت، الوجه التدميري الممعن في الشراسة من وجهيّ الألوهة المؤنثة والمتمثل في خاصيتي الإفناء بالنار والإفناء بالوباء. وحتى في حالة ممارسة يهوه للوظيفة الوبائية، تبزغ بقوة الخاصية النارية لسخمت في إشارة نص سفر العدد بالأصحاح ٢٥ إلى "حمو غضب يهوه" وإلى التضحية برؤساء

"الشعب" "مقابل الشمس". والشمس هنا إشارة لا لبس فيها إلى رمزية الإله الشمس رع الذي كانت سخمت تضحي له بالأشرار وتفني خصومه باعتبارها "عين رع" المهلكة المتمثلة في وقيد الشمس عندما تنقلب من مصدر للنور والدفء والحياة إلى سيف لهيب يذود عن الإله، كذلك الذي تقول أسطورة التكوين أن يهوه.وضعه في يد الكروب شرقي جنة عدن بعد طرد آدم وحواء منها لحراسة طريق شجرة الحيوة (شجرة الخلود)، أي للذود عن الخاصية الرئيسية للألوهة (الخلود) وإبقاء البشر على مبعدة منها (تكوين ٣ : ٢٤).

ولم يكن بالوسع الاكتفاء في السلب بالأخذ من الإلاهة ليهوه دون كهنته وهو الذي اخترع أصلاً ليمكّن أولئك الكهنة الشامانات من إحكام قبضاتهم الزمنية على رقاب "الشعب" بوصفهم الدرع الوحيد بين ذلك "الشعب" وجبروت القوى الخفية باصقة اللهب محدثة الوباء وغير ذلك من الأشياء غير المستحبة. وهكذا نجد السرقات موزعة بالعدل بين أولئك اللاويين من كبار الكهنة : فهرون يكفّ يهوه عن إبادة "الشعب" إبادة كاملة بـ "البخور"، المسروق كغيره - كما أشرنا قبلاً - من الشعائر المصرية، وموسى ينقذ "الشعب" من الوباء بتقديم رؤسائه ضحايا أمام الإله الشمس، وفينحاس ودان - حسب المزمور الذي تزيّد في إعادة حكي نص سفر العدد - ينقذان "الشعب" عن طريق "اغتيال" رمز بعل فغور ممثلاً في قضيب وخصيتي الرجل الإسرائيلي الذي ضاجع المرأة المديانية و "اغتيال" الألوهة المؤنثة ممثّلاً في فرج المرأة المديانية (حتى وان كان نفس النص قد نسبها قبل ذلك إلى المؤابيين لا المديانيين، بقوله إنها "من بنات مؤاب"):

> "وأقام اسرائيل في شطيم. وابتدأ الشعب يزنون مع بنات مؤاب.. فحمي غضب يهوه على اسرائيل إذ تعلق اسرائيل ببعل فغور.. (وفي حين) قال موسى لقضاة اسرائيل اقتلوا كل واحد (منكم) قومه المتعلقين ببعل فغور، إذا برجل من بني اسرائيل جاء وقدم إلى أخوته (المرأة) المديانية أمام عينيّ موسى وأعين كل جماعة بني اسرائيل وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع. فلما رأى ذلك فينحاس بن ألعازر بن هرون، الكاهن، قام من وسط الجماعة وأخذ رمحاً بيده ودخل وراء الرجل الاسرائيلي إلى القبة، وطعن كليهما، الرجل الاسرائيلي والمرأة، في أسفل البطن (في أعضائهما التناسلية). فامتنع الوباء عن اسرائيل (بعد أن) كان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً" (عدد ٢٥ : ١-٩).

وواضح من النص أن المسألة تعلقت بالتنافس الذي استمر على طول حكي التوراة وما بعده بين صورة يهوه التي صنعها موسى بادعاء أنها لـ "إله آباء الشعب"، أي صورة الإله اللاجنسي المترفع على الحسّيات (كما صوره مؤلفو سفر التكوين لحساب موسى)، وبين الصورة الأصلية الحقيقية ليهوه التي استنسخه المديانيون منها، أي صورة بعل فغور معبود المؤابيين "مفغر الرحم" (أو، كما استنسخ الوصف ليهوه الموسوي، "فاتح الرحم").

فالنص المستشهد به يشير إلى أن خيمة الاجتماع (حيث مكمن يهوه الموسوي) كانت أمامها، في مواجهتها، "قبة" من تلك القباب التي أجرى حزقيال ذكرها على لسان يهوه، كما اسلفنا، إذ جعله يقول لاسرائيل: "بنيت لنفسك قبة وصنعت لنفسك مرتفعة في كل شارع" (حزقيال ١٦ : ٢٤). وهو ما يوقفنا على مغزى قول يهوه في نص سفر العدد لموسى أن "فينحاس بن ألعازر بن هرون، الكاهن، قد رد سخطي عن بني اسرائيل بكونه غار غيرتي في وسطهم (ولذا) لم أفن بني اسرائيل بغيرتي" (عدد ٢٥ : ١١).

وفي هذا كله نجد أن أسطورية سخمت في فوراتها الوبائية استخدمت إطاراً لحكي أسطوري/ شعري عن غيرة يهوه المشهورة التي صُورت - بصفاقة غريبة لحوحة لم تستح - بوصفها نفوراً من الآلهة الغريبة والدخيلة المنحطة الوثنية، أي المعبودات القضيبية المنافسة ليهوه، وقد ظل أخطرها بطبيعة الحال النبع الأصلي الذي استمد منه يهوه ذاته، أي بعل فغور فاتح الأرحام معبود المؤابيين، ومن غواية الإلاهة الأم التي أوقفنا حزقيال وغيره من النبييم كما أوقفنا سفر القضاة وغيره من أسفار العهد القديم "التاريخية" على أن "الشعب" ظل "يخرج من تحت يهوه" و "يعمل الشر في عيني يهوه" بعبادته لها وممارسته شعائرها وتقديمه البخور وسكبه السكائب لها في تلك "القباب" و "المرتفعات" التي تمادى، ذلك "الشعب" الآبق، في إغاظة يهوه بإقامتها للإلاهة في كل منعطف وكل شارع حيثما استقر في أرض كنعان.

- - - - -

(٦) السطو على تجليات الإلاهة في الشرق الأدنى القديم (كنعان، بابل، وسومر)

بطبيعة الأوضاع الثقافية لإنسان الشرق الأدنى القديم وما انطوت عليه من تأثر متبادل، إما عن طريق الاحتكاك المباشر، كما في حالة كنعان ومصر، وإما من خلال الإشعاع الثقافي، كما في حالة كنعان وحضارات الرافدين، لم تكن تجليات الأم العظمى آست (إيزيس) هي وحدها التي تعرضت للسطو من جانب صناع أسطورية يهوه في غمار عمليات النهب الديني والثقافي واسعة النطاق التي مورست في تخليق ذلك المعبود والتي لم يعد هناك الآن من يماري فيها من الباحثين الجادين، متى استثنينا قلة قليلة من المتخندقين الإيمانيين آخذة في التآكل والتحات في وجه موجة مد عاتية من الكشوف العلمية.

في كتابه الهام الذي سبقت الإشارة إليه، "الأم العظمى"، يقول الباحث الإسرائيلي نيومان - بقدر من الموضوعية يحمد له - إن "مصر التي كانت - من أقدم العصور - مهد أول حضارة متقدمة رفيعة، كانت إلاهاتها العظيمات، اللواتي ظلت هوياتهن تدمج كلّ في الأخرى، أوجهاً وتجليات متعددة للهوية الطرزبدئية للأم العظمى"(٦١)، أي للإلاهة الأم العظمى آست (إيزيس).

في الأجزاء التي صدرت حتى الآن من هذه السلسلة من البحوث، قاد البحث باستمرار إلى وجود بالغ القوة لتأثير بالغ العمق باشرته الديانة المصرية، لا على عبادة يهوه فحسب (مما يبدو أنه سبب انزعاجاً إيمانياً موجعاً لأناس لم يكن من المعلن أنهم يعبدون يهوه)، بل وعلى عبادات البلدان المحيطة بمصر، وخاصة كنعان. وفيما تعلق بعبادات كنعان، كشف البحث - بين ما كشف عنه من ضروب التأثر الديني - عن تأثير قوي ومباشر لأسطورية أوسير وآست (أوزيريس وإيزيس) وموت أوسير وانبعاثه، على أسطورية عانات وأخيها عشيقها بعل وموته وانبعاثه(*)، كما كشف عن أن ذلك التأثير المصري عدّل التأثير الذي مارسته على عبادة بعل وعانات أسطورية تموز وعشتار البابلية.

وتموز، كما نعرف، هو الاسم السامي للنمط الطرزبدئي السومري للملك البطل المؤلّه دوموزي (أي "الابن الحق للإلاهة"، وعشيقها). وقد كان دوموزي "الراعي الأمين لشعبه" (لا راعي الماشية أو الأغنام كما يبدو أن الأمر اختلط على كثرة من الباحثين)، بوصفه الملك، العشيق الأسطوري لـ "أمه" الإلاهة إينانا "الراعية المقدسة" لعبادها، أي السومريين، شعب "ابنها" وعشيقها الملك (دوموزي). ومن زيجتهما المقدسة تلك، كانت تتحقق لرعايا الملك وعباد الإلاهة الخصوبة والوفرة والعيش الرغد.

وفي استنساخ البابليين (عندما علا نجمهم) للأسطوريات الدينية السومرية أُحلّت عشتار محل إينانا، وتموز محل دوموزي. وعندما انتقلت الأسطورة، بطريق الإشعاع

(*) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٢٣٩ - ٢٤٥.

الثقافي، إلى كنعان، كان انتقالها من خلال نسختها البابلية، أي من خلال عشتار (التي مارست عبادتها تأثيراً قوياً على عبادات شمال كنعان)، غير أن التأثير المصري لأسطورة إيزيس وحبها لأخيها وعشيقها أوزيريس عدّل ذلك التأثير البابلي فأحلّ اخلاص آست وتفانيها محل غدر عشتار بتموز، فباتت عانات المدافعة الضارية عن أخيها وعشيقها بعل ضد أخيهما الشرير موت (المقابل الكنعاني للإلاهة الأخت الشريرة إرشكيجال، ربة العالم السفلي، في الأسطورة السومرية البابلية) الذي ظلت تقتله، وتهرسه، وتحرقه، وتذرو رماده، فتعيد بعل إلى الحياة لتعود الحياة إلى الأرض والزرع والمخلوقات في سياق أسطورية مدارها الخصب والجدب في دورة الفصول. فبعل/ تموز عندما يقتله موت، الأخ الشرير الذي - كمقابل للأخ الشرير ست في الأسطورية المصرية - مثّل الجدب والموات والجفاف، فيغيّب في العالم السفلي، تظل حبيبته الإلاهة تبكيه مثلما ظلت آست تبكي أوسير إلى أن جمعت أشلاءه الممزقة وضمتها إلى بعضها البعض وبعثته بأنفاسها (نسمة الحياة) حياً. وكما تبكيه الإلاهة، تبكي بعل/ تموز رعيته من البشر. وقد كان جلوس نساء "الشعب" عند المدخل الشمالي لهيكل يهوه باكيات على تموز (حزقيال ٨ : ١٣ و١٤) مثيراً لغيظ يهوه لأنه : (١) كان من المتعين أن يحلّ يهوه محلّ تموز ملكاً وراعياً لـ "شعبه" و(٢) لأن ذلك البكاء على تموز أنبأ عن استمرارية عبادة من كان من المفروض ألا يعبدوا أي ألوهة - مذكّرة كانت أو مؤنثة - سوى يهوه لملكة السموات منافسة يهوه الخطرة. فالنواح على تموز، بذلك، لم يقل إثارة لغيرة يهوه المشهورة، عن تمثال الإلاهة الذي سجد له "الشعب" و"أعطى القفا ليهوه" داخل معبده، أو من حرق البخور لها، أو سكب السكائب، أو صنع الكعك الشعائري لها على شكل الفرج معجوناً بالعسل، (الشكل رقم ٨).

ومما يوقفنا على طموح يهوه (أو - متى توخينا الدقة - طموح صانعي أسطوريته) إلى الحلول محل بعل/ تموز كـ "راع أمين" لـ "الشعب"، التردد القوي في العهد القديم، وبخاصة في النبييم والمزامير، لمفهوم "الإله الملك الراعي" و "غنمه"، أي "شعبه"، وهو مفهوم أخذه باشتياق واضح العهد الجديد، فنسبه للمسيح. فيهوه، كما يؤكد إرميا، قال "ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي. . لذلك هكذا قال يهوه إله اسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبه (نيابة عنه): أنتم بددتم غنمي وطردتموها ولم تتعهدوها. هاأنذا أعاقبكم على شر أعمالكم وأنا أجمع بقية غنمي وأردها إلى مرابضها فتثمر وتكثر" (إرميا ٢٣ : ١ - ٣).أما سفر المزامير فينشد جذلاً "يهوه راعيّ فلا يعوزني شيء. في مراع خضر يربضني. إلى مياه الراحة يوردني" (مزمور ٢٣ : ١). وبطبيعة الحال، يظل هناك المنفذ المجازي كسبيل مأمون للهرب من ذلك الطموح إلى الحلول محل تموز، وهو منفذ الادعاء بأن "الرعي، والمربض، ومياه الراحة، والغنم" هذه كلها أشياء من باب الجواز الشعري أو من قبيل الكناية، لا أكثر. إلا أنه يظل هناك ذلك الغيظ المستعر من بكاء نساء "الشعب" على تموز الذي جعل يهوه يحمل حزقيال من قفاه ويطير به في الهواء إلى مدخل

الهيكل ليريه ذلك المنظر الشنيع، ويظل هناك أيضاً النواح الشعائري الذي ما زال أتباع يهوه يقيمونه في نفس ميعاد ذلك البكاء القديم غير اللائق على تموز، ولكن بحجة أنه بكاء على خراب الهيكل لا أكثر.

والذي لا ينبغي أن يغيب عن الذهن في كل ذلك أن أسطورية يهوه لم تُحبك ولم تتكامل إلا بعد بداية تخليق ذلك المعبود على يد موسى بقرون، وأن ذلك الحبك والتكامل كانا هناك، في بابل، في زمن السبي، في سياق عملية بالغة التصميم لم يعد هناك من ينكرها أو يجد بوسعه أن يماري فيها، من إعادة التأليف اقتباساً وسطواً واستنساخاً، والتحرير، والتحوير، والقص واللصق، أنتجت خلالها مختلف أشكال النهب الديني والثقافي من مصر وكنعان وبابل وسومر، نتاجها النهائي المتمثل في ذلك الكتاب العجيب الآسر المليء بالتناقضات والسرقات وضروب التلفيق والإتاهة والتلغيز إخفاء لمصادر المسروقات. والأعجب، في شأن ذلك الكتاب أنه ما زال - بعد كل ما مر به من عمليات المراجعة - رهن إعادة التأليف والتحرير والتحوير بحجة "الترجمة" التي لا تهمد والتي قد يفيد التفكّر في الغرض منها أن نلقي بالاً إلى كل ذلك الجدل المثار حول "لفائف البحر الميت".

ولما كانت "أستاذية الصنعة" في ذلك الضرب الغريب من إعادة تأليف نصوص مدعى لها أن معظم، إن لم يكن كل، ما فيها كلام أملاه إله، تلك "الأستاذية" التي تغنّى بها باحث كفريدمان في كلامه عن الـ Redactor، أي - حرفياً - المحرِّر المنقّح الذي يعيد صياغة النصوص بمقصه وقلمه الصنّاع، قد تمثلت أساساً في تغييب كل منافس ليهوه - ذكراً كان أو أنثى - تعرض خلال عملية تخليق يهوه للسطو على قدراته أو صفاته أو ألقابه أو أسطورتيه، تغييباً محكماً مصمّتاً لا ثقب فيه، في جوف يهوه الرحب الذي ظل يوسّع - منذ اختلقه موسى ليلقي فيه سرقاته من الديانة المصرية - كيما يتسع للمعبودات المنافسة، كان من الطبيعي ألا يقتصر السطو والسلب والتغييب على تجليات الألوهة المؤنثة أو المذكّرة في الديانة المصرية وحدها، فيمتد ليشمل معبودات كنعان.

- - - - -

(٦/أ) عانات/ رحماية ("الرحم") وقهرها بعد سلبها

في الأصحاح ٦٣ من السفر المثلّث المعنون "إشعياء" بالعهد القديم، يجري ثالث الإشعياءات حواراً درامياً ممتعاً مع يهوه. فذلك المتنبئ المحموم بمجد صهيون الآتي، منتشياً بعصارة الأمانيتا موسكاريا (الفطر قضيبي الشكل الذي كان كهنة يهوه ومتنبؤوه يستحلبون منه عقار هلوسة شديد المضاء - الشكل رقم ١) يستقبل يهوه عائداً منتصراً من مذبحة كان ذلك الإشعياء قد بعثه ليقوم بها لحساب "شعبه الأخص" في أرض أدوم(*)، فيسأله - بأسلوب مسرحي - قائلاً: "منذا الآتي بثياب حمر من بُصرة(**)، هذا البهي بملابسه، المتعظّم بكثرة قوته؟"، فيجيبه يهوه - في الحوار - قائلاً: "أنا المتكلم بالبر، عظيم الخلاص"، فيسأله إشعياء: "ما بال لباسك محمّر وثيابك كدائس معصرة النبيذ؟"، ويرد عليه يهوه قائلاً: "قد دست المعصرة وحدي ولم يكن معي أحد. دستهم بغضبي ووطأتهم بغيظي (دون أي إبانة عن سبب الغضب أو منشأ الغيظ) فرشّ دمهم (وقد خففت على سبيل التواطؤ، في الترجمة العربية، إلى "فرشّ عصيرهم!") على ثيابي ولطخ كل ملابسي.. وأجريت على الأرض دماءهم (وقد خففت أيضاً إلى "عصيرهم"!)" (إشعياء ٦٣ : ١-٣ و٦).

وهذا - دينياً وأخلاقياً وإنسانياً - مبهر وخاطف للأنفاس بغير شك (متى تقبّلنا التعامل مع إله كما لو كان سفاحاً بشرياً يُكترى بالأجر للتخلص من الخصوم) ودليل لا يدحض على أنه يحسن بكل من سولت له نفسه عدم الاستسلام لـ "الشعب" أن يحاذر لنفسه من اكتراء ذلك السفاح الإلهي ليدوسه بغضبه ويطأه بغيظه ويريق "عصيره" (دمه). إلا أن المحزن في الأمر أنه - حتى في هذا المشهد القصير الشرس بين "إله" كان قد أُصعد لتوه إلى ما فوق الجلد ونُظّف، أو جرت محاولة لتنظيفه من معظم ملامحه الوحشية القديمة، وبين "نبي"، عمد الـ "نبي"، بلا حرج ولا تورّع، إلى السطو على إلاهتين أنثيين، أولاهما من مصر، هي سخمت/حت حور، والثانية من كنعان، هي عانات/رحماية. فصورة

(*) انظر "قراءة سياسية للتوراة" : "أدوم، أدوميون" ص ص ٣٢، ٤٩، ٥٠، ٢٩٥، ٣٠٨، ٣٨٦ "عيسو" ٤٣، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥٣، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٧٠، ٢٩٠، ٢٩٣-٢٩٥، ٣٠٣، ٣٠٧.
وقد كان كل ذنب الأدوميين، الذين تصور إشعياء إلهه - من خلال صورة سَخمت وصورة عانات - سابحاً في دمائهم، وتمنى عوبديا لو أحرقهم وأكلهم (قراءة سياسية للتوراة" ص ص ٤٩ - ٥١ و١٥٦ و٣٠٨)، أن يعقوباً غش أباه اسحق وسرق من أخيه عيسو، أب الأدوميين، بركة الأب وحق البكورية، وهو ما يوقفنا على مغزى سطر الحوار الذي أجراه إشعياء على لسان يهوه فجعله يقول "أنا المتكلم بالبر العظيم للخلاص".

(**) بُصرَة غير مدينة البصرَة العراقية. وقد ورد ذكرها في التكوين ٣٦ : ٣٣، وفي النص المستشهد به من سفر إشعياء، وفي سفر إرميا ٤٩ : ٢. وهناك موقع يدعى بُصيرّة (بُصرَه المصغرة) عبارة عن كفر صغير من بضعة بيوت على سفح تل على بعد ٢٥ ميلا جنوب شرقي البحر الميت على قمته قلعة يرجّح أنها حصن الأدوميين الذي أشعل النار في دماغ إشعياء فبعث بيهوه ليذبح من فيه روائيا.

يهوه العائد من المذبحة في ذلك المشهد وثيابه غارقة في الدم، تكرار لتصوير الأسطورة المصرية للإلاهة التي كلّفها رع بإفناء البشر، فنزلت من السماء وسبحت في دمائهم(*) كما صور إشعياء (بالتمني) إلهه "رب الجنود"، يهوه، سابحاً في دماء الأدوميين. وفي الوقت ذاته، نجد أن الصورة تكرار لتصوير الديانة الكنعانية للإلاهة عانات (التي تسربت إليها من تجليات الإلاهة الأم العظمى آست (إيزيس) صفات سخمت/ حت حور التدميرية كما يوقفنا هذا النص من نصوص أوغاريت (رأس شمرا)):

"عانات تقاتل بين المدينتين، عانات مشتعلة بالغضب
عانات تمحق سكان الغرب وتطأ سكان الشرق، فتملأ الأرض جثثاً
تحتها، حول قدميها وهي تقاتل وحدها فتتدحرج الرؤوس كالكرات
عانات، حاصدة الرؤوس، حولها، كالجداجد، كالجراد، أكوام أيد مبتورة
عانات غائصة في الدم حتى الركبتين، متمنطقة بالجماجم والأيدي المقطوعة
عانات سابحة في دم خصومها الصرعى تدير البصر حولها
فيترجرج باطنها بالضحك ويفيض قلبها بالبهجة
عانات الصبية، البكر، تنتفخ أعطافها زهواً بانتصارها وهي تحصد
وهي تخوض في الدم حتى الركبتين آكلة لحوم خصومها حتى الشبع
وهي سابحة في دماء خصومها حتى العنق"(**)

انتفاج الأوداج هذا زهواً بما أريق من دم، المسروق من عانات البكر، الصبية، ليهوه، تغنى به إرميا منتشياً كاشفاً لنا من حيث لم يتوقع عن النهب لمعبوده من الألوهة المؤنثة من خلال تشبيهه إياه بالأسد وبالنسر:

"هو ذا يصعد كأسد من كبرياء الأردن.. هو ذا - كنسر - يرتفع، ويطير، ويبسط جناحيه على بُصرة، فيكون قلب جبابرة أدوم في ذلك اليوم كقلب امرأة ماخض" (إرميا ٤٩ ١٩ و٢٢)!

فبذلك التشبيه في تصوره بالتمني لما سيفعله يهوه بأهل أدوم المساكين، أفصح إرميا - بأكثر مما فعل إشعياء - عن الأصل الألوهي الأنثوي (المصري بالقدر الأكبر) لما صُوِّر به يهوه. وقد كان ذلك طبيعياً. فإرميا، كما لا ننسى، احتكّ (وعانى) من احتكاكه

(*) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ١٧٦.

(**) ارجع في شأن النصوص وترجمتها إلى:

(١) جيمس بريتشارد (محرر)، المرجع رقم [١٧٥] بقائمة البيبليوجرافيا بآخر الكتاب

(٢) سيروس جوردون، المرجعين رقمي [٤٧]، و [٤٨] بقائمة البيبليوجرافيا

(٣) وارجع أيضاً إلى:

Herdner, A.: "Corpus des tablettes en cuneiformes alphabtiques decouvertes a Ras Shamra", Mission de Ras Shamra 10, Imprimerie Nationale, Paris, 1963.

Schaffer, C.:"The Cuneiform Texts of Ras Shamra-Ugarit", Oxford, 1939.

عن كتب بعبادة الإلاهة الأم، ملكة السموات، في كل من كنعان ومصر، واشتكى له يهوه من تلك العبادة المزعجة كثيراً ثم بعث به وراء "عباده" المارقين الذين هجّوا إلى مصر تاركين إياه ليعبدوا ملكة السموات فيها، ففشل إرميا في إقناعهم بالعودة إلى "تحت يهوه"، وانتهوا بأن لاذوا بأقصى جنوب مصر حيث أقاموا لهم مستعمرة دينية لعبادة الإلاهة قرب أسوان.

وحقيقة أن كلا من الأسد والنسر مذكّر. إلا أن كلاً منهما ظل - لآماد طويلة - رمزاً من رموز الألوهة المؤنثة في الشرق الأدنى القديم، بل وفي غيره من بقاع الأرض. فالإلاهة سخمت، مثلاً، التي أُدمجت في حت حور (هاتور) وفي هوية آست (إيزيس)، والتي عرفت طريقها إلى عبادات كنعان مجسّدة في عانات، صُوِّرت كسيدة برأس لبوءة ضارية، كما صُورت الإلاهة قادش الكنعانية - التي عرفت طريقها إلى مصر(*) - واقفة على ظهر أسد، وصُوّرت إلاهات عديدات غيرها على ظهور أسود، أو في مركبات تجرها أسود، أو على عروش موشاة برؤوس وأعضاء أسود، أو وهن يلدن بين أسود.

ومنشأ تلك الصلة بين الأسد والإلاهة الإيمان الضارب في القدم بقوتها الماحقة وتسيّدها على قوى الطبيعة وما امتلأ صدر الإنسان القديم به من رهبة إزاء قدرتها (وهي المنجبة للحياة والمرضعة لها) على افتراس الحياة وابتلاعها. فالإلاهة سخمت مثلاً، التي يعني اسمها "الرهيبة"، وُصفت بـ "اللبوءة المدخّن عنقها بالنار، الأحمر ظهرها (كأردية يهوه في رؤيا إشعياء الثالث) بلون الدم، المتوقّد وجهها كالشمس، ذات العينين المشتعلتين باللهب"، كما وُصفت إينانا/ عشتار بأنها "مفترسة الأشرار والعصاة التي يدوي زئيرها كزئير الأسد في جنبات السماء وأرجاء الأرض".

وقد لاحظ نيومان(٦٢) ملاحظة لمّاحة أن الوجه الرهيب من الإلاهة تبدّى إما في الحيوان الرهيب الذي تتحول إليه الإلاهة (أي تتقمصه أسطورياً)، وإما في تجسيد ذلك الحيوان لوجهها المدمّر بكونه دائماً في معيّتها، وهكذا فإنها - في الحالة الأولى - تصبح أسداً "كالإلاهة/ الأسد المصرية" (يعني سخمت)، في حين تجلس - في الحالة الثانية - على الأسد بوصفه عرشاً لها، أو تركبه (أو تقف عليه أو ترضع وليدها الإلهي على ظهره).

ذلك الوجه الرهيب من تصور الإنسان القديم للألوهة المؤنثة، الذي بدأ من تأليه الأرض بوصفها الأم خالقة ومنبتة كل حياة وواهبة كل غذاء، وفي الوقت عينه مبتلعة كل حياة، ابتلع هو ذاته في الوجه التدميري الأصيل في هوية يهوه الشيطان الناري البركاني والقضيب المخصِّب قاذف بذرة الحياة. ولم يكن في ذلك الاغتصاب للوجه التدميري للألوهة المؤنثة وتغييبه في هوية يهوه، ممثلاً في استنساخ الأسد المرمِّز للطراز البدئي للألوهة المؤنثة، أيُّ تجديد أو ابتكار من جانب إرميا أو غيره في واقع الأمر، حيث توقفنا تواريخ كل ديانات العالم القديم سواء في الشرق الأدنى أو في غيره من مناشئ العبادات،

(*) ارجع في شأن الإلاهة قادش إلى ٣/د أعلاه.

كالهند مثلاً، أن التحول من العبادات الماترياركية التي أعليت فيها الألوهة المؤنثة إلى العبادات الباترياركية التي أعليت فيها الألوهة المذكّرة استتبع دائماً اغتصاب المعبود الذكر لرموز وتجسدات الإلاهات الإناث، لا صفاتهن وخصائصهن فحسب، بل ووظائفهن أيضاً، أي وظيفة الحمل والميلاد، حتى وإن تطلب ذلك جعل المعبود الذكر أندروجينياً، أي ذكراً وأنثى في وقت معاً كما جُعل في سفر التكوين يهوه.

في هذا السياق نفهم اغتصاب الأسد، واغتصاب النسر أو العقاب (اللذين لم يفرق العهد القديم بينهما إلا مرة واحدة، في سفر أيوب ٣٩ : ٢٦ و٢٧)، ليهوه. والواقع أن إرميا لم يكن أول من اغتصب رمزية النسر أو العقاب. فقد سبقه إلى ذلك مؤلف سفر الخروج الذي أجرى على لسان يهوه قوله: "وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلي" (خروج ١٩ : ٤). وهو ما عاد فأكده، وفي الواقع حدده أكثر، سفر التثنية بكلام أُجري على لسان موسى بعد موسى بقرون: "كما يحرك النسر عشه وعلى فراخه يرفّ ويبسط جناحيه على مناكبه، هكذا يهوه وحده اقتاد شعبه وليس معه إله أجنبي" (تثنية ٣٢ : ١١ و١٢).

والكلام هنا، ككل شيء آخر في هذه النصوص المعالجة بخبث، مضلِّل. فـ "نسر" (نِشِر العبرية) توحي بالذكورة، و "وحده" توحي بـ "التوحيد" بصرف النظر عن وجود آلهة أجنبية أخرى كما يقول النص ذاته، أو – في أضعف الإيمان، توحي بمفهوم "الإفراد"(*)، و"ليس معه إله أجنبي" توحي بنفس الشيء.

غير أن شيئاً من كل ذلك ليس كذلك إطلاقاً. فالنسر أو العقاب كان، في الديانة المصرية، كائناً مؤنثاً اتخذ رمزاً لتجليين من تجليات الإلاهة الأم العظمى آست (إيزيس)، هما نخبت، والإلاهة السماء نوت. وكما يلاحظ نيومان(٦٣)، مثّل الجَلَد (السماء) والعقاب في ديانة مصر الجانب العلوي من الألوهة المؤنثة، في حين مثّل عالم الموتى والحية جانبها السفلي. وهذا صحيح، مع تحفظ جوهري فيما يتعلق برمزية الحية. وهي رمزية مركبة. فالطائر الكاسر (العقاب/ النسر) الذي رُمِّزت به نخبت ونوت مثّل قدرة إنجاب الحياة لدى الإلاهتين (وكل منهما أم بدئية أنجبت مَنْ أنجبها)، وهو ما جُسِّد أسطورياً في إخصاب النَّفَس الكوني (شو = الهواء، الريح) لرمز الإلاهتين، العقاب.

متى وضعنا ذلك النبع نصب أعيننا، أفلتنا من حصار التلغيز التوراتي وبات بوسعنا السعي وراء المغزى الأسطوري الشعري لاستعارة رمز النسر/ العقاب ليهوه. ففي كلا النصين المستشهد بهما من سفري الخروج والتثنية، وبشكل أكثر إبانة في نص سفر التثنية، تتكشف حكاية حمل يهوه "أفراخه" (= "الشعب" الشخصية الأسطورية الرئيسية في الحكي كله) "وحده، وليس معه إله أجنبي"، أي بمفرده، بغير قوة "إلهية" أخرى تخصبه، وبذا تفصح عن عملية حمل "عذري" أندروجيني بـ "الشعب" وإنجاب له من ذات يهوه بغير

(*) ارجع في شأن "الإفراد" و"التوحيد" إلى "قراءة سياسية للتوراة"، الباب الرابع.

إخصاب من ألوهة أخرى أجنبية دخيلة. وفي هذه الخصوصية الحصرية (التي تكـرر ذكرها في التوراة وسائر أسفار العهد القديم بالتعبير الشفري "ابن يهوه البكر") نعثر على بذرة النبتة المسمومة التي عانى اليهود والعالم معهـم مـن سمومها المحرقـة والمميتـة، نبتـة "الشعب المختار".

والذنب في ذلك ذنب الكاهن المصري المـارق موسى. فهـو عندمـا اختلـس بـلا تورع من ديانته الأصلية، الديانـة المصريـة، أنـزل مـا سَرَق مـن مستواه الديني الأخلاقي المنصبّ على تأمين الانبعاث من خلال الصلاح (فذلك جوهر الديانة المصرية) إلى مستوى أرضي/ سياسي انصب على تأمين إقامة مُلك دنيوي في سياق حصري جعل من المعبود الذي ركّبه حول "يهوه" مما سرقه له شخصية ثانوية منفّذة بجانب "الشعب" الذي أُعطي، أسطورياً، المكانة المحورية كيما تُصنع منه "الأمـة المقدسـة" التي يحقق بها الكهنوت الموسوي مآربه الدنيوية تحت الراية اليهيوية.

ذلك ما لا يجب أن يغيب عن الذهن كلما وجد الذهن نفسه مواجهاً بالصياغات المفخّمة التشاعرية المتألّهة التي أُترعت بها صفحات العهـد القديم فـأدارت رؤوس أجيال وراء أجيال من البشر بوصفها الصلاح عينه والتقوى ذاتها والتدين ومخافة خالق الأكـوان، وبذلك أعمَت تلك الأجيال الكثيرة عما هو كامن وراءها مـن اختـلاس ديني وتشويه لما اختلس، ومن خلال الاختلاس والتشويه، إفساد لما كـان ينبغي أن يظـلّ التقنيـن الأخلاقي الذي من خلاله يحتفظ النوع كله بإنسانيته فلا يُقلَب إلى قطعان من ذئاب.

وكيما يتضح المعنى، نتفكر قليلاً فيما تنطق به هذه الصياغات لما هو مسروق مـن رموز:

"فـأكون (أنـا يهـوه) لهـم كأسـد، أشـق شغاف قلوبهـم آكلهـم هنـاك كلبـوءة". (هوشع ١٣ : ٧ و٨)

فإن كان ذلك هو المعبود، فعباده:

"يهوذا جرو أسد. من فريسة صعدت يابني. جثا وربض كأسد كلبوءة من ينهضه" (بركة يعقوب، تكوين ٤٩ : ٩)

"هو ذا شعب يقوم كلبوءة ويرتفـع كأسـد، لا ينـام إلا علـى فريسـة وشـارباً دم قتلى" (مباركة بلعام لـ "الشعب"، عدد ٢٣ : ٢٤).

وفي سياق كهذا، نفهم مغزى رمزية الأسد، المسروقة من الإلاهة، في صنع العرش الذهبي لسليمان، الذي جُسِّدت في الحكي عن "ملوكيته" ذروة الاشتهاء المتوقد إلى إقامـة المُلك اليهيوي على كل الأرض.

- - - - -

(٦/أ/١) قهر الإلاهة أسطورياً بحكاية شمشون (بعل ملكارت)

والمشاهد، على اية حال، في تعامل مؤلفي أسفار التوراة والعهد القديم مع الألوهة المؤنثة، أن السرقة والتشويه والابتلاع لم توجد كافية لإزاحة الإلاهة والتخلص منها. والذي يبدو أنه حدث أن الوحشية الدموية للطبع الكامن في جذور عملية اختلاق المعبود، تلك الوحشية التي غذتها الطبيعة الأصلية للوثن البركاني "الذي استخدم كعامود رُكّب المعبود عليه، غلبت على الحصافة في التأليف والتحرير، فانسكبت - كحمم البركان - خارج مدار الابتلاع إلى مدار الافتراس والتمزيق. وهو ما يرشدنا إليه تغني المزمور بمحق يهوه للإلاهة ممثلة في رمزين أساسيين من رموزها، الأسد والحية: "على الأسد والصل تطأ. الشبل والثعبان تدوس (يايهوه)" (مزمور ٩١ : ١٣). وهو أيضاً ما يكشف لنا عن التلظي إلى تحقيقه ما استخدمت فيه أسطورية بعل ملكارت التي سُرقت تحت اسم شمشون. فواقعة قتل ذلك "البطل" المسروق للأسد نطقت في صياغتها الأسطورية رغبة "المؤرخين" مؤلفي سفر القضاة في التخلص من الإلاهة المتعبة (التي لم يفلحوا في التخلص منها كما يشهد تضرر يهوه بعد القضاة بوقت طويل إلى إرميا من إصرار "الشعب" على التعبد لملكة السموات بالتبخير وسكب السكائب وصنع الكعك الشعائري - الذي على شكل الفرج - لها). وككل ما في تلك الأسفار "المقدسة"، وردت الحكاية ملغّزة لا سبيل إلى الوقوف على حقيقة ما تحكي عنه إلا بفك طلاسمها والنفاذ إلى ما وراء ملغّزاتها:

"فنزل شمشون وأبوه وأمه إلى تمنة وأتوا إلى كروم تمنة. وإذا بشبل أسد يزمجر للقائه. فحل عليه روح يهوه فشق الأسد كما يُشق الجدي وليس في يده شيء.. ولما رجع بعد أيام لكي يرى رِمّة الأسد وإذا دبر من النحل في جوف الأسد مع عسل فاشتار منه على كفيه وكان يمشي ويأكل وذهب إلى أبيه وأمه وأعطاهما فأكلا لكنه لم يخبرهما أنه أشتار العسل من جوف الأسد" (قضاة ١٤ : ٥ - ٩)

فشمشون (البطل الكنعاني المسروق - بعل ملكارت) جُعل تجسداً ليهوه: "حل عليه روح يهوه". والأسد وُضِع في الحكي كتجسد للإلاهة التي تقمصته دائماً أو كان دائماً في معيّتها. وإذ "يزمجر الأسد" (أي إذ تهب الإلاهة متحدية للقاء يهوه المسبغة هويته على بعل ملكارت = شمشون)، "يُشقّ الأسد "(يُشق فرج الإلاهة، مركز ألوهتها) كما "يُشقّ الجدي" (والجدي رمز أسطوري لسطوة الاشتهاء الجنسي = الغلمة) "وليس في يده شيء" (أي بغير سلاح إلا قضيبه مركز ألوهته وتجسد قوته) فيغلبها ويقهرها = تصبح رِمّة كما أشير في القول عن "رمة الأسد". غير أن الإلاهة لم تمت، فشمشون = يهوه، عندما عاد ليتيقن من أنها أزيحت "لكي يرى رمة الأسد" (ليطمئن نفسه إلى أنها صارت رمة) يجد في جوف الأسد دبراً من النحل "(أي يجد هيكلاً لعبادة الإلاهة قد حلت الإلاهة فيه غير ميتة وغير مزاحة بدليل ذلك "النحل" الكثير الذي امتلأ به جوف الأسد). و "النحلة"

تسمية لـ "قديشات" الألوهة المؤنثة، أي كاهناتها الإناث، وهي تسمية نجدها بارزة في اسم الكاهنة دبّورة التي حاول "مؤرخو" سفر القضاة وغيرهم جعلها "أما للشعب" و "قاضية"، وبطلة أشبه بنمط جان دارك في الأزمنة الحديثة. فـ "دبّورة" تعني – حرفياً – "النحلة". وقد اعتبرت ملكة النحل إحدى تجليات الإلاهة وعُبدت من أقدم العصور بوصفها كذلك. ومن الاعتقادات الضاربة في القدم أيضاً الاعتقاد بأن النحلة (رمز التجدد والانبعاث في العديد من العبادات الأولى) كانت تولد في جوف الثور الصريع كما وُصفت في حكاية شمشون المغتصبة متولّدة في "جوف الأسد". فبالنظر إلى أن زخم الصياغة في حكي سفر القضاة تركّز على هزيمة الألوهة المؤنثة أمام فحولة يهوه، لم يكن بالوسع السير على خطى التقليد الضارب في القدم بجعل ذلك التولّد في جوف ثور (من الواضح أنه كان بالوسع جعل شمشون "يشقه كما يشق الجدي" لو كان المقصود فقط هو التأكيد على قوة شمشون الخارقة كما تظاهر نص سفر القضاة). غير أن ذلك كان سيتناقض والقصد الميثولوجي الدفين في النص وهو غلَبة الإله الذكر يهوه على الإلاهة الأنثى بشق فرجها، وهو ما لم يكن من الممكن ترميزه ميثولوجياً بالثور الذي كان باستمرار، في اللغة الأسطورية، تجسُّد الإله الذكر، كبعل يهوه. وفي كل الالتحامات الشرسة في العبادات القديمة بين الألوهة المؤنثة والألوهة المذكّرة، كان الالتحام بين الأسد (كتقمص للألوهة المؤنثة) والثور (كتقمص للألوهة المذكّرة).

وإذ عُبدت الإلاهة في صورة النحلة، كان من الطبيعي أن تنتقل تلك الصفة إلى كاهناتها فيدعين باسم "دبورة" أي النحلة. وكان من المنطقي أيضاً أن يكون العسل مادة ذات دور رئيسي في عبادتها، سواء في حالته الطبيعية، أو مخمّراً كشراب مُسكر. وقد استُخدم العسل في صنع الكعك الشعائري الذي كان عباد يهوه يصنعونه لملكة السموات على شكل الفرج.

وهكذا فإن نص سفر القضاة عن شمشون والأسد يكاشفنا، متى أزحنا أستاره جانباً، بحكي أسطوري مجازي عن معركة اشتبك خلالها يهوه البعل = الثور = شمشون بالإلاهة فقهرها بشق فرجها لكنها، كالنحلة التي جُسِّدت بها، تجددت، أي انبعثت داخل هيكلها = جوف الأسد، وأفرزت عسلها المُغوي المُسكر.

(٦/ أ/٢) قهر الإلاهة لغوياً بحيلة الـ "عشتاروت"

فالثابت أن الإلاهة – رغماً عن إصرار مؤلفي العهد القديم ومحرريه الرقباء على إخفائها أو تجاهلها – عُبدت لآماد طويلة في كنعان، وبخاصة في الشمال، باسم عانات رحماية (أي عانات الرحم)، والذي لم يعد مهرب من التسليم به – فوق ذلك – أن من كان من المفروض، تبعاً لسيناريو العهد القديم، أنهم، منذ زمن "الآباء" لم يعبدوا إلا يهوه وحده، عبدوها وأخذوا عبادتها معهم إلى مصر عندما لاذوا بها في زمن إرميا.

وفي حين أُسقط اسم عانات، كما أسقط أيضاً بنفس الحرص الصارم اسم عشتار (التي استمدت عبادتها بابلياً من أصول سومرية أقدم تمثلت في إينانا)، النمط الأصلي البابلي لعانات، نجد أن كلتا الإلاهتين، البابلية والكنعانية، ظلتا ماثلتين في النصوص المعالَجة التي تألف منها العهد القديم، إذ هما مذكورتين في تلك النصوص، في أكثر من موضع، بطريقة ملغّزة ملتوية (كما في حالة تلغيز عشيرة بحيلة "السواري" و "الأيكات") حيثما ورد ذكر "عشتروت"، "عشتاروث"، أو "العشتاروث").

وذلك ما يسلم به الأستاذ باتاي في كتابه "الإلاهة العبرانية" (ص ص ٦٢ و٣٠٢)، حيث يقول إنه من اللافت للنظر حقاً أن عانات لم يرد لها أي ذكر صراحة، باسمها، في أي موضع من العهد القديم، مشيراً إلى أن "المؤلفين" لجأوا إلى التلميح إليها بلفظة "العشتاروت"، بدلاً من تسميتها باسمها"عانات".

وتلك حيلة تحريرية اتّبعت ايضاً في شأن عشيق عانات وأخيها الذي أشير إليه باستمرار بـ "بعل" أو "البعل" بدلاً من تسميته باسمه، أدد/ هدد/ حداد، أو هدد رمّون، على الرغم من إفلات أقوال كهذا القول الكاشف من أقلام المحررين الرقباء عند تحرير نصوص سفر الملوك الثاني: "فأسجد في بيت (معبد) رمون (هدد رمون) فعند سجودي في بيت رمون يصفح الرب لعبدك" (٥ : ١٨).

وكما قلنا، تعاون المترجمون الأتقياء في تمتين كل حيل التمويه والإتاهة هذه تعاوناً اتصف بالحماس الذي وصل إلى حد الغباء أحياناً، كتحويل نص استهلال المزمور ٨٢ القائل "يهوه قائم في مجمع الآلهة، بين الآلهة يقضي "إلى" الله قائم في مجمع الله. بين الآلهة يقضي"!

ولنأخذ، كأمثلة فقط، نصوص سفر التثنية ٧ : ١٣، و ٢٨ : ٤ و ١٨ و٥١، التي يعد فيها يهوه من يتّبعه من "الشعب"، ويتوعد من "يخرج من تحته"، مبتزاً ذلك "الشعب" الذي استمات في جعله يعبده بأهم شاغل لـ "الشعب" في الحياة، وهو تكاثر نسله ونسل قطعانه. فيهوه، في نصوص سفر التثنية هذه، يعلن أنه سوف يُنعم على من يتبعه بمباركة، وينتقم ممن "يخرج من تحته" بلعنة "عشتاروت قطعانه" و "شيجير بطنه وأرضه"، أي إثمار بطون نسائه وإثمار أرضه. غير أن المترجمين، وقد وجدوا اللغة الأصلية للنصوص كاشفة بأكثر مما انبغى، سارعوا بتحويل الابتزاز بـ "عشتاروت القطعان" و "شيجير" (طرح، إثمار) البطن والأرض، إلى: "فيحبك يهوه ويباركك ويكثّرك ويبارك ثمرة (إثمار، طرح، شيجير) بطنك وثمرة أرضك قمحك وخمرك وزيتك ونتاج (عشتاروت) بقرك ونتاج (عشتاروت) غنمك"، في حالة الرضا، وإلى: "ملعونة تكون ثمرة (إثمار، طرح، شيجير) بطنك وأرضك ونتاج (عشتاروث) بقرك ونتاج (عشتاروت) غنمك"، وزيادة في التهديد : "فتأكل نتاج (عشتاروث) قطعانك وثمرة (شيجير) أرضك حتى تهلك"، وفي نص آخر، كما أشرنا في موضعه، تضمن التهديد "وتأكل ثمرة بطنك، بنيك وبناتك".

في تحليله للنصوص العبرية الأصلية، يقول الأستاذ باتاي أن كـلاً مـن "عشـتاروث" و "شيجير" (طرح، إثمار) لا تعنيان إلا "الرحم"، ويقـول إنـه مـن "رحـم" العبريـة، اشـتقت "رحام"، أي "ذات الرحم" (أو، متى استخدمنا صيغة مصرية معبرة، "أم رحم")، مشـيراً فـي ذلك - كمثال - إلى نص في سفر القضاة يقول: "ألم يجدوا ويقسّموا الغنيمـة، واحـدة أو اثنتين من ذوات الرحم لكل رجل؟" وهو ما غُيّر في الترجمة إلى "فتاة أو فتاتين لكل رجـل" (قضاة ٥ : ٣٠).

غير أن كل هذا الجهد المتصف بـالتصميم فـي إخفـاء عانـات مـن النصـوص عنـد التحرير وبتعـاونٍ كـامل مـن المـترجمين قصـر دون الطمـس الكـامل لوجودهـا القـوي فـي الأصول التي استمدت منها أسطورية يهوه، لأن الرقابـة الكهنوتيـة لـم تتمكـن، وإن أخفـت اسم الإلاهة من النصوص، من إزالة الأماكـن المسماة باسـم الإلاهة، كـ "بيـت عانـات"، وِ"عاناتوث"، من الوجود، فـ "بيـت عانـات" تعنـي "معبـد عانـات"، و"عانـاتوث"، والتـي ذُكرت في سفر السفّاح بوصفها من مدن الملاذ (يشـوع ٢١ : ١٨)، كـانت مسـقط رأس "النبي" إرميا، لا أقل، بل وكانت مركزاً دينياً كبيراً حيث ذُكـر إرميـا كواحـد "مـن الكهنـة الذين في عاناتوث في أرض بنيامين" (إرميا ١ : ١)، كما ذُكر بنفـس الصفـة فـي صموئيـلِ الثانيٍ ٢٣: ٢٧، وعزرا ٢ : ٢٣، ونحميا ٧ : ٢٧. ومما يؤكد كون ذلك المكـان مركـزاً رئيسياً لعبادة عانات ما يصارحنا به إرميا ذاته من أن الكهنة الذين قالت كـل تلـك الأسـفار أنه كان واحداً منهم في عاناتوث هددوه بالقتل قائلين له "لا تتنبـأ باسـم يهـوه لئـلا تمـوت بيدنا" (١١ : ٢١). ونتيجة لذلك، يؤكد إرميا أن يهوه قرر أن يعاقب أولئك الكهنة الأشرار أشد العقاب وأرذلـه: "هكـذا قـال رب الجنـود. هـاأنذا أعـاقبهم. يمـوت الشـبان بالسـيف ويموت بنوهم وبناتهم بالجوع. ولا تكون لهم بقية لأني أجلب شراً على أهل عاناتوث سنّة عقائهم" (إرميا ١١ : ٢١ - ٢٣).

وبهذا الكلام الجليل، يوقفنا استخدام إرميا للقب يهوه العسـكري، "رب الجنـود"، دون سواه، أن الخلاف هنا لم يكن لاهوتياً متعلقـاً بصـلاح أو بمطـر، بـل كـان مـع إلاهـة الحرب الضارية عانات (وأصلها البابلي، عشتار) إثر سلب الأمجاد الحربية ليهوه كيما ينبهر "الشعب" (ويرتعب) لبسالة ذلك المارشال السماوي يهوه فيسلّم رقبته بلا عصيان أو صلابة عنق لكهنة رب الجنود ونبييمه. غير أن الثابت من حكي سفر إرميـا ذاتـه أن "الشـعب" لـم تنطـل عليـه تلـك الألاعيـب الكهنوتيـة وبخاصـة عندمـا وجـد أن أرضـه - التـي كـان مـن المفروض أنها تحت حماية يهوه - ظلت مسـتباحة للمصريين والآشـوريين، ثـم للبـابليين. وبطبيعة الحال، لم تخلُ جعبة الكهنة اللاويين من حيلة أرادوا أن يفلتوا بها، هم ومعبودهم، من ذلك المأزق الكاشف. وكما توقفنا نصوص العهد القديم، كانت تلك الحيلـة الإلحـاح بصوت ثاقب على أن انكسار "الشعب" وحكّامه وكهنته أمام أشـور ومصـر ثـم بـابل كـان عقاباً من يهوه لزيغ ابنته عروسه فاتنة لبه اسرائيل، وهو عقاب أوقعه يهـوه بابنتـه/ معشـوقته

محزوناً مجروح القلب: "قد تركت بيتي، رفضت ميراثي. دفعت حبيبة نفسي ليد اعدائها (إرميا ١٢ : ٧)(*).

غير أن تلك الحيلة، هي الأخرى، لم تنطلِ على "الشعب"، فيما يوقفنا عليه سفر إرميا ذاته بإشارته شبه الشفرية، بعد ذلك الكلام بقليل، إلى "الأسد"، الرمز التقليدي للإلاهة: فهو يقول إن يهوه قال شاكياً "صار ميراثي لي كأسد في الوعر. نطق عليّ بصوته (أي زأر في وجهي)" (إرميا ١٢ : ٨). وقد استوضحنا فيما سبق رمزية الأسد فيما يخص الإلاهة. أما شكاة يهوه من زئير ذلك الأسد في وجهه فترديد لما وصفت به الإلاهة، في كل تجلياتها، من سخمت إلى إينانا/ عشتار، بأنها "كزئير الأسد يدوي زئيرها في السماء وعلى الأرض"

فالذي لا شك فيه أن من عاشوا في زمن إرميا كانوا أحرياء بأن يفطنوا على الفور إلى الحقيقة في شأن ذلك الزئير ويعرفوا زئير من كان. وواقع الأمر، إن شئنا الحق، أن سفر إرميا كله، على الرغم من اشتعاله بالحميا اليهيوية، يظل أكثر أسفار النبييم امتلاء بذلك الزئير. فهو – من وجه بعينه – السفر الذي نطقت فيه الحزازة بين يهوه والإلاهة، ربما لأن إرميا ولد وترعرع في عاناتوث على حجر تلك الإلاهة، فلما انحاز إلى صف يهوه ودخل كهنوته بات أقوى نصير له في حرب العصابات التي لم يكُف المعسكر اليهيوي عن شنها على تلك الإلاهة.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن إرميا كان هو المتنبئ الداعية الذي اختير ليقنع "الشعب" الذي ضاق بحياته في ظل اليهيويين وعجزهم عن جعل يهوه "يحارب عنهم"، كما ظل كهنته منذ موسى يعدون، فقررت البقية الباقية منه الهرب إلى مصر "من وجه الكلدانيين لأنهم كانوا خائفين منهم" (إرميا ٤١ : ١٨). فلما عجز إرميا عن اقناعهم بالتي

(*) وذلك ما يوضحه بجلاء هذا النص من سفر إرميا :
"(فإذا سألوك) لماذا تكلم يهوه علينا بكل هذا الشر العظيم، ما هو ذنبنا وما هي خطيتنا التي أخطأناها إلى يهوه إلهنا؟ (فإنك) تقول لهم من أجل أن آباءكم قد تركوني، يقول يهوه، وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها وإياي تركوا وشريعتي لم يحفظوها، وأنتم أسأتم في عملكم أكثر من آبائكم وها أنتم ذاهبون كل وراء عناد قلبه الشرير حتى لا تسمعوا لي (فإني أطردكم من هذه الأرض (كنعان) إلى أرض لم تعرفوها أنتم ولا آباؤكم.. هاأنذا أرسل إلى جزّافين كثيرين، يقول الرب يهوه، فيصطادونهم ثم بعد ذلك أرسل إلى كثيرين من القانصين فيقتنصونهم عن كل جبل وكل أكمة ومن شقوق الصخور. لأن عيني على كل طرقهم، لم تستتر عن وجهي ولم يختف إثمهم من أمام عيني. فأعاقب إثمهم وخطيتهم ضعفين لأنهم دنسوا أرضي وبجثث مكرهاتهم ورجاساتهم قد ملأوا ميراثي" (إرميا ١٦ : ١٠-١٣ و١٦-١٨).
أي، باختصار أن "الشعب" لم تنحط على أدمغته المصائب والملك لم يدمر لأن سحر آلهة الأقوام التي دمرت "الشعب" والمُلك، وهيكل يهوه ذاته وفتحت تابوته كان أقوى من سحر يهوه، أو لأن تلك الآلهة كانت أقدر من يهوه عسكرياً وحضارياً، بل لأن يهوه، الذي كان قادراً على انقاذ "الشعب" والملك والهيكل والتابوت بطرف إصبع، قرر أن يلقن "حبيبة نفسه" الزائغة التي ظلت "تخرج من تحته" فتفتح فخذيها لمنافسيه درساً، ويعاقب إثمها وخطيتها، لا أكثر.

هي أحسن، لجأ إلى التهديد مستخدماً صيغ التخويف المجربة منذ زمن موسى مما سوف يفعله بهم يهوه: "وإن قلتم لا نسكن في هذه الأرض ولم تسمعوا لصوت يهوه إلهكم قائلين بل إلى أرض مصر نذهب حيث لا نرى حرباً ولا نسمع صوت بوق ولا نجوع للخبز وهناك نسكن (آمنين)، فالآن اسمعوا كلمة الرب يهوه يا بقية يهوذا. هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل: إن كنتم تجعلون وجوهكم للدخول إلى مصر وتذهبون لتتغربوا هناك. يحدث أن السيف الذي أنتم خائفون منه يدرككم هناك في أرض مصر والجوع الذي أنتم هاربون منه يلحقكم هناك في مصر، فتموتون هناك .. قد تكلم الرب يهوه عليكم يا بقية يهوذا لا تدخلوا مصر. اعلموا أني قد أنذرتكم اليوم" (إرميا ٤٢ : ١٣-١٦ و١٩).

والمضحك في الأمر أن إرميا عندما لم تفلح تهديداته في منع "الشعب" من اللوذ بمصر، هرب معهم: "فلم يسمع يوحانان بن قاريح وكل رؤساء الجيوش وكل الشعب لصوت يهوه بالإقامة (بالبقاء) في أرض يهوذا بل أخذ يوحانان بن قاريح وكل رؤساء الجيوش كل بقية يهوذا.. الرجال والنساء والأطفال وبنات الملك وكل الأنفس وإرميا النبي وباروخ بن نيريا. فجاءوا إلى أرض مصر لأنهم لم يسمعوا لصوت يهوه وأتوا إلى تحفنحيس" (إرميا ٤٣ : ٤-٧).

هكذا، بغير إفاضة. وهو ما لا يؤاخذ محرر النص عليه في الواقع. فهو قد استفاد من ذلك الاسم، "تحفنحيس"، وتركه هكذا ملغّزاً على علاته، وكفي يهوه كهنته شر الإفاضة.

فما هي "تحفنحيس" هذه؟ ولماذا هرب من كان قد بقي من "الشعب" إليها مع كل رؤسائه وكل رؤساء الجيوش وإرميا النبي؟

في محاولتنا النفاذ إلى ما وراء أستار الإتاهة والتمويه المسدلة في تركيبة هذه النصوص "المقدسة" ستاراً وراء ستار، نبدأ من تسمية الترجوم السبعيني ذلك الموقع بـ "دافني" وهي التسمية التي تلبّثت في تسميته، مصرياً، بـ "تل الدفنة" أو "كوم الدفنة". ويقع غرب القنطرة وإلى الجنوب الشرقي من تل الجن، ومنشية أبو عمر(٦٤)، في شرق الدلتا، أي في المنطقة التي دعتها التوراة بـ "أرض جاسان".

(٦/ أ/٣) حكاية دافني ولوذ "الشعب" بمصر

و "دافني"، كما لا يخفى، اسم يوناني، ولذا استخدمه الترجوم السبعيني. وهو، في الميثولوجيا اليونانية اسم جنيّة من جنيات الآبار تحكي تلك الميثولوجيا(٦٥) أن الإله اليوناني أبولّو عشقها وطاردها ليغتصبها. ولما كانت جنية الماء هذه ابنة الإلاهة الأرض من إله النهر بينيوس، وكاهنة من كاهنات أمها الإلاهة، فإنها استغاثت بتلك الأم القادرة فأنجدتها بأن غيّبتها من أمام أبولّو وهرّبتها إلى كريت حيث عبدت باسم باسيفاي كإلاهة قمر، وأنبتت لأبولّو مكانها شجرة غار صنع ذلك الإله لنفسه تاجاً من أوراقها ليتعزى به.

غير أن أبولو لم ينس تلك الجنية الحسناء التي خلبت لبه فذهب باحثاً عنها في أرجاء تمبي لأن إلاهة ذات اسم قريب من "دافني"، هي "دافوينـي" (أي "الدموية") ترامت أخبارها إلى سمعه. غير أنه وجد أنه شتان ما بين جنيته الحسناء وتلك الإلاهة المحاربة الشرسة التي كانت تعبد بطقوس جنسية عربيدة ودموية تحت تأثير عقار هلوسة دأبت كاهناتها على استحلابه بمضغ أوراق الغار، فكان أن حُرِّمت تلك العبادة وحرَّم أبولّو مضغ أوراق ذلك النبات المحدِث للهذيان إلا على عرافته الشهيرة، الكاهنة الإفعوانة، التي هربت كاهنات الإلاهة من وجهها إلى كريت حيث تكهنّ لدافني الحقيقية.

هذه، باختصار، هي الأسطورة اليونانية التي تحكي عن "دافني". والسؤال هو: ما السبب الذي جعل مترجمي الترجوم السبعيني يسمّون الموقع الذي حط فيه الهاربون من بقية يهوذا وفي معيتهم "النبي" إرميا الرحال في أرض مصر، وهو موقع دعاه إرميا، ودعاه حزقيال أيضاً (٣٠ : ١٨)، باسم تحفنحيس؟

قد يرشدنا إلى خيط يقودنا إلى مسارب المتاهة أن نتذكر أن إرميا، قبل أن يسمي المكان بذلك الاسم في ٤٣ : ٧ وما بعد، دعاه أولاً، في مستهل سفره، باسم "تحفنيس"، في قوله لأمته العاصية" بنو نوف وتحفنيس قد شجوا هامتك (أي كسروا لك ظهرك)" (إرميا ٢ : ١٦) هو يقصد بني نوف وتحفنيس المصريين. فنوف هي منف، أما تحفنيس فهي الموضع الذي أسماه بعد ذلك تحفنحيس. وكان استخدام "تحفنيس" قبلاً بمعنى "المصرية زوجة الملك". فمن كانت تلك المصرية "زوجة الملك"؟ وأي ملك كان ذاك؟ سليمان الذي تزوج بابنة من بنات فرعون؟ أم ترى كان يهوه الذي عبده كهنته باسم "الملك"؟ ومن كانت تلك الزوجة المصرية؟ وما دخل دافني اليونانية في المسألة؟ ترى هل كانت "المصرية زوجة الملك" إلاهة مصرية تقمصتها معبودة كنعانية ممن أُسمين بـ "ملكة السموات"؟

يثير وجود إرميا شكاً قوياً في أن "ملكة السموات" هذه، أياً كان اسمها وأياً كانت تقمصاتها، لعبت دوراً رئيسياً في الأمر، وهو شك يتحول إلى يقين متى توقفنا عند المشادة التي جرت بين إرميا و "الشعب" الهارب إلى مصر، برجاله ونسائه (اللواتي تقدمن إلى مقدمة المسرح لأول مرة في حكي العهد القديم) حين أخذ إرميا - عائداً إلى ألاعيب كهنة يهوه القديمة - في تهديد "الشعب" بكلام كهذا: "أنتم فاعلون شراً عظيماً ضد أنفسكم لانقراضكم (سيؤدي إلى إبادتكم) رجالاً ونساء وأطفالاً ورضّعاً من وسط يهوذا ولا تبقى لكم بقية (لأنكم تعمدتم) إغاظتي بأعمال أيديكم إذ تبخّرون لآلهة أخرى في أرض مصر التي أتيتم إليها لتتغربوا فيها لكي تنقرضوا ولكي تصيروا لعنة وعاراً بين كل أمم الأرض. هل نسيتم شرور آبائكم وشرور ملوك يهوذا وشرور نسائهم وشروركم وشرور نسائكم التي فعلت في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم؟" (إرميا ٤٤ : ٧-٩).

وعلى الرغم من فعل مقص الرقيب التوراتي إخفاء لكون الشحان مع الإلاهة باستخدام مصطلح "آلهة أخرى"، فإن التركيز على شرور الآباء والملوك ونساء الملوك

وشرور "الشعب" ونسائه-وبخاصة في سفر إرميا، الذي جأر فيه يهوه بالشكوى من عبادة القوم لـ "ملكة السموات" - يكشف عن حقيقة الألوهة الأخرى التي أغاظ "الشعب" ونساؤه يهوه بـ التبخير" لها سيراً على خطة "آبائه" وملوكه ونساء ملوكه. ففي كل مرة، على طول الأسفار "المقدسة" وعرضها، كان "فعل الشر في عيني يهوه" خروج "الشعب" من تحته وعبادة "البعليم والعشتاروث" أي عبادة الآلهة الذكور والإلاهات الإناث، وهو شر تركّز في سفر إرميا في الانصراف عن يهوه إلى ملكة السموات، كما يوقفنا توجع يهوه من إغاظة "الشعب" إياه بالتبخير وسكب السكائب وصنع الكعك الشعائري لها (إرميا ٧ : ١٧-٢٠). وقد نصح إرميا "الشعب" بالكف عن تلك الإغاظة الخطرة، لكن "الشعب" تحدّى إرميا ويهوه معاً بقوله "إننا لن نسمع لك الكلمة التي كلمتنا بها باسم يهوه، بل (سنظل) نبخر لملكة السموات ونسكب السكائب لها كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم" (إرميا ٤٤ : ١٦ و١٧).

فالصراع كان مع ملكة السموات، تحديداً، لا مع "آلهة أخرى"، تمييعاً. وهو ما يعود بنا إلى التساؤل الأصلي، أية ملكة سموات كانت تلك؟

حتى نتمكن من تلمس طريقنا داخل المتاهة استجلاء لإجابة على هذا التساؤل تعززها البراهين، نعود إلى "دافني"، التسمية التي لم يستخدمها الترجوم السبعيني اعتباطاً أو لمجرد الاستهلال. فقد وجد في سوريا وفي فلسطين موقعان أطلق عليهما ذلك الاسم كانا كلاهما مركزين لعبادة الإلاهة.

في كتابه العمدة عن جغرافية الإمبراطورية الرومانية، يحدثنا المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابو (زهاء ٦٣ ق.م. إلى حوالي ٢١ م. أو ما بعدها) عن "غيضة" (الاسم الشفري، كما أوضحنا قبلاً، للإلاهة في العهد القديم) عُرفت بذلك الاسم نظراً لما فيها من عيون الماء (التي كانت دائماً أماكن عُبدت عندها الإلاهة، كما اسلفنا). ويرجع سترابو تسمية تلك "الغيضة" بذلك الاسم إلى أن معبداً كان قد أقيم فيها للإله اليوناني أبولّو قُدِّست فيه كاهنته الأفعوانة العرافة (متعاطية عقار الهلوسة باستحلاب عصارة أوراق الغار)، قرب نهر العاصي بسوريا، جنوب أنطاكية.

وبالمثل، وُجد موقع آخر قرب نهر الأردن في "أرض دان" اشتُهر بما فيه من عيون الماء وعرف باسم "دَفنة"، ورد ذكره في سفر المكابيين الثاني ٤ : ٣٣ من الأبوكريفا، وفي "التواريخ القديمة" و "الحرب اليهودية" ليوسف بن ماتياس، واسميت عربياً بـ "بيت الماء" وفي التوراة، وقع المؤلف في الخطأ الجغرافي المتكرر بالنسبة لمواقع الأماكن، فجعل ذلك الموقع، دفنة الاردن، ربلة، أي دفنة نهر العاصي، في نص تحدث عن "ربلة التي شرقيّ عين" أي شرقي "عين العاصي" (عدد ٣٤: ١١) في سياق سرده لتحديد موسى (سلفاً) لـ "أملاك الشعب" وهو الخطأ الذي أوقع القديس جيروم في حكاية "نبع دافنيم" التي وضع بها دفنة الأردن موضع دفنة العاصي.

الا أنه، من وجهة نظر الباحث في متاهات التلفيق التوراتي، وبصرف النظر عن ذلك الخلط، تظل "ربلة" تسمية تحمد لسفر العدد في واقع الأمر، اذ أحبطت سعي المحررين الى طمس كل ما له قدرة على إبراز الإلاهة المطمورة في النصوص. فـ "ربلة" تعني الخصب والخصوبة والوفرة في الانسان والحيوان والنبات .وكل هذه صفات قدست في العالم القديم باعتبارها نعماً أنعمت بها الإلاهة الأم العظمى وارتبطت دائما بأسطوريتها بأي اسم عرفت. و"ربلة" من المصدر العربي" ربل" أي كثر ونما. ولعله مما يوضح الارتباط الجنسي /الديني في عبادات الإلاهة الأنثى بين الخصب والخصوبة وأنوثة الإلاهة أن الـ" ربلات" في العربية تعني مكان التحام الفخذين بأسفل البطن، أي بمثلث هضبة العانة (= تبة الخلق الأولى). وبالمثل، نجد في العربية "الرئبال" اسماً للأسد، كما نجد "ترابل" أي انقض وافترس كالأسد. وارتباط رمزية الأسد بعبادة الإلاهة الأنثى موثّق أسطورياً توثيقاً لا يدع مجالاً للشك في تلك المعاني أو لتجاهل مغزاها بالنسبة لتسمية الموقع بذلك الاسم.

والثابت من أسفار العهد القديم أن "ربلة" اسم ضارب في القدم لمدينه من مدن كنعان اتخذت كإحدى مدن الملاذ إبان استيطان من عرفوا باسم "بني اسرائيل". وقد ورد ذكر تلك المدينة في التوراة، بسفر العدد بالنص الذي أوردناه (٣٤ : ١١)، كما ورد في سفر الملوك الثاني في سياق الحكي عن يهوآحاز الذي "ملك" في أورشليم "(فـ) عمل الشر في عيني يهوه حسب ما عمل آباؤه" (٢٣ : ٣١)، ولما كان ذلك "الشر الذي عمله يهوآحاز سيراً على خطى آبائه" قد ارتكب في ربلة التي يقول سفر الملوك الثاني أن يهوه جعل فرعون مصر يأسره فيها (٢٣ : ٣٢ و ٣٣) لئلا يظل "ملكاً" على أورشليم، فإن العقل يملي التساؤل الذي لا مهرب منه، وهو "أي شر ذاك الذي فعله يهوآحاز وفعله آباؤه "فأثار غضب يهوه إلى حد استقدامه فرعون مصر (خصم يهوه العتيد) ليهزم ذلك الملك ويأسره في ربله حتى لا يعود "ملكاً" على أورشليم؟ ترى هل كان ذلك الشر الفظيع عبادة الإلاهة الأم في ذلك الموقع الديني المكرس لعبادتها، ربلة؟ يبدو ذلك، لأن سفر الملوك الثاني ما يلبث أن يخبرنا أن يهوه بعد أن استقدم فرعون مصر ليهزم يهوآحاز ويأسره، استقدم ذلك الملك البابلي الشرير، نبوخذ نصر، لا أقل، ليضرب "الشعب" ويسبيه، وأين؟ في ربله : "فضربهم ملك بابل في ربلة فسبي يهوذا من أرضه" (٢٥ : ٢١). وبالمثل، يخبرنا إرميا وهو يحكي حكاية صدقيا المسكين أن صدقيا، بعد أن هُزم، أُخذ ليمثل أمام ملك بابل، أين؟ في ربلة : "فأخذوه وأصعدوه إلى ملك بابل في ربله فقتل ملك بابل بني صدقيا أمام عينيه وأعمى عيني صدقيا وقيّده بسلسلتين من نحاس" (إرميا ٥٢ : ٩ - ١١).

فلماذا ظلت ربلة هذه "فخاً" للقوم، متى استخدمنا مصطلح العهد القديم؟ لأنها ظلت مركزاً دينياً لعبادة الإلاهة التي جعلت خصوبة الموقع وخضرته الدسمة كما وصفها الجغرافيون القدامى كسترابو "ملوك القوم ورعاياهم لا يتخلون عنها في وجه تهديدات سدنة" يهوه وحده "ونبييمه، وهو مايشير إليه سفر الملوك الثاني بإشارة دائرية ملتوية

تحريرياً إلى الإلاهة بتحدثه عن" المرتفعات التي لم تنتزع بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات" (١٥ : ٤). والمرتفعات، كما نعرف، كـ "الغيضة" سواء بسواء، مسمى شفري في العهد القديم للإلاهة ومراكز عبادتها.

(٦/ أ/ ٤) نكسات المارشال يهوه وانكشاف تهاويل نبييه

الذي لا شك فيه، أياً كان موقع ربله/ دافني الذي أثير حوله بطبيعة الحال جدل متواصل منذ استخدم جيروم وترجوم القدس التسمية اليونانية، أن "شعب" يهوه وابنه البكر الرافض بإصرار أن يظل "تحته"، عبد في كنعان، في ربله/ دافني وفي أورشليم وغيرها آلهة كنعان، ومنها بشكل خاص - فيما يُفصح عنه التياع يهوه الذي يصرخ في سفر إرميا - الإلاهة الأنثى "ملكة السموات" المقلقة للراحة. هذا واقع "مقدس" لا سبيل إلى التهرب منه أو مراوغته بفضل التوثيق المتوافر بغزارة على الرغم من كل المراجعات وعمليات إعادة الترجمة وعلى الرغم من كل التحرير والرقابة، في أسفار العهد القديم.

والذي لا شك فيه ايضاً، بفضل ذلك التوثيق المقدس ذاته أن "شعب" يهوه وابنه البكر تنكّر لتلك الأبوة غير المجدية عندما تبين أن يهوه - على العكس مما ظل الموسويون والهرونيون يعدون به منذ زمن موسى وهرون - تقاعس أو جبُن عن "أن يحارب عن شعبه"، لا ضد الكنعانيين فقط (الذين لم يبدهم من أمام "الشعب" كما وعد موسى ويشوع، لأنه تبين أنهم كانوا مسلّحين بـ "مركبات حديد") بل وضد المصريين، ثم الآشوريين، ثم البابليين.

والذي لا يطاوله الشك كذلك أن حيلة دعاة يهوه المسكينة بعض الشيء والمتمثلة في التصايح بأصوات عالية والشرر يتطاير من العيون والزبد يغطي الأشداق بأن يهوه : (١) نكص عن وعده بإبادة أصحاب الأرض الأصليين كيما تخلو كنعان منهم تماماً ليستقر فيها "الشعب" مرتاحاً هانئاً، لغرض إلهيّ سام يعلو على أفهام البشر، هو الرغبة في اختبار مدى صلاح "الشعب" والوقوف على مدى التزام ذلك "الشعب" بعبادة يهوه وحده، والمتمثلة أيضاً في أن يهوه (٢) لم "يحارب عن الشعب" فيدحر له المصريين ثم الآشوريين ثم البابليين لا لأنه جبن عن ذلك أو لم يقدر عليه، بل لأنه - وقد وقف على زيغ شعبه الذي ظل "يفعل الشر" بعبادة الآلهة والإلاهات المنافسين والمنافسات - قرر أن يلقّن ذلك "الشعب صلب الرقبة" درساً لا ينسى بكل تلك الهزائم المتلاحقة أمام أعدائه، وقد كان كل من حوله - بسبب وحشية كهنته وجشعهم إلى ما بأيدي الآخرين - عدواً له، ثم توّج ذلك العقاب بخبرة السبي.

فـ "الشعب" كان متخلّفاً وكان بدوياً وكانت لعمليات التخويف والإرهاب الكهنوتي آثارها التي لا تنكر في صوغ تفكيره وتشكيل موقفه من العالم ومن الآخرين. إلا

أنه - ككل وكأي "شعب" آخر تسلّط عليه حكامه بالأكاذيب وضروب الاصطناع - استجاب في النهاية، عندما بدأت الأكاذيب وضروب الاصطناع تتكشف، بالرفض والتمرد.

وحقيقة الأمر أن الكهنة الموسويين من "سبط" الأفعى (لاوي) جلبوا تلك المحنة على رأس يهوه وعلى رؤوسهم بإمعانهم في إحكام قبضاتهم على مقود "الشعب" - وهو أصلاً تجميع اعتسافي لعشائر بدوية سريعة الاشتعال بالعنف والحزازات لم يتوافر لها ما يحقق طموح موسى إلى جعلها "أمة"(*) - بما ظلوا يلقمونه لذلك "الشعب" من وعود مكذوبة وتهديدات مهولة وجعجعات منتفخة بقدر كبير من الهواء الساخن الصاعد من أجوافهم الشرهة لا من جوف أي إله بركاني رهيب قاذف حمم كما أرادوا تصوير يهوه.

فهم، بتأكيداتهم المتواصلة لـ "الشعب" إن "إلهه صاحب الذراع القوية، رجل الحرب، رب الجنود، يهوه المخوف"، هو الذي يحارب عنه ويتقدمه (معلباً داخل تابوته) بقدرته التي لا تقهر بوصفه "أعظم الآلهة" إلى كل اشتباك لذلك "الشعب" مع أعدائه (وكل من حوله أو بجواره عدو له بفضل كهنته)، بذروا في الواقع بذرة سقوط يهوه ذاته لا سقوط "المُلك" فحسب.

فـ "الشعب"، حتى وإن كان قد ابتلع - تسليماً بما لم يكن من التسليم به بد - حكاية عدم إفناء يهوه لأهل كنعان الأصليين كيما يختبر مدى صلاح "ابنه البكر، شعبه المختار والأخص"، لم يكن في مكنته أن يبتلع حكاية الهزيمة الماحقة أمام الآشوريين والبابليين ووقوع يهوه ذاته أسيراً داخل تابوته في يد ذلك الرجل البابلي المتوحش نبوخذ نصر.

فالكهنة كانوا يتعاطون عقار الهلوسة ويهذون بكل ما كان يخطر لهم على بال مدّعين أن يهوه قاله لهم وأنه - لا محالة - فاعله. غير أن يهوه ظل - كلما جد الجد - يطالع "شعبه الأخص" الذي التزم بأن يحارب عنه بصورة ممعنة في الخيبة، وإذ تتداعى في أذهان "شعبه" الصورة الضخمة التي صوّره كهنته ونبييمه بها قبل أن يجد الجد، يتراءى له كإله - في أحسن الأحوال - مكذوب، وفي أسوأ الأحوال، كذوب. ولهذا قال "الشعب" لإرميا: "إننا لا نسمع (لا نصدق ولا نطيع) ما كلّمتنا به باسم يهوه" (إرميا ٤٤ : ١٦).

وربما كان الكهنة والنبييم قد فطنوا إلى شيء من ذلك، لأنهم انخرطوا في محاولة مستيئسة، كما اسلفنا، لتنظيف صورة يهوه وتحسينها وجعلها أكثر استجلاباً للتصديق. غير أنهم - في الوقت ذاته، وبحكم قوة الأشياء - لم يجدوا بمكنتهم أن يتخلوا تماماً عن سلاحهم الرئيسي في مواجهة "الشعب" صلب الرقبة عديم التصديق، فظلوا يجددون الدعاوى القديمة القائلة بأن يهوه سيفعل هذا ويفعل ذاك بأعداء "الشعب"، حتى ولو على حساب يهوه ذاته الذي جعلوه يناقض نفسه مناقضات ليست من شيم الآلهة المحترمة

(*) وهو ما ظل مجرد طموح حتى زمن النبييم: "أكون إلها لكل عشائر اسرائيل وهم يكونون لي شعباً" (إرميا ٣١ : ١).

إطلاقاً كما في جعلهم إياه يتحـول فجـأة مـن منتقـم مـن "الشـعب" بالآشـوريين والبـابليين والمصريين إلى منتقم لـ "الشعب" من المصريين والبابليين والآشوريين انتقاماً بـالغ الفظاعـة، بصرف النظر عن أنه هو الـذي جعلهـم (حسـب هذيـان النبييـم) يفعلـون مـا فعلـوه بشـعبه الأخص وحبيبته اسرائيل انتقاماً منها لـ "خروجها من تحته".

والأدهى والأمر أن "الشعب" نفسه عـاين بنفسـه فـي الواقـع المعـاش كـذب تلـك الجعجعات. فإرميا، مثلاً، قال لـ "الشعب" الذي هـجّ إلـى مصـر فـلاذ بهـا ليـأكل ويعيـش بمأمن وبمنجاة من بغي يهوه وكهنته أن يهوه أقسـم لـه أنـه "سـيجعل وجهـه عليهـم للشـر وليقرض كل يهوذا ويأخذ بقية يهوذا الذين جعلوا وجوههم للدخول إلى أرض مصر ليتغربوا هناك فيفنون كلهم في أرض مصر. ويسقطون بالسيف وبـالجوع ويفنـون مـن الصغـير إلـى الكبير بالسـيف والجـوع" (إرميـا ٤٤ : ١١ و١٢)، وهـو مـا لـم يحـدث، إذ عـاش القـوم وازدهروا ولم يبدهم يهوه بالسيف أو بالجوع، بل صارت لهم جاليـة كبيرة فـي أسـوان(*) وفي منف، وفي نهاية الأمر في الاسكندرية بعد ما أسسها المقدوني.

وبالمثل، أكد إرميا لـ "الشعب" أن يهـوه كلّمـه فـي تحفنحيـس قـائلاً "خـذ بيـدك حجارة كبيرة واطمرها في الملاط الذي في الملبن (قمينة صنع اللبن) الذي عند بـاب بيـت فرعون في تحفنحيس أمام رجال يهوذا وقل لهم: هكذا قال رب الجنود يهوه إلـه اسـرائيل. هاأنا أرسل فأستحضر نبوخذ نصر ملـك بـابل عبـدي وأضـع كرسـيه (عرشـه) فـوق هـذه الحجارة التي طمرتهـا فيبسـط ديباجـه عليهـا. ويـأتي ويضـرب أرض مصـر الـذي للمـوت فللموت والذي للسبي فللسبي والذي للسيف فللسيف. وأوقد ناراً في بيوت (معـابد) آلهـة مصر فيحرقها ويسبيها ويلبس أرض مصــر كمـا يلبـس الراعـي رداءه ثـم يخـرج مـن هنـاك بسلام. ويكسر أنصاب بيت شمس (مكان عبادة اخناتون ومركز لاهوتية هليوبوليـس) التـي في أرض مصر ويحرق بيوت آلهة مصر بالنار" (إرميا ٤٣ : ٨-١٣).

ومن الواضح هنا أنه لا فرعون، ولا آلهة مصر، ولا أحـد مـن المصريـين أسـاء إلـى قوم يهوه الذين لاذوا بأرض مصر طلباً للأمان والمـأوى والطعـام كمـا قـالوا لإرميـا. فليـس

(*) ارجع، في شأن لوذ اليهود بـ "أرض فتروس" (مصـر العليـا) وبخاصـة المسـتعمرة التـي أقاموهـا فـي جزيرة الفانتين، إلى:

Gordon, C.: "The Origin of the Jews in Elephantine", Journal of Near Eastern Studies, Issue # 14 (1955).

Maclaurin, C. : "Date of the Foundation of the Jewish Colony at Elephantine", Journal of Near Eastern Studies, Issue # 27 (1968).

Porten, B.: "The Religion of the Jews of Elephantine in the Light of the Hermopolis Papyri", Journal of Near Eastern Studies, Issue # 28 (1969).

Vincent, A. : "La Religion des Judeo-Arameens d'Elephantine", Paris, 1937.

هناك مجال للتعلل بـ "استعباد المصريين للشعب" في إضفاء سبب يقبله العقل وتجيزه الأخلاقيات يبرر هذه الشهوة المسعورة الى الحرق والتدمير والمحق إلى حد تسمية نبوخذ نصر بـ "عبد يهوه!"، مثلما تعلل مؤلفو أسفار التوراة وأسفار النبييم باستعباد "بني اسرائيل" في مصر أيام الكاهن الآبق موسى في تبرير الكراهية المنبجسة بالصديد لمصر ولكل ما له علاقة بمصر.

إلا أن كل هذه الاعتبارات تظل في جانب، ويظل الكره المتأصل في الروح لمصر في جانب آخر، بعيداً عن كل عقل وكل منطق إنساني أو إلهي وكل أخلاقيات، وهو كره ازداد سعيراً - كما نتبين من تكرار التهديد بالحرق بالنار في نص إرميا - بسبب السطوة التي لا تُبارى التي مارستها آلهة مصر على "شعب" يهوه كغيره من شعوب الشرق الأدنى القديم.

نفس تلك الحزازة النارية نجدها عند ذلك "النبي" الآخر من نبييم عصر السبي، حزقيال :

> "في السنة العاشرة في الثاني عشر من الشهر (دون تحديد الساعة) كان إلي كلام يهوه قائلاً : يا ابن آدم اجعل وجهك نحو فرعون ملك مصر وتنبأ عليه وعلى مصر كلها. تكلم وقل هكذا قال السيد الرب (بعل يهوه): هاأنذا عليك يا فرعون مصر (أيها) التمساح الكبير الرابض في وسط أنهاره الذي قال نهري (النيل) لي وأنا عملته لنفسي. فأجعل خزائم في فكيك وألصق سمك أنهارك بحرشفك وأطلعك من وسط أنهارك وكل سمك أنهارك ملصق بحرشفك. وأتركك في البرية أنت وجميع سمك أنهارك. على وجه الحقل تسقط فلا تجمع ولا تلم. بذلتك طعاماً لوحوش البر ولطيور السماء. ويعلم كل سكان مصر أني أنا الرب"
>
> (حزقيال ٢٩ : ١-٦)

فالرجل محموم يهذي. غير أن هذيانه ليس انبجاساً لصديد الكراهية التقليدية المتخثرة في الروح فحسب، بل هو أيضاً - كما وصلنا مراجَعاً محرراً ملغّزاً - إفصاح ملتو عن غيظ وحشي من الإلاهة ملكة السموات التي أدار "الشعب" ظهره ليهوه وذهب ليعبدها في مصر. ومفتاحنا إلى مسارب المتاهة ذلك "التمساح الكبير الرابض في وسط أنهاره".

(٦/أ/٥) التمساح/التنين "رَهَب" وصديد الكراهية لمصر

فلتكن هذه الكلمات "المقدسة" نقطة البداية في محاولتنا فك طلاسم النص.

ابتداء، كان التمساح الحيوان المقدس للإله سبك (مثلما كان طائر أبو منجل مقدساً للإله تحوت الذي عبده اليونان باسم هرمس)(*)، وقُدِّس بوصفه تجسداً لابن الإلاهة الأم نِتْ/ آست (إيزيس). وفي الأدب الديني المصري وُصف التمساح بـ "عظيم القوة، عظيم الغضب"، وأُسكن (كالأفعوان آمي حمف "القاطن في نيرانه على باخو، جبل الأفق" وهي صورة استخدمت بإلحاح ليهوه" الساكن في نيرانه على قمة الجبل") فوق قمة ذلك الجبل الذي عند مشرق الشمس. وإذ أُدمج سبك في هوية الإله الشمس رع (في عهد الأسرة السادسة، ٢٥٨٧ – ٢٤٥٢ ق.م. حسب تأريخ بردية تورين) اعتبر، مثلما هو جزء من قدرة رع، رمزاً لقوة الفرعون وسرعة بطشه. عُبد سبك في الوجه البحري حيث كانت الفيوم مركزاً رئيسياً لأسطوريته، وفي الوجه القبلي، في كوم امبو حيث أقيم لثالوثه (سبك – حت حور (هاتور) – خنسو) معبد جُسِّد فيه إما على شكل تمساح على رأسه تاج مزدوج من الريش (كما في تمثال من البرونز بالمتحف البريطاني) أو أنتروبومورفيا (تشبيهيا) على شكل انسان برأس تمساح.

فـ "التمساح الكبير الرابض في وسط أنهاره" في نصّ حزقيال تعبير عن : (١) قوة مصر، أي قوة فرعون وسرعة بطشه، و (٢) "رَهَب"، الاسم الشفري لمصر في العهد القديم، وفي الوقت ذاته، إشارة لا لبس فيها للألوهة المؤنثة المُنجبة لتلك القوة المجسدة في رمز التمساح، وبخاصة في الإلحاح على تكرار ذكر المياه والأنهار.

وفي صياغة حزقيال، يذكّر قول يهوه "فأجعل خزائم في فكيك" بمفاخرة يهوه بالمسروق له من مردوخ هازم تيامات (تعامة) تنينة "الفوضى الأولى" والإلاهة الأم البابلية، بقوله "أتصطاد (أنت يا أيوب) لوياثان (= تعامة = رهب) بشص أو تضغط لسانه بحبل؟ أتضع أسلة في خطمه أم تثقب فكه بخزامة؟ (أتقدر أن تجعله) يكثر التضرعات إليك أو

(*) ارجع إلى أفلاطون في محاورة فيدرا، ترجمة فاولر (Fowler: 274C - 275A) حيث ينفي الفيلسوف اليوناني الهراء المروّج عن المصريين كعبدة للحيوانات، إذ يشير إلى أن آلهة المصريين، كآلهة اليونان، كان للإله أو الإلاهة منهم أو منهن "حيوان مقدس"، وهو ما استخدم على نطاق واسع في التشهير بالديانة المصرية الرفيعة بوصفها "عبادة للحيوانات" !

والغريب حقاً أن الأذناب الجوييم هم الذين استماتوا في ذلك، في حين يناقضهم بعض الدارسين اليهود، انظر مثلاً :

"The Living Talmud, Pirke Abot" (the Wisdom of the Fathers), translated and introduced by Judah Goldin, Mentor Religious Classics, The New American Library, 1957.

وارجع أيضاً إلى :

Gaillard, G. : "Les animaux consacrés à la divinité de l'ancienne Lycopolis" Anales du Service des Antiquités de l'Égypte, # 27 (1927) pp. 33 - 42.

و Lycopolis هي أسيوط .

Langton, N. & B. : "The Cat in Ancient Egypt", Anales du Service des Antiquités de l'Egypte, # 40 (1940/41) pp. 993 - 996.

Capart, J. : "Chats sacrés', Chronique d' Egypte, # 18 (1943), pp. 35 - 37 .

(تجعله) يتكلم معك باللين (كما أفعل أنا يهوه)؟ هل يقطع معك عهداً فتتخذه عبداً مؤبداً؟" (أيوب ٤١ : ١ – ٤). فحزقيال تداعت لديه صورة يهوه (متقمصاً الإله البابلي مردوخ) منتصراً على التنين (تمساح مصر) أي على تيامات (تعامة) الإلاهة الأنثى (رهب، في صراعه مع مصر) جاعلاً مصر تتضرع إليه، وتتكلم معه باللين، وتقطع معه عهداً، فيتخذها أمة أبدية له ولـ "شعبه"، ويشفي الغليل القديم.

وذلك، كما لا يخفى، كلام يمكن أن يبدو بعيد المأخذ مغتصباً .. إلى أن يرجع المُنكِر له إلى النصوص "المقدسة" ذاتها.

فالمزمور ٨٧ يقول "أذكر رهب (مصر) وبابل، عارفتيّ. هو ذا فلسطين وصور مع كوش (ميراث لي)" (٨٧ : ٤). والمزمور ٨٩ يهلل ليهوه قائلاً "أنت سحقت رهب (مصر) مثل القتيل. بذراع قوتك بددت أعداءك" (٨٩ : ١). أما المزمور ٧٤ فيزيل أي لبس فيما تعلق بهوية رهب – تعامة – لوياثان، إذ يصدح قائلاً :

"يهوه ملكي منذ القدم فاعل الخلاص في وسط الأرض. أنت شققت البحر (الأحمر) بقوتك. كسرت رؤوس التنانين (المصريين) على المياه. أنت رضضت رؤوس لوياثان (رهب – التمساح – مصر)" (٧٤ : ١٣ و١٤).

فإن راودنا شك، ذهبنا إلى سفر إشعياء لنجد هذا الصياح :

"استيقظي استيقظي البسي قوة يا ذراع يهوه. استيقظي كما في أيام القدم كما في الأدوار القديمة. ألست أنت القاطعة رهب الطاعنة التنين ؟ ألست أنت المنشّفة البحر (الأحمر) الجاعلة أعماق البحر (الأحمر) طريقاً لعبور المفديين (طريقاً لعبور بني اسرائيل)؟" (إشعياء ٥١ : ٩ و١٠)

وفي نفس السفر، نجد هذا الوعد :

"في ذلك اليوم يعاقب يهوه بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان الحية الهاربة الحية المتحوية ويقتل التنين الذي في البحر" (إشعياء ٢٧ : ١).

وهو ما يوضحه سفر أيوب بقوله أن "يهوه لا راد لغضبه. ينحني تحته أعوان رهب (٩ : ١٣) وأنه "(يهوه) بقوته يزعج البحر، وبفهمه يسحق رهب" (٢٦ : ١٢).

في تعليقه على هذا كله يقول اسحق عظيموف، وهو يهودي :

"فكلام المزمور ٧٤ يؤخذ غالباً كوصف رمزي لمعاقبة (يهوه) للمصريين، الممثلين بلوياثان وبـ "التنين"، في زمن الخروج وفلقه مياه البحر الأحمر. وهذا تفسير يقبله العقل من حيث أنه من الملائم شعرياً جعل التمساح (= "التنين") رمزاً لمصر مثلما نجعل نحن في زماننا النسر رمزاً للولايات المتحدة، والدب رمزاً للاتحاد السوفييتي"(٦٦).

"ويعدد المزمور ٨٧ الأمم الوثنية المحيطة بيهوذا (رهب وبابل وفلسطين وصور وكوش).. وفي ذلك النص يبدو "رهب" كتسمية أخرى للحيوان الأسطوري الذي دمّره يهوه عند بدء الخليقة (أي التنين) – كما دمّر مردوخ التنينة تيامات (تعامة) .. إلا أن

"رهب"، تماماً كـ "لوياثان" يمكن أن تستخدم كترميز لمصر، بحيث يكون تقطيع أوصال رهب الذي تغنى به المزمور ٨٩ وإشعياء إشارة إلى معاقبة يهوه لمصر في زمن الخروج.

"والواقع أن تصوير مصر كتنين أسطوري ملائم لمقتضى الحال. فمصر، أساساً، أرض على صفاف النيل، كشريط دائم الخصب في قلب الصحراء شهد بزوغ حضارة عظمى وظل أغنى أرض في العالم لآلاف السنين بفضل النيل الذي يشق طريقه ملتوياً كأفعوان أو كتنين عظيم. ومن هنا كانت الاستعارة في كلام حزقيال مناسبة تماماً لمقتضى الحال عندما أورد ما قاله يهوه عن مصر (= رهب) كتنين عظيم(*) رابض في وسط مياهه .. فاللغة (الأسطورية) التي قد تلائم وصف المعركة بين إله (يفترض أنه) فرض النظام على فوضى الكون وبين وحش تلك الفوضى البدئية (التنين) قد اتخذت مجازاً وُصِفت به المعركة بين يهوه ومصر. ولا ننسى أن حزقيال كتب ما كتب في زمن السبي، ويبدو أن اسم "رهب" كان قد بات مرادفاً مسلماً به لمصر، وهو ما استخدمت فيه التسمية صراحة في المزمور ٨٩"(٦٧).

بعد أن نفذنا قليلاً إلى ما وراء أستار نص حزقيال عن مصر، نعود إلى ما قال ذلك المتنبئ أن يهوه قاله له :

"لذلك قال يهوه: ها أنذا أجلب عليك (يا رهب) سيفاً وأستأصل منك الإنسان والحيوان. فتكون أرض مصر مقفرة وخربة فيعلمون أني أنا الرب .. ها أنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل أرض مصر خرباً خربة مقفرة من مجدل إلى اسوان إلى تخم كوش. لا تمر فيها رجل إنسان ولا تمر فيها رجل بهيمة ولا تسكن أربعين سنة. وأشتت المصريين بين الأمم وأبددهم في الأراضي.. وعند نهاية أربعين سنة(**)

(*) والمشاهد أن المترجمين إلى العربية، من فرط تقوى، غيروا النص من "التنين العظيم" (التسمية كما ترجمت في نص الملك جيمس الذي استشهد به عظيموف) إلى "التمساح الكبير"، فاستدرجتهم تقواهم إلى فضح النص عن طريق ذلك "التمساح" الذي استخدموه بدلاً من "التنين" !.

(**) مما يوقفنا على مدى الاغتصاب والتلفيق في هذيان حزقيال في "تأريخه" المستقبلي الذي جعل تمنياته لمصر في سياقه قرارات إلهية بالخراب الماحق، الورطة السحرية التي تردّى فيها وكان في غنى عنها لولا طبيعة "نبوته" وطبيعة تدريبه الكهنوتي المشرّب، منذ أسس موسى ديانة يهوه، بالشامانية والسحر. وقد تمثلت تلك الورطة في استخدامه للعدد ٤٠ وتحديده خراب مصر بأربعين سنة يردّ يهوه في نهايتها سبي المصريين. فالسؤال الذي يتبادر إلى الذهن (والذي لا شك أن "الشعب" عندما أعلم بتهديدات يهوه لمصر طرحه وربما تناقش في شأنه) هو : لماذا، ويهوه يكره مصر ذلك الكره الذي نضح في تنبوءات النبيين جميعاً، قرر يهوه أن يرد سبي المصريين؟ ولم - وهو الإله القادر المنتقم الجبار - لم يمح ذكر مصر نهائياً ويجعل أرضها قفراً أبدياً و "ينشف" نيلها بغير رجعة؟

السبب، فيما قد نسميه تقنية السحر الكهنوتي، أن العدد السحري ٤٠، سواء كان بالسنين أو بالأيام، عدد الاختبار والتجربة، من حيث أنه حاصل ضرب العدد ٥ (عدد فعل الرحمة الإلهية) في العدد ٨ (عدد فعل الإحياء والتجدد)، كما يوقفنا تقسيم حياة موسى ذاته إلى ثلاث فترات كل فترة منها مرحلة اختبار مدتها ٤٠ سنة وجعل لقائه الرئيسي بيهوه على قمة الجبل متمثلاً في فترتي اختبار كل منهما مدتها ٤٠ يوماً، واختبار يهوه "الشعب" بإتاهته في القفر ٤٠ سنة.

اجمع المصريين من الشعوب الذين تشتتوا بينهم. وأرد سبي مصر وأرجعهم إلى فتروس (الوجه القبلي) إلى أرض ميلادهم ويكونون هناك مملكة حقيرة تكون أحقر الممالك فلا ترتفع بعد على الأمم وأقللهم لكيلا يتسلطوا على الأمم" (حزقيال ٢٩ : ٨ - ١٥).

وقبل أن نتساءل مستغربين لم كل هذا والمصريون لم يكونوا في زمن حزقيال قد أساءوا إلى "الشعب" بل ساعدوه بعونهم إلى "مملكة" يهوذا إبان مقاومتها للهجمة البابلية ثم آووا من هجّ إليهم من بقية يهوذا، من المستحسن الذي قد يساعدنا على فهم سُعار حزقيال أن نتوقف عند تنبوءه بالتمني بخراب مصر من مجدل إلى أسوان. فمجدل كانت حصن الحدود المصري الذي كان مركز عبادة بعل صفون بينه وبين البحر (الأبيض المتوسط، لا الأحمر) كما يخبرنا سفر الخروج (١٤ : ١). وأسوان كانت الموقع الذي لجأ إليه قوم حزقيال اللاثذين بمصر عندما تسربوا إلى "أرض فتروس" (الوجه القبلي)، وأقاموا معبداً للإلاهة الأم الملكة في جزيرة الفانتين. فمنشأ الحزازة هنا ديني، وهو ما يقطع به القول الذي أجراه حزقيال على لسان يهوه بعد الكلام السابق الاستشهاد به مباشرة : "فلا تكون (مصر) بعد معتمداً لبيت اسرائيل مذكّرة الإثم (أي موقظة لديهم آثامهم الدينية القديمة، أي عبادة آلهتها) بانصرافهم وراءهم (مما يجعل "الشعب" ينصرف عن يهوه إلى آلهة مصر وإلاهاتها) فيعلمون أني أنا (وحدي) الرب (الذي يجب أن يعبد)" (حزقيال ٢٩ : ١٦). كما يقطع به أيضاً قول يهوه "أنا الرب تكلمت : (سوف) أبيد الأصنام وأبطل الأوثان من نوف (منف). ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر، وألقي الرعب في أرض مصر. وأخرب فتروس (الوجه القبلي، إذ عدل يهوه عن جعل مصر مملكة حقيرة في فتروس فقرر أن يخربها والسلام) وأضرم ناراً في صوعن (تانيس، صان الحجر) وأجري أحكاماً في نو (أون، عين شمس، هليوبوليس). وأسكب غضبي على سين، حصن مصر (تل الفرمه، بلزيوم، عند مركز عبادة بعل صفون)، واستأصل جمهور نو (كهنة أخناتون). وأضرم ناراً في مصر. سين تتوجع توجعاً ونو تكون للتمزيق ولنوف كل يوم ضيقة" (حزقيال ٣٠: ١٢ - ١٦). فالرجل قد وصل إلى ذروة محزنة من الهياج انتصاراً ليهوه على آلهة مصر بـ

ولما كانت أصول الـ "تقنية" السحرية تقضي بعدم الخلط بين فعل الاختبار والامتحان والتجربة الممثل سحرياً في العدد ٤٠ وبين فعل العقاب الممثل في العدد ٩، فإنه كان من المتعين جعل خراب مصر يدوم ٤٠ سنة يردّ يهوه في نهايتها سبي المصريين، ولكن (فحزقيال لم يستطع تحت وطأة المطلب السحري أن يتخلى عن حقده) إلى فتروس فقط (أي إلى الوجه القبلي فقط، باعتبار الوجه البحري ملكاً لـ "الشعب" نتيجة ليوسف وأرض جاسان وكل ذلك) وكأمة حقيرة هزيلة من أحقر الأمم.

ولا شك أن "الشعب" عاين بنفسه مدى كذب حزقيال ويهوه عندما عايش عدم تحقق تلك النبوءات كما عاين كذب نبوءة إرميا التي أعلن فيها أن يهوه قال "ها أنذا أدفع فرعون" حفرع "ملك مصر ليد أعدائه وطالبي دمه (البابليين) كما دفعت صدقيا ملك يهوذا ليد نبوخذ نصر" (إرميا ٤٤ : ٣٠). غير أن نبوخذ نصر لم يحتل مصر أو يدمرها، بل ازدهرت مصر وعاينت وهي بمأمن ما فعله البابليون بتابوت يهوه وبكهنته.

"التنبوء" عليها، باعتبار أنه بمجرد التنبوء سيحدث ما تنبأ به فـ "يسقط شبان مصر بالسيف" ويذهب المصريون إلى "السبي"، و "يظلم النهار في تحفنحيس (وهنا بيت القصيد) عند كسري أنيار مصر (جمع نير) هناك وتبطل فيها كبرياء عزها وتغشاها سحابة وتذهب بناتها إلى السبي. (وإذا) أجرى أحكاماً في مصر، يعلمون أني أنا (لا أحد غيري) الرب" (حزقيال ٣٠ : ١٧ - ١٩).

فحزقيال، هائجاً كالبركان، قاذفاً شواظ غضبه، قد شرّق بنا وغرّب، ورمح من بيلزيوم ومجدل إلى أسوان كذئب يغطي الزبد شدقيه، وخبط برجله ونطح برأسه كما قال في موضع آخر من سفره أن يهوه أمره أن يفعل، ثم عاد بنا لاهثاً مستنفداً لينحط في النهاية عند تحفنحيس تلك المتعبة التي حط من كان قد نجا من القتل أو السبي من "شعب" يهوه رحاله عندها وبصحبته إرميا "النبي"، وأطلق عليها كنية لإلاهته ملكة السموات، منصرفاً إلى عبادتها، قائلاً لإرميا أن "يحل عن سماواته" هو وإلهه الجعجاع الذي لم يستطع أن ينفذ وعداً واحداً من وعوده، فلم يُبِدْ الكنعانيين، ولم يحارب عن "شعبه" فيدحر له الآشوريين ثم البابليين، بل سقط أسيراً في أيدي البابليين معلباً داخل صندوقه السحري.

وكان من الطبيعي أن يجن جنون حزقيال كأرميا وككل أولئك "الأنبياء" الذين انكشف مصدر رزقهم وتعرى بهذه الطريقة غير الكريمة، وهكذا فانه - مستيئساً - أكد لـ "الشعب" أن" اليوم قريب. يوم يهوه قريب ويوم غيم. يكون وقتا للأمم. ويأتي سيف على مصر ويكون في كوش خوف شديد عند سقوط القتلى في مصر ويوم تؤخذ ثروتها وتهدم أسسها .. يسقط عاضدو مصر وتنحط كبرياء عزتها. من مجدل إلى أسوان يسقطون فيها بالسيف .. هكذا قال يهوه : إني أبيد ثروة مصر بيد نبوخذ نصر ملك بابل. هو وشعبه عتاة الأمم يؤتى بهم لخراب الأرض فيجردون سيوفهم على مصر ويملأون أرضها قتلى. وأجعل أنهارها يابسة وأبيع الأرض ليد الأشرار وأخربها للغرباء. أنا يهوه تكلمت .. ها أنذا على فرعون مصر فأكسر ذراعيه القوية والمكسورة وأسقط السيف من يده. وأشتت المصريين بين الأمم وأذريهم في الأراضي. وأشدد ذراعيّ ملك بابل وأجعل سيفي في يده. وأكسر ذراعي فرعون فيئن قدام ملك بابل أنين الجريح. وأشدد ذراعي ملك بابل. أما ذراعا فرعون فيسقطان فيعلمون أني أنا الرب حين أجعل سيفي في يد ملك بابل فيمده على أرض مصر. وأشتت المصريين في الأراضي وبين الأمم فيعلمون أني أنا الرب" (حزقيال ٣٠ :٣ - ٦ و١٠ -١٢ و٢٢ -٢٦).

وربما شعر حزقيال بشيء من الراحة بعد أن أرغى وأزبد بهذا الهراء، إلا أنه - في الحقيقة - لم يؤد خدمة ليهوه، بل كشفه بشكل أكبر وأشد إيذاء كإله مكذوب جعجاع.

ولندع عظيموف، وهو - كما قلنا - يهودي، يعلق على هذيان حزقيال وغيره:

"تنبأ حزقيال بأن المصريين سيسبون ويشتتون بين الأمم لكنهم سيعودون ليصبحوا مملكة حقيرة بعد أربعين سنة .. إلا أن ذلك لم يحدث. فنبوخذ نصر لم يغز مصر، والمصريون لم يسبوا، ولم تكن بهم حاجة إلى أية عودة بعد أربعين سنة.. ولم

تدمر مصر حتى عندما غزاها الفرس بعد أكثر من نصف قرن من تنبوءات حزقيال وتهديداته ولم يتعرض المصريون لأي سبي. حقيقة أن نبوخذ نصر حاول أن يجتاح مصر سنة ٥٦٨ ق.م. إلا أن شيئاً مما تنبأ به حزقيال لم يحدث وظلت مصر هي مصر لم يلحقها ضر" ! (٦٨)

وبطبيعة الحال، مهما كان "الشعب" ساذجاً وبدوياً ومتخلفاً لم يكن خلوا من الفطنة على الأقل، ولم يكن حرياً بأن تفوته ملاحظة التناقض الصارخ بين جعجعة يهوه على ألسنة نبييمه وبين الواقع المعاش. فذلك "الشعب" المبارك عاش بمصر إلى ما بعد الاسكندر المقدوني وعاين بنفسه أن شيئاً مما أكد إرميا وحزقيال وغيرهما أن يهوه أعلن أنه سيفعله بمصر لم يحدث.

فنبوءات "نبييم" يهوه ظلت، كالمعبود نفسه، مصنوعة. وإن كان قد أمكن الادعاء بأن منها ما تحقق، فإن ذلك الادعاء بات ممكناً بفضل: (١) تأليف المتنبئ نبوءته "في تاريخ لاحق" لما "تنبأ به"، والادعاء بأن التنبوء كان قبل الواقعة المتنبأ بها(*). وذلك كان ممكناً وسهلاً ميسراً في زمن "النبييم" لأن أحداً في ذلك الوقت لم يكن ينشر "تنبوءاته" في الصحف أو يدلي بها كتصريحات للراديو أو للتلفزيون، حتى لا يختلط الأمر على "مؤمن" قد يزعجه القول، و(٢) التحرير اللاحق لزمن "التنبوءات" بوقت طويل للغاية الذي جعل من الممكن والسهل الميسّر التأكيد بأن هذا "النبي" أو ذاك أجرى هذا الحديث أو ذاك مع يهوه، أو "تنبأ"، قبل الحدث المتنبأ به.

والملاحظ في تأليف العهد القديم وبخاصة في تأليف أسفار النبييم التي تطفح صفحاتها بسيناريو صراع يهوه من أجل "شعبه" مع كل "الأمم"، أي كل النوع البشري عدا "شعبه" ("إن ليهوه سخطاً على كل الأمم وحموا على كل جيشهم قد حرّمهم دفعهم للذبح" إشعياء ٣٤ : ٢) أن ذلك الصراع في حالة كل أمة من تلك الأمم، ما عدا مصر وكنعان، صراع قُوى، صراع أرضي دنيوي نابع من حزازة عشائرية ما، أو حسد حضاري ما، أو من اشتهاء لما لدى الغير، أو من الخوف من خصم ذي قوة عسكرية مهدِّدة، أو نابع من اسباب تجارية (كما في حالة صور، على سبيل المثال)(**). أما في حالة مصر، فهو نابع من كل ذلك، وفوق كل ذلك - بشكل جوهري واساسي - من صراع ديني بدأ (من جانب يهوه وصنّاع اسطوريته) منذ اللحظة التي بدأ فيها موسى سرقاته لحساب يهوه من خزانة الديانة المصرية. وأما في حالة كنعان، فنجد عامل الصراع الديني ماثلاً بنفس القوة، بالإضافة إلى الضيق الذي لا حدود له ببقاء الكنعانيين أحياء على أرضهم التي باتت، بيهوه، أرض "الشعب".

(*) انظر تناولنا لهذه الحيلة من حيل النبييم في "المسيحية والتوراة" تحت بند "حزقيال" وبخاصة صفحة ٢٩٦.

(**) ارجع في ذلك إلى المرجع السابق نفسه، "المسيحية والتوراة" ص ص ٢٩٠ و ٣٠٠.

ونحن، إذا ما تفكرنا عقلانياً، لا غيبياً(*)، في الظواهر التي لا يمكن أن تغيب عن العقل غير المغيّب في ذلك السيناريو الدموي، ستستوقفنا بغير شك ظاهرة الكراهية المفعمة بصديد شديد السُميَّة لمصر بالذات (جنباً إلى جنب مع الكراهية لكل بلد آخر كان هدفاً للسطو أو الإساءة أو مطمحاً لجشع صناع ديانة يهوه واشتهائهم لكل ما لدى الغير)، وهي ظاهرة قد تفسّر لنا، متى أمعنا النظر فيها، الكثير من ظواهر السلوك الذي ما من سبيل إلى وصفه إلا بالسيكوباثية والذي ظلت تباغتنا به في حكايات العهد القديم الشخصية الروائية الفذة التي أبدعها موسى ونمّاها ورثته اللاويون باسم "يهوه إله اسرائيل".

فـ "الشعب" عندما "سلب المصريين" - قبل خروجه أو بالأصح طرده من مصر بسبب أمراضه الجلدية والتناسلية التي يعددها ويشرحها تفصيلاً سفر اللاويين - بتعليمات محددة من يهوه، كُظّ له تاريخه الديني بكراهية وحشية لمصر والمصريين انسكبت على كل صفحة تقريباً من صفحات العهد القديم زبداً يغطي الأشداق وناراً وشهوة افتراس. وعندما اغتصب له كهنته القادة موطناً على أرض ليست له زاحم عليها أصحابها الكنعانيين أُفعمت له أسطوريته الدينية بكراهية تجسدت في مطمح أساسي هو إبادة الكنعانيين.

وكما "الشعب"، كان "الإله". فهو - عندما اختلسه موسى من مضيفيه المديانيين - امتلأ رأسه من سرقات موسى لحسابه من الديانة المصرية بفكرة محو ماضيه كوثن قضيبي عن طريق إبادة المؤابيين والمديانيين(**).

وعندما سدر ورثة موسى اللاويون في سلب خصال وخصائص وقدرات وأسطوريات كل من طالته أيديهم أو سمعوا به من آلهة وإلاهات الشرق الأدنى القديم، سواء من مصر أو من كنعان أو من سومر أو من بابل أو من آشور، أو حتى من فارس، ظل يهوه يغلي كبركان آمراً بإبادة الآلهة والإلاهات أصحاب وصاحبات ما سرق له: "تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتحرقون سواريهم (أشيراتهم) وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان" (تثنية ١٢ : ٢ و٣).

هذا الضرب من الغرور الكوني الذي يستثير العقل غير المغيَّب في ضباب التصديق إلى التساؤل: وبأي حق ؟ غرسه كبذرة مسمومة الكاهن الأبق سارق ديانته الأصلية موسى فأثمر وأينع كراهية مسعورة سبح على عبابها يهوه وكهنته وتسربت من منبعها اليهيوي إلى

(*) و "غيبياً" هذه لفظة وثيقة الصلة لغوياً بلفظة "غباء"، متى تنبهنا إلى معنى "غبا الشيء عليه" أي خفي عليه ولم يعرفه، وتوقفنا عند كون "الغباء" يعني الخفاء من الأرض، وعند كون "تغبية الشيء" تعني ستره أو إخفاءه.

(**) "ثم كلم يهوه موسى قائلاً ضايقوا المديانيين واضربوهم لأنهم ضايقوكم بمكائدهم التي كادوكم بما في أمر بعل فغور"! (عدد ٢٥ : ١٦ و١٧).

قلوب وعقول كل من احتك "الشعب" بهم أو عاش بين ظهرانيهم أو جاورهم فانقلبت وبالاً على "الشعب" على مر عصور التاريخ.

وبطبيعة الحال، يظل في مكنة العقل الورع المرتعب المغيَّب في هيولى التصديق أن يحاول تلمس عذر أو مبرر لكل ذلك في حكاية أن يهوه = الإله الواحد القهار وأنه كان من حقه وهو كذلك أن يأمر عباده بأن يدمروا ويحرقوا ويصحنوا الآلهة الرديئة الوثنية الأخرى.

غير أن الدراسة المقارنة، بمنجاة من التغييب والغباء، تظل تكشف عن أن الأمر ليس ولم يكن كذلك، وتظل توقف العقل الراغب في المعرفة، لا في الاختباء كالفطر في مكان معتم رطب ما، على أن يهوه الوثن القضيبي المغمور الذي التقطه موسى من عبادات المؤابيين والمديانيين لم يصبح إلهاً فخيماً إلا تحت أكداس من المسروقات من تلك الآلهة الرديئة التي دعا مؤلفو أسطورة يهوه إلى حرقها وردمها طمساً للأصول التي نهبوا منها بغير حساب.

إزاء هذه الخلفية وحدها، خلفية السلوك الدارج الذي يلاحظه كل من له عينان في رأسه لدى كل من سرق من إنسان آخر أو "سلبه" أو نهب ما عنده، سلوك العدوانية المشربة بالكره والرغبة في التمزيق وشرب الدم من جانب السارق تجاه ضحية السرقة أو السلب أو الإساءة، يمكننا أن نجد إطاراً يقدر العقل على التعامل في سياقه مع المفارقة الممعنة في الغرابة والصفاقة (الهوتسبا) المتمثلة في أن "إلها" كهذا لُفق تلفيقاً أو رقع ترقيعاً من نتف ومزق وشظايا انتزعت من سياقها الحضاري والديني نهباً من حشد عميم من آلهة وإلاهات الشرق الأدنى القديم، بات بوسعه أن يدعو بهذه القوة على ألسنة صانعي أسطوريته إلى اغتيال ضحاياه من معبودات الأقوام المتحضرة التي تسول كهنته من عباداتها كل ما كوموه على وثنه الحجري من فخامة إلهية.

وبطبيعة الحال، لم يكن في كل ذلك التلفيق الكهنوتي ما يدعو أحداً للالتفات اليه ومحاولة تفكيكه كيما يفصح عما انبنى عليه من سطو، لولا أن طبيعة العملية التي انخرط فيها "رجل الآلهة" موسى جعلت "الشعب" ومعبوده يخرجان من جوفه ليتحولا إلى شبه طوفان ظل يجتاح كل ما حوله إلى أن وصل إلى ذروته في عملية استيلاء الحركة الصهيونية على ذلك التلفيق لتستخدمه في تحقيق مخططها الرامي إلى رفع لواء يهوه على كوكب الأرض بأسره. ونحن متى تفكرنا فيما يوقفنا عليه "التاريخ" المتضمن في أسفار العهد القديم من إمكانية خلق وحش دموي من معبود مخلّق اصطناعياً، وتدبرنا الحقيقة الماثلة في أن ذلك الوحش الإلهي ما زال يفعل فعله بنفس الدموية القديمة في زماننا بالرغم من أن قلة قليلة من "الشعب" فقط هي التي ظلت متشبثة بفكرة حيازة "شعب مختار أخص" لإلهه الخاص به، قد يبيت بوسعنا أن نستبصر بمدى الغرابة في أن إيمان "المؤمنين" من غير "شعب" يهوه، أي من الأغيار الجوييم، هو الذي بات سلاح الحركة الصهيونية بالغ المضاء في المعركة التي تخوض غمارها سعياً إلى السطوة الكوكبية. فقديماً، كانت حيازة

"الشعب" لإلهه الخاص به، رب الجنود، رجل الحرب، ملك الآلهة، ورب الأرباب، يهوه، هي التي مكّنت صناع الديانة من إطلاق ذلك "الشعب" كقطيع ذئاب مفرط في الوحشية ليحققوا عن طريق دمويته مآربهم السياسية والاقليمية والمتعلقة بأخذ كل ما استطاعوا التطلع إليه مما بيد الغير. أما في زماننا الأغبر والملتوي، فإن "الشعب"، وإن ظل على استعداد للاستمتاع بكل ما توفره له نجاحات الحركة من مكاسب متعلقة بالاستيلاء على الأرض وانتزاع الثروة، لم يعد يفعل على هدى تصور يوهمه بأنه حائز لـ "رب الجنود" أو أي شيء من ذلك الهراء القديم، بل على هدى يقينه بأنه حائز لما هو أخطر من يهوه، حائز لذلك الوحش البشري، الذي تشوّه الدين فيما يخصه فتحول إلى عبادة يهوه في صورته الأصلية القديمة التي بات "شعب" يهوه ذاته يدرك مدى زيفها، بفضل حيازة الحركة لأرواح وعقول وضمائر "شعب" يهوه الآخر، الشعب الأميركي الذي – بفضل عبرنة البروتستانتية وبفضل غوغاة صناعة السينما وصناعة النشر وصناعة الإعلام – وضع مقوده راضياً ملتذاً في يد "شعب" يهوه والحركة التي تستخدمه لحسابها(*).

وهذا كله قد يبدو للعقل المغيّب "الطيب" التقي كافتراء وتجديف على ألوهة إله الصلاح والخير يهوه. إلا أنه لا يمكن أن يبدو كذلك إلا في غياب الحقائق الموضوعية الكاشفة عن الكيفية التي خُلّق بها اصطناعياً كوحش فرانكشتاين الذي جمّع من خلّقه جسده من أشلاء سرقت من أجساد عديدة.

ولنعد، مثلا، إلى الإلاهة الكنعانية عانات /رحماية/ الرحم التي غُيِّب ذكرها من سيرة يهوه تغييباً شبه كامل لم يكد يخدش سطحه الصلد إلا كون اسمها، عانات، أُطلق على مسقط رأس النبي "اليهيوي" إرميا، فبات اسم المكان "عاناتوث" أي بلدة عانات، وكونه بقي أيضاً في اسم مركز آخر لعبادتها هو "بيت عانات".

(٦/ أ/ ٦) أمجاد حربية سرقت من عانات ليهوه "رب الجنود"

هذه الإلاهة أو الربة، التي أدمجت في هويتها من تجليات الأم العظمى آست (إيزيس) كل من حت حور وسخمت، دللها عبادها الكنعانيون، رغم دمويتها، باسم "الصبية"، "البنّية" وانتشرت عبادتها في كل مكان من كنعان، شرقاً وغرباً، وشمالاً من أطراف الأرض التي اغتصب فيها مستقر لسبط دان، وجنوباً في الأردن حيث دعي مركز عبادة العمونيين (بني عمي سلالة مضاجعة المحارم بين لوط وابنته الصغرى، تكوين ١٩ : ٣٨) لها باسم الـ "ربة" (تثنية ٣ : ١١، وإرميا ٤٩ : ٢ و٣)، وهو الموقع الذي بات معروفاً في زماننا باسم عمان (من أصل "بني عمي")، عاصمة مملكة الأردن.

(*) ارجع الى استظهارنا لأبعاد هذه الحيازة المعاصرة للمُهْلِكْ اليهيوي ممثلاً في "أمريكا" بكتابنا "المسيحية والتوراة"

عانات هذه، رحماية، الرحم، الصبية، البنية، والربة، نهب صانعو أسطورية يهوه منها بتوسع، وبخاصة من وجهها الذي وصفت بسببه بـ "الرهيبة، السابحة في دم خصومها وخصوم إيل"، فتضمنت قائمة المسروقات منها، غير الرحم الذي سرق من كل ألوهة مؤنثة لهوية يهوه الأندروجينية(*) كأب الآباء وأم الأمهات، هذه الأمجاد الحربية :

نصوص رأس شمرا(*)	**نصوص العهد القديم**
عانات وحدها تقاتل	"فرأى يهوه أنه ليس من نصير (إلا ذراعه) فخلصت ذراعه لنفسه" (إشعياء ٥٩:١٦)
عانات مشتعلة بالغضب	"فحمى غضب يهوه" (عدد ٢٢:٢٢) "ولبس ثياب الانتقام (لـ) يجازي مبغضيه سخطا وأعداءه عقاباً" (إشعياء ٥٩: ١٧ و١٨) "لأن ليهوه سخطاً على كل الأمم وحمواً على كل جيشهم" (إشعياء ٣٤ : ٢)
عانات تمحق سكان الغرب وتطأ سكان الشرق	"فيخافون من المغرب اسم يهوه ويخافون من مشرق الشمس مجده" (إشعياء ٥٩ : ١٩)
(عانات) تملأ الأرض جثثاً	"ملأ جثثاً أرضاً واسعة" (مزمور ١١٠ : ٦) "فقتلاهم تطرح (حول قدميه) وجيفهم تصعد نتانتها" (إشعياء ٣٤ : ٣) "وقد امتلأت الأرض دماً وامتلأت المدينة جيفاً" (حزقيال ٩:٩)
(عانات) تحتها الرؤوس تتدحرج كالكرات	"(وحول قدميّ) رؤوس قواد العدو" (تثنية ٣٢ : ٤٢) "سحق رؤوسهم" (مزمور ١١٠ : ٦)

(*)ويهوه، في لحظة تطوّح من جانب إشعياء "النبي"، يباغتنا بهذه المصارحة الكاشفة لتلك الهوية الأندروجينية (المذكرة/ المؤنثة): "كالوالدة (كالمرأة قد جاءها المخاض) أصيح، أنفخ وأنخر (كالثور = الذكر الفحل) معاً" ! (إشعياء ٤٢ : ١٤).

وهو ما يعود يهوه فيؤكده مرتين على لسان ذلك المتنبئ بقوله "أنا الألف وأنا الياء (الأوميجا)" التي عولجت في الترجمة العربية إلى " أنا الأول وأنا الآخر" (إشعياء ٤٤ : ٦، و٤٨ : ١٢) وهي تورية لفظية لـ "أنا القضيب المنتصب وأنا الرحم" = "أنا الأب وأنا الأم".

(عانات) حاصدة الرؤوس	"أرسلوا المنجل لأن الحصاد قد نضج" (يوئيل ٣ : ١٣)
(عانات) تنتفخ أعطافها زهواً بانتصارها وهى تحصد	"ثم نظرت وإذا سحابة بيضاء وعلى السحابة جالس شبه انسان له على رأسه إكليل من ذهب وفى يده منجل حاد. وخرج ملاك آخر من الهيكل يصرخ بصوت عظيم إلى الجالس على السحابة أرسل منجلك واحصد لأنه قد جاءت الساعة للحصاد" (يوحنا اللاهوتى ١٤:١٤ و١٥)
(عانات) تخوض حتى الركبتين فى الدم سابحة فى دم خصومها الصرعى وقد تخثر	"يهوه يغسل خطواته بدم الأشرار" (مزمور ٥٨:١١) "لكى تصبغ رجلك بالدم (يا يهوه)" (مزمور ٦٨ : ٢٣)
(عانات) خائضة فى الدم حتى الركبتين سابحة حتى العنق فى دماء خصومها	"أسكر سهامى من الدم .. دم القتلى والسبايا" (تثنية ٣٢ : ٤٢) "وتسيل الجبال بدمائهم" (إشعياء ٣٤:٣) "لأنه قد روى فى السموات سيفى من الدم.. ليهوه سيف قد امتلأ دماً لأن للرب ذبيحة.. وذبحاً عظيماً" (إشعياء ٣٤ : ٥ و٦) "أنا أدعو السيف على كل سكان الأرض" (إرميا ٢٥ : ٢٩) "ويرتوي(سيف يهوه) من دمهم لأن ليهوه ذبيحة عند نهر الفرات" (إرميا ٤٦ : ١٠)
(عانات) تأكل لحومهم حتى الشبع	"ويأكل سيفى لحماً" (تثنية ٣٢ : ٤٢) "فيأكل السيف ويشبع" (إرميا ٤٦ : ١٠) (وكما الإله، كذلك "شعبه": "رب الجنود يحامى عنهم فيأكلون (لحوم الأسرى) ويشربون (دمهم) كما من الخمر ويمتلئون كالمنضج وكزوايا المذبح" (زكريا ٩:١٥) (فـ "الشعب"، كإلهه، يفترس أعداءه، يأكل لحمهم ويشرب دمهم، مصداقاً لوصف التوراة إياه كشعب

"لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى" (عدد ٢٣ : ٢٤)

(عانات) يترجرج باطنها بالضحك "الساكن في السموات يضحك" (مزمور ٢:٤)
"فأنا أيضاً أضحك عند بليتكم" (أمثال ١:٢٦)

(٦/أ/٧) "ياهو عانات"، يهوه الذي لعانات

ففي محاولتهم تصوير يهوه لـ "الشعب"، ولأعداء "الشعب" كنوع من الحرب النفسية التي مارستها شعوب عديدة تخويفاً لأعدائها بضراوة آلهتها، اختلس صانعو أسطورية يهوه بتوسع، وبقدر من الهوتسبا ليس فيه ما يثير استغراب أحد، من عانات ومن غيرها من إلاهات الشرق الأدنى القديم اللواتي تزاوجت في هوياتهن ألوهة الأمومة الكونية وألوهة الشراسة الدموية الكونية أيضا، كسخمت، وعانات، واينانا السومرية، وعشتار البابلية، غير أنه بالنظر الى التأثر العميق، في صوغ صورة يهوه بالاختلاس من أسطورية أوغاريت (رأس شمرا) ومن صورة إيل الذي كان أبا لعانات/ رحماية وبعلاً (زوجاً سيداً) لها في آن معاً، بدا التأثر اليهيوي بالمسروق من عانات شديد الوضوح فيما تعلق بمكونات الجزئية الحربية البطولية من صورة يهوه رجل الحرب ورب الجنود. وهو ما لا ينبغي أن يكون فيه ما يدعو الى استغراب أو إنكار. فالبرديات باللغة الآرامية من مستعمرة "الشعب" الدينية بجزيرة إلفانتين قرب أسوان تقطع بأن من هجّوا الى مصر ممن كان من المفروض أن يظلوا " تحت يهوه " في كنعان، هرباً من عواقب خراب "المملكتين"، ولم تفلح في جعلهم يعودون الى "أرض اللبن والعسل " نصائح إرميا وتهديداته أو انفجارات حزقيال البركانية، عبدوا – جنبا الى جنب مع معبودات مصر – الإلاهة الكنعانية، "الصبية "، "البنّية"، رحماية/ عانات بوصفها أصلا له فرع اسمه يهوه، باسم ياهو عانات، أي ياهو الذي لعانات.

ولا منفذ هناك إلى فهم الكيفية التي انتهى بها يهوه الى حيث أصبح تفرعاً لعانات الا العودة الى مصر، وهي التي نجد حكاية يهوه مرتبطة بها ارتباطاً لا انفكاك له، فهو يدور يدور ثم يعود اليها، إذ هي الأرض التي خُلّق فيها اصطناعياً مما نُهب له من كنوزها الدينية.

إثر ما سمي بـ " الخروج" من مصر، يحكي مؤلفو سفر ذلك الخروج أن "يهوه قال في نفسه " أن " الشعب قد يندم على " خروجه" من مصر اذا ما التقى بالفلسطينيين وجهاً لوجه فاشتبك في حرب معهم. وبصرف النظر عن أن ذلك هراء كهنوتي، وُضع على لسان يهوه للتعمية عن السبب في نكوص "الشعب" عن السير قدماً وعودته وراءً إلى مصر، فإنه ينكشف عواره بسهولة متى تذكرنا أن يهوه – طبقا للحكي – إله محارب فخيم

ورب جنود ورجل طعان ونـزال وكل ذلك وأنـه - طبقا لتأكيدات موسى لـ"الشعب" - كان هو الذي يحارب الخصوم الأشرار ويدحرهم أمـام "شعبه"، وبذا لـم يكـن هنـاك مـا يمكن أن يجعل "الشعب يخاف اذا رأى حربا"- نقول أنه بصرف النظر عـن أن ذلـك كلـه هراء من هـراء كثير غيره، تؤكد كتابات العهد القديم "التاريخية" ذاتهـا أن مـن دعـوا بـ"الشعب" على سبيل التشاعر والصفاقة لم يدوروا على أعقابهم عائدين الى مصر لأن يهـوه خاف عليهم من الاصطدام بالفلسطينيين بل لأنهم وقد افتقدوا أمن مصر وخيرها الوفير (كما تقطع هبات تمردهم على موسى وهرون تبعا للحكي) لم يستطيعوا مواصلة السير في الطريق التي أراد موسى أن يقودهم فيها بعد الطرد فهرولوا عائدين ليلوذوا بحمى القوة الغيبيـة التـي كانوا يعبدونها باسم بعـل صفون(*).

في زمن موسى، كان بعل صفون ذاك منافساً خطراً ليهوه. لكنه - فيما بعد، عندما انخرط ورثة موسى من الكهنة اللاويين في العملية الشاسعة من السطو الديني التي لـم يكـن منها مهرب حتى لا ينصرف "الشعب" عن كهانتهم إلى كهنوت من دعوا بإصرار بـ "الآلهة الغريبة والدخيلة"، أو يستدير فيذبحهم - تعـرض لمـا تعرض لـه غـيره مـن "الآلهـة الغريبـة والدخيلة"، فسُرقت قدراته كإله عواصف ومطر وخصب، وغُيّب في جوف يهوه(**).

ولما كان بعل صفون - الذي ابتلعه يهوه - بعلاً لعانات فـي أسـطورية أوغـاريت، فإنه لم يكن من المستعصي أسطورياً على "الشعب"، وقد خلط يهوه ببعلٍ صفون فغيِّب هذا في هوية ذاك، أن يرى في عانات زوجة لبعل يهوه أو ياهو، ولكن - نظراً لأقدمية معبودات آبائهم، الذين طُردوا من مصر - مع إعلاء عانات على يهوه (وهو ما اتسق مع اشتعال غـيرة يهوه من كون "الشعب"، حتى داخل هيكله، سـجد أمـام الإلاهـة وأدار لـه القفـا") وجَعْـل ذلك البعل يهوه فرعاً لها.

وإن كان "الشعب" قد فعل ذلك أيام كان في أورشـليم، فإنـه - عندمـا لاذ بمصـر وأقام له مستعمرة دينية في أرض "فتروس"، أي الوجـه القبلـي وأخـذ يحـرر البرديـات فيهـا باللغة الآرامية - كان مـن الطبيعـي أن يـزداد ارتمـاء فـي حضـن ملكـة السـموات. فهـو - بتواجده في مصر - مارس العبادة في رحاب الإلاهة الأم العظمى التي من عبادتها اسـتمدت عبادات تجلياتها الكنعانية(***).

فكما قلنا، كانت هناك تلك الاستماتة في إخفـاء مصـادر المسـروقات - وقائمتهـا طويلة لا تنتهي - إلا أنه ظلت هناك أيضاً تلك الخصلـة الملحوظـة لـدى مؤلفـي ومحـرري "الأسفار المقدسة"، وهي خصلة التورع، متى أخذنـا بتفسـير فرويـد لمسبباتها، أو خصلـة الإهمال والتخبط تحت وطأة الكم المسروق وتنوعه، فيما يقوله جريفز وباتاي، مثلاً:

(*) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٢٤٥ - ٢٥٠.
(**) انظر استظهارنا لاختلاس الهة أوغاريت بالفصلين (٨) و (٩) من الباب التالي، أدناه.
(***) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٢٣٩ - ٢٥٢.

"(المشاهد) أن النبييم ومؤلفي المزامير اتصفوا، في شأن الأصول الوثنية لما ظلوا يستعيرونه، (وهذا تعبير مهذب عن "يسرقونه") بنفس القدر من الإهمال والافتقار إلى الحيطة الذي اتصف به الكهنة في شأن ما لم يكفّوا عن اقتباسه (= سرقته) من الشعائر والطقوس الوثنية لطقوس وشعائر (= يهوه). ولذا يظل السؤال الحيوي هو: تقديساً لمن إذن ينبغي أن ترتل نبوءات النبييم ومزامير المزمِّرين، وفي خدمة من ينبغي أن تمارس هذه الشعائر والطقوس؟ (الذي يقوله السفر القديم) أنه متى كان ذلك تقديساً ليهوه إيلوهيم، لا لعانات أو لبعل أو لتموز، فإن الأمر يكون صائباً سليماً وعلى ما يرام من حيث التقوى" !(٦٩).

فبفضل ذلك "الإهمال" أو التيه، من جانب المشتغلين بعمليات "الاستعارة" و "الاقتباس"، في متاهات ما ظلوا يحفرونه حول مصادر المسروقات من سراديب الإتاهة، ظلت الإلاهة تطالعنا من تلافيف الحكي، رغم البعثرة المتعمدة لشظايا صورتها المهمشة طمراً لها في النصوص.

(٦/ب) عشيرة، سيدة البحر

(٦/ب/١) عشيرة/ إيلات

وهكذا فإنه عندما أجرى المؤلفون هذه التعليمات الصريحة على لسان يهوه في سفر التثنية:

"تقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار" (٧ : ٥)

كشفوا، بما لم يدع كبير مجال للمراوغة، عن أن وجهاً بالغ الأهمية من أوجه الصراع الملحمي مع "الآلهة الغريبة والداخلية" التي وصفت بأنها "محدثة نعمة"، أي "حديثة عهد بالظهور"، كان ناشباً مع الإلاهة العظمى، ملكة السموات، في تجليها الكنعاني الرئيسي، الذي عرف باسم عشيرة (أشيرا التوراة)، وزوّدونا - في الوقت ذاته - بمثال على الحيلة المسكينة بعض الشيء التي أسلفنا الإشارة إليها، وهي الاجتهاد في طمس ذكر الإلاهة من خلال الخلط المتعمد بين هويتها وبين "الأشيرا" أو الصارية.

وذلك اجتهاد تجسد، على الصعيد العملي، في "عمل ما هو مستقيم في عيني يهوه" بإزالة وجود الإلاهة "جسدياً" عن طريق قطع صواريها وحرق تماثيلها بالنار محواً لها من طريق يهوه لئلا تثير غيرته.

والمشاهد، نتيجة لهذا "السير في طريق يهوه" أنه - باستثناء الترافيم واللوحات المعدنية الصغيرة المسماة بـ "لوحات عشتارت" (وكلها أدوات عبادة منزلية يبدو أن كونها كذلك بالإضافة إلى صغر حجمها جعلاها بمنجاة من ضراوة أتباع حركة "يهوه وحده") - لم يبق إلا أقل القليل النادر من العدّة الشعائرية لعبادة الإلاهة في كنعان. وذلك ما لا غرابة فيه. فعبادة الإلاهة في كنعان - كنتيجة مباشرة لارتباطها بعبادة الإلاهة الأم العظمى آست، وبالذات من خلال تجليها المثنّى حت حور (هاتور)/ سخمت - كانت ذات ارتباط وثيق

بالوجه الشجري الذي جعل من حت حور "إلاهة الجميزة الجنوبية". ولذلـك، ظـل الترمـيز المجسد للإلاهة شجرياً، إما بالأيكـات أو الغيضـات، وإمـا بـ "الأشـيريم" (الصـواري) أي الأعمدة الخشبية والتماثيل المصنوعة من خشب شـجرة الجمـيز. ولذلـك كـانت تعليمـات الكهنة التي أجروها على لسان يهوه آمرة بـ "قطع السـواري وحـرق التمـاثيل بالنـار" (تثنيـة ٧ : ٥). وكما هو واضح لا "يقطع" إلا ما هو خشبي (فما هو حجري يهشّم)، ولا يُحـرق بالنار ما هو من حجر بل ما هـو مـن خشـب. وحتـى لا نتـوه بعيـداً عـن الأصـل المصـري للمعبودة الكنعانية، نتذكر أن حت حور (هـاتور) رمِّـزت تجسـيدياً بشـجرة الجمـيز، كمـا رُمّزت تجسيدياً أيضاً بعامود (صارية) تاجه رأس أنثوي متوّج بقرني الإلاهة، ورُمّـزت أيضـاً (إبرازاً لسخمت المدمَجة هويتها فيها) كسيدة برأس لبوءة (وهو الوجه التدميري الذي كان أكثر اتضاحاً في التجلي الكنعاني الآخر لحت حور/ سـمخت، أي عانـات، كمـا اسـلفنا).
والثابت الآن – نتيجة للبحث العلمي والحفـائر الآثاريـة – أن حـت حـور/ سـمخت، التـي أُسميت – بين العديد من أسمائها – في عصر المملكة الجديدة، باسـم "سـيدة جُبيـل"، أي سيدة بيبلوس، عُبدت في كنعان وأُسبغت هويتها المزدوجة على ابنتي إيل وزوجتيه، عشيرة/ إيلات، وعانات/ رحماية. وليس بمستبعد إطلاقاً، متى اعتبرنا بالكراهية المشتعلة التي خَصّ بها كهنة السلالة اللاوية مصر وديانتها وآلهتها وإلاهاتها، أن تكـون تلـك الكراهيـة عنصـراً هاماً من عناصر الضـراوة التـي أظهرهـا سـدنة حركـة "يهـوه وحـده" فـي محاربـة التجلـي الكنعاني للإلاهة، بوجهيه : عانات، وعشيرة. وكما أسـلفنا، رُفـع ذكـر عانـات تمامـاً مـن النصوص، غير أنه لم يتسن رفعه من أسماء الأماكن كعاناتوث، مسقط رأس المتنبـئ إرميـا، و "بيت عانات". أما عشيرة، فانصب الجهد على إخفائهـا مـن خـلال التمويـه عنهـا بحيلـة "الأشيرا" و "الغيضة" و "الأيكة"، وبالإزالة الفعلية لكـل مـا مُثِّلـت بـه تجسـيدياً مـن رمـوز (تماثيل) خشبية، مع الخلط – هنا أيضاً – بين العامود الخشبي (الرمز القضيبي المغروس في "فرج" الأرض) وبين تلك التماثيل.
غير أن الاجتهاد، على الحالين، سواء فيما تعلـق بعانـات أو بعشـيرة، خلـق مفارقـة (قد ندعوها بالعدالة الآلهية) تمثلت في أنه، في حين بُذل كل ذلـك الجهـد إخفـاء للإلاهـة بقطع وحرق تماثيلها، ظلت الإلاهة باقية، حتى وإن كانت "مطمورة"، في النسج الحكـوي لأسفار التـوراة وسـائر العهـد القديـم، سـواء بشـخصها، إلـى أن جعلـت زوجـة ليهـوه، أو بأصولها السومرية والمصرية التي سطا صنّاع ذلك النسج الحكوي عليها لحساب معبودهـم المخلّق اسطورياً والمملق لاهوتياً.

(٦/ب/٢) السطو على الأصول السومرية لعشيرة

فمن كانت عشيرة؟ كيما نقف على أرومتها ونتبين هويتها، نحاول أن نسـتظهر مـا دخل في تكوين تلك الهوية – بجانب التأثير المصـري الـذي لـم يكـن منـه مهـرب بحكـم

الجوار وبفعل الاحتكاك الثقافي المباشر المتبادل - من تأثير سومري/ بابلي لم يكن منه مهرب هو الآخر بفعل الإشعاع الثقافي من حضارات أرض الرافدين. فآثار ذلك الإشعاع - سواء من الأصل السومري أو عبر الموصّل البابلي - ماثلة بقوة في عبادات كنعان. "كيدوشيم" مجمع الآلهة الكنعاني المحيطين بالإله الأب إيل، مثلاً، الذين سُرقوا فجُعلوا "بني إيلوهيم" في التوراة، كان الـ "أنوناكي" مجمع الآلهة السومري، "الآلهة العظام المحيطين بالإله الأب إنليل"، أسلافاً لهم. ولم يخطر لإنليل ولا لإيل أن هؤلاء أو أولئك سيسطو عليهم كاهن يهودي متنكر باسم "يوحنا الإلهي" (خففت إلى "اللاهوتي") بعد قرون فيرصّهم حول عرش معبود لم يكن أحد قد سمع به في السماء قبلاً ويلبسهم تيجاناً من ذهب جاعلاً منهم أنوناكي/ كيدوشيم بعل ثور يعقوب الذي رفع له عرش إلى ما فوق الجلد.

ومثلما امتد تأثير الديانة السومرية إلى كنعان متمثلاً في الأنوناكي، وفي إيشكور/ أدد/ حداد، امتد ذلك التأثير بقوة من أسطوريات إنليل وإنكي ونينورتا وإينانا، فسرى في عبادات كنعان كما سجّلتها نصوص رأس شمرا (أوغاريت) في القرن الرابع عشر ق.م.، وبدأ السطو على كنوزه من جانب الكهنة اللاويين صانعي أسطورية يهوه نتيجة للاستيطان بين الكنعانيين، ثم توسع السطو وتعمق إبّان السبي في بابل.

في سومر، قبل ذلك كله بعشرات القرون، عُبدت إينانا، العذراء، النقية، محظية السموات، كإلاهة حب وجنس، وإلاهة حرب وطعان، ودعيت بـ "إينيني"، كما أسميت بـ "نينّانا"، ولُقبت - كلما دعيت بذلك الاسم الأخير - بـ "سيدة السموات"، و "ملكة السموات"، وأُسبغت هويتها على كوكب الزهرة، ومن خلال ذلك، عبدها الرومان بعد قرون وقرون من عبادة السومريين لها، باسم فينوس، إلاهة الربيع والجنس المطلق اسمها على ذلك الكوكب.

تراوح نسب إينانا في الميثولوجيا السومرية. فهي - في بعض النصوص- ابنة آن (آنو، بابلياً)، إله السماء، وفي نصوص أخرى، ابنة نانا (سين، بابلياً)، إله القمر، وفي نصوص غير هذه وتلك، ابنة إنليل (إيليل، بابلياً) إله الريح ورب الأرض، المحتكم في ألواح القدر، محدث الطوفان وباعث الهولات و "الأب القوي" (القضيب المنتصب المخصب) كبير آلهة سومر حتى إصعاد إنكي. فإنليل في سومر كان قرين إيل في كنعان، وقبل أن يدعى إيل، "الأب قديم الأيام" (التسمية التي أخذت ليهوه)، بـ "الثور إيل"، وقبل أن يؤخذ من إيل ليهوه لقب "ثور" فيدعى بـ "ثور يعقوب"، بقرون عديدة، أسمي إنليل بـ "الثور البري".

صُورت إينانا على الرقوم الاسطوانية السومرية مرتدية رداء آلهة سومر التقليدي المدرّج المهدّب، واضعة قدمها على ظهر أسد، أو في مركبة تجرها أسود، وبيدها صولجان ملتفة عليه حيتان متعانقتان، ووراءها، إلى اليمين من كتفها، النجمة الثمانية الممثلة لكوكب الزهرة، كما صُوِّرت أيضاً - كعشتار وعشيرة وعانات - عارية ونور

كنور القمر مشع من جسدها (وقد وُصفت في بعض النصوص، كما قلنا، بأنها ابنة القمر). فهي النمط الطرزبدئي الأشهر في ثقافات بلدان الهلال الخصيب للإلاهة الأم العظمى، وهي مكانة لم تسبقها إليها في ميثولوجيا سومر إلا نامو، "إلاهة هاوية الغمر"، الأم البدئية (= تيامات، تعامة، بابليا) التي دعيت في الترانيم السومرية القديمة، كما دعيت إينانا أيضاً، بـ "التنّينة".

وليس ذلك الظهور للتنين (لوتان الكنعاني الذي منه لوياثان يهوه) العرض الوحيد للأخذ من سومر. فالذي تقود إليه مقارنة النصوص والصور والتصورات، في هذا الاستقصاء للأصول السومرية، أن العهد القديم أُترع حتى الحافة، لا بعوائد السطو على الديانة المصرية، ديانة موسى الأصلية، فحسب، بل وعلى الديانة السومرية، من خلال المنافذ البابلية والكنعانية. فنحن قد نتوقف، مثلاً، عند نسب تنين يهوه المسروق من كنعان إلى الإلاهة الأم البدئية نامو وخليفتها إينانا، فنتعجب أو نتشكك، لكننا لا يمكن أن نخطئ أصول "الشكينة" في الترنيمة السومرية عن "بيت الحياة، بيت الملك، الساكنة فيه زوجته، حبيبته، إينانا، بفرح"، كما لا يمكن أن يغيب عنا التماثل القوي بين إينانا والشكينة في العهد الذي قطعته الإلاهة السومرية لدوموزي (تموز، بابلياً، وهو الذي تضرّر يهوه لحزقيال (٨ : ١٤) من بكاء نساء "الشعب" عليه):(*)

"يا زوجي، أنا إينانا، سوف أحرس لك بيت الحيوة، بيتك
موطن الآيات العظيمة المشع نوره في كل أرجاء البلاد،
البيت المقدس الذي تكتب فيه أقدار كل الأرض، المكان
المقدس الذي يعمل البشر وكل الأحياء تبعاً لناموسه، أنا
إينانا النقية سوف أحرسه لك، بيت الحيوة، بيتك"(٧٠).

فكأنها "شكينة" يهوه التي استظهرها القبّاليون من سراديب العهد القديم، في القرن الثالث عشر الميلادي، بعد إينانا بأكثر من ثلاثين قرناً، متعهدة لـ "زوجها، حبيبها، يهوه، بالمحافظة له على مسكنه، سكنه، قدس أقداسه، تابوته، وخيمته". ومثلما نجد منشأ الشكينة في أسطورية إينانا(**) نجد أيضاً منشأ ليليث التي هي – في النهاية – إينانا وقد حُوِّلت بأيدي كهنة يهوه إلى الشيطانة المعولة بليل(***). وبالمثل نجد، في حكاية آدم وحواء، جنباً إلى جنب مع المنابع المصرية، دوراً هاماً لعبته المنابع السومرية في مد تلك

(*) ما زال اليهود إلى اليوم يقيمون شعائر البكاء في اليوم الرابع عشر من شهر "تموز"، وهي نفس الشعائر التي تضرر يهوه من إقامتها على تموز، أدون، أدونيس، في سفر حزقيال، إلا أنهم – في سياق اجتهاد الإتاهة والتعمية عن الأصول الكنعانية ومغزى ترسّخها في عبادة يهوه بعد سرقتها من الكنعانيين – يرجعون ذلك "البوكيم" (النواح) إلى "الحزن اليهودي على خراب الهيكل". غير أن هذا الادعاء المتلفع بعباءة الورع المعهودة غير مجد في طمس كمون أسطورية الإلاهة الأم ومعشوقها الملك/ الإله دوموزي/ تموز/ أدونيس في أسطورية الإله الملك يهوه ومعشوقته/ ابنته، اسرائيل.

(**) انظر الفصل السادس من الباب الأول بالكتاب الثاني، "بورنوجرافيا الدين".

(***) انظر الفصل نفسه من الكتاب الثاني.

الحكاية بمكونات أسطورية أهمها ما هو كامن في شخصية حواء من انعكاسات لإينانا السومرية(*) .

واقع الأمر أن المنابع السومرية ليست بحاجة إلى تأكيد فيما تعلق بمنشأ الكثير من مسروقات العهد القديم. فأسطورة الخلق (سفر التكوين ١ و٢)، وأسطورة الطوفان (سفر التكوين ٦ – ٨) وقدر لا يستهان به من نصوص أدب الحكمة (سفر الأمثال وسفر الجامعة) ومن الرؤى الجنسية المحمومة في شعر هشعريم (شعر الأشعار أو "نشيد الأنشاد الذي لسليمان") كلها مكوّنات أساسية نُهبت من مصر ومن كنوز الأدب الديني السومري.

وحتى ما أسمي يونانياً باسم "اللوغوس" أي الخلق بالكلمة، وعبّر عنه يوحنا في العهد الجديد بقوله أنه "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (انجيل يوحنا ١ : ١)، لم يُسرق من مصر وحدها، بل رسّخ كإنجاز ملكي/ إلهي ليهوه أخذاً عن إنليل، إله الريح، الإله الأب، "ملك" مجمع الآلهة السومري قبل اصعاد إنكي، وكان ذلك الأخذ عند وضع النصوص التي تألف منها العهد القديم في الصيغة التي استقرت عندها (حتى الآن)، في بابل. وقولنا أن ذلك رسّخ كإنجاز إلهي/ ملكي ليهوه قول انبنى على الأخذ بالجذر الفكري الرئيسي للديانة التي صنعها موسى، وهو تصور (وتصوير) ألوهية المعبود يهوه كـ"ملوكية" فعلية لا مجازية. فالملك عندما يصدر الأمر، أي يقول الكلمة، يُنفّذ أمره على الفور ولا يُرد فيصبح الأمر بمجرد تفوه الملك به شيئاً أو حدثاً. وكذلك الإله/الملك الكوني، يصدر الأمر، يقول، ينطق بالكلمة، فيكون ما أمر به، تصبح الكلمة شيئاً أو مخلوقاً أو حدثاً أو ظاهرة طبيعية أو انقلاباً لظاهرة طبيعية. وسنرى بعد كيف اختلس صانعو أسطورية يهوه إعلان السيادة الإلهي السومري من ترنيمة دينية يقول الإله إنكي فيها (وهو الإله السومري البطل الذي أخذ مكان إنليل ملكاً على آلهة سومر، كما أخذ الإله البطل البابلي مردوخ مكانة ملك الآلهة في ظل إمبراطورية حمورابي) أنه "من يأمر فلا يُسأل ولا يردّ له أمر"، فجعلوه، على لسان يهوه، في سفر إشعياء "قائلا رأيي يقوم وأفعل كل مسرتي" (٤٦ : ١٠).

في هذا السياق الملوكي، أُخذت ليهوه من بتاح قدرة اللوغوس، قدرة الأمر الملكي الإلهي بالكلمة (بالمرسوم الذي ينفذ فور صدوره)، وفي بابل، أثناء التحرير وإعادة التأليف، رُسِّخت تلك القدرة للملك يهوه، اختلاساً من الإله الملك إنكي، ومن الإله الأب إنليل.

وإنكي يعنينا هنا بشكل خاص، فهو الإله الذكر البطل الذي – عندما أخذ مكانة الأب إنليل – رأساً لمجمع الآلهة السومري – جسّد الإعلاء الباترياركي للألوهة المذكّرة على ألوهة الإلاهة الأم العظمى التي كانت نمطها الطرزبدئي في الميثولوجيا السومرية أمه إلاهة الغمر العظيم نامو" التي ولدت السماء والأرض"، وكانت إينانا أرفع تجسد لها

(*) انظر الفصل نفسه من الكتاب الثاني.

بوصفها "ملكة السموات"، "سيدة الأرض"، "الراعية المقدسة"، "محظية السماء"، "واضعة كل المراسيم"، "فاتحة الرحم"، "الممسكة بألواح الشريعة"، "ربة العواصف محدثة الطوفان المرعدة"، كما دعيت أيضاً بـ "التنينة".

في أسطورية إينانا نجد، بوضوح لايدانيه وضوح في أية أسطورية أخرى مما خلّفه لنا الشرق الأدنى القديم، تصويراً للتحول الباترياركي الذي تمثل في إعلاء دور الإله البطل (إنكي في الأسطورية السومرية) على دور ومكانة الإلاهة. فمن وظائف إينانا الإلهية التي ورثتها عن الإلهة الأم البدئية نامو، كانت وظيفة "الإمساك بألواح الشريعة"، الـ "مي" التي منها أُخذت فكرة لوحيّ الشريعة اللذين قالت حكايات التوراة أن يهوه كتبهما بإصبعه لموسى وهشمهما موسى ثم عاد فنقشهما من جديد، واللذين قيل أنهما شكلا المحتوى الرئيسي لـ "تابوت يهوه" في حين أن التابوت، عندما هدم البابليون الهيكل واستولوا عليه ففتحوه، لم يجدوا فيه إلا نحتاً من حجر أحمر لقضيب مختّن منتصب ممدد بين شفري فرج. وقد كانت حيازة ألواح الشريعة تلك، في الأسطورية السومرية، أو "ألواح القدر" في الأسطورية البابلية، بمثابة حيازة شارة السلطة العليا على الكون والخليقة. وهكذا فإنه، في سومر، عندما أخذ الكهنة يغيرون أسس التنظيم الاجتماعي بإعلاء الألوهة المذكرة، كان أول ما فعلوه أنهم – في الترانيم وفي القصص الديني المنشَد في المعابد – زوروا المسألة، فجعلوا حيازة إينانا لألواح الشريعة هبة من إنكي أو إنعاماً منه باختصاص على إينانا، أعطي لها بطريق الخطأ ضمن ما أنعم به عليها من صلاحيات إلهية، كإجراء مصالحة ديبلوماسي، في سياق التحول الباترياركي السومري الذي لم يتخذ سمة الانقلاب العنيف، بل اتخذ – كما في حالة الديانة المصرية – صورة التحول التطوري السلس الذي لم تُجرَّد الألوهة المؤنثة في غماره أو كنتيجة له من مكانتها الرفيعة – وإن أُعطيت مكانة لاحقة لمكانة الألوهة المذكّرة لاهوتياً وكهنوتياً – ولم "تقتل ويمزق جسدها" كما حدث في الاستنساخ السامي (الأكدي) لأسطورية ذلك الإعلاء الباترياركي (كما في حالة مردوخ وتعامة)، ولم تُطمر لاهوتياً وكهنوتياً ويركبها/ يسكنها/ يطأها الإله المذكر المعلّى كما حدث في الاستنساخ السامي الآخر (اليهيوي).

إلا أنه، حتى في غيبة العنف السامي، لم تخل الأسطورية السومرية من توتر درامي تصاعد لكنه توقف عند مشارف العنف، فبالنظر إلى الأهمية القصوى التي أعطيت في تلك العبادات لمفهوم "ألواح الشريعة" (ألواح "المي"، سومرياً، و "ألواح القدر" بابلياً، و "لوحا الشريعة" موسوياً)، باعتبار حيازة تلك الألواح حيازة فعلية، بإمساكها باليد، خاتم التصديق الأقصى الذي يسجل حيازة السلطة الأعلى على الطبيعة والأحياء، بنفس الطريقة التي يمثل بها التاج والصولجان حيازة الملك البشري للسلطة الأعلى على أرضه ورعيته، كان من المتعين، باترياركياً، جعل الإله الذكر البطل المعلّى هو الحائز لتلك الألواح، "الممسك بها" في يده كما يمسك الملك بصولجانه. فـ "الشريعة"، "القانون"، "الناموس"، اعتبرت – في تفكير العقل القديم – كما يقول توينبي(٧١)، تجسداً للإرادة الإلهية بدلاً من أن تُفهم

بوصفها القوة الموحِّدة ذات السيادة التي تحكم وتنظم أفعال الآلهة وأفعال البشر سواء بسواء.

في النسخة السامية (البابلية) من الإعلاء الباتريـاركي، أُنجز الإعلاء في شكله النهائي، أسطورياً، كنتيجة لمعركة كونية رهيبة قُتلت في ذروتها الإلاهة الأم العظمى، التنينة تيامات (تعامة) وبات الإله الذكر البطل مردوخ هو الحائز لـ "ألواح القـدر". أما في حالة الإعلاء السومري، فكان الأمر أكثر تحضراً وسلاسة، إذ صـور كهنـة إريـدّو، مركز عبادة الإله الذكر البطل إنكي، حيازة الإلاهة (إينانا) للـ "مِي"، أي "إمساكها ألواح الشريعة" كما لو كان قد حصل سهواً في سياق إنعام إنكي على "ابنته إينانا، البكر إينانا، محظية السماء" بما أنعم به عليها من "صلاحيات" (إن صح هذا التعبير الاداري في هذا السياق الإلهي الأسطوري). وفي قولهم بذلك فيما وضعوه من ترانيم وما ألفوه من حكي ديني، كان كهنة إريدّو متجنين في الواقع على الألوهة المؤنثة التي قالت أقدم النصوص الدينية السومرية أن تلك الألواح كانت – منذ البدء – حكراً لها. غير أن أولئك الكهنة كانوا – ككهنة يهوه بعدهم بقرون عديدة – منخرطين في عملية إعلاء توقفت عليها مصالحهم ومكاناتهم ككهنة للمعبود الصاعد إنكي وكانت – في حقيقتها – انعكاساً لتحول اجتماعي/ اقتصادي وسياسي ذي شعبتين : (١) الإعلاء السياسي لمكانة إريدّو، مدينة إنكي، و (٢) الزخم المتعاظم صوب الباترياركية – تغليب مصالح الذكور – الذي كان فاعلاً فعله في طريقة الحياة السومرية. فحتى ذلك الوقت الذي شرع خلاله كهنة إريدّو في إعلاء معبودهم، كانت الإلاهة هي التي ظل الملوك الأرضيون يستمدون سلطتهم الدنيوية من "رحمها" الإلهي.

فالألوهة المؤنثة كانت قد ظلت حتى ذلك الوقت مصدر التصديق الإلهي، لا على سلطة الملك الأرضي فحسب، بل ومصدر القالب ذي القداسة التي لا تناقض لطريقة حياة المجتمع. وفي الوقت ذاته، كانت الإلاهة هي الحامية والنصيرة للملك البشري، والقوة فوق الطبيعية التي تقيم دعائم عرشه وتذود عن أرضه وتمكّنه من تحقيق ما هو مطالب به – تبعاً للـ "مي"، "الناموس" – من خير ورفاه لعباد الإلاهة، رعاياه.

ذلك ما توقفنا عليه بشكل واضح ومحدد ترانيم سومرية عديدة ضاربة في القدم، من أقدمها ترانيم تعلقت بالملك شولجي، ثاني ملوك أسرة أور الثالثة، وبالملك البطل انمركار حاكم الوركاء، وبالملك الإله الراعي دوموزي، الذي جعلت الترانيم والأساطير السومرية كل من عداه من ملوك شبه تجل له، فإينانا، في إحدى تلك الترانيم تنشد قائلة بلسان كاهناتها :

"أجلت بصري في كل أرجاء البلاد
أمعنت بصري في كل من في البلاد
فلم أجد إلا دوموزي لأدعوه
دوموزي المحبوب من أمي المحبوب من أبي إنليل

كيما يتقلد الملك ويعتلي عرش البلاد"(٧٢)

وحتى عندما كان مقدِّم القرابين إلى إينانا الملك شـولجي(*) الـذي ارتحـل محمـلاً بتقدماته، من أور إلى معبد إينانـا فـي الوركـاء، نجـد أن الإلاهـة تدعـوه فـي بعـض مقـاطع الترنيمة بـ "دوموزي" الذي يبدو من هذا الاضفاء لهويته على كل مـن عـداه مـن ملـوك أنـه كان – في الإبداع الشعري الأسطوري السومري – النمط الطرزبدئـي للملـك الإلـه البطـل عشيق الإلاهـة وزوجهـا والراعـي الأرضـي لعبادهـا الـذي يجلـب لأولئـك العبـاد، رعايـاه، الخصب والخصوبة والوفرة إذ يضاجع الإلاهة و "يحرث فرجها":

عندما يكون الرب الراعي دوموزي
على فرجي قد وضع يده
عندما يكون قد بعث الحياة في زورقي مزموم الشفرين
عندئذ ألاطفه، ألاطف شولجي الراعي الأمين
وأمنحه القدر السعيد وأنعم عليه
برعاية البلاد"(٧٣)

تلك الزيجة المقدسة بين الملك الإله البطل الراعي والإلاهة التي تمنحه حق الملـك وتحمله بمسؤولية الراعي الأمين لعبادها، لم تكن تكفل الخصب والخصوبة فقط بل كـانت توفّر للملك حماية الإلاهة ودعمها لمُلكه بفتوتها العسكرية. وقد كان المطلبـان، الخصـب والحمايـة، علـى رأس قائمـة الأولويـات بالنسـبة لأي مجتمـع وأي مدينــة دولــة بــل وأي أمبراطورية في العالم القديم، وبوصفهما كذلك، ظلا على رأس قائمة النعـم التـي تنعـم بهـا الألوهة على البشر. وفي حالة المجتمعات ذات العبادات الماترياركيـة، كـان ذلـك الإنعـام يجد طريقه إلى العباد من خلال زيجة الملك المقدسة من الإلاهة. وذلك هو السبب في أن كل الإلاهات الرئيسيات في أسطوريات العالم القديم كن – كما صُوّرن – إلاهـات جنـس وفي الوقت ذاته إلاهات حرب ضاريات، كما توقفنا الترانيم السومرية.

في ترنيمة من تلك الترانيم (التي وضع فيها مؤلفوها خلاصة تصور جمعـي ضـارب في القدم للعلاقة الحميمة بين حائز السلطة الزمنية، الملك الإله البطل الراعي، وبيـن القـوى الغيبية الفاعلة في الكون ممثّلة في الإلاهة) نجد تصويراً (لا علاقة له بأية بذاءة أو تسيب وله كل علاقة بالإيمان الديني الراسخ، لا لواضع الترنيمة كشعر ديني فحسب، بل ولشعبه كله، وثقافته في مجملها) للإلاهة (العذراء، محظية السـماء) إينانـا النقيـة، إينانـا الوضيئـة، وهـي تغتسل بالماء (وقد كان الماء دائماً عنصر تطهر ونقاء) وتتزين وتتجمل كما تـتزين العـروس وتتجمل ليلة عرسها، متغنية بفرجها، "الزورق مزموم الشفرين"، "قارب السماء":

"مَن مِن أجل فرجي،

(*) ارجع في ذلك إلى:

Klein, J.: "The Royal Hymns of Shulgi King of Ur", Philadelphia, 1981.

من أجل الرابية المقبّبة عالياً،
مَن مِن أجل فرجي، أنا العذراء
من أجل فرجي، الأرض الظمآنة إلى الري
من سيحرثه لي؟(*)
من لي، أنا ملكة السماء،
من سيضع الثور في أرضي؟(٧٤)

وفي الجواب، ترنم الكاهنات أمام الكاهنة الكبرى المنشدة بلسان الإلاهة، مرددات:

"أيتها الملكة العظيمة
يا إينانا النقية
الراعي سوف يحرث فرجك(*)
الملك سوف يروي حقلك
دوموزي الملك سوف يحرثه(*) لك"(٧٥)

فتنشد كبيرة الكاهنات، التي طبقاً لطقوس الزيجة المقدسة، تضاجع الملك ممثلة للإلاهة، متهللة :

"احرث فرجي، يا رجل قلبي
فيطلع الأرز، وتخضر الأرض
وتطلع الغلال وتزهر البساتين"(٧٦)

تلك الإلاهة المشتعلة اشتهاء الذائبة حباً، ذات الفرج مزموم الشفرين والرحم الخصب المنعم على الأرض وعلى البشر وعلى كل حي بالخصوبة، هي هي الإلاهة المقاتلة الضارية التي تسبح في دم أعداء الملك وخصوم عِبادها، رعاياه:

(*) التصور الأسطوري الذي قاد العقل القديم إلى إسباغ هوية الأرض (الأرض الأم) على الفرج، وإسباغ هوية الفرج على الأرض وتصوّر الجماع كعملية حرث للأرض، تصور شعري/ أسطوري شائع في العديد من الثقافات. وقد تصورت العرب ركوب الذكر للأنثى لجماعها كـ "حرث" لها.

وفيما يعني علم الأساطير المقارن، يشير ذلك التوحيد، في المخيلة الجمعية، وهي التي أبدعت لكل ثقافة أساطيرها، للفرج بالأرض، إلى ترسخ ضارب بجذوره في تلك المخيلة للوجه الجنسي من أسطورية الإلاهة الأم.

ونحن واجدون في كل الأسطوريات الباترياركية التي أعلت (أركبت) الإله الذكر القضيبي على عرش الإلاهة الأم، الإلاهة الأرض، أيا كانت التجليات التي استخدمتها المخيلة المبدعة للأسطورية في تجسيد الإلاهة، سواء كانت الأرض، "أدامه" (التوراة)، أو إينانا (سومر)، أو عشتار (بابل)، أو عشيرة (كنعان)، أو "أم الشعب، اسرائيل" (عبادة يهوه)، ذلك "الحرث" الذي يمارسه القضيب الإله في اعتلائه (ركوبه) لفرج الإلاهة. فيهوه قد وُصف، مثلاً، بأنه "يمطر على الأرض (يقذف منيه في رحمها) فيجعلها تلد "كما وصف بإلحاح بأنه" أنجب ابنه البكر الأخص، الشعب" من "أم الشعب"، ابنته/ معشوقته، اسرائيل. كما يبين بوضوح وصفه إياها في سفر هوشع بقوله أنها "التي حبلت بهم (ببني اسرائيل) مني" (هوشع ٢ : ٥).

"في حومة الوغى أنا قائدتك،
في النزال أنا ذراعك
وفي مجمع الآلهة أنا نصيرتك"(٧٧)

ذلك العلو الضارب في القدم الذي تمتعت به الإلاهة، زوجة الملك ومعشوقته، مانحته الملوكية وحامية ملكه ومانحة رعاياه الأمان والخصب والوفرة، كان أساساً لطريقة حياة ماترياركية ظلت للمرأة فيها، وهي الزوجة والأم، أي الظل البشري الزائل للإلاهة الملكة زوجة الملك والأم المقدسة منجبة كل حياة، مكانة كان من الطبيعي أن تكون معلاّة، سواء في الأسرة التي كانت رأساً لها، أو في المجتمع الذي تمتعت فيه بمزايا فائقة بلغت ذروتها في حالة رئيسة كاهنات الإلاهة والنائبة عنها بشرياً في طقوس الزيجة المقدسة، الناطقة بلسانها وعرّافتها الرئيسية، وفي حالة سائر كاهنات معبد الإلاهة ممارسات ما أسمي بـ "البغاء المقدس"(*) في ذلك المعبد قياماً منهن بشعائر الخدمة الدينية.

لهذا نجد أن التغير الديني من العبادات الماترياركية إلى العبادات الباترياركية التي أُعليت فيها الألوهة المذكّرة على الألوهة المؤنثة وتعايشت معها، كما في مصر وسومر، أو أُسقطت وحُوِّلت إلى "أرجاس" كما في اليهيوية، تواكب دائماً مع تغير نمط طريقة حياة المجتمع الذي وقع فيه الإعلاء، أو طريقة حياة الجماعة البشرية غير المستقرة في مجتمع، كما في حالة "الآراميين التائهين"، سواء كان التغير تحولاً تطورياً مرت به مجتمعات مستقرة، أو انقلاباً طفرياً تعرضت له جماعة بشرية نظراً لانتقالها من طريقة حياة تقليدية إلى طريقة حياة جديدة بتغير طفري أحدثه الاستيطان بين أقوام مستقرة. وإذ ظلت الأساطير، من بداية قصة الإنسان على أرض الكوكب، وسيلته الرئيسية في تبرير وتثبيت نقلاته الثقافية وإسباغ مشروعية (ومعقولية) غيبية عليها، نجد أن أساطير كل مجتمع بشري، في تبريرها وتثبيتها للتغير من الماترياركية (النظام الديني والاجتماعي الأقدم والأطول زمنياً في حياة الإنسان القديم) إلى الباترياركية (النظام الديني والاجتماعي الأحدث والأقصر تاريخاً، نسبياً)، وفي إسباغها المشروعية (والمعقولية) الغيبية عليه، تعكس - كمرآة - الوضعية الثقافية للمجتمع الذي وقع التغير فيه.

وهكذا فإننا نجد أن الكهنة الباترياركيين السومريين في مركز عبادة الإله البطل الصاعد إنكي بالمدينة المقدسة إريدّو جعلوا إينانا تقوم بزيارة لإنكي في مركز عبادته (الظل الأرضي لعرشه المعلّى) مبحرة على "قارب السموات"، "زورقها الملكي" (فرجها مزموم الشفرين) في مياه الخليج، من مركز عبادتها، الوركاء. وفي المأدبة التي يقيمها إنكي (والتي تستحضر إلى الذهن مأدبة بعل التي كانت ضيفة الشرف فيها الإلاهة عشيرة، ومأدبة يهوه المسيحانية) لزائرته العظيمة، تُقدم أطباق من لحوم حيوانات أسطورية وأقداح من نبيذ إلهي معتّق من أقدم العصور، يلمح الحكي الكهنوتي إلى أن المضيف إنكي أفرط في

(*) كاهنات الإلاهة و "البغاء المقدس" موضوع بحث بتوسع في الكتاب الثاني من هذا المبحث.

تعاطيه، فانتشى، وكان منتشياً وهو يقف في ختام المأدبة مصدراً شبه مرسوم ملكي قد يكون المقصود به استرضاء إينانا ومهادنتها، تقول الترنيمة السومرية إن البطل إنكي قال فيه:

"بحق اسم قدرتي، بحق اسم قدرتي
إلى إينانا الوضيئة، إينانا ابنتي، أعطي
ألوهة فن الكتابة، وفنون الموسيقى
وفن تشغيل الذهب والمعادن، وفن تشغيل الخشب
وفنون البناء وفنون النساء،
وأهبها الفن الأسمى، أعظم الفنون، فنّ تطبيق الـ "مي"
فلتأخذ إينانا النقية ما أنا معطيها"(٧٨).

بهذه الصياغة التي وضعوها لإنعامات إنكي الملكية على إينانا، استبعد الكهنة صانعو أسطورية الإعلاء الباترياركي لذلك الإله البطل، الـ "مي" ذاته، أي ألواح الشريعة، من الهبات، جاعلين الإنعام قاصراً على "فن تطبيق الـ مي "أي الناموس المسجَّل على تلك الألواح التي تعين أن يكون "الممسك بها" معبودهم الذكر المعلّى. فطموح أولئك الكهنة كان متجهاً إلى جعل إنكي، بالأسطورية التي صاغوها حوله، أعلى الآلهة قدراً وأعظمها أهمية، أي اتجهوا إلى إفراده مثلما حاول كهنة يهوه، بعدهم بقرون، أن يفردوا معبودهم. وكان ذلك الإفراد لإنكي قد بدأ باغتصاب قدرة الخلق له، وهي القدرة التي كان كهنة إنليل قد اغتصبوها له قبلاً، من الألوهة المؤنثة ممثّلة في الإلاهة نامو، "ربة الغمر العظيم". ففي أسطورة "إنكي ونينما" علّم أولئك الكهنة أن الآلهة، وقد ضاقت بما اضطرت إليه من "كسب عيشها بعرق جبينها" أو "بعرق وجوهها"، لجأت إلى إنكي "الممتلىء حكمة، الواسع الفهم" موسّطين لديه أمه (الإلاهة الأم البدئية) نامو. وبتوسيطهم نامو، الإلاهة التي كانوا بأسطورتهم آخذين في نقل قدرة الخلق منها إلى إنكي، أفصح أولئك الكهنة المنشدون، مرة أخرى، عن أن كل تلك التغيرات في المكانات والاختصاصات والوظائف كانت تجري بسلاسة ديبلوماسية خالية من العنف. وإذ جعلت الأسطورة نامو تستجيب لطلب الآلهة، لم يجد إنكي مانعاً من الاستجابة لشفاعتها، فطلب منها أن تلد له الطين الذي في "قاع الغمر"، وكلف نينما "السيدة رفيعة المقام"، الأرض الأم، أن تقوم بدور القابلة، فتتلقف المولود من رحم الإلاهة وتفصله عن أمه. وإذ ولد الطين وقطع حبله السري، أخذه إنكي "الممتلىء حكمة"، وشكّله بيده، فصنع منه إنساناً حل محل الآلهة في القيام بالعمل الشاق، وبات هو الذي "يكسب عيشه بعرق جبينه"، وظل قدره أن يقضي العمر في خدمة الآلهة ثم يموت(*).

(*) ارجع في شأن أسطورة "إنكي ونينما" إلى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ١٤٨ - ١٥٠.

بهذه الأسطورة بدأ إعلاء إنكي، الذي كان ما زال إلها شاباً طموحاً محدث نعمة، ليسجل - بأخذه مكانة الإلاهة الخالقة - الحلول الباترياركي كاملاً، مثلما أعلي مردوخ بأسطورة "عندما في العُلى"(*) وأعلي بعل بأسطورة انتصاره على "القاضي نهر". وفي حالة كل إله من أولئك الآلهة الذكور الأبطال الثلاثة، كان هناك إله أب بدأ باعلائه ذلك الحلول الباترياركي محل الألوهة المؤنثة: إنليل، في حالة إنكي، وإيليل، في حالة مردوخ، وإيل، في حالة بعل. غير أن ذلك الحلول لم يكتمل إلا بالصعودالبطولي لإنكي في سومر، ومردوخ في بابل، وبعل صفون في كنعان.

على كل تلك الأسطوريات الأقدم والأعرق، سطا ورثة موسى خلال سعيهم الدؤوب إلى كسي العري الأسطوري للمعبود المخلّق الذي أورثهم إياه موسى. فهم - عندما جعلوا "إيلوهيم يهوه يجبل آدم تراباً من الأرض" (تكوين ٢ : ٧) أخذوا ذلك له من خنوم وإنكي ومردوخ وإيل. وعندما جعلوا روحه ترف على وجه غمر المياه الذي كانت تغطيه ظلمة (تكوين ١ : ٢)، جعلوه يرف على وجه الإله المصري البدئي نون، وعلى وجه الإلاهة السومرية البدئية نامو. وعندما تحدثوا عن الأرض التي كانت خربة وخالية، حكوا عن الإله المصري البدئي جب، وعن معاونة إنكي الإلاهة الأرض البدئية السومرية، "السيدة رفيعة المقام" نينما التي أطلق عليها في الحكي اليهيوي "آدامة".

غير أن من يقرأون منا اليوم ما استبقي - بعد عمليات التحرير المتعاقبة - من حكي أسطورة الخلق في مستهل سفر التكوين بالتوراة في الصيغة الشفرية شبه التلغرافية التي وصلتنا بها، لا يتفكرون أو لا يدرون بشيء من هذا، ولا يخبرهم أحد أن نينما/آدامة، الأرض، مثلما كانت محبوبة من إنكي، ذلك الإله القديم، ويداً يمنى له في عملية صنع الإنسان من طين، أي من جسدها، التراب، ومن مياه نامو إلاهة الغمر، جُعلت في كتابات الربانيين محبوبة ليهوه، و "أما لكل ما فيه ومن فيه نسمة حيوة"، ولا يخطر لهم ببال أن يهوه - من فرط حبه لها، وهو القاذف منيه المقدس في رحمها لتصبح أماً لكل ما فيه ومن فيه نسمة حيوة - جعلها "المدينة الأم"، أم كل العالم، صهيون، التي أحلت محل "الأرض الأم" فباتت أماً مقدسة لـ "الشعب"، أي للبشر، وهو ما عبر عنه في أسفار النبيين وغيرها بالتعبير الشفري "ابنة صهيون" أي "بني الأم المقدسة"، أي ابنه يهوه، حبيبته، من آدامه، اسرائيل.

وبالمثل، ما أكثر من يقرأون عن صعود موسى لتلقي "الشريعة" من يهوه على قمة الجبل فتغيم أعينهم بدموع التأثر وهم يتفكرون (وقد يرتعشون وهم يتفكرون) بـ "الناموس" ("مي"السومريين) وبـ "معطي الشريعة"، وبكل تلك الأشياء الجليلة، ولا تخطر لهم ببال "ألواح الشريعة" التي كانت محل تنافس محتدم بين إنكي، الإله البطل الخالق (كيهوه) الذي أصعده كهنته ليحتل مكانة الإلاهة الأم كيما يتخذ وضع الملك في مجمع الآلهة

(*) المرجع السابق نفسه، ص ص ١٥٠ - ١٦٥.

(كيهوه)، أو يتذكرون "ألواح القدر" التي كانت جائزة مردوخ العظيمة بعد معركته الكونية الملحمية مع الإلاهة الأم، أو يتفكرون في التماثل اللافت للنظر بين حمورابي الملك البابلي (الذي بفضله أصعد مردوخ إلى مكانة ملك الآلهة (كيهوه) وتلقيه "ألواح الشريعة" على قمة الجبل، من "أمه" الإلاهة الجبل نينهورساج، وبين موسى (الذي بفضله أصعد يهوه) وتلقيه "ألواح الشريعة" على قمة الجبل، ولكن من إله ذكر. وبطبيعة الحال، لا يتوقف العقل وهو في قبضة حمى التقوى ليتفكر في الشبه القوي بين تسمية حمورابي لنفسه بـ "سمي إيليل" وبين ما هو ملاحظ بقوة من أن يهوه يطالعنا من نصوص التوراة وكأنه صورة لموسى.

غير أنه، سواء نفض العقل عنه جلمود صخر سيزيف، الورع المُقعِد، أو تمدد تحته مسطحاً مرتعباً مغيباً، تظل كل تلك الضروب من التماثل، وكل الانكشافات المغيَّبة في الصياغات الشفرية، موجودة ماثلة وداعية بإلحاح إلى التفكر والتأمل والسعي وراء الحقيقة.

(٦/ ب/٣) إعلاء القضيب على فرج الإلاهة بدأ في سومر

وأول ما يمكن أن يتفكّر فيه العقل ويتأمل، ذلك التلازم - الذي فطن إلى أهميته قبل أكثر من خمسة آلاف سنة كهنة إنكي الأذكياء بإريدّو، التي كانت على مرمى البصر من أور - بين صفة الإله الخالق، وصفة الإله الممسك بألواح الشريعة.

فأولئك الكهنة، في صنعهم لأسطورية معبودهم الذكر المعلّى، بعد أن أخذوا له- بنعومة ديبلوماسية لم تتوافر لغيرهم من صانعي أساطير معبودات الهلال الخصيب - وظيفة الخلق، من الإلاهة الأم، مسخّرين الألوهة المؤنثة ذاتها في إنجاز ذلك الحلول للمعبود الذكر القضيبي الذي وصفته ترانيمهم "واقفاً رافعاً قضيبه قاذفاً منيه" محل الإلاهة التي - من أقدم عصور الدين في الشرق الأدنى القديم كله، لا في الهلال الخصيب فحسب - انبثقت من رحمها، ولدت، كل حياة، وجدوا أنه كان من الضروري، كيما يكتمل الحلول، أن يصبح الإله هو الممسك بالـ"مي"، بـ"الواح الشريعة" حتى يصبح حائزاً لخاتم التصديق الأقصى على ملوكيته وحكمه للعالم والمخلوقات.

وهكذا فإن إنكي بعث برسله من هولات المياه ووحوشها الأسطورية (وهي مخلوقات كانت في الزمن الماترياركي "جند" الإلاهة، ومنها تكوّن جيش تيامات (تعامة) في النسخة البابلية الأكدية" عندما في العلى"، لكنها في الصياغة الباترياركية باتت رُسُلاً وجنداً للإله البطل (إنكي في سومر ومردوخ في بابل) لتطالبها برد "ألواح الشريعة" التي أبحرت بها بعد مأدبة انكي، في "قارب السموات".

وفي تحول هولات المياه ووحوشها الأسطورية من جند للإلاهة إلى خدم وجند للإله الذكر، نجد الأصل الميثولوجي الذي تردد صداه بقوة في سفر أيوب بالعهد القديم،

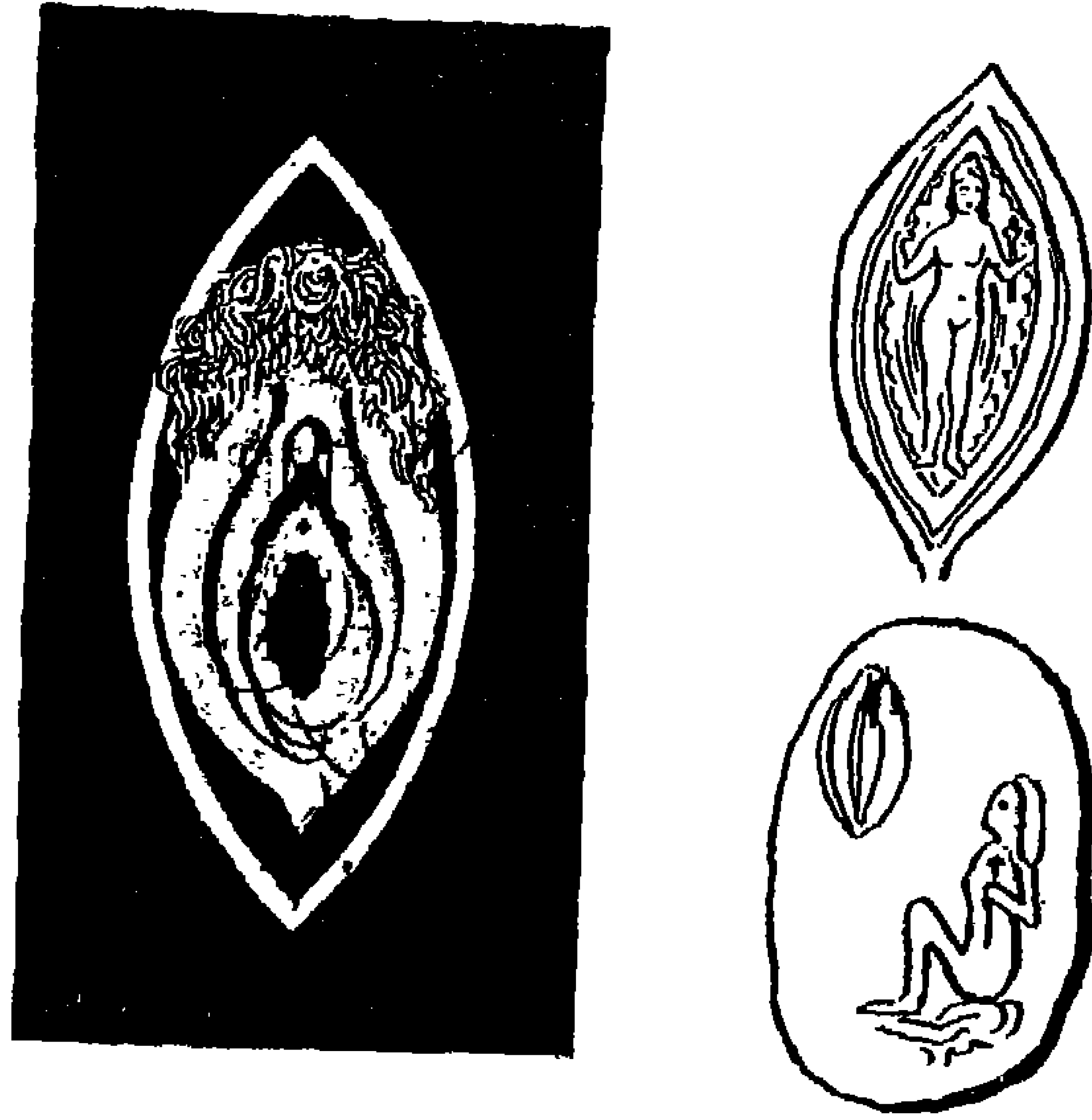
عندما يتباهى يهوه بإخضاعه التنين لوياثـان قـائلاً "أيكثر التضرعـات إليـك أو يتكلـم معـك باللين؟ هل يقطع معك عهداً فتتخذه عبداً مؤبداً؟" (أيوب ٤١ : ٣ و٤).

غير أن هولات المياه ووحوشها الأسطورية التي أخضعها انكي واتخذهـا لـه عبيـداً كما ادّعى الكهنة اللاويون ليهوه في سفر أيـوب بعـد إنكـي بعشـرات القـرون، تعـود مـن مهمتها بخفي حنين، إن صح التعبير، لأن إينانـا ترفـض التفريـط فـي ألـواح الشـريعة، ولأن إنكي "أمر رسله بعدم التعرض لإينانا النقية بأذى". وهو ما قـد يكـون السـبب فـي أن تلـك الهولات والوحوش خاب مسعاها. غير أن السبب قد يكون أيضاً أن تلك المخلوقـات التـي تغيّر سيدها خجلت من سيدتها القديمة ولم تجرؤ على التعرض لها.

على أية حال، تتكرر محاولة استرداد "ألواح الشريعة" من إينانا، ملكـة السـموات، سبع مرات. وفي كل مرة، ترفض إينانا إعادة الألواح، و "تبحر بعيداً في قارب السـموات"، تاركة رسل إنكي صفر اليدين. وفي النهاية، وقد نفـذ صـبر إنكـي، يبعـث برسـوله الأكـبر، "إيزيمود"، الذي كان أول من استقبل إينانا في بدء زيارتها لإنكي بإريدو، فهو أشبه برئيـس التشريفات في "الأبزو"، بلاط إنكي، ومعه جيش صغير من الهولات المائيـة للاسـتيلاء مـن إينانا على "قارب السموات".

وفي هذه الجزئية من الأسطورة، بغير مراوغة، يوقفنا الحكي على أن النـزاع الـذي نشب حول الـ "مي" و "الامساك بألواح الشريعة" كان في حقيقته صراعاً مكبـوح الجمـاح حول المكانة الأعلى في مجمع الآلهة السومري بين الإله الذكر الصاعد، إنكي، الذي تطلّع كهنته إلى إعلائه ليصبح البطل ملك الآلهة، وبيـن إينانـا التـي كـانت، مثلمـا كـانت آسـت (إيزيس) في مصر، الإلاهة الأم العظمى التي توحّدت في هويتها تجليات الألوهة المؤنثة في سومر، والتي كانت – من خلال ذلـك – الإلاهـة الطرزبدئيـة صاحبـة الـدور الرئيسـي فـي صوغ الوعي الديني لكل شعوب الهلال الخصيب، سواء دعيت باسمها السومري، إينيني أو إينانا، أو باسمها الأكـدي، عشـتار، أو باسـميها الكنعـانيين، عشيرة وعانـات. فاختلافـات الاسم ظلت مسألة لغوية جانبية، في حين ظلت الهوية الإلهية الأنثوية والصفـات والقـدرات ومعظم تفاصيل الأسطورية واحدة. فتلك أسطورية أبرزت في هويـة الإلاهـة، سـواء دُعيـت بإينانا أو بعشتار أو بعشيرة أو بعانات، ألوهية الحب والجنس وألوهية الحـرب فـي آن معـاً، ومن خلال الجمع بين وجهي الألوهية المتناقضين هذيـن – فيمـا يبـدو للذهـن المعـاصر – أبـرزت فـي شـخصية الإلاهـة العذريـة والبغـاء، كمـا أبـرزت الأمومـة (الحمـل والإنجـاب والإرضاع) والإماتة (الظمأ إلى الدم والافتراس والابتلاع) في آن معاً.

ففي الترانيم السومرية، لم يكن "قارب السموات" ذاك الـذي بعـث إنكـي بمبعوثـه الشخصي ومعه حرس إنكي الخاص (وهو إله المياه) من الوحوش والهولات المائية لانتزاعه من إينانا (وتجريدها بذلك، لا من سلاحها الأقصى فحسب، بل ومن رمز ملوكيتها المعلّـى بوصفهـا الإلاهـة الأم العظمـى)، إلا "زورق العـذراء النقيـة مزمـوم الشـفرين"، أي فرجهـا (الشكل رقم ١٣). فذلك الزورق مزموم الشفرين كـان، فـي الأسـطورية السـومرية، عـرش



الشكل رقم (١٣)

"زورق الإلاهة مزموم الشفرين" - التصوّر الإهليلجيّ للفرج الذي عبّر عنه الإبداع الشعريّ الأسطوريّ "بقارب السموات" - وعندما أُعِليت الألوهة المذكّرة أغتصب ذلك القارب للآلهة الذكور الشمسيين ، كرّع ، ممثّلا في "فُلْك الإله" الذي عمد الكهنة الباترياركيون إلى تأصيله لرع بتسميته فلك ملايين السنين.

الإلاهة وصولجانها ونبع قدرتها، من حيث هو المنفذ السحري إلى الكهف (الرحم) الذي اندفقت منه كل حياة، والقبر الأقصى الذي يبتلع كل حياة. ولم تكن المهمة التي كُلف بها مبعوث إنكي، إيزيمود، وجيشه المدمّر من هولات المياه، في الجواز الشعري الأسطوري للصياغة السومرية لثيمة الإعلاء الباترياركي، إلا إخضاع إينانا وتجريدها من موطن سلطانها ورمز ألوهيتها ومنبع قداستها، فرجها الذي رتّلت تسابيح سومر باصوات كاهناتها في معبد الوركاء ممجدة إياه بوصفه "الرابية المقدسة المقببة عالياً" كيما يُعلى فوقه القضيب المنتصب صولجان الإله الذكر البطل، ملك الآلهة. ولقد كان ذلك - تحديداً - رمز ألوهية يهوه وملوكيته الذي وضع داخل تابوته واستمد منه التابوت قوته السحرية الغلاّبة: القضيب المختّن المنتصب راكباً "زورق الإلاهة السماوية" فرجها، ممدداً بين شفريه المزمومين، معتلياً - بذلك - رابيتها المقدسة المقببة التي وردت الإشارة إليها خطفاً في رؤيا حزقيال القضيبية الصارخة: "وفوق المقبب شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق" (حزقيال ١ : ٢٦).ففي النهاية، أعاد حزقيال - في صوغه لجزئية من أسطورية يهوه - الخبرة الأسطورية التي جسدتها ترانيم سومر عن مشروع إنكي، الإله البطل القضيبي الملك، في انتزاع ملوكية الكون من الألوهة المؤنثة ممثّلة في إينانا، بمحاولة الاستيلاء على "قارب السموات"، فرجها، زورقها المقدس، رابيتها المقببة، كيما يعتليها القضيب الإلهي، ويتربع فوقها على عرش الكون.

إلا أن الأسطورية السومرية، التي اتصفت بما اتصفت به الديانة المصرية من عدم تخطي الحد (تلك الخاصية التي استقاها اليونان من روح الحضارة المصرية وجعلت في الاعلاء الغربي لليونان كأحد أهم خاصية لحضارتهم)، لم تتجه - كما أسلفنا - صوب العنف السامي الذي أُقحم في النسخة الأكدية على ما استنسخ من سومر في أسطورية مردوخ وتيامات (تعامة)، بل التزمت بالخط الوسط. فعلى الرغم من أن محاولة إنكي الاستيلاء على "قارب السموات" من إينانا تكررت سبع مرات، لم تنجح المحاولة. وفي النهاية - فيما نتبين أنه كان المواءمة التي توصل إليها العقل السومري بين عباداته الماترياركية الضاربة في القدم وبين الزخم القوي للتحول الباترياركي في السياق رفيع التحضر والأصالة الفكرية والإنسانية لتلك الثقافة العظيمة، على النحو الذي شهدناه في الديانة المصرية - يسلّم إنكي (وهو إله الحكمة) بما لم يوجد من التسليم به بد، وإذ يسلم، "يعطي إينانا، ابنته، إينانا العذراء، النقية، السيادة، والتاج الرفيع الباقي، وعرش الملوكية، والصولجان السامي، والهيكل المعلّى" ويجعلها "الراعية المقدسة".

وبذلك الإنعام الملكي الإلهي، لم يتنازل الإله الذكر البطل الحكيم إنكي، في الواقع، عن ملوكيته على آلهة سومر وإلاهاتها، أي لم يفرط في علو الألوهة المذكّرة، لكنه ببراغماتية حصيفة، متى استخدمنا هذا المصطلح المعاصر تقريباً للمعنى، سلّم فقط (أو متى توخينا الدقة، سلّم العقل السومري المتحضر، من خلال ذلك الصوغ لأسطورية إنكي) للألوهه ،لمؤنثة، وهي الألوهة التي كانت قد عُبدت منذ أقدم العصور، من خلال تسليمه

لـ"العذراء النقية، محظية السماء، إينانا"، بوضع "ملكة السموات"، وفي الوقت ذاته أصّل للألوهة المذكرة، ممثلة في إنكي البطل، من خلال ذلك "الإنعام"، على إينانا بوضع كان لها أصلاً، (أو، متى توخينا الدقة، أصّل الكهنة الذين صاغوا أسطورية إنكي، بذلك "الإنعام") وضع اليد العليا في الكون، وضع "إله الآلهة"، "الملك في مجمع الآلهة". وذلك - كما نعرف من سفر المزامير بالعهد القديم - وضع استمات من استنسخوا اسطورية إنكي وغيره من الآلهة الذكور الأبطال في الهلال الخصيب في إضفائه على يهوه، ولكن مع فارق أساسي في حالة يهوه هو الطمس الكامل للألوهة المؤنثة.

والحقيقة أن الاستنساخ من الأسطورية السومرية، سواء في صيغتها السومرية أو في نسختها الأكدية، كان أوسع وأعمق من أي استماتة في المزامير أو النبييم في جعل يهوه ملكاً. فنحن واجدون في الحكي الأسطوري السومري عن إنكي وإينانا، مثلاً، أصل الحكي الرباني عن يهوه والشكينة.

ونحن، بالمثل، واجدون في هوية إينانا وأسطوريتها السومرية وفي نسختها الأكدية التي دُعيت فيها باسم عشتار الأصول الأقدم للمعبودتين الكنعانيتين، عشيرة وعانات، مع تنويع واحد هو الذي انتهى بأن أصبح الفارق المميز في نصوص أوغاريت بين ابنتي إيل وزوجتيه عشيرة/إيلات، وعانات/رحماية. فعشيرة انتهت بأن باتت كأقرب ما يكون إلى إلاهة الحب والشهوة الجنسية التي مثّلتها عند اليونان أفروديتي، وعند الرومان فينوس، في حين انتهت عانات بأن غلبت على هويتها صفة الإلاهة المحاربة الدموية الضارية مع احتفاظها بهوية الإلاهة عارمة الشهوة جنسياً. غير أن تلك الغلمة الجنسية عند عانات كانت - في الصورة التي استقرت عليها - مدخولة بالبهيمية والعنف، في حين لُطّفت - في الصورة التي استقرت عليها عشيرة - الى شهوانية مرماها الأمومة والخصوبة كما يتبين من إنجابها لسبعين من الآلهة والإلاهات. وعندما أدخلت عشيرة وعانات مصر من كنعان، أُبرز في تبني المصريين لهما ذلك الفارق: فعانات غُلّبت فيها هوية الإلاهة المحاربة القوية، وعشيرة طُوِّرت من إلاهة جنس وإلاهة ولادة ومانحة غذاء من أثداء الأمهات، إلى إلاهة شفاء.

(٦/ب/٤) السطو على أمجاد عشتار الحربية لحساب يهوه

من استقراء الأصول السومرية، والأصول البابلية، للمعبودتين الكنعانيتين عشيرة وعانات، يمكننا أن نمسك ببداية خيط التحول كما بدأ في بابل وبلغ غايته في كنعان، عبر النقلة من الثقافة السومرية إلى الثقافة البابلية، وبالانتشار الثقافي إلى كنعان. فعشتار، عندما عبدها الساميون البابليون، كنسختهم الأكدية من إينانا السومرية، غُلّبت فيها هوية إلاهة الحرب الدموية الضارية بقدر تجاوز بكثير ما صُوّرت به في الأصل السومري كإلاهة

حرب. وذلك تحول يعنينا نظراً لتأثيره الجلي على تعامل صانعي أسطورية يهوه مع تجليات الإلاهة الأم في الهلال الخصيب.

ففي حين نلاحظ اجتهاداً متصفاً بالتصميم في طمس وجود عانات في العهد القديم، نجد أن عشيرة ذُكرت بتكرار واضح، حتى مع محاولة التمويه عن هويتها كإلاهة بحيل الـ "صارية"، و "الأيكة" و "الغيضة". وفي النهاية نجد أن عشيرة – بدلاً من أن تُطرد خارجاً إلى حيث الظلمة وصرير الأسنان – اجتذبتها أيد قادرة داخلاً إلى حيث ركبها يهوه، فباتت "عشيرته"، وإحدى الإلاهات المكوّنات لحريمه.

فلمَ كان ذلك الإخفاء لعانات، على الرغم من ثبوت واقعة عبادتها بأسماء الأماكن التي أطلق عليها اسمها كـ "عاناتوث" و "بيت عانات"، في حين أبقى صانعو أسطورية يهوه على عشيرة؟ يبدو من الاهتمام فائق الحد بالوجه العسكري ليهوه بصفته "رجل الحرب ورب الجنود"، أن سرقة الأمجاد الحربية لذلك المعبود الذكر القضيبي المعتدّ بقضيبيه كان الدافع الرئيسي لذلك الإخفاء المصمَّت اللافت للنظر حتى في سياق عملية الإطاحة بالألوهة المؤنثة وطمر وجودها في الرمال المتحركة لـ "الأسفار المقدسة". فإله ذكر بطل كيهوه لم يكن من المقبول إطلاقاً لمختلسي مكونات أسطوريته أن يتركوا في سجلها ما يشير إلى أن اختلاس أمجاده الحربية كان من إلاهة أنثى. ولما كانت عشتار البابلية، فيما يوقفنا المسار الذي اتخذته أسطورية عانات فأبعدها عن عشيرة إلى أن افترقت المعبودتان (على النحو الذي أبرزه تبني ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية لهما)، هي السلف الأسطوري لعانات، فإن عشتار عوملت نفس المعاملة في حكي العهد القديم، إذ طُمرت تحت ركام حيلة لغوية جُعل اسمها، من خلالها، اسماً عاماً استخدم، كما في التثنية ٢٨ بمعنى الرحم أو الفرج، أو كإسم مكان كـ "عشتاروت قرنايم"، أو كتسمية عامة لـ "البعلات"، كما حدث لعانات.

في بداية أمرها لدى البابليين، نجد عشتار مُصوَّرة في ترنيمة بالأكدية يعود تاريخها إلى حوالي ١٦٠٠ ق.م.، بصورة نجدها فيما بعد لدى اليونان في تمجيدهم لإلاهتهم أفروديتي، ولدى الرومان في تغنيهم بإلاهتهم فينوس:

"المجد لسيدة النساء، العظيمة بين الآلهة
عشتار، التي كساؤها المتعة ورداؤها الحب
الملكة المتوقدة اشتهاءً المشبِعّة بالسحر
المفعمة بالفرح واللذة
التي شفتاها عسل شهي وريق فمها حياة
التي حيثما حلت يحل الجذل والمتعة
المجد لجمالها الوضيء
المجد لقدها الممشوق وعينيها الواعدتين بالنعيم"(٧٩)

(الشكل رقم ١٤)



الشكل رقم (١٤)
تمثال من المرمر لعشتار متوجة بـ "قرنيها"
(أي بالقمر في طور الهلال)

غير أن تلك الصورة الوضيئة المتوفّزة برؤى المتعة ما تلبث أن تعتم فيغلب عليها لون الحزن، ويخضّبها لون الدم، فإذا بعشتار المتوقّدة بشهوة الجنس (المفضية إلى خلق الحياة) مشتعلة بشهوة الافتراس وابتلاع الحياة. وكلا الوجهين، كما أسلفنا، ظلا أساسيين في هوية الإلاهة الأم منجبة كل حياة ومبتلعة كل حياة، غير أنها في حالة عشتار وعانات اختل توازنها (التقليدي في معظم أسطوريات الألوهة المؤنثة)، فغلب فيها الوجه الأشأم، جانب الافتراس والدموية على الوجه الآخر(*). وفي سياق ذلك التحول لصورة الإلاهة، باتت عشتار – على الرغم من عدم فقدانها لغلمتها المتوقدة – "سيدة الأحزان، وربة المعارك" وصلّى لها البابليون صلوات نجد صداها واضحاً قوياً في تصوير العهد القديم للوجه العسكري ليهوه، "رجل الحرب، ورب الجنود" مثلما نجده ناطقاً في الوصف الذي وُصفت به عانات في كنعان وهي خائضة في دماء البشر حتى العنق، مكوّمة الرؤوس حول قدميها، متمنطقة بحزام من الأيدي المبتورة (وقد تباهت عشتار، في ترانيم بابلية متأخرة زمنياً، بضراوتها قائلة "أنا من أكوّم الرؤوس في الوغى حول قدمي محزومة رقابها كحزم الأسل"):

أمجاد يهوه السماوية والحربية	وقريناتها في التسابيح البابلية لعشتار(٨٠)
"يهوه قائم في مجمع الآلهة، بين الآلهة يقضي" (مزمور ٨٢ : ١)	"عشتار الملكة في مجمع الآلهة، المقيمة العدل في السموات، الحاكمة بَغْيَ الآلهة، التي تسأل كلَّ الآلهة مشورتها"
"إله الآلهة يهوه تكلم" (مزمور ٥٠ : ١)	"سيدة الآلهة عشتار، ملكة السموات، أعطت قولاً"
"من مثلك بين الآلهة يا يهوه؟ (خروج ١٥:١١)	"من مِن الآلهة عظيم مثلها؟"
"علوت جداً على كل الآلهة يا يهوه" (مزمور ٩٧ : ٩)	"المجد لعشتار المعلّى قَدرها فوق كل الآلهة"
"يهوه قد ملك فلتبتهج الأرض" (مزمور ٩٧:١)	"لتفرح الأرض بعشتار الملكة على كل الأرض"
"لك السموات ولك الأرض" (مزمور ٨٩:١١)	"ملكة السموات المتوجة وسيدة الأرض"

(*) كما في حالة الإلاهة كالي في العِبادات الهندية، وهي إلآهة أم، لكن الجانب التدميري في التصور الميثولوجي للألوهة المؤنثة هو الذي غلب على صورتها فباتت إلآهة افتراس وموت وتمنطقت بالجماجم أو لبستها قلادة حول عنقها.

"اللابس النور كثوب" (مزمور ٢:١٠٤)	"عشتار الكاسية نوراً"
"اسجدوا له يا كل الآلهة" (مزمور ٩:٩٧)	"عشتار التى يسجد لها كل الآلهة"
"أنا الإله القادر على كل شيء" (خروج ٣:٦)	"المجد لعشتار القوية" "المجد للقادرة على كل شيء"
"أنت المهوب جداً فمن يقف قدامك حال غضبك؟" (مزمور ٧:٧٦)	"عشتار المهوبة أبداً، التى لا يصمد فى وجهها عدو، أو ترد لها كلمة"
"يا يهوه يا رب الجنود، أي رب قوي مثلك؟ بذراع قوتك تبدد أعداءك" (مزمور ٩:٨٩ و١٠)	"ربة المعارك القوية القادرة التى بذراعها تبدد كل أعدائها"
"من السماء أسمعت حكماً، الأرض فزعت وسكنت" (مزمور ٨:٧٦)	"من السموات ينزل حكمها، تأتى كلمتها، فتسمع الأرض وتطأطئ"
"الناظر إلى الأرض فترتعد" (مزمور ٣٢:١٠٤)	"التى تجثم الأرض أمامها مرتعشة وتمحق الجبال"
"ذابت الجبال مثل الشمع قدام يهوه" (مزمور ٥:٩٧)	"التى تجتاح كل ما فى طريقها وتزلزل الجبال"
"آه ياسيف يهوه حتى متى لا تستريح؟ انضمّ إلى غمدك واهدأ" (إرميا ٦:٤٧)	"التى لا يهدأ فى السماء سيفها ولا يؤوب إلى غمده"
"لأنه قد روي فى السموات سيفى من الدم" (إشعياء ٥:٣٤)	"حتى يرتوي من دم أعدائها"
"تصيب يدك جميع أعدائك. يمينك تصيب كل مبغضيك. تجعلهم مثل تنور نار فى زمن حضورك. يهوه بسخطه يبتلعهم. وتأكلهم النار. تبيد بزرتهم من الأرض وذريتهم من بين بنى آدم" (مزمور ٨:٢١ - ١٠)	"يدها القادرة تمحق العدو تحرقه وتنثره رماداً، سيدة المعارك تجتث جذوره من الأرض وتمحوه من بين بنى البشر"

"يهوه كالجبار يخرج. كرجل حروب ينهض غيرته. يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه"
(إشعياء ٤٢:١٣)

"عشتار القادرة، قائدة جند السماء"
"كجبارة إلى الوغى تخرج"

فلا عجب أن باتت عشتار، عندما علا نجم الإمبراطورية الآشورية، الإلاهة البابلية التي أُعطيت مكان الصدارة في مجمع الآلهة الآشوري، وزُوِّجت من الإله الدموي الممعن في الوحشية آشور، وفي النهاية، رغم تسيبها الجنسي وأسطوريتها العارمة وألوهتها للبغاء وللحان، نجد عشتار، في نسختها الآشورية وقد أعطاها الآشوريون لحية مهيبة وباتت لا تترك عدة الحرب من يدها.

وهو ما لا غرابة فيه، متى تذكرنا العلاقة العضوية بين الجنس والعنف، بين الجنس والموت، وهو ما أكده العقل القديم، بقدر كبير من الفطنة في الواقع، من خلال الإبداع الشعري الأسطوري الذي جمع في هوية الإلاهة الأم بين ألوهة الجنس وألوهة الحرب(*).

(٦/ب/٥) طم فرج الإلاهة بعد السطو عليها وسلبها

كان من أكثر الأشياء طبيعية، في ظل السطو واسع النطاق بالغ العمق الذي مورس لحساب يهوه، والذي حاولنا فيما سبق استيضاح قلّة قليلة فقط من أمثلته التي لا تكاد تحصى، أن ينصرف جهد كتبة "الأسفار المقدسة" ومحرريها (ومترجميها) إلى محو آثار أقدام السارقين وطمس المنابع الأنثوية التي وقع السطو عليها، أو - متى استخدمنا التعبير التوراتيّ - "طمّها" كما تطمّ البئر. وذلك تعبير مواتٍ للغاية في هذا السياق ومطابق لمقتضى الحال. فـ "البئر"، كما رأتها المخيلة الجمعية لإنسان العالم القديم، كانت رحم الإلاهة، وفوهة البئر كانت فرجها. وقد رأى التلموديون يهوه قاذفاً منيه المخصب في فوهة فرج الإلاهة ذاك، في وادي قدرون. فلا غرو إن وجدنا في اجتهاد كهنة يهوه في إصعاده ليصبح "ملك الآلهة" و"إله الآلهة" نفس المحاولة التي حاولها كهنة إنكي، إله المياه والحكمة السومري والبطل القضيبي الخالق، عندما اجتهدوا في إصعاده إلى قمة المجمع الألوهي في سومر. وكل ما هنالك من فرق أن كهنة إنكي صاغوا اجتهادهم أسطورياً كمحاولة لأخذ "قارب السموات"، زورق الإلاهة مزموم الشفرين، أي فرجها، منبع سلطانها، من إينانا، ملكة السموات والتجلي الأهم للألوهة المؤنثة في سومر، في حين انصبّ جهد كهنة يهوه - بعد أن أخذوا له رحم الإلاهة بجعلهم إياه إلهاً خنثى، ذكراً

(*) وفي الفصل الأخير من الجزء الثاني من هذا المبحث، نحاول سبر غور تلك العلاقة بين الجنس والعنف من خلال ما حفل به العهد القديم من حكي عن مذابح وجرائم دموية كمن في جذورها الجنس.

وأنثى في آن معاً، أباً للآباء وأماً للأمهات – على محاولة "طم" فرج الإلاهة كما تطم البئر، بدلاً من أن يحاولوا انتزاعه كما حاول كهنة إنكي. وهو تباين في النهج الأسطورية مرجعه عدم اتجاه المخيلة الجمعية التي أبدعت أسطوريات سومر إلى طمس الألوهة المؤنثة والاقتصار، باترياركياً، على إعلاء الألوهة المذكرة لتتعايش مع الإلاهة، كما يوقفنا وجود معبدين في كل مدن سومر في عنفوان ازدهار الباترياركية، أحدهما للوجه المذكّر للألوهة، والآخر لوجهها الأنثوي، أي ملكة السموات. أما في حالة الأسطورية اليهيوية (التي لم تبدعها مخيلة جمعية عبر تطور ثقافي استغرق آلاف السنين كما في حالات عبادات سومر ومصر وكنعان، بل اغتصبت تلفيقياً من الأسطوريات التي وقع السطو عليها) فإننا نجد أنه كما تُطم البئر بالأحجار والرمال، جرت محاولة (لم تنجح، يشهد بذلك العثور على تمثال يهوه كذكر منتصب مختتن بين شفري فرج داخل تابوته عندما فتحه البابليون) لطمّ فرج الإلاهة في طوفان من الكلمات مدعية القداسة متصنعة التطهرية التي كان أول عرض مرضي لها سطر الحوار الذي أُجري على لسان يهوه فجُعل يهوه يقول فيه إنه لم يعد راغباً في أن "يدين روحه في (يظل روحه في صراع مع) الإنسان إلى الأبد لأن الإنسان من لحم" (تكوين ٦ : ٣) وهو قول فطن المترجمون إلى العربية إلى أنه كاشف عما وراءه فحذفوا "لأنه من لحم". ووضعوا بدلاً منها "لزيغانه"!

ذلك الطم، المتصف بالتصميم، لفرج الإلاهة كانت له دواعيه المتعددة وهي دواع كانت لها – في حالة مؤلفي "الأسفار المقدسة" إلحاحية القوة القاهرة. فممارسة السلب من المعبودات المنافسة ثم تغييبها بإخفاء ذِكرها، أو تمويه أسمائها، أو بتحويلها إلى "بهائم" أو "أصنام" أو إلى "عيدان" أو "عمدان خشب"، أو "عمدان حجارة"، أو إلى شياطين وأبالسة، كانت – منذ استنها موسى للتغطية على سرقاته من ديانته الأصلية وعلى مواءماته البراغماتية مع بعل صفون – واجباً "مقدساً" من واجبات الكهنة الذين ورثوه في تلك العملية الشاسعة من تلفيق العبادات. وفوق ذلك، كان هناك ما أشرنا إليه من حرص المؤلف الروائي على توفير المصداقية للشخصية الروائية التي يخلقها، سواء كان خلقه إياها خلقاً إبداعياً أصيلاً (وهو ما لم يحدث في خلق مؤلفي "الأسفار المقدسة" لشخصية يهوه) أو كان تخليقاً اصطناعياً عن طريق السطو الأدبي والاقتباس والاستنساخ من نصوص أقدم. ولقد ظل واضحاً للكهنة اللاويين باستمرار، بغير شك، لكونهم أدرى الناس بالكيفية التي خلق بها معبودهم، أن مصداقية المعبود بل والمعمار الديني كله كانت حرية بأن تتفتت وتنهار إذا ما انكشف ما انبنت عليه أسطوريته من سطو على المعبودات الأخرى التي وُصفت باستمرار بأنها لا شيء بجانب يهوه.

غير أنه، وراء وفوق هذه الدواعي العملية الصرف، كانت هناك الدواعي الأقوى والأعمق والأفعل، الدواعي ذات القوة القاهرة بحق، التي جعلت طمس الإلاهة طمساً تاماً مسألة حياة أو موت بالنسبة للمعبود وللعبادة ولكهنة المعبود وطموحهم إلى المُلك.

ومن استقراء تاريخ الديانة، وتعمّق المقاصد المخفاة والمقاصد المعلنة في النصوص ذاتها، تواجهنا تلك الدواعي على مستويين: مستوى أيديولوجي، ومستوى "تطهري".

ولنتدبر الدواعي الأيديولوجية أولاً، وهي ذات وجه "لاهوتي"، يمكن إجماله في شعار "يهوه وحده"، ويمكن الوقوف على طبيعته الحقيقية من تدبُّر القصد، الأساسي والأهم، من تخليق المعبود وصنع الديانة، وهو - تحديداً - القصد السياسي الإقليمي المتعلق بحيازة الأرض والاستيلاء على الثروة وإقامة المُلك. وجنباً إلى جنب مع ذلك الوجه "اللاهوتي"، وجه اجتماعي (وبالتبعية، سياسي/ اقتصادي) يمكن إجماله في علو مكانة الرجل على مكانة المرأة اجتماعياً، ويمكن الوقوف على مترتباته، وبالتالي على الدوافع اليه، في كون المرأة، في مجتمع يحكمه إله ملك ذَكَر يفوض سلطاته إلى كهنة حكام ذكور، "تطمّ" هي الأخرى، كفرج الإلاهة، تماماً، فلا تعود إلا مطية للرجل ومتاعاً له، وهو ما أوجزه سفر التكوين ببلاغة فائقة (ملقياً الوزر على المرأة نفسها لكونها، بفرجها، استدرجت الرجل إلى "المعصية" المميتة، أي الجنس)، في سطر الحوار الذي أُجري على لسان يهوه فجُعِل يهوه يقول فيه للمرأة: "وإلى رَجُلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك" (تكوين ٣ : ١٦).

فيما تعلق بجعل "يهوه وحده" ملكاً على "الشعب"، فطن الكهنة اللاويون الذين ورثوا المشروع الموسوي من موسى بعد ذبحه والتخلص منه، لأهمية التوصل إلى تجميع "الأسباط" والعشائر المتقاتلة المتناحرة، التي دُعيت - تشاعراً - بـ "الشعب"، تحت جناح عبادة مركزية موحَّدة. وفي الوقت نفسه، وجد أولئك الكهنة أن التوصل إلى ذلك من خلال إقامة هيكل موحَّد موحِّد يفرد فيه يهوه إلهاً/ ملكاً يحكمون "الشعب" بتفويض منه، ظل مستحيلاً طالما استمرت الخلافات والحزازات والانقسامات بين "الأسباط" وتفرعات الأسباط وهي فُرقة ظلت مستشرية حتى عهد داود، كما يوقفنا سفر المزامير، وكما يوقفنا اضطرار داود إلى الاستيلاء على "يروشلايم" من أصحابها اليبوسيين ليجعلها عاصمة لملكه تجنباً لضروب الغيرة والتنافس بين عشائر متناحرة متعادية. وذلك ما نجح فيه داود، غير أن مترتبات نجاحه لم تعمّر طويلاً، فسرعان ما اشتعل العداء بعد موت ابنه سليمان، وعاد الانقسام كأشد ما يكون، وعلى عبابه طغت العبادات التي استماتت كهنة "يهوه وحده" في قمعها وأوشكت على ابتلاع عبادة يهوه وربما القضاء عليها نهائياً وبالتالي فتح الطريق أمام استيعاب "الشعب" فلسطينياً، وهو ما اعتبرته المؤسسة الكهنوتية/ العسكرية أكبر خطر تهدد المشروع الموسوي من اساسه.

ومن هنا كانت حركتا الإصلاح الديني اللتان اضطلع بهما حزقيا "ملك" يهوذا الثالث عشر الذي حكم من ٧١٦ - ٦٨٧ ق.م. وعاصر الغزو الآشوري لـ "المملكة" الشمالية (السامرة / اسرائيل)، ثم يوشيا " ملك " يهوذا السادس عشر، الذي حكم من ٦٤٠ الى ٦٠٩ ق.م. وقام كسلفه حزقيا بعمليات تطهير دموية، صوناً لعفة الديانة.

وقد كان الهدف، في كلتا الحركتين، وربما كان من الأصح أن نقول في كلتا المرحلتين من حركة الاصلاح نظراً لوحدة المرمى والوسائل، جعل عبادة يهوه الديانة الرسمية والوحيدة لدولة لاهوتية تدار من هيكل يهوه بأورشليم.

غير أن طموح حزقيا ويوشيا كان أكبر من قدراتهما وأقل بكثيرٍ من حجم المشكلة التي حاولا التصدي لعلاجها، وهي -تحديداً - خروج "الشعب" رجالاً ونساء "من تحت يهوه " وارتداداته الى عباداته الأصلية، وبخاصة عبادة الإلاهة الأم، ملكة السموات، كما توقفنا أسفار إشعياء، وإرميا، وحزقيال خاصة.

والحقيقة التي ينطق بها تاريخ الديانة وتجلوها تماما النصوص ذاتها متى فُكّت طلاسمها وأُزيلت من فوق بعضها البعض طبقات التحرير المتراكبة في صياغتها، أن الصراع الأخطر والأهم الذي خاضه كهنة حركة يهوه وحده ضد عبادات "الشعب" الأصلية (التي وُصفت بإلحاح صفيق بعض الشيء بأنها "عبادات الفلسطينيين المنحطة ") كان صراعا مع ملكة السموات المتعِبة تلك، بأكثر مما كان صراعاً مع أي بعل أو ملك آخر.

وللباحث العظيم (والمضطهدة كتبه بضراوة)، جون أليجرو، تحليل نافذ الى كبد الحقيقة، في كتابه الهام "الشعب المختار -تهشيم الأسطورة "، يقول فيه:

"كانت المدرسة الفكرية التي أنجبت مجموعة الكتابات التاريخية التي ندعوها بـ "التثنوية " من العهد القديم (أي الأسفار من التثنية الى الملوك، التي جُمعت حوالي القرن السابع ق.م.) مدرسة وجدت في "الأب ابراهام" أسطورة تبرير جيدة لمفهوم العبادة الموحَّدة المركزية الذي سعت الى تحقيقه. وبغية احكام رباط ما كان قد تبقى من "الشعب" بعضه البعض في وجه المخاطرِ القادمة من بلاد الرافدين بات إسباغ صفة التاريخ على الأسطوريات الصحراوية القديمة أمراً اتصف بالضرورة وبالإلحاحية العاجلة. لأنه متى أمكن القول بأن كل اسرائيل انحدرت من صلب ابراهام، بات من الممكن -حتى للمجموعة المتنافرة من البشر التي كانت قد تبقت في يهوذا - أن تلقيِ ببصرها وراء، في المخيلة، الى ما قبل أي تجمع كونفدرالي سائب من اثني عشر سبطا، عوداً الى سلف واحد يتيح الانتساب اليه الشعور بالزهو للتمتع بنقاء عرقي لا قرين له في كل فلسطين والشعور بأن القوم كلهم أسرة واحدة اختارها إلهها الخاص بها وهي ما زالت تائهة في القفر وجمع شملها في الأرض الموعودة. وفوق كل شيء، كان ذلك يتيح للقوم الشعور بأنهم مختلفون عن جيرانهم الفلسطينيين. فإلههم ليس بعل. أما كل تلك المكونات لديانتهم التقليدية التي من قبيل البغاء المقدس، والسجود أمام التماثيل القضيبية وصور العشيرة، وعبادة الإلاهة الأم، وتكريس المني بقذفه، استمناء شعائرياً، في فوهة الفرج المفضي الى رحم الأرض في وادي قدرون بجوار القدس، فبات من الضروري التخلص منها مهما كان ذلك صعباً أو على مضض لأنه بات من المتعين التنكّر للتراث المختلط سعيا الى تعزيز الوضع المزعزع سياسيا، حتى وان كان ذلك على أساس سلف متخيَّل ومن خلال ديانة حصرية"(٨١).

وفي تلك "الضرورة" ضرورة التخلص من مكونات الديانة التقليدية للقوم وبخاصة من أوجهها الأهم والأشد تأصلاً، "التي من قبيل البغاء المقدس، والسجود أمام التماثيل القضيبية، وصور العشيرة، وعبادة الإلاهة الأم"، تلاحمت الدواعي الأيديولوجية بوجهها اللاهوتي ووجهها الاجتماعي، فأُدمجت في الدعاوى "التطهرية".

فلاهوتياً، اعتُبرت المرأة نجاسة، بل والنبع الذي لا نبع مثله لكل ما هو نجس، تشهد بذلك ضروب التابو(*) المتعلقة بالأنوثة ووظائفها الطبيعية، حتى الولادة. وسفر اللاويين مترع بالأمثلة اللاهوتية على ذلك الإيمان الراسخ بنجاسة المرأة، تلك النجاسة التي فسرها القباليون في سياق تفسيرهم للأصحاحين ٢ و٣ من سفر التكوين بقولهم أنه بخلق آدم من "تراب الأرض" باتت السيادة للمادة، وأنه من الجانب المظلم والسلبي للمادة، المتمثل في الشهوات الحسية ("اللحم" الذي تبرأ منه يهوه بتنصله من أي علاقة بالانسان لأنه من لحم وإلى "التراب" يعود حتى إذا ما طال عمره إلى مائة وعشرين سنة [العدد السحري ٤٠ مضروباً في العدد السحري ٣]، في التكوين ٦ : ٣) خلقت المرأة. وتبعاً لذلك، بات من الممكن للتلموديين وللقبّاليين على السواء الحكي عن مضاجعة المرأة الأولى، حواء، للحيوانات وبالذات الثعابين، وللشياطين.

وكما هو واضح، ظل مصدر تلك النجاسة فرج المرأة. وكما هو واضح أيضاً، ظلت عملية تشبيع الفرج بكل ذلك القدر المهول من النجاسة أداة فعّالة ومفيدة للغاية، بأيدي صناع أسطورية يهوه، على المستوى "اللاهوتي"، في محاولتهم إعلاء يهوه ترانسندنتالياً كما في الصياغة الكهنوتية لحكاية التكوين. فـ "الرب الإله يهوه" صُوِّر كالضحية البريئة الناصعة البياض لعدوان "التراب" الذي تمثل في الانزلاق إلى ارتكاب "الخطيئة الأصلية". فيهوه، وقد نزل ليتمشى في جنة عدن ساعة الأصيل، "ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار" (تكوين ٣ : ٨)،يفاجأ بأن المرأة (حواء) أغوت الرجل (آدم) فـ "أعطته من الشجرة التي أوصاه يهوه أن لا يأكل منها، فأكل" (تكوين ٣ : ١١ و١٢)، وللفور، يستدير يهوه إلى المرأة فيقول لها "ما هذا الذي فعلت؟" ومن فرط غضبه يلعن المرأة، ويلعن الحية، ويلعن الأرض و "التراب"، ويحكم على آدم ونسله بأشغال شاقة مؤبدة تنتهي بالإعدام (الموت) لأنه "تراب وإلى التراب يعود" (تكوين ٣ : ١٣ - ١٩).

بهذه الصياغة، فصل صنّاع اللاهوتية ما بين يهوه و "اللحم"، "التراب"، "النجاسة"، الفرج، وفي الوقت ذاته، باستخدام هذه "التطهرية" (شديدة الغباء الغيبي في الواقع لما فيها من تناقض ملغ للعقل بين أمر يهوه للإنسان بقوله "أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعل كل حيوان يدب على الأرض" (تكوين ١ : ٢٨)، وبين اعتبار الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها تنفيذ ذلك الأمر،

(*) ارجع في ذلك إلى "نرجسية الحياتية والسحر" بكتابنا "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص ٤٥٦/ ٤٥٧، وتحت "تابو الطمث والولادة"، ص ص ٤٣٤ - ٤٣٦.

أي التناسل، "نجاسة" عقابها الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة المنتهية بالاعدام) نفذ الكهنة إلى القصد الاجتماعي الباترياركي، وهو إخضاع المرأة وقهرها اجتماعياً، وتجريدها من الحقوق سياسياً واقتصادياً، من خلال إدانة فرجها بوصفه نبع النجاسة، أي بتجريدها من مصدر مكانتها في ظل التنظيم الماترياركي للمجتمع ومن كل الحقوق التي كانت مترتبة على تلك المكانة.

وذلك مسعى باترياركي وجدناه بادئاً عند السومريين مُعبراً عنه أسطورياً بمحاولة الإله الملك البطل القضيبي إنكي تجريد ملكة السموات إينانا من شارة ملوكيتها ونبع سلطانها، "قارب السموات"، أي "زورقها مزموم الشفرين"، أي فرجها. والمغزى الأسطوري "اللاهوتي" لذلك كان، في حالة إنكي، نفس المغزى الأسطوري "اللاهوتي" في حالة يهوه. فأخذ "قارب السموات" كان اغتصاباً لوظيفة الأمومة الكونية من الإلاهة ملكة السموات بأخذ فرجها منها، في الأسطورة السومرية، و بـ "طم" فرجها،في الأسطورية اليهيوية، وبتحول الإله الذكر القضيبي - نتيجة لذلك الاغتصاب - إلى إله أندروجيني خنثى، ذكر وأنثى، أب وأم، في آن معاً، على النحو الذي يقطع به خلق آدم، "على صورة يهوه، ذكراً وأنثى".

وفي بابل، نجد الصدى القوي لذلك العدوان على الألوهة المؤنثة، متسماً بالعنف السامي، مفتقراً إلى الديبلوماسية المتحضرة في الأصل السومري.

ففي ملحمة جلجامش مشهد درامي بحق بين البطل القضيبي النصف بشر ونصف إله (كهرقل اليوناني) جلجامش، والإلاهة عشتار ينبئ (مثلما أنبأ انقلاب حورس على آست (إيزيس) في الأسطورية المصرية، وإطاحته برأسها) عن نوعية الصراع، الذي جسدته تلك الأساطير، بين الألوهية، البطولية، الملوكية الباترياركية القضيبية، والألوهة المؤنثة(٨٢)، ذلك الصراع عينه الذي نجده ناشباً، مموهاً ملغّزاً في حكي التوراة وسائر أسفار العهد القديم.

في ذلك المشهد من مشاهد ملحمة جلجامش (النسخة البابلية من أسطورة اتراحاسس السومرية) نلتقي بالبطل وقد عاد، إثر انتصاره، هو وصديقه انكيدو، على هولة غابة الأرز خمبابا، آخذا في الاغتسال، وتمشيط غدائر شعره على كتفيه، ناضياً عنه ثيابه الموحلة من أثر المعركة، مرتدياً ثيابه الملكية وواضعاً تاجاً ذهبياً على رأسه ..

"(آنذاك) رفعت عشتار الجليلة عينيها فأسرها جمال جلجامش
ففتحت عشتار الجميلة فاها وقالت :
تعال إلي يا جلجامش وكن عريسي
واعطني منيك المخصب بزرة جسدك
دعني أصبح عروسك وتصبح بعلي
ولسوف أهبك مركبة من اللازورد والذهب
عجلاتها ذهب وقرونها نحاس

وبدل البغال سوف تكون جيادك التي تجرها شياطين العاصفة(*)

غير أن جلجامش، فيما تلاحظه عشتار من تعابير وجهه، لا يبدي استجابة لمفاتحاتها الجنسية الصريحة ولا لوعودها الباذخة، ولذا فإن الإلاهة - وقد غلبتها شهوتها - تتجاهل بروده، وتواصل بذل الوعود له أملاً في استمالته:

"أنت، إذا ما دخلت بيتنا الذي يعبق بفوح غابة أرز
سوف تقبّل قدميك عتبته وعرشه
ولسوف يحني الهام أمامك ملوك وحكام وأمراء
ويأتون إليك بغنى أممهم من الجبال ومن السهول
ولسوف تلد نعاجك الحملان اثنين اثنين
وتلد عنازك الجداء ثلاثاً ثلاثاً
ولسوف تفوق حميرك البغال سرعة
ولن يكون لثيرانك قرين في كل الأرض
ولسوف يطير صيت خيول مركبتك إلى أقاصي الأرض"

وكما توقفنا مقارنة النصوص، نجد في غواية عشتار لجلجامش هذه أوجه تماثل، لا مجرد تشابه، بالغة القوة، مع ضروب الإغراء التي تقول النصوص التوراتية أن يهوه حاول استخدامها لإغواء "حبيبة نفسه"، ابنته، معشوقته، اسرائيل، ليجعلها تظل "تحته".

في بداية هذا الجزء من النص، تغري عشتار جلجامش بفرجها، "بيتها" الذي ترغّبه في دخوله بقولها أنه "يفوح بعبق غابة أرز". والغابة هنا شعر تبة العانة. و"البيت"، هو الفرج، معبد الإلاهة، أما الإشارة إلى "غابة الأرز" (والأرز كالتّنوب شجر من الفصيلة الصنوبرية له تداعيات أسطورية جنسية ظلت ملازمة له في استخداماته التوراتية بالعهد القديم) فإشارة صريحة إلى الشجر المقدس للإلاهة الأم في كل تجلياتها، سواء دعيت بـ"عشتار" أو بـ"سيبيل"، ما من شك في أنها كانت نذير شر لدى جلجامش، على النحو الذي سنستظهره بعد من خلال رده على مفاتحات عشتار. فالأرز استخدمت بعض أنواعه في البخور (Libocedrus decurrens)، لكنه - في الوقت نفسه- ارتبط بفكرة الانقطاع لعشق الإلاهة وبخطر الإخصاء والموت لمن يخون عهدها. فعشتار قد تكون أغرت

(*) وبطبيعة الحال، لم يتوان كهنة يهوه، عندما خلبت ألبابهم فكرة تلك المركبة، إبّان السبي في بابل، ولم يضيعوا وقتاً، فأخذوا المركبة - بغير إمهال - وأركبوا فيها يهوه في الفضاء العلوي، فوق السحاب، وجعلوا الرياح وشياطين العاصفة جياداً تجرها، تماماً كما وعدت عشتار جلجامش، وهو سطو ثقافي آخر نجده في أسفار "نبييميه" كسفر حزقيال، وفي النسخ التي حُررت بابلياً من المزامير وهي تلك التي نرى فيها يهوه راكباً مركبته "وحوله عاصف جداً"، ونجده جاعلاً "الرياح خدامه". وإن بدا لنا ذلك غريباً بعض الشيء، فلنذكر أنفسنا أن ملحمة جلجامش وأصلها السومري كانا من المنابع الأسطورية التي وقع السطو عليها بتوسع في شأن أسطورة الطوفان، بل وفي اختلاق حكاية يوسف وسنوات مصر السبع العجاف. (ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة"، تحت "أسطورية الطوفان"، ص ص ١٦٦-١٩٤، وتحت "يوسف وسنوات جلجامش السبع العجاف"، ص ص ٧٢-٨٠).

جلجامش بذكرها لذلك العبق الشبيه بـ "فوحٍ" خشب الأرز (البخور الشعائري المقدس)، إلا أنها – في الوقت ذاته – ألمحت، اسطورياً، إلى أن جلجامش، متى دخل بيتها (متى أسلم قضيبه لفرجها) لن يكون له خروج "من تحتها" إن صح التعبير (وهو يصح متى أخذنا بمغزى مشكلة ليليث مع آدم عندما أصرّت على أن تكون مضاجعة آدم لها بأن يكون "تحتها"، فلما لم يقبل هجرته).

وبالمقابل لهذا التأييد للعلاقة، وعدت عشتار بأن "عتبة" بيتها (مدخل فرجها) و"عرشه" (رحمها) سوف يُقبلان قدميه"، وبفضلهما ستتلاحق كل النعم الأرضية التي عددتها الإلاهة.

ونحن – متى انتبهنا إلى التماثل اللافت للنظر بين وعد عشتار لجلجامش بأنها، إذا ما استجاب إلى دعوتها، "ودخل بيتها"، سوف تجعل "الملوك والحكام والأمراء يحنون الهام أمامه ويأتون إليه بغنى أممهم"، وبين وعود نبييم يهوه لمعشوقة يهوه، ابنته اسرائيل – سوف نلقي بالاً بغير شك إلى التماثل بين وعود عشتار، اللاحقة لذلك الوعد، بالخصب، وبين وعود يهوه في سفري اللاويين والتثنية.

فمثلما وعدت عشتار جلجامش بإخضاع الملوك له وتمكينه من ثروات أممهم، وعد يهوه إسرائيل بهذه الوعود:

(١) "هكذا قال يهوه، ها أني أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي. فيأتون بأولادك في الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن. ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك. بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك" (إشعياء ٤٩ : ٢٢ و٢٣)

(٢) "وبنو الأغراب (الجوييم) يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك.. وتنفتح أبوابك دائماً. ليلاً ونهاراً لاتغلق. فيؤتى إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم"
(إشعياء ٦٠ : ١٠ و١١)

(٣) "ويقف الأغراب (الجوييم) ويرعون غنمكم، ويكون بنو الغريب حرّاثيكم وكرّاميكم (يحرثون حقولكم ويفلحون كرومكم) أما أنتم .. فتأكلون ثروة الأمم (الجوييم) وعلى مجدهم تتأمّرون"
(إشعياء ٦١ : ٤ –٦)

ومثلما جعلت عشتار دخول جلجامش "بيتها" لتقبل "عتبة" ذلك البيت قدميه ويستقبله "عرشها" شرطاً وحيداً لجعلها ملوك وأمراء وحكام الأرض يركعون أمامه ويأتونه

بثروات أممهم، جعل يهوه بقاء "حبيبة نفسه" ابنتـه اسرائيل، "تحتـه"، "زوجـة لـه" فتكـون "أرضها بعولة وتقول له يا بعلي"، وجعل "انفتاح أبوابها أمامه ليل نهار لا تغلـق"، شـرطاً لا مساومة فيه لجعله ملوك الأرض يلحسون غبار رجلي ابنته المعشوقة، وجعلهم خدمـاً لبنيهـا وجعل زوجاتهم خادمات مرضعات لبناتها، وتمكين اسرائيل من الاستيلاء على غنى الأمـم، وأكل ثروات الأغيار والتأمُّر على مجدهم.

وفي نهاية الأمر، على الرغم من صرامة التحرير، نجد الأصل البابلي، الذي حاولت عشتار إغواء جلجـامش فيـه، ناطقـاً بقـوة وجـلاء، سـواء فـي قـول إشـعياء "فـترضعون وعلى الأيـدي تحملـون وعلـى الركبتيـن تدللـون.. لأنـه هـوذا يهـوه بالنـار يـأتي ومركباتـه كزوبعة" (٦٦ : ١٢ و١٥)، أو في نصوص سفري اللاويين والتثنية التي نجـد أصولهـا فـي وعود عشتار لجلجامش بأنها، إذا ما دخل هو "بيتها" وتربـع علـى عرشـها، سـوف تجعـل نعاجه تلد الحملان اثنين اثنين، وعنازه تلد الجداء كل ثلاثة في بطن، وتجعل ثيرانه بلا قرين في فحولتها وخصوبتها، وجياده، بل وحميره، بلا قرين في سرعتها وقوتها.

فمقارنـة هـذه الوعـود بوعـود يهـوه الخاصـة بـ "عشـتاروت غنمـك وبقـرك"، إذ تستحضر إلى الذهن التحليل الرائع لرافائيل باتاي لشفرة الـ "عشتاروت" في اللاويين والتثنية التي استخدمت طمساً لـ "الرحم" (ولفرج الإلاهة)، توقفنا على أنه لم يكن أمام مـن سـطوا على أسطورية الإلاهة لحساب معبودهم الذكر الذي أُعلي – بعد تاريخ طويل من التشـبيهية ومن انكشاف الهوية القضيبية – فجُعل سماوياً، أثيرياً، لا جسـدي، ولا جنسـي، وأُسـكن، وقد أُخرج من تابوته، فـوق الجلـد، إلا أن يقومـوا، بمنتهـى الإصـرار والضـراوة الكهنوتيـة المتخندقة في تألهها على ما سرقت وتعاليها على ما نهبت، بتلك العمليـة التـي لا سـبيل إلا تسميتها بـ "طم" فرج الإلاهة وإصعاد القضيب المعبود فوقه.

وتلك عملية كانت قد بدأت – متى عدنا إلـى منابعهـا التاريخيـة – فـي بـابل التـي انبنت حضارتها على الانتصار الكوني للإله البطل القضيبـي مـردوخ علـى الألوهـة المؤنثـة، وتأسست طريقة حياة أهلها على المنطلقات الباترياركية عينها التي ألهمت صنّاع أسـطورية يهوه في محاولتهم صوغ طريقة حياة قومهم حول عبادة الإله البطل القضيبي يهوه.

ففي ملحمة جلجامش، الإبداع الأسطوري الأهـم لتلـك الحضـارة البابليـة، نفاجـأ بترفُّع الملك البطل القضيبي الذي عُنونت الملحمة باسمه، علـى غوايـة فـرج الإلاهـة وهـي غواية شملت الوعود بالمنعة والتفوق وبالمتعة الجنسية التـي لا تحـد وببركـة "عشـتاروت" القطعان، أي – إجمالاً – النعم الرئيسية للإلاهة :

"آنئذ، فتح جلجامش فاه وأجاب عشتار المجيدة قائلاً:
إذا اتخذتك لي عروساً، ماذا سيكون مصيري؟
إن كل عشاقك قد وجدوك كالموقد الذي تخبو ناره في ليل الصقيع
والباب الخلفي المخلوع الذي لا يحمي الدار من بغي الريح
وجدوك كالحصن الذي يبتلع أبطاله

كالقار الذي يسوّد من يحمله
كالقِربَة المثقوبة والجدار المنهار
وكآلة حرب لكنها في يد العدو"

ولا يكتفي جلجامش بهذا الرفض المهين لمفاتحات الإلاهة ووعودها، فيأخذ في تعداد المصائر السيئة التي لحقت بكل مخلوق أو كائن عشقته عشتار، مفصحاً - بذلك - عن العمق الأسطوري للرؤية الباترياركية التي أخذها صناع أسطورية يهوه فعمّقوها وأورثوها للمسيحية ممثلّة في الفزع التطهري من الفرج، حفرة الجحيم.

وبطبيعة الحال، تستشيط عشتار غضباً، وبذلك الغضب الأنثوي العارم تعطي الأسطورة لساناً شعرياً للتصور الإنساني لما بدا للمخيلة الجمعية في الزمن الباترياركي أن الإلاهة لا بد شعرت به، وهي ملكة الكون السابقة التي انتزع منها "قارب السموات"، زورقها مزموم الشفرين، عرشها، وأُنزلت من عليائها حتى بات بوسع بطل فان كجلجامش أن يستخفّ بوعودها، ويحتقر عطاياها، قائلاً لها "أنت، إن عشقتني، سوف تجعلين مصيري سيئاً كمصائر كل من عشقت قبلي".

ومن فرط غضبها، تترك عشتار الأرض صاعدة إلى ما فوق الجلد، وفي حضرة أبيها آنو (كبير الآلهة) وأمها آنتم :

"تفتح عشتار الجميلة فاها شاكية
يا أبت، إن جلجامش قد كوّم الإهانات فوق رأسي
جلجامش، يا أبت، عيرني بالمثالب
وقبّح عليّ عشقي وكل أفعالي!"

غير أن آنو - بمنطق باترياركي أصيل - يوبخها، قائلاً :

"أنت التي تحرشت به فجلبت الإهانة على رأسك
وجعلته يعدد مثالبك ويقبّح عليك فحشاءك يا عشتار!"

وإذ ترى عشتار أن آنو منحاز إلى جانب جلجامش، تشتعل بغضب عارم، وتهدد كل الآلهة، لا آنو وحده، معلنة :

"إن لم أمكّن من الانتقام من جلجامش
سوف أحطم باب الهاوية وأخلع مصاريعه
فيصعد الموتى ويغطون وجه الأرض
ويأكلون خبز البشر والآلهة!"

وإذ ذاك تصغي الآلهة لصوت العقل، فيسأل آنو عشتار عما تريد. لكنه ينزعج عندما توقفه على طلبها، وهو أن "يسلّمها مقود ثور السماء الجامح" (الرمز القضيبي الأقصى لقوة الألوهة المذكرة)، كيما تتمكن من التغلب على جلجامش الذي جرؤ فترفّع عليها وتمحقه. ويحاول آنو المماطلة، فيقول لعشتار أن تسليمه إياها مقود ذلك الثور

السماوي، المسيطر على "خزانات السماء وسدودها" (أي أنه المجسد للحيازة القضيبية لألوهية المياه التي كانت قبلاً من مكونات ألوهة الإلاهة الأم) لن يكون له مؤدّى إلا امتناع الغيث، وانتشار القحط، فتحل بأرض الوركاء سبع سنوات عجاف (وهو ما اختلس في حبك قصة يوسف وتفسيره لحلم فرعون)، ويسألها عما إذا كانت - كما نصح يوسف فرعون في القصة المختلسة - قد "خزّنت ما يكفي من الغلال في البيادر". وإذ تجيب عشتار، بنفاد صبر من مماطلة آنو، بأنها فعلت، يسألها الإله الأب - وهو ما فات مختلس النص أن يجعل يوسف ينبّه إليه فرعون - "وهل خزنت ايضاً مؤونة سبع سنين من العلف للماشية؟"، فتؤكد له - ضيقة الصدر - أنها "خزّنت غلالاً وأعلافاً تكفي الناس والحيوان". وإذ ذاك، لا يجد آنو مناصاً من "تسليمها مقود ثور السماء الجامح "أي يفوّض إليها، راغماً، قدرة الألوهة المذكرة.

غير أن عشتار - على الرغم من حصولها على ذلك التفويض - تفشل في تحقيق انتقامها. والذي قالته الأسطورة في ذلك - ضمناً - أنها، لأنها إلاهة أنثى، لم تنجح في استخدام القدرات المذكّرة التي حصلت عليها بابتزاز الآلهة الذكور. فجلجامش وصاحبه انكيدو يغلبان "ثور السماء الجامح" ويجهزان عليه. وبقتل ذلك الثور، تضع الأسطورة خاتم التصديق الباترياركي على مشروعية علو الألوهة المذكّرة وارتفاع القضيب المنتصر (حتى وان كان بشرياً كما في حالة جلجامش وانكيدو) على ملوكية فرج الإلاهة المغوي، منبع كل المشكل. وهكذا فإنه عندما تعتلي عشتار أسوار الوركاء وتقف على شرفاتها لاعنة جلجامش لأنه جرؤ فانتصر وألحق إهانة أخرى ماحقة بها، يقذفها انكيدو مستهيناً، بفخذ الثور، مهدداً إياها بأنه، لو أمسكها، سيفعل نفس الشيء بها ويربط أحشار الثور حول ردفيها، ولا تملك عشتار، في مواجهة هذا الإنزال لمكانتها والإذلال لشخصها إلا أن تجمع "القديسات، الكاهنات، بغايا معبدها المقدسات، فتقيم معهن المناحة والبكاء"(٨٢).

ومن الأدلة على أن عبادة الإلاهة استمرت بعد كل ذلك قروناً ولم تندثر، هذا النص الذي أُجري، بعد صدام جلجامش وعشتار بقرون، على لسان الإلاهة، مسمّاة باسم "صوفيا" (أي "الحكمة"، التي جُعلت في اليهودية زوجة من عديد زوجات يهوه في حريمه(*)، باسم الـ "حكمَه")، في ترنيمة غنوصية من نصوص نجع حمادي(٨٣):

"أنا هي التي أُنزلت من عرشها
الآن جئت إلى مَن ظلوا يتفكرون في
الآن جئت إلى من حملوني في قلوبهم
وظلوا يبحثون عني.
أنا هي البدء والمنتهى
أنا المعظمة والمهانة

(*) انظر الفصل الخاص بـ "حريم الملك يهوه"، بالكتاب الثاني : "بورنوجرافيا الدين".

أنا البغي والمقدسة
أنا الزوجة، وأنا البكر البتول
أنا الأم والإبنة
وأنا العاقر التي ما أكثر من أنجبت".

ذلك الثبوت، ذلك التأصل في عقول وأرواح أجيال وراء أجيال من البشر، إن لم يكن لشبح الأم الإلاهة، فلصدى صوتها وهي باكية اغتصاب عرشها، هو ما استمات صناع أسطورية يهوه من الكهنة اللاويين في ردمه بطم فرج الإلاهة وإسكات صوتها بعد أن ظلوا يسطون عليها ويسلبونها كل ما سلبوه، حتى صفة الأمومة، لمعبودهم المخلّق.

ولقد كان من الطبيعي، وقد سطا أولئك الكهنة على أسطورة جلجامش فسرقوا منها حكاية الطوفان وصنعوا منها مجداً ليهوه، ألا يفرّط مخلّقو يهوه في فرصة السطو على الصدام القضيبي الأسطوري بين جلجامش والألوهة المؤنثة ممثلة في عشتار. ولذا نجد جلجامش مُستخدماً، مع طمس ذكره بطبيعة الحال، نفس استخدام الكهنة اللاويين لبعل ملكارت (هرقل الفينيقي، شبيه جلجامش البابلي واتراحاسس السومري) مع تسميته – كما أسلفنا – باسم مسروق من الفلسطينين، هو شمشون ("ابن الإله شمش"، نفس الإله الذي قدّم إليه جلجامش وانكيدو قلب "ثور السماء" إعادة للبطولة الإلهية المذكرة إلى نصابها). فكلا البطلين القضيبيين، جلجامش وبعل ملكارت، استخدما كتجسد بطولي ليهوه في المعركة مع الإلاهة. ونحن نذكر أن الانتصار، في تقمص يهوه لبعل ملكارت باسم شمشون، اتخذ صورة قهر الإلاهة المتجسدة في حيوانها المقدس، الأسد، وشق فرجها مرمّزاً بفكي ذلك الأسد، مثلما شق مردوخ جسد تيامات (تعامة) وفرجها. أما في جلجامش، فإن الصدام كان أشمل وأكمل. فهو قد بدأ بالرفض الذكوري البطولي الانقياد لغواية ذلك الفرج، ثم انتهى بقهر ادعاء الإلاهة حيازة القدرة القضيبية المذكّرة من خلال "ثور السماء الجامح"، بقتل ذلك الثور، وإلقاء فخذه في وجه عشتار ثم تقديم قلبه إلى الإله البطل الذكر شمش، كرد لتلك القدرة القضيبية المذكرة الى اصحابها، الآلهة الذكور.

وفي سفر إشعياء، وقع السطو على كل ذلك بالأسلوب الدائري المموه الملغّز. ومع ذلك التلغيز، ظل السطو جلياً في أخذ مركبة جلجامش التي وعدته بها عشتار، مركبة الإعصار التي تجرها شياطين العاصفة : "هو ذا يهوه بالنار يأتي ومركباته كزوبعة" (إشعياء ٦٦ : ١٥)، وفي قضيبيته الممثلة بسيفه مضافاً إليه تجسده البركاني الأصيل: "لأنه بالنار يعاقب وبسيفه" (إشعياء ٦٦ : ١٦)، "نار قدامه تأكل، وحوله عاصف جداً" (مزمور ٥٠ : ٣)، "يعاقب بسيفه القاسي العظيم الشديد" (إشعياء ٢٧ : ١)، وناطقاً بقوة في وصف حزقيال لمركبة يهوه بعجلاتها الأربع التي صنعتها كمنظر الزبرجد (حزقيال ١ : ١٥-٢٢).

فالصراع الذي نشب بين الآلهة القضيبية المذكّرة ديبلوماسياً سلساً في مصر وسومر، واحتدم فمال إلى الخشونة والعنف في بابل، واستقر جنسياً في كنعان، بـ "ركوب

بعل عانات في الحقل سبعين مرة"، استمر، على طول العهد القديم وعرضه، مطموراً في طوفان تطهري مفتعل كوّم فوق فرج الإلاهة ورحمها تلاً أخذ اسمه من جبل صفون، فجعل "جبل صهيون"، دُفِع الوثن القضيبي المؤابي المدياني ياه، يهوه، الذي سرقه موسى، متسلقاً إلى قمته ليصعد منه إلى ما فوق الجلد ملكاً على الأرض وكل ما عليها ومن عليها من سائمة ودبابات وأمم.

- - - - -

هوامش التقديم
والباب الأول

هوامش التقديم والباب الاول

(تشير الأرقام التي بين أقواس [ ] إلى الأعمال
الوارد ذكرها بالببليوجرافيا بآخر الكتاب)

(١) فالباحث، متى استُدرج فكرياً إلى البحث في جذور ظاهرة بالغة الأهمية إنسانياً كنشوء الديانات في العالم القديم، لا يسعى إلى بذاءة، ولا يمكنه - في الوقت ذاته - أن يلمّ عزاله ويهرول راجعاً إلى واحة الإيمانيات المريحة متى واجهه البحث بكمون عناصر بالغة الفعالية كالجنس والسحر في تلك الجذور. انظر، في شأن هذا القضية، مثلاً، ص ٨١ من المرجع [٥٩]، "الإنسان ورموزه"، لكارل يونج وآخرين، و ص ص vi-xi من مقدمة [١٢٥]، "العبادة القضيبية"، لجورج رايلي سكوت، و ص ص ٣٢٠ - ٣٢٤، الجزء الأول، من [١٢٦]، "قصة العبادات القضيبية"، للباحث لي الكساندر ستون، و ص ٣٥ وما بعد من [١٢٢]، "عبادة الجنس ورمزياتها"، لسانجر براون.

(٢) انظر في ذلك ص ص ٣٥١ - ٣٥٣ و ٣٧٣ من [٨٢]، "نشوء الدين"، لسيجموند فرويد، وإلى ص ص ٢٨٧ - ١٩٣، و ٣٣٥ ، ٣٧١، من [١٦٥]، "الذهن اليهودي"، لرافائيل باتاي، و ص ص ١٤١ - ١٧٥ من "أسطورة الجنس اليهودي"، [١٦٤] للمؤلف نفسه، وإلى المؤلفات التالية:

Kaplan, M. : "Judaism as Civilization", Thomas Yoseloff, N.Y., 1934.

Robach, A.: "Jewish Influence in Modern Thought", Sci-Art Publishers, Cambridge, Mass., 1929.

Roth, C.: "The Jewish Contribution to Civilization", Harper & Bros, N.Y., 1940.

Runes, D.: "The Hebrew Impact on Western Civilzation", Philosophical Library, N. Y., 1951.

وانظر أيضاً: "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ١٠، ٢٣ - ٢٥، ٢٨، ٦٥، ١١٨، ١٢١، ١٣٣، ١٦٥، ١٨١، ٢٠٩/ ٢١٠، ٣٥١، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٨.

وفي "السحر في التوراة والعهد القديم"، انظر "الشعب المختار"، بالصفحات المشار إليها في ص ٥٥٥، و "الشعب الأسمى"، و "الشعب المقدس" بالصفحات المشار إليها في ص ٥٥٦ من الفهرس الأبجدي.

وفي "المسيحية والتوراة"، انظر ص ١٠٦، والهامش [٥١] عن العرّافة اليهودية سيبيل.

وانظر أيضاً كتاب جون ألجرو، "الشعب المختار"، المرجع [١٦٦].

(٣) انظر في ذلك "التاريخ الطبيعي" لبليني الكبير، [٦٥]، وارجع أيضاً إلى [٦٢]، "الإلاهة البيضاء"، لروبرت جريفز، ص ١٦٦، وانظر أيضاً ص ١٨٣ من المرجع [١٢٨]، "الإيروتيكا اليهودية"، للباحث ألن إدواردز، وارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، تابو الطمث والولادة، ص ص ٤٣٤ - ٤٣٦، وإلى الصفحات ٣١، ٢٢٦، ٢٦٩، ٢٨٢ و ٢٩٠ من [١٧٠]، "الأم العظمى"، لإريك نيومان.

(٤) والأرجح أن هذا التداخل لطمث الأنثى في الشر أخذه اليهود من تأثرهم بمعتقدات الفرس الدينية بعد انهيار الامبراطورية البابلية وارتماء اليهود في أحضان "مسيح الرب قورش" وشعبه. ففي أسطورة التكوين الفارسية التي أخذ اليهود منها ثيمة "إله النور"، و "أبناء النور" (انظر "المسيحية والتوراة" ص ص٣٠٤ - ٣١٣) في مواجهة "إله الظلام" و "أبناء الظلام"، أي الشيطان والوحش في رؤيا اللاهوتي، "والأمم" في رؤى النبييم، نعثر على تجسد الخوف اللامتعقل من سحرية طمث المرأة وهو - كما نجده عند يهوه - يتجاوز بكثير مجرد نفور من "نجاسة" أو تأفف من "قذارة". فإله الظلام أنجرو ماينيو (الروح الشرير)، الذي أُسمي في تطور عبادات فارس بـ "أهريمان" (الإله الضد)، كان قد اتفق مع أهورا مازدا (إله النور والحكمة)، الذي أُسمي فيما بعد باسم "أورمازد"، اتفاقاً يبدو أن يوحنا اللاهوتي استمد من خلال تأثر اليهود به فكرة "الألف سنة" التي يغيب خلالها الشيطان عن الأرض. وكان الاتفاق بين الإلهين الفارسيين يقضي بأن يخلي كل منهما عرش الكون للآخر كل ثلاثة آلاف سنة، يخلد فيها الذي ينزل عن العرش إلى النوم. وبينما إله الظلام أنجرو/ أهريمان غارق في نومه، تأتي الشيطانة الأنثى "ياهي" (تجسد الشر الكامن في دم الحيض) لتوقظه بعد أن انبجست من ظلمة الكهف (الفرج)، فتصرخ في أذنه بصوت ثاقب "قم، يا أبت. يا أبانا جميعاً. ولسوف أسير أنا أمامك وأصنع في العالم من الشر ما يجلب الشقاء على قلب أهورا مازدا (أورمازد) إله النور وملائكته، فأفسد كل بشر صالح، وأضعف كل ثور قوي، وأسمم كل بئر ماء وكل عين، وأذبل النبات، وألوث حتى النار وكل الخليقة". وإذ ذاك يستيقظ إله الظلام ويقبّل "ابنته" ياهي على جبينها، ويذهب ليحتل العرش ويجلب الظلام على العالم طوال ثلاثة آلاف سنة.

(٥) انظر الفصل المعنون "الأسطورة والواقع" من المرجع [١١]،"قبل الفلسفة"، لفرانكفورت، وارجع أيضاً إلى [١٥٩]، كتاب بلاتافسكي الرائع، "رفع الأستار عن إيزيس"، جـ٢، عن التأثير الواسع بالغ العمق للإلاهة الأم آست وللديانة المصرية بوجه عام في كل من اليهودية والمسيحية، وارجع ايضاً إلى [٢٠]، "آلهة المصريين"، و [٢١]، "أوزيريس وعقيدة البعث عند المصريين"، لسير واليس بدج.

(٦) ارجع إلى [٦٧]، لأبوليوس، ترجمة روبرت جريفز، وارجع أيضاً إلى :

Plutarch: "Isis and Osiris", Book 5 in Plutarch's Moralia, tr. by F.C. Babbit, Loeb Classical Library, William Heinman, London, 1969.

(٧) انظر [٤١]، "كانوا يكتبون على الطين"، لادوارد كييرا، وانظر أيضاً [٢٦]، "السومريون" لصموئيل نوح كريمر، وكذلك : "السجلات القديمة لآشور وبابل"، [٣٠]، لديفيد لوكنبيل.

(٨) انظر [٨٢]، "نشوء الدين"، لفرويد، ص ٢٨٣. وقد كان منشأ ذلك ضرورة إخفاء الأصول التي أخذت النصوص منها في غمار عملية "توفيق العبادات" (التعبير العلمي المهذب عن عملية تلفيق العبادة من حصيلة المسروقات. انظر، مثلاً، [٨٥] "التاريخ المبكر لله" لمارك سميث بالصفحات ٦، و ١١، و ١٢، و ١٤٦، وإلى [٧٣]، "تراث من الحكمة - الاسهام المصري في حكمة اسرائيل"، لجلندون برايس، وبخاصة ص ص ٢٠١ و ٢٠٢، وارجع ايضاً إلى :

Ahlstrom, G.: "Aspects of Syncretism in Israelite Religion", Lund:Gleerup, 1963

Rummel, S.: "Ras Shamra Parallels, The Texts from Ugarit and the Hebrew Bible" Pontificium Institutum Biblicum, Rome, 1981.

Heidel, A.: "The Bablynonian Genesis" Chicago U.P., 1963.

(٩) انظر في ذلك [٣٢]، "أسطورة الطوفان البابلية"، لادموند سولبرجر، وارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة" عن الأصول السومرية البابلية لحكاية الطوفان في العهد القديم، ص ص ١٦٦ - ١٩٤، وارجع إلى "ملحمة جلجامش" لطه باقر، منشورات وزارة الاعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٥، الفصل الرابع، "قصة الطوفان، كما يرويها أوتو نبشتم الخالد لجلجامش"، ص ص ١٢٥ - ١٤٥، وانظر أيضاً الترجمة النثرية في [٣٣]، "ملحمة جلجامش" لسندرز، ص ص ١٠٥ - ١١٠، وارجع كذلك إلى [٣١]، "أساطير من أرض الرافدين"، نصوص مترجمة من الأصول المسمارية مع مقدمة ،لستيفاني دالي، "اتراحاسس"، ص ص ١ - ٣٨، وحكي أوت نبشتم لجلجامش عن الطوفان باللوح ١١ من الأسطورة، ص ص ١٠٩ - ١١٦ وانظر أيضاً ترجمة كريمر بالمرجع [١٧٥]، "نصوص من الشرق الأدنى القديم"، تحرير جيمس بريتشارد، للنص السومري، ص ص ٤٢ - ٤٤، وارجع ايضاً لى [٤١] "كانوا يكتبون على الطين" لادوارد كييرا، وانظر :

Heidel, A; "The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels", Chicago, 1946, pp. 224-269.

Budge, E.: "The Babylonian Story of the Deluge and the Epic of Gilgamesh", British Museum publications, London, 1920.

(١٠) ارجع في ذلك إلى "قراءة سياسية للتوراة" : لابان الآرامي، ويعقوب الآرامي، من الفهرس الأبجدي، وإلى : "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص ٥٠٥ - ٥١٧.

(١١) ارجع إلى يوسف بن ماتياس، "التواريخ اليهودية القديمة"، [٦٨] ١/ ٨/١٩.

(١٢) انظر تقديم ميرلين ستون لكتاب باتاي، [١٧١] وبخاصة ص ١٦.

(١٣) انظر كتاب باتاي السابق الإشارة إليه، [١٧١] وبخاصة صفحتي ٢٥ و٢٦، وانظر أيضاً [١٧٢]، "عندما كان الإله أنثي"، لميرلين ستون، وارجع إلى [١٧٠]، "الأم العظمى"، لإريك نيومان، وارجع أيضاً إلى :

Davies, S. : "The Canaanite-Hebrew Goddess", in "The Book of the Goddess Past and Present - An Introduction to her Religion", Crossroads, NY., 1985.

Thompson, T.: "The Historcity of the patriarchal Narratives - A Quest for the Historical Abraham", Welter de Gruyter, Berlin & N.Y., 1974.

(١٤) ارجع إلى [١٠٦]، "فلسطين قبل العبرانيين"، وارجع ايضاً إلى [٥]، "تاريخ العالم، لجامعة كولومبيا"، ص ص ٨٢ - ٩٤، و ١٣٦ - ١٤٥، وإلى [٣]، "دائرة معارف تاريخ العالم"، ص ص ٤١ و ٤٢.

(١٥) ارجع إلى [٨٩]، "العهد - الكتاب المقدس وتاريخه"، لجون رومر ص ٤٥، وإلى [٩٠]، "الكتاب المقدس كتاريخ"، لفرنر كلر.

(١٦) ارجع إلى ص ٤٥ من كتاب رومر [٨٩] بالهامش السابق.

(١٧) ارجع في ذلك إلى [١١٤]، "أساطير التوراة"، للباحث اليهودي لويس جينزبرج، عن ميلاد أبناء يعقوب، بالفصل السادس، ص ص ١٤٨ - ١٩٣.

(١٨) ارجع إلى [١٧١]، "الإلاهة العبرانية"، السابق الإشارة إليه، وبخاصة صفحتي ٥٨ و٥٩، وارجع ايضاً إلى :

Kenyon, K.: "The Bible & Recent Archaeology", John Knox Press, Atlanta, 1987.

(١٩) المرجع رقم [١٧٦]، وانظر أيضاً:

Badre, L. : "Les figurines anthropomorphes en terre cuite à l'âge du Bronze en Syrie", Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1980.

Cauvin, J. : "Religions néolothiques de Syro-Palestine: Documenta", Centre Recherches Ecologie et préhistoire St. André de Cruzières, Maisonneuve, Paris 1972.

(٢٠) ارجع إلى [١٧٠]، "الأم العظمى"، لإريك نيومان، وبالأخص ص ص ١٣٥ و ١٣٦.

(٢١) ارجع إلى [١٧١]، "الإلاهة العبرانية"، لباتاي، ص ٢٧.

(٢٢) ارجع في ذلك إلى سير واليس بدج، "آلهة المصريين"، المرجع [٢٠]، الجزء الثاني، ص ٥٥.

(٢٣) انظر [١٧٠]، "الأم العظمى"، لنيومان، وبالأخص صفحتي ٤٧ و٤٨. وقد اعتبرت المياه "المبدأ الأول لكل الأشياء" ووصفت بأنها "روح المادة"، وفي الوقت ذاته، اعتبرت النار" أول كل الأشياء"، ووصفت ايضاً بأنها "روح المادة" وفي ظل العبادات الماترياركية، وحّدت المياه، كمنجبة للحياة وواهبة الغذاء لها، بالألوهة المؤنثة، لكنها، في ظل العبادات الباترياركية، اعتُبرت المبدأ السالب، في حين وُصفت النار بأنها المبدأ الموجب الذي بدونه تظل المادة هامدة. وفي العبادات الباترياركية، احتلت النار مكانة مركزية في الشعائر وأُوقدت باستمرار على مذبح المعبود في الغالبية العظمى من المعابد. ارجع، في شأن الرمزية الدينية للمياه إلى [٥١]، "أقنعة الإله - الميثولوجيا البدائية"، لعميد الباحثين في الأساطير جوزف كامبل، ص ٦٤ (المياه كالموصّل لقدرة الإلاهة)، ١٢٢، ٣٩٠، و٤٣٦، وارجع في شأن رمزية الماء ورمزية النار، جنسياً ودينياً، وفي شأن ثيمة نشوء الحياة من "زيجة الماء والنار"، إلى [١٥٩]، "رفع الأستار عن إيزيس" لهيلينا بلاتافسكي، وإلى [١٢٤/ أ] "عبادة الطبيعة".

(٢٤) ارجع إلى [٦٨]، "التواريخ اليهودية القديمة"، ليوسف بن ماتياس، جـ ٦، ٧/ ٣، وارجع أيضاً إلى "قراءة سياسية للتوراة"، تحت بند "بيلزيوم" بالفهرس الأبجدي.

(٢٥) ارجع إلى [٧٥]، "أطلس مصر القديمة"، ص ١٢٣.

(٢٦) ارجع إلى [٩١]، "تاريخ لتقاليد الأسفار الخمسة"، لمارتين نوث، ص ص ٥٧/ ٥٨، وارجع أيضاً إلى كتاب توماس تومسون المشار إليه بالهامش رقم ١٣ أعلاه: "استقصاء تاريخية الحكي عن الآباء - البحث عن ابراهام التاريخي".

(٢٧)انظر [١٤٦]، "من الذي ألف التوراة؟ "، لريتشارد اليوت فريدمان، وبخاصة الصفحات ٢٢ و٨٧ و٨٨.

(٢٨) انظر [١٧١]، "الإلاهة العبرانية"، لباتاي، وبالأخص الصفحات من ١١٦ الى ١١٨ ،وانظر أيضا [٦٢]، "الإلاهة البيضاء"، لروبرت جريفز، ص ص ٨٤، ٨٩، ٩٢، ١٢٠، ٢٨٦، ٣٣٦، ٤٤١، ٤٦٨، ٤٧١، وانظر كذلك [١٥٩]،"رفع الأستار عن ايزيس "، لبلاتافسكي، ج١ ص ص٥٠٦ -٥٠٧ ،وجـ٢ ٢٥٥، ٢٩٩، و٤٦٢.

(٢٩) ارجع إلى [١٦٠]، "كتاب يهودي كبير"، تحرير جيروم روذنبرج وآخرين، بالصفحات من ٣٢ إلى ٣٦. ويسلّم باتاي بأن تلك الملكة "ذات التيجان السبعين" التي تغنى بها القبّاليون سليلة عانات وعشيرة إلآهتي كنعان، انظر [١٧١]، "الإلاهة العبرانية"، تحت "الشكينة" و "الشكينة والله"، وانظر أيضاً [١٥٧] "القبّالة ورمزيتها" لجرشوم شولم، بالصفحات ١٢٠٤ - ١٠٨، و١٣٨ - ١٤٢، و١٤٧ - ١٥١.

(٣٠) انظر [١٧١]، "الإلاهة العبرانية"، لباتاي، الفصل الخاص بالإلاهة عشيرة، ص ص ٣٤ - ٥٣، وارجع إلى [٤٤] "عشيرة وعبادة يهوه في اسرائيل"، لأوليان، وإلى "التاريخ المبكر لله" لمارك سميث [٨٥]، الفصل الثالث، "يهوه وعشيرة"، ص ص ٨٠ - ١٠٣، وإلى [٤٩] "الميراث الكنعاني"، لجراي، وإلى [٤٣]، "الأساطير الكنعانية والملاحم العبرانية - مقالات في تاريخ ديانة اسرائيل"، لكروس.

(٣١) ارجع إلى [٩٠]، "الكتاب المقدس كتاريخ"، لكلر، بصفحتي ٤٠ و٤١، وارجع ايضاً إلى كتاب تومسون المشار إليه بالهامش (١٣) أعلاه، "استقصاء تاريخية الحكي عن الآباء - البحث عن ابراهام التاريخي"، وانظر كذلك [٩٤] "مخادعات الكتاب المقدس وأساطيره"، لجراهام، ص ص ١٠٩ - ١٢٦، وارجع ايضاً إلى [٩٣]، "النسخة غير المعتمدة - الحقيقة والخيال الروائي في الكتاب المقدس"، تحت بند "ابراهام" من الفهرس الأبجدي، وبخاصة الصفحات ١٧٦، ١٧٨، ١٨٠، ٢١٧، و ٢١٨، ٢٢٠، و٢٢١، ٣٦٥ و٣٧٨. وارجع أيضاً إلى [٨٩] "العهد - الكتاب المقدس وتاريخه"، لرومر، ص ص ١٥ - ٢٢، و٢٤ - ٣١، و ٣٣ - ٣٦.

(٣٢) ارجع إلى [١٠٠]، "دليل عظيموف للكتاب المقدس"، لاسحق عظيموف، وبخاصة الصفحات ٥٨ - ٦٠ و٨٨ - ٩٠، و٩٧، وارجع ايضاً إلى [٧٦]، "أطلس الكتاب المقدس"، لروجرسون، وإلى [٧٧]، "أطلس العالم اليهودي" للباحث دي لانج، وارجع كذلك إلى "أحداث كبرى في التاريخ التوراتي"، المرجع رقم [٧٩]، تحت "هجرة ابراهام" ص ص ٢٠/ ٢١.

(٣٣) ارجع في ذلك إلى [٩٠]، "الكتاب المقدس كتاريخ"، في تناوله لتأكيدات أولبرايت، ص ص ٤١ و٤٢، وقارن بما تقطع به المراجع الواردة بالهامش السابق عن ابراهام ورحلته، وانظر محاولة كلر التماشي مع أولبرايت (الهامش التالي) وارجع إلى إسهام أولبرايت في "الكتاب المقدس والشرق الأدنى القديم" :

Wright, G. (ed.): “The Bible and the Ancient Near East”, Doubleday, N.Y., 1961.

وإلى:

Albright, W. : “Archaeology and the Religion of Israel”, Johns Hopkins U.P., Baltimore, 1942.

(٣٤) انظر تبرير كلر الغريب في [٩٠]، "الكتاب المقدس كتاريخ"، ص ٤٢.

(٣٥) ارجع إلى [٥١]، "أقنعة الإله، الميثولوجيا البدائية"، للأستاذ كامبل، ص ٣٢٥، وارجع ايضاً إلى [١٧٢]، "تماثيل فلسطينية مصغّرة متعلقة بإلاهات معينات ذاع صيتهن في الأدب (الديني)"، لجيمس بريتشارد، وانظر [١٧١]، "الإلاهة العبرانية" لباتاي، عن انتشار تلك التماثيل المصغرة للإلاهة بين عباد يهوه، ص ٣٩، وانظر أيضاً [١٧٠]، "الأم العظمى" لنيومان، وبخاصة الفصل الرابع، "الرمزية الرئيسية لما هو أنثوي"، وفي تحليله لرؤية الإنسان القديم لتجلي ما هو مما وراء الطبيعة في "أوثانه" المجسّدة لـ"وعاء الجسد" الأنثوي المفعم بالأسرار، وارجع كذلك إلى [١٢٤]، "عبادة الرموز في العالم القديم – تأثير الفكرة القضيبية على ديانات الإنسان القديم"، لويستروب وويك.

(٣٦) ارجع إلى [٧٧]، "أطلس العالم اليهودي"، دي لانج، ص ٢٢، و "أطلس مصر القديمة"، [٧٥] لبينز ومالك، ص ٥١.

(٣٧) ارجع إلى سير واليس بدج، [٢٠]، "آلهة المصريين"، جـ ١، ص ١٠١.

(٣٨) المرجع السابق نفسه، ص ١٧٨.

(٣٩) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

(٤٠) ارجع إلى آلن شورتر، [٢٣]، "آلهة مصر"، الصفحات ٦-١٠، وارجع أيضاً إلى صفحتي ٢١٦ و٢١٧ من كتاب سير واليس بدج، "سكان وادي النيل" :

Budge, E.: "The Dwellers on the Nile", Dover, N.Y., 1977.

(٤١) ارجع إلى شورتر، [٢٣]، "آلهة مصر"، ص ٨.

(٤٢) ارجع إلى "آلهة المصريين"، لسير واليس بدج، الجزء الثاني، المرجع رقم [٢٠].

(٤٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢١٢.

(٤٤) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(٤٥) انظر [١٤]، "تطور الدين والفكر في مصر القديمة"، للأستاذ برستد، ص ص ٥٧/ ٥٨.

(٤٦) انظر [١٧٨]، "مصر ما قبل القديمة"، لوالتر إيمري عن ثقافة مصر وحضارتها قبل خمسة آلاف عام، ص ص ١٢٢/ ١٢٣.

(٤٧) انظر برستد، [١٤]، "تطور الدين والفكر في مصر القديمة"، السابق الإشارة إليه، ص ص ٣٧/ ٣٨.

(٤٨) ارجع إلى نيومان، [١٧٠]، "الأم العظمى"، وبالأخص صفحتي ٩٨ و٩٩، وارجع ايضاً إلى بلاتافسكي، [١٥٩]، "رفع الأستار عن إيزيس"، وإلى "المرأة في مصر القديمة":

Watterson, B.: "Women in Ancient Egypt" Alan Sutton, N.Y., 1991,pp.17, 18, 19, 20, 21, 40, 44, 90.

(٤٩) ارجع إلى سير واليس بدج، [٢٠]، "آلهة المصريين"، الجزء الثاني، ص ص ٢٣٨/ ٢٣٩.

(٥٠) انظر ترجمة بدج في المرجع السابق نفسه، ص ٢٢٢.

(٥١) ارجع إلى كتاب ويلكنسون الرائع بحق الذي نُشر أولاً بعنوان "أخلاق المصريين القدماء وعاداتهم" ثم اختصر العنوان عند إعادة نشره إلى "المصريون القدماء"، المرجع [١٧]، جزآن، لندن، ١٨٣٦-١٨٥٤، جـ٢، ص ١٢٠.

(٥٢) ارجع إلى [١١١]، "كتاب المعارف اليهودية"، لناتان أوزوبل، وبالأخص ص١ و ص٤١٩.

(٥٣) ارجع إلى يوسف بن ماتياس، "التواريخ اليهودية القديمة"، [٦٨]،جـ٤، ١٣/٨.

(٥٤) انظر كتاب ريد، "العشيرة في العهد القديم" [٤٤/ أ] ، وانظر أيضاً كتاب أوليان الهام [٤٤]، "عشيرة وعبادة يهوه في اسرائيل".

(٥٥) انظر [٩٦]، "معجم الكتاب المقدس"، لهيستنجز، تحت "عشيرة".

(٥٦) انظر [١٧٢]، "عندما كان الإله أنثى"، لميرلين ستون، ص ٩.

(٥٧) ارجع إلى [٦٩]، "الأسرار الدينية المصرية المقدسة، ضوء جديد على معارف قديمة"، للوسي لامي، ص ٨٢، وارجع ايضاً إلى [٧٠]، "طقوس باطنية قديمة"، لتشارلس ليدبيتر.

(٥٨) ارجع إلى كتابه "أساطير اليونان"، [٦١]، جـ١، ص ٤٤ : ٨/ ١.

(٥٩) انظر [١٦] هيرودوت جـ٢، ص٦٢ وارجع ايضاً إلى [٢٠]، "آلهة المصريين"، لسير واليس بدج، جـ١، ص ص ٤٥٠ – ٤٦٥.

(٦٠) ارجع إلى "آلهة المصريين"، [٢٠]، جـ١، بصفحتي ٤٥٢ و٤٦٣.

(٦١) انظر [١٧٠]، "الأم العظمى"، لاريك نيومان، ص ص ٢١٦ و٢١٧.

(٦٢) المرجع نفسه، انظر الهامش ص ١٨٣.

(٦٣) المرجع نفسه، انظر ص ٢١٩.

(٦٤) ارجع إلى "أطلس مصر القديمة"، [٧٥]، بصفحتي ٤٩ و١٦٧.

(٦٥) ارجع في شأن الأصل اليوناني للأسطورة إلى روبرت جريفز، [٦١]، "أساطير اليونان"، تحت بند "دافني – الغار" (Daphne - laurel) من الفهرس.

(٦٦) ارجع في شأن هذه "النبوءات" المكذوبة إلى الباحث اليهودي عظيموف في كتابه الموسوعي "دليل الكتاب المقدس" المرجع رقم [١٠٠]، ص ٤٨٧.

(٦٧) انظر المرجع السابق نفسه، ص ص ٥٠١ و ٥٠٢.

(٦٨) انظر المرجع السابق نفسه، ص ص ٥٩٢، و ٥٩٤.

(٦٩) ارجع إلى [١٥٢]، "الأساطير العبرانية"، لجريفز وباتاي، ص ٢٨.

(٧٠) ارجع إلى [٢٨]، "طقس الزيجة المقدسة"، وبه ترجمة كريمر للنصوص السومرية.

(٧١) انظر أرنولد توينبي، [٨]، "دراسة للتاريخ"، جـ١، ص ٤٠٩.

(٧٢–٧٨) ارجع إلى ترجمة كريمر للنصوص السومرية بالمرجع [٢٨] السابق الإشارة إليه.

(٧٩ و٨٠) ارجع إلى "مرايا قديمة للأنوثة" [١٧٣]، لميرلين ستون، الصفحات من ١٠٦–١٠٨.

(٨١) انظر جون ألجرو، [١٦٦]، "الشعب المختار – تهشيم الأسطورة"، ص ص٣١–٣٣.

(٨٢) انظر ترجمة الدكتور طه باقر لملحمة جلجامش، منشورات وزارة الاعلام، بغداد، ١٩٧٥، ص ص ٨٩ – ٩٦، وترجمة ساندرز النثرية، [٣٣]، ص ص ٨٣ – ٨٦، وارجع ايضاً إلى ترجمة ستيفاني داللي الشعرية، [٣١]، ص ص ٧٧ – ٨٣.

(٨٣) ارجع إلى كتاب جين روبنسون (محررة)، "نصوص نجع حمادي باللغة الانكليزية" [١٧٩].

– – – –

الباب الثاني

الإصْعاد الذي لا يقاوَم للإله الملك العاشق يهوه

"على الرغم من أن الفرعون المصري اخناتون كان أول من قال بالمفهوم الثوري المتمثل في التوحيد بإله واحد أبديّ أزليّ مطلَق قادر على كل شيء، وهو المفهوم الذي أخذه عنه العبرانيون الذين يبدو أنه كان يبسط عليهم حمايته أو أعادوا اكتشافه، فان اسم إيلوهيم (الذي ترجم في العهد القديم بـ"الله") كما نجده في الاصحاح الأول من سفر التكوين، ليس الا التنويع العبراني للاسم الذي أطلقه الساميون القدماء بعامة على أيّ إله أعلوه بين حشد الآلهة: "إيلو" عند البابليين والأشوريين، و "إيل" عند الحثيين والكنعانيين. ففي كنعان، كان إيل كبير آلهة مجمع الآلهة، وقد ورد اسمه في نصوص أوغاريت (التي يعود تاريخها الى القرن الرابع عشر ق.م.) باستمرار، كـ "الثور إيل"، وهو ما يعيد الى الذهن الثور الذهبي الذي صعنه هرون، والثورين الذهبيين اللذين صنعهما يربعام. وفي الاصحاح الثاني من سفر التكوين، نجد أن اسم "إيلوهيم" قد أضيف اليه اسم آخر هو يهوه (الذي ترجم في العهد القديم بـ"الرب")، على سبيل الاختصار للاسم الثلاثي الكامل وهو "يهوه أشير يهوه" الذي أورد في ترجمة سفر الخروج "أهيه الذي أهيه".."

المصدر [المرجع ١٥٢]:

Robert Graves and Raphael Patai: "Hebrew Myths", Anchor Books, Doubleday, N.Y.1989, p.27.



مدخل

ان ما لا ينبغي أن ندعه يغيب عن الذهن في محاولتنا استظهار أي حقيقة بشأن حكي التوراة والعهد القديم أننا لسنا بمعرض التعامل مع نصوص "منزلة" أو "موحى بها"، وأننا لا نتعامل حتى مع تسجيل لاحق لأساطير جمعية أُبدعت في زمان سابق، بل أن تعاملنا مع تأليف تجميعي تركيبي اصطُنع في أزمنة لاحقة بوقت طويل للأزمنة المدّعى أن "الأحداث" وقعت فيها.

بهذا اختلفت حكايات التوراة وسائر أسفار العهد القديم اختلافاً جذرياً بالغ المغزى عن أساطير شعوب الشرق الأدنى القديم. فأساطير تلك الشعوب كانت ابداعاً جمعياً طُور ونُمّي وظل يتكامل عبر قرون من النمو الروحي والحضاري للشعوب التي أبدعته وعاشت به. ولذا، ظل ذلك الابداع الأسطوري مجسِّداً، بلغة الأسطورة، لواقع ثقافيّ وتاريخيّ عاشته تلك الشعوب في الأزمنة التي نبع ذلك الابداع فيها.

أما حكايات التوراة وسائر أسفار العهد القديم فكان تأليفها التجميعي عن طريق الاستعارة والاستنساخ والقص واللصق لاحقاً بوقت طويل لما حكت عنه، ثم اسقاطاً الى الوراء على ماض متخيّل ادُّعيت له صفة "التاريخ المقدس" عملاً على اعطاء "أصول تاريخية" لما ظل هناك اصرار مستميت على تسميته اغتصاباً باسم "الشعب".

وإذ هي كذلك، لا سبيل هناك للادعاء أو التسليم بأن تلك الحكايات (التي باتت توصف نتيجة لتأزُّم وضعها بأنها "حكيٌ مجازيٌ لطيف الغرض منه الحض على التحلي بالصلاح والتقوى وعبادة الله") يصحّ علميا القول بأنها جسدّت واقعا تاريخيا عاشه "الشعب" في زمان قديم، مثلما جسدّت أساطير الشعوب واقعها الذي نبع من عيشها إياه ابداعُها الأسطوري.

وبهذا، تظل تلك الحكايات تأليفاً تجميعياً تركيبيا (اصطناعياً) ذا مرام سياسية وكهنوتية أسبغت عليه اعتسافا قداسة مدّعاة ومصداقية تظل تناقضاته ذاتها تدحضها وتنفيها. بمعنى أن التاريخ يوقفنا على أنه لم يوجد في تلك الأزمنة السحيقة (بداية العالم) التي تحكي عنها التوراة وسائر أسفار العهد القديم "شعب" كان شعباً لإله اسمه يهوه، أو اسمه الشدّاي، أو اسمه أدوناي، أو اسمه "ايلوهيم" (= آلهة)، ولم يكن هناك - بالتبعية - ما يمكن الادعاء بأنه كان "واقعاً" ثقافياً وتاريخياً لشعب ذلك وصفه يمكن أن نصدق أن تلك الحكايات عبرت عنه.

فالعملية هنا معكوسة تماما ذَنَباً الى رأس. لأنه بدلا من أن يكون هناك شعب، كالشعب السومري، مثلا، أو الشعب الكنعاني، أو شعب مصر التي كانت، أبدع لنفسه (ولمن حوله، كما في حالة عطاء مصر الحضاري) ثقافة دينية جسدتها أساطيره التي عاش بها وفي ظلها طوال قرون، لم يوجد "شعب يهيوي" أو "شعب يهودي" أبدع ثقافة

جسدتها أساطير يمكن الادعاء بأنه "أبدعها"، فبدلا من ذلك اختُلق فأُوجد "شعب" ذلك شأنه، تأليفياً، في زمان لاحق بقرون للزمن الذي ادُعي أن ذلك "الشعب" وجد فيه، ولم يحدث ذلك بابداع أصيل بل بالاستنساخ والسرقة والنقل من أساطير الشعوب التي وُجدت فعلا في ذلك الزمان، ثم باسقاط ذلك الوجود المختلق على ماض لم يوجد فيه "شعب"، اصطناعاً لأصول وعمق تاريخي ووحدة عرقية مدعاة.

على الرغم من التبعية الأسيفة المستشرية بين الأتباع المهوّدين من الأغيار الغربيين، وجد من الدارسين من تسلح بجرأة أضفتها عليه الأمانة العلمية والموضوعية ومكّنته من التحلي بها رغبة صادقة في البحث عن الحقيقة، فكتب يقول (في كتاب جُمع من الأسواق فيما يبدو واختفى بعد ظهوره بقليل):

> "وبنفس القدر من التزييف كان الاعلاء التوارتي لـ "آباء" تشردوا في الصحراء باعتبار الزمان الذي وصف بأنه مرحلة تيههم زمناً تاريخياً حقيقياً كان يهوه منشغلا فيه بأن يخطب لنفسه عروسه اسرائيل في مراعي شبه الجزيرة العربية قبل أن تفسد تلك العروس البكر وتفقد عفتها بتلوثها بالانحرافات الجنسية الفاحشة لعبادات الخصب".(١)

لهذا، يجب أن نحاذر، في تعاملنا مع الحكي التوراتي، من التردي في الفخاخ الكثيرة المبثوثة في طريق العقل من خلال الادعاء بأن ذلك الحكي "يؤرخ أحداث" مراحل تطور ثقافي لـ"شعب" ذي أصول ضاربة في القدم واستمرارية عرقية وثقافية. تلك الفخاخ الكثيرة منشأ الصعوبة التي أشرنا اليها في الباب الأول بشأن استظهار مراحل العبادة فيما يخص الإلاهة الأم العظمى لدى البدو الرحل الساميين الذين دعتهم التوراة بـ"الآراميين التائهين"، ثم صرفت نظرا عن الآراميين، فدعتهم – خلال الحكي عن إقامة في مصر – بـ"العبرانيين"، ثم صرفت نظرا عن العبرانيين بعد استخدام لم يطل لأكثر من تسع عشرة مرة، فدعتهم – خلال الحكي عن خروج مع موسى – بـ"بني اسرائيل" أو "اسرائيل"، وأخيرا أُدمجت كل تلك التسميات فدعوا بـ"اليهود".

تلك الفخاخ هي ما ينبغي أن نحاذر من أن نصطاد فيه ونحن نقرأ كلاما كهذا (على الرغم من أهمية كاتبه):

> "في المرحلة النيوليتية (أواخر العصر الحجري)، كانت الأرض الأم مدار كل الأسطوريات والعبادات.. وقرب نهاية عصر البرونز، وبشكل أكثر تحدداً عند ابتداء عصر الحديد، تعرضت عبادات الإلاهة الأم وما تولد عنها من أسطوريات الخلق لتحوّل جذري وتفسير جديد، بل وفي معظم الأمر طمست على أيدي القبائل الباتريار كية الغازية التي اقتحمت المنطقة والتي وصلنا تراثها الأسطوري في العهدين القديم والجديد كما وصلنا في

أساطير اليونان. وقد كان اندفاق ذلك الغزو من منطقتين جغرافيتين انطلق منهما على موجات: غزو سامي عبر الصحراء السورية قام به بدو رحل تنقلوا بقطعانهم من الأغنام والماعز من مكان الى مكان طلباً للمرعى، وفي أزمنة لاحقة تعلموا استخدام الجمل، وغزو هيليني آري من سهول أوروبا وجنوب روسيا، قام به رعاة تنقلوا بقطعانهم من الماشية، وفي زمن مبكر تعلموا استخدام الحصان".(٢)

والذي ينبغي أن نحاذر منه بشكل خاص هنا الاشارة الى "تراث أسطوري" موصوف بأنه "وصلنا في العهدين القديم والجديد".

ولكن لم؟ لأنه، طبقا لـ "التاريخ المقدس" الذي كرّس له مؤلف أو مؤلفو سفر التكوين كل أصحاحات ذلك السفر ابتداء من الأصحاح التاسع، "ابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما" (تكوين ٩:٢٠). وكان ذلك الابتداء في وقت مبكر للغاية، بعد انتهاء الطوفان. ومعنى "ابتدأ يكون فلاحا" أنه وقومه كانوا قد استقروا استقراراً زراعياً في أعقاب الطوفان، قبل قرون عديدة من أي استقرار زراعي في أي مكان بالشرق الأدنى القديم.

غير أن "التاريخ المقدس" ذاته ما يلبث أن ينفي وجود ذلك الاستقرار الزراعي السابق لأي استقرار زراعي، بتصويره اللحوح لنمط الحياة الرعوية الرحالة لـ"الآباء". فالأمر إما كذلك، وإما أن تناقضاً آخر من تناقضات "التاريخ المقدس" التي لا تحصى يطل برأسه المربك هنا أيضا. فسفر التكوين يخبرنا أن "هذه مواليد سام.. بعد الطوفان بسنتين" (١١:١٠)، أي أن أولئك المواليد المباركين ولدوا في حياة نوح الذي استقر استقراراً زراعياً ("ابتدأ يكون فلاحا") بعد الطوفان وعاش على تلك الحال ثلاثمائة وخمسين سنة (تكون ٩:٢٨). وتبعا لذلك، يكون ابن نوح المفضل، سام، قد استقر استقراراً زراعياً، هو الآخر، في رحاب الحياة الفلاحية لأبيه الطيب نوح، واستمتع كثيراً بأطايب العيش في أبعاديات الكروم التي زرعها نوح ليصبح صنواً لأوزيريس الذي علّم المصريين زراعة الكروم. ولما كان سام أبو عابر الذي ولد فالج الذي ولد رعو الذي ولد سروج الذي ولد ناحور الذي ولد تارح الذي ولد بيت القصيد ابرام (الذي تحول الى ابراهام عندما تختن في لحم غرلته) حسبما يعلمنا سفر التكوين ١١: ١٠-٢٧، فان المتوقع أن يكون كل أولئك المباركين قد عاشوا في رحاب استقرار زراعي وأبعاديات كروم وما الى ذلك. لكن "التاريخ المقدس"، لشديد الأسف، يبدد هذه الصورة المثالية بحرصه على أمانة السرد، فيخبرنا أن الحبر تارح وابنه ابرام وامرأة ابرام الحسناء ساراي وابن الأخ لوط لم يكونوا فلاحين أو زارعي كروم عندما خرجوا من أور "الكلدانيين" أو حتى من ناحور كما صار التأكيد فيما بعد بأقلام الثقاة من الأتباع الأمميين المحدثين، بل كانوا رعاة غنم ومواش. فإما أن القوم ارتدوا الى المرحلة الرعوية السابقة لأي استقرار زراعي وفلاحة أرض وزراعة كروم لأسباب غير مفهومة غير مفسرة أو حتى مذكورة في الحكي ومنافية تماما لكل ما

استقر عليه العلم في شأن مراحل التطور الحضاري للانسان القديم، وإما أن "التاريخ المقدس" كذب علينا في تلك الخصوصية المتعلقة بتحول نوح الى فلاح زارع كروم.

وبطبيعة الحال، كانت هناك في حياة أولئك البدو الرحل الرعاة أنواع من الحكي المتناقل شفاهاً من جيل الى جيل. إلا أنه لا وجود هناك في حالتهم (متى كانوا هم المقصودين بـ"القبائل الباترياركية الغازية") لما يمكن الادعاء بأنه "تراث أسطوري". لماذا؟ لسبب بسيط وواضح، هو أن أولئك "الآباء" أنفسهم، بوصفهم ذاك، نتاج أسطوري ابداعي. بمعنى أنه قد يكون وجد إنسان اسمه ابرام وإنسان اسمه ابراهام ونسل له اشتغل بالرعي وخرج من مدينة أور أو من مدينة ناحور "وانحدر" الى أرض كنعان وأرض مصر هرباً من الجوع، الا أن جعل ذلك الرجل الطيب ابرام/ابراهام ونسله "آباء" لـ"شعب" لم يكن له وجود لا في زمانهم ولا بعد زمانهم بقرون عديدة هو "اليهود"، اختلاق أسطوري محض لجأ اليه مؤلف أو مؤلفو سفر التكوين. وبذا لا يمكن القول بوجود "تراث أسطوري" نابع من أولئك الكرام، من حيث أنهم هم الذين استولِدوا عنوة من اختلاق أسطوري. وهو ما أوجزناه بقولنا أن العملية هنا معكوسة ذَنَباً الى رأس.

وفوق ذلك، يبدو تصوير هجرة أولئك الباحثين عن الطعام والمأوى من أرض الرافدين الى كنعان ومصر كما لو كان "غزوا قامت به قبائل محاربة "كضرب من التضخيم الرومانسي لتشرد بدو رحّل جياع يشهد بجوعهم وتشردهم "التاريخ المقدس" ذاته بما لم يكف عن ذكره من لجوئهم الى مصر هرباً من الجوع، وهو تفخيم تناقضه تماما الصور المنقوشة على جدران المعابد المصرية لمحاولات أولئك البدو التسرب الى ارض مصر وطرد حرس الحدود لهم (الشكل رقم ٢)، وبناء المصريين لحائط على الحدود لسد الطريق في وجوههم، ويناقضه أيضا حكي التوراة الذي يقطع بأن "الغزو" (إن صح وصفه بذلك وهو ما لم يتعد انضمام شراذم مطرودة من مصر الى من كانوا قد لاذوا بأرض كنعان من أولئك التائهين) لم يبدأ إلاّ بعد أربعين سنة سحرية من التيه في الصحراء إثر "الخروج"/الطرد من مصر، وأن الذي قاد ذلك "الغزو" يشوع السفّاح الذي فصلت ما بينه وبين من ادّعوا أسلافا، أي "الآراميين التهائين" قوم ابرام/ابراهام واسحق ويعقوب/اسرائيل، قرون عديدة طويلة.

كما يناقض ذلك التصوير الرومانسي المفخّم (الذي قد يكون الورع أو الاعتياد الثقافي هو ما استدرج هذا الباحث الجاد اليه) كون القوم الذين يفترض أنهم – طبقا لذلك الوصف – كانوا قبائل غازية محاربة، ظلوا رعاة رحل من مبدأ الحكي الى نهايته. وقد رأينا فيما سبق كيف استمات الأذناب الأمميون في نفي صحة ما أورده "التاريخ المقدس" بشأن ابتداء التشرد من أور عندما كشفت الحفائر عن أن أور كانت مركزاً حضارياً ومدينة كبرى، حرصاً منهم على صفة الرعاة، حتى وان كان ذلك على حساب مصداقية "التاريخ المقدس".

فـ"ابرام" عندما صعد من مصر (عندما طُرد من مصر وأقيم بعد طرده حائط على الحدود لمنعه من العودة)، كان "قد أصبح غنيا جدا في المواشي" (تكوين ١٣:٢)، وكذلك لوط "السائر مع ابرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام" (تكوين ١٣:٥)، ومن كثرة ما كان مع كل منهما من مواش، "لم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا.. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي ابرام ومواشي لوط" (تكوين ١٣:٦ و٧).

وعندما بارك الرب ابراهاما فجعله "عظيما جدا" كان ذلك باعطائه "غنما وبقرا وفضة وذهبا وعبيدا وجمالا (رغم أن الثابت تاريخيا أن القوم آنذاك لم يكونوا قد اقتنوا الجمال أو تعلموا استخدامها بعد) وحميرا" (تكوين ٢٤:٣٤).

وعلى الرغم من أن سفر التكوين يقول أن "الأب" اسحق، عندما أقام في جرار، "زرع تلك الأرض" (٢٦:١٢)، فان نفس السفر يقرر أن ذلك "الأب" كان من الرعاة "فكان له مواش من الغنم ومواش من البقر وعبيد كثيرون، فحسده الفلسطينيون" (٢٦:١٤)، ولكونه من الرعاة، نشبت بينه وبين أصحاب الأرض مشاحنات عديدة بسبب الآبار: "فجميع الآبار التي حفرها عبيد أبيه طمها (ردمها) الفلسطينيون وملأوها ترابا، ثم(*) قالوا له، بافتقار محزن لآداب الضيافة، ارحل عنا. فلما ذهب إلى مكان آخر من أرضهم، في وادي جرار، "حفر عبيده في الوادي، فوجدوا هناك بئر ماء حي، فخاصم رعاة اسحق قائلين لنا الماء"، فلما حفر بئرا آخرى، "خاصموه عليها أيضاً"، فحفر بئراً ثالثة لم يخاصموه عليها " فدعا اسمها رحبوت" (تكوين ٢٦:١٥ و١٩-٢٢).

وعندما هرب يعقوب (الذي لم يكن قد تحوّل الى اسرائيل بعد) من وجه آخيه عيسو ليلوذ بمضارب خاله لابان الآرامي والتقى هناك راحيل ابنه لابان (تماما كما التقى موسى بعد ذلك اللقاء بقرون الفتاة صفوّرة ابنة كاهن مديان، رعوئيل/يثرون) التقاها عند بئر ماء وهي "مع غنم أبيها، لأنها كانت ترعى" (تكوين ٢٩:٩). ثم لما خدم يعقوب خاله سبع سنين سحرية كيما يعطيه راحيل زوجة، ظل يخدم ذلك الخال كراعي غنم. وفي النهاية قال له "أنت تعلم كيف خدمتك وكيف صارت مواشيك معي" (تكوين ٣٠:٢٩). وعندما غلب على يعقوب طبعه الآرامي، فاحتال على خاله باستخدام السحر "فصارت الغنم الضعيفة للابان والقوية ليعقوب" فاتسع يعقوب جدا، كان "اتساعه جدا" لأنه بات صاحب غنم كثير وماعز وعبيد وجمال (رغم أن الجمال لم تكن قد عرفها القوم أو اقتنوها بعد) وحمير" (تكوين ٣٠:٤٢ و٤٣)، لا لأنه أمسى مزارعا أو صاحب بساتين كروم.

فـ"الآباء" كانوا رعاة وظلوا رعاة، ولكن بحمير فقط، بغير جمال. وعندما ذهب يعقوب (الذي كان قد صارع إيل فبات اسمه "اسرائيل") الى مصر في ظل يوسف "أخذ مواشيه معه" (تكوين ٤٦:٦)، وكان ذهابه مع مواشيه وبنيه هرباً من الجوع" الذي كان

(*) ولحكاية "طم" الآبار، تحت الطبقة الظاهرة المتعلقة بالشحان مع أصحاب الأرض الأصليين، تداعيات أسطورية متعلقة بفرج الإلاهة الذي اعتبرت البئر فتحته الموصلة الى رحم الإلاهة الأم. (انظر "طم فرج الإلاهة ٦/ب/٥ أعلاه).

شديدا في الأرض" كما في أيام ابرام، وكان تقديمه نفسه الى "فرعون"، بناء على نصح يوسف، بقوله "عبيدك أهل مواش منذ صبانا الى الآن وآباؤنا جميعا" (تكوين ٤٦:٣٤)، و"قد جئنا لنتغرب في الأرض اذ ليس لغنم عبيدك مرعى" (تكوين ٤٧ : ٣و٤).

ونحن نعرف أن رعاة الغنم الآراميين المشردين أولئك الذين تغرّبوا في مصر هرباً من الجوع، سيحوّلون بعد قليل، في حكي سفر الخروج الى "عبرانيين". لكن تحويلهم حكيا الى "عبرانيين" لم يغير شيئا من كونهم رعاة رحّل بدأوا اقامتهم في "أرض جاسان أفضل الأرض" (محافظة الشرقية) رعاة، وظلوا رعاة طوال تطفلهم على تلك الأرض التي حلوا بها كالشر كما وصفهم مانيتو الى أن طُردت الفلول الباقية منهم بعد كسح الهكسوس، عندما خاف المصريون من عدوى أمراضهم الجلدية والتناسلية التي يوجد سجلها الكامل في سفر اللاويين، فخرجوا مع طغمة اللاويين الموسوية.

ومما له مغزى أنه عندما بدأ مؤلف سفر الخروج يمهد لجعل الكاهن المصري المرتد موسى "عبرانيا"، وجد ذلك المؤلف أن مقتضيات "وصل النسب" تطلبت جعل بطل الحكاية، موسى، يكرر حكاية البطل يعقوب كراعي غنم، وبذا فان موسى "رعى غنم يثرون حميه كاهن مديان" (خروج ٣:١)، ثم لما خرج "بنو اسرائيل" معه من مصر، خرجوا رعاة "معهم غنم وبقر ومواش وافرة جدا" (خروج ١٢:٣٧)، ولما ساروا معه في القفر، ظلوا رعاة لم يكفوا عن التذمر، قائلين لموسى "لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش"؟ (خروج ١٧:٣).

وهكذا يظل بالوسع تفخيم القوم انتماءً وعبوديةً لـ"عبرانيتهم/يهوديتهم" المقدسة، لكن "التاريخ المقدس" ذاته يظل كاشفا باستمرار عن أن "الآراميين التائهين" الذين حُوّلوا الى "عبرانيين" الذين حُوّلوا الى "بني اسرائيل"، كانوا رعاة ولم يتحولوا قبل الاستيطان في كنعان الي مزارعين. بل ويظل ذلك "التاريخ" بكل قداسته المحبطة للعقل كاشفاً عن أن قدراً كبيراً من مسببات تذمرهم وعصيانهم في القفر ظل نابعاً من محاولة موسى اعدادهم "فكرياً" عن طريق التثقيف العقائدي للتحول، عندما "يقرض لهم يهوه" شعوب كنعان ويحلهم محلها، من جحافل بدو رعاة الى أمة من المزارعين.(*) وهو ما انعكس بجلاء في اهتمام مؤلف سفر الخروج بحشر تعليمات زراعية يهيوية في النص لا حاجة بأحد الى كثرة من العقل ليفطن الى أنها كانت سابقة لأوانها بكثير والقوم يتخبطون في الصحراء بحثا عن ماء يروي ظمأهم وظمأ قطعانهم، كقوله "وست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها. وأما في السابعة فتريحها وتتركها.. وكذلك تفعل بكرمك وزيتونك"! (خروج ٢٣:١٠ و١١). فالكروم والزيتون في كنعان التي لم يكن التائهون في القفر مع موسى قد دخلوها بعد، ولا وجود لكروم وزيتون في ذلك القفر. ونفس الحشر المغتصب في النص يتكشف في كل ما ضُمّن في سفر الخروج من تشريعات حمورابي كما في الأصحاح ٢١، مساندة من جانب

(*) ارجع في ذلك الى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص٢٥٣-٢٥٩.

المحررين لاجتهاد موسى (قبل عدة قرون) في تحويل الأشتات البدوية المتناحرة على المرعى الى "أمة" متمتعة باستقرار زراعي ونظام اجتماعي يحكمه القانون.

والثابت علمياً أن التحول من العبادات الماترياركية التي قُدّست فيها الإلاهة الأم العظمى الى العبادات الباترياركية التي قُدّست فيها ألوهة مذكّرة، في أرجاء المنطقة الشاسعة من العالم القديم التي عرفت باسم الشرق الأدنى، كان تحولاً تدريجيا طويل الأمد نشأ أصلاً من اختراع الزراعة وتطور الجماعات البشرية، على عباب ذلك الاختراع، من نمط حياة الرعي الى نمط الحياة الزراعية والعيش المستقر في قرى ثم في مدن انبني اقتصادها، وبالتالي تنظيمها الاجتماعي، على الفلاحة وجني الطعام بدلا من الرعي وجمع الطعام. وفي بداية ذلك التحول، ظلت للإلاهة الأم قداستها المعلاة من خلال امتداد قدرة منح الخصوبة جنسياً للبشر والماشية الى قدرة منح الخصب زراعياً. وهكذا فان التحول من الماترياركية الى الباترياركية، عندما بدأ فيما بات يعرف الآن باسم "الحضارات العليا" في الشرق الأدنى القديم، بدأ في مجتمعات كانت قد عبدت لأزمنة طويلة الإلاهة الأم العظمى بوصفها خالقة العالم ومن فيه وما فيه، وبوصفها أيضاً السلف الأسطوري لشعوب تلك المجتمعات، على النحو الذي استوضحنا بعض أبعاده فيما تعلق بالإلاهة الأم العظمى آست/ايزيس. واستمر آخذاً في مصر مساره كتغير تطوري لا طفري.

ولما كان الآراميون التائهون الذين حُوّلوا الى "عبرانيين" ثم اسمُوا بـ"بني اسرائيل" لم يتحولوا من رعاة الى مزارعين الا بعد الاستيطان في كنعان عبر قرون امتدت من زمن القضاة وبلغت منتهاها بدمار "المملكتين"، الشمالية على أيدي الآشوريين، والجنوبية على أيدي البابليين، فانه مما يتناقض تناقضاً واضحاً مع النمط الذي جرى به التحول الباترياركي تدريجياً في حالة الشعوب التي صنعت تلك الحضارات العليا أن يُصور البدو الساميون الغزاة كمحدثين لنقلة ثقافية كبرى كهذه، خاصة وأن تاريخهم كله (سواء وهم "آراميين تائهين"، أو "عبرانيين" أو "أبناء لاسرائيل") ناطق بأنهم ظلوا متلقين للمؤثرات الثقافية والدينية لا محدثين لها خلال مرحلة التيه الآرامي، ومرحلة التطفل على أرض مصر كمتسللين غير مرغوب فيهم قبل ظهور موسى على المسرح واعطاء الشراذم التي ترأس عليها ديانة لُفقت مما استعاره من ديانته المصرية وكُنعنت بعد انضمام تلك الشراذم الى من كانوا قد استقروا في كنعان من البدو الساميين الرحّل أبناء العشائر المثيلة.

وذلك ما يرجح أن التصوير الرومانسي المفخم الذي ورد في الاستشهادالسابق من الأستاذ كامبل تغلبت فيه الخلفية الثقافية والدينية لكاتبه،وهو عالم كبير متمتع فوق علمه بقدرة فائقة على التحليل والاستقراء الصائب للمعطيات، فأجرت قلمه بما قاله عن "تراث أسطوري وصلنا في العهدين القديم والجديد "وما عزاه من إحداث للتغير الثقافي الضخم المتمثل في النقلة الكبرى من الماترياركية الى الباترياركية في الشرق الأدنى القديم الى من

أسمتهم التوراة بـ"الآراميين التائهين" الذين كانوا - بأي معيار اتخذه العقل في النظر اليهم - جُوّاب آفاق في بطونهم جوع وفي جعبتهم الثقافية خواء أفظع من أي جوع.(*)

والأقرب الى الصواب، فيما يوجه العقل اليه تاريخ الحضارة في الشرق الأدنى القديم، البحث عن محوري التحول من الماترياركية الى الباترياركية في المركزين الرئيسيين للحضارة بالمنطقة: مصر، وأرض الرافدين. فثقافة مصر وثقافة سومر كانتا المصدرين الأساسيين للعطاء الحضاري لكل ما حولهما، ولم تكونا ثقافتين تسولتا المؤثرات من غيرهما.

وفيما يخص مصر، كانت النقلة من المرحلة الماترياركية الى الباترياركية مبكّرة للغاية. وقد أشرنا قبلا الى الاعتقاد البدئي المصري منذ أقدم الأزمنة بأن الألوهة الوحيدة التي وجدت في زمن الفوضى الأولي، أي "عندما لم يكن هناك شيء"، كانت ألوهة مؤنثة.

غير أن إعلاء الألوهة المذكّرة مبكرا في مسيرة الفكر الديني المصري لم يستتبع حرباً على الألوهة المؤنثة، أو يؤد الى الاستماتة، التي اتسم بها تأليف التوراة وسائر أسفار العهد القديم، في طمس تلك الألوهة.

وقد كان ذلك - في حالة مصر وسومر وكنعان - طبيعياً، من حيث أن الإعلاء كان تدريجياً وكان نابعاً من داخل التطور الثقافي لمجتمعات تلك الحضارات العليا ولم يكن مغتصباً مفروضاً عليها من خارجها.

أما في حالة يهوه وصراعه الدموي مع الألوهة المؤنثة، فبالنظر الى أن العملية كانت معكوسة ذَنَبا الى رأس، أي كون الديانة - كما استقرت نصوصها فيما نعرفه باسم التوراة وفي سائر أسفار العهد القديم - أُلّفت بعد قرون من إقحام موسى لمعبوده الصحراوي واشتباك كهنته ومن خلفوه وخلفوهم من كتبة وكهان وعرّافين في صراع طويل مع من أقحم ذلك المعبود على عباداتهم لإرغامهم على عبادته وحده دون سواه، بدا التحول التطوري الذي أفضى الى إعلاء الألوهة المذكّرة دون طمس للألوهة المؤنثة في حضارات مصر، وسومر، وكنعان، مُفْتَقَداً تماما في "الأسفار المقدسة" (التوراة والعهد القديم). ولهذا بدا اجتهاد كهنة يهوه ونبييمه في إعلائه فوق كل ألوهة منافسة، مذكّرة كانت أو مؤنثة، ثم إفراده، ثم الاقتصار عليه في سياق عملية "يهوه وحده" التي ظلت دوافعها سياسية وكهنوتية أكثر منها "دينية"، كضرب من الانقلاب، من الغزو العنيف، وقد تمخض بالفعل عن مذابح دموية عديدة ممعنة في الوحشية كمذبحة ايليا التشبّي لكهنة المرتفعات الذين "أمسكهم ونزل بهم الى نهر قيشون فذبحهم هناك" (الملوك الأول ١٨ : ٤٠).

ذلك النمط الانقلابي الدموي بالغ العنف ككل ما له علاقة بذلك المعبود الممعن في الشراسة قد يكون هو الذي رسّخ في أذهان من تربوا على حكايات الهول اليهيوي في التوراة وسائر أسفار العهدالقديم، حتى أفضل تلك الأذهان وأكثرها استنارة، أن قوم

(*) وقد استعرضنا ملامح ذلك في "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٩٧ وما بعد.

ابرام/ابراهام، الذين وصفوا بـ"رجال القبائل الباترياركية الغازية "كانوا (بوصفهم "آباء الشعب"، أي "آباء اليهود") هم الذين " تعرضت عبادات الإلاهة الأم وما تولّد عنها من أسطوريات الخلق لتحول جذري وتفسير جديد" على أيديهم. وفي ذلك - كما هو واضح -تجاهل (حتى لانقول إغفال عمد) لدور التطور الثقافي/الديني في الفكر الديني لشعوب الحضارات العليا في إحداث ذلك التحول، وتناسٍ للحقيقة الماثلة في أن رجال القبائل الباترياركية الغازية أولئك ظلوا، فما يوقفنا عليه "التأريخ المقدس" ذاته، قوماً استعاروا كل معتقداتهم من ثقافات الأقوام المستقرة صاحبة الحضارات العليا التي "تغربوا في اراضيها"، وتناس أكبر للحقيقة الأخرى الماثلة في أن واضعي "الوثائق" ومحرريها، عندما حاولوا تلفيق تاريخ لـ "رجال القبائل الباترياركية الغازية" أولئك واصطناع لاهوتية لمعبود موسى المسروق من رجال القبائل المديانية العرب، لم يجدوا نبعاً لتأليفهم الا عبادات تلك الشعوب المستقرة في أوطانها، فاستعاروا بتوسع، واستنسخوا بغير حساب، من تلك العبادات.

فالذي يوقفنا عليه تاريخ الديانة المصرية أن الحلول الباترياركي لم يحدث طفرة ولم يحدث نتيجة لـ "غزو" قامت به قبائل باترياركية محاربة او غير محاربة، بل حدث كتطور سلس في سياق نمو طريقة الحياة المصرية وما أنبنت عليه من معتقدات، من المراحل المبكرة قُدُماً الى المرحلة التي انعكس فيها التنظيم الاجتماعي والاقتصادي على "التنظيم الغيبي" للألوهة، إن صحّ التعبير، بحلول الباترياركية محل عبادة الإلاهة الأم العظمى التي سادت في الشرق الأدنى من عصر ما قبل التاريخ.

أما في سومر التي سبقت بابل كمركز للحضارة العليا على الجانب الآخر من الشرق الأدنى القديم، فكانت الإلاهة قد عُبدت في معابد قامت بالخدمة فيها كاهنات إناث واعتبرت المؤسسة الرئيسية التي انبنى عليها المجتمع. وكما كانت الحال في مصر، بالنسبة لمعابد آمون، في عنفوان ازدهار العصر الباترياركي، امتلكت معابد الإلاهة الأم في سومر مساحات شاسعة من الأراضي وقطعاناً كبيرة من الماشية وتكدّست الثروات في خزائنها. وتماما كما فعل كهنة آمون في مصر، اشتغلت كاهنات الإلاهة الأم بالأعمال، وتملّكن الضياع، بل ومارسن إقراض الأموال، وامتهن بعضهن مهنة كاتبات المعاهد. ومثلما عزا المصريون اختراع الكتابة الى الإله تحوت واعتبروه "رب الكلمات المقدسة"، "إله الكتبة"، عزا السومريون اختراع الألواح الطينية والأبجدية وفنون الكتابة عموماً لملكة السموات الإلاهة الأم العظمى إينانا التي وُجِدت النماذج الأولى من النقوش في معبدها بالوركاء.

وفي تلك المنطقة من العالم، أي بلاد الرافدين وما حولها، كان اقتحام باترياركي، يرجح أنه بدأ حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م. على شكل موجات من غزو قامت به أقوام آرية، لا سامية، من الشمال، واستمر لعدة قرون. ومن غير المعروف حتى الآن الموطن الذي انبثقت منه تلك الموجات من الغزو على وجه التحديد، الا أن المرجّح أنها انطلقت من أوروبا

ومن جنوب روسيا كما لاحظ الأستاذ كامبل، وإن كان من غير الممكن القول بأي قدر من اليقين ما اذا كان أولئك الغزاة الآريون هبطوا على أرض الرافدين من سهول أوروبا الوسطى، أو من الشمال الأوروبي حيث يحتمل أنهم عاشوا في مجتمعات قبلية على السواحل وفي الغابات إبان العصر الحجري الجديد كانت ثقافاتها باترياركية محاربة ومتصفة بالخشونة والعنف الى حد أنها دعيت بـ" ثقافات بلطة الحرب".

من تلك الأقوام المحاربة ورث العالم عائلة اللغات "الهندو - أوروبية"، كما ورث الجزء الذي تعرض لغزوهم من الشرق الأدنى القديم، أي أرض الرافدين وفارس، مقومات التحول الباترياركي.

ولما كانت أهم آلهة الغزاة المذكّرة التي حملوا عبادتها معهم ففرضوها بقوة السلاح آلهة عواصف وبراكين ونيران وصواعق، فانه من المرجح أن الألوهة المذكّرة التي تعلّم من أسمتهم التوراة بـ"الآراميين التائهين" عبادتها نتيجة لذلك الغزو (إله العواصف والبرق والصواعق حدّاد/شدّاد) ألوهة "انحدرت" اليهم (متى استخدمنا لغة التوراة) كجزء من طريقة حياة القبائل الباترياركية (الآرية لا السامية) المحاربة التي هبطت من الشمال وفرضت عباداتها على السكان الأصليين الذين غُزيت أراضيهم.

وعلى ضوء ذلك، يكون "رجال القبائل الباترياركون المحاربون" المقصود أنهم البدو الساميون قوم ابرام/ابراهام، الذين خرجوا من أرض الرافدين (من أور)، أو من مدينة ناحور، بدأوا تيههم (لا غزوهم) بحثا عن المستقر والطعام والمرعى وفي مخلاتهم الثقافية الضنينة تراث متلقى من نواتج الاقتحام الباترياركي الآري "المنحدر" من الشمال، تمثل في عبادتهم لحدّاد/شدّاد الذي تحول عندما "تغربوا" في كنعان، من خلال التلقي من الثقافة الدينية الكنعانية، الى "بعل حدّاد" ثم عرف باسم "بعل صفون". وفي نفس الوقت، يكونون - في سياق ذلك التلقيّ من عبادات كنعان - قد وجدوا صدى الإلاهة الأم العظمى السومرية إينانا التي احتفظت ذاكرتهم العشائرية الجمعية بنواتج تلقي عبادتها من السومريين، مترددة بقوة، كنعانياً، في عبادة الإلاهة الأم العظمى عشيرة، أمّ بعل صفون وزوجة إيل، فعبدوا الإلاهة الأم باسم عشيرة مثلما عبدوا حداد باسم بعل صفون. وذلك ما يفسر تجاور العبادتين (الماترياركية والباترياركية) لديهم حتى الى ما بعد وصول اللاويين من مصر برفقة الشراذم التي دُعيت بـ"بني اسرائيل"، ويفسر ظاهرة توفيق العبادات التي أعقبت ذلك الوصول. وفي هذا السياق، يمكن أن نتفهم الانشقاق الذي يبدو من حكي الأسفار التاريخية وأسفار النبيين بالعهد القديم أنه وقع بين الجناح (الأقلية) الذي تخندق في مفاهيم ومرامي حركة "يهوه وحده"، والجناح (الأغلبية) الذي "فسد" من المؤسسة الكهنوتية و"عمل الشرفي عيني بهوه" متماشياً مع "الشعب" ومع معظم "الملوك" في "السير وراء الآلهة الأخرى الدخيلة والغريبة". ومتى تفهمنا ذلك الانشقاق، أمكننا أن نقف على مرامي ومتطلبات العملية ذات الشقين التي مرت بها الديانة في تلك المرحلة المشحونة بالصدام، شق الابتلاع للآلهة والإلاهات ادماجاً لصفاتها وألقابها وخصائصها في يهوه،

إعلاء له فوق "كل الآلهة"، حتى من جانب جناح الأغلبية من المؤسسة الكهنوتية الذي تماشى مع "الشعب" ومعظم "الملوك"، وشق الصراع الدموي الذي خاضته المؤسسة الكهنوتية بجناحيها مع الكهنة المنافسين (كهنة آلهة كنعان).

ومن الظواهر الغريبة اللافتة للنظر أنه في حين صُعِّد ذلك الصراع الى حد المذابح التي من عينة مذبحة نهر قيشون والتي ذبح فيها إيليا في يوم واحد ثمانمائة وخمسين كاهنا من كهنة "البعليم" (وأُصعد بعد ذلك الى السماء مكافأة له على الاضطلاع بها)، لم يرد أي ذكر في أي سفر من الأسفار التاريخية أو أسفار النبيبم لخوض صراع مماثل مع كاهنات الإلاهة الأم العظمى الإناث رغم توافر الأدلة على تواجدهن بكثرة حتى داخل هيكل يهوه ذاته، ورغم ما تشير اليه الحفائر الآثارية من تأثيرهن القوي على "الشعب" وفي "البلاط". فقد كشفت تلك الحفائر عن الكثير من آثار عبادة الإلاهة ممثلة فيما عرف باسم "ألواح عشتارت" وفي ألواح صُوِّرت الإلاهة فيها عارية ممسكة في يدها بحية أو أخرى أو ممسكة بسيقان من اللوتس.(*)

فسفر الملوك الأول، مثلا، يخبرنا أن "سليمان ذهب وراء عشتورث إلاهة الصيدونيين" وأن "نساءه الغريبات كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن" (ولإلاهاتهن بغير شك) وأن ذلك أغضب يهوه كثيرا وأنه "كلم سليمان مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ سليمان ما أوصاه به يهوه" (١١:٥ و٨ و١٠). وهو ما يقطع بوجود كاهنات إناث في خدمة إلاهة نساء سليمان كن يقمن بشعائر العبادة ("يوقدن ويذبحن"). وفي الملوك الثاني توقفنا "الآيات" على أن "القديشات" (الـ"بغايا المقدسات"، أي الكاهنات الإناث) كن قد سكن داخل أسوار الهيكل وأن من ضمن أنشطتهن كان نسج أردية شعائرية لـ"الصارية" أي لتمثال عشيرة المقام داخل المعبد والذي تضرر يهوه قائلا أن "الشعب" كان يتوجه اليه بالصلاة ويدير القفا ليهوه. وكما هو متوقع، أُسقط في أيدي المترجمين الأتقياء تماماً في هذا الجزء من النص، فترجموا اللفظة بـ"المأبونين"، أي "الكهنة الكلاب"، أي "الكهنة البغايا من الذكور"،(**) مفضلين - فيما بدا - التسليم بوجود "مأبونين" داخل الهيكل من الاعتراف بوجود كاهنات إناث للإلاهة، حتى وان اضطرهم النص الأصلي الى القول، بعد ذكر "بيوت المأبونين التي عند بيت يهوه": "حيث كانت النساء ينسجن "بيوتا للصارية" (الملوك الثاني ٢٣:٧). وكما هو واضح، "البيوت"

(*) وزهرة اللوتس، كثمرة الرمان، رمَّزت، في ديانات كثيرة، منها الديانة المصرية، أندروجينية الألوهة: فالساق مثلت القضيب والزهرة مثلت رحم الإلاهة، ولهذا كانت الزهرة رمزاً للخصوبة وللانبعاث في آن معا. وقد صُوِّر أوسير (أوزيريس)متوجاً بتاج من زهور اللوتس المقدسة في الديانة المصرية، كما صُوِّرت ايزيس ممسكة بها كصولجان في يدها، وصُوِّر حورس منبثقا من قلب زهرة اللوتس.

(**) أي المخنثون الشواذ جنسيا، وهم من أسمتهم العرب بـ"المرد" وبـ"المؤاجرين"، ولهم مشكلة مستعصية في عبادة يهوه سنستظهر أبعادها (وأغوارها) بالفصل الخاص بـ "عشق الذكور، واللواط، والكروبيم"، والفصل الخاص بـ "البغاء المقدس"، في الكتاب الثاني من كتابي هذا المبحث، "بورنوجرافيا الدين".

لا تنسج. والظاهر أن الأمر اختلط هنا تماما على المترجمين من فرط ارتباك، فقرأوا "باديم" أي أردية من كتان باعتبارها "باتيم"، أي "بيوت"! غير أن الذي يعنينا من كل ذلك، على أي حال، أن الكاهنات الإناث كن هناك، عند بيت يهوه، داخل أسوار هيكله، وأنهن كن مشتغلات بنشاط بنسج أردية شعائرية من كتّان لتمثال الإلاهة الموضوع داخل الهيكل، وهو ما يكشف عن أن التمثال لم يكن "سارية" بل كان تمثال أنثى.

وسفر التثنية واضح غاية الوضوح في شأن تلك المسألة المرذولة. فمن التعليمات التي وجد مؤلف السفر في زمن يوشيا ضرورة لوضعها باجرائها على لسان يهوه قوله: "لا تكن زانية من بنات اسرائيل ولا يكن مأبون من بني اسرائيل. لا تدخل أجرة زانية ولا ثمن كلب (كاهن من البغايا الذكور) الى بيت يهوه إلهك وفاء لنذر ما لأنهما كليهما رجس لدى يهوه إلهك" (٢٣:١٧ و١٨).

ومع كل ذلك، لا نجد ذكراً لمعركة يهيوية واحدة صغيرة اشتبك فيها كهنة يهوه أو نبييمه مع قديشة أو أخرى من قديشات (كاهنات) الإلاهة، ملكة السموات المقلقة لراحة يهوه وكهنته.

وذلك التورع غريب بحق، ويظل غير مفهوم حتى نذكّر أنفسنا بالشواهد العديدة في أسفار التوراة والعهد القديم على براغماتية الكهنة ومرونتهم في التعامل مع رقاب "الشعب" الصلبة. فتلك الأسفار توقفنا باستمرار على أن الكهنة كانوا أشد صرامة مع الشخصية الروائية التي ظلت لاحقة في الأهمية لشخصية "الشعب" في تشييد المعمار الروائي للديانة، ونعني بها شخصية يهوه ذاته. فهم، في مناسبات لا تحصى، يوبخونه، ويحذرونه، ويصرخون في وجهه، وينبهونه الى واجباته ازاء "الشعب"، ويذكّرونه بالتزاماته التعاقدية قِبل "الشعب"، في حين توقفوا دائما، في تعاملهم مع "زيغ" الـ"شعب" وصلابة عنقه عند حد التحذير والتخويف مما سوف يفعله يهوه "متى صعد غضبه الى أنفه" حرصاً منهم على سلامة "الشعب".

هذه البراغماتية الكهنوتية الناطقة بما أرساه موسى من تقاليد رجل الدولة المتمرس بشغلة الحكم في أسس ما لقنه لطغمته اللاوية من أسرار الصنعة، كفّت المؤسسة الكهنوتية باستمرار عن التمادي في كبح جماح "الشعب" دينياً الى درجة كفه عن ممارسة معتقدات وجد الكهنة (بحنكة رجال الدولة) أن التناطح مع "الشعب" مواجهة فيما يخصها لم يكن من الممكن أن يفضي إلا الى عواقب سيئة تتمثل في العصيان.

والذي يقودنا اليه عزوف أولئك الكهنة عن الدخول في صراعات دموية مع كاهنات الإلاهة في حين ظلوا يذبحون الكهنة الذكور المنافسين بالمئات، استنتاج يعززه بقوة ما نجده منبثقا هنا وهناك في الأسفار التاريخية وأسفار النبييم من تضرر يهيوي وتوجع من جانب مؤلفي الأسفار ومحرريها من سطوة الإلاهة الأم على أذهان "الشعب" وأرواحه، وهو أن الكهنة وجدوا أن عبادة الإلاهة كانت قد ترسخت لدى "الشعب" ورؤسائه

و"ملوكه" الى حد جعل تلك العبادة جزءا أدركوا أنه لم يكن قابلا للتجزؤ من طريقة حياة "الشعب" وقادته.

ونتيجة لذلك الوعي الكهنوتي، تمتعت كاهنات الإلاهة بحصانة غريبة من سُعارات شديدي التقوى من "النبييم" كإيليا، الذين، تحت شعار "يهوه وحده"، ارتكبوا من الجرائم الدموية ما رفعهم الى السموات العلى، وهي حصانة لا قرين لها في تاريخ الديانة إلاّ ما تمتع به الإله الكنعاني إيل من مناعة وقْتَه من التشهير بألوهته في العهد القديم، ولم تقيّض لإيل إلا بفضل براغماتية الكهنة اللاويين.

وحتى اذا نحينا جانبا الإلاهة الأم وإيل لبعض الوقت، وركزنا على يهوه – الذي حرص مؤلفو "التاريخ المقدس" على الإيهام بأنه كان معبود "الشعب"، من حيث أنه كان معبود "آباء الشعب" من مبدأ الأمر – سنجد حقائق غريبة يتعين التوقف عندها والتفكر فيما تكشف عنه. من تلك الحقائق وجود اسم يهوه منقوشاً على رُقم طينية بآبلية من عصر حمورابي (الذي استنسخت من تشريعاته بعد موسى بقرون "الشرائع" التي مكّنت الأذناب الأمميين الأتقياء من ملء أفواههم بمسميات منتفخة كـ"المشرّع" و"صانع الشريعة" و"معطي القوانين" عند التحدث عن موسى). وتلك الألواح لم تختف، فهي محفوظة بالمتحف البريطاني، وهي أدلة لا تدحض على أن اسم يهوه ذاته نابع من ثقافات أخرى ومن زمن سابق لزمن موسى بقرون ومؤشرات لا سبيل الى التعالي في شأنها على المصدر الذي عرف يهوه طريقه منه الى حيث عبده المديانيون العرب على أطراف سيناء مجسّداً كقضيب مختّن منتصب، عندما استعاروه من المؤابيين الذين قدسوه بنفس الشكل القضيبي ولكن باسم بعل فغور (الرب "فاتح الرحم"، وهي تسمية اعتز بها يهوه كثيرا في أسفار التوراة).

وبطبيعة الحال، أخذاً بالممارسة الكهنوتية المتكررة، تمكن محاولة الهرب من مواجهة هذه الحقيقة وما تكشف عنه من خلال الادعاء (كما حدث في حالة سفر الأمثال عندما انكشفت سرقته من مصر)بأن الاسم نُقش على تلك الرقم الطينية البابلية في زمن حمورابي (حوالي ١٧٠٠ ق.م.) أخذاً عن اسم معبود القوم البدو الساميين الصالحين الموحّدين، أي قوم ابرام/ابراهام الآرامي التائه. غير أن تلك المحاولة يدحضها يهوه نفسه بتصريحه لموسى بعد ذلك التاريخ بقرون أن أولئك "الآباء" لم يعرفوه باسم يهوه: "أما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم" (خروج ٦:٣). ولاشك، والحال هذه، أن الإله أدرى بأسمائه التي عُرف بها وأدرى بمن عرفوه بأي من تلك الأسماء وبمن لم يعرفوه، فلا يليق تكذيبه. وتبعاً لذلك، يكون يهوه ذاته قد قطع الطريق بنفسه على الادّعاء بأن اسمه ظهر على تلك الألواح البابلية السابقة للقائه بموسى بعدة قرون نقلا عن عبادة الرجل الطيب الموحد ابرام/ابراهام له.

ومن تلك الحقائق الغريبة الفاتحة لعيني العقل غير المغيّب في ضباب التصديق ما توقفنا عليه البحوث التاريخية والكشوف الآثارية والدراسات الميثولوجية من أن مفهوم الإله

الذكر الأعلى ("إله الآلهة") حملته الى المناطق التي غزتها من الشرق الأدنى القديم أقوام آرية، لا سامية قدمت من الشمال ولم تخرج من أور أو من مدينة ناحور، وأن الصفة الأهم التي عبدت تلك الأقوام الآرية القادمة من الشمال ذلك الإله المذكّر بها كانت صفته كإله برق ورعد وعواصف وأعاصير، وأن محل اقامته كان رأس الجبل، حيث كمن مدخنا بالنار، مشعاً بالنور، قاذفاً صواعقه وبروقه (حيّاته النارية المجنحة). وكل هذه صور بركانية لا لبس فيها استخدمت باستماتة غريبة في تصوير يهوه في التوراة والعهد القديم وجعلت ادوارد ماير يرجح أن ذلك المعبود كان "شيطاناً من شياطين البراكين".(*)

ومن تلك الحقائق أيضا الاعتقاد الذي كان من أسس عبادة تلك الأقوام الآرية الغازية، لا البدوية السامية التائهة في الصحارى بحثاً عن المرعى، وهو أن "النور خير والظلمة شر". وهذه فكرة سقط عليها بغير امهال مؤلف أو مؤلفو سفر التكوين فاستهلوا بها ذلك السفر بتأكيدهم أن الأرض – قبل أن يخطر ببال يهوه أن يشرع في عملية الخلق – "كانت خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة" وأن "الله"، المطلوب أن نعتبره يهوه، قال "ليكن نور، فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة" (تكوين ١:٢-٤). وفي سفر إشعياء، نجد مفهوم "النور خير والظلمة شر" مأخوذاً بالصياغة التالية: "(أنا يهوه) مصور النور وخالق الظلمة. صانع السلام وخالق الشر" (٤٥:٧).

كل هذه الحقائق التي لا سبيل الى دحضها أو التمويه عنها توقفنا على أن من دعوا باسم "الآراميين التائهين"، عندما انبجسوا من أرض الرافدين، في تاريخ لاحق لذلك الغزو الباترياركي الآري، بعبادة "المُرعِد" إله العواصف والأعاصير حدّاد، كانوا متلقين لعبادة لم يدعوها ولم يخلقوا أساطيرها ولم يقدمهم اليها "وحي" سماوي، بل اقتبسوها اقتباساً من عبادات القوم المتحضرين الذين عاشوا بين ظهرانيهم.

وتوقفنا تلك الحقائق أيضا على أن أولئك الآراميين التائهين، الذين دعوا بـ"الآباء"، ودعي من نسبوا اليهم، بغتة، عند ظهور موسى، بـ"العبرانيين" (مع زج تلك التسمية تحريرياً في حكاية يوسف)، ثم دعوا عند "الخروج" (الطرد) مع موسى باسم "بني اسرائيل"، باتوا في غمار محاولة موسى ترويضهم على عبادة الوثن البركاني القضيبي الذي عاد بأسطوريته من الصحراء، متلقين لعبادة جديدة لم تكن لهم صلة بأسطوريتها ولم يهدهم اليها وحي سماوي، بل فبركت لهم بالاقتباس الذي شمل المعبود ذاته مثلما شمل ما نهب له على يد موسى من ديانته المصرية.

وعلى الحالين، لم يكن القوم، سواء عندمادعوا بـ"الآراميين التائهين"، أو دعوا بـ"العبرانيين"، كما لم يكن المتسللون الذين لصقوا بجسم مصر ردحاً من الزمن إلىأن طردوا، محدثين لنقلة باترياركية بغزو ثقافي واكب ما يدّعى أنهم قاموا به من غزو إبان

(*) ارجع في ذلك الى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٢٩١، ٣٤٠-٣٤٢، ٣٥٧ والى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص٧٥، ٧٦، ٢٥١، ٤٠٩، ٤١١-٤٢٨.

تشردهم هرباً من الجوع. فحقيقة أمرهم أنهم، سواء منهم من علق بجسم مصر أو بقي في كنعان الى أن انضم اليه من طرد من مصر، تلقوا النقلة الباترياركية بعد وقوعها بقرون.

فالذي يوقفنا عليه "التاريخ المقدس"، المرجع الذي لا يمارى فيه بشأن عبادة يهوه، أن تلك العبادة - متى أخذنا بحكي سفر التكوين عن صراع يهوه مع الحية لأنها أوقفت آدم وحواء على أسرار عليا خبيئة لم يكن يجب أن يعرفاها - بدأت في المرحلة التي كان الصراع قداحتدم فيها بين معبودات الانقلاب الباترياركي المذكّرة، التي كانت حديثة عهد بالإعلاء الى ما فوق الجَلَد،وبين مختلف تجسدات عبادة الإلاهة الأم العظمى، ذلك الصراع الذي لا توقفنا على تفاصيله أساطير الشرق الأدنى القديم فحسب، بل وأسفار التوراة والأسفار التاريخية وأسفار النبيين في العهدالقديم.

والمشاهَد، مصداقاً لكون أبالسة و"رجاسات" أي ديانة لاحقة ضرباً من المسخ الكهنوتي لمعبودات ديانة سابقة، وجود ميل قوي - سواء في أساطير الشرق الأدنى القديم أو في أسفار التوراة وسائر أسفار العهد القديم - الى مسخ المعبودات المؤنثة السابقة في الديانات الماترياركية الى حيّات وأفاعٍ وتنانين وكائنات شيطانية و"أرواح نجسة". وقد كان التحويل الى حيّات وأفاعٍ وتنانين، في واقع الأمر، منطقياً، من حيث أن تلك الكائنات كانت لها أدوار بالغة الأهمية في عبادات الإلاهة الأرض الأم.(*) ولذا فان مسخها كان انتصارا لمعبودات الديانات الباترياركية المذكّرة، وكان ذلك الانتصار، في حالة كل معبود مذكّر بمثابة التسجيل النهائي لحلوله محل الإلاهة الأم العظمى، وخاتم التصديق الكوني على علو قدرته السحرية الفائقة. وذلك واضح بجلاء في عبادة الإله السومري المذكّر آمار - أوتوك، أو -بابليّاً- مردوخ (الذي دعي في التوراة باسم مروداخ) الذي أصبح الإله الأعلى للأمبراطورية البابلية. فذلك المعبود المذكّر (الذي استعير منه ليهوه بتوسع) بدأ صعوده المظفّر بالانتصار على الإلاهة الأم تعامة (تيامات) تنينة الفوضى الأولى التي خاض معها حرباً بطولية انتهت بالانتصار عليها وعلى جيشها المخيف من الهولات ثم شق جسدها المهول (وبالتبعية، فرجها) بطوله ليصنع من شقه الأسفل الأرض ومن شقه الأعلى الجَلَد.(**)

وفي كنعان أيضا، خاض الإله بعل معركة ضارية مع التنين لوتان وانتصر عليه فكان انتصاره إعلاناً لاعلاء مكانته ليصبح "الإله التنفيذي" في بانثيون آلهة أوغاريت، تحت الإله الأب إيل.

وبطبيعة الحال، لم يكن من المتصور أن يحرم مؤلفو أسفار التوراة والعهد القديم معبودهم يهوه من مجد باترياركي كهذا وهم قد استنسخوا له العديد من صفات بعل

(*) ارجع في ذلك الى " السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص ١٦٠-١٧٠، ١٧١-١٨١.

(**) ارجع لما كتبناه عن المصادر السومرية لسفر التكوين في "قراءة سياسية للتوارة"، ص ص٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٤٨-١٥٦، ١٦٦-١٩٤.

وخصائصه. ولذا فانهم حرّفوا "لوتان" قليلاً، فجعلوها لوياثان، وجعلوا من أمجاد يهوه الكبرى انتصاره على ذلك التنين، كما تغنى إشعياء":

".. يعاقب يهوه بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان،
الحية إلهاربة. لوياثان، الحية المتحوية. ويقتل التنين الذي
في البحر" (٢٧:١).

فالصراع في حقيقته صراع الإله المذكّر المحارب ("رجل الحرب"، "رب الجنود") مع الحيّة، صولجان الإلاهة الأم العظمى ملكة السموات ورمزها، بل وتجسّدها الشرير، وهو صراع أعطي طابعه "المقدس" في حكاية آدم وحواء والحية في سفر التكوين، وأخذت الحية طريقها، ابتداء من صياغته التوراتية الى حيث أصبحت الشيطان في المسيحية.

والذي قد يغمض هنا، أو يغيب عن الذهن، أو يُخفى عن عمد، أن الصراع في ذلك الحكي الدرامي كله صراع أرضيّ للغاية لا سماويّ، صراع خاض غماره كهنة عرّافون ظلوا المستفيدين الرئيسيين من إفراد يهوه ثم توحيده معبوداً لـ"الشعب"، وباتوا بذلك المدافعين الأشداء عن "يهوه وحده"، وكان خوضهم له ضد كهنة عرّافين منافسين أوشكت شعائرهم وممارساتهم أن تستوعب "الشعب" تماماً ف"يسير وراء الآلهة الأخرى الدخيلة والغريبة" منصرفاً عن يهوه، وبالتالي عن كهنته الذين ظلت تعليمات يهوه تتلاحق علىألسنة النبييم آمرة "الشعب" أن "يملأ أيديهم" ويقدم لهم العشور والذبائح والتقدمات النباتية.

فموسى، عندما أنشأ عبادة يهوه اختلاسا من ديانته المصرية، أوجد حوله طبقة كهنوتية "صفوة" أصر مؤلفو سلسلة حكايات موسى على تسميتها بـ"سبط" لاوي (ليفي) ادراجا لذلك "السبط" بين "أسباط" أبناء يعقوب، "بني اسرائيل". وفي انشائه لتلك الطبقة الكهنوتية الصفوة، حرص موسى على أن يؤمن لها مؤبداً سلسلة من المزايا صُوّرت كواجبات اختار يهوه ذاته ذلك "السبط" للقيام بعبئها دون غيره. وهكذا، قصِر حق التكهن ليهوه على اللاويين، وقُصِر علىأعلاهم درجة في سلك الكهنوت (هرون وأبنائه) حق القيام بخدمة يهوه في خيمة الهيكل وحق دخول "قدس الأقداس"، كما أُعفوا من التعرض لمخاطر الغزو والقتال باعتبارهم "مكرّسين للتكهن"، أي أعفوا من الخدمة العسكرية التي جُعلت إلزامية بالنسبة لكل ذكر من أبناء "الشعب" من سن العشرين فصاعداً. وحرصاً على خصوصيتهم، ضُيّق نظام الزواج الداخلي (أي تحريم الزواج من خارج "الشعب") فيما يخصهم، فحُرم عليهم التزوج الا من داخل السبط نفسه، حفاظاً على حق التكّهن (الذي عودل هنا بحق المُلْك) وقطعاً للطريق على خروجه الى أي سبط آخر. وعلى الرغم من أن اللاويين لم توزع عليهم الأرض حيثما أمكن نهبها من الكنعانيين بالغزو (وهو حرمان ادُّعي أنه بتعليمات من يهوه، الا أنه يعزز الاعتقاد في عدم انتماء اللاويين أصلا الى "الشعب" ورفض سائر الأسباط لهم على ذلك الأساس العرقي) فانهم عوّضوا بحق احتكار التقدمات

والعشور، وعاشوا بذلك في رغد وترف، سواء بفضل الذبائح التي لا تُحصى والتي قضت شعائر الديانة (وبخاصة في سفر اللاويين!)، بادعاء أن تلك الشعائر "مملاة من يهوه"، بتقديمها من "الشعب" الى "بيت الرب" باعتبارها "طعام يهوه، غذاءه، ورائحة سروره" (!)، ليحرق بعض شحمها ولحمها على المذبح ("إطعاما للإله") ويأكل الباقي كهنته، لا ليملأوا كروشهم، بل لأن التهامهم لتلك الذبائح جزء حيوي من طقوس العبادة لا أكثر، أو بفضل ما ظل مفروضاً على "الشعب" تقديمه من ذهب وفضة ومقتنيات وحنطة وخبز وزيت وعطور ونبيذ الى "بيت الرب"، بتعليمات صارمة من ذلك الرب. وحتى في الحالات التي كان اللاويون يحتاجون فيها الى الحصول على شيء أو الى اقتناء عقار بالشراء (ودفع الثمن مما في "خزائن الرب")، قضت الشريعة بأنه من حق اللاوي الذي لا يمارى فيه أن يحدد الثمن الذي يدفعه بنفسه، متى كان البائع من سبط آخر.

ويوقفنا سفر صموئيل الأول، اضطراراً فيما بدا، على ما يشير الى أن اللاويين كانوا قد استمرأوا تلك المزايا التي جعلتهم طبقة صفوة حاكمة (باسم القضاة) ففسدوا. فالسفر يحكي أنه "لما شاخ صموئيل، جعل بنيه قضاة لاسرائيل "وأن ابنيه" لم يسلكا في طريقه بل مالا وراء المكسب وأخذا رشوة وعوجا القضاء" (٨:١ و٣).

كما يوقفنا ذلك السفر أيضا على مدى معارضة صموئيل، عندما ضج القوم من فساد ابنيه، لفكرة إحلال "ملك" من خارج السبط اللاوي محل اللاويين الكهنة الحكام، أي القضاة. وقد كان ذلك طبيعياً. فالكهنة اللاويون كانوا - كما خطط موسى فعلا - قد تربّعوا على قمة "الشعب" كطبقة كهنوتية/ ملكية مميزة أشبه بالطبقة الكهنوتية المصرية التي تربى موسى في رحابها وكان فقدانه لمزاياها بموت اخناتون ومطاردة كهنة آمون له بين من طاردهم الأمونيون من سدنة عبادة آتون السبب الرئيسي الذي جعل ذلك الكاهن النبيل المصري يقبل - بعد عودته من منفاه الاختياري بمضارب المديانيين - بالنزول الى مستوى الأشتات البدوية السامية من العبيد الآبقين كشامان طموح تطلع الى صُنع مُلْك جديد يعوضه عما ضاع منه.

وإن بحثنا عما يوقفنا على حقيقة ذلك، لن نجد ما هو أصدق من تلك الأصحاحات (الفصول) الكاملة من سفر الخروج التي خُصصت لإجراء التعليمات الى "الشعب" على لسان يهوه بصنع الأردية الملكية الباذخة للاويين كبار كهنة المعبود (الذين كانوا في زمن موسى هروناً وأبناءه) والتحمل بكلفتها الباهظة، مع قصر حق ارتدائها على أولئك الكهنة والقضاء بالموت على كل من سولت له نفسه أن يحاول مشاركتهم فيها.

ولقد كان أهم وأخطر ما ورَّثه موسى من حقوق قصرية لتلك الطبقة الكهنوتية الملكية الحق الذي ظل رئيسياً في بنية كل دولة لاهوتية في التاريخ، وهو حق احتكار الشريعة التي وضعها موسى اقتباساً وحرَّفها ولوَّنها كيما تتواءم مع مقاصده الدنيوية السياسية البحتة وكيما تكون مقبولة ممن أراد أن يصنع منهم شعباً وأمة يقيم بها مُلكاً. وقد

تمثل ذلك الاحتكار في أن اللاويين كهنة يهوه وحدهم ظلوا، في زمن موسى، وطيلة الوقت بعد موسى، "الأمناء" على "شريعة موسى" التي زيّدوها ونمّقوها في "الوثائق" بما دسوه فيها من مسروقات اختلست من شريعة حمورابي أضيفت الى مسروقات موسى من ديانته المصرية (كما في حالة "الوصايا العشر" مثلا)(*) وظلوا – وحدهم دون سواهم – المفسّرين لها، المنشدين لحكيها أيام كانت تتناقل شفاها، القائمين بطقوسها وشعائرها، العالمين بأسرارها وغوامضها كثيرة الدهاليز، ثم المسجّلين لها في عصور لاحقة، تأليفاً بطريقة القص واللصق، وتحريراً، وتعديلاً، وتحويراً.

وان بدت الصورة غريبة بعض الشيء أو بدت متصفة بالتجني على "كهنة طيبين أتقياء صالحين زاهدين" من خلال تصويرهم بهذه الصورة المترفة المنعّمة تنعّماً شبه ملكي كما لو كانوا طبقة أرستقراطية أعطيت حقاً إليها في حكم "الشعب" في إطار دولة لاهوتية شمولية، فلنرجع أولا الى هبات التمرد والعصيان التي نشبت، لا من جانب الأسباط الأخرى فحسب، بل من بين صفوف اللاويين أنفسهم، تذمراً من استئثار الهرونيين بالمزايا والمغانم التي ترتبت على التمتع بتلك الحقوق القصرية شبه الملكية(**)، ثم لنتدبر بعد ذلك الحقيقة التاريخية الماثلة في أن أولئك الكهنة الصفوة تحوّلوا فعلاً الى حكام باسم "القضاة" ولم ينته وجودهم في قمة السلطة الا بتملك شاول بعد معارضة شديدة من جانب صموئيل الذي كان من الطبيعي، كما أسلفنا، أن يسوء في عينيه – وهو سليل تلك الطبقة الصفوة التي أنشأها موسى لتتمتع بالمُلْك من بعده والتي اغتالت موسى عندما بدا لأكبر سفّاحيها يشوع أن ذلك المُلْك كان قد بات في متناول اليد فعلاً – أن يخرج ذلك المُلك من أيدي اللاويين.

ذلك كله تاريخ، وتاريخ "مقدس" يوقفنا على أن "الأسفار المقدسة"، ابتداء من سفر التكوين، أول أسفار التوراة، الى سائر أسفار العهد القديم (التي ينبغي أن يضم اليها سفر "رؤيا يوحنا اللاهوتي" الذي ذُيّل به العهد الجديد)(***) وضعت كلها تأليفاً وتسجيلاً واستنساخاً ونقلاً وتحريراً بأيدي مؤلفين ومحرّرين لاويين من أبناء تلك الطبقة المستفيدة مُلكاً ومصالح في ظل يهوه، كما يوقفنا على أن كل تلك العمليات النشطة من التأليف والاستنساخ والتحرير اضطلع اللاويون بها لأغراض سياسية كهنوتية بالدرجة الأولى كيما يظل نتاجها أداة ذات قداسة متمتعة بسلطة إلهية لا تناقش ولا تخالف تستخدم في ترسيخ سطوة اللاويين وتأييد تسيدهم وما عاد عليهم ذلك التسيّد به من مزايا ومغانم.

(*) ارجع في ذلك الى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص ٢٩١، ٣٤٠-٣٤٢، ٣٥٧ والى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص٧٥، ٧٦، ٢٥١، ٤٠٩، ٤١١-٤٢٨.

(**) انظر في شأن هبات التمرد والعصيان ضد موسى والهرونيين "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص٥٤-٥٧، ٦٦-٦٩، ٩٣، ٩٤، ١١٧، ٢٧٥-٢٧٧، ٣٤٢-٣٤٦، ٣٥٥، ٣٥٩.

(***) انظر في شأن سفر يوحنا اللاهوتي، وفي شأن "المسيحانية"، كتابنا "المسيحية والتوراة".

هذا **الواقع الجوهري للديانة**، وهو أن زخمهـا الرئيسـي اتجـه منـذ البدايـة صـوب تحقيق وتأمين مصالح كهنتهـا وتمكينهـم مـن اسـتخدام "الشـعب" فـي تحقيـق مطـامحهم السياسية ومطامعهم المتعلقـة بحيـازة الأرض والـثروة، يشـير الـى أن الصـراع الـذي نجـده مشتعل الأوار على طول أسفار العهد القديم وعرضها، بين أولئك الكهنة(الذيـن هـم - بعـد كل شيء - مؤلفو الديانة والأمناء على أسرارها) وبين كل من وما وجدوا فيه شبهة تهديـد لمكاسبهم ومزاياهـم أو شبهة عرقلة لتوسع طموحاتهم التي اتخذت، في التوجه المسيحاني، أبعاداً أكبر بكثير من الوعد الأصلي بكل الأرض من النيل الى الفرات، فبـاتت وعـدا بفـرض سيادتهم - تحت لواء يهوه - علـى كـل كوكـب الأرض، مـن محـط عـرش يهـوه، جبـل صهيون.

(٧) يهوه وابنته معشوقته التي عملت فظائع كثيرة

في سفر المتنبيء عاموس (حوالي ٧٧٥-٧٥٠ ق.م.) يخاطب يهوه "بني اسرائيل، كل القبيلة التي أصعدها من مصر" بكلام غريب بعض الشيء، اذ يقول لهم:

"إيّاكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض" (عاموس ٣:٢)

ومنشأ الغرابة أن إلهاً اقتصرت "معرفته" على "قبيلة واحدة" من كل قبائل الأرض. فذلك أول ما يتبادر الى الذهن من قوله "عرفت".

ونحن نعرف أن يهوه كان قد اتخذ من بني اسرائيل شعباً أخص له، وأمة مقدسة استفردها لنفسه من كل أمم الأرض. ونحن نعرف أن القوم كلهم "مقدسون، وكلهم أمراء، ولا حق لأحد غيرهم في لقب أبناء الله، لأن الله لا يحب أحدا سواهم، ولأن العالم لم يخلق إلا لهم، ولأنهم أذكى من حملت الأرض".(٣)

ونعرف فوق هذا وذاك أنه "عندما قسم يهوه البشر كان اسرائيل نصيبه" وكل ذلك، الا أن يهوه لم يستخدم في هذا النص من سفر عاموس أية لفظة تعني الانتقاء أو الاختيار أو الاستفراد، بل استخدم لفظة "عرفت". ومتى ألقينا بالاً الى ذلك، ازدادت الغرابة فشارفت دواعي الاستنكار لأن الفعل "عرف"، في رطانة التوراة والعهد القديم كله، بأي لغة، استخدم – من أول سفر في الكتاب – بمعنى "جامع"، أي "نكح"، أي "وطأ"، أي ركب ومارس الاتصال الجنسي. فسفر التكوين يخبرنا أن "آدم عرف امرأته فحبلت" (٤:١)، ومن معرفة آدم لها ولدت قايين. وبعدها يخبرنا نفس السفر أن قايين ذاك "عرف امرأته أيضا (أي عرفها هو الآخر كما عرف أبوه آدام امرأته) فحبلت" (٤:١٧) ولكن دون أن يوقفنا على هوية امرأته تلك أو من أي أب وأم جاءت. ثم يعود السفر فيخبرنا أن "آدم عرف امرأته أيضا فحبلت" (٤:٢٥).

فالأمر (بالنظر الى المعنى التوراتي للفعل "عَرَفَ") غريب فعلاً، بل ولا يكاد يُصدّق، ولابد أن من ترجموا كلام يهوه الذي وجّهه الى بني اسرائيل على لسان المتنبئ عاموس وقعوا في خطأ فاحش.

غير أن الرجل الطيب عاموس يعود فيقول أن يهوه بعد أن كلّفه بأن يذكّر بني اسرائيل بأنه من فرط ولع بهم لم "يعرف" سواهم من كل قبائل الأرض، أخبره وهو في غاية الألم أن "عذراء اسرائيل قد سقطت "(عاموس ٥:٢) والعذراء لا تسقط الا بفقدان بكارتها لغير بعلها. وفقدان البكارة ولو غصباً عقابه الموت رجماً بالحجارة (تثنية ٢٢:٢٠-٢٤). واسرائيل، المخطوبة ليهوه، سقطت ففقدت بكارتها لأنها "زَنَت" مع الآلهة الآخرين.

فالتصور جنسي لا مهرب من الاعتراف بحسّيته. وقد قال يهوه لبني اسرائيل محدداً نوعية علاقته بهم "إني قد تزوجتكم" (إرميا ٣:١٤). واذ رأهم "يخرجون من تحته" (وهو التعبير المتكرر في أسفار النبييم عن "زيغ الشعب") لـ"يزنوا" مع آلهة أخرى غيره وهو "الإله

الغيور"، قال لهم "حقا انه كما تخون المرأة زوجها قد ختنموني يابيت اسرائيل" (إرميا ٣:٢٠).

والأغرب من كل هذا والأدعى للحيرة بحق أن يهوه، فيما ظل "يقوله" لنبييمه الكبار، اتخذ من اسرائيل ابنته زوجة له ضاجعها وأنجب منها "ابنه البكر" (خروج ٤:٢٢) "الشعب" الذي "أحبه منذ كان غلاما ومن مصر دعاه (وأخرجه) " (هوشع ١١:١). فهو يخاطبها أولا بقوله "ألست من الآن تدعينني يا أبي يا أليف صباي ؟ " (إرميا (٣:٤) ويعود فيؤكد ذلك بقوله "وقلت تدعينني يا أبي ومن ورائي لاترجعين" (٣:١٩) لكنه في "الآية" التالية فوراً يقول لها "لكنك كما تخون المرأة بعلها ختنتني" (إرميا ٣:٢٠).

لكنه رغم خيانتها الزوجية له مدلّه في حبها: "ما لحبيبتي في بيتي. قد عملت فظائع كثيرة" (إرميا ١١:١٥). ومن فرط فحشها وتماديها في خيانته هجر بيت الزوجية محزونا "قد تركت بيتي رفضت ميراثي. دفعت حبيبة نفسي ليد أعدائها" (إرميا ١٢:٧). لأنه-كأي زوج مخدوع-لم يطق، فطلقها: "هكذا قال يهوه: أين كتاب طلاق أمكم التي طلقتها او من هو من غرمائي (مَن مِن منافسي عليها) الذي بعته إياكم؟ هو ذا من أجل آثامكم قد بعتم ومن أجل ذنوبكم طلِّقت أمكم" (إشعياء ٥٠:١). وهو في غاية الألم، كأي عاشق مخدوع، لذلك الفراق، الا أنه ما حيلته وحبية نفسه قد فعلت فظائع لاتحصى؟ ومع ذلك مد لها في حبال الصبر والتسامح أملاً أن تعود اليه. فهو من فرط عشقه لها لايطيق خيانتها ولا يطيق بعدها عنه:

> "قائلا اذا طلق رجل امراته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر، فهل يرجع اليها بعد؟ ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة؟ أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين. لكن (مع كل ذلك) ارجعي الي يقول الرب يهوه. ارفعي عينك الى الهضاب وانظري أين لم تضاجَعي؟ في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البرية ونجست الأرض بزناك وبشرِّك.. وجبهة امراة زانية (زعونة) كانت لك. أبيتِ أن تخجلي (وقلت في نفسك) هل يحقد عليّ أبد الدهر أويظل غاضبا الى الأبد؟" (إرميا ٣:١-٤)

وقد لانختلف، ما لم نتخل عن العقل، على أنه كان بالوسع - والقائل إله رهيب في صرامته وُصف بالحاح بأنه عديم الجنس ولا شأن له بالأنشطة البهيمية التي من قبيل الجنس والجماع أو بالعواطف الانسانية التي من قبيل العشق، بدليل أنه اصدر حكم اعدام أبدي وشامل على النوع البشري كله لأنه وجد مخلوقيه الأولين، آدم وحواء، وقد فطنا الى عريهما - جَعْل ذلك الاله، ولو حرصا على الاتساق وتجنباً للتناقض، يعبر عن غضب نبييمه على زيغ "الشعب" وراء "الآلهة الأخرى" بألفاظ أخرى وبتصورات غير ممعنة في الحسية الجنسية، بدلا من "ايّاكم فقط عَرَفت"، وبدلاً من "لما كان اسرائيل غلاما أحببته" التي

تستدعي الى الذهن علاقة كعلاقة كبير آلهة اليونان زيوس بغلامه الجميل الساقي جانيميد، وبدلا من "ما لحبيبتي في بيتها" وبدلاً من "تدعينني يا أبي يا أليف صباي"، وبدلاً من "الزوجة الخائنة" الزانية مع أصحاب بلا عدد"، وبدلا من "الطلاق".

وحتى نبين المعنى تماما ونحن نعلم أن هذا كلام قد يقع موقعاً خشناً، حتى لانقول جارحاً، على آذان المعاصرين التي رُوّضت منذ الصغر على تنحية هذه "المسائل الإلهية" جانباً بعيداً عن المحسوسات وما اليها من دنيويات خسيسة بعيدة عن "الروحانية" الواجبة عند التفكير في هذه المسائل، نتسائل ـ محكّمين العقل لا العمى الإيماني أو المخ المغسول ـ ألم يكن بالوسع القول "إيّاكم وحدكم انتخبت أو انتقيت من كل قبائل الأرض" بدلاً من "إيّاكم فقط عرفت"؟ ألم يكن مما يؤدي نفس المعنى بغير حاجة الى أية ايماءات جنسية أن يقول يهوه "اني قد التصقت بكم فجعلتكم شعبي" بدلا من أن يقول "اني قد تزوجتكم"؟ أو يقول "انكم قد كفرتم بي"، بدلا من أن يقول "قد ختنموني خيانة زوجية"؟ أو يقول "اني قد نبذتكم أو أخرجتكم من رحمتي"، بدلا من أن يقول "اني قد طلقتكم أو طلقت السيدة أمكم"؟ أو يقول "أمتي أو شعبي" بدلا من أن يتوجع كعاشق قائلا "ما لحبيبتي" ويتأوه لاضطراره الى فراق "حبيبة نفسه"؟ أو يصف ما فعلته تلك الابنه، الحبيبة، العشيقة، والزوجة الخائنة، بالمروق أو بالكفر أو بأي وصف آخر غير "الزنا" بكل ما حملته لفظة الزنا من ايحاءات غير لائقة اطلاقاً في سياق طاهر مقدس كهذا؟

ما لم نكن قد تخيلنا عن العقل، أو طمرناه في رمال التصديق، سنجيب على كل هذه التساؤلات بأنه كان بالوسع ذلك طبعا. وسنلاحظ في الوقت ذاته أن الكلام هنا كلام متنبئين عرّافين قالوه بادعاء أن إلهاً قاله لهم، وإلهاً اسمه يهوه، صوره لنا موسى رهيباً في قداسته مترفعاً على كل ما هو انساني مؤكداً، منذ بدء الخليقة، أن "روحه لن تظل في صراع مع الانسان لأنه من لحم" (تكوين ٦:٣). وقد نلاحظ، متى أخذنا كل ذلك في حسباننا أن هناك تبايناً ملحوظاً، بل انقساماً لافتاً للنظر في صورة يهوه كما تطالعنا من النسيج الموسوي المبكر للديانة، وصورته التي تطالعنا مما ظل النبييم يجرونه على لسانه بعد الاستيطان في كنعان. ولنقارن، مثلا، الصرامة شديدة التزمت في كل ما له علاقة بالجنس في "مناهي" وأحكام سفر اللاويين، وبين هذا الكلام الذي وجد المتنبيء هوشع، في القرن الثامن ق.م، بوسعه أن يؤكد به أن نفس الإله الذي يفترض أنه "أملى" سفر اللاويين على موسى قبل خمسة قرون، كلّفه بأن يبلغه لـ "الشعب":

"حاكموا أمكم حاكموا لأنها ليست امرأتي وأنا لست
بعلها لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها.
لئلا أجردها عريانة وأوقفها كيوم ولدت.. ولا أرحم بنيها
لأنهم أولاد زنى. لأن أمهم قد زنت. التي حبلت بهم
(مني) قد زنت. لأنها قالت اذهب وراء عشاقي الذين
يعطون خبزي ومائي صوفي وكتاني زيتي وأشربتي. لذلك

ها أنا اسيّج عليهـا بالشوك وأبني حائطها حتى لاتجد
مسالكها. فتتبع عشاقها ولا تدركهم، وتفتش عليهم ولا
تجدهم. فتقول أذهب وأرجع الى رجلي (لا "الى الهي"
بل "الى رجلي" وصحتها "بعلي") الأول لأنه حينئذ كان
خير لي من الآن" (هوشع ٢:٢-٧)

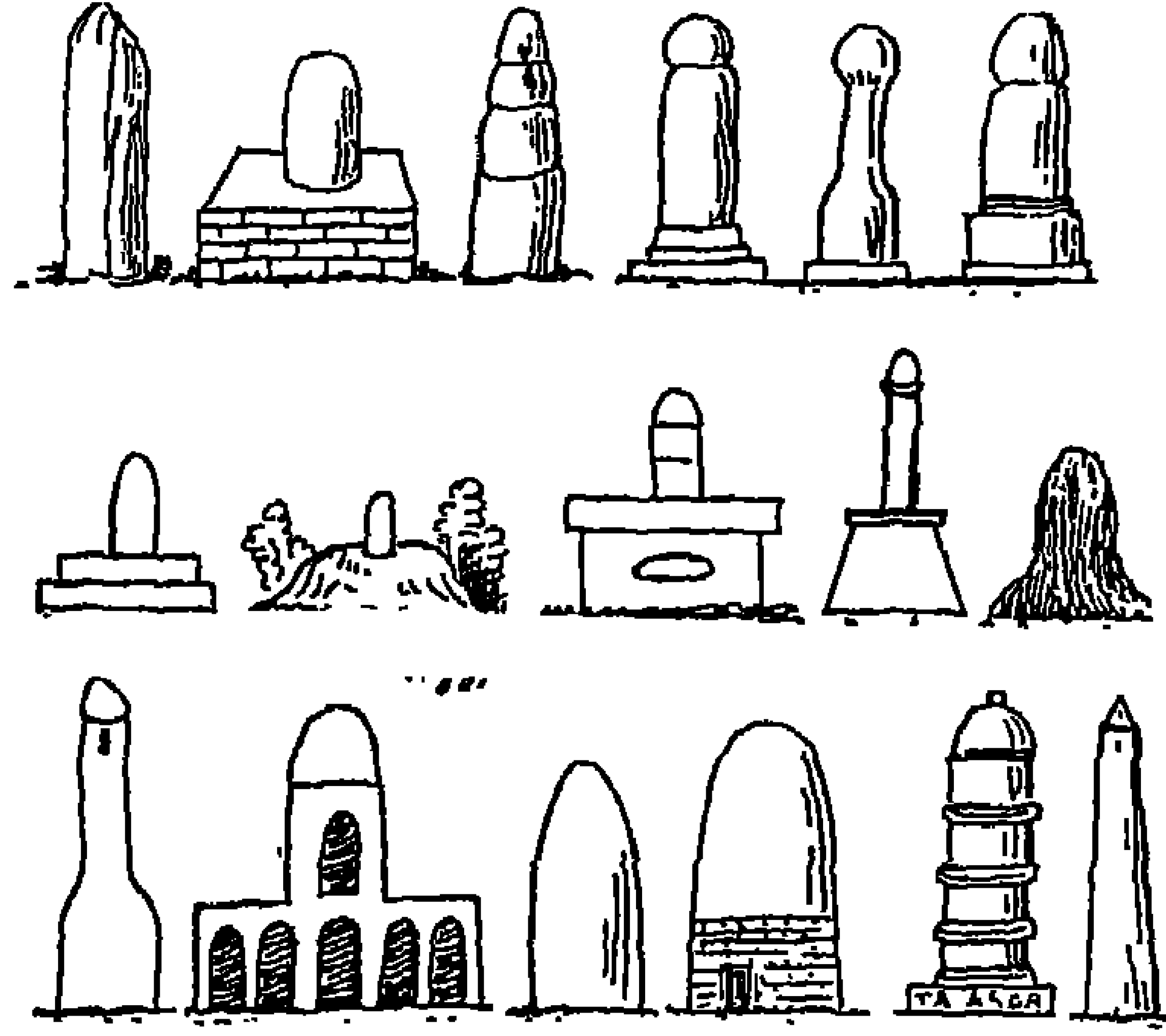
أفلا يكون لنا عذرنا اذا ما أخذنا الكلام على محمل التوجع المندفق من قلب رجل عاشق قد غدرت به معشوقته أو خانته زوجته؟ لكننا واجدون، متى واصلنا قراءة النص، أن العاشق ليس "رجلاً" بل الإله يهوه، وأن المعشوقة الغادرة هي اسرائيل "التي لم تعرف أني أنا يهوه أعطيتها القمح والمسطار(*) والزيت وكثّرت لها فضة وذهبا (فأخذته وجعلته لبعل آخر)" (هوشع ٨:٢) كامرأة تأخذ نِعَم زوجها لعشيقها.

فاذا ما ذهبنا الى حزقيال، وقفنا على بعض السرّ في غيره يهوه وضناه. فالحبيبة أخذت ما أغدقه هو عليها من "الذهب والفضة" (أي ما مكّن "الشعب" من نهبه من البشر الآخرين الذين ذبحهم "الشعب" في ظله)، وأعطته لعشيق هو بعل. وكيف كان ذلك العطاء؟ كما صهر هرون الذهب الذي كان يهوه قد نبّه على موسى مشدّدا أن يجعل "الشعب" يسلبه من المصريين قبل الخروج، وصنع العجل الذهبي قائلا "ها هي يا اسرائيل آلهتك (الحقيقية) التي أخرجتكِ من مصر"، فعل "الشعب" وكهنته في قدس أقداسٍ يهوه: صهروا الذهب والفضة مما كُدّس في "بيت الرب" وصنعوا تماثيل "ذكور" أي أوثاناً قضيبية من ذهب وضعوها على مذبح يهوه و"زنوا عليها" فـ"خرجوا من تحت يهوه":

"فاتكلت على جمالك وزنيت على اسمك وسكبت زناك
على كل عابر فكان له.. وأخذت أمتعة زينتك من ذهبي
ومن فضتي التي أعطيتك وصنعت لنفسك صور ذكور
وزنيت عليها" (حزقيال ١٦:١٥ -١٧). (انظر الشكلين
١٥/أ، و١٥/ب)

لكن "النبييم" هنا يغالطون. يغالطون موسى، ويغالطون معبوده الذي أتى به من مضارب مديان وقال لـ"الشعب" أنه "إله الآباء" فلم يصدّقه "الشعب" بدليل القول الذي عُزي اليه في سفر التثنية: "من اليوم الذي خرجتم فيه من مصر حتى أتيتم الى هذا المكان (أرض كنعان) كنتم تقاومون الرب يهوه" (٩:٧)، و"قد ظللتم تعصون يهوه من يوم عرفتكم" (٩:٢٤)، وفي الواقع يتجنون على "الشعب" ذاته الذي لم يفعل، عندما أخذ الذهب والفضة من "بيت الرب" فحوّلها الى أعمدة ذهبية وفضية على شكل ذكور (جمع ذكر أي قضيب) منتصبة مختتنة، أكثر من أنه عاد الى عبادة يهوه كما كان يُعبَد قبل أن يستميت موسى في تغليفه بما ظل يختلسه له من الديانة المصرية، تماما كما علّم "الشعبَ"

(*) المسطار تمويه تقيّ من جانب المترجمين عن أصل القول، وقد استخدمت بدلاً من "النبيذ، الخمر".



الشكل رقم (١٥/أ)

نماذج من الأعمدة الحجرية وشواهد القبور "والرجمات" القضيبية الممثّلة للذكر المنتصب والمعبِّرة عن تصوّر الإله القضيبيّ كـ"أب" قويّ "أي فحل جنسيا ومنجِب بوفرة – والتوراة عامرة بأمثلة ذلك الترميز القضيبيّ ليهوه



الشكل رقم (١٥/ب)

نحت حجريّ يجسّد رؤية الانسان القديم لنبات "الفطر المقدس" (الأمانيتا موسكاريا – انظر الشكل رقم ١) كرمز قضيبي للمعبود الذي كان "نبييمه" يتواصلون معه من خلال حالة الهلوسة التي دأبوا على الانغماس فيها عند "التنبوء باستحلاب عصارة ذلك الفطر

تراثُه الدينيّ المتناقل جيلاً بعد جيل عن ذلك المعبود الذي بدأ سيرته (وظلّ تحت ما كوّمه موسى فوقه من أستار سُرقت من الديانة المصرية) وثناً حجريّاً قضيبيّا مختتناً كساه عباده المؤابيون (باسم "بعل فغور") وعباده المديانيون (باسم "يهوه") بغشاء من الذهب وسكبوا عليه الدم (كما ظل موسى يسكبه على مذبحه من الذبائح) من بكارة العذارى اللواتي كانوا يقدمونهن اليه في الليالي المقمرة. الا أنه كما حاول موسى طمس تلك الهويّة الأصليّة للمعبود، لم يجد حزقيال، ولا إشعياء، ولا إرميا، ولا هوشع، ولا أي من أولئك المتنبئين، استعداداً للتسليم بتلك الهوية غير اللائقة، مواصلين بذلك ما بدأه موسى، وآخذين منطلقهم من الإسهام الذي قدمه إشعياء التثنية عندما أعلن أن يهوه "إله محتجب" ورفعه الى السماء.

غير أن النبيين كانوا - في حقيقة الأمر، وبصرف النظر عن أقوالهم المفخّمة وشواظ النار التي ظلت تندلع من أفواههم - واقعين في مشكلة خطيرة بحق ظلّوا يحاولون كنسها تحت سجادة الورع بما لم يكفّوا عن الادّعاء بأن يهوه كلّفهم بصبّه على أدمغة "الشعب" وكهنته، ورؤسائه، وملوكه، من إدانة، وما لم يتوقفوا عن إفرازه من "تنبؤات" بخراب عاجل ماحق.

فالمتنبيء هوشع، مثلا، أكّد أن يهوه قال له عن "الحبيبة الغادرة والإبنة/الزوجة غير الوفية اسرائيل:

> "لذلك (أي لاعطائها ذهب يهوه وفضته لبعل) أرجع وآخذ قمحي في حينه ومسطاري (أي نبيذي، خمري) في وقته وأنزع صوفي وكتّاني اللذين لستر عورتها. والآن أكشف عورتها أمام عيون محبيها ولا ينقذها أحد من يدي.. وأعاقبها على أيام بعليم (على "خروجها من تحتي لتزني مع البعليم، جمع بعل") التي فيها كانت تبخر لهم وتتزين بخزائمها وحليّها وتذهب وراء محبيها وتنساني أنا، يقول يهوه" (هوشع ٢:٩ و١٠ و١٣)!

أما إرميا فيؤكّد أن "يهوه قال له في أيام يوشيا الملك" (٦٤٠-٦٠٩ ق.م.):

> "هل رأيت ما فعلت العاصية اسرائيل؟ انطلقت الى كل جبل عال والى كل شجرة خضراء وزنت هناك. فقلت بعدما فعلت كل هذه (الخيانات) ارجعي اليّ. فلم ترجع. فرأت أختها الزانية يهوذا (ما فعلته اسرائيل).. فمضت وزنت أيضا ولم تخف من كوني إذ زنت العاصية اسرائيل طلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها. وكان من هوان زنى يهوذا (من تماديها في الزنى) أنها نجّست الأرض وزنت مع الحجر ومع الشجر" (إرميا ٣:٦-٩).

في الفصلين الخامس والسادس من الباب الأول، عند استظهار بعض الأوجه التي ظلت مستعصية على الإخفاء في ديانة يهوه من عبادة عشيرة، الإلاهة الأم الكنعانية زوجة إيل، قلنا أنه ليس من الواضح،(*) على الرغم من كل ما يُكتب عن تلك المسألة، "لمَ كان مما لا مهرب منه أن يقبل كهنة يهوه، الإله الغيور الواحد الأوحد، هم وملوك اسرائيل ويهوذا وبلاطهم، بأن يشركوا في عبادة يهوه بإلاهة أنثى أقاموا لها تمثالا كانوا يسجدون له داخل معبد يهوه متجهين الى التمثال بوجوههم وظهورهم الى مكمن يهوه داخل قدسه؟"

وحقيقة الأمر أنه سيظل من غير الواضح لمَ أدان بعض النبييم (لا كلهم) في أوقاتٍ بعينها (لا كلّ الوقت) "الشعب" كله، وكهنته، ورؤساءه و"ملوكه" بالزنا والخروج من تحت يهوه في حين ظل "الشعب" وملوكه وكهنته ورؤساؤه وملوكه على يقين من أنهم لم "يزنوا" ولم يخرجوا من تحت يهوه. وسيظل من شبه المستحيل الوصول الى فهم عقلانيّ لتلك المعركة الدينية التي جعلت متنبئاً كإرميا يقول أن "الأنبياء باتوا يتنبأون بالكذب والكهنة تحكم على أيديهم وشعبي هكذا أحَبَّ" (إرميا ٥:٣٠)، ويضيف قائلاً أن قومه كلهم "من النبي الى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب" (إرميا ٦:١٣)، ما لم نحاول استجلاء ما يرجَّح أنه حدث للديانة التي صنعها موسى مما اختلسه ليهوه من مصر، عندما وصلت الى كنعان.

الذي يعرفه كل دارسٍ لهذه المشكلة أن هناك كمّاً هائلا من التعالُم الورِع، وقدراً عظيما من العلم المتورِّع، اتفقا تلقائياً معا على القول بأن عبادة يهوه عندما وصلت كنعان "فسدت" اذ "تلوثت بممارسات كنعان المتسيّبة وشعائر الكنعانيين المنحطّة"، وأن ذلك الفساد سرى أساسا من "أسفل الى أعلى"، أي من "الشعب" صعوداً الى المؤسسة الكهنوتية والى "الملوك"، في حين ظلت نواة صلبة من النبييم الأتقياء شديدي الايمان بعيدي النظر متخندقةً في خندق "يهوه وحده".

وهناك أيضا – كما يعرف كل باحث في تاريخ هذه الديانة – غير "غيرة يهوه الشهيرة"، غيرة الكهنة على مكاناتهم وعشورهم وحرصهم على أن تظل "أيديهم مليئة" وبطونهم كظيظة، وخزائن "بيت الرب" عامرة بالذهب والفضة والنفائس.

ولقد ظل ذلك الحرص على الانفراد بالغنائم والعشور والتقدمات والأضاحي عاملا شديد المضاء بالغ الفعالية في تكييف مواقف الكهنة حيال أي منافسة من جانب كهنة الآلهة الأخرى، وإفعامهم بقدر يهيويّ للغاية من الشراسة الدمويّة في الدفاع عن مصدر المكانة ومنبع الشبع، هيكل "يهوه وحده"، وهي شراسة ظلّت تتجسّد في مذابح رهيبة بحق اضطلع بها أولئك الكهنة دفاعاً عن "نقاء العقيدة" وعن "وحدانية يهوه"، كمذبحة نهر قيشون التي ذبح فيها إيليا ثمانمائة وخمسين كاهنا من "كهنة البعل" (الملوك الأول ١٨:٤٠).

(*) ارجع الى٥/هـ و٦/أ/١ و٦/ب/٢ أعلاه.

ولما كان الهدف الذي جعله النبييم نصب أعينهم هو ذاته هدف الكهنة اللاويين، ففيم اذن كان الشقاق بين أولئك النبييم وبين الكهنة وكل من الزمرتين استماتت في الدفاع عن بقاء "يهوه وحده"؟

كيما نجد سبيلاً الى الخروج من متاهة الغموض الذي غُلِّف به كل ما له علاقة بتاريخ يهوه فنجد إجابة يقبلها العقل وتساندها النصوص ذاتها تقودنا الى الوقوف على إدانة الزمرة المتشدّدة من النبييم للكهنة و"الشعب" والملوك ورؤساء "الشعب" وإجراء تلك اللغة الممعنة في البذاءة على لسان يهوه تعبيراً عن تلك الإدانة، علينا أن نحاول استظهار الخيوط المستدَقّة التي نُسِج منها تاريخ ذلك المعبود كيما نقف على التحوّل الذي يبدو أنه مرّ به عندما وصل الى كنعان بعد أن صنعه موسى في مصر وفي "القفر" بعد الخروج من مصر لمدة تقول التوراة أنها طالت لأربعين سنة.

وحتى نتمكن من ذلك، يحسن أن نتوقف قليلا عند كنعان، والديانة الكنعانية، ومكان شمال اللاذقية اسمه القديم "أوغاريت"، واسمه الحديث "رأس شمرا".

"كنعان" هي الأرض الواقعة بين الصحراء السورية وساحل البحر الأبيض المتوسط من "الهلال الخصيب"، وتضم كلاً من سوريا وفلسطين. وهي، بموقعها ذاك، أرض ظل أصحابها الكنعانيون (أي الفلسطينيون والسوريون) على اتصال ثقافي وبشري متواصل بالحضارتين الرئيسيتين في العالم القديم، حضارة مصر وحضارة الرافدين، وأرض ضمت قائمة الأقوام التي سكنتها، غير الفلسطينيين والسوريين، الفينيقيين، والأدوميين (قوم عيسو)، والمؤابيين، والعمونيين، كما وفد عليها وتغرب فيها "الآراميون التائهون"، تبعاً لتسمية التوراة إياهم، الذين حُوّلوا في الحكي التوراتي الى "العبرانيين" ثم الى "اسرائيل"، وبعد انشاء "مملكة" يهوذا، أسموا بـ"اليهود".

باستثناء ما سمح محرّرو العهد القديم في عصر السبي باستبقائه، وما أفلت من مقصاتهم فبقي، في النصوص المعالجة، من اشارات الى "أرض كنعان" التي وُصفت باستمرار في تلك النصوص بأنها "تفيض لبناً وعسلاً"، والى طريقة حياة الكنعانيين وعباداتهم، لم يعرف العالم الحديث كنعان الا بأنها الأرض "التي تعاقد الله مع آباء اليهود على ابادة أصحابها واعطائها لليهود"!. فلوقتٍ أطول مما يجب، ظلّت تلك الاشارات المبتسرة المعالَجَة ككل شيء آخر في التوراة والعهد القديم، المصدر "التاريخي" الوحيد لما أُتيح من معارف عن أرض اللبن والعسل تلك وسكانها، وطريقة حياتهم، وديانتهم (التي وصفت باستمرار بـ"التسيّب")، بالإضافة الى النزر اليسير من المعلومات الذي ورد في كتابات مؤرخين قدامى كـ"فيلو الجبيلي" (نسبة الى جبيل، أي "بيبلوس")، وكتاب كلاسيكيين كالكاتب الساخر لوسيان (وهو سوري المولد مشكوك في صحّة نسبته الى اليونان وإن كتب باليونانية)، في دراسته عن "الإلاهة السورية". وبذلك الشحّ في المعارف، ظلّ هناك ستار كثيف مسدل، لقرون بأكملها، على الكنعانيين وآلهتهم وإلاهاتهم

ومعتقداتهم وشعائرهم، وهو ستار خطّت عليه أصابع المؤلفين والمحررين التوراتيين، بكل ثقة واطمئنان، لفظتي "بعليم"، و"عشتروث".

ولم يأخذ ذلك الستار في الارتفاع - (ببطء، وبشكل مرتجّ متقطّع قد يكون منبئاً عن وجود مقاومة قويّة جعلت رفعه عسيراً ومتعثراً لوقت طويل ريثما يُعاد "توضيب" النصوص التوراتية من خلال عمليات "إعادة الترجمة" التي لم تتوقف (على الرغم من صدور أكثر من خمسين "إعادة ترجمة" حتى الآن) - إلا منذ سنة ١٩٢٨، إثر اكتشاف عدد كبير من الألواح الطينية وُجدَت مجموعة كبيرة منها مكتوبة بأبجدية مسمارية من ٢٨ حرفاً ساكناً، في موقع على بعد ١٥ ميلاً شمال اللاذقية عُرف قديما باسم أوغاريت.

كان اكتشاف تلك الألواح، وفك شفرة الكتابة الأوغاريتية، حدثاً علمياً قد نقول أنه وازى في الأهمية الوقوع على حجر رشيد إبّان حملة نابوليون على مصر، والوقوف على أسرار اللغة المصرية القديمة إثر فك العالم شامبوليون شفرة ذلك الحجر سنة ١٨٢٢. فبعد أستار ظلام حالك أُسدلت على مصر طوال قرون فأخفت حضارتها، النبع الحي للحضارة في العالم، وديانتها العظيمة، نتيجة "لفقدان" اللغة المصرية القديمة، وأتاحت إبقاء المنابع المصرية للموسوية مطمورة في رمال التاريخ - تماماً مثلما قالت التوراة أن موسى طمر مواطنه المصري في الرمل ذوداً عن "أخيه العبراني" - كما أتاحت طمس فضل مصر الحضاري على العالم بأسره، ونسبة ذلك الفضل لليونان بصرف النظر عن اعتراف اليونان بأن صفوة مفكريهم وفلاسفتهم ورياضييهم تتلمذت على مصر، بعد كل تلك القرون من التعتيم الحضاري، رُفِعت الأستار بانجاز حجر رشيد.

وبالمثل، كان عطاء الحضارة الكنعانية ودور المنابع الكنعانية في صوغ عبادة يهوه التي كان موسى قد صنعها مما "سلبه من المصريين" (كتعبير التوراة)، عندما أدمجت في هويّة الوثن الموسويّ هويّات كثرة من آلهة وإلاهات كنعان، قد ظلا مطمورين في رمال التاريخ الى أن اكتُشِفت تلك الألواح في رأس شمرا، وفُكّت شفرتها فأفصحت عما فيها من تراثٍ دينيّ ألقى ضوءاً كاشفاً (قد يجده البعض حارقاً) على المكوّنات الكنعانية للديانة التي صنعها موسى حول يهوه مما سرقه له من مصر، وكلّها مكوِّنات تشرّبتها عبادة يهوه في غمار عملية الابتلاع واسعة النطاق التي أُدمجت من خلالها هويّات وصفات وخصائص وألقاب آلهة وإلاهات كنعان في هوية يهوه، فتجاورت في جوفه الرحب مع ما نهبه له واختلسه موسى من مصر وما نهبه له واختلسه من سومر ومن بابل مؤلفو "الوثائق" ومحررو النصوص الذين راجعوا "الكومة العشوائية من الحكايات" (كما دعاها سبينوزا)، في زمن السبي البابلي.

من النتائج بالغة الأهمية التي ترتبت على رفع الستار عن الديانة الكنعانية بآلهتها وإلاهاتها ومعتقداتها وشعائرها ما توصلت اليه كثرة من الدارسين الى اعتقاد متعاظم بشأن "اللقاء" على أرض كنعان بين المعبود الذي فرضه موسى على من طردوا من مصر وقادهم

هو في القفر ليصنع بهم أمة، وبين الآلهة الكنعانية التي كان"الآراميون التائهون" من الرعاة الساميين قد عبدوها نتيجة لاستيطانهم في أرض كنعان.

والذي يتجه اليه الاعتقاد بقوة الآن، من دراسة "مستندات" التاريخ من حفائر ونصوص، أن قصة "الخروج" – مثلما غولط التاريخ في شأنها فجُعلت "خروجاً" لا طرداً من مصر لتفشي الأمراض الجلدية والتناسلية التي يفيض في وصفها سفر اللاويين ويعترف بها سفر التثنية بتهديده "الشعب" بأن "يرد عليه يهوه جميع أدواء مصر" التي يقول السفر أن "الشعب" فزع منها، فتلصق به (تثنية ٢٨:٦٠)(*) – قصة ضُخمت تضخيماً بولغ فيه ككل تضخيم آخر للأعداد والأعمار في التوراة، فجُعِل عدد "الخارجين" من بني اسرائيل (غير من خرج معهم من "عبيدٍ آبقين"، ستمائة وثلاثة ألفا وخمسمائة وخمسين" (عدد ١:٤٥)، في حين أنه يتبين تاريخياً (أي من واقع التاريخ لا من حكي التوراة) أن من قادهم موسى كانوا أقل من ذلك العدد بكثير. والمرجح أنه، بالاضافة الى "اللفيف الكثير" من العبيد إلهاربين (الذين يحتملٍ أن واضعي "تفاصيل" حكاية استعباد بني اسرائيل في مصر استمدوا فكرة الخروج هرباً من الاستعباد من هربهم مع موسى)، كان الخارجون أقلية ضئيلة العدد نسبياً يرجح كثيرا أنها لم تتعد سبط لاوى الذي حُشر في تأليف سلسلة حكايات موسى بين بني اسرائيل، والذي تتزايد البراهين باستمرار على أنه كان "سبطاً" زائفا (أي من غير "بني اسرائيل") مصرياً.

هذه وغيرها أنفاق يحفرها العلم تحت ركام التلقين الإيماني ليخرج عقل الانسان وروحه من سراديب تحتيةٍ مظلمةٍ الى ضوء النهار. والعلم عندما يحفر تلك الأنفاق، لا يفعل ذلك بسوء نية أو خبث طوية، فنيّته الوحيدة البحث عن الصدق.

(*) على الرغم من أن سفر التثنية ألف بعد موسى وحكاية "الخروج" بقرون، فان ذكرى الأمراض الجلدية والتناسلية التي كرس لها مؤلفو سفر اللاويين ثلاثة أصحاحات كاملة، من ١٣ الى ١٥، والتي يخبرنا ما أفلت من تاريخ مانيتو فلم "يفقد" أن من علق موسى بهم وخرج معهم طردوا بسببها من مصر، ظلت ذكراها المفزعة باقية في التراث المحكي الذي رجع اليه مؤلفو سفر التثنية. وبالطريقة الارهابية عينها التي لجأ اليها الكهنة في تخويفهم لـ"الشعب" من "الخروج من تحت يهوه"، استخدمت تلك الذكرى في التهديد بما سوف يفعله يهوه بـ"الشعب" اذا ما ظل "مصلبا رقبته" ورافضا تصديق الكهنة ويهوه معا:

> "(اذا ما سمعت هذه الأحكام وحفظتها وعملت بها).. يرد يهوه عنك كل أدواء مصر الرديئة التي عرفتها (و) لا يضعها عليك بل يجعلها على كل مبغضيك" (تثنية ٧:١٥) "ولكن ان لم تسمع لصوت يهوه لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه.. يضربك يهوه بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة.. بقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين حتى لا تستطيع الشفاء من أسفل قدمك الى قمة رأسك. ويرد عليك جميع أدواء مصر التي فزعت منها فتلصق بك" (تثنية ٢٨:١٥ و٢٧ و٣٥ و٦٠).

والحيلة الصغيرة التي لجأ اليها المحررون هنا أنهم جعلو الأمر يبدو كما لو كان "الشعب" المسكين ابتلي بتلك الأمراض الجلدية التي لا تحصى لأنه كان مقيما في مصر، أي أنه أخذها كعدوى من المصريين "ففزع منها" وربما كانت من أسباب خروجه أيضا، لا من أسباب طرده!

وتحت وطأة ذلك المسعى، لا يجد كثيرون الآن مناصاً من التعامل مع ما يجدون أنه لا مهرب من التعامل معه من الكشوف التي تخرج الى ضوء النهار من "حفائر" العلم في تربة التوراة وسائر نصوص العهد القديم، جاهدين - إبان ذلك - في "احتواء الضرر" قدر الاستطاعة.

ففريدمان، مثلا، وهو باحث جاد وشجاع لا شك في شجاعته وجدّيته، يشهد بذلك بحثه "العلني" عن الأيدي البشرية التي ألّفت التوراة، يناقش(٤) مسألة العشيرة اللاويّة واحتمال كونها الحشد الوحيد الذي خرج مع موسى،وفي أذياله "اللفيف الكبير من العبيد الآبقين"، فيقول أن ما يُرجِّح صحة القول بأن اللاويين كانوا مجموعة مصرية "خرجت" مع موسى، كون اللاويّين السبط الوحيد الذي وصلتنا من أسماء أفراده أسماء كلها مصرية لا عبرية، كموسى، وحفني، وفينحاس، فوق أنهم السبط الوحيد الذي حُرِم من أن يكون له نصيب من الأرض التي انتزعت من أصحابها ووزعت على سائر الأسباط الأخرى. لكنه يحذر، في نفس الوقت، على الرغم من قوله بأن هذا النظر لجنسية من خرجوا مع موسى يرجحه أيضا كون مؤلف الوثيقة الإيلوهيمية كاهناً من سبط لاوي، من غواية الانسياق وراء تلك الفكرة، قائلا أنها مازالت فرضيّة.

غير أن تلك الفرضيّة، كما يسميها فريدمان في معرض تردّده أمام ما تفتحه من آفاق جديدة تماماً وخطرة بالنسبة لما بات من الرواسخ بالتقادم فيما يتعلق بهوية يهوه وصفاته، ليست، بكل تأكيد، "تخمينا" مفتقرا الى ما يجعله "كشفاً" من الكشوف الهامّة التي أثمرها حفر العلم المتواصل تحت جذور تلك الرواسخ بالتقادم.

من المفارقات بالغة الإبانة في هذا الشأن كله، المفارقة المتمثلة في مسألة الجنس الناضح بقوة في نصوص التوراة وسائر أسفار العهد القديم على النحو الذي أوردنا بعض أمثلة منه فيما أُجري على لسان يهوه الذي صوّر روائيا كإله لا جنسيّ مترفّع على الحسّيات والعري والعورة وكل تلك الأشياء غير اللائقة، ثم اذا به لا يتخاطب ونبييمه الا وذكر العري والعورة والزنى والمضاجعة والذكور (جمع ذكر، أي قضيب) وكل تلك الأشياء منهمر من فمه كالمطر الذي وصف بأنه يمطره على "الشعب" عندما يرضى.

والأشد إثارة للانتباه، بجانب هذه المفارقة، أن من ألّفوا هذا الكلام الحرّيف وأجروه على لسان يهوه، الشخصية الروائية التالية لـ"الشعب" في الأهمية، لم يجدوا فيه - كما لم يجد من أُنشِد ذلك التأليف في مسامعهم، ثم حرّر لهم في "وثائق" - أي غرابة أو بذاءة، بدليل أن أشدّهم توقّداً بنار الإيمان وجدوا بوسعهم - بل وجدوا من الضروري - أن يستخدموا بشكل مستمر الصور الجنسية الباذخة ولغة الحواس الحارة المترعة بها صفحات العهد القديم، في التعبير عن أخص خصائص العلاقة - التي ظلت دائما حميمة - بين المعبود و"الشعب". وهو اتجاه بلغ ذروته بجعل "نشيد الأنشاد"، بكل ما فيه من جنس مكشوف، وما بقي فيه بعد التحرير وحذف أجزاء بأكملها من أناشيده من لغة موحية

بالاتصال الجنسي في أشد صوره سخونة، جزءاً من كتاب الديانة، ثم تبرير ذلك بأن النشيد شعر تغزل به يهوه في معشوقته اسرائيل.

وليس فيما نقول أي استنكار أو ادانة أو تعال بالتقوى أو أي شيء من ذلك القبيل التطهريّ. فكل ما في الأمر أن هذه كلها اعتبارات لا ينبغي أن تغيب عن الذهن عند التعامل مع نصوص لا يستقيم ولا يجدي التعامل معها من أية منطلقات تطّهريّة منبجسة مما ضُخّ بإصرار في العقول تحت اسم التدين بشأن "الخطيئة الأصلية"، التي بدون "السقوط" فيها كانت عملية الخلق برمتها ستصبح عبثية بحق. فهذه كلها نصوص لم يكون مؤلفوها ومنشدوها وسامعوها قد سمعوا مجرد سماع بتفسيرات واسقاطات المتطهرين المحدثين، ولم يكونوا - بكل تأكيد، بحكم لصوق الانسان القديم بالطبيعة والأرض - مصابين بأشكال العصاب التي تشكل نظرة "الخطيئيين الأصليين" الى كل تلك المسائل. فهي نصوص تعود الى فترة زمنية شاسعة افترشت ما لم يقل عن سبعمائة الى ثمانمائة سنة (وهناك من يرى أنها أكثر) من رقعة تاريخ العالم القديم. فالذي يجمع عليه الدارسون الآن أن أي نص من نصوص العهد القديم، ابتداء من سفر التكوين، لم يكن قد عُرف أو سُمع كما نعرفه ونقرؤه ونسمعه الآن، وكما عرفه آباؤنا، قبل القرن الثامن ق. م.

ومعنى ذلك وجود فجوة زمنية فاغرة بين ما أسميناه بـ"ميلاد يهوه وعباده معا من حكاية الخروج من مصر" وبين تأليف "الأسفار المقدّسة" استنساخاً من أساطير وعبادات شعوب الشرق الأدنى القديم عن خلق العالم، وما أُقحم على تلك الأساطير المختلسة من حكي أسطوري عن "آباء" وجد صانعو "التاريخ المقدّس" ضرورة لافتعال نسب لـ"الشعب" يعود إليهم بعد أن اختلقوا "شعباً" تدلّه في حبه إله لم يكن ذلك "الشعب" يعرفه.

فمن، أو ماذا كان ذلك الإله؟ ابتداء، وباستثناء التصور المتأخر زمنياً وروحياً في العصر الوسيط لذلك المعبود كرجل عجوز طيب بلحية بيضاء مسترسلة جالس في السماء، نجد تحريماً صارماً على تصويره بأي شكل، وبخاصة نحتاً، على الرغم من وصفه باستمرار بـ"الصخرة". وقد ادّعي، استنادا الى محاولات النبييم في زمن السبي اعلاء المعبود واصعاده الى ما فوق الجلد، ومساندة في الوقت ذاته لذلك الاجتهاد، أن التحريم اجراء وقائيّ وجد ضرورياً لاكساب "الشعب" مناعة ضد الوثنية وعبادة الأصنام. غير أن الكثير من الأدلة التي كشفت عنها الكشوف الآثارية يشير الى أن وضع ذلك التحريم في أساس الديانة له أسباب قاهرة متعلقة بتاريخ المعبود.

- - - - -

(٨) ابتلاع "العليون" (الإله العليّ) إيل

غير الكشوف الآثارية،ظلت هناك، في النصوص ذاتها، حتى بعد المراجعات وعمليات التحرير، الأسماء التي أطلقت على الإله في التوراة، والصور التي صوّر بها في سائر العهد القديم.

ولنبدأ بالأسماء. في "الوثيقة" الإيلوهيمية، أسمي المعبود "إيلوهيم"، بصرف النظر عن أن اللفظة صيغة جمع تعني "آلهة". لكنها استخدمت هكذا، بصيغة الجمع، ابتلاعا لاسم المعبود الكنعانيّ إيل، بنفس الأستاذية التي ابتلع بها الاسم بتحويل "بيت إيل" الى "بتل"(*). إلا أننا، في سير "الآباء"، نلتقي المرة تلو المرة باسم ذلك الإله الذي ابتلع، إيل، واضحاً بغير طمس، والأهم من ذلك أننا نلتقي به وهو مشار اليه بصفته "إيلوه (إله) اسرائيل"، مع تحويل لقبه الكنعاني "العليون" الى "الإله العليّ" كما في: "وقال مبارك ابرام من الإله العليّ، مالك السموات والأرض. ومبارك الإله العليّ الذي أسلم أعداءك في يدك.. فقال ابرام لملك سدوم رفعت يدي الى الرب الإله العليّ مالك السموات والأرض" (تكوين ١٤: ١٩ و٢٠ و٢٢).

وقد كانت الحيلة في ذلك الابتلاع بسيطة وسلسة. فاسم كبير آلهة الكنعانيين حول الى مسمّى عام: من إيل الى إيلوه، أي إله، وبات بوسع مؤلف سفر يشوع، مثلاً، أن يتحدث مطمئنا عن معبود اسمه "إيل إيلوهيم يهوه" أي "إله الآلهة يهوه" كما عولجت بمنتهى التقوى في الترجمة العربية (يشوع ٢٢: ٢٢)، وهي تسمية استخدمت بتكرار واضح في أكثر أسفار العهد القديم كنعانية، سفر المزامير، كما في المزمور ٥٠، مثلاً: "إيل إيلوهيم يهوه تكلم ودعا الأرض من مشرق الشمس الىمغربها (كالإله الشمس رعّ). من صهيون (أي من "جبل الرب" جبل صفون) كمال الجمال (كما وصف رعّ في الترانيم المصرية) إيل إيلوهيم أشرق" (١:٥٠). فالذي سرق من مصر كنعن بإيل.

ومن الظواهر اللافتة للنظر في شأن إيل، كما يلاحظ مارك سميث، أنه ظل "الإله الغريب" الوحيد الذي لم يتعرض لما تعرض له غيره من هجوم. وهو ما يفسره ذلك الباحث بقوله أن التقليد الاسرائيلي "أدمج" إيل في يهوه في وقت مبكر أو افترض وجود تعادل بين الاثنين، وأن ذلك واضح في أن النصوص الدينية العبرية نادراً ما تميز بين إيل ويهوه. ومارك سميث، على جديته، متذرع هنا بالحيطة الواجبة. فلابد أنه قد خطر له أن التعفف عن مهاجمة إيل ربما كان دافعه الرغبة في عدم توجيه الانتباه كثيراً الى ذلك المعبود الكنعانيّ الذي ابتلع.

أما فريدمان، فيتناول الأمر بقدر من الوضوح (والشجاعة) أكبر، فيقول أنه في حين دعي يهوه باسمه ذاك في "الوثيقة" اليهيوية (Y) من مبدئها الى نهايتها، دعي في "الوثيقة"

(*) ارجع الى "قراءة سياسية للتوراة" تحت بنود "بتل"، "بيت إيل"، "لوز" بالفهرس الأبجديّ.

الإيلوهيمية (E) بـ"إيلوهيم" حتى لحظة ظهور موسى في النص ومصارحة يهوه إياه بأن اسمه "يهوه" ولو أن "الآباء" لم يعرفوه بذلك الإسم. ويتساءل فريدمان: "لم فعل مؤلف الوثيقة ذلك؟ " ثم يجيب على تساؤله بقوله أن الأمر مثير للجدل. وهو كذلك فعلاً. فالبعض يرى أن هذه الحكاية انعكاس للنظام الديني للمملكة الشمالية (اسرائيل) الذي اعتبر فيه أن اسما "إيل" و"يهوه" اسمان لإله واحد، وهو ما يرى فريدمان أنه الدافع الذي جعل يربعام يختار ثورين (عجلين في الترجمة العربية) ذهبيين ليكونا قاعدة للعرش، ادماجاً ليهوه في كبير الآلهة الكنعانيين إيل الذي رُمّز أساسا بالثور.

وذلك ما يؤكده – بغير دخول في التفاصيل – سفر الملوك الأول حين يقول أن "يربعام بنى شكيم (نابلس) في جبل افرايم وسكن بها" (١٢:٢٥). فشكيم كانت مركز عبادة إيل. وجميع المزارات والمذابح التي أقامها "الآباء" لـ"الإله العلي"، بعد ما استقروا في كنعان وتكنعت عبادتهم للشدّاي/شدّاد/حدّاد فأصبح "بعل حدّاد"، كانت في دائرة شكيم وأصرح تلك النصوص جميعا نص تكوين ٣٣. فيعقوب، بعد أن نجا من مطاردة خاله لابان وأخيه عيسو له لاحتياله عليهما، "أتى سالما الى مدينة شكيم التي في أرض كنعان... وأقام هناك مذبحاً ودعاه إيل إله اسرائيل" (٣٣:١٨ و٢٠).

وبعد يعقوب بقرون، أعاد يربعام بن نباط، بعد انتزاعه "نصف المملكة" من رحبعام بن سليمان، بناء شكيم ثم أعاد بناء فنوئيل (مذبح إيل الذي دعاه يعقوب بذلك الإسم بعد مصارعته الإله (تكوين ٣٢:٣٠) لأنه خشي أن ترجع المملكة الى بيت داود اذا ما ترك رعاياه ليذهبوا الى أورشليم ويقدموا الذبائح هناك، أن يعودوا الى رحبعام وينقلبوا عليه فيقتلوه. وتلافيا لذلك، "عمل عجلين من ذهب وقال للقوم كثير عليكم أن تصعدوا الى أورشليم. هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من مصر. ووضع عجلاً ذهبياً في بيت إيل وجعل الآخر في دان" (الملوك الأول ١٢:٢٥-٢٩). وهذا القول الوارد في نص سفر الملوك الأول عن العجل الذهبي بوصفه الإله أو أحد الآلهة التي "أخرجت اسرائيل من مصر" قول بالغ الأهمية وكاشف بما فيه الكفاية. وهو تكرار حرفي لإعلان الإيمان الذي وضعه مؤلف سفر الخروج في تلك الجزئية من السفر التي صنع هرون فيها عجلاً ذهبياً فقال القوم "هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من مصر" (خروج ٣٢:١-٤).

وأهمية القول، في حالة هرون ومن كانوا معه عند صعود موسى الى الجبل ليتلقى الشريعة من يهوه، سواء كانوا من السبط اللاوي فقط أو كانوا خليطاً من اللاويين والفلول الباقية من "الآراميين التائهين" التي تلبثت في مصر بعد طرد الهكسوس الى أن ضاق المصريون بأمراضها التناسلية والجلدية فطردوها فخرجت مع اللاويين ودعاها مؤلف سفر الخروج بـ"لفيف كثير مع غنم وبقر ومواش وافرة جدا" (خروج ١٢:٣٨)، أهمية نابعة من أن الخارجين كانوا يحملون معهم في جعبتهم الدينية إلهين، فيما بدا، لا إلهاً واحداً فقط، يهوه الذي كان موسى داعيته، وإلهاً آخر كان يُرّمز "بعجل" ذهبيّ، أو – إن شئنا الدقة وابتعدنا عن لغة الترجمة العربية التي تصوّر أصحابها أن التقوى استوجبت ذلك التحقير –

بثور ذهبيّ. والثور في لغة الشرق الأدنى القديم الدينية = بعل. وبدليل العودة الى "بعل صفون أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر" (خروج١٤:١) كان ذلك البعل، الثور الذهبي، بعل حداد الذي أُسكِن كنعانياً جبل صفون، معبوداً وجد موسى من المتعيّن عليه إدماجه في معبوده المدياني يهوه الذي كان قد جعل مَن حوله مِن اللاويين كهنة له وظل جاهدا في التغلّب على مقاومة بقية من خرجوا معه له.

والذي يبدو واضحا من صنع يربعام للعجلين (الثورين) الذهبيين بعد موسى بقرون، أن موسى لم يكن قد نجح في نزع ذلك الثور الذهبي من قلوب "الشعب". فسواء صدقت حكاية سفر الخروج أو لم تصدق عن "بني اسرائيل" الذين من صلب يعقوب والذين "انحدروا الى مصر" والذين تصنع الحكاية سيناريو متصلية النسب بهم بقولها أنهم "بعد موت يوسف وكل أخوته وكل ذلك الجيل، أثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض (أي أرض مصر المسكينة) بهم" (خروج ١:١-٧)، فإن ما لم يعد هناك مجال للشك فيه الآن بصرف النظر عن مبالغات الحكي التوراتي واختراعاته أن جماعات من الرعاة البدو الساميين ظلت تتسلل من أرض كنعان في تلك الأزمنة أو تتسول الدخول (كما في الشكل ٢) الى أرض مصر هرباً من الجوع وطلباً لوفرة الماء والمرعى لقطعانها والأمان لنسائها وعيالها. ولدينا الأدلة التاريخية الكافية في اللوحات الجدارية والنقوش كما في الشكل المشار اليه وغيره، وفي تاريخ مانيتّو رغم كل ما بُذِل من جهود مستميتة لمحوه من الوجود، بل وفي النصوص التوراتية ذاتها. ففي أسفار الخروج والعدد والتثنية نجد الأصداء قوية وواضحة عن وفرة الطعام والماء والأمان في مصر ونجد التحسّر على مبارحتها جلياً فيما صورته التوراة كنقمة من جانب "الشعب" على موسى وهرونٌ لأنهما أخرجاه "من تلك الجنة، بل ونجد الذكريات القبلية للآراميين التائهين عن مصر مركّزة مصفّاة في قول سفر التكوين أن لوطاً "عندما رفع عينيه ورأى كل دائرة الأردن وكيف سقاها الرب" لم يجد تعبيرا يفصح عن انبهاره الا قوله أن تلك الأرض "كجنّة الرب، كأرض مصر" (تكوين ١٣:١٠). وفي قول سفر التثنية لـ"الشعب" محذّرا من اغضاب يهوه "لأن الأرض (كنعان) التي أنت داخل اليها لتمتلكها ليست مثل أرض مصر التي خرجت منها حيث كنت تزرع زرعك وتسقيه برجلك كبستان، بل الأرض التي أنتم عابرون اليها لتمتلكوها هي أرض جبال وبقاع" (تثنية ١١:١٠ و١١). ولدينا ما هو أهم من كل ذلك: التأثير المصريّ بالغ العمق شديد الاتساع في معمار الديانة ورموزها (وأهمها تابوت العهد) وفي صوغ صورة المعبود موسوياً على النحو الذي استوضحناه تفصيلاً في المبحثين السابقين، "القراءة" و"السحر".

الذي لاشك فيه إذن أن جماعات من أولئك البدو الرحّل الساميين تسربت الى مصر بالتسلل أو بالتسول وعاشت فيها، وفي تسربها من أرض كنعان حملت معها واستبقت ما كانت قد اكتسبته في تغرّبها بكنعان من تقليدٍ دينيّ كنعانيّ كان متضمناً ما انتشر اليه ثقافياً من أرض الرافدين من تقليد ديني سومريّ. ونتيجة لذلك التكنعن السابق

على زمان موسى وأزمته من بعده بقرون كان أولئك البدو الساميون الذين تسربوا الى مصر وعاشوا فيها (ووصفتهم التوراة بأنهم بني يعقوب، أي "بني اسرائيل) يحملون في مخلاتهم الثقافية خليطاً من العبادات التي تسولوها - بطريق مباشر أو غير مباشر - من ثقافات وتقاليد الشعوب المستقرة في أوطانها: سومر، وكنعان، ومصر، ثم ظهر موسى على المسرح وجمع حوله عصبة من "اللاويين" ليصنع بهم كهنوتاً جديداً يتربع على قمته فيعوضه عن مكانته الكهنوتية السابقة في بلاط اخناتون، ويستخدمهم في فرض عبادة الوثن القضيبيّ يهوه الذي تعلّم حكايته إبان إقامته الجبرية بمضارب المديانيين هرباً من مطاردة كهنة آمون له.

ولا حاجة بأحد الى البحث عن أدلّة على رفض من طمح موسى الى فرض ذلك المعبود عليهم الخضوع لرغبة موسى ولإرهاب عصبته اللاوية. فالتوراة وسائر السفر القديم طافحة بالأدلة على ذلك. وكل ما هنالك أن عزرا ومن عاونوه على تحرير التوراة وسائر الأسفار التي كانت قد تكاملت حتى زمانهم مما سبق تأليفه من "وثائق" وما ظل يُتناقل من جيل الى جيل ابتداء من القرن الثامن ق.م.، اجتهدوا في تصوير المسألة من ذيلها كما فعلوا في مواضع كثيرة من تحريرهم، من خلال توضيبهم للنصوص و"تلوينها" باستخدام طريقة القصّ واللصق والحذف والإضافة عملاً على تصوير تاريخ "الشعب" كتاريخ ضارب في القدم بادئ بـ"الآباء" ومتصل - عوداً الى الوراء، من خلال سام بن نوح، الى الأب الثاني "نوح"، ومن خلاله الى الأب الأول "آدم" - اتصالاً غير منقطع ببدء الخليقة، وتصوير تاريخ يهوه بوصفه الإله الواحد الوحيد خالق الكون الذي عبده "الشعب" ابتداء من عبادة آدم إياه، أي من بداية خلقه العالم.

وقد فعل "المحرّر" ومعاونوه ذلك في زمن السبي بتأليف "وثيقة" آخرى غير "الوثيقتين" اليهيوية والإيلوهيمية، وتأليف سفر خامس، هو سفر التثنية، عزوه الى موسى.

وبتأليف "الوثيقة" الكهنوتية (P) و"الوثيقة" التثنوية (D)، وتحرير أسفار النبيين، صُوِّر تاريخ يهوه و"شعبه" هكذا: (١) عبد "الشعب" يهوه من بدء الخليقة، بشهادة عِبادة آدم ونوح إيّاه، ثم عبادة "الآباء" ابرام/ابراهام، واسحق، ويعقوب/اسرائيل له، ولكن باسم "الشدّاي" لا باسم يهوه، لأن ذلك الاسم رهيب وخبيء ولم يكشف يهوه عنه إلا لموسى. (٢) "أخرج" موسى "الشعب" من مصر بأمر من يهوه لينقذهم من استعباد المصريين لهم ولينفّذ تعهده لـ"الآباء" باعطاء نسلهم، "الشعب"، كل تلك الأرض من النيل الى الفرات على مراحل، ابتداء - كمرحلةأولى - لحين يتكاثر "الشعب" ويقوى بقدر يمكنه من أن "يملأ الأرض"، بأرض كنعان التي "تفيض لبناً وعسلاً". (٣) قاوم "الشعب" - لصلابة عنقه وحرونته - موسى ويهوه في القفر فأتاهه يهوه أربعين سنة. (٤) مكّن يهوه "الشعب" تحت قيادة يشوع، الذي حلّ محلّ موسى بعد"إماتة" يهوه موسى وهرون عقاباً لهما على واقعة مسّة ومريبة، من دخول أرض كنعان. (٥) فسدت عبادة "الشعب" ليهوه في أرض كنعان لفساد طبيعة "الشعب" وافتقاره الى الحكمة وانقياده وراء غواية آلهة وإلاهات كنعان

و"خروجه من تحت يهوه".(٦) فسد معظم "الملـوك" وفسـد معهـم بلاطهـم وفسـدت مـع الاثنين المنظمة الكهنوتية، فسارت كل تلك المؤسسات، مثل "الشعب" صلب الرقبـة فـاقد الحكمة، وراء البعليم والعشتروث.(٧) بلغ السـيل الزبى، وفـاض بيهـوه، خاصـة وأنـه رأى "الشعب"، وملوكه، ورؤساءه، وكهنته، ممعنين فـي الغيّ غـير ملقيـنٍ بـالاً الـى تحذيـرات النبييم لهم وتنبيههم الى أن يهوه قـد عيـل صبره.(٨) قـرر يهـوه أن يلقّـن الجميـع درسـاً لا ينسى، فساق مملكة أشور على اسرائيل فدمرتها، ثم لما لم ترعوِ يهوذا، ساق عليهـا بـابل فمحقتها وهدمت الهيكل وسبت معظم "الشعب".

غير أن هذا التصوير بات محلّ شكوك قويّة نتيجة لتحليل "الوثائق" ولغتها وأسـماء المعبود فيها واستظهار دلائل ما انغمس فيـه المحـررون إبـان نشـاط القـص واللصـق الـذي مارسوه في تحريرهم بنشاط بالغ وجرأة نادرة، وهو مـا قـد يكونـون بـررّوه لأنفسـهم بـأن "الغاية تبرر الوسيلة"، خاصة متى تعلّقت الغاية بـ"شرف يهوه" ومصالح كهنته وأوّلها تـأمين بقاء "الشعب" واستمرار الديانة كوجود حيّ فاعل.

وفي غمار ذلك السعي، لم يغفل المحـررون عـن امتـلاء السيناريو الـذي وضعـوه بأعراض مفارقة أساسية خطرة على مصداقية الحكي وموثوقية السيناريو تمثلت فـي استماتة يهوه في الهرولة وراء "شعب" رافض له زائغ من ورائه باستمرار ليعبد آلهة أخرى، واصـرار يهوه، على الرغم من حرونة "الشعب" هذه وتعامل "الشـعب" معـه بصلابـة عنـق، علـى أن يخدم ذلك "الشعب" ويغدق عليه أراضي الشعوب الأخرى وخيراتها. واذ وجد المحـررون أنفسهم مواجهين بتلك المفارقة، لم يجدوا إلا أصول يهوه القضيبية التي استمات موسى في طمسها، فعادوا اليها ولكن في سياق "تشاعريّ" يبدو أنهم طمحوا إلى أن يواصـل مـا بـدأه موسى من اجتهاد في طمـس الهويـة القضيبيـة للمعبـود، فركّـزوا تركـيزاً خاصـاً علـى تـرك الايحاءات الجنسية واللغة البذيئة التي حفلـت بهـا أسـفار النبييـم، وعـدم المسـاس بهـا فـي النصوص، بل وتركوا "نشيد الأنشاد" في كتاب الديانة، ترسيخاً للتصوّر الـذي حـاولوا عـن طريقه إيجاد مخرج من تلك المفارقة، وهو "عشق يهوه الذي لا سبيل الى مقاومته لحبيبتـه اسرائيل".

والذي يجده الباحثون الآن أن الأمر لم يكن كما صُوِّر فـي ذلـك السيناريو. ولقـد كان ذلك المسار المعاصر للبحوث التوراتية هو ما أقنع باحثاً يهودياً كفريدمان(٥)بأن يسلّم بمنتهى الموضوعية بأن إيل الإله الكنعاني كان هو فعلاً الإلّه الذي عبده "بنـو اسرائيل" فـي كنعان (لا بعد الغزو، بل من قبل موسى بوقـت طويـل)" مـن حيـث أنـه الإلّـه الـذي دارت تقاليدهم المتعلقة بأسلافهم ابراهام واسحق ويعقوب حوله"، وأن يهوه لم يظهر على مسرح الأحداث "الا عندما جـاء اللاويـون حـاملين معهـم تقليدهـم الخـاص بموسـى، والخـروج، ويهوه". ويضيف فريدمان قائلا أنه "مما يؤكد ذلك أنه لـم يـرد أيّ ذِكـر ليهـوه فـي تقـاليد "بني اسرائيل" المستقرين في كنعان قبل وصول اللاويين الى كنعان "ويقـول أنـه ممـا يتفـق تماماً وهذا النظر الى المسألة أن المؤلفّ اللاّوي للوثيقة الإيلوهيمية ظل يسـتخدم باسـتمرار

اسم إيل أو تسمية "إيلوهيم" طوال وثيقته، حتى اللحظة التي ظهر فيها موسى وكاشفه الإلّه بأن اسمه "يهوه". (*)

فعلى ضوء ذلك المسار، تجد خيرة العقول اليهودية ذاتها أن تصوير تاريخ يهوه و"الشعب" كما ورد في سيناريو محرّري التوراة وسائر الأسفار المقدّسة فيه، في أحسن الظن، قدرٌ كبيرٌ من الطيبة والتقوى والرغبة في تأصيل الايمان وكل ذلك، وفي أسوأ الظن، قدرٌ غير مقبول من معالَجة التاريخ روائياً على أساس من التفكير بالتمني، فالسيناريو، سواء أحسن المرء الظن أو أساءه، يجب أن يعدّل ليصبح:

(١) عبد "بنو اسرائيل" (أي، بتعبير سائب للغاية، قوم يعقوب الآرامي التائه) الإلّه الكنعاني إيل وبنيه وبناته من آلهة (بعليم) و(بعلات) أي إلاهات إناث، نتيجة لـ"غربتهم" في أرض كنعان، أي إقامتهم كغرباء بين الكنعانيين. وأسطوريا، يمكننا أن نعتبر مباراة المصارعة الغريبة التي رأى مؤلفو سلسلة حكايات "الأب" يعقوب أن يضعوها في ديباجة السلسلة، والتي أوشك ذلك "الأب/البطل" يعقوب أن يغلب فيها ذلك الإله (إيل) بمثابة استيلاء من أصحاب الأرض والديانة الكنعانيين على إلههم إيل وحيازته ليعقوب وعشيرته، وذلك في الواقع مغزى تغير اسم يعقوب، بعد المباراة، من يعقوب الآرامي الى "اسرائيل" أي غالب إيل أو قاهر إيل. وفيما بعد، عندما ابتلِع إيل في جوف يهوه، ورُفِع يهوه الى السموات العُلى، بدا واضحاً أن مسألة مباراة المصارعة هذه لم تعد لائقة، فظل الشراح والمفسرون والمعتذرون يدورون حول أنفسهم باحثين عن مخرج من مأزقها بالقول بأن يعقوب لم يصارع "الله" (اذ تحوّل إيل الى يهوه وأصبح يهوه هو الله)، بل صارع "نفسه"، صارع "نوازعه الشريرة وغلبها"، صارع شيطاناً من شياطين الماء، لا بل صارع ملاكاً. وحتى المتنبئ هوشع المسكين، لم يكفه أن يهوه أمره بأن "يذهب فيحب امرأة بغيا"، فتعيّن عليه أن يجد مخرجاً للديانة من حكاية مصارعة يعقوب "لله" حتى أوشك أن يغلبه، ولم يجد الرجل ما يعتذر به الا قوله أن يعقوباً "بقوته جاهد مع الله. جاهد مع الملاك وغلب"! (هوشع ١٢:٣ و٤).

(٢) لم يعرف "الشعب" يهوه الا عندما عاد موسى بأسطوريته الصحراوية المحدودة من منفاه في مضارب المديانيين وحاول أن يُقنِع من كان قد بقي في مصر من فلول الرعاة الساميين المتسربين الذين عاشوا ردحاً في حمى الهكسوس بأنه "التقى إلّه آباءهم في الصحراء" "وأن ذلك الإله كلّفه باخراجهم من مصر ليعطيهم أرضاً تفيض لبناً وعسلاً". ويبدو أن مؤلف الحكاية أو هذه الجزئية منها

(*) ارجع الى تناولنا لدور الإلّه الكنعاني إيل في ديانة "الآباء" في "قراءة سياسية للتوراة" تحت بنود "إيل"، "يعقوب"، "اسرائيل"، "البطل القومي"، و"مصارعة الإلّه" من الفهرس الأبجدي. والذي يطرحه فريدمان في كتابه يعزز تناولنا لذلك الدور بالغ الأهمية للمعبود الكنعاني إيل، سواء في زمن "الآباء" أو في مجال الإسهام في صنع أسطورية يهوه.

شعر بسخف الحكي مبكراً، لأنه جعل موسى يقول للإله الذي "قابله في الصحراء"، في مطلع الأصحاح (الفصل) الرابع من سفر الخروج: "ولكن ها هم لا يصدقونني ولا يسمعون لقولي. بل يقولون لم يظهر لك إله" (خروج ٤:١). ثم، وقد عجز إبداعه عن إيجاد إجابة شافية على التساؤل الذي أجراه على لسان موسى، لجأ مستجيراً بما يحتمل أن موسى كان قد أوقف عليه خاصته من اللاويين من ماضي يهوه كما تعلّمه من حميه يثرون كاهن يهوه المدياني، فصارح أولئك الناس الذين كان قد وعدهم بجعلهم مؤسسة كهنوتية في ظل ذلك المعبود، بأن المديانيين عبدوا يهوه في أشكال مختلفة، كإله بركاني، وكمعبود ثعباني، ومارسوا شعائر عبادته أمامه مجسداً كوثن قضيبي مختن(*) غطّي أحيانا بغلاف من الذهب. واذ استعاد المؤلف اللاوي هذه "الأسرار" الإلهية التي تناقلها اللاويون جيلاً عن جيل بعد موسى، وهو آخذ في تأليف الحكاية، سارع فجعل يهوه يرد على تساؤل موسى آمرا اياه بأن يطرح عصاه أرضاً فتتحول الى حية قائلا له "لكي يصدّقوا أنه قد ظهر لك إله آبائهم، إله ابراهام، وإله اسحق، وإله يعقوب" (خروج ٤:٢-٥). إلا أنه، على الرغم من كل هذه الثعبانيات، وعلى الرغم من مباراة السحر الكبرى مع سحرة المصريين "برهنت" على أن سحر الإله الذي أراد موسى أن يجعل "الشعب" يعبده أقوى من سحر آلهة المصريين، ظل "الشعب" رافضاً قبول يهوه، مما تردد صداه بعد موسى بقرون، في سفر التثنية الذي عُزيَ اليه زوراً (وهو مؤلف في زمن السبي بدليل الـ"آية" التي أفلتت من قلم الرقيب فيه والتي يعد فيها مؤلفه القوم قائلا "يرد يهوه إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من بين جميع الشعوب الذين بددك اليهم، (حتى) وان يكن قد بددك الى اقاصي السموات فمن هناك يجمعك.. ويأتي بك الى الأرض التي امتلكها آباؤك فتمتلكها (من جديد)" (تثنية ٣٠:٣-٥). هذا السفر الذي أُلّف بعد موسى بقرون عديدة بشهادة ما ورد فيه حيث لم يكن أحد قد امتلك أرضاً بعد أو سُبِي بعد في زمن موسى، ظلت مترددة فيه، بعد كل تلك القرون، شكوى المؤسسة الكهنوتية من مقاومة "الشعب" التي لم تهمد ليهوه الى أن كُنِعن يهوه وأُدمجت فيه عبادة إيل وبنيه وبناته وهو ما أرجع اليه النبييم و"الكاتب المتبحر في شريعة يهوه، عزرا"، ضياع الملك والسبي وكل ما حل من كوارث. وقد صيغت تلك الشكوى في سفر التثنية باعتبارها شكوى موسى التي أسلفنا الاشارة اليها في قوله "من اليوم الذي خرجتم فيه من أرض مصر حتى أتيتم الى هذا المكان كنتم تقاومون يهوه" (تثنية ٩:٧)، و"قد كنتم تعصون يهوه منذ يوم عرفتكم" (تثنية ٩:٢٤).

(*) ارجع في ذلك الى "السحر في التوراة والعهد القديم" تحت بنود "ماضي يهوه الثعباني ومحاولة طمسه في الأسفار"، "إله بركاني"، "النار وجود حي له"، "معبود قضيبي"، و"هويّة مثلثة جمعت بين المعبود الناريّ، والمعبود الثعباني، والوثن القضيبي" من الفهرس الأبجدي.

وكل من النصين كاشف بما فيه الكفاية. فالأول، تثنية ٩:٧، يقرر أن "الشعب" ظل يقاوم يهوه، أي ظل رافضاً قبول يهوه إلهاً له، "منذ خرج من أرض مصر". وهو ما يعني أن عملية فرض يهوه إلهاً بدأت من وقت "الخروج" أو - بالأحرى - الطرد، ويعني أن "الشعب" لم يعرف إلهاً اسمه يهوه أو يعبد إلهاً ذا هوية كالتي حاول موسى فرضها. ثم يقول النص أن المقاومة من جانب "الشعب" استمرت حتى "أتى الشعب الى هذا المكان". وطبقاً للادعاء (الذي ثبت الآن بطلانه بشكل قاطع) بأن سفر التثنية من وضع موسى، يُفهَم من "أتى الى هذا المكان" أن الكلام قاله موسى لـ"بني اسرائيل في عبر الأردن، في البريّة، في العُربة التي قابلة سوف بين فاران وتوفل ولابان وحضيروت وذي ذهب، على بعد ١١ يوما من "حوريب" (اسم الجبل الذي لم يعثر له على أثر حتى الآن، لا بهذا الاسم أو باسم "جبل سيناء") على طريق جبل سعير الى قادش برنيع، في السنة الأربعين في الشهر الحادي عشر في اليوم الأول من الشهر" (تثنية ١:٣)، ولكن - مع الأسف - بغير تحديد للساعة والدقيقة استكمالاً للدقة.

غير أنه - بالنظر الى ما هو ثابت الآن من أن السفر لم يسجل فيه موسى الكلام الذي يقول السفر أن موسى قاله لـ"الشعب" في ذلك المكان، في اليوم الأول من الشهر الحادي عشر من السنة الأربعين بعد الخروج، وبالنظر الى ما هو مسلم به الآن من أن هذا الكلام الذي أُجري على لسان موسى أُلف بعد ذلك التاريخ بأكثر من ثمانمائة سنة، أي ثمانية قرون طوال - لم يعد من الممكن للأسف أخذ القول على علاته واعتبار المكان الذي قيل فيه موقعاً في الصحراء على بعد ١١ يوما من جبل حوريب الذي لا وجود له. فاذا لم تعن "حتى أتيتم الى هذا المكان" ذلك الموقع المدّعى للقول، فأي مكان تعني؟ تعني مكاناً من اثنين: (١) بابل، حيث أُلّف السفر، واذا ما كان المكان بابل، يصبح المعنى أن "الشعب" لم تنته مقاومته ليهوه الا بعد أن جاء الى بابل وذاق مرارة السبي، أو (٢) كنعان، المكان الذي "أتى اليه الشعب" بعد سنوات التيه الأربعين، واذ ذاك يصبح المعنى أن "الشعب" لم تنته مقاومته ليهوه الا بعد الاستقرار في كنعان ودمج يهوه في إيل وسائر "البعليم" الذين كان الشق الأكبر من الرعاة الساميين الذين استوطنوا في كنعان بعد التشرد الطويل وقبل موسى بزمن طويل قد عبدهم مستعيراً اياهم من الكنعانيين، وكانت القلة القليلة - التي يسلم فريدمان الآن بأنها قد تكون كل من خرج مع موسى وكهنته اللاويين - تعبدهم هناك في بعل صفون، ببيلوذيوم، بمصر، بين مجدل والبحر (خروج ١:١٤).

(٣) وبهذا فإن مقاومة "الشعب" ليهوه ورفضه إياه لم تنته الا بعد الانضمام الى "أقرباء الشعب" من "بني اسرائيل" المستوطنين في كنعان الذين لم "ينحدروا الى مصر" ولم "يستعبدوا فيها" بل عاشوا مغتربين بين الكنعانيين متسولين الآلهة والإلاهات منهم عابدين إيل (الذي أقام له يعقوب مذبحاً ودعاه إيل إله اسرائيل)، وبعل، وعشيرة، وعانات. وبوصول من خرجوا مع موسى وتاهوا في القفر وانضمامهم الى "أخوتهم" بني اسرائيل المقيمين في كنعان، اتفق الجانبان، بموافقة

من كهنة موسى اللاويين، بدلاً من التشاجر، كما يقول فريدمان، على أي الإلهين أفضل: يهوه أم إيل، على دمج الإلهين في واحد، وبذا وُضِع حد لرفض "الشعب" المتواصل ليهوه.

وذلك ما يعززه معنى النص الثاني الذي أوردناه من سفر التثنية، ٩:٢٤، والذي يقول فيه موسى لـ"الشعب" "أنكم، منذ عرفتكم، تعصون يهوه"، وهو قول يستجلب التساؤل: منذ متى عرفهم موسى؟ لأنه إن كان عرفهم منذ صباه، بوصفه "عبرانياً" مثلهم كما يقول سفر الخروج ٢:١١، فإن معنى القول يكون أن القوم عصوا يهوه منذ ما قبل لقاء موسى وإياه في الصحراء قرب مضارب المديانيين بوقت طويل، منذ صِبَى موسى وهو "يتربّى في بيت ابنة فرعون". أما اذا كان المعنى أن موسى عرفهم إثر عودته من مديان وخبر منذ ذلك الوقت عصيانهم ليهوه إذ رفضوا أن يصدقوا ما قاله لهم إثر تلك العودة من أنه "قابل إله آبائهم في القفر وأن ذلك الإله اسمه يهوه"، فانه لا يكون مؤدّى لذلك إلا أن معرفة موسى لـ"الشعب" لم تبدأ الا بعد عودته من مديان، أي وهو في الثمانين من العمر، متى أخذنا بما يقرره سفر التثنية من أنه "كان ابن مئة وعشرين سنة حين مات (بعد سنوات التيه الأربعين)" (٣٤:٧). واذ ذاك لا يكون هناك مهرب من التسليم بأن موسى لم يكن "عبرانياً"، ولم يكن "من الشعب" ولم تكن له بأولئك الناس صلة الا عندما بدأ محاولة اقناعهم بعبادة يهوه ليجعل منهم "شعباً" فلم يبدوا أدنى استعداد لذلك.

(٤) والواقع أن هذا النظر الأخير يتفق تماماً مع ما حفلت به صفحات العهد القديم من تضرر بلسان يهوه وبألسنة نبييمه من "صلابة عنق الشعب"، ويبرز – على ضوء ذلك – مدى ما تسلّح به من خلفوا موسى من كهنة لاويين من براغماتية لاهوتية/سياسية تمثّلت في تسليمهم بما لم يكن من التسليم به بدّ وقبولهم بإدماج عبادة يهوه والعبادات الكنعانية بالشكل الذي أخذه النبييم (الذين دعوا بـ"الاصلاحيين") من أعضاء حركة "يهوه وحده" على المؤسسة الكهنوتية برمتها، بل وعلى "ملوك المملكتين" وبلاطيهم وعلى رؤساء "الشعب"، وما نشب بين أولئك النبييم وكبار الكهنة من صراع وصل الى حد جعل "فشحور بن أمير الكاهن وناظر أول هيكل يهوه يضرب المتنبيء إرميا ويضعه في المقطرة (أداة التذنيب الخشبية التي كانت رجلا المذنب توضعان فيها ويجلد) التي في باب بنيامين الأعلى الذي عند هيكل يهوه" (إرميا ٢٠:١ و٢). كما يتفق تصرف فشحور ذاك ومؤسسته الكهنوتية مع الحقيقة الماثلة في أن تلك المؤسسة، منذ ظهرت الى الوجود على يدي موسى، كانت مسيَّسة ومعدّة للتحول الى مؤسسة حاكمةٍ لدولةٍ لاهوتيةٍ في ظلّ هيكل يهوه، على النحو الذي حدث فعلا في زمن "القضاة" والذي لم ينته فيبدأ عهد "الملوك" الا في وجه معارضة شديدة من جانب صموئيل، آخر أولئك الكهنة الحكام. وبفضل ذلك التسييس وإعداد الكهنة الكبار ليصبحوا "رجال دولة" وحكاماً، كان من المقضي به أن يفطن الكهنة الى أنه كان سيستحيل

إبقاء "الشعب" في حظيرة يهوه ما لم تلجأ مؤسستهم الى عملية التوفيق بين العبادات التي كان موسى ذاته قد استنّها ومارسها على نطاق واسع من خلال اغترافه (الذي لا يعقل أن الكهنة اللاويين كانوا غير دارين به) من الديانة المصرية لحساب يهوه، ثم سمح لكهنته اللاويين (كاجراء سياسي/ كهنوتي براغماتي) بمواصلتها ادماجا لهوية بعل صفون في هوية يهوه احتواء لذلك البعل المتعب، وتهدئة لمقاومة "الشعب" لعبادة يهوه.

(٥) واذ توصل الكهنة إلى ذلك الحلّ التوفيقي، بدأت العملية التي باتت تقليديةً في صُنع العبادة، عملية ابتلاع الآلهة المنافسة بدمج صفاتها وخصائصها وقدراتها وألقابها في هوية يهوه. وهكذا نجد إشعياء مقتبساً للقب إيل، "العليون" (الإله العلي) بتحريف بسيط هو "الإله المرتفع" تماشياً مع وتأكيداً لصيحة "إنك إله محتجب" التي جاءت متأخرة كثيراً، ونجد مؤلفي الوثائق "معنيين عناية خاصة بالرجوع بيهوه وراء الى عصر "الآباء" وجعله يبتلع إيل كما ابتلع تجليه الذي كُنعن فيه حدّاد/ شدّاد/ الشدّاي باسم بعل صفون. ولهذا نجد في "السجل" التوراتي ابراهامين لا ابراهاما واحداً: ابراهام ما قبل التختن، أي ابرام الآرامي عابد حدّاد/شدّاد، الشدّاي المكنعن كبعل صفون، وابراهام الممصر، ابراهام التختّن الذي ارغم إيل، الكنعاني، في الحكي، على أن يتمصر هو الآخر فيقول له "سر أمامي وكن كاملا" بالتختن، رغم أن مسألة التختّن هذه لم تكن راكبة دماغ إيل أو أي بعل أو أي شدّاد. ولقد كان الوعي بذلك هو ما ألجأ المؤلف الى جعل الإله الذي أظهره لابرام يخاطب ذلك الحبر مؤكدا له أنه "الشدّاي"، باعتبار ذلك الاسم إسماً آخر ليهوه يستخدم بدلا من اسمه "الخبيء" يهوه، لا الإسم الذي حُرّف اليه اسم شدّاد/ حدّاد، وباعتبار يهوه إله التختن.

وكما استخدم اسم ذلك الإله السومريّ المكنعن، الشدّاي، ضد إيل كسلاح روائي ماضٍ في عملية الابتلاع التي وُجدت ضرورية لحسن تنفيذ المخطط الموسوي بوصل من كانوا في كنعان وانضم اليهم من خرجوا من مصر مع موسى بابراهام وبقية "الآباء" وجعل يهوه الذي جاء به موسى من عند المديانيين بعد أولئك "الآباء" بأكثر من خمسة قرون إلهاً واحداً موحّداً لهم وبالتبعية لكل "بني اسرائيل" الذين جُعلوا بهذا الاسقاط الروائي الى الوراء "نسل ابراهام واسحق ويعقوب"، استخدم أيضا - بنفس القدر من خفّة اليد - لقب إيل كسلاح ضده في عملية ابتلاعه. فـ"العليون"، أي الإله العليّ، لقب إيل الرئيسي بوصفه رأس مجمع الآلهة الكنعاني، يُعثر هنا وهناك في النص التوراتي باعتبار أن "العلو" هو علو يهوه الى ما فوق الجَلَد، بصرف النظر عن أن تسلق يهوه الى ما فوق الجلد لم يحدث (روائيا) الا بعد "الآباء" بأكثر من عشرة قرون، وبعد موسى بأكثر من خمسة قرون، عندما جُعِل - تحت ظروف زمن السبي - "إلهاً سماوياً محتجباً" بعد أن ظل

طوال تلك القرون التي انقضت منذ اكتشاف موسى له يعيش فوق رأس الجبل، ثم في الخيمة، ثم في التابوت.

ولنركز هنا على عملية ابتلاع إيل. فابتداء، نجد "العليون" ("الإله العليّ"، التي تبرع المترجم الى العربية فجعلها "الله العليّ" مساعدة منه للمؤلف والمحرر طلبا للثواب بغير شك) مبعثرة ببراعة في النص التوراتي: "وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا. وكان كاهنا للإله العليّ (العليون)، وبارك ابراما وقال مبارك ابرام من الإله العليّ (العليون) مالك السموات والأرض. ومبارك الإله العليّ (العليون) الذي أسلم أعداءك في يدك" (تكوين ١٤:١٨-٢٠).

وبطبيعة الحال، لم يكن مؤلّف هذا الكلام الذي لُقِّن لأجيال وراء أجيال من البشر باعتباره "كلام الله"، غافلا عن أن العليون كان - كما عرفه عباده الكنعانيون وعرفه "الآباء" عندما تكنعنوا بالاستيطان - إيل "الإله العليّ"، رئيس مجلس (أو مجمع) الآلهة والإلاهات، ومالك السماء والأرض".

لكن المؤلف التوراتي كانت في كمّه حيلة أخرى قرر أن حُسن تنفيذ ما رمى اليه موسى اقتضى أن يلعبها على إيل المسكين لإسقاطه تماما في جوف يهوه حتى يؤخذ لـ"الشعب" من عبادِه الكنعانيين كما رمى المخطط الى أخذ الأرض منهم. تلك الحيلة كانت استخدام اسم إيل ذاته كسلاح آخر ضده. فـ"إيل" حُوّلت، كما أشرنا، من اسم علم الى لفظة استخدمت بالحاح بوصفها تعنى "إله"(*). وبهذه الحيلة اللفظية البسيطة أزيل اسم إيل من السجل، وفُسِّر وجوده في الأسماء التي كـ"اسرائيل" و"ميخائيل"، وهي لا تكاد تحصى، باعتباره تبركا في الاسم باسم "الله"، ولما كان "الله" هو يهوه ولا أحد غيره، فان إيل، إيلوه، إله باتت تستخدم بلا عائق كلقب ليهوه، وباستخدامها ذاك توارى إيل، صاحب

(*) وقد امتد هذا التحايل على الاسم الى صيغة الجمع للاسم العام"إيلوه" الذي موّه به اسم "إيل". فـ"ايلوهيم" (بصيغة الجمع، أي "آلهة") جعلت لقبا ليهوه، بصرف النظر عن النصوص التي أفلتت فيها اللفظة من مقصات الرقباء بمعنة آلهة، كما في صموئيل الأول ٢٨ الذي يحكي عن زيارة شاول لـ"امرأة صاحبة جان" أي عرّافة تستحضر أرواح الموتى لتقف على "الغيب"، في عين دور، ليسألها بعد أن سأل يهوه فلم يجبه، وطلب منها أن تستحضر له روح صموئيل: "قال لها أصعدي صموئيل. فلما رأت المرأة صموئيل (صاعدا من بين الأموات) صرخت بصوت عظيم.. فقال لها شاول لا تخافي. ماذا رأيت؟ فقالت المرأة لشاول رأيت آلهة (إيلوهيم) صاعدين من الأرض" (٢٨:٦-١٣)

وقد كان ذلك التلفيق سببا في أخطاء بالغة السخف في النصوص المترجمة، كما في ترجمة المزمور ٨٢:١ الذي يقول "الله قائم في مجمع الله. في وسط الآلهة يقضي". فـلأن "إيلوهيم باتت لقبا ليهوه ودرج المترجمون على ترجمتها بـ"الله"، صورت الترجمة العربية الأمر بأنه قائم في مجمع "الله"، بدلا من مجمع "الآلهة (إيلوهيم) "، في حين ترجم نفس النص اللفظة إيلوهيم بـ"الآلهة" في قوله "بين الآلهة يقضي". وقد فطن مترجمو نص الملك جيمس الى هذا المأزق فراغوا منه بأن ترجموا "إيلوهيم" في مجمع إيلوهيم بـ"مجمع الأقوياء"، وترجموها في ذيل النص بـ"الآلهة":

God (Elohim) standeth in the congregation of the mighty (Elohim); He judges among the gods (Elohim))". وذلك كله تحايل ممعن في السخف، إلا أنه لم يكن مهرب منه، فيما بدا، للمترجمين.

ذلك الإسم، تماما في جـوف يهـوه الرحـب. غـير أن المؤلـف التوراتـي الـذي حقّـق هـذه "الخبطة"، تمادى في محاولته حبك القصة، فوقع – لحسن حظ الحقيقـة – فـي خطـأ مـن الأخطاء التوراتية العديدة التي ظلت كاشفة عن عوار الحكي.

فسفر التكوين يخبرنا – في سرده لسلسلة حكايات "الآرامي التائـه" يعقـوب الـذي جُعِل منتصرا على إيل في مباراة مصارعة استمرت طوال ليلة بأكملها فبات اسمه "اسرائيل" وجُعِل بطلا قوميا لـ"الشعب"– أن ذلك "الأب" كان منشيء "بيت إيل" في مكان من أرض كنعان كان اسمه قبلا "لوز" (تكوين ٢٨:١٩).

والمقصود من الحكاية، متى أخذنا بظاهرها وانصعنا للزخم الرئيسـي للحكـي كلـه وهو أن يهوه كان الإله الواحد الوحيد الأوحد الذي لم يعبد ابراهام واسحق ويعقـوب إلهـاً سواه، ترسيخ ذلك المفهوم الذي اجتهد المؤلف التوراتي في اكتسابه من عمليه ابتلاع إيل. ويتمثل ذلك الكسب في تحويل "الإله العليّ" – الذي أقام له ابرام مذبحاً عند بلوطات ممرا والإله الذي ظهر له في الحلم وظهر ليعقوب في الحلم أيضا عند بلدة لـوز الكنعانيـة – الـى يهوه، وجعل بيت إيل: بيت "إيلوه"، أي بيت يهوه لا بيت أي إله آخر.

غير أننا نجد في حكي المؤلف التوراتي ذاته ما يوقفنا على أن بيت إيل لـم ينشـئها يعقوب بعد أن نام في العراء قرب لـوز ورأى الإلـه (الـذي يريدنـا المؤلـف أن نعتبره إيلـوه يهوه، أي "الرب يهوه"، لا إيل) في الحلم فـ"دعا اسم المكان بيت إيل. ولكن اسم المدينـة أولا كان لوز" (تكوين ٢٨:١٩). والذي نجده في حكي المؤلف ذاته قبل حكايـة يعقـوب بقليل أن بيت إيل (أي مذبح أو مزار أو مقدس إيل) كانت موجودة قبـل يعقـوب، بـل قبـل جده (حسب الحكي) ابرام "الآرامي التائه" بوقت طويل. فقبـل أن يحكـي المؤلـف حكايـة يعقوب. بخمسة عشر فصلاً (اصحاحاً) من سـفر التكويـن، حكـي أن ابرامـا عندمـا صرفـه المصريون هو ومن معه من أرضهم بسبب إعطائه امرأته ساراي لفرعون سريةً له بحجة أنها أخته لا زوجته (تكوين ١٢:١٤–٢٠)،

> "صعد من مصر هو وامرأته وكل ما كـان لـه ولـوط معـه الى جنوب كنعان. وكـان ابـرام قـد صـار غنيـا جـدا فـي المواشي والفضة والذهب (من عطايا فرعون)، وسار فـي رحلاته من الجنوب الى بيت إيـل. الى المكـان الـذي كانت خيمته فيه في البداءة (عندما خرج من حاران) بيـن بيت إيل وعاي. الى مكان المذبح الذي عملـه هنـاك أولا (عندما حلّ بأرض كنعان). ودعا هناك ابرام باسم "الرب" (العليون = إيل، لكـن المطلـوب أن نـأخذ "الـرب" هـذه بمعنى يهوه)" (تكوين ١٣:١–٤).

فـ"بيت إيل" كانت هناك من قبل حلول ابرام بأرض كنعان، ولـم ينشـئها ابـرام، بـل أقام فيها مذبحاً لمن كان الكنعانيون يعبدونه في بيت إيل، وهو إيـل كبـير آلهتهـم، وليـس،

بطبيعة الحال، "إيلوه" أو "إيلوهيم" يهوه لأن الكنعانيين لم يكونوا يعرفون يهوه ولم يكونوا يعبدونه ولم يكونوا يقيمون له مزارات أو أماكن عبادة، والحكي ذاته لم يدّع أن ابراما عندما حلّ بأرض كنعان تشاجر مع الكنعانيين أو حاول هدايتهم قائلا لهم "لا، يا قوم، لا تعبدوا إلهكم إيل بل اعبدوا يهوه"، بل نصب خيمته هناك، وأقام مذبحاً لـ"العليون" ودعا باسمه، وهو ما يقطع به قول يهوه ذاته لموسى أن ابراهاما وبنيه لم يعرفوه باسمه يهوه (خروج ٦:٣).

ونحن واجدون ما يبرهن على صواب هذه الرؤية التي نطرحها في الاصحاحات السابقة واللاحقة من حكي سفر التكوين.

فالاصحاح الثاني عشر يخبرنا أنه بعد أن تلقى ابرام التوجيه "الإلهي" بالخروج من حاران "اجتاز في الأرض الى مكان شكيم (نابلس حاليا) الى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض (أي وكانت الأرض حينئذ يسكنها الكنعانيون).(*) وظهر "الرب" لابرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له. ثم نقل من هناك الى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب" (تكوين ١٢:٦-٨).

أما الاصحاح الرابع عشر فيوقفنا على أن ذلك "الرب" الذي "ظهر لابرام" والذي كان معبوداً من الكنعانيين أصحاب الأرض كان ذا مركز عبادة وصاحب نظام كهنوتي وكان اسمه "العليون"، أي الإله العليّ، بحكيه الذي أوردنا عن ملكي صادق كاهن ذلك الإله الكنعاني.

وأما الاصحاح الخامس عشر، فيزودنا بالبرهان الذي يتجاوز كل ذلك، وهو البرهان المستمد من شعائر "قطع العهد" بين ذلك العليون، الإله العليّ الذي ظل يظهر لابرام ويعده باعطائه كل تلك الأرض الشهية التي رآها "الآرامي التائه" إبان تشرده بين الأقوام المستقرة، من أرض الرافدين، الى أرض كنعان، الى أرض مصر:

> "بعد هذه الأمور، صار كلام "الرب" الى ابرام في الرؤيا: لا تخف يا ابرام، أنا ترسٌ لك. أجرك كثير جدا.. ثم أخرجه الى خارج وقال انظر الى السماء وعدّ النجوم إن استطعت أن تعدّها. وقال له هكذا يكون نسلك. فآمن بـ"الرب"، فحسبه له براً. وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها. فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم أني أرثها؟ فقال له خذ لي عجلة ثلثية (بنت ثلاث سنوات) وعنزة ثلثية وكبشا ثلثيا ويمامة

(*) وقد توقف ابن عزرا عند هذا النص الكاشف طويلا، ارجع الى "قراءة سياسية للتوراة" ص ص٣٨٣/٣٨٤.

وحمامة. فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه. وأما الطير فلم يشقه. فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام يزجرها.
"ولما صارت الشمس الى المغيب، وقع على ابرام سبات. واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه. فقال لابرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم. فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة. وأما أنت فتمضي الى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة. وفي الجيل الرابع يرجعون الى هنا. لأن ذنب الأموريين ليس الى الآن كاملا. ثم غابت الشمس فصارت العتمة. واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع (بين أجزاء الأضحية الحيوانية).
"في ذلك اليوم قطع "الرب" ميثاقا مع ابرام قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات، أرض القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين" (تكوين ١٥:١-٢٠).

وقبل أن نستظهر ما انطوت عليه طقوس الذبح التي نظمها ذلك الإله "ليقطع" بها ميثاقه (عهده) مع ابرام من براهين قاطعة بكنعانية ذلك الإله قاطع العهد مع ابرام ما قبل التختن، نتوقف عند عدد من النقاط إلهامة في النص:

أول تلك النقاط أن المؤلف جعل ذلك الإله يقدم نفسه الى ابرام وكأن الرجل لم يكن يعرفه أو يعبده قبلا مع أن ذلك يناقض تماما ما أكده المؤلف من أن ابراما حظي بظهور ذلك الإله له وتوجيهه إياه: عندما ظهر له وقال "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض" (تكوين ١٢:١-٣)، وعندما ظهر له ثانية، بعد اعتزال لوط عنه وقال له "ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا. لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد. واجعل نسلك كتراب الأرض. حتى اذا استطاع أحد أن يعدّ تراب الأرض فنسلك يعدّ أيضا. قم امش في الأرض طولها وعرضها. لأني لك أعطيها" (تكوين ١٣:١٤-١٧).

والسؤال الذي يثيره ذلك مزدوج في الواقع: (١) هل كان الإله الذي ظهر لابرام في الرؤيا غير الإله الذي ظهر له قبل ذلك، مما اضطره الى أن يقدم نفسه الى ابرام بقوله

"أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها"؟ أم ترى فعل الإله ذلك خشية أن يكون ابرام قد نسى اللقاءات السابقة؟ (٢) وأما الشق الثاني من السؤال فهو - مع التسليم بأن ابراما كان رجلا صالحا وأنه أقام مذبحاً لذلك الإله و"دعا باسمه" - ماذا كانت الصفات الخارقة التي جعلت ذلك الإله يلاحق ابراما بهذا الشكل الحواذيّ واعداً إيّاه بأن يعطيه كل تلك الأرض له ولنسله وبأن يبارك مباركيه ويلعن لاعنيه؟

فالنصوص لم تعطِ أية معلومة توقف المؤمن على نوعية ومدى ضخامة التفوق الذي حازه ابرام (الذي لم يكن قد قطع لحم غرلته بعد) فجعل الإله مولعاً به كل ذلك الولع، مطارداً إياه بهذا الشكل اللحوح حتى بعد تلك الواقعة غير اللائقة اطلاقاً التي تربّح فيها ابرام من جمال ساراي الفاتن فخدع فرعون مصر وأخذ منه الكثير من المواشي والذهب والفضة والعبيد لقاء إعارته ساراي لتكون محظية له مدعياً أنها أخته لا زوجته.

أما النقطة الأخرى التي يحسن التوقف عندها، فقول المؤلف في تكوين ١٢:٦، "وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض" وهو القول الذي أقض مضاجع كثيرين أولهم ابن عزرا. وقد وجد ابن عزرا في ذلك القول "سرا غامضا يحسن بمن يقف عليه ويتفهمه أن يقفل فمه ويسكت"! والسبب - غير ما ذكره سبينوزا من أسباب(*) واضح. فالقول يجعل من المقطوع به أن آلهة الكنعانيين هي التي كانت في الأرض عند وفود ابرام ليغترب فيها ويعبد ألهتها. وقد علق سبينوزا على ما حشر في الحكي عن ابرام/ابراهام من كلام قصد به القول بأن يهوه كان الإله الذي عبده ذلك الحبر و"دعا باسمه" وأقام له مذبحاً أو مذبحين، وتوقف عند حكاية تسمية ابراهام للمكان الذي تقول سلسلة حكاياته أنه أوشك أن يقدم فيه ابنه ذبيحة ومحرقة للإله باسم "يهوه يرأه"، فقال أن هذه تسمية للمكان لم تطلق عليه إلا بعد بناء الهيكل في زمن سليمان"!

وأما النقطة الثالثة التي يحسن تأملها في النص فهي أن المؤلف التوراتي، بطريقة الفلاش باك ولكن بعكس ما تستخدم فيه سينمائياً في عصرنا، ضمّن ذلك النص موجزاً لسيناريو "بني اسرائيل"، واستعباد المصريين لهم، وخروجهم مع موسى "بأملاك جزيلة" (هي التي أمرهم يهوه في سفر الخروج بسلبها من المصريين) وتيههم في القفر أربعين سنة. فالمؤلف - كيما "يؤسس" الأسطورية ابتداء من ابرام، أعطى ذلك التاريخ المستقبلي لـ"الشعب"، ولم ينس أن يضمّنه "إدانة يهوه لمصر" بضربات موسى العشر، في الحكي عن "الآباء".

وفي سياق ذلك الصبغ الموسوي لتلك الجزئية من سلسلة حكايات ابرام/ابراهام، أسقط المؤلف وراءً ما جُسّد به يهوه في سلسلة حكايات موسى، أي عمود السحاب وعمود النار،وقد حُوّلا في النص الى "تنور دخان ومصباح نار"، على سبيل التنويع.

(*) ارجع الى "قراءة سياسية للتوراة" ص ص٣٨٠-٣٨٤.

وأما النقطة الأخيرة اللافتة للنظر في هذا النص الأساسي في الحكي كله لأن فيه "الميثاق باعطاء الأرض"، فهي أن القائمة التي تضمنها النص بأسماء الشعوب التي ستباد لتعطى أرضها ميراثاً أبدياً لنسل ابرام أطول وأشمل من كل القوائم التي وردت فيما تلا من نصوص، اذ شملت عشرة شعوب، في حين لم تتضمن القائمة الأولى التي أعطيت لموسى (خروج ٣:٨) الا ستة شعوب فقط، ثم تقلص العدد الى خمسة شعوب في نص الخروج ١٣:٥، ثم عاد العدد فارتفع في سفر التثنية الى "سبع شعوب أكثر وأعظم منك" أُمِر بنو اسرائيل بتحريمها (إبادتها) وبعدم قطع عهد معها أو الشعور بأي شفقة تجاهها" (تثنية ٧:١ و٢).

بعد أن أزحنا بعض الضباب الذي ضُخّ في النص من خلال هذه النقاط التي توقفنا عندها، نعود الى الطريقة التي "قُطِع" بها الميثاق أو العهد بين الإله العلي (الذي يجب أن نصدق أنه كان يهوه) وذلك الرجل البار ابرام الذي يبدو أنه كان البار الوحيد في عصره مما جعل الإله يلاحقه تلك الملاحقة بكل تلك الوعود الخاصة بإبادة شعوب بأكملها وإعطاء أراضيها لنسله(*) (الذي يجب أن نصدِّق أنه "الشعب" = اليهود).

في النص الذي أوردناه من سفر التكوين عن "قَطع" الميثاق بين الإله وابرام ما قبل التختّن وضع المؤلف بكل طمأنينة شعائر الكنعانيين التي اتبعت طوال قرون من قبل حلول "بني اسرائيل" بأرضهم واغتصاب "بني اسرائيل" لآلهتهم كما تحكي مباراة المصارعة التي أوشك يعقوب أن يغلب فيها الإله إيل إله الكنعانيين والتي أصبح اسمه بعدها "اسرا – ئيل" أي قاهر إيل أو غالب إيل وبالتالي المستولي على إيل من عبادِه الكنعانيين.

فشعائر "قَطع" العهد بذبح الذبائح وشق أجسادها طولا الى شقين والمشي بين الشقين لـ"تسجيل" التعاقد سحريا، شعائر سومرية، بابلية، أشورية، وكنعانية، وشعائر عربية قديمة. وكل ما فعله المؤلف التوراتي وهو آخذ في تلفيق بداية يهيوية من زمن ابرام لـ"الشعب" وإرساء أسس تعاقد قانوني/سحري/إلهي بين الإله (الذي استمات في جعله يهوه) وبين ابرام (الذي استمات في جعله "أبا" لـ"الشعب") على إبادة كل تلك الشعوب صاحبة الأرض وإعطائها لـ"الشعب" ميراثاً أبدياً، أنه أخذ الشعائر الكنعانية والإله الكنعاني إيل ووضعهما في حلم خطير ادعى أن ذلك الرجل البار ابرام رآه في منامه وظلت تفاصيله تامة وواضحة منذ القرن التاسع عشر ق. م. من بين بلايين الأحلام التي رآها ملايين الأبرار في المنام، بادعاء أن تلك الشعائر "عبرانية" قبل قرونٍ من ظهور لفظة "عبراني" في الحكي التوراتي ذاته (من حيث أنها لم تظهر فتختف سريعاً الا في سفر الخروج الذي يفترض أن أحداثه وقعت بعد زمن ابرام بقرون)، وأن الإله الكنعاني إيل لم يكن له وجود بل كان الموجود هو يهوه.

(*) ولا يدري المرء لمَ لمْ يفعل الإله ذلك مع ملكي صادق مثلا، الذي كان باراً وكان كاهنا له، مفضلاً عليه ابراما؟

وقد فطن المتنبيء إرميا في زمانه الى مدى شفافية ذلك الاختلاس الديني فحاول تكثيفه قليلاً لئلا يظل كاشفاً عما تحته بقوله أن يهوه أكد له قائلاً:

"وأدفع الناس الذين تعاهدوا معي ولم يقيموا كلام العهد الذي قطعوه أمامي بالعِجل الذي قطعوه الى اثنين وجازوا بين قطعتيه، رؤساء يهوذا ورؤساء أورشليم الخصيان والكهنة وكل شعب الأرض الذين جازوا بين قطعتي العِجل، أدفعهم ليد أعدائهم وطالبي نفوسهم فتكون جثثهم أكلا لطيور السماء ووحوش الأرض" (إرميا ٣٤: ١٨-٢٠)

فالعهد الذي حكى سفر التكوين أنه "قُطِع" بين إيل وابرام جُعِل في سفر إرميا، بثبات وتمكّن، عهداً بين "الشعب" ورؤسائه وكهنته (و"خصيانه"، أي كهنة الإلاهة الأم ملكة السموات الذكور الذين ترك إرميا ذكرهم يفلت خطفا هكذا في كلامه) وبين "إلههم ساكن الأزل" يهوه.

غير أن شيئا من كل ذلك لم يفض في النهاية الى طمس وجود إيل في جذور المسألة كما كان مأمولاً لدى من ألفوا أسفار التوراة ولدى إرميا وغيره. وبطبيعة الحال، لم يكن بوسع مؤلفي أسفار التوراة أو بوسع النبييم التنبؤ باكتشاف نصوص رأس شمرا في مطلع الربع الثاني من القرن العشرين الميلادي وترجمتها وانتشارها وبالتالي كشفها عن النبع الكنعاني الذي اغترفوا منهم في صنع الوجه "الاسرائيلي" من أسطورية يهوه استكمالاً للوجه المصري الذي اختلسه موسى، والوجه السومري المكنعَن المتمثل في بعل صفون.

فبفضل اكتشاف نصوص رأس شمرا وترجمتها ودراستها ومقارنتها بنصوص التوراة والعهد القديم(٦) باتت مكونات يهوه التي اختلست من كبير آلهة الكنعانيين إيل واضحة بارزة مسلطة عليها أضواء كاشفة من مناهج علمية كثيرة أهمها علم الأديان المقارن وعلم الأساطير المقارن، وفوق هذا وذاك علم التاريخ.

وبالرجوع الى نصوص رأس شمرا نجد، متى قارنا أوصاف إيل وألقابه وخصائصه الواردة فيها بأوصاف يهوه وألقابه وخصائصه الواردة في نصوص التوراة والعهد القديم، أعراض وبراهين ما وصفناه بأنه ابتلاع لإيل في جوف يهوه، طمساً لإيل وعملاً على تغطية عظام يهوه بقدر من اللحم الإلهي بالاضافة الى ما كساه موسى به أصلاً من الديانة المصرية. ولقد كانت عملية "الكساء باللحم" هذه أسهل وأسلس في حالة النهب من الديانة الكنعانية منها في حالة السلب من الديانة المصرية. فالكثير مما اختلس ليهوه من مصر ظل فضفاضاً وناطقاً بالاغتصاب الاعتسافي لصفاتٍ وخصائص تنافرت مع الصورة الأصلية ليهوه كمعبود خصب صحراوي كان أصلاً شيطاناً من شياطين البراكين ثم، لما استؤنس، حُول الى وثنٍ قضيبيٍّ كُسيَ أحيانا بالذهب وعُبد أحيانا في شكله الخشن كعمود حجري. ونفس ذلك التناقض ظل واضحا في اختلاس صفة الإله المشرِّع من مصر ومن

بابل (تشريعات حمورابي) لمعبود صحراوي كان تخصصه السلب والنهب والافتراس والاكتساء بالدم: دم الضحايا البشرية (الأطفال الرضّع المختنين في اليوم الثامن بعد مولدهم)، ودماء الأضحية الحيوانية، ودماء بكارة العذارى اللواتي كان المؤابيون والمديانيون يقدمونهن اليه ليفقدن عذريتهن باجلاسهن على وثنه المنتصب المكسي بالذهب في غمار طقوس كانت تقام في الليالي المقمرة استجلاباً لرضاه حتى يمنح عباده المطر والخصوبة والخصب.

أما في حالة آلهة أوغاريت، فكان الاختلاس أسلس وأيسر، بالاضافة الى أنه اختلاس جرى بنعومة، تدريجياً، فلم يكن مباغتاً واضح الاعتساف والاغتصاب كما في حالة الديانة المصرية، نظرا لأن من مارسوه في كنعان فعلوا ذلك من خلال اندماجهم الكامل في طريقة الحياة الكنعانية (وهو ما لم يحدث للشراذم الآرامية في مصر اذ اعتبرها المصريون، كما يخبرنا مانيتو، "شرا حلّ بالأرض")، ولم ينخرطوا فيه بغتة وبعجلة ناطقة بالهرولة كما في حالة سطو موسى على ديانته المصرية لينهب منها كل ما استطاع تلفيقاً لأسطورية محترمة ليهوه. فالذي أُخذ من الديانة الكنعانية ليهوه أُخِذ على مهل وبشكل متعاظم بدا أنه لم يكن من المستطاع أو من المرغوب فيه ايقافه نتيجة لما أشرنا اليه من استيعاب "الشعب" وكهنته في طريقة حياة الكنعانيين. وفيما بعد، عندما أُلف سفر التثنية وعُزِيَ الى موسى، كظّه مؤلفوه بـ"المناهي" والتحذيرات التي وجدوا من الضروري وضعها فيه وحشرها فيما أضافوه من "مناهٍ" وأوامر يهيوية في تركيبهم بطريقة القص واللصق لما حُكِيِ في "الوثيقتين" اليهيوية والإيلوهيمية، إبراءً لذمة يهوه من كل ما اختُلِس له وكمحاولة لنفي ما لا سبيل الى نفيه وهو ابتلاعه للعديد من "الآلهة الدخيلة" التي جعله مؤلف سفر التثنية ومحررو الأسفار الأخرى يحرم على "الشعب" السير وراءها، كما في هذا النص الذي نسوقه على سبيل المثال فقط من سفر التثنية:

> "متى قرض الرب يهوه من أمامك الأمم الذين أنت ذاهب اليهم لترثهم وورثتهم وسكنت في أرضهم، فاحترز من أن تصاد وراءهم بعد ما بادوا من أمامك ومن أن تسأل عن آلهتهم قائلا كيف عبد هؤلاء الأمم آلهتهم فأنا أيضا أفعل هكذا (أعبد أنا أيضا آلهتهم كما عبدوها هم). لا تعمل هكذا للرب يهوه لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس لدى يهوه مما يكرهه يهوه اذ أحرقوا حتى بنيهم وبناتهم بالنار لآلهتهم"! (تثنية ١٢:٢٩-٣٢)

فمؤلف السفر في زمن يوشيا ومحرره في زمن السبي قد اتصفا هنا بـ"الشطارة" التي عزاها مؤلفو سلسلة حكايات ابرام/ابراهام الى ذلك الحبر عندما جعلوه يساوم الإله على سدوم انقاذاً لقوم لوط. وفيما تعلق بسفر التثنية الذي أُلف وحُرِّر بعد موسى بقرون وعُزِيَ الى موسى، كما أسلفنا، تمثلت تلك "الشطارة" في محاولة تحقيق عدة مكاسب

بخبطة بارعة: (١) تباعد يهوه عن "انحطاط" عبادات كنعان، (٢) تبرئة يهوه من اغتصاب أسطوريات آلهة كنعان لنفسه بدليل أنه يحذر "الشعب" تحذيراً صارماً من أولئك الآلهة السيئين، (٣) تبرئة الديانة كلها بعد قرون من ممارسة تقديم أبكار "الشعب" الرضّع المختتنين ضحايا بشرية ليهوه على مذبحه،(*) في ذلك النص الملفق الذي ألف في زمن "الملك" يوشيا (٦٢١ ق.م) وروجع في زمن السبي البابلي وأُقحم اقحاماً على الأسفار الأولى من العهد القديم بادعاء أنه من تأليف موسى، من مثلب أشد ممارسات الديانة اثارة لنفور "الشعب" بالقول بأن تلك الضحايا البشرية قدمت لآلهة كنعان وأن ذلك "رجس مكروه ليهوه". وفي ممارسة مؤلف السفر ومحرره لذلك الضرب من التزوير الديني وُضِع بـ"الأستاذية التي ما بعدها أستاذية" التي تغنى بها فريدمان وكأنه فعلاً من تأليف موسى ومن زمن موسى، وعنوان السفر "الكلام"، أي الكلام الذي قاله موسى للقوم قبل ذبحه، على مشارف أرض كنعان. فهو يقول "متى قرض الرب يهوه من أمامك الأمم الذين أنت ذاهب اليهم لترثهم"، وكأن القول-كغيره من أقوال في أسفار "الخروج"، و"اللاويين"، و"العدد"- ترديد موسوي لوعود يهوه لـ"الشعب" وهو في القفر متجهاً الى "الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً"، وكأنه أيضا من نسيج ثوب تلك الأسفار التي كان الترتيب فيها أن يهوه: (١) سوف "يقرض" (يفترس، يبيد) كل الشعوب صاحبة الأرض من أمام "الشعب" كيما يقعد "الشعب" مستريحاً هانئاً في أراضيها ومدنها، و(٢) سوف يزيح من الأرض المأخوذة تماما، بفضل تقوى "الشعب" وتنفيذه لأوامره، كل آلهة تلك الشعوب.

ذلك كان الترتيب "الإلهي" الموضوع لأرض كنعان بأصحابها وآلهتها طبقاً للمخطط الوارد في أسفار "الخروج"، و"اللاويين" و"العدد". وهو ترتيب منطقي، وبخاصة فيما تعلّق بإبادة الآلهة التي كان الترتيب أن تباد الشعوب العابدة لها وذلك ما أجريت له بروفة محدودة في سفر "العدد" بمحاولة قرض المديانيين، لكنها لم تنجح على الرغم من فظاعة المذبحة التي نظمها موسى لأولئك المديانيين المضيافين الذين وفروا له المأوى وأكرموا وفادته عندما كان هارباً في الصحراء من انتقام كهنة آمون، وكان تنظيمه لها بغية القضاء على كل ما كان من شأنه أن يكشف عن الأصول الحقيقية للمعبود الذي أخذه من أولئك الناس وحاول فرضه على "الشعب".

إلا أن مؤلف سفر التثنية في زمن يوشيا كان يعلم جيدا أن الترتيب الوارد في أسفار "الخروج"، و"اللاويين"، و"العدد"، لم يتحقق، إذ لم يف يهوه بوعده ولم "يقرض" أصحاب الأرض من أمام "الشعب"، وهو ما فسره سفر القضاة معتذراً بقوله أن الإبادة لم تتحقق لأن السكان الأصليين كانت لديهم "مركبات حديد" (عجلات حربية) يبدو أن فتوّة يهوه الحربية تخاذلت أمامها، ثم عاد ففسره بأن يهوه لم "يقرض" أولئك السكان الأصليين

(*) ارجع في ذلك الى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص٦٨، ١٣٧- ١٣٩، ٢٥١، ٢٥٨-٢٦٤، ٣٣٤، ٣٨٣، ٣٨٤.

كيما "يجرب" بني اسرائيل ويتبين ما اذا كانوا سينفذون وصاياه لهم أم لا! غير أنه سواء كان السبب هذا أو ذاك، كان من المعروف جيدا للمؤلف التثنوي أن وعود يهوه بالإبادة العامة الشاملة للسكان الأصليين أصحاب الأرض لم تنفذ، ومع ذلك فإنه-حرصاً منه على توفير المصداقية لادعاء كون السفر من تأليف موسى-التزم في تأليفه بالخط القديم الوارد في الأسفار الثلاثة السابقة للمكان الذي وُضع فيه بوصفه "خامس أسفار توراة موسى". وبطبيعة الحال، لم يكن من المتصور أن يحدث شيء كهذا دون أن يكون من وراء احداثه كسب يُكسَب ومغنم يُغنَم. والمقول في سفر الملوك الثاني أن "الملك" يوشيا، الذي وصف بأنه "كان مستقيما في عيني يهوه" وبأنه "سار في جميع طريق داود"، لطم على وجهه ومزق ثيابه عندما "عثر" الكاهن حلقيا صدفة أثناء ترميم الهيكل على السفر وسمع ما فيه من كلام، ثم أمر الكاهن حلقيا ومن معه بالذهاب "لسؤال يهوه من أجله ومن أجل الشعب ومن أجل كل يهوذا من جهة كلام هذا السفر الذي وُجد (الذي عثر عليه) لأنه عظيم هو غضب يهوه الذي اشتعل علينا من أجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر ولم يعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا" (الملوك الثاني ٢٢:١١-١٣).

ذلك، كما هو واضح، الكسب الذي كُسِب من وراء إرجاع السفر الى زمن يوشيا،(*) و"العثور عليه صدفة" أثناء ترميم الهيكل، وحشره (وفيما يحتمل، احلاله محل سفر يشوع) كخامس أسفار "توراة موسى": النفي لاحقاً بعدة قرون، عن طريق الزج تسبيقاً بعدة قرون، بـ"كلام" عُزي الى موسى، لتلك العملية الطويلة اللحوح من اختلاس العبادات وابتلاع الآلهة والإلاهات التي تألفت منها أسطورية يهوه، وتبرئة الديانة كلها من عملية التكنعن الطويلة واسعة النطاق التي مرت بها، لأنه انظر فقط ما فعله ذلك الملك الصالح يوشيا عندما تفهم جيدا معنى كلام السفر، والذي فعله يوشيا، بمنطق عملية التلفيق، كان ما يجب أن يفعله كل من سبقوه التزاما منهم بـ"الاستقامة في عيني يهوه":

"أمر الملك يوشيا الكاهن العظيم حلقيا وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب أن يخرجوا من هيكل يهوه جميع الآنية المصنوعة للبعل و"للسارية" (للإلاهة عشيرة) ولكل "أجناد السماء" (مجلس الآلهة) وإحراقها خارج أورشليم في حقول وادي قدرون وحمل رمادها الى بيت إيل. ولاشى (أزال، أباد) كهنة الأصنام (كهنة بعل وعشيرة) الذين جعلهم ملوك يهوذا ليوقدوا على المرتفعات في مدن يهوذا وحول أورشليم للبعل للشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء. وأخرج "السارية" (تمثال

(*) والمرجح أن السفر أُلّف في عصر السبي، بعد يوشيا بوقت طويل، وقد يكون مؤلفه إرميا أو حزقيال.

الإلاهة عشيرة) من هيكل يهوه الى خارج أورشليم الى وادي قدرون وأحرقها في وادي قدرون ودقها الى أن صارت غبارا وذرى الغبار على قبوز عامة الشعب. وهدم بيوت المأبونين (الكهنة البغايا الذكور) التي عند هيكل يهوه.. وكذلك السحرة والعرافون والترافيم والأصنام وجميع الرجاسات التي رئيت في أرض يهوذا وفي أورشليم أبادها يوشيا ليقيم كلام الشريعة المكتوب في السفر الذي وجده حلقيا الكاهن" (الملوك الثاني ٢٣:٤-٧ و٢٤).

والنص واضح بما فيه الكفاية، وبخاصة قوله أنه بعد الحرق "حمل الرماد الى بيت إيل" أي انه، بعد أن "طهر عبادة يهوه من الرجاسات" أحرقها وأعادها لصاحبها إيل. غير أن هذه "الطهارة" التي جاءت متأخرة كثيرا، حتى وإن أُرجعت اعتسافاً الى زمن يوشيا بسفر أُلّف وحُرِّر بعد يوشيا بوقت طويل، لم تطمس ما ظل يُسرَق ليهوه طوال قرون من الديانة الكنعانية، وبالذات من إيل ومن تجلّيه، "ابنه" بعل، بل-كما رأينا-من ابنته عانات، ومن ابنته الأخرى وزوجته عشيرة. ولنتوقف هنا عندما سرق من إيل وبعل. فبالإضافة الى كمون إيل بصفاته ورموزه (الثيران والكروبيم) في صورة يهوه وصفاته وألقابه ورموزه المكنعنة، نجد أيضا كمون تجلّي إيل "التنفيذي"، بعل، ونجد العديد من أوجه التماثل، لا التشابه أو التقارب، بل التماثل بين ما صُوِّر به يهوه ووُصِف في التوراة وسائر أسفار العهد القديم، وما وُصِف وصُوِّر به إيل وبعل في نصوص رأس شمرا.

(١/أ/٨) إيل هو الذي أعطى "الشعب" لابنه بعل يهوه نصيباً له

كل من مر بخبرة قراءة العهد القديم يعلم جيداً أن "الشعب" (الاسم المظلة لـ"الآراميين التائهين"/"العبرانيين"/"بني اسرائيل"/"اليهود") نصيب يهوه وميراثه، بل و"كرمته وغرس لذته! " (إشعياء ٥:٧). ولكن، من الذي جعل الأمر كذلك؟ أسفار التوراة وسائر العهد القديم تؤكد أن الأمر بات هكذا لأن يهوه "منذ كان اسرائيل غلاما أحبه، ومن مصر دعاه" (هوشع ١١:١) وكل ذلك. الا أنه يبدو أن الأمر لم يكن كذلك. ففي سفر التثنية نص يقول أنه:

"حين قسم العلي (العليون، إيل) الأمم. حين فرّق بني آدم (جعل البشر شعوبا) نصب تخوما للشعوب حسب عدد بني إيلوهيم (بني الآلهة) " (تثنية ٣٢:٨)

أي أن العليون، الإله العليّ، إيل، قسّم البشرية شعوباً بحسب عدد بني الآلهة وجعل شعبا لكل إله أو إلاهة. وقد غُيِّرت "بني إيلوهيم" هذه في الترجمة، بغير إمهال أو تدبُّر، إلى

"بني اسرائيل" فصار النصّ غريبا بحق لأن شعوب البشر قُسِّمت حسب عدد بني اسرائيل. وبعد التقسيم،

"كان قسم يهوه شعبه وكان يعقوب حبل نصيبه" (تثنية ٣٢:٩)

ومن الواضح الذي ليس في حاجة إلى ايضاح أو برهنة أن تقسيم البشرية إلى شعوب تبعاً لعدد بني اسرائيل كلام من قبيل الهذيان عديم المعنى. ومن الواضح أن "عدد بني اسرائيل" أُقحمت، على الرغم من لا معقوليتها، لاخفاء "بني إيلوهيم"، أي بني إيل من ابنتيه/زوجتيه، عشيرة ورحمايه/عانات. فذلك بدا للمترجمين أفظع من أن يترجموه فيذهبوا إلى جهنم بسببه، ولذا فانهم أنقذوا أرواحهم الخالدة بوضع "بني اسرائيل" مكان "بني إيلوهيم" وتخلصوا من المأزق وهم في منتهى الطمأنينة إلى أن "بني اسرائيل" هذه مقدسة مبطِلَة للعقل مانعة للتساؤل حتى وان بدا النص بوضعها فيه ملتاثاً.

والأدهى من خطر التنجُّس بذكر "بني إيلوهيم" أن النص قبل التغيير أعطى يهوه مكانة بعلٍ من أبناء إيل الذين وزع إيل عليهم الشعوب، فكان "بنو اسرائيل" من نصيب يهوه.

وبطبيعة الحال، للمترجمين الأتقياء عذرهم. لكن الأمر، على الرغم من ذلك، ليس بكل تلك الغرابة أو الفظاعة متى واجهنا الواقع المؤلم المتمثل فيما لا سبيل إلى انكاره أو طمسه من إدماج لهوية بعل صفون (حدّاد/شدّاد/الشدّاي المكنعَن بوصفه ابن إيل، بعل الكنعاني سيد جبل صفون الذي وافق أبوه إيل على جعله يقيم "بيته" على قمة ذلك الأوليمب الكنعاني استجابة لشفاعة أمه عشيرة) في هوية يهوه في مرحلة مبكرة للغاية من صُنع أسطورية يهوه، بموافقة من "رجل الآلهة" موسى، عملاً على احتواء ذلك البعل وازاحته كمنافس من طريق يهوه. ففي ظل ذلك الدمج لهويتي بعل صفون ويهوه موسوياً لا تثريب على وضع يهوه في نص سفر التثنية قبل أن "ينظفه" المترجمون موضع بعل بن إيل. فوق أنه من المسلّم به الآن أن يهوه عُبد لوقت طويل للغاية في كنعان بعد عملية توفيق العبادات التي اضطلعت بها المؤسسة الكهنوتية اللاوية، باسم "بعل يهوه". كما انه من الثابت، من نصوص التوراة والعهد القديم ذاتها أن "بني إيلوهيم" أولئك لم يجدوا طريقهم إلى نص سفر التثنية هكذا اعتباطاً، اذ أنهم لعبوا أدواراً مهمة للغاية، كما سنرى، في "التاريخ المقدس".

(٢/أ/٨) من إيل أخذت ليهوه صفة "الأب قديم الأيام"

عُبد إيل في الديانة الكنعانية بوصفه الإله الأقدم من كل الآلهة والإلاهات من حيث أنه-باترياركيا، كأتوم في مصر-"الأب" الذي أنجب (أو صنع) الإلاهتين عشيرة ورحمايه اللتين أنجب منهما سائر بنيه وبناته.

وقد كان"تفريقه" البشر ونصبه تخوماً للشعوب التي فرّق البشر إليهـا، كمـا حكى سفر التثنية، بمثابة إجراء حصيف يُعرَف في زماننا باسم "تفويـض السـلطة". فـإيل لـم يعـط لكل إله أو إلاهة من بنيه وبناته شعباً يعبده فحسب (وتبعـا لعمليـة الابتـلاع اليهيـوي أعطى "بعل يهوه" في سياق ذلك سلالة يعقوب، "بنـي اسـرائيل" نصيبـاً لـه)، بـل وفـوض قدراتـه الإلهية إلى من وجده أقدر من بنيه وبناته على ممارستها.

وفي حالة ابنه بعل، نشأت مشكلة تعلقت بالميـاه والـري. فـإيل أصـلاً أقـام "بيتـه" وسط المياه البدئية (مياه "الغمر العظيم" التي بـزغ مـن قلبهـا أتـوم وبـدأ عمليـة الخلـق فـي الصيغة الباترياركية للديانة المصرية، ونفس المياه التي حكى سفر التكويـن أن "روح يهـوه كان يرف عليها" قبل أن يقول "كن فيكون")، هناك في ذلك المكان القصـي، "عنـد منـابع الأنهار". غير أن إيل، بأسلوبه في "حكم الكون"، لم يحتفـظ بقـدرة منـح الميـاه وحكمهـا لنفسه، بل فوّضها إلى إله إبن أثير إلى نفسه هو "يَمّ نهار" أي "مياه النهر". فكان ذلك، بيـن أسباب أخرى عديدة، شرارة أشعلت نيران تمرد خطـير مـن جـانب ابنـه القـوي بعـل الـذي ضاق من مبدأ الأمر بما اعتبره تفضيلاً من جانب الأب إيـل لأخيـه "يَـمّ نهـار" عليـه. وبعـد صراع طويل، رضخ إيل وفوض قدراته الخاصة بالمياه: التحكم فيها، ومنحها للبشر كمطـر أو كأنهار جارية، إلى بعل.

ولتلك المشكلة آثار واضحة قوية في عبادة الآراميـين التـائهين الذيـن اسـتقروا فـي كنعان، وفي حكي سـفر التكويـن. فـالآراميون التـائهون (أي البـدو الرعـاة السـاميون كمـا أسـمتهم التـوراة) عندمـا بـدأوا تيههـم مـن أرض الرافديـن، كـانوا يعبـدون إلـه جـو ومطـر وعواصف ورعود هو حدّاد/شدّاد (الذي جعل في التوراة "الشدّاي" بوصف الشـدّاي هـذه "اسما آخر ليهوه"). وعندما وصلوا وتغربوا في أرض كنعان، وجدوا الكنعانيين يعبدون إلهاً اسمه بعل له نفس الاختصاصات، فأدمجوا في عبادتهم إلههم الأصلي حدّاد/شـدّادفي ذلـك الإله الذي وجدوه ذا شعبية فائقة بيـن مضيفيهـم الكنعـانيين. ولمـا كـانت الديانـة الكنعانيـة جعلت بعل بن إيل ذاك "سيد جبل صفون" (الأوليمب الكنعاني) لكون "بيته" على قمة ذلك الجبل، فإن الوافدين، أي "الآراميين التائهين" باتوا يعبدون إلههم الذي كنعنوه، حدّاد/شدّاد، باسم "بعل صفون". ولما تسربت أعداد منهم إلى شرق الدلتا، في مصـر، واسـتقرت هنـاك في ظل الرعاة الهكسوس الذين تسيدوا علـى الوجـه البحـري وقتـاً، وتفرعنـوا، أقـام أولئـك المتسللون مركزاً لعبادة إلههم المكنعن ذاك، بعل صفون، "بين مجدل والبحـر"، كمـا جـاء صراحة في سفر الخروج، عند بلدة بيلزيوم (تل الفرمة).

من هذه الدرب الطويلة كثيرة التعرجات، دخل بعـل صفـون حكـي التـوراة، تمامـا كما دخل تأثير آخر لصراع بعل وأخيه "يَمّ نهـار" حكـي سـفر التكويـن عـن صـراع قـابين وهابيل الذي انتهى بمصرع هابيل.

إلا أن ما يعنينا هنا أساساً هو وضع إيل كأقدم الآلهة. فذلك الوضع موثّق نصياً بمـا فيه الكفاية في نصوص رأس شمرا، وأيقونياً في لوحات صُوِّر فيها إيـل كـأبٍ جليـلٍ بلحيـة

بيضاء مسترسلة. وقد اقتُبست تلك اللحية ليهوه في الكتابات اليهودية في العصر الوسيط، وأشار اليها بن جوريون ذات مرة عندما سئل عما اذا كان قد آمن بوجود الله فأجاب قائلا "الله! ان السؤال هو: من يكون الله هذا؟ أنا أعرف أن هناك يهوداً، يهوداً كثيرين، يتصورونه رجلا عجوزا ذا لحية بيضاء مسترسلة قاعداً هناك بأعلى على عرشه السماوي"(*) وهو التصور الذي أخذ طريقه إلى الفن المسيحي في الكثير من اللوحات التي صُوِّر فيها الإله بلحية إيل البيضاء المهيبة تلك.

إلا أنه إن كانت لحية إيل لم تجد طريقها إلى صورة يهوه إلا منذ العصور الوسطى من خلال كتابات الربانيين اليهود، فان صفة الأب الأقدم أُخذت ليهوه بغير تأخير وشاعت في نصوص العهد القديم إذ دعي بـ"قديم الأيام" (دانيال ٧:٩ و١٣)، و"إله الدهر" (إشعياء ٢٨:٤)، و"ساكن الأبد" (إشعياء ٥٧:١٥)، و"السائر في مسالك الأزل" (حبقوق ٣:٦).

وكما هو واضح من نصوص التوراة، ظل الإله، المفروض طبقاً لما هو مطلوب أن نصدقه أنه يهوه، "ينزل" إلى الأرض من مسكنه ذاك الكائن في تلافيف الدهر ومتاهات الأزل، مهرولاً، في مناسبات هامة وغير هامة ليعالج مشاكل طارئة وخطرة كبناء "برج بابل"، وانتشار الشذوذ الجنسي في سدوم، ومسائل كهذه. غير أن تلافيف الدهر ومتاهات الأزل كانت، في نصوص التوراة، على رأس الجبل. ولما ضاق يهوه بكثرة النزول والصعود، وغلبه عشقه لعروسه اسرائيل، أمر موسى بأن يصنع له تابوتاً، وسكن ذلك التابوت داخل الخيمة (مثلما سكن إيل معبداً خيمة في بعض نصوص رأس شمرا) "وأقام بين شعبه".

وبهذا، لم يبق ليهوه إلا مسمى "القديم الأيام" الذي شاع استخدامه في القبّالة، وتلك اللحية البيضاء المهيبة التي لم تلق قبولا من بن جوريون.

(٩/أ/٣) الإله العلي باسط السموات ومالكها أُخذَت من إيل ليهوه

كان اللقب "الرسمي"لإيل في العبادة الكنعانية "العليون"، أي الإله العلي، وهو لقب اختُلس ليهوه بلا تردد في محاولة مؤلفي أسفار التوراة تأليف التاريخ إسقاطاً إلى الوراء واختراعاً لـ"توحيد" ابرام/ابراهام بيهوه. وأدلة ذلك الاختلاس جلية في سلسلة حكايات ذلك "الأب"، على النحو الذي استوضحناه من حكي سفر التكوين خلال استعراضنا لبعض حيل ابتلاع إيل.(**)

غير أن الاختلاس لم يتوقف بعد أسفار التوراة، بل شاع في الأسفار الأخرى من العهد القديم كما في سفر إشعياء الذي حُرِّف فيه اللقب قليلا من "الإله العلي" إلى "الإله

(*) ارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص٥٤٢.
(**) ارجع إلى الفصل ٨ أعلاه.

المرتفع"، تماشياً مع وتأكيدا للاكتشاف الكبير الذي وقع في ذلك السفر، وهو كون يهوه "إلهاً محتجبا" لا يُرَى ولا ينزل من السموات العُلى-بعد تاريخ طويل طويل من "النزول" إلى الأرض والتكلم مع البشر" وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه".

وفي هذا أيضا نجد الاختلاس من إيل واضحا بقوة. فإيل وُصِف باستمرار في نصوص رأس شمرا بـ"باسط السموات ومالكها"، وصُوِّر متربعاً على كرسيه (عرشه) فيها، وقيل عنه أنه "مؤسس حقه في تملّك السماء والأرض". وقد أخذ كل ذلك ليهوه، الذي لا سبيل إلى المماراة في أن عبادة "الشعب" له في كنعان لاحقة بمئات السنين لعبادة الكنعانيين إلههم إيل، فوُصِف بأنه "المثبت في السموات كرسيه" (مزمور ١٠٣:٩)، وقيل عنه أنه "ثبت في السموات حقه، فله السموات" (مزمور ٨٩:٢ و١١)، لأنه "صانع السموات بفهم" (مزمور ١٣٦:٥). وكل هذه، كما هو واضح، أوصاف وردت في سفر المزامير الذي لا مجال لانكار كنعانيته.

في نصوص رأس شمرا، وُصِف إيل بأنه، حين رفع السماء (الجَلَد) وبسطها فوق الأرض، "أقام بيته وسط المياه". وتلك المياه السماوية التي أقام فيها إيل "بيته" هي التي قال سفر التكوين أن يهوه، عندما قال ليكن جَلَد، في اليوم الثاني من أيام الخلق، جعل ذلك الجَلَد "في وسط المياه، ليكون فاصلا بين مياه ومياه. ففصل بين المياه التي تحت الجَلَد والمياه التي فوق الجَلَد" (تكوين ١:٦-٨).

و"المياه التي فوق الجَلَد" هي "المحيط الذي في السماء" الذي تصوره العقل القديم في محاولته استجلاء سر سقوط الأمطار "من السماء"، فانتهى إلى أنه لابد أن فوق الجَلَد (أي في السماء) محيطاً وأن المطر ينهمر على الأرض عندما يفتح الإله ساكن السماء "طاقات السماء". وذلك حرفياً ما قرره سفر التكوين في حكيه عن الطوفان في قوله أنه في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني من السنة الستمائة من عمر نوح المديد "انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء فكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة (بالعدد السحري العظيم ٤٠) " (تكوين ٧:١١ و١٢).

وبطبيعة الحال، لم تؤخذ هذه التصورات من الديانة الكنعانية بل من سومر وبابل(*). ومن اللافت للنظر في شأن نوح وأسطورة الطوفان أن سفر التكوين-بدقة متناهية-حدد يوم بداية الطوفان تحديداً جديراً بالأعجاب، في ٢/١٧ من سنة ٦٠٠ من عمر نوح، وأن أسطورة اتراحاسيس تذكر أن الآلهة ضاقت بما أحدثه البشر من ضوضاء أقلقت راحة الآلهة في السماء في سنة ٦٠٠ بعد خلق البشر، فقررت إبادتهم بالطوفان في تلك السنة، وهو ما أخذه المؤلف التوراتي بجعله عمراً أسطورياً لنوح الذي أكد السفر أنه عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة، "فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات" (تكوين ٩:٢٨).

(*) ارجع في ذلك إلى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص١٨٧-١٩٤.

غير أنه وإن كانت حكاية الطوفان وما صاحبها من هذيان في سفر التكوين سُرقت من بابل من أصول سومرية وبابلية، فان فكرة "المحيط الذي في السماء" ووجود "طاقات في السماء" ينسكب المطر كلما فُتِحت فسمحت للمياه التي فوق الجَلَد بالانسكاب على الأرض، كانت فكرة شائعة في عبادات الشرق الأدنى القديم. وقد كان بناء إيل بيته فوق تلك المياه التي فوق الجَلَد، هناك "في المكان القصي الذي تنبع منه الأنهار". ومما يبين أن من اختلس حكاية الطوفان في بابل من أصولها السومرية وصياغاتها البابلية فعل ذلك وفي ذهنه كنعان وإلهها إيل، لا إنليل السومري، أن ذلك المؤلف جعل الحمامة التي أطلقها نوح ليتبين ما اذا كانت مياه الطوفان بدأت تنحسر عن الأرض أم لا تعود إلى نوح وفي منقارها "ورقة زيتون خضراء" (تكوين ٨:١١). والزيتون لا ينمو في أرض الرافدين، ولا على قمة أراراط، بل في كنعان. والثابت الآن، على أية حال، أن "الطوفان" ذكر في نصوص أوغاريت.

والذي يعنينا من كل هذا، فيما نحن بصدده من استجلاء للمسروق من إيل ليهوه، وجود رابطة قوية في أسطورية إيل بينه وبين المياه البدئية (مياه الغمر العظيم كما ذكرت في سفر التكوين) ومياه "المكان القصي الذي تنبع منه الأنهار" (مياه ما فوق الجَلَد في سفر التكوين).

والذي قد يتدخل في الصورة قليلا في هذا الشأن، بعل. فكما سنرى، أخذ بعل قدرة الإله مانح المطر مُحدِث العواصف المُرعِد من أبيه إيل، وتضمنت أسطوريته بجانب قدرة "حكم المياه" الانتصار الباترياركي على تنينة المياه البدئية (تعامة، تيامات، في أسطورية مردوخ، و"الحية المتحوية" لوياثان، في حالة يهوه) التي دُعيت في حالة بعل بـ"تنين" و"لوتان". فالاختلاس ليهوه، فيما تعلق بهذه الأوجه الباترياركية الهامة من أسطورية الإله الذكر المنتصر على الألوهة المؤنثة (كمردوخ وبعل)، كان من أسطورية بعل، لا من أسطورية إيل.

غير أن إيل لم ينج، في تلك الخصوصية المائية، من السطو اليهيوي. فأخذاً من كون إيل باني بيته على المياه البدئية عند منابع الأنهار، وصف يهوه بـ"باسط السموات كستار، المسقّف علاليه بالمياه" (مزمور ١٠٤:٢ و٣)، وقيل أنه "من بيت يهوه يخرج ينبوع ماء ويسقي وادي السنط" (يوئيل ٣:١٨)، وبشكل بالغ المغزى (بالنسبة لاستيلاد مفهوم ملوكية يهوه من ملوكية إيل) جُعل خروج المياه من بيت يهوه علامة علي ملوكيته: "ويكون في ذلك اليوم أن مياها حية تخرج من أورشليم.. (ويصبح) يهوه مَلكاً على كل الأرض" (زكريا ١٤:٨ و٩). وقد وصف يهوه في النبييم بأنه "ينبوع المياه الحية" (إرميا ١٧:١٣).

(٤/أ/٨) إعلاء يهوه فوق إيل و"سمواته القديمة"

ولم يكن من الممكن، وصانعو أسطورية يهوه آخذين في الاختلاس لحسابه بهذا القدر من الجرأة والتوسع من عبادة إيل، ألا يجتهدوا في إعلائه فوق من سلبوه، إن لم يكن لشيء فلطمس ما مارسوه من نهب. وذلك نمط أرساه موسى في أسس الديانة بدأب واصرار. فهو، وقد جعل يهوه يأمر بـ"سلب المصريين" بالحاح في سفر الخروج (٣:٢١ و٢٢، ١١:٢ و٣، ١٢:٢٥ و٢٦)، جعل المصريين البلهاء الذين تركوا "الشعب" يسلبهم، أشرار الحلقة، وجعل يهوه في الحكي يعاقبهم عقاباً رهيباً بـ"الضربات العشر" التي ظل "يغلظ قلب فرعون" لـ"يتمجد بها فيهم"، وأرسى في أسس الديانة التي سرقها من ديانته المصرية وفي صفحات كتابها كراهية مستعرة لمصر أشبه بنار من الحقد لا تنطفئ.

ونفس الشيء فعله موسى بآلهته الحقيقية، آلهة مصر، إذ أنه بعد أن سلبها، ونهب بتوسع وبلا تورّع من ألقابها ولاهوتياتها ورموزها، جعلها في الديانة التي فبركها من ذلك السطو آلهة مذنبة شريرة(*) قبيحة ومذمومة بوصفها أوثاناً، متناسياً تماماً أن معبوده يهوه، عندما سرقه من مديان، كان وثناً حجريا قضيبياً.

وذلك، كما يعرف المعاصرون، نمط بات مؤسسياً في صلب الديانة. فالضحية باستمرار هي المذنبة في كل ما يرتكب في حقها من تجاوزات وجرائم وما يُنهب منها(**). لسبب بسيط وواضح، هو أن عدالة يهوه هي التي تجعل الأمر كذلك. فالضحية-مهما كان البغي الذي يجعلها ضحية منافياً لكل عدل-لم تكن لتصبح ضحية لو كانت متمتعة برضا يهوه. وذلك "منطق" لا حاجة بأحد في شأنه الا للرجوع إلى ما أُترعت به صفحات التوراة وسائر العهد القديم من تبريرات ورعة لأشد ضروب النهب إمعاناً في مجافاة كل عدل وأكثر المذابح إمعاناً في مجافاة كل قاعدة أخلاقية، إنسية كانت أو "دينية".

(*) "ان أولئك الذين يحدون آفاق معرفتهم بتاريخ التطور الأخلاقي للنوع البشري بما يحكيه العهد القديم، يتصورون أن اليهود كانوا منشأ ذلك الرقي الانساني وذروة ازدهاره وأنهم كانوا محاطين بشعوب همجية كافرة بلا إله وقفوا سامقين بينها كنبراس. إلا أنه قبل أن يسمع أحد باليهود مجرد سماع بالآف السنين، كان المصريون، الذين صورهم اليهود كأناس منحطين ودون اليهود رقيا بكثير، قد استحدثوا للعالم نسقا بالغ التطور من الأخلاقيات. والدليل على ذلك ماثل في "قَسَم الإبراء" (الاعتراف بالنفي) المصري الذي اشتقت منه الوصايا العشر.. والواقع أنه كان من الإمعان في القحة والاجتراء أن قبيلة من أشباه الهمج الذي لم يتخطوا مرحلة البداوة سمحت لنفسها بأن تصدر أحكاما كتلك التي نجدها في العهد القديم على شعب صاحب ثقافة عريقة كانت آنئذ تعود إلى آلاف السنين، كما عاين هيرودوتس الذي أرجع وجود آلهة مصر إلى ما قبل زمانه بالعديد من القرون. ونحن، ان توخينا الصدق، واجدون أن مفاهيمنا الزائفة عن مصر ناشئة جزئيا مما نعانيه من جهل، إلا أن الشر الذي ننسبه إلى مصر ودياناتها راجع بكليته إلى الطابع التشهيري الذي اتصفت به الأسطورية العبرانية" (المرجع ٩٤):
Lloyd Graham:"Deceptions & Myths of the Bible", Bell publishimg Co., New York, 1979, pp. 178/180.

(**) وقد استوضحنا أبعاد ذلك تفصيلا بالصفحات ١٢٩ وما بعد.

وذلك سم نُفِث بفضل تكالب آباء الكنيسة على استنزاف نوع ما من المشروعية "الدينية/التاريخية" للمسيحية وهي بعد ديانة ناشئة، من عفونات العهد القديم التي لم يكن من المتصور أن يغفل أولئك الآباء عن مجافاتها للديانة التي كانوا آخذين في تثبيت دعائمها. وفي محاولة كلبية لكف ذلك من أن يفوح، عمدت الكنيسة الكاثوليكية الى حيلة "المجاز والرمزية"، فادّعت أن نصوص العهد القديم لا يجب أن تؤخذ مأخذا حرفيا بل بوصفها مجازاً شعريا وترميزاً تقياً وما إلى ذلك من هراء لاهوتي. لكن تلك الحيلة لم تُجد طويلاً لأن البروتستانتية ما لبثت أن ظهرت كمنافس ضار للكاثوليكية وأعلنت بملء الفم، بالصوت التطهري الأخنّ، أن كل حرف في كل كلمة، من أول كلمة إلى آخر كلمة في العهد القديم "كلام الله" الذي لا يناقض ولا يناقش. ومن ذلك الباب المخيف بحق نفذت إلى طريقة حياة المعاصرين فكرة أحقية "أبناء النور" (التي جعلها الأميركيون بميلهم إلى التبسيط البراغماتي المحبَّب "الأخيار" goodies) في ارتكاب أي جرم مهما عظم في حق "أبناء الظلام" (التي جعلها الأميركيون بنفس التبسيط المحبَّب "الأشرار" baddies)، بغير حاجة إلى أي تبرير أكثر من أن من يُرتَكَب الجرمُ مهما عظم في حقهم أبناء ظلام.(*)

ذلك المبدأ "الأخلاقي" المقلوب رأسا على عقب، الذي أهداه موسى للعالم، طُبِّق بنشاط في شأن الديانة الكنعانية مثلما طُبِّق في شأن الكنعانيين أنفسهم. وذلك طبيعي. لأنه إن كان معمار الديانة ذاته شُيِّد على حجر أساس هو "قرض" أصحاب الأرض ليحل محلهم في أرضهم "شعب يهوه ابنه البكر" لا لذنب الا لأنهم ليسوا "شعب يهوه" وليسوا "غرس لذته"، فإنه كان من أكثر الأشياء طبيعية أن يأخذ "شعب يهوه" ذاك لنفسه آلهة الكنعانيين مثلما استحق أن يأخذ أرضهم لا لسبب الا لأن يهوه "أحب آباء (ذلك "الشعب") واختاره بوصفه نسلهم من بعدهم لكي يطرد من أمامه شعوباً أكبر وأعظم منه ويأتي به (إلى كنعان) ويعطيه ارضهم نصيباً" (تثنية ٤:٣٨). وكان من أكثر الأشياء طبيعية أيضا-بـ"المعيار الأخلاقي" للديانة-أن يحوّل آلهة الكنعانيين بعد أن أخذهم "شعب يهوه" لنفسه وألقى بهم في جوف يهوه، إلى أرجاس وشياطين وأبالسة وقطع من الخشب والحجارة.

و"لاهوتياً" سُجِّل ذلك بجعل يهوه "الراكبَ على سماء السموات القديمة" (مزمور ٦٨:٣٣) أي الراكب على سماء أعلى راكبةٍ على سموات إيل القديمة. وذلك معنى يعززه ويوضحه المزمور ٧٦:٢ بقوله أن يهوه "كانت في ساليم مظلته وفي صهيون مسكنه". و"ساليم" (كما وردت في الترجمة العربية، وصحتها "شاليم") كانت مركز عبادة "العليون"، إيل، الإله العلي، الذي كان الرجل البار، ملكي صادق، الذي بارك ابراما باسم الإله العلي، كبير كهنته. وكانت تسميتها بـ"شاليم" و"شلايم" تبركا باسم ابن إيل "الغسق" (شاليم) الذي أنجبه هو وابنه الآخر "الفجر" ("شَحَر"، أي سَحَر العربية، أي آخر الليل، قبل طلوع الفجر) من مضاجعتيه السفاحيتين لابنتيه عشيرة ورحمايه. أما صهيون، فهي كما

(*) ارجع في شأن هذه الصيغة المميتة إلى كتابنا "المسيحية والتوراة".

نعرف مكمن يهوه في أرض كنعان والموقع الذي أعدّه ليحكم "الشعب" منه العالم ويتسيد على الخليقة فيأكل ثروات الأمم عندما يأتي المسيح المنتظر ويقيم المذبحة الكبرى فتخرج الشريعة من صهيون وينتصب يهوه منتصرا على كل الأرض، من قمة "جبل صهيون" الذي سُرق من جبل صفون، جبل الإله الكنعاني البطل، بعل، ابن إيل.

(٥/أ/٨) محاولة إلباس يهوه لبوس الرحمة والعطف والحنو من إيل

فوراء الديانة كلها، منذ غرس موسى بذرتها، تصور شيزوفراني للألوهة: التعالي والقداسة و"الصلاح" الذي لا مثله صلاح، في شق من الانفصام، والوحشية النارية الدموية المشربة بالجنس في أشد حالاته اشتعالاً وشبقاً، في الشق الآخر. فيهوه، الإله الـ"صالح" القدوس هو المتعاهد من بدء الحكاية على "قرض" شعوب بأكملها لا لسبب الا أنها ليست غرس لذته، وهو المتعهد سلفاً بتوريد نسخة منقحة مزيدة من السفاح يشوع، تحت اسم المسيح المنتظر لاستكمال ما بدأه يهوه من إبادة للشعوب والأمم جميعا في حمام دم كوني شامل وصفه يهوه تفصيلاً للمتنبيء حزقيال قائلا له أن الغرض من ذلك الذبح العظيم أن "أعرف باسمي المقدس في وسط شعبي اسرائيل، ولا أدع اسمي المقدس ينجّس بعد فتعلم الأمم أني أنا الرب قدوس اسرائيل.. وفي هذا اليوم الذي تكلمت عنه، يخرج سكان مدن اسرائيل ويشعلون النار ليحرقوا السلاح والمجان والأتراس والقسي والسهام والحراب والرماح ويوقدون بها النار سبع سنين (ويأتي) كل طائر ذي جناح وكل وحش من وحوش البر من كل جهة إلى ذبيحتي التي أنا ذابحها (من الأمم)، يأكلون الشحم حتى الشبع ويشربون الدم حتى السكر من ذبيحتي. وأجعل مجدي في الأمم وجميع الأمم يرون حكمي الذي أجريته ويدي التي جعلتها عليهم" (حزقيال ٣٨ و٣٩).

هذا المعبود الدموي الذي وصفه ادوارد ماير بأنه "شيطان من شياطين البراكين"، سُرق له من إيل، بين الكثير الذي سُرق من ذلك الإله الكنعاني، لبوس الرحمة والعطف والحنو. فايل عُبد كإله خير لطيف المعشر رفيق بعباده، يستجيب لدعوات من يؤمنون به ويخدمونه ويلوذون برحمته. ومن ألقابه التي استخدمت باستمرار في نصوص أوغاريت "الرحيم"، "العطوف"، الشفوق". وفي سفر التكوين ذاته اشارة إلى طبع إيل ذلك في قول السفر أن أبراما "آمن بالأله العلي (العليون، أي إيل) فحسبه له برا" (١٥:٦)، وهو كلام قاله السفر عن إيل نقلاً، كما هو واضح، من الديانة الكنعانية.

ففي غمار نهب أسطورية إيل ليهوه، ظل هناك اجتهاد واضح-على الرغم من، وعملاً على تعديل، الصورة الدموية الشرسة سريعة الاشتعال بالغضب "اتركني ليحمى عليهم غضبي فافنيهم"- في إضفاء سمات إيل الخيرة الرحيمة عليه. وذلك الاجتهاد، كما هو متوقع، أوضح في سفر المزامير، المكوِّن الكنعاني الذي لاشك في كنعانيته من مكونات العهد القديم، منه في الأسفار الأخرى، ولو أن سفر المزامير لم يخلُ-بطبيعة الحال-ولم

يكن يستقيم أن ترفع منه رقابياً بشكل كامل صورة يهوه الشرس المدمر، كمناداته في المزمور ٩٤: ١ بـ"يا إله النقمات، يا يهوه، يا إله النقمات أشرق"!

غير أن كل ما صدح به سفر المزامير أخذاً عن الشعر الديني "الكنعاني" لم يطمس بطبيعة الحال تأكيد يهوه لموسى وتأكيد موسى "للشعب" أنه يجد من العدل أن "يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والجيل الرابع" (خروج ٢٠: ٥)، وهو ما حاول المحرر تخفيف وطأته باضافة "آية" بعده مباشرة أجراها على لسان يهوه فجعله يعلن قائلاً "(ولكني) أصنع احسانا إلى الوف محبيّ وحافظي وصاياي" (خروج ٢٠: ٦). وهي إضافة أخذت من أسطورية إيل في سياق الاجتهاد الذي أشرنا اليه تعديلاً لسمات شيطان البراكين الموسوي. لكنها إضافة تظل نابية وفي غير موضعها بإزاء "آيات" كهذه: "فوقف موسى في باب المحلة وقال من ليهوه فإليّ (من كان مخلصا ليهوه فليأت) فاجتمع اليه جميع بني لاوي. فقال لهم هكذا قال يهوه إله اسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى. ووقع من الشعب في ذلك اليوم (بسيوف اللاويين) نحو ثلاثة آلاف رجل. وقال موسى املأوا أيديكم (اكسبوا رضا) ليهوه حتى كل واحد بابنه وبأخيه فيعطيكم اليوم بركة" (خروج ٣٢: ٢٦-٢٩).

ذلك الاجتهاد استمر فبلغ ذروته في عصر الملوك وكتابات النبيين التي حاول مجددو شباب الديانة فيها تنظيف صورة المعبود من المذابح الوحشية القديمة وتقديم الأبكار من سن ثمانية أيام ذبائح تحرق على مذبحه بعد التختين مباشرة، ومن بدائية مسألة الانتقام من الأبناء حتى الجيل الرابع جزاء لما ارتكبه الآباء من معاص. وفي سفر المزامير نجد عملية تنظيف الصورة صادحة مرنمة: "أما هو فرؤوف يغفر الإثم ولا يهلك. وكثيرا ما رد غضبه (وكان موسى هو الذي رده اذ خوفه بما قد يقوله عنه المصريون) ولم يشعل كل سخطه متذكرا أنهم بشر" (٧٨: ٣٨ -٣٩)، "وأما انت يا يهوه فإله رحيم وحنون طويل الروح كثير الرحمة" (٨٦: ١٥)، "بمراحم يهوه أغني أبد الدهر" (٨٩: ١)، "فليحمدوا يهوه على رحمته لبني البشر" (١٠٧: ٢٠)، "حنون ورحيم هو يهوه" (١١١: ٤، و١٤٥: ٨)، "إله الآلهة إلى الأبد رحمته" (١٣٦: ١ و٢ و٣).

(٨/أ/٦) محاولة إلباس يهوه لبوس الإله الشافي، من إيل

من مراحم إيل التي تغنى بها عباده الكنعانيون منحه الشفاء لمن يستغيث به من البشر عندما تتحلقهم شياطين المرض. وقد وصف بأنه "ينزل من السماء"، ويدخل إلى المريض في مخدعه ليشفيه إذ "يرتفع سطح البيت" مستقبلاً إياه.

وكما في حالة الاجتهاد في إلباس يهوه لبوس الرحمة والشفقة وهو المعبود الدموي ناري الطبع الذي ظل يهم بإبادة "شعبه" لولا تدخل موسى وتنبيهه إياه إلى ما قد

يقال عنه، وإلى التزاماته قِبل "الآباء"، كان اجتهاد مواز في اقتباس صفة الإله الشافي له من إيل على الرغم من كل "تأريخ" التوراة لغزواته المتتالية المتمثلة في "اطلاق الوباء"، و"خروج الوباء من عنده" وسوقه "الحيات المحرقة" على "الشعب"، وهو تاريخ تلّبث-على الرغم من ذلك الاجتهاد الشفائي-في هذه الوعود الواردة في سفر التثنية: "تبيت جيفتك ("أيها الشعب") طعاما لجميع طيور السماء ووحوش الأرض وليس من يزعجها. يضربك يهوه بقرحة مصر، وبالبواسير، وبالجرب والحكة، حتى لا تستطيع الشفاء (وقد استخدمت في هذا الوعيد ذكرى الأمراض الجلدية والتناسلية المقززة التي طرد "الشعب" بسببها من مصر). ثم يضربك يهوه بجنون وعمى.. ويرد عليك جميع أدواء مصر التي فزعت منها فتلتصق بك. وأيضا كل مرض وكل ضربة لم تكتب في سفر الشريعة هذا يسلط يهوه عليك حتى تهلك. فتبقون نفرا قليلا عِوَض ما كنتم كنجوم السماء في الكثرة" (٢٨:٢٧ – ٢٩ و٦٠-٦٢).

بازاء خلفية ارهابية استخدم فيها سلاح المرض بهذه الكثافة، اتسمت محاولة إلباس يهوه لبوس الإله الشافي الرحيم بالهوتسبا، "البجاحة" المعهودة. والمشاهد، على أية حال، أن موسى-فيما يخصه-لم يحاول ذلك، مفضلاً الاحتفاظ لنفسه، بوَصْفِه "الشامان"، بقدرة الوقوف بين أوبئة المعبود وبلاياه وأمراضه وبين "الشعب". فحيازة تلك القدرة كانت، في حالة موسى، حيوية بالنسبة لتحقيق طموحه الذي لم يجد ما يسعى اليه به إلا تلك الشراذم المبتلاة بقائمة الأدواء التي نجدها تفصيلاً في سفر اللاويين. ولهذا، ظل الشفاء في الجزء الموسوي حكرا لموسى، فهو الذي أنقذ "الشعب" – في الحكي – بالبخور، عندما "خرج الوباء من عند يهوه"، وهو الذي صلى كيما تشفى ميريام من البرص، وهو الذي صنع الحيّة النحاس لينقذ "الشعب" من غارة الحيات المحرقة التي أطلقها عليه يهوه. ولقد ظل موسى محل عبادة بوصفه "الشافي"، مرمّزاً براية الحية النحاس تلك حتى زمن "الملوك". (انظر الشكل رقم ١١ والشكل رقم ١٢).

أما في كنعان، فكانت المقارنات التي ما من شك في أن "الشعب" ظل يجريها بين مراحم إيل التي تغنى بها الكنعانيون، ومن بينها الشفاء، وبين يهوه مانح الوباء، مقارنات خطرة فطن صانعو يهوه في نسخته الكنعانية إلى ما انطوت عليه من تهديد لمزايا المؤسسة الكهنوتية اليهيوية، فلجأوا إلى سرقة ثوب إيل "الإله الشافي" محاولين ستر الوجه الحقيقي لمعبودهم به.

وقد يكون من المفيد-عقلانياً-تأمّل سفر أيوب قليلا من هذه الزاوية. فمن ذلك الوجه، يبدو السفر أشبه بمحاولة تبرير لاهوتية وفلسفية سعياً إلى إخراج يهوه من المأزق الذي أوقعه فيه مؤلفو "الوثائق" عندما ظلوا يجرون على لسانه أقوالاً "إلهية" كهذه (غير ملقين بالاً إلى أنهم، بذلك، صوروه كصبي مدلل غاضب في يده سلاح خطر): "إني أضربهم بالوباء وأبيدهم" (عدد ١٤:١٢)، "في هذا القفر تسقط جثثكم.. في هذا القفر يفنون وفيه يموتون" (عدد ١٤:٢٩ و٣٥)، وعندما ظلوا "يؤرخون" لقدراته

الوبائية: "لأن السخط قد خرج من عند يهوه. قد ابتدأ الوباء.. واذا بالوباء قد ابتدأ في الشعب.. فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفا وسبعمائة" (عدد ١٦:٤٦-٤٩).

وعلى الرغم من أن سفر أيوب قد يكون، من ذلك الوجه الذي أشرنا اليه، محاولة تبرير متفلسفة لظاهرة "الشر في الخليقة"، يبدو أن التصور الراسخ في عقول المؤلفين ليهوه كما صنعه موسى (أي كشيطان براكين مؤذٍ سريع اللجوء إلى كل أسلحة القتل والتدمير) افضى، في ذلك السفر، إلى مفارقة مهزلية مأساوية بعض الشيء.

ففي حين يشكو أيوب مما حط عليه من بلايا، نجد يهوه مجيباً على شكاته "من العاصفة" موبخاً إياه لأنه يشكو، متباهياً أمامه بكل أمجاد بعل. فبعل هو رب العاصفة وهو الذي يسمع صوته من هديرها وهو المرعد الذي يزلزل الأرض ويكسر أشجار الأرز. وبدلا من أن يلقي يهوه أدنى بال لشكاة الصالح المبتلى أيوب ("كل حكيم القلب لا يراعى") ينطلق يهوه غير عابئ مجلجلاً بنشيد نرجسي بلا حدود الغرض منه اقناع أيوب المسكين الذي لم يطلب الا الشفاء مما وجد نفسه غير مستحق إياه من بلايا، بأنه أحقر من أن يشكو. لماذا؟ هذا ما يوضحه له يهوه:

> "أين كنت أنت حين أسست (أنا) الأرض؟ أخبر ان كان عندك فهم. من وضع قياسها؟ أو من مد عليها مطمارا؟ على أي شيء قرّت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبح وهتف جميع بني إيلوهيم؟ ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم؟ (أنا) جعلت السحاب لباسه والضباب نماطه. وجزمت عليه حدّي وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتي ولا تتعدى وهنا تتخم كبرياء لججك.
> " (أيوب ٣٨:١-١٠).

ولا غرو إن وجد الربانيون بعد ذلك ضرورة إلى القول في التلمود بأنه لم يوجد انسان حقيقي اسمه أيوب وأن السفر كله "كتابة". ولكن كتابة عن ماذا؟ والأهم، كناية عن ماذا؟ باستخدام أسطورية من؟

الواضح من لغة السفر وأسطوريته وتصوراته أن ثوب إيل الإله الشافي وُجد فضفاضاً أكثر مما ينبغي على يهوه، فسُتِر يهوه بأردية بعل. فكل الأمجاد التي جُعِل يهوه يتباهى بها في سفر أيوب ليجعل ذلك المبتلى المسكين يجاوبه مستسلما" ها أنا حقير فماذا أجاوبك؟ (أيوب ٤٠:٤)، انما هي أمجاد بعل: "من فرّع قنوات للهطل وطريقا للصواعق ليمطر على الأرض التي ليس فيها انسان، على القفر الذي ليس فيه أحد؟ هل للمطر أبٌ ومن وَلَد مآجل الطل؟.. أترفع صوتك إلى السحب فيغطيك فيض المياه؟ أترسل البروق فتذهب وتقول لك ها نحن؟ " (أيوب ٣٨:٢٥-٢٨ و٣٤ و٣٥)، "هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو في مقصورة الغمر تمشيت؟ " (٣٨:١٦)، "أتصطاد لوياثان (التنين لوتان الذي

قهره بعل) بشص أو تضغط لسانه بحبـل؟.. هـل تحفـر جماعـة الصيـادين لأجلـه حفـرة أو يقسمونه بين الكنعانيين؟ " (٤١: ١ و٦).(*)

فالمرض والقوة البدائية الماحقة ظلا أسلوب يهوه الذي صنعه لـه موسى وشـحذته عبادة بعل في كنعان ترويضاً لـ"شعبه" صلب الرقبة. ومع ذلك، لم تخلُ أسفار العهد القديـم من محاولات متخاذلة عابرة للتمسك بصفة "الشافي" ليهوه، كقول إرميا "اشفني، يا يهوه، فأشفى" (١٧: ١٤)، وقول إشعياء أن يهوه أمره قائلا "ارجع وقل لحزقيا رئيس شعبي هكـذا قال يهوه إله داود أبيك: قد سمعت صلاتك. وقد رأيت دموعك. هأنذا أشـفيك" (الملـوك الثاني ٢٠: ٥).

(٨/أ/٧) أبوَّة يهوه لإسرائيل محبوبته وعشقه إياها أخذا عن إيل

كـانت صفـة إيـل الرئيسـية فـي الديانـة الكنعانيـة كونـه "الأب". فهـو أبـو الألهــة والإلاهات جميعا، وفي الوقت ذاته، أبو البشر. وعلى عكس الصورة التي صور موسـى بهـا يهوه مغلّبا فيها أصله البركاني (سرعة الغضب-الهياج-النيران-التدمير والإبادة) على الأصـل القضيبي، فجعله إلهاً مصاباً بخوفٍ مرضي (فوبيا) حتـى مـن "التخمّـر" لمـا فيـه مـن شـبهة الفساد، وبالتقزز من مخلوقاته الفانية التي من لحم مآله الفساد (تكوين ٦: ٣)، سريع الإفناء لها كما جعله من ألفوا التوراة بعد موسى بقرون يفني كل حـي (إلا الأب الثـاني بعـد آدم، نوح وأسرته) بجائحة الطوفان، وجعلوه لا يكف عن التهديـد بإفنـاء "الشـعب" ذاتـه طـوال سِفريّ "الخروج" و"العدد"، ثم عادوا فأكدوا كل ذلك في سفر "التثنيـة"، الـذي أُلـفَّ فـي عصر السبي وعُزي إلى موسى عن طريق إرجاعه إلى زمن يوشيا لـ"يكتشـفه"-علـى عكـس صورة يهوه هذه، صوّر إيل كأب عطوف محب لأبنائه البشر، لا مانع لديـه مـن "السـكنى" بينهم في بيوتهم، متفهم لضروب حماقتهم وصنوف ضعفهم الإنساني.

والملاحظ أن صفة "الأبوة" لم تؤخذ ليهوه الا في عصور متأخرة عن زمـن موسـى بوقت طويل، بعد استقرار شراذم موسى ونسلها مع "أقربائهم" الذين كانوا قد سبقوهم إلـى الاستقرار، في أرض كنعـان. وحتـى آنـذاك، قصـرت تلـك الأبـوة، فـي حالـة يهـوه، علـى "شعبه". ففي النصوص التوراتية المبكرة، لم يرد ذكر لأبوة الا في القول الـذي أُجـري علـى لسان يهوه بأن "اسرائيل ابنه البكر" (خروج ٤: ٢٢) وهـو قـول مـن الأرجـح والأصـح أنـه

(*) وفي هذه الزلة الكاشفة عن الأصول الكنعانيـة، يوقفنـا تحـدث يهـوه عـن جماعـة الصيـادين و"حَفـر حفـرة" لاصطيـاد التنيـن (لوتـان الكنعـاني، لوياثـان اليهـوي) و"تقسيمه بيـن الكنعـانيين"، علـى الأصـل التمساحي لذلك "التنين". فالتماسيح وُجدت في كنعـان، وبـالأخص الجـزء السـوري مـن تلـك الأرض، وكان السوريون يصطادونها بتلك الطريقة التي أوقفنا عليها يهوه، وبـ"الشص" الذي قال في موضـع آخـر أنه يغرسه في فك "لوياثان" أو "فيِّ حرشفه"، ويوزعون لحمه فيما بينهم. من ذلك التمسـاح، ومـن لوتـان الكنعـاني، ومـن تعامـة البابليـة، رُكِّـب خصـم يهـوه لوياثــان، وأُسـبغت هويتـه باسـم "رَهَـب" علـى التمساح/فرعون وعلى مصر.

أقحم على النص الأصلي ابان عملية تحرير النصوص، فهو لا يتردد الا في سفر التثنية: "أنتم (يا بني اسرائيل) أولاد إلهكم يهوه" (١٤:١)، وفي أسفار النبييم: "يا يهوه، أنت أبونا" (إشعياء ٦٤:٨)، و"أيها البنون العصاة ارجعوا إلى (أبيكم) يهوه" (إرميا ٣:١٤).

وكما أُخذت صفة الأب ليهوه من إيل، أُخِذ له لقب "المقتني". فلقب إيل في نصوص رأس شمرا، "مقتني البشر"،أُطلِق على يهوه في سفر التثنية: "أليس يهوه أباك ومقتنيك (يا "شعبه"؟ (٣٢:٦)، كما استخدِم، عند تأليف سفر التكوين في تسمية قايين. فحواء، عندما ولدت ذلك الإبن، قالت أنه دعي قايين لأنها "اقتنت رجلا من عند الرب" (تكوين ٤:١).

وعلى صعيد آخر، أُخذت ثيمة تمرّد "ابن يهوه البكر" على "أبيه" من بنوة بعل المتعبة لأبيه إيل. ففي نصوص أوغاريت، صوّر إيل محباً لمخلوقاته الفانية، ولأبنائه وبناته من آلهة وإلاهات، بغير محاباة. الا أن غيرة بعل مما تصور أنه تفضيل من جانب إيل لأخيه "المتحكم في المياه"، يمّ نهار، دفعته إلى التمرد على أبيه، كما جعلته-في النهاية-يقتل أخاه. وفوق أخذ غيرة بعل من يمّ نهار وقتله إيّاه لحكيها في التوراة عن قايين وغيرته من أخيه هابيل وقتله-في النهاية-إياه، أُخِذت ثيمة التمرد هذه فجُعِلت في الحكي التوراتي "صلابة عنق ابن يهوه البكر" شعبه العاصي كثير التمرد على أبيه، وهي ثيمة وصلت إلى النبييم فعبرّ عنها هوشع بإجراء هذا القول الغريب على لسان يهوه: "لما كان اسرائيل غلاما أحببته. ومن مصر دعوت ابني .. كنت أجذبهم برُبُط المحبة (لكنهم زاغوا) " (هوشع ١١:١ و٤).

غير أن الآثار العميقة والواسعة التي أحدثتها عملية توفيق العبادات من خلال الاستقرار في كنعان بين عبادة يهوه كما صاغها موسى وحمَلها إلى كنعان من ساروا معه في القفر وبين ما كان من سبقوا تلك الشراذم اللاوية والآبقة إلى الاستقرار قد استوعبوه من العبادة الكنعانية، لم تتوقف عند تلك الاقتباسات من إيل وبعل ليهوه، بل نفذت إلى نخاع الديانة ذاتها فطغت على تصوير موسى لمعبوده يهوه ذلك التصوير البركاني الناري "شديد القداسة". وقد كان من أسهل الأشياء أن تبرز من وراء أستار "النيران الآكلة" التي أسدلها موسى، الهوية القضيبية الأصيلة ليهوه إذ اتفقت وتناغمت مع قضيبيّة "البعليم" (آلهة كنعان) وعبادتهم التي لم تكن قد ابتليت بمثل ما حاول موسى بثه في عبادة يهوه-طمساً لهويته القضيبية-من "تطهّريّة" مبكرة بدت أعراضها جلية في الصياغة الكهنوتية-سيراً على خطى التوجه الموسوي-لحكاية آدم وحواء والعُري التي بلغت ذروتها في هذيان "الخطيئة الأصلية".

ففي أسطورية الخلق الكنعانية لم يكن مجال لمثل تلك التطهّريّة. والواقع أن نجاة الديانة الكنعانية من ذلك الوسواس الغريب ظلت المنفذ الذي نفذ منه النبييم إلى التستر على عملية توفيق العبادات، فرفعوا أصواتهم بالإدانة "لتسيُّب" الممارسات الدينية الكنعانية، في

معرض تخندقهم ذوداً عن مبدأ "يهوه وحده"، وطمرهم في رمال تلـك "الوحدانيـة" لقائمـة طويلة وحافلة من المسروقات الدينية.

في الأسطورية الكنعانية كما وردت فـي نصـوص راس شـمرا، يسـتهل إيـل عمليـة الخلق (التقليدية في ديانات الشرق الأدنى القديم في مرحلتها الباتريار كية) بـ"عمـل إلاهتيـن أنثيين" فوق النار، عند مياه البحر". وبعد أن يخلق هاتين الإلاهتين من ذاتـه، يأخذهمـا إلـى "بيته" عند منابع الأنهار (ينابيع الغمر) وهو موزع بين رغبتين: رغبة إبقائهمـا عذراويـن، أي عاقرتين، وبين مضاجعتهما والانجاب منهما. وفي النهاية يضاجعهما وينجـب ابنيـه الأوليـن منهما: "شاليم" (الفجر)، و"شَحَر" (الغسق).

من مضاجعة إيل لابنتيه عشيرة ورحماية اللتين باتتا زوجتيه، وانجابه منهمـا، نبعـت ثيمة مضاجعة المحارم التي طغت بقوة في تصوير التوراة لخلق البشر وفي قصص " الآبـاء"، ونضحت بقوة وغزارة من نسيج أسفار التوراة وسائر أسفار العهـد القديـم ابتـداء مـن تدلّـه الإله العاشق يهوه في حب ابنته حبيبة نفسـه اسـرائيل. فيهـوه يخـاطب تلـك الابنـة الحبيبـة المتعبة اللعوب قائلا "وقلت تدعينني يا أبي ومن ورائي لا ترجعين"، وفي "الآية" التالية رأساً يقول أن تلك الابنة المعشوقة، اسرائيل "خانته كما تخون المـرأة زوجهـا (بعلهـا) " (إرميـا ٣: ١٩ و٢٠).

وكما نضح ذلك التأثير الكنعاني في أسـطورية يهـوه التـي بـدا واضحـاً أن الكنعنـة أنعشت فيها بقوة الهوية القضيبية لذلك المعبود مما تولـد عنـه مـا شـاع فـي أسـفار العهـد القديم من جنس، سواء في الحكي، أو في التصورات، أو في اللغة، أُخِذت حكاية مضاجعة إيل لابنتيه فصيغت منها في التوراة حكاية حريفة عن اغـواء ابنتـي لـوط لأبيهمـا بعـد سـقيه خمراً ومضاجعتهما إياه وانجابهما شعبين منه (تكوين ١٩: ٣٠-٣٧).

(٨/أ/٨) تعزيز الملوكية التي سرقت ليهوه من أوسير بالملوكية التي سرقت له من إيل

أيا كانت ضروب السرقة والاقتباس من إيل ليهوه، وأيا كان اتساعها وعمقهـا، فـي سياق عملية ابتلاع ذلك المعبود الكنعاني، تظل مسألة "الملوكية" من أهـم تلـك السـرقات وأظهرها في صنع الإله/الملك يهوه.

فمما لاشك فيه أن يهوه، عندما اختلسه موسى من المديانيين، لم يكن "ملكاً"، أي لم يُعبَد بوصفه "الإله/الملك"، بل عُبد كوثنٍ جُسِّد فيه شيطان بركـاني مـانحَ خصـبٍ أقـام المديانيون شعائرهم البدائية الخشنة أمامه كعمود حجري (وهـي خاصيـة تلبثـت رغـم كـل شيء في وصف موسى والنبييم ليهوه بـ"صخرة اسرائيل") أو كــ"ذكـر" (كتلـك "الذكـور" التي ادعى حزقيالٍ أن يهوه استاء كثيرا من صنعها من ذهبه وفضته ووضعها علـى مذبحـه)، أي كقضيب مختن منتصب.

وبطبيعة الحال، يظل العهد القديم، بين كتب الأديان جميعاً، النمط الطرزبدئي في المراوغة والإتاهة، والمؤلّف الذي لا قرين لأستاذية مؤلفيه محرريه في الهرب والإفلات من المآزق "اللاهوتية". إلا أنه قد ظلت في نسيجه الحَكَوي ثقوبٌ متناثرة هنا وهناك يمكن- بشيء من التأني وإمعان النظر- الوقوف على ما ورائها.

من ثقوب العهد القديم الكاشفة هذه، حكاية بالغة الدلالة في سفر الخروج لم يحسن المحررون رتقها فظلت كاشفة عن أصل يهوه المدياني. وكل ما فعله المحرّر وساعده عليه المترجمون حيال ذلك الثقب الكاشف أنه موّه الحكاية بوضع لفظة الله، بكل ما تحمله اللفظة إلى الذهن من تداعيات- مكان اسم يهوه في قوله أن "يثرون كاهن مديان (أي كاهن يهوه معبود مديان) حمو موسى، سمع بكل ما صنع "الله" (ما صنع إلهه يهوه) إلى موسى (وعملاً على زيادة التأكيد:) وإلى اسرائيل "شعبه" (أي "شعب يهوه") "(خروج ١٨:١).

ذلك رغم أنه لا وجود في التوراة أو في أي سفر من أسفار العهد القديم لأي نص يدعي أن ذلك الكاهن المدياني يثرون عَبَد "الله" أو تكهن لـ"الله" بالمعنى الذي أُريد الايحاء به من خلال إحلال لفظة "الله" محل اسم "يهوه" في النص. والثابت- علمياً وآثارياً- أن المديانيين العرب لم يكونوا يعبدون "الله"، بل كانوا يعبدون معبوداً بركانياً سجدوا أمامه مُمثلاً في وثنٍ قضيبيّ دُعي بـ"ياهو" أو "يهوه". والثابت أيضا- من حكي التوراة ذاته- أن "الله" لم يكُن معبود المديانيين وإلا لما أمر موسى- حسب الحكي- بإبادة أولئك المديانيين عن بكرة أبيهم لأنهم ظلوا "يكيدون لبني اسرائيل في أمر بعل فغور". و"بعل فغور" لم يكن معبود المديانيين، بل كان معبوداً للمؤابيين عبده المديانيون باسم يهوه. ففي الأمر، كما نرى، حيلة. خدعة صغيرة أخرى من خدع العهد القديم الطيبة المستخدمة في إرباك الصورة. لأنه في حين يخبرنا سفر الخروج أن يثروناً فرِح كثيرا للخير الذي صنعه "الله" لموسى ولـ"شعبه اسرائيل"، كما لو كان "الله" ذاك إلهاً شارك يثرون موسى واسرائيل عبادته، يخبرنا سفر العدد أن يثروناً وقومه كانوا أشراراً يكيدون لموسى واسرائيل مكائد سيئة بذلك الإله الرديء بعل فغور، ويؤكد سفر العدد ذلك بجعله قرار إبادة المديانيين الصادر إلى موسى من "الله" (أي من يهوه) حاسماً إلى درجة جعلت موسى "يسخط على"جنرالاته" وعلى جيشه (الذي يوحي النص بأنه كان قد نُظم تنظيماً حديثاً على نسق الجيش الروماني) لأنه تبين بعد المذبحة أن بني اسرائيل ذبحوا الرجال فقط من قوم حميه يثرون وأبقوا على النساء والأطفال "فقال لهم موسى هل أبقيتم كل أنثى حية؟ إنهن كن لبني اسرائيل فخاً سبب خيانة للرب (يهوه) في أمر بعل فغور، فكان الوباء في جماعة الرب. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال. وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها. أما جميع البنات والنساءً اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر فابقوهن لكم حيّات" (عدد ٣١:١٤-١٨).

فطبقا لتعليمات موسى، كان سيتعين على "الشعب"، بعد أن يذبح كل الأطفال الذكور أمام أمهاتهم، أن "يكشف" على النساء المديانيات، فكل من وجدها ثيباً، ذبحها، وكل من وجدها بكرا استبقاها سبيّاً.

والواضح من كل ذلك أن المديانيين الذين ارتُكبت في حقهم تلك الوحشية الدموية بأمر من "صانع الشريعة"، موسى على الرغم من أنهم آووه وزوّجه كبير كهنتهم إحدى بناته، لم يكونوا عباد "الله"، وإلا لما أصدر "الله" أوامره إلى موسى بارتكاب تلك الفظائع فيهم. وهو ما يبرر التساؤل، من كان اذن "الله" الذي سمع يثرون حمو موسى بكل ما صنعه إلى موسى وإلى اسرائيل شعبه؟ ومن كان "الله" الذي فرح يثرون وقد أقبل ومعه ابنته صفورة امرأة موسى وابنيها من موسى "بجميع الخير الذي صنعه ذلك الإله لاسرائيل اذ أنقذه من أيدي المصريين ومن يد فرعون" (خروج ١٨: ٢ و٩)؟

ما لم نتخل عن العقل تماما، كان ذلك الإله بغير شك، بالنسبة ليثرون "كاهن مديان" إلهه يهوه الذي كان قد علّم موسى عبادته أثناء اقامته معه زوجاً لابنته في مديان. ومهما استمات المؤلف والمحرر والمترجمون في إقناعنا بأنه "الله" هكذا على علاته، لاشك في أن يثرون عندما "فرح بما فعله إلهه" ذاك لزوج ابنته موسى ومن معه ذهب إلى موسى "في البرية حيث كان نازلا عند جبل الله" (خروج ١٨: ٥) فرحا، ليقول له: ألم أقل لك؟ إن الرب الذي علمتك عبادته، يهوه "أعظم من جميع الآلهة" (خروج ١٨: ١١)، ثم أخذ بعد ذلك يلقنه أصول التكهن "الآن اسمع لصوتي فأنصحك. ليكن يهوه معك. كن أنت للشعب أمام يهوه. وقدم أنت الدعاوى إلى يهوه. وعلمهم الفرائض والشرائع وعرِّفهم الطريق الذي يسلكونه والعمل الذي يعملونه" (خروج ١٨: ١٠ و٢٠) أي علّمهم ما علّمتك اياه في مديان من فرائض يهوه وطقوس عبادته، وهو ما أضاف اليه المحرر طبعاً "والشرائع" صونا لصفة "اعطاء الشريعة". وتخبرنا التوراة أن موسى "سمع لصوت حميه وفعل كل ما قال" (خروج ١٨: ٢٤). فالحكاية، رغم المراوغة، كاشفة عن أن يهوه أُخذ من مديان. وهو، عندما أخذه موسى من المديانيين، لم يُعبَد كـ"ملك". لكنه في كنعان عُبِد- بكل تأكيد- بوصفه "الملك يهوه".

ولقد كان ذلك من أكثر التطورات طبيعية عندما أجريت عملية توفيق العبادات إثر وصول اللاويين والعبيد الآبقين إلى أرض كنعان. فالذين وصلوا كنعان ممن ساروا مع موسى كانوا، بفضل بعل صفون،(*) مهيئين لتقبل فكرة ملوكية الإله، تماما كمن كانوا قد استقروا في كنعان من البدو الساميين الذين "تغربوا في الأرض". فموسى، كما أسلفنا، كان قد أعطى مباركته لإدماج هوية حدّاد/شدّاد/الشدّاي/ بعل صفون في هوية يهوه، وكانت أسطورية ذلك المعبود السومري الذي كُنعِن قد أسبغت عليه الملوكية بوصفه تجلّ للإله/

(*) ارجع في شأن ملوكية حدّاد-بعل صفون إلى "قراءة سياسية للتوراة" ص ص٢١٦-٢١٨.

الملك إيل، فوق أن أسطورية أوزيريس، التي كان موسى قد نهب منها بتوسع في نسجه لأسطورية يهوه، كانت منطوية على "ملوكية" المعبود.(**)

وفيما تعلّق بمن التقى بهم من كانوا مع موسى ووصلوا أرض كنعان من لاويين وعبيد آبقين، في أرض غربَة "الآراميين التائهين" المضيافة تلك، كان أولئك البدو الساميون قد لُقِّنوا من وقت طويل، بحكم عبادتهم لآلهة كنعان التي أسبغوا هوية بعل من بينها على معبودهم الأصلي حدّاد، أن إيل هو الأب الإله، وهو الملك. فقد صُوِّر إيل باستمرار جالسا على عرشه وأمامه وحوله "مجلس الآلهة"، "الكيدوشيم" (أي القدوسين التي قُلِبت بخفة يدٍ تقيةٍ فيما سرق ليهوه عند ترجمة النصوص إلى العربية فجلعت "القديسين"). غير أن ذلك التحايل الورع على ما نطقت به النصوص لم يجدِ. فقد بات من الواضح، بعد خروج نصوص رأس شمرا إلى ضوء النهار، أن "قديسي" يهوه أولئك ليسوا إلا "كيدوشيم الكديش العليون"، أي قدوسي القدوس العلي إيل، لا "القديسين" بالمضمون المسيحي الذي لاذ به المترجمون هربا من المشكلة.

وهي مشكلة عويصة بحق لا يُلام المترجمون أو المحررون على محاولة الإفلات منها بقدر واضح من الهرولة اللاهوتية، ولو أن المرء لابد أن ينصت في النهاية إلى ذلك الصوت الصغير الصفيق الهامس دائما: "ولكن علامَ الهرب والهرولة؟ هل الحكاية مؤامرة كذب اشترك فيها المؤلف وتواطأ عليها المترجم أيضا؟ "

إلا أنه، أياً كانت الإجابة على ذلك السؤال الذي لا يبدو أن هناك من سيجيب عليه إلا بعينين زائغتين ووجهٍ محتقن بالأيمان، لاشك فعلاً في أن أولئك "الكيدوشيم" مشكلة عويصة. فهم عندما استنسِخوا من قاعة عرش إيل كانوا "بني إيلوهيم"، من حيث أن إلهاً وإلآهتين، هم إيل وابنتيه/زوجتيه عشيرة ورحماية هم الثالوث الكنعاني الذي أنجبهم، وبذا دعوا "بني الآلهة"، "بني إيلوهيم".

وقد رأينا كيف غُيِّرت "بنو إيلوهيم" هذه في ترجمة نص سفر التثنية ٣٢:٨، بلا أدنى تردد، إلى "بني اسرائيل"، بصرف النظر عن مدى عبثية القول.

وفي مواضع أخرى، حُوِّلت تسمية "بني إيلوهيم" أي "بني الآلهة"، إلى "أبناء الله". ففي سفر التكوين نجد أنه "حدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن بني إيلوهيم، أي بني الآلهة رأوا أن بنات الناس حسناوات فاتخذوا لأنفسهم منهن نساء.. واذ دخل بنو الآلهة على بنات الناس، ولدن لهم أولادا. هؤلاء هم الجبابرة (العمالقة) الذين منذ الدهر ذوو اسم" (٦:١ و٢ و٤).

وعند ترجمة النص، حُوِّلت تسمية "بني إيلوهيم"، أي بني الآلهة، إلى أبناء الله بصرف النظر عن أن التوراة أكدت لاجنسية الإله وأنه لا يتزوج ولا ينجب بل وأنه تباعد

(**) ارجع في شأن البُعد الملكي في عبادة أوزيريس إلى المرجع السابق نفسه، ص ص٢٥٢-٢٥٦. وارجع في شأن "الإله/ الملك وعرشه إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٦-٢٤٨.

مترفعاً على كل تلك المسائل قائلا "لا يدين روحي في الانسان لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة" (تكوين ٦:٣) أي لأن الانسان عندما وقع في معصية الجنس (الخطيئة الأصلية) بات مخلوقاً فانياً لا تطول حياته لأكثر من مائة وعشرين سنة. وهو ما لا مهرب من أن يثير التساؤل: من أين جاء" "أبناء الله" الأشقياء الذين أغواهم جمال بنات البشر فضاجعوهن وأنجبوا منهن العمالقة الذين كانوا منذ الدهر ذوي اسم؟

والسؤال الآخر الذي يطرحه إيحاء الحكي التوراتي بأن تلك "الفضيحة" التي تسبب فيها ولع "أبناء الله" بالنزول إلى الأرض لقضاء وقت طيب مع بنات البشر كانت من الأسباب التي دفعت يهوه إلى اتخاذ قراره بافناء الانسان ومحو الحياة عن وجه الأرض بالطوفان، هو: كيف تأتي و"ديّان كل الأرض" (تكوين ١٨:٢٥) يعلم أن بنات البشر لم يكن بوسعهن التمنع على "أبنائه" أن "ديان كل الأرض لم يصنع عدلا" (كما قال أبراهام للإله مستنكرا)، فقرر أن يبيد الجانب الضعيف وصرف نظراً عن معاقبة الجانب القوي، "أبناء الله"؟

فمن الواضح، متى وصلنا إلى سفر أيوب، أن "أبناء الله" أولئك لم يمسهم سوء، بل كانوا في خير حال في بلاط أبيهم: "وكان ذات يوم أن بني إيلوهيم (وقد حوّلت هنا أيضا بغير إمهال إلى "أبناء الله"، رغم عدم توافر أي نص ما بين سفر التكوين وسفر أيوب يشير إلى أن يهوه كان قد عدل عن فكرة الامتناع عن إنجاب الأبناء) جاءوا ليمثلوا أمام يهوه، وكان الشيطان أيضا في وسطهم" (ايوب ١:٦). ويبدو أن يهوه كان معتاداً أن يجد الشيطان داخلاً اليه في بلاطه بين "أبنائه"، لأنه في سفر ايوب لم يطرد ذلك اللعين من حضرته، بل باسطه الحديث برقّة سائلا إياه "من أين جئت؟ فأجاب الشيطان يهوه قائلا من الجَوَلان في الأرض ومن التمشّي فيها" (أيوب ١:٧).

وإن شئنا الحق، لا يلومن مؤلفو الأسفار المقدسة إلا أنفسهم في شأن هذا المأزق السماوي الذي بات محرجاً للغاية عندما أخذت الديانة تتشح بمسوح التوحيد وتضع على رأسها تاج الوحدانية. والمؤلفون لا يجب أن يلوموا أحداً إلا أنفسهم لأنهم سرقوا بلا تورع من الديانة الكنعانية سائرين على خطى موسى في سرقاته من الديانة المصرية. فـ"أبناء الله" المتعبون أولئك ليسوا الا كيدوشيم إيل، أي مجلس الآلهة، أو مجمع القدوسين الذين صُور إيل جالسا أمام أفراده على عرشه الأبوي الملكي والذي سُرق ليهوه بشكل لم تتوقف محاولات طمسه والتمويه عنه بمختلف الحيل إلى أن انتابت الكاهن اليهودي الذي دعي باسم يوحنا اللاهوتي نوبة من الحماس الديني الفائق الحد فأعلن أنه أُصعد إلى السماء في الروح "وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس. وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد. وحول العرش أربعة وعشرون عرشا. ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخا جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب. ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات" (رؤيا يوحنا

اللاهوتي ٤:١-٥)[*]. وبهذيانه هذا، كشف "اللاهوتي" عن هوية "أبناء الله" أولئك، فاذا بهم "مجمع الكيدوشيم" الذين كان عددهم سبعين في بلاط الملك/ الإله الكنعاني إيل، واختلسوا ليهوه فاختار المؤلفون والمحررون والمترجمون في تسميتهم بأسماء لا تكشف عن حقيقتهم. وفي الوقت ذاته، ظل سفر المزامير ينبّهنا إلى هويتهم. فيهوه حل محل إيل وترأس مجمع الكيدوشيم بوصفه "أعظم الآلهة"، و"الملك بين الآلهة": "يهوه قائم في مجمع الله (؟!) في وسط الآلهة يقضي" (مزمور ٨٢:١)، "لأنه من في السماء يعادل يهوه؟ من يشبه الرب من أبناء الله؟ إله مهوب جدا في مؤامرة القديسين (مجمع القدّوسين) ومخوف عند جميع الذي حوله" (مزمور ٨٩:٦ و٧)، "لأن يهوه إله عظيم. ملك كبير على كل الآلهة" (مزمور ٩٥:٣)، "الرب يموه قد ملك.. هو جالس على الكروبيم" (مزمور ٩٩:١).

و"الكروبيم" (التي موّهت بـ"الملائكة")، تماماً كثيران يربعام الذهبية، تماثيل شعائرية من عدّة العبادات الكنعانية. فإيل وابنه بعل دعيا بـ"الثور إيل" و"ثور أبيه بعل"، مثلما دعي يهوه من خلال ادماج هوية بعل صفون في هويته، مما جعل هرون ومن معه ينتهزون فرصة غياب موسى في خلوته اليهيوية على رأس الجبل فيصنعون "عجلاً ذهبياً" ويرقصون حوله مهللين معربدين قائلين "هذه آلهتك يا "اسرائيل" التي أصعدتك من مصر" وجعل يربعام يضع ثوريه الذهبيين ليعبد "الشعب" يهوه ممثلاً فيهما. وكذلك كانت الحال تماما فيما تعلق بـ"الكروبيم" (جمع "كروب"). فتلك الكائنات شهية اللحم الأنثوية (وأحيانا الصبيانية) المجنحة المجسّدة بتماثيل من ذهب، كانت، هي أيضا، من رموز عبادة إيل. وعندما حاول حزقيال أن يطمس هويتها الكنعانية ردّها إلى أصولها السومرية فجعلها "شبه انسان لكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة، وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم العجل .. أما شبه وجوهها فوجه انسان ووجه أسد لليمين لأربعتها، ووجه ثور للشمال لأربعتها ووجه نسر لأربعتها" (حزقيال ١:٥-٧ و١٠).

في استقصائه للتاريخ المبكر ليهوه، يقول مارك سميث(٧) أن التقليد الكنعاني الذي استنسخه بنو اسرائيل في مجمع الآلهة (أي مجلس القدوسين) صُبِغ إذا استنسِخ بصبغة البلاط الملكي وطُوِّر باستمرار تبعا لأوضاع البلاط التي سادت في عهد كل ملك، بدءاً من شاول. وفي نفس الوقت، يلاحظ برتلر(٨) أن تأثير العصر الملكي في "اسرائيل" كان قويا في تشكيل ملامح المجلس السماوي.

ويشير سميث إلى أن الأدوار في ذلك المجلس (حشد الآلهة والإلاهات المحيط بالمعبود الرئيسي أو الإله الأب) لم تكن أدواراً معينة فردياً، لا في الأدب الديني الكنعاني، ولا في الأدب الديني الذي استمِد منه لبني اسرائيل، ولكن باستثناء واحد ملحوظ في حالة العهد القديم، هو "رئيس جند يهوه" الذي أُظِهر، في حالة السفّاح، عملاً على إعلائه

---

[*] ارجع في ذلك إلى كتابنا "المسيحية والتوراة" ص ص٢٢٥-٢٦٩.

وإحلاله في مكانة موسى على رأس "الشعب". فسفر يشوع يحكي أن السفاح "لما كان عند أريحا، رفع عينيه، وإذا بـ"رجل" واقف قبالته وسيفه مسلول في يده. فسارع اليه يشوع وقال له هل أنت لنا أو لأعدائنا؟ فقال ("الرجل") كلا، بل أنا رئيس جند يهوه. الآن أتيت (وقد نزلت لتوي). فرئيس جند يهوه ذاك أحد آلهة مجمع الكدوشيم الكنعانيّ الذي استعير للغزاة، لأنه عندما سمع السفاح ذلك، "..سقط على وجهه إلى الأرض وسجد وقال بماذا يكلم سيدي عبده؟ فقال رئيس جند يهوه اخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت واقف عليه مكان مقدس" (يشوع ٥:١٣-١٥).

ويقارن برتلر ذلك المنصب المقدس، "رئيس جند يهوه"، بـ"ابنير، رئيس جند شاول" (صموئيل الأول ١٧:٥٥)، و"يوآب، رئيس جند داود" (الملوك الأول ١:١٩). فـ"البلاط" السماوي، كما نرى، بات صورة معلاّة لبلاط الملك شاول ثم الملك داود.

وهذا منطقيّ تماماً. فـ"الشعب"، عندما أحاط بصموئيل، آخر الكهنة الحكام (القضاة) وقال له "الآن اجعل لنا ملكا يقضي لنا كسائر الشعوب"، وصموئيل، عندما ذهب "ليسأل يهوه" فقال له هذا الأخير: "اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت (قاضيا عليهم) بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم" (صموئيل الأول ٨:٥-٧) كانوا كلهم: "الشعب"، وصموئيل، ويهوه، مفصحين عن "السر" الرئيسي في الديانة.

فـ"الشعب" ذهب فقال لصموئيل "اجعل لنا ملكا كسائر الشعوب"، وبقوله ذاك أفصح عن الشعور بحقارة الشأن والضآلة والضياع بين الشعوب المستقرة في أوطانها ذات "الممالك"، وهو الشعور الذي فطن موسى إلى تأصّله في روح من كان قد استيأس فقرر أن يتخذهم "شعبا" له ليصنع منهم أمة يقيم بها مُلكا، وحاول علاجه بحكاية "الشعب المختار"، فابتلى ذلك "الشعب" بالبارانويا.

وصموئيل، عندما لم يرقه ذلك الطلب اطلاقا، كان متسقاً تماما والرؤية الموسوية لذلك المُلك المشتهى، وهو أن يكون مُلكا يتربع على قمته ورثة موسى اللاويون ليحكموا ككهنة ملوك (قضاة) حكماً لاهوتياً، بـ"الشريعة".

ويهوه، عندما جعله صموئيل يقول فقال ما أراده صموئيل أن يقول: إه، ما داموا يريدون ذلك، افعل لهم ما أرادوا ولا تظنهم بذلك قد رفضوك، "بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم"، نطق "إلهيا" بما تمسك به صموئيل من تخطيط موسى وهو حكم الكهنة (القضاة) لـ"الشعب" بوصفهم نواب الملك يهوه. ومما يفصح عن ذلك بجلاء، ما جعل صموئيل يهوه يقوله له بعد قوله "بل إياي يرفضون"، وهو: "حسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم وتركوني وعبدوا آلهة أخرى، هكذا هم عاملون بك أيضا. فالآن اسمع لهم، ولكن اشهدنّ عليهم واخبرهم بقضاء الملك الذي يملك عليهم (أي واخبرهم بما سوف يفعله بهم ذلك الملك الذي يريدون أن يملّكونه عليهم) " (صموئيل الأول ٨:٨ و٩).

ولم يكذّب صموئيل خبراً، فحاول إثناء "الشعب" عن حكاية الملك هذه بكل ضروب التخويف مما قال أن ذلك الملك سوف يفعله بهم، لكن "الشعب أبى أن يسمع لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك. فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا" (صموئيل الأول ٨:١٠-٢٠). وهذا كلام خطير. فحتى ذلك الوقت كان يهوه، تماماً كما قال لصموئيل، هو ملك "الشعب". ومعنى "يكون علينا ملك ويقضي لنا" أن يحل ذلك الملك الأرضي محل يهوه الذي كان قد ظل حتى ذلك الوقت قاضي "الشعب". فيثرون، حمو موسى، عندما ذهب فاجتمع بموسى عند "جبل الرب" وأزجاه النصح، قال له: "كن أنت للشعب أمام يهوه. وقدم أنت الدعاوى (دعاوى "الشعب") إلى يهوه (ليقضي فيها) " (خروج ١٨:١٩). وفي سفر العدد مثال واضح على ذلك "القضاء" الذي مارسه يهوه: "فتقدمت بنات صلفحاد بنِ حافر مطالبات بميراث أبيهن، فقدم موسى دعواهن أمام يهوه. فكلم يهوه موسى قائلا: بحق تكلمت بنات صلفحاد. فتعطيهن مِلك نصيب بين أخوة أبيهن وتنقل نصيب أبيهن إليهن" (عدد ٢٧:١-٧).

وقد كان القضاء للكنعانيين وظيفة أخرى من وظائف إيل، مثلما كان إيل ملكهم. لكن بني اسرائيل (خروجاً من تحت يهوه) استغنوا عن خدماته كقاض لهم وطالبوا آخر القضاة صموئيل بأن يملّك عليهم بشرا يحل محل يهوه كقاض لهم. ولم يكتفوا بذلك، فاستغنوا عن خدمات يهوه أيضا كرجل حرب، إذ أرادوا أن "يخرج ملكهم (البشري) أمامهم ويحارب حروبهم"، فيحل محل يهوه في ذلك المنصب الخطير الذي تغنت به أسفار التوراة باستمرار ابتداء من تهلل موسى عندما صدح "يهوه رجل الحرب" (خروج ١٥:٣)، مرورا بمعركة عماليق: "للرب حرب مع عماليق من دور إلى دور" (خروج ١٧:١٦)، إلى "يهوه السائر أمامكم هو يحارب عنكم" (تثنية ١:٣٠). فيهوه ظل ملك "الشعب" السائر أمامه ليحارب حروبه، بل وانه، كملك، أشرف بنفسه عملياً على توزيع النهب: "وكلم يهوه موسى قائلا .احص النهب المسبيّ من بشر وبهائم.. و(اعط) نصف النهب للذين باشروا القتال و(نصف) لكل الجماعة" ومقابل ذلك حصل يهوه لنفسه على "زكوة" من الأسرى، اثنين وثلاثين من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر" قدمن اليه ضحايا بشرية على مذبحه بيد ألعازر الكاهن، ابن هرون (عدد ٣١:٢٥-٤٠). فالوثن القضيبي ارتد إلى خصاله القديمة أيام كان يتقاضى أتاوات الخصب من المؤابيين والمديانيين عذارى، فأخذ ذلك العدد من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر، ولكن ليس باجلاسهن على وثنه المغطى بالذهب ليفقدن بكارتهن، بل كذبائح، "زكوة للرب".

فيهوه، ظل حتى نقطة التحول الهامة تلك في تاريخ "الشعب" التي طالب القوم فيها آخر القضاة صموئيل العجوز بتنصيب ملك بشري عليهم، ليصبح ملك اسرائيل، وقاضيها وجنرالها المحارب عنها وأمام جندها، والمشارك في توزيع نهبها والمتلقي لـ"رفائعها" من "الناس والبهائم". ولقد كان ذلك الوضع، منذ بداية القصة بعودة موسى من مديان، هو ما

خطط من أجله موسى وعمل على تحققه متصوراً أنه- عندما يصل "الشعب" إلى الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً- سيصير هو نائب الملك يهوه على الأرض. لكنه ذُبح وطُمِر في الرمل في مكان مجهول، وحل محله ورثته اللاويون نواباً للملك يهوه ومستفيدين من فتوته الحربية، وهو ما حاول صموئيل مستميتا حتى اللحظة الأخيرة الحفاظ عليه وإدامته.

لكن جنون العظمة الذي كان موسى قد ابتلى به "الشعب" ليداويه به من مشاعر الضآلة وحقارة الشأن والضياع بين ممالك وحضارات الشرق الأدنى القديم وشعوبه المستقرة في أوطانها و"الشعب" تائه بينها، كانَ قد نما وترعرع في خصب أرض اللبن والعسل، وارتوى من منابع إيل وبعل وحضارة كنعان، وتماماً كما وصف سفر التثنية "الشعب" واضعا الكلام على لسان موسى الذي كان قد ذُبح قبل تأليف السفر ودسّه عليه بعدة قرون، "سمن الشعب ورفس. سمن وغلظ واكتسى شحما. فرفض يهوه الذي عمله وغبى عن صخرة خلاصه "فلم يكتف بـ"إغارة يهوه وإغاظته بالأجانب (الآلهة الغريبة) والأرجاس وبتقديم الذبائح لغيره، لآلهة لم يعرفوها أحداث قد جاءت من قريب لم يرهبها آباؤه" (تثنية ٣٢:١٥-١٧)، بل ورفض يهوه كملك (رفض حكم اللاويين وتسلطهم عليه كقضاة) وأحل محل يهوه إنساناً من البشر ليكون قاضيه ورجل الحرب الذي يحارب حروبه ويستولى على النهب لنفسه (كما حذّر صموئيل "الشعب"). وإذ رأى يهوه كل ذلك، "رذل من الغيظ بنيه وبناته. وقال أحجب وجهي عنهم وأنظر ماذا تكون آخرتهم. إنهم جيل متقلب وأولاد لا أمانة فيهم. هم أغاروني (أثاروا غيرتي) بما ليس إلهاً وأغاظوني بأباطيلهم" (تثنية ٣٢:١٩-٢١).

فعند هذا المنعطف، تبدد حلم موسى وفسد. ومن ذلك المنعطف تثلّث الصراع. فبعد أن كان طرفاه أصحاب دعوى "يهوه وحده" من المتنبئين وبعض الكهنة، و"الشعب" متكرر الخروج من تحت يهوه، دخله طرف ثالث هو الطرف "الملكي" الذي انضوى الجانب الأكبر والأهم من المؤسسة الكهنوتية طالبة "ملء أيديها" تحت لوائه، جنباً إلى جنب مع الحاشية والمستفيدين من رؤساء "الشعب" وأثريائه.

- - - - -

(٩) ابتلاع بعل ثم طمسه

حتى اذا ما صرفنا نظراً عن براعات الإتاهة والتلغيز في تأليف وتحرير العهد القديم، ونحيّنا جانباً التصعيد الأوركسترالي المهندَس خلال ذلك التأليف والتحرير لتصاُيح جوقة "المؤرخين" و"النبييم" استفظاعاً وإدانة لـ"البعليم" (جمع بعل)، سنجدنا مواجهين- فيما تعلق بمكونات المعبود المخلّق اصطناعيا، يهوه- بمأزق مركّب جيد الصنع متمثل في أن ذلك المعبود: (١) كان، أصلاً، بعلاً هو ذاته، ولكن من نوعية صحراوية خشنة، حيث عُبد- قبل أن يعثر عليه موسى- كمجرد وثن قضيبي آخر من عديد الأوثان القضيبية التي عُبدت في أرجاء الشرق الأدنى القديم، وأنه (٢) عندما بدأت عملية تخليقه اصطناعياً من تلك النواة الأولى الصحراوية الخشنة بغية جعله إلهاً محترماً يمكن أن يجد له صانعوه موطئ قدم بين معبودات الحضارات العليا التي اتجه القصد الموسوي إلى مقارعة سحرها بسحره لأهداف أرضية دنيوية بحتة، اضطر من اضطلعوا بعملية تخليقه إلى الانخراط في سلسلة طويلة من عمليات تلفيق الهوية وتطويرها بدأت بادماج هوية بعل من أشهر بعليم كنعان، هو بعل صفون (الذي كان أصلاً حدّاد/شدّاد ثم بُعلِم ورُفِع إلى قمة جبل صفون، الأوليمب الكنعاني)، في هويته التي كان موسى قد أخذ في تحسينها بما ظل يسرقه له من الديانة المصرية، وأنه (٣) عندما وصل حشد العبيد الآبقين المطرودين من مصر أو أبنائهم مع من كانوا قد تبقوا من طغمة موسى اللاوية إلى كنعان، أُدمِجت في هويته هوية إيل، المعبود الكنعاني الأكبر، "العليون" (الإله العليّ في التوراة)، ورأس البعليم في منطقة الهلال الخصيب.

فالأرومة معقدة، والصورة مركبة مربكة بما فيه الكفاية. لكنها- متى حاولنا النفاذ إلى ما تحت قشرتها الخارجية- تزداد تعقيداً وتركيباً وإرباكاً عن كل ذلك بما لا يقاس. وهذه صعوبة منشؤها، كما يلاحظ سكوت، (٩) العدد الوفير من أسماء المعبودات الذي يواجهنا في أية محاولة لاستظهار هوية أي معبود في الديانات والميثولوجيات القديمة فيعطي انطباعاً بتعدد شاسع للآلهة، في حين أن الكثير من تلك الأسماء العديدة المتباينة يشير عادة إلى معبود واحد بعينه.

ومما يزيد الأمر تعقيداً وتركيباً وإرباكاً التداخل- الذي لم يعد مألوفاً للعقل الحديث- للألوهة المذكّرة والألوهة المؤنثة في العالم القديم. فبعل (أياً كان اسمه الكنعاني)، فوق كونه أحد تجليات إيل، كان أيضاً، وبشكل أساسي، وجهاً من وجهي الألوهة المؤنثة. فكما لاحظ لايار(١٠)، كان بعل (سواء دعي بعل صفون أو بعل شميم أو بأي اسم آخر) وبلتيس (أي: "بعلة"، سواء دعيت عشيرة، أو عانات، أو عشتارت، أو عشتروت) معبوداً واحداً أندروجينياً وحيداً قبل أن تفصل الألوهة المذكّرة فيه عن الألوهة المؤنثة. وفي ذلك الشأن، يقول أوزبورن(١١) في مبحثه عن "ديانات العالم" أننا يمكن أن

نفترض، بشكل يقبله العقل، أن الكنعانيين، سيراً على خطى المصريين، اقتبسوا عادة شق معبوداتهم شقين أحدهما مذكّر والآخر مؤنث، وفي سياق ذلك يمكننا أن نتبين كيف أن أشير (أسير، أوزيريس، المصري في تسميته السامية) هو الوجه المذكّر لـ"أشيرا"، عشيرة، عشتارت.

ونحن، متى ألقينا بالاً إلى أن أشير ذاك، النصف الأندروجيني لعشيرة، هو الذي قال يهوه لموسى "أهيه أشير أهيه" (انظر الشكل رقم ٩)، أي "أنا أشير أنا"، عندما استوضحه موسى حقيقة اسمه، وصرفنا نظراً عن الحيلة الصغيرة المسكينة التي تمثلّت في تحريف القول إلى "أهيه الذي أهيه" متوقفين عند قول يهوه لموسى" هكذا تقول لبني اسرائيل: أشير أرسلني اليكم"، صارفين نظراً عن عبثية" تقول لبني اسرائيل أهيه أرسلني اليكم"، سيصبح بوسعنا أن نتفهم السبب المطموس طمساً جيداً في العهد القديم لوجود كهنة بغايا من الرجال "مأبونين" وكاهنات بغايا من النساء" قديشات" في هيكل يهوه.

ذلك التواجد للبغاء المقدس داخل الهيكل، ممثلا في المأبونين والقديشات، الذي جعل مؤلف سفر التثنية ينبّه بشدة، بعد موسى بقرون، مع اجراء القول على لسان موسى اغتصاباً، إلى تحريم ادخال "أجرة الزانية (الكاهنة البغي، القديشة) أو ثمن الكلب (الكاهن البغي الذكر، "المأبون") إلى بيت يهوه (الهيكل) لأن كليهما رجس لدى يهوه" (تثنية ١٨:٢٣)، يظل- على الرغم من هذه البراعة الكهنوتية المتأخرة زمنياً بكثير- من الأدلة القوية (التي كان من الطبيعي أن يستميت كهنة عصر السبي في طمسها) على : (١) أندروجينية يهوه كسائر معبودات كنعان من "البعليم والعشتاروث"، و(٢) كون وجود عشيرة داخل هيكل يهوه طوال قرون بأكملها وجوداً مشروعاً بحكم طبيعة المعبود ذاته، على الرغم من كل تصايح جوقة "المؤرخين" "والنبييم". فعشيرة، بوصفها الإلاهة الأم الكنعانية كانت النصف الأنثوي المكمل لـ"أشير" يهوه الذي كاشف موسى بأن ذلك اسمه حتى وان طمست المكاشفة بحيلة "أهيه الذي أهيه".

ولعله مما يوضح لنا الصورة بشكل أكبر، توقّف موسى بن ميمون عند حكاية الكاهنات والكهنة البغايا التي ذكرها مكروبيوس(١٢) أخذاً عن فيلوكوروس وقال فيها أن فينوس (التي قُدست ممثّلة في القمر) كانت تقدم اليها التقدمات من كهنة بغايا من الرجال في ثياب النساء وكهنة بغايا من النساء في ثياب الرجال تعبيراً عن تداخل الذكورة والأنوثة أندروجينياً في هوية الإلاهة. وفي تعليقه اللافت للنظر بما انطوى عليه من حَرَج، قال موسى بن ميمون أن ارتداء الرجال لثياب النساء وارتداء النساء لثياب الرجال أمر مهيّج للشهوة الجنسية ومفضٍ إلى الزنى والعهر!

وهو ما يستحضر إلى الذهن القول الوارد في العهد القديم عن نساء كن مقيمات داخل هيكل يهوه في "بيوت" خاصة بهن، متعايشات مع "المأبونين" من الكهنة الذكور، آخذات في نسج أردية "الأشيرا"، أي اردية الإلاهة عشيرة: "وأخرج (حلقيا الكاهن بأمر يوشيا) السارية (تمثال عشيرة) من بيت الرب (من هيكل يهوه)

إلى خارج أورشليم إلى وادي قدرون وأحرقها في وادي قدرون ودقها إلى أن صارت غبارا وذرى الغبار على قبور عامة الشعب. وهدم بيوت المأبونين (الكهنة البغايا الذكور) التي عند بيت الرب (داخل هيكل يهوه) حيث كانت النساء (الكاهنات البغايا الإناث) ينسجن "بيوتا" (وصحتها "أردية") للسارية (لتمثال الإلاهة) " (الملوك الثاني ٢٣:٦ و٧).

فذلك السفر "التاريخي"، في غمرة حماس كاتبه ومحرره لانتصار يوشيا ليهوه وحده إبّان حركة الاصلاح التي اضطلع بها، أوقفنا على أن يهوه ضم هيكله فريقين من الكهنة البغايا، الذكور ("المأبونين")، والإناث ("القديشات") شأنه في ذلك شأن كل معبوداتٍ العالم القديم الأندروجينية، أي المذكرة/مؤنثة. والذي لا ينبغي أن يغيب عن الذهن عند قراءة نص سفر الملوك الثاني أن يوشيا وحلقيا الكاهن لم يُخرجا تمثال عشيرة من داخل هيكل يهوه ومعه الكهنة البغايا من الذكور والإناث الا بعد قرون من اقامة ذلك التمثال داخل الهيكل وسجود "الشعب" له وأقفيتهم إلى يهوه كما اشتكى يهوه لنبييمه.

كل هذه الأغوار الكامنة في قصة الديانة وفي سيرة المعبود، مع كل ما عولجت به تحريرياً ورقابياً وبإعادة التأليف، تسهم في زيادة الصورة تعقيداً. غير أن الثابت الذي لم يعد محل جدال الآن أن يهوه ذاته عُبد كـ"بعل" من "بعليم" كنعان. وبغير أن نذهب بعيداً وراء البراهين على ذلك، نستخرجها من ذلك المصدر الذي لا جدال عليه، العهد القديم ذاته. فطبقا لنص سفر صموئيل الثاني، أطلق داود اسم يهوه، باعتباره بعلاً، على موقع أحد انتصاراته العسكرية: "وقال داود قد اقتحم يهوه أعدائي أمامي كاقتحام المياه، لذلك دعي ذلك الموضع بعل فراصيم (أي بعل المقتحم) " (صموئيل الثاني ٥:٢٠). وقد تأكد ذلك "تاريخياً" في سفر أخبار الأيام الأول: "فسأل داود يهوه قائلا: أأصعد على الفلسطينيين فتدفعهم ليدي؟ فقال له يهوه اصعد فادفعهم ليدك. فصعدوا وضربهم داود هناك. وقال داود قد اقتحم يهوه أعدائي بيدي كاقتحام المياه. لذلك دعوا اسم ذلك الموضع بعل فراصيم" (أخبار الأيام الأول ١٤:١٠ و١١). و"فارص"، بالعبرية "بيريز" تعني-حرفيا -المقتحم. ففي سفر أخبار الأيام الأول نجد أن يهوه غضب على رجل اسمه عزّا من خلصاء داود فـ"ضربه"، أي أماته لأنه مد يده ولمس تابوت العهد "فاغتاظ داود لأن يهوه اقتحم عزّا اقتحاما، وسمي ذلك الموضع فارص (مقتحم) عزّا إلى هذا اليوم" (أخبار الأيام الأول ١٣:١٠ و١١). وفي القصة التي وُضعت لتأصيل نسب سلالة يهوذا (من مضاجعته السفاحية لتامار زوجة ابنه)(*)، حكى سفر التكوين حكاية هي في الواقع تكرار حرفي لحكاية ميلاد يعقوب وعيسو أخيه: "وفي وقت ولادة تامار (التي وصفها النص قبل ذلك بأسطر بأنها كانت "حبلى من الزنا" (تكوين ٣٨:٣٤)، اذا في بطنها توأمان. وكان في ولادتها أن أحد التوأمين أخرج يدا فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزا

(*) ارجع في ذلك إلى الفصل المعنون "مضاجعة المحارم في أسس الخليقة وجذور التاريخ المقدس"، بالباب الثاني، والفصل المعنون، "قبل موسى وبعده كانت كاهنات الإلاهة"، بالباب الثالث، من الكتاب الثاني، "بورنوجرافيا الدين".

قائلة هذا خرج أولا. ولكن حين رد يده اذا أخوه قد خرج. فقالت القابلة لماذا اقتحمت؟ عليك اقتحام. فدعي اسمه فارص" (تكوين ٣٨:٢٧-٢٩). فيعقوب عندما أطلق ذلك الاسم على موضع انتصاره وعلى موضع اقتحام يهوه لعزّا، استخدم ليهوه اسم "بعل المقتحم" أو "بعل الاقتحام".

غير أنه مما يقطع الشك باليقين في شأن تسمية يهوه ببعل يهوه النص الصريح الوارد في سفر المتنبئ هوشع الذي يخبرنا أن يهوه اشتكى له مر الشكوى من حبيبته اسرائيل وزناها مع غيره من البعليم قائلا أنه كان قد عقد العزم على "كشف عورتها أمام عيون محبيها ولا ينقذها أحد من يده" (هوشع ٢:١٠) الا أن قلبه لم يطاوعه فقال لهوشع "لكن هأنذا أتملقها وأذهب بها إلى البرية وألاطفها. وأعطيها كرومها من هناك (وأجعلها) تغني كأيام صباها وكيوم صعودها من أرض مصر. ويكون في ذلك اليوم، يقول يهوه، أنك تدعينني رجلي (زوجي) ولا تدعينني بعد بعلي" (هوشع ٢:١٤-١٦).

فهوشع كفانا بهذا القول مشقة السعي في سراديب المتاهة بحثا عن حقيقة الأمر فيما تعلق ببعلية يهوه، اذ من الواضح تماما والرجل يكتب نبؤاته بعد موسى بقرون أن اسرائيل المعشوقة اللعوب كثيرة العشاق كانت قدظلت حتى ذلك الوقت تدعو يهوه بـ"بعل".

وفوق هذا الفضل، زودنا هذا المتنبئ بمصارحة غريبة في شفافيتها عن الطابع الجنسي الذي لا لبس فيه لرؤية النبييم لعلاقة يهوه بمحبوبته اسرائيل. فيهوه، متى أخذنا بتأكيد هوشع أن ذلك كلام قاله المعبود، يقول أن عشقه لتلك المحبوبة جعله يتغلب على نوازعه الشريرة تجاهها فيتحول عن العدوان إلى المناغاة. فـ"أتملقها" التي تبرع بها المترجمون إلى العربية استفظاعا منهم لـ"أناغيها وأغويها" لم تكن الكلمة التي استخدمها يهوه في بوحه لهوشع. وكذلك "ألاطفها". فـ"الملاطفة" هنا تخفيف للمداعبة باللمس والقبل والتحسس التي تسبق المضاجعة. وذلك معنى يؤكده قول يهوه "وأعطيها كرومها". فالكروم استخدمت في شفرة العهد القديم (كما سنرى عندما نبحر معا على العباب الجنسي لنشيد الأنشاد) تعبيرا عن المتعة الجنسية المسكرة. وبذلك تتكشف "أعطيها كرومها" عن "أعطيها صبابتها" أو "أوصلها إلى هزة الجماع" وأجعلها، بذلك، تصدح بالغناء من فرط نشوة كما كانت تفعل أيام صباها. ولا ننسى- اذا ما استفظعنا ذلك- أن ذلك الإله نفسه يخاطب محبوبته في نفس النص منبّهاً عليها بأن تدعوه بـ"رجلها" أي زوجها، والزوج من حقه شرعاً ولا يلام أخلاقيا على مضاجعة زوجته وجعلها تصدح بالغناء بعد هزة الجماع. وكل ما في الأمر أن يهوه- من طول ما عانى من مضاجعة تلك المحبوبة الزائغة لغيره من البعليم- قرر، عندما غلبه حبه وجنح إلى المناغاة و"الملاطفة"، أن يجعل المحبوبة تكف عن دعوته بـ"بعلها" لأنه عقد العزم على أن "ينزع أسماء البعليم من فمها" (هوشع ٢:١٧).

فالمسألة، كما نتبين من نص هوشع، كانت مسألة غيرة لا أكثر. ومنذ البداية، وصف موسى يهوه لـ"الشعب" بأنه إله غيور، وبعد موسى بقرون وصفه حزقيال بأنه هائج الغيرة. الا أنه، مع تقدير فعالية تلك الغيرة المشبوبة، وبخاصة متى تعلّق الأمر بمضاجعة الغير للمعشوقة اسرائيل، لاشك في أن يهوه، عندما عثر عليه موسى في القفر، كما أسلفنا، كان بعلاً، وبعلاً مستعاراً من عباده الأصليين، المؤابيين. وعندما عاد موسى بتلك اللقيا إلى مصر معلنا أنه قابل إلهاً مخوّفاً في القفر لم يكن أحد قد سمع باسمه من قبل، لم يقل وفيما يبدو لم تكن لديه أي رغبة في القول بأن ذلك الإله كان بعلاً بين حشد عميم من بعليم الأقوام المجاورة لمصر شرقاً. فاتجاه موسى الأصلي (وهو الكاهن الاخناتوني) كان إلى صنع إله محترم، من تلك الخامة الصحراوية التي عاد بها من سكناه بين المديانيين، عن طريق تكديس ما ظل يسرقه له بلا تورع من الديانة المصرية على بنيته (التي لم تكن شامخة اطلاقاً بحكم الأصل المدياني المتواضع). غير أن تشبث شراذم العبيد الآبقين (الذين أطلق عليهم بعد الطرد من مصر، على سبيل التشاعر، اسم "الشعب") بمعبودهم الأصلي، وعودتهم- بعد أن أوشك موسى أن يبارح وإياهم الأراضي المصرية- إلى الموضع الذي كانوا يعبدون فيه إلههم ذاك المُكنعن، بعل صفون، كانت أسباباً اضطرت موسى إلى تعديل توجهه الأصلي (أي تخليق إله على غرار آلهة مصر) والقبول، بحصافة رجل الدولة المحنك الذي يتجنب التناطح مع المحكومين بالرأس، بتمييع التركيبة التخليقية التي كان قد بدأ في صنعها وادماج بعل صفون ذاك في هوية معبوده المستورد الذي استجلب مقاومة عنيدة من جانب من أراد موسى أن يجعلهم عباداً له.

وبهذا القرار الذي اتخذه موسى راغماً- فيما بدا من توبيخه المستمر لـ"الشعب" لرفض ذلك "الشعب" يهوه -(*) وكان اتخاذه له كرجل دولة لا ككاهن أو كصانع

(*) والنصوص المفصحة عن ذلك عديدة في أسفار التوراة والنبييم، لكننا نكتفي منها، على سبيل المثال، بما يلي:

"من اليوم الذي خرجتم فيه من أرض مصر حتى أتيتم إلى هذا المكان كنتم تقاومون يهوه" (تثنية ٩:٧).

"قد كنتم تعصون يهوه منذ يوم عرفتكم" (تثنية ٩:٢٤).

وعلى الرغم من أن الكلام ورد في سفر التثنية الذي أُلِّف بعد موسى بقرون، فإن المفروض أن قائله موسى في معرض تضرره من رفض "الشعب" لمعبوده. وكونه قد أجري على لسان موسى في ذلك السفر اللاحق لموسى بزمن طويل، دليل على أن الوضع نفسه، أي رفض "الشعب" يهوه، ظل مستمرا حتى زمن تأليف السفر. ولم يكن موسى هو الذي تضرر وحده من رفض "الشعب" يهوه. فيهوه ذاته، تبعا لنصوص متعددة، ظل ينفجر صائحا: "حتى متى يهينني هذا الشعب؟ وحتى متى لا يصدقونني (على الرغم من) جميع الآيات التي صنعت في وسطهم؟" (عدد ١٤:١١).

"حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ؟ قد سمعت تذمر بني اسرائيل الذي يتذمرونه عليّ" (عدد ١٤:٢٧).

والثابت من أسفار النبييم أن ذلك الرفض ليهوه لم يقتصر على "الشعب"، أي عامة الناس، بل امتد إلى قطاع كبير من الكهنة والمتنبئين من غير مجموعة "يهوه وحده" التي ظلت النواة الصلبة للمشروع الموسوي. فإرميا يقول أن يهوه اشتكى له مرّ الشكوى لأن "الكهنة لم يقولوا أين هو يهوه، وأهل الشريعة لم يعرفوني، والرعاة عصوا عليّ، والأنبياء تنبأوا ببعل"! (إرميا ٢:٨).

لاهوتية، فتح موسى ثغرة خطرة في مشروعه اليهيوي ظلت تندفق داخله منها إلى هوية يهوه وصورته مؤثرات قوية شديدة الإغواء من عبادات كنعان ألجأت ورثة موسى من الكهنة اللاويين الذين ظلوا حريصين على انجاح مشروعه إلى اتّباع السّنة التي استنها بدمج بعل صفون في بنية إلهه المخلّق، فظلوا- كلما أغوت "الشعب" عبادة هذا البعل أو ذاك- يلقمون يهوه ذلك البعل المنافس عملاً على إبقاء "الشعب" تحت يهوه، وبالتالي تحت سلطتهم الروحية والزمنية التي امتدت حتى عصر "الملوك"، باعتبار أنه ما حاجة "الشعب" إلى السير وراء هذا البعل أو ذاك مادام يهوه، الذي وصف بالحاح بأنه "إله الآلهة ورب الأرباب العظيم الجبار المهيب" (تثنية ١٠:١٧)، حائزاً لقدرات وسحر ذلك البعل أو غيره؟

غير أن "الشعب"، وعدد كبير من رؤسائه و"ملوكه"، بل وكهنته ومتنبئيه- فيما تبين الأسفار التاريخية وأسفار النبييم- لم يجد في النهاية فرقاً بين يهوه وأي بعل آخر من بعليم كنعان لفرط ما أمعن كهنة حركة "يهوه وحده" في عملية السطو على أولئك البعليم وابتلاعهم في جوف يهوه الرحب.

واذ وجد كهنة "يهوه وحده" أنفسهم مواجهين بهذا المأزق، عادوا إلى مؤسس حركتهم الكهنوتية، موسى، فساروا على خطاه في تهديد "الشعب" وتخويفه مما سوف يفعله به يهوه على النحو الذي تنطق به نصوص كهذه:

"لئلا يحمي غضب يهوه إلهكم عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض" (تثنية ٦:١٥).

"(لئلا يجعلك) تأكل ثمرة بطنك، لحم بنيك وبناتك" (تثنية ٢٨:٥٣)(*).

غير أن "الشعب" وقادته و"ملوكه"، وذلك الفريق من كهنته ومتنبئيه الذي اعتبره أصحاب حركة "يهوه وحده" مارقاً وخائناً، كانوا كلهم مظلومين في الواقع لأن عملية توفيق العبادات التي اتخذت شكل السطو المنظم والنهب بلا حدود من العبادات المنافسة لحساب عبادة يهوه كانت قد بلغت حداً امحّى عنده الخط الفاصل بين يهوه والآلهة (والإلاهات) الذين واللواتي تعرضوا وتعرضن لذلك السطو.

وفي زمن السبي، والكهنة والنبييم يراجعون أنفسهم بحثاً عن الأخطاء القديمة، فطن المتمسكون بحركة يهوه وحده ممن كانوا قد تبقوا كقادة "روحيين" لـ"الشعب"، وبخاصة الكاهن عزرا، والكاهن الخصي ساقي ملوك الفرس نحميا، إلى ما كانت الحركة

(*) والنص بشع بشاعة خاصة، وبما فيه من وحشية منبئ عن ضراوة كهنوتية يبدو أنها انبجست من أزمة حقيقية عانى منها الكهنة اللاويون نتيجة لاصرار "الشعب" على "الخروج من تحت يهوه":

".. في الحصار والضيقة ( ) الرجل المتنعم فيك والمترفّه جدا تبخل عينه على أخيه وامرأة حضنه وبقية أولاده الذين يبقيهم (لا يأكلهم) فلا يعطي أيا منهم شيئا من لحم بنيه الذي يأكله لأنه لم يبق له شيء في الحصار والضيقة.. والمرأة المتنعمة فيك والمترفهة التي لم تجرب أن تضع أسفل قدمها على الأرض (من فرط) التنعم والترفه تبخل عينها على رجل حضنها وعلى ابنها وبنتها (فلا تعطيهم شيئا من) مشيمتها الخارجة من بين رجليها أو (من لحم) أولادها الذين تلدهم فتأكلهم سرا" (تثنية ٢٨:٥٣-٥٧).

قد انزلقت اليه فجرّت الديانة كلها وراءها في محاولتها الإبقـاء على مقـود "الشـعب" فـي أيدي الكهنوت اليهيوي بأي ثمن، حتى بثمن تعميق وتكثيف هوية البعل الأصلية في يهوه.

وفي عملية اعادة صياغة الديانة (التي شملت بشكل أساسي مراجعـة كاملـة رقابيـة وتحريرية لما كان قد سُجل كتابة من "أسفار" الديانة) استفاد الجميع مـن الاكتشـاف بـالغ الأهمية الذي تمثل في صيحة إشعياء التثنية" حقا انك لإله محتجب يا يهوه"!

ذلك "الاكتشاف"، فوق كونه- في الحقيقة- عـودة إلـى القصـد الأصلـي لموسـى عندما شرع في صنع إله محترم من وثنه المدياني بما سدر في نهبه لـه مـن ديانتـه الأصليـة، الديانة المصرية، وهو القصد الذي ضاع تحت وطأة الدواعي السياسـية ذات الأولويـة علـى كل ما عداها في المشروع الموسوي من مبدئه، كان أشبه بحلقة نجاة لاهوتيـة أُلقيـت فـي بحر أجاج لتتلاقفها أيدي من أخذوا على عواتقهم- وخبرة السبي في أذهانهم- إعادة صنـع الديانة وإعادة تخليق المعبود ذاته. فالآنترويومورفية (التشبيهية) القديمة شُطبت بجـرة قلـم، وأسكن يهوه، بوصفه إلهـاً نورانيـاً سـماوياً لا يتجسّـد ولا يُـرى، فـوق الجَلَـد، لا لمجـرد تنظيف صورته وإعلائها، بل إعلاء للقصد السياسي الأساسي من الديانة. ولعل مما له مغزى يبدو أنه يفوت كثيرين مـن الدارسـين أن إشـعياء الثـاني، صـاحب صيحـة "حقـا انـك لإلـه محتجب يا يهوه، يا إله اسرائيل المخلـص"، هـو أشـد النبييـم الكبـار اشـتعالا بحلـم تسـيد صهيون على كل الأرض. ولنأخذ بضعة أسطر قليلة من كلامه:

> "قالت صهيون قد تركني يهوه وسيدي نسيني. هل تنسـى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنهـا؟ حتـى هـؤلاء ينسـين وأنا لا أنساك يا صهيون. هوذا على كفـي نقشـتك.. هـا اني أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي. فيـأتون بأولادك فـي الأحضـان وبنـاتك علـى الأكتـاف يحملـن. ويكـون ملـوك الأرض حـاضنيك وسـيداتهم مرضعـاتك. بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك فتعلميـن أنـي أنـا الـرب الـذي لا يخـزى منتظـروه" (إشعياء ٤٩: ١٤ و١٥ و٢٢ و٢٣).
>
> "استيقظي استيقظي ألبسي عزّك يـا صيهـون ألبسـي ثيـاب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة لأنه لا يعود يدخلـك فيما بعد أغلف ولا نجس" (إشعياء ٥٢: ١).

فيهوه، وقد جُعل "إلهاً محتجبا" بعد قـرون وقـرون مـن الأنترويومورفيـة والسـكنى داخل التابوت وكل ذلك، فرفع إلى ما فوق الجَلَد، جُعل إلهاً لكل الأرض، تماماً كما جـاء في سفر التثنية الذي أُلّف في زمن غير بعيد عن زمن إشعياء الثاني: "هـو ذا ليهـوه إلهـك يـا اسرائيل السماء وسماء السموات والأرض وكل ما فيها" (تثنية ١٠: ١٤). ذلـك لأن يهـوه،

وقد بات "إلهاً ساكنا السموات العلى" ظل همه الأول والأساسي "شعبه" والمكان الذي سيملك منه "شعبه" كل الأرض، صهيون.

بهذه الرؤية الجديدة الموسَّعة التي تجاوزت الرؤية الموسوية المحدودة (من النيل إلى الفرات) بكثير، أُعيد صنع الديانة والمعبود كليهما. فجعلت الديانة ديانة سماوية و"عالمية" (بذات المعنى الحصري المتمثل في العلاقة الخاصة والحميمة بين المعبود و"شعبه") وجُعل المعبود إلهاً علوياً نورانياً سماوياً لا أرضيّ ولا جسديّ. فطُمست فيه الهوية البعلية وتم تخليصه نهائيا من الإلاهة الأنثى التي ظلت ساكنة إياه.. فيما تصور صانعو أسطوريته.

غير أن ذلك الإصعاد (الاعتسافي، ككل شيء آخر في عبادة يهوه) كان في زمان ردئ متأخر هو زمان الذل والسبي الذي تهاوت فيه أحلام المُلك، بعد أن ظل يهوه يشبَّع بلا تورُّع، منذ تساهل موسى فأدمج فيه بعل صفون، بصفات وقدرات وسحر جمهرة غفيرة من البعليم والبعلات. وهكذا فانه- على الرغم من كل محاولات الإعلاء وعمليات التنقية والتنظيف والترميم والتحسين- ظل يهوه، حتى بعد أن جُعل "خبيئا ومتعاليا وسماويا" وكل ذلك، محتفظاً- باستماتة غريبة بدا أن دافعه اليها العوز اللاهوتي- بكل ما كان قد سُرق له، سواء من آلهة مصر أو من البعليم والبعلات الذين ظل صانعو أسطوريته يسطون عليهم وعليهن، فيسلبون، ثم يستديرون فيسبّون ويشهّرون بكل من سلبوا. وتلك، ان شئنا الحق، خصلة سيئة، غرس بذرتها في تربة الديانة "رجل الآلهة" موسى بعد أن سطا على ديانته الأصلية ونهب منها بغير حدود، ثم استدار فجعل من المصريين "أشرار الحلقة"، متى استخدمنا هذا التعبير المعاصر.

ولكن لم؟ وكيف؟ هل المسألة مسألة إيهام؟ هل هي كلبية أهدرت كل وزن للروح الانساني في خصوصية قد تكون أهم شاغل من شواغل الروح، وهي الدين، أي البحث عن الألوهة للّوذ بها؟

الواقع أن العقل لا يمكن الا أن يتوقف فيتساءل: ترى ما الذي جال بذهن موسى وهو يرسي أسس هذا التقليد؟ وما الذي جال بذهن المحرر الذي أعاد "توضيب" الديانة بعد موسى بقرون، سيراً على خطى ذلك التقليد؟ وما الذي فكر فيه المترجمون "الأتقياء" وهم يناقضون "كلام الله الذي لا يناقض" حرصاً على شرف الله؟ هل ظلت النظرة إلى المسألة، منذ البداية، نظرة "دعائية" اعتبرت الحكي كله مجرد سلاح أشرع في مواجهة العقل والروح لمآرب لا علاقة لها بسماء أو ألوهة ولها كل علاقة بالأرض والملك والثروة وُجد أنه من الملائم "دينيا" اعلاؤها فوقً الحقيقة ثم وُجد أنه- كيما يتحقق ذلك- بات من المتعين اعلاؤها فوق "كلام الله" ذاته؟ وما الذي تناقش فيه المترجمون، مثلاً، وهم يقررون طمس "بعل، ثور يعقوب" إلى "عزيز يعقوب" في "أسفار مقدسة" أسمت الإله

بهذه التسمية؟(*) وهل كان مبررهم الشعور بواجب ديني وجدوه مُلزماً بالتواطؤ مع المحرر على عملية التنظيف والإصعاد الذي لم يقف في وجهه شيء ليهوه، باعتبار أن يهوه هو "الله"؟

وما حاجة الله إلى من يكذب من أجله إلى حد تغيير كلامه عملاً على الطمس والإخفاء؟ هل "الأسفار المقدسة" عمل روائي يُراجع ويُحرَّر تبعاً لمقتضيات إضفاء المصداقية والمعقولية؟ هل هي "سيناريو" مسموح باجراء التغييرات والتعديلات فيه بإعادة التأليف، وبالتحرير، وبالترجمة، حرصا على سمعة المعبود وتنظيفاً له؟ ولكن، ماذا عن الصدق والحقيقة؟ أو-بنظرة الديانة المصرية- ماذا عن معات؟ ففي تلك الديانة كان إيمانٌ بالغ العمق بأن الألوهة لا تتواجد الا على معات، ولا تحيا الا على معات، أي على الحقيقة والصدق.

واقع الأمر أنه كان من المحزن حقا أن الكاهن المرتد موسى وجد من الضروري أن يُسقط من قائمة مسروقاته من الديانة المصرية أهم ما كان يمكن أن يبني عليه ديانة حقيقية، أي البعد الأخروي، ومعات. لكن ذلك أمر لم تكن لموسى فيه حيلة. فقد تعين عليه أن يخفي آثار قدميه وهو رائح غاد بين خزانة الديانة المصرية ووثن يهوه. لكن إسقاطه مفهوم قيام الألوهة على الحقيقة والصدق، وبالتبعية على العدل والصلاح طلباً للثواب في عالم ما بعد الموت، جعل من الممكن أن تتبني الديانة التي انخرط في تخليق معبود لها على خاصية التغير والتحول بلا انقطاع (تلك الخاصية التي جسدها في الميثولوجيا اليونانية "رجل البحر العجور" المعبود بروتيوس). وكما لاحظ برستد، (١٣) خلت وصايا موسى العشر- ولم يكن يمكن إلا أن تخلو- من أهم وصية يمكن أن ينبني عليها تقنين أخلاقي، وهي وصية "لا تكذب".

غير أن الحقيقة تمتعت دائما بقدرة غريبة، هي أنها- بعناد- تظل تخرق ستار الكذب فتسطع اذ تخرقه. وهذا هو عين ما حدث للديانة التي صنعها موسى وحُبكت في بابل على يد عزرا وظل حشد من "المترجمين" مستميتاً في التواطؤ على "حبكها". فالحقيقة ظلت-على غير انتظار- تخرق أستار الكذب، بفضل صفاقة العلم وكشوفه الآثارية، واللغوية، ومناهجه المقارنة.

ولقد كان اكتشاف نصوص أوغاريت (رأس شمرا) في الربع الأول من هذا القرن، وترجمتها ونشرها وبحثها ومقارنتها بنصوص العهد القديم حدثاً علمياً لم يقل أهمية، كما أسلفنا، عن فك شفرة الهيروغليفية واخراج حضارة مصر وثقافتها وديانتها من الدياجير التي كانت قد ووريت فيها، أو عن فك شفرة الكتابة المسمارية واخراج حضارة سومر وثقافتها وديانتها، بروافدها البابلية والأشورية من ذات الدياجير التي كانت حضارات الشرق الأدنى

(*) انظر ٩/أ/٢ أدناه.

القديم قد أُهملت فيها وترك المسرح خلواً لتصول وتجول عليه سرقات بلا عَدد تـألّف مـن مجموعها كتاب "كلام الله" الذي لا يُناقض ولا يُناقش، العهد القديم.

غير أن ذلك "الاحتكار" للروح والعقل والضمير أخذ يتفتت ويتهاوى ويـذوب فـي وجه اجتياح الحقيقة اذ وجدت منافذها إلى ضوء الشمس من خلال تلك الكشوف العلميـة وما أفضت اليه من بحوث مقارنة. واذ تفتت ذلك الاحتكار وتهاوى، أخذ الوثن الموسـوي المخلّق اصطناعيا تتفتق أثوابه التي نُسجت مما سرق لـه مـن عبـادات شعوب الحضـارات العليا في الشرق الأدنى القديم، وتكشف عما تحتها من تلفيق وترقيع أسطوري.

في الجزء الأول من هذا الفصل، استظهرنا، بمنهج المقارنة، بعـض أهـم السـرقات لحساب يهوه من أسطورية كبير "بعليم" كنعان، إيل الذي-رغم أن اسمه مازال ناطقاً فيمـا لا يحصى من الأسماء اليهودية والمسيحية كميخا-ئيل، وجبرا-ئيل، وعمانو-ئيل-استخدم اسمه سلاحا ضده بادعاء أنه يعني "إيلوه" أي "إله"، حتـى وإن كـان استخدامه اسـماً عامـا بهذه الطريقة قد ورد (تحت وطأة تعدد آلهـة "بنـي اسـرائيل" حتـى الانتصـار الأخير، بعـد السبي، لحركة "يهوه وحده") كـ"إيلوهيم"، بصيغة الجمع، أي "آلهة"!

وفي هذا الجزء من الفصل، نحاول استظهار بعض أهم ما سـرق ليهـوه مـن عديـد البعليم، ابتداء من أهم من وقع السطو عليه مبكراً، أي بعل صفون.

والذي يبدو هنـا أن تسـمية "صفـون" هـذه، تحـت وطـأة الاعتيـاد، ونتيجـة لدفـن خلفيات المكونات الأساسية ليهوه وأسطوريته، تسميةٌ يفوتنا-بشكلٍ يدعو إلى الاستغراب-الشبه القوي بينها وبين اسم التل الآخر، الذي جُعِل "جبل يهوه"، أيٍ تل صهيون.(*)

فالمزمور ٤٨، عندما يتغنى منشداً بتهلّل: "عظيمٌ هو يهوه، وحميدٌ جدا فـي مدينـة إلهنا جَبَلِ قدسِه. جميلُ الارتفاع فرحُ كلِّ الأرض جبلُ صهيون. فرحُ أقاصي الشمال مدينـة الملك العظيم. يهوه في قصورها يُعرَف ملجأً" (١-٣)، يردِّد-في الحقيقـة-حرفـاً بحـرف، وصف بعلٍ "لجبل قدسه" المقام عليه قصره "في أقاصي الشمال"، في رسالة بعـث بهـا إلـى عانات وكَشِف النقاب عنها بترجمة نصوص أوغاريت.

في تلك الرسالة، يقول بعل مخاطبا عانات:

"أميلي إليّ سمعك، لأن لك عندي كلمة أخبرك بها
رسالة سوف أكاشفك بها
كلمة حفيف الشجر وهمس الحجر،
تعالي إليّ لأخبرك بها
الكلمة التي بها أستجيب
فتستجيب السموات للأرض
وتستجيب أعماق المياه للنجوم

(*) ارجع في شأن تل صهيون إلى كتابنا "المسيحية والتوراة"، ص ص٢٥-٢٩.

لأني أعرف الكلمة التي لا تعرفها السموات
الكلمة التي لا يعرفها بنو البشر
ولا تعرفها الأرض ذاتها
تعالي إليّ وسوف أكاشفك بها
على قمة جبل قدسي، جبل صفون
الموضوع ذي القداسة، مكان الفرح البهيّ
الجبل الذي هو لي، المكان البهي
جبل انتصاري"(١٤)

وقد وُصف هذا النص بأنه "عهد السلام" الذي قطعه بعل مع الأرض والبشر في "رسالته" إلى عانات وفي الكلام الذي أجراه هوشع على لسان يهوه، أخذ ذلك المتنبئ كلام بعل إلى عانات وجعله "رسالة من يهوه إلى اسرائيل"، قال فيها يهوه:

"وأخطبك لنفسي إلى الأبد.
وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والاحسان والمراحم.
أخطبك لنفسي فتعرفين أني أنا الرب.
ويكون في ذلك اليوم أني أستجيب، يقول يهوه.
أستجيب السموات وهي تستجيب الأرض.
والأرض تستجيب" (هوشع ٢:١٩-٢٢).

إلى هنا واختلاس ثيمة "الاستجابة" من رسالة بعل إلى عانات يمكن اعتباره "عهد سلام" هو أيضاً، ولكن ليس بين يهوه والأرض والبشر، كما في رسالة بعل، بل بين يهوه ومحبوبته التي أراد أن يخطبها لنفسه إلى الأبد. فالثيمة التي سُرقت أنزلت من السياق الكوني إلى السياق القَبَلي ككل ما سرق لديانة يهوه من ديانات شعوب الحضارات العليا. والمثال بالغ الافصاح عن ذلك الوصايا العشر.(*) فتلك وصايا سرقها موسى ليهوه من الاعتراف بالنفي المصري، كما أسلفنا. وفي ذلك الاعتراف، كانت الروح تنفي ارتكابها لاثنين وأربعين معصية مميتة كان عقاب الادانة بارتكاب معصية واحدة منها الحرمان من خلود الروح والانبعاث. وعندما سرق موسى من ذلك الاعتراف، اكتفى بعشر فقط، وغير صيغة "أنا لم"، إلى صيغة لا تفعل هذا أو ذاك: فـ"أنا لم أقتل انسانا في حياتي"، مثلا، حولت إلى "لا تقتل"، و"أنا لم أسرق من انسان في حياتي"، حولت إلى "لا تسرق". ولم يكتف موسى باجتزاء عشر وصايا من الاعترافات الاثنين والأربعين، بل حدد النهي بـ" لا تقتل أخاك (قريبك) "، "لا تسرق أخاك (قريبك)"، فأنزل أول وأرفع تقنين أخلاقي توصل اليه الانسان (مما جعل باحثاً كبرستد يصف الانجاز الحضاري/الديني الذي أوجده ذلك

(*) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة" ص ص٢٩١، ٣٤٠-٣٤٢، ٣٥٧. وإلى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص٤٠٩-٤٢٨.

التقنين بـ"فجر الضمير") من مستواه الرفيع الذي انسحب على علاقة الانسان بالأنسان على اطلاقه، إلى المستوى القَبَلي الذي عيّنه بتحريم الفعل متى كان وقوعه على "الأخ" (تُرجمت "قريبك") "العبراني".

ولو كان الأمر، فيما تعلق بسرقة "عهد سلام" بعل من الأرض والبشر، قد اقتصر على قصر العهد على العلاقة الجنسية الصريحة بين يهوه ومحبوبته اسرائيل، لهان الخطب. غير أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد. فالطبع غلّاب، كما يقولون. وتبعاً لذلك، نجد أن"عهد السلام" ذاك، وما انطوى عليه من "استجابة" رأى هوشع أنها واعدة بالخصب والوفرة لاسرائيل: "أكون لاسرائيل كالندى. يزهو كالسوسن، ويضرب أصوله كلبنان. تمتد خراعيبه ويكون بهاؤه كالزيتونة وله رائحة كلبنان" (هوشع ١٤: ٥ و٦)، سرعان ما تحول إلى زمجرة يهوه من صهيون: "يهوه من صهيون يزمجر ومن أورشليم يعطي صوته فترجف السماء والأرض" (يوئيل ٣: ١٦)، "ان يهوه يزمجر من صهيون ويعطي صوته من أورشليم فتنوح مراعي الرعاة، وييبس رأس الكرمل" (عاموس ١: ٢). فلا سماء تستجيب هنا لأرض، ولا أعمال مياه تستجيب للنجوم بعهد سلام وخصب ووفرة، لأنه "أبصرتك (يا يهوه) الجبال ففزعت. سيل المياه طما. أعطت اللجة صوتها. رفعت يديها إلى العلاء (وأنت) بغضب خطرت في الأرض، بسخط دست الأمم (من أجل) خلاص شعبك، خلاص مسيحك" (حبقوق ٣: ١٠ و١٢). نحن نرى: "وتستجيب أعماق المياه للنجوم"، التي رفعت من "عهد سلام" بعل، ما لبثت أن تحولت إلى "سيل المياه طما. وأعطت اللجة صوتها. رافعة يديها إلى العلاء (إلى النجوم)" في يوم هول يدوس فيه يهوه الأمم بسخط، من أجل خلاص شعبه.

حقيقة الأمر أنه لا سبيل أمام العقل، أو حتى أمام العاطفة الدينية والرغبة في الايمان والتصديق، حيال هذا النمط من الانزال لكل ما هو علوي إلى أسفل، وتضييق كل ما هو كونيّ إلى ما هو قَبَليّ، الا تبرئة الألوهة من وزر هذا التعامل مع الألوهة بالتمني: تمني أن تكون الألوهة سلاحاً في حوزة القبيلة تفتك باستخدامه بـ"الأمم"، واذ ترتوي من دماء تلك الأمم، "تزهر كالسوسن، وتضرب أصولها كلبنان، وتمتد خراعيبها (أفرعها) ويصبح بهاؤها كالزيتونة ويبيت لها عبق لبنان"!

ومفتاحنا إلى فهم مدى الاشتياق في هذا التمني، اسم لبنان الذي تكرر مرتين في هذا النص القصير. فالتمني حارق. وفي صميم جذوته الشعور بضآلة الشأن والضياع(*)

(*) وقد لا يفصح نص في العهد القديم عن عمق ذلك الشعور وضراوة ما تخمر بسببه كالصديد في الروح مثلما يفصح هذا النص من إشعياء الأول:

> "فان ليهوه رب الجنود يوما على كل متعظّم وعال وعلى كل مرتفع فيوضع (يخفض، ينزل من عليائه). وعلى كل أرز لبنان العالي المرتفع وعلى كل بلوط باشان. وعلى كل الجبال العالية وعلى كل التلال المرتفعة (لأنه لا يجب أن يعلو جبل أو تل على تل صهيون). وعلى كل برج عال وعلى كل سور منيع (لأنه محبط لرغبة الاجتياح والأخذ).

وفي الوقت ذاته الجوع الذي لا يعرف الشبع إلى ما بأيدي الآخرين. وذلك ما فطن اليه الكاهن الآبق موسى من مبدأ الأمر وببراعة رجل الدولة المتمرس أحكم قبضته على مقود العبيد الآبقين المطرودين من مصر من خلال مداواته إياهم من الشعور بالنقص وضآلة الشأن بأن غرس في تربة الديانة من مبدأ أمرها بزرة جنون عظمة انبجس من الإيهام بحيازة حصرية لإله خاص لا يشارك "الشعب" فيه أحد والإيحاء من خلال ذلك الإيهام المميت بأن "الشعب" شعب "أخَصّ" و"أمة مقدسة". وفي حين عمل موسى على المداواة من الشعور بالنقص والضياع وحقارة الشأن بمقومات جنون العظمة ذاك، وعد "الشعب" بإشباع جوعه إلى ما ظل يراه بيد الغير من الشعوب ذات الحضارات المستقرة في أوطانها التي تشرّد بينها فتمنى لو كان له، مؤكداً لذلك "الشعب" أن إلهه الخاص به سيمكّنه، وهو يقوده ويحارب عنه، من ذبح كل تلك الشعوب وأخذ ما بأيديها تعويضاً له عما فقده بطرده من "أرض مصر، جنة الرب" كما وصفتها التوراة بإجراء القول على لسان لوط (تكوين ١٣:١٠). وقد ظل ذلك الوعد الذي بدأه موسى يتسع من أخذ "الأرض التي تفيض لبنا وعسلا" (أرض كنعان)، إلى أخذ كل الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات، إلى أن بلغ ذروته لدى النبيين الذين أكدوا لـ"الشعب" أن يهوه سيجعله "يأكل ثروات الأمم" (إشعياء ٦١:٦) ووعدوا صهيون بأن "الظلمة (سوف) تغطي الأرض والظلام الدامس (يحتوي) الأمم. أما أنت فعليك يشرق يهوه ومجده عليك يرى. فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك.. بنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك.. وتنفتح أبوابك دائما. نهارا وليلا لا تغلق ليؤتى اليك بغنى الأمم وتقاد اليك ملوكها. لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد وخرابا تخرب" (إشعياء ٦٠:٢ و٣ و١٠ و١١).

ولقد يكون مما يستوقف الفكر هنا، إن شاء العقل أن يفكر، وجود هذه الحتمية التي لا مهرب منها فيما انطوت عليه الرؤى الوضيئة الواردة في النصوص المقدسة، أي حتمية التضاد بين "صهيون" وكل الأمم. فكل الأمم هنا خصم شرير. عدو. لا يمكن أن تشرق الشمس عليه وعلى صهيون في آن معا. بل يتعين أن تغطيه الظلمة وتبتلعه في حين

وعلى كل سفن ترشيش وعلى كل الأعلام البهجة. فيخفض تشامخ الانسان وتوضع رفعة الناس ويسمو يهوه وحده في ذلك اليوم (ويسمو به شعبه)" (إشعياء ١٢:٢-١٧)!

وكما هو ملاحظ من النص، استشرت العداوة فلم تقتصر على تشامخ الآخرين، بل امتدت فشملت الشجر والجمادات والجبال والتلال لأنها مرتفعة، وانصبت أيضا على الرواج التجاري (سفن ترشيش) وعلى كل عرض من أعراض البهجة لدى الغير. ويبدو أن محرر النص لم يفته ما نطق به كلام إشعياء فأولج فيه كلاما عن الأوثان وعن هيبة يهوه كيما يبدو كما لو كان إشعياء، ذلك الرجل التقي، ينعي على الناس بعامة تعاليهم وتشامخهم. غير أن المحرر فاته أن يفعل نفس الشيء فيما بعد بنص مماثل من حزقيال تهدد فيه يهوه مصر وكل الأمم العظيمة بأنه سوف "يحدرها إلى الأرض السفلى" (حزقيال ١٨:٣٢).

يشرق النور على صهيون من مجد يهوه. والذي يمكن أن يستوقف الفكر في ذلك التساؤل المنطقي البسيط، وهو: لماذا؟ هل ذلك لأن يهوه لا شأن له بكل الأمم، أم لأنه خصم لها؟

غير أن ذلك لا يستقيم وكون يهوه إلهاً سماوياً لكل الأرض وكل البشر، على الأقل منذ تبين أنه إله محتجب حقا ورُفِع إلى ما فوق الجَلَد. لكنه يستقيم-ما لم يكن في الأسفار المقدسة خلل جوهري- اذا ما كان يهوه، حتى مع كونه قد احتجب ورُفِع إلى ما فوق الجَلَد، قد ظل إلهاً خصوصياً لـ"شعبه الأخَصّ"، وكانت سكناه هناك في قصره، على قمة جبل انتصاره، صهيون، تماما كما سكن بعل في قصره، على قمة جبل انتصاره، صفون. وهو ما يؤكده قول إشعياء فجأة، مخاطبا صهيون:

"وأرضك تدعى بعولة. لأن يهوه يسرّ بك وأرضك تصير ذات بعل" (إشعياء ٦٢:٤).

ولقد كان ذلك مدار الهذيان كله في واقع الأمر: أن تصبح أرض كنعان ملكاً خالصا لـ"الشعب" يتربع على قمته الكهنة اللاويون (وبالذات الهرونيون) في ظل بعل خاص بهم هو يهوه.

ولما لم يكن الكهنة قد نسوا خبرة موسى فيما تعلق بـ"الشعب" وبعل صفون، فانهم-حتى وهم سادرين في عملية الإصعاد إلى ما فوق الجَلَد ليهوه المجدَّد المحسَّن اللاتشبيهي (أي الذي لا "ينزل" ويتجسد ليراه عباده وليتحدث إلى قادتهم "كما يحدث الرجل صاحبه" مثلما كان يفعل مع موسى وإيليا وكل أولئك الأخيار)-لم يجدوا أنه كان مما يخدم أغراضهم التي تمثلّت في الإبقاء على مقود "الشعب" الحرون في أيديهم أن يتمادوا في عملية الإعلاء إلى حد تجريد يهوه من كل تلك القدرات والصفات والمواهب التي كان من سبقوهم من صنّاع الديانة ومخلّقي المعبود، ابتداء من موسى، قد سرقوها لذلك المعبود الذي عانى من مبدأ أمره من الإملاق اللاهوتي.

وهكذا فإنه، بالاضافة إلى صفات "الإله العلي" (العليون)، وصفة الإله الذي له "شعب" يخصُّه، وصفه "الأب قديم الأيام"، وصفة "باسط السموات ومالكها"، وصفة "الإله الرحيم العطوف الحنون" المغتصبة بشكل لافت للنظر في حالة يهوه، وصفة "الإله الشافي"، وصفة الإله الأب عاشق ابنته (في حالة يهوه: ابنته وعروسه اسرائيل)، التي سُرقت ليهوه من أسطورية إيل، والتي أُبقيت له بعد إعلائه فوق إيل و"سمواته القديمة"، وبالاضافة إلى تعزيز ملوكيته، المسروقة أصلا من أوسير (أوزيريس)، بما سُرق له من ملوكية إيل، نجد أن يهوه احتفظ-بعد إصعاده واختبائه فيما فوق الجَلَد-بعدد كَبير من المسروقات التي سُلِبت له من البعليم المنافسين.

في بحثه القيم، "التاريخ المبكر لله" (من منطلق أن "الله" هو-بالضرورة-يهوه)، يقول مارك سميث(١٥)، أن المعلومات المتوافرة في المصادر التي ثبتت صحتها تشير إلى تعددية لا سبيل إلى تجاهلها فيما أسماه بـ"الممارسات الدينية لإسرائيل القديمة". ويقول أن

تلك التعددية أفضت أحيانا إلى صراع حول ما أنبغى أن تكون عليه الممارسة اليهيوية السليمة، ثم يضيف قائلا أن ذلك الصراع -تحديداً- كان ما أفضى إلى ما أسماه بـ"التمييز" بين الديانة الاسرائيلية وبين موروثاتها الكنعانية، خلال النصف الثاني من "العصر الملكي". ويقول أننا -نتيجة لذلك الصراع ومترتباته- نجد أن "بعض مكونات الديانة (اليهودية) قد حُوِّلت أو "أُخرِسَت" بطرق مختلفة في العهد القديم. ويشير إلى أن الأمثلة على ذلك التحويل أو "الإخراس" واضحة تمام الوضوح فيما تعلق بالأوصاف الأنتروبومورفية (التشبيهية) ليهوه، وبكل ما يشير إلى الإلاهة. فعلى الرغم من أن كلاً من التصوير الأنتروبومورفي ليهوه و(حضور الإلاهة) كانا جزءا لا سبيل إلى انكاره من تقاليد اسرائيل الضاربة في القدم، فإن كلا منهما أُخضِع لقدرٍ كبيرٍ من التعديل والتغيير خلال عملية "التمييز" بين الديانة (اليهودية) وموروثاتها الكنعانيّة.

والباحث -على جديته- يطرح نتائج بحثه وهو: (١) تحت تأثير خلفيته الأنجلوساكسونية، و(٢) تحت تاثير الاعتبارات العملية البراغماتية الصرف المتمثلة في السطوة اليهودية التي لا خلاف عليها فيما تعلق بالهيمنة على مراكز البحث العلمي والجامعات ومنافذ النشر. وتبعا لذلك فانه- كما قد نلمس في القول المستشهد به من كلامه -يكتب كما لو كان يسير على سلك مشدود مهتز فوق هاوية لا قرار لها، ويختار- بمنتهى الحرص والحذر- أقل التعبيرات إحداثاً للضرر. إلا أن ما كتبه في مقدمة بحثه واضح- مع ذلك -بما فيه الكفاية. فهو يقول: (١) أن الديانة اليهودية انطوت على مكّونات كنعانية لا خلاف عليها، و(٢) أن الديانة (فيما أسماه بـ"تقاليد اسرائيل الضاربة في القدم") تضمنت تصوراً أنتروبومورفياً ليهوه، كما نطقت بحضورٍ لا سبيل إلى انكاره للألوهة المؤنثة، و(٣) أن عملية تحرير العهد القديم انطوت على قدرٍ كبير من "التعديل والتغيير" عملاً على ما أسماه بـ"التمييز بين الديانة (اليهودية) وموروثاتها الكنعانية"، أي -بغير كل ذلك الحرص في اختيار الألفاظ- في عملية طمس المكّونات الكنعانية، أو -كما قال هو- إخراسها.

ولا خلاف لنا مع الباحث على معظم ذلك، باستثناء ما قد يوحي به قوله من أن التصور الأنتروبومورفي للمعبود والحضور الذي لا سبيل إلى انكاره للألوهة المؤنثة كان مصدرهما "الموروثات الكنعانية" وحدها، وهو ما نأمل أن يكون ما أوردناه من نتائج بحثنا هذا قد أوضح وجهة نظرنا في شأنه. فالمؤثرات الكنعانية وحدها لم تكن المصدر الوحيد، لا لأنتروبومورفية المعبود، ولا للحضور القوي للألوهة المؤنثة الذي لم تفلح عملية "التمييز"، أو -بالأصح- الطمس-، في طمسه.

فيهوه لم يَفِد إلى كنعان من فراغ. وحقيقة أنه كان منذ البداية فقيراً أسطورياً ولاهوتياً اقتصرت قدراته على السطو والسلب والنهب والتدمير وقذف النيران، ولم يكن يمنح "البركة" المتمثلة في (١) كف أذاه عن عباده المؤابيين والمديانيين، و(٢) الانعام عليهم بالخصوبة الجنسية للبشر والماشية، الا بطقوس جنسية غاية في الفجاجة، كإجلاس

العذارى على وثنه، تقدمة لبكاراتهن إليه،(*) وكشف العورة والعجز أمامه، الا أنه-بعد أن "اكتشفه" موسى وتبناه وأخذ يجلوه ويكسوه، أُسبغت عليه قدرات أخرى شملت-من خلال ابتلاعه بعل صفون- قدرةَ منح الخصوبة للأرض، وقدرة توفير المياه، وقدرة إسقاط المطر، جنباً إلى جنب مع قدرة إحداث الرعد وقذف البروق وركوب السحب واحداث العواصف. فهو لم يَفِد إلى كنعان عارياً مملقاً كما وجده موسى، بل وَفَد وقد طُوِّر وكُسِي وبات صاحب قدرات لا يستهان بها، لم يكن أقلها السحر الذي سرقه له موسى بين ما سرق من الديانة المصرية وأعطاه إياه مشوهاً منتزعاً من سياقه الأخروي.(**) ومحصلة ذلك كله أنه عندما بدأت في كنعان، بعد التئام شمل الشراذم المطرودة من مصر وعلى رأسها طغمة موسى اللاوية بأبناء عمومة تلك الجحافل الذين كانوا قد استقروا في كنعان، عملية توفيق العبادات، لم يكن اختلاف يهوه عن بعليم كنعان اختلافا في النوع، بل في الدرجة. فكل ما هنالك أن أولئك البعليم المحليين كانوا ذوي عبادات ضاربة في القدم وأسطوريات جسّدت الإبداع الجمعي لمجموعات بشرية مستقرة كانت ذات تاريخ طويل من العيش في رحاب حضارة من الحضارات العليا للشرق الأدنى القديم. ولهذا كان بعليم كنعان، وعلى رأسهم إيل، مضيفين أثرياء باذخي الثراء أسطورياً ودينياً للضيف الوافد يهوه، الذي كان مازال-على الرغم من كل ما كان قد طُوِّر به وحُسِّن وأُغني- ضيفاً معوزاً بالمقارنة إلى أولئك المضيفين.

بازاء هذه الخلفية، يمكننا أن نذهب باحثين عن تلك المكونات أو "الموروثات" الكنعانية التي تحدث عنها مارك سميث، والمجسِّدة للهوية البعلية في هوية يهوه. وسنجد أنها تمثّلت أساساً في:

(*) ومن هنا كان اسم يهوه الأصلي: بعل فغور، أي بعل الذي يجعل الرحم يفغر أي ينفتح. ورغم كل المراجعات وعمليات الرقابة من جانب المحررين والمترجمين ظلت الأدلة على تأصل كل ذلك في حكاية يهوه متوافرة في الأسفار المقدسة. فهو قد دعي مرارا باسم "فاتح الرحم" كما في "وذكر يهوه راحيل وسمع لها، وفتح رحمها" (تكوين ٣٠:٢٢)، كما وصف باستمرار بمانح الخصوبة بعد العقم، كما في حالة سارة امرأة أبراهام (تكوين ٢١:١)، ورفقه امرأة اسحق (تكوين ٢٥:٢١)، وغيرهما. كما يوقفنا سفر التثنية على أن يهوه، حتى في التاريخ المتأخر لتأليف ذلك السفر، ظل شديد الاهتمام ببكارة العذراء إلى حد قتل من تفرط في بكارتها قبل طقوس الزواج، رجما بالحجارة (تثنية ٢٢:٢٠). أما كشف العورة، كما رأينا في كثرة من الاستشهادات من فورات غضب يهوه لزيغ معشوقته اسرائيل، فظل شاغلا بالغ الأهمية لدى يهوه بعد كل محاولات تخليصه من هوية بعل فغور. وأما عن تعرية العجز أمام ذلك الوثن، ففي سفر الخروج ١٨:٢٣ نص ملغز تلغيزا كثيفا يقول فيه يهوه لموسى عندما يطلب منه هذا الأخير أن يريه وجهه: "لا تقدر أن ترى وجهي.. اني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز ثم أرفع فتنظر (ذيل ردائي) ورائي وترى مؤخرتي". وقد اكتفى المترجمون إلى العربية بـ"تنظر ورائي"، إلا أن ترجمة الملك جيمس أوردت النص هكذا:

"AND THOU SHALT SEE MY BACK PARTS, BUT MY FACE SHALL NOT BE SEEN".

(**) ارجع في ذلك إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص١٣٢-١٣٥، ٣٧٠، ٣٩٠-٣٩٧.

(١)	القدرة على إحداث ظواهر ما نعرفه اليوم باسم الظواهر الجوية وما أسمي، في رطانة البحوث التوراتية باسم "ألوهة العواصف".

(٢)	القدرة على منح الخصوبة (الجنسية) والخصب. وفيما تعلق بالبعليم الذكور، عبدت تلك القدرة المتصورة، في سياق ما يعرف بالسحر المِثلي أو المُحاكي، بوصفها قدرة المعبود القضيبي على إخصاب الرحم الكوني بمنيه المقدس خالق الحياة، ورمّز المعبود من خلالها بـ"الثور".

(٣)	الفتوة الحربية الكونية التي صُوِّرت أسطوريا بالانتصار على المياه وعلى وحش المياه، التنين، وعُبدت بوصفها فتوة الإله "رجل الحرب" المدافِع عن عباده.

(١/أ/٩) ألوهة المطر والعواصف ليهوه من "البعليم"

جلّ بعليم كنعان عزيت إليهم قدرات متباينة تعلقت بالجو والمطر والعواصف والسحاب والتحكم في المياه ومنحها أو منعها، وظلت تلك القدرات في حالة كل منهم مكّونا أساسيا من مكونات ألوهته. وذلك ارتباط بين الألوهة وظواهر الجو لم تنفرد به العبادات الكنعانية. فآلهة سومر وبابل وأشور أيضا حازت تلك القدرات وعُبدت لكونها حازتها. وفي مصر-التي لم تعتمد الحياة فيها على الأمطار بالقدر الذي لاحظه مؤلفو أسفار التوراة فيما يخص كنعان،(*) بل اعتمدت على فيضان النيل-ارتبط النيل وفيضانه، في الفكر الديني المصري، بالألوهة، بل وأُسبغت الألوهة على ذلك الفيضان باسم حابي الكبير أو حابي الصغير تبعا لمدى ارتفاع منسوب النيل.

وبالنظر إلى أن شراذم العبيد المطرودين التي لصق بها موسى واللاويون كانت من رعاة الغنم والمواشي كما يقطع حكي سفري الخروج والعدد، وإلى أن تلك الشراذم طيلة تطفلها على أرض مصر لم تعاني من شح المياه وهي التي

(*) فسفر التثنية (الذي أُلّف بعد موسى بقرون) عُني بأن يُجري على لسان موسى هذا القول:
"لأن الأرض التي أنت داخل اليها لتمتلكها ليست مثل أرض مصر التي خرجت منها حيث كنت تزرع زرعك وتسقيه برجلك (أي بقلة اكتراث، نظراً لوفرة الماء) كبستان بقول. بل الأرض التي أنتم عابرون اليها لكي تمتلكوها هي أرض جبال وبقاع. من مطر السماء تشرب ماء. أرض يعتني بها يهوه إلهك. عينا يهوه إلهك عليها دائما من أول السنة إلى آخرها" (تثنية ١١: ١٠-١٢).
ومؤلف السفر يتحدث من واقع خبرته بعد قرون من بدء الاستيطان في كنعان، لأنه يتحدث إلى مزارعين، لا رعاة غنم ومواش، فيجعل ممن كانوا في مصر وطردوا منها فلاحين كانوا يزرعون بساتينهم وحقولهم بفضل وفرة الماء في مصر، بالمناقضة لكل أسفار التوراة الأخرى التي تقطع بأن أولئك المطرودين كانوا وظلوا لوقت طويل بعد طردهم من مصر رعاة غنم ومواش.
لكن الهاجس الأساسي المتعلق بالماء هو المهم هنا، فمؤلف السفر ينبّه إلى أن أرض كنعان غير أرض مصر، فهي أرض "من مطر السماء تشرب ماء" وينبّه إلى أن الذي يجود عليها بذلك الماء من أول السنة إلى آخرها هو يهوه. وسنرى كيف ابتز "الشعب" بذلك الاحتياج إلى المطر لحساب يهوه.

علقت بجسم البلد المضيف في "أرض جاسان، أفضل الأرض"، أي محافظة الشرقية الآن، فان أول شاغل لها بعد الطرد كان الاحتياج إلى الماء في "القفر"، أي في صحراء سيناء:

"ولم يكن ماء ليشرب الشعب. فخاصم الشعب موسى وقالوا اعطونا ماء لنشرب. فقال لهم موسى لماذا تخاصمونني؟ لماذا تجربون يهوه؟ وعطش الشعب إلى الماء. وتذمروا على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش؟"

(خروج ١٧:١-٣).

وكان ذلك بعد الخروج من "برية صين" والنزول في رفيديم. غير أن تلك لم تكن المرة الأولى التي ذعر فيها "الشعب" بسبب الافتقار إلى الماء بعد وفرة مصر. فواقعة الرجوع والنزول "أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون" (خروج ١٤:٢)، التي عزيت في حكي التوراة إلى أمر من يهوه لأن يهوه أراد أن "يتمجد مرة أخرى في فرعون"، كانت هرولة من جانب المطرودين عوداً إلى : (١) معبودهم بعل صفون (حدّاد/شدّاد المكنعن) وهو رب عواصف ومطر ومياه، لوذاً به، و(٢) الفرع القديم للنيل (البيلوزي) الذي أسميت باسمه بيلزيوم (تل الفرمة). وان كان فرعون وجيشه قد ظهرا لـ"الشعب" وموسى والطغمة اللاوية في ذلك الموضع، فمن المؤكد أن ذلك لم يكن لأن "قلب فروعون وعبيده كان قد تغير فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا اسرائيل من خدمتنا" كما ادّعى مؤلفو السفر (خروج ١٤:٥)، بل كان لمطاردة تلك الشراذم المطرودة التي دارت على أعقابها فعادت لتعلق بجسم مصر ثانية بأمراضها الجلدية والتناسلية التي طُردت خوفاً من عدواها. وبطبيعة الحال، لم يكن مهرب من "الانتقام" من مصر وفرعون بالطريقة المألوفة في تأليف حكايات التوراة وسائر العهد القديم، أي بتأليف التاريخ بالتمني، وبذلك أُغرق فرعون وجيشه في مياه البحر الأحمر الذي شقه يهوه ليعبره "الشعب" وموسى واللاويون سالمين. فصارت معجزة يتغنى بها المؤمنون حتى اليوم.

فالماء، كما نرى، كان في ذلك الزمن السحيق، مثل ما هو الآن، مورداً تُشعل الرغبة في الاستحواذ عليه حزازة دموية لدى "شعب يهوه الأخص"، قد يكون أشبعها تأليفاً بالتمني في حكاية عبور البحر الأحمر، في ذلك الزمان، لكنه مشبعها اليوم، ولا ريب، بأنياب ومخالب وحشه "اليهو-مسيحي" القادم مما وراء البحار وأسلحته ودعمه وايمانه الممعن في التقوى بكل كلمة من كلمات العهد القديم، من أول كلمة إلى آخر كلمة فيه.

غير أن ذلك هو الحادث الآن عملاً على تمكين "الشعب" من حيازة كل ما هنالك: الأرض، والثروة، والماء وغيره من الموارد. أما قديماً، عند ابتداء المحنة التي ابتَلى بها الكاهنُ المارقُ موسى عالماً بأسره سعياً وراء طموحه الخائب الذي ذُبح ولم يحققه، فلم يكن لـ"الشعب" سند دنيوي كهذا الذي

تستند اليه الحركة الصهيونية بظهرها. كل ما كان لديه معبوده السومري المكنعن رب العواصف والمياه بعل صفون. وفيما يخص يهوه، كان دوران "الشعب" على أعقابه إثر طرده من مصر ورجوعه إلى بعل صفون، أول احتكاك ليهوه بمشكلة المياه. فيهوه-أصلاً- كان شيطان براكين وإله نيران(*) لا إله سحب ومياه. وبطبيعة الحال، لم تغب خطورة ذلك الافتقار إلى قدرة منح المياه عن فطنة موسى. فكان أن اجتهد في اضفاء تلك القدرة على معبوده المرفوض من "الشعب" بحيل سحرية يبدو أنه اراد اقناع قطيع العبيد المطرودين من خلالها بأن يهوه لم يكن أقل سحراً من بعل صفون. فعندما وصل المطرودون إلى "مارة، ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر، ولذلك دعي اسمها مارة،(**) تذمروا على موسى قائلين ماذا نشرب؟ فصرخ موسى إلى يهوه. فأراه يهوه شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذبا" (خروج ١٥:٢٣-٢٥). وبعدها بقليل، عند وصولهم إلى رفيديم وتذمرهم ثانية بسبب الافتقار إلى الماء كما في الاستشهاد الذي أوردناه، "صرخ موسى إلى يهوه، ثانية، فقال له يهوه "خذ عصاك التي ضربت بها النهر (ضربت بها النيل فحولته إلى دم)، وأنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا" (خروج ١٧:٥ و٦).

غير أن تلك الحيل السحرية لم تلق قبولاً من "الشعب" بدليل أنه ظل "يقاوم يهوه" كما قالت التوراة على لسان موسى في سفر التثنية. وكان ذلك حافزاً قويا لموسى على التساهل الذي فتح باب ادماج هويات كل من شكّلوا منافسة ليهوه من الآلهة الآخرين،

(*) ارجع في ذلك إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص١٤٩-١٥٩، وتحت بند "إله بركاني" من الفهرس الأبجدي.

(**) وهذا تكنيك الحكاية الخرافية: التسمية تعني الحدوث. العين أسميت مارة فلذلك ماؤها بات مرا. وقد قلب مؤلف الحكاية ذلك المنطق في سفر الخروج بقوله "لأن ماءها مر فلذلك دعي اسمها مارة". وحقيقة الأمر أن معجزة تحويل الماء المر إلى ماء عذب هذه مسروقة ليهوه من التاريخ الأسطوري للإله البطل إنكي السومري مانح المياه. ففي جنة دلمون (التي سرقت ملامحها الأسطورية لجنة عدن ثم عاد فسرقها إشعياء في تصويره للجنة التي ستتحول اليها أرض البشر عندما تحكمها صهيون، إشعياء ١١:٦-١٠) عندما تضرعت إلآهتها إلى إنكي، "شربت دلمون مياه الوفرة، وآبارها مُرّة المياه جعلها الرب إنكي عيون ماء عذب". ولم يكتف مؤلفو الأسفار المقدسة بسرقة تلك المعجزة المائية ليهوه وموسى، فعادوا وسرقوها لأليشع وجعلوه يحول ماء البئر التي اشتكى له أهل اريحا من مائها المر إلى ماء عذب، فجعل تلك البئر "لا يكون فيها بعد موت ولا جدب، وبرئت المياه إلى هذا اليوم حسب قول أليشع الذي نطق به" (الملوك الثاني ٢:١٩-٢٢)، وارجع أيضا إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص٣٨٢/٣٨٣. وفي شأن جنّة دلمون وسحر إنكي الذي حول آبارها المر إلى ماء عذب، ارجع إلى ترجمة البروفسور كريمر (بالمرجع [٢٧]) "الميثولوجيا السومرية":

Samuel Kramer: "Sumerian Mythology", Op. Cit. P.55.

وهو التساهل الذي تمثل في عدوله عن اتجاهه الإعلائي المصري وادماجه بعل صفـون فـي يهوه عن طريق سلب قدرات ذلك المعبود المكنعن لمعبوده المخلّق.(*)

واذ فتح ذلـك البـاب، لـم يغلـق. فدمـج يهـوه إلـه البراكين في بعـل صفـون إلـه العواصف، الذي صوّره ببلاغة المزمور ٥٠ بقوله أن يهوه، "إله الآلهة" (أعظم الآلهة سـحراً وقدرة) "نار قدامه تأكل وحوله عاصف جدا" (مزمور ٥٠: ١-٢)، جعل مـن أكـثر الأمـور طبيعية، في سياق عملية توفيق العبادات في كنعان، أخذ وظيفة منح المطر مـن إيـل، كبـير "البعليم"، ثم من ابنه، الإله التنفيذي أو القوة الفاعلة في مجمع الآلهة الكنعاني، بعل. وبعـل ذاك كان سيد جبـل صفـون الـذي كنعـن "الآراميـون التـائهون" ("الشـعب" قبـل أن يصبـح "العبرانيين" ثم يصبح "بني اسرائيل") معبودهم الأصلـي حـدّاد/شـدّاد بادماجـه فيـه. واذا مـا أخذنا في الاعتبار أن إيل كان الإله الكنعـاني الـذي عبـده ابراهـام ويعقـوب واسـحق باسـم "العليون" أي الإله العليّ، وصارعه يعقوب فأوشك أن يغلبه (أي أخذه لعشـيرته مـن عبـاده، الأصليين، الكنعانيين)، وأنه في عملية كنعنة الإله السومري حدّاد/شدّاد لم يفـرّق الآراميـون التائهون بين إيل وابنه بعل في إدماج الهويات، أمكننا أن ننفذ إلى مـا وراء التعقّـد الظـاهري للمنبع المزدوج الذي اغتصبت ليهوه منه قدراته الجوية والمائيـة: النبـع السـومري المكنعـن حدّاد الذي أسبغت عليه هوية بعل صفون، والنبع الكنعاني الخالص أي إيل وابنه بعـل (رب جبل صفون الذي أسبغت هويته على حـدّاد، واسـم حـدّاد يطالعنـا فـي نصوص أوغـاريت بوضوح، اذ هو مذكور فيها باسم "أدّو" و"حدّو" بوصفه موازياً لبعل).

وحدّاد، كما أسلفنا، كان إله مطر ورعد وعواصف. وإيل، هو الآخر، كـان إلاهـاً مانح مطر، لكنه بعد ما أظهره من ضعف في مواجهة الانقلاب السـماوي الـذي أوشـك أن يقوم به ابنه "يم نهر"، تخلى عن تلـك القـدرة الهامـة لابنـه الآخـر بعـل وكافـأه-بنـاء علـى وساطة عشيرة- بالسماح له "ببناء بيته على قمة جبل صفون".

والحقيقة أن الأمر بين بعل وأبيه إيل لم يقتصر على قـدرة إسـقاط المطـر واحـداث الظواهر الجوية، بل تعداه إلى النطاق العائلي. فعانات، التي كانت كعشيرة إبنة لإيل وزوجه له، باتت زوجة لأخيها بعل والمحاربة الضارية دفاعاً عنه ضد الأخ الشرير موت الذي يعتبر قريناً، في الميثولوجيا الكنعانية، للأخ الشرير ست عدو أوسير وآسـت (أوزيريـس وايزيـس) في الميثولوجيا المصرية.

ولما كان ذلك النوع من الزواج السفاحي بين آلهة وإلاهات الشرق الأدنى القديـم قد ارتبط-فيما يُفصـح عنـه استقراء أسـطوريات تلـك المعبـودات- بمـا يمكـن أن نسـميه بـ"شؤون الدولة" (وهي تسمية لا إغراب فيها متى اعتبرنا بأن الإلـه فـي تلـك الأسـطوريات اعتبر "ملكا") مثلما ارتبط زواج الفرعون من أخته، فانه يبدو أن التحول الأسطوري لعانـات

(*) ارجع إلـى "بعـل صفـون" مـن الفهـرس الأبجـدي فـي كـل مـن "قـراءة سياسية للتـوراة"، وبخاصـة ص ص٢١٥-٢١٩، و"السحر في التوراة والعهد القديم"، وارجع أيضا إلى ٢/ب أعلاه.

(التي دعاها الكنعانيون بـ"البنيّة" أو "الصبية") من زوجة لأبيها إيل إلى زوجة لأخيها بعل (أي أنها أصبحت الوجه الأنثوي من ألوهته الأندروجينية) كان تجسيداً أسطورياً لتغير موازين "السيادة" السماوية في البانثيون (مجمع الآلهة) الكنعاني إثر الصراع البطولي بين بعلٍ وأخيه "يم نهر" (قرين أبسو في الأسطورة البابلية)(*) الذي تمرد وأوشك أن يطيح بالآلهة ابتداء من الأب، العليون، إيل، لولا أن تصدى له بعل وهزمه فانتزع منه ملكه (ألوهته) المياه. ثم أخضع ذلك الملك له بانتصاره على التنين لوتان (الذي جُعِل، عندما اختلس ليهوه، لوياثان).

من ذلك النبع كثير الروافد، اغتُصبت للمعبود البركاني يهوه قدرات جوية ومائية أفعمت بذكرها نصوص التوراة وغيرها من نصوص العهد القديم مشفوعاً بتهديدات من قبيل: "احترزوا من أن تنغوي قلوبكم فتزيغوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها. فيحمى غضب يهوه عليكم ويغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطي الأرض غلتها، فتبيدون سريعا عن وجه الأرض الجيدة التي (أعطاكم)" (تثنية ١١:١٦ و١٧). أو بوعود من قبيل: "اذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها، أعطي مطركم في حينه، وتعطي الأرض غلتها وتعطي أشجار الحقل أثمارها، ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتأكلون خبزكم للشبع وتسكنون في ارضكم آمنين" (لاويين ٢٦:٣-٥).

ومن الواضح هنا أن كلا السفرين، اللاويين والتثنية، يخاطب أناساً غير الذين كانوا تائهين مع موسى في القفر بأغنامهم ومواشيهم، يخاطب قوما فلاحين لا رعاة، وأناساً قد استقروا في "أرضهم" وباتت همومهم مختلفة عن هموم الرعاة من البدو الرحل أو من التائهين في القفر. فالمطر-فيما يخص الرعاة، كما كان القوم قبلا- غير المطر فيما يخص المزارعين (الذين تحوّل القوم فباتوا منهم عندما استوطنوا في كنعان). فهو مورد مطلوب على الحالين نعم، لكنه، فيما احتاجه المزارعون، تعين أن يكون مطرا في أوانه: مطر غزيز في الشتاء ليروى الزرع فينبت في الربيع، وطلّ في الصيف لانضاج المحاصيل قبل الحصاد. وتبعا لذلك كان تغير أفضال يهوه و"إعطاؤه المطر في حينه" كما لوّح سفر اللاويين في سياق استخدام صانعي أسطورية يهوه لتلك القدرة التي سُرقت له في إحكام قبضة الكهنوت اليهيوي على مقود "الشعب".

وإذ سرقت تلك القدرة الثمينة من الآلهة الأخرى، جُعِل يهوه يستدير- كدأبه- فيأمر نبييمه قائلا:

> "هكذا تقولون لهم (لـ"الشعب"): الآلهة التي لم تصنع السموات والأرض تبيد من الأرض ومن تحت هذه السموات. (يهوه وحده) صانع الأرض بقوته باسط السموات بفهمه (هو الذي) اذا أعطى قولا تكون كثرة

(*) ارجع إلى "قراءة سياسة للتوراة"، ص ص١٥٧ و١٥٨.

مياه في السموات ويصعد السحاب من أقاصي الأرض.
(هو) الصانع بروقا للمطر المخرج الريح من خزائنه".

ومن فرط أهميته، تكرر هذا النص مرتين في سفر إرميا: في ١٠:١١-١٣ و١٥:٥١ و١٦.

(٩/أ/٢) الثور وألوهة الفحولة الجنسية المنجبة للكون

منذ بدأ الانسان القديم يسقط خبراته الجنسية المعاشة على ظواهر ايجاد الكون والكائنات، أي على ما تسميه الأديان بـ"الخلق"، أبرز فيما أبدعه من أساطير ارتباط الجنس بالحيوان. وقد كان ذلك طبيعيا. فهو لم يجد نفسه الممارس الوحيد في الطبيعة للنشاط الجنسي، بل وجد الحيوانات (التي أثارت دائما عجبه، وتساؤله، وخوفه) آخذة فيه هي الأخرى بلا انقطاع. وكان اتجاه العقل القديم، في التعامل مع ذلك الواقع الطبيعي، منحصراً في ملاحظة الشكل، في مبدأ أمره. ففي ذلك التعامل، أخذ منطلقه من شكل الحيوان، بمعنى أن ملاحظته الشبه بين شكل القضيب وشكل الثعبان وشكل عنق السلحفاة ورأسها قد تكون أول ما استوقفه وقاده إلى ذلك المنحى من التفكير الشعري/الأسطوري الذي يوقفنا تاريخ العبادات على أنه أفضى إلى عبادة الثعابين والسلاحف باعتبارها، وهي الكائنات الخاصة والغامضة، متصلة بما وراء المرئيات ومجسّدة أو محتوية العنصر الفاعل في العملية الجنسية، وهو القضيب. وقد يكون مما أكسب ذلك المنحى من التفكير التخيلي قوة، ما لاشك أن الإنسان القديم لاحظه من "قدرات" لدى هذين الكائنين، كقدرة الثعبان على "التوالد من ذاته" (بالخروج من جلده القديم)، وقدرته على أن يندفن في الأرض ويظل حيا بعكس الانسان، وقدرته على البقاء حيا وان بُتر جزء من جسده، وهي قدرة تمتعت بها أيضا السلحفاة بجانب قدرتها، هي الأخرى، على أن "تغرق في الماء" (تغوص) وتظل حية، أو تنبعث حية كما ينبعث الثعبان بعد أن يدفن في الأرض.

كل ذلك يبدو أنه قاد العقل القديم إلى التفكر بأن كلا الحيوانين "لابد" (و"لابد" هذه ظلت الشرارة التي أطلقت المخيلة الانسانية في مجال الإبداع الشعري/الأسطوري، كما أن "ماذا لو" تظل الشرارة التي تطلق تلك المخيلة في مجالات الإبداع الأدبي والفني) تجلٍّ مقدس للقضيب الكونيّ (الألوهة المذكرة الكامنة وراء المرئيات) المحدِث بمنيه لظواهر الإخصاب والإيجاد (الخلق) في الطبيعة.

والمشاهد أنه عندما ركز العقل القديم -في مرحلته الباترياركية- على دور الذكورة الكونية (الإله المنجب، الذكر القضيبي) في عملية الإخصاب والإنجاب هذه، جنح (كدأبه الذي يوقفنا عليه ابدَاعه الأسطوري والديني) إلى الترميز، فألّه الفحولة الجنسية مرمّزة حيوانياً بتلك المخلوقات التي أوقفته الخبرة المعاشة على أنها متمتعة بتلك الفحولة في أشد أشكالها العارمة وضوحا وقوة، كالثور، والجدي، والأسد.

غير أن تلك التجليات المرمّزة لفحولة الإله الذكر الكونية ظلت- في غمار الإعلاء الباترياركي- مرتبطة بلا انفصام بالأنوثة الكونية (الإلاهة الأم) التي سبق دورها في ايجاد الكائنات، في المرحلة المترياركية دور الذكورة وأُعلي عليه في اسباغ العقل القديم تشبيهيا للجنس والحمل والولادة على ظواهر الخلق. وهكذا فان الإله الذكر مخصب رحم الإلاهة الأم ومنجب الكون والكائنات بقضيبه ومنيّه المقدّس، عندما أُعلي في سياق التحول الباترياركي في ديانات الحضارات العليا، مصر، وأرض الرافدين، وكنعان، ظل، وقد رُمّز بالثور، الوجه الآخر للإلاهة التي رُمّزت- في عدد من تجلياتها- بـ"بقرة السماء" وشكّلت، مع الإله الذكر، "الواحد" الأندروجيني، أي الواحد المذكر والمؤنث في آن معا.

ذلك الاحتواء عينه للذكورة الكونية المرمّزة بالثور، شوهد أيضا في حالة الجدي الذي رُمِّزت به آلهة قضيبية عديدة نظراً لما عزي إلى ذلك الكائن من نشاط جنسي لا يهمد. فقد "اقتنته" الإلاهة وضمّته إلى عدّتها الشعائرية (على النحو الذي يتكشف في تقديم يهوذا لجدي إلى تامار زوجة ابنه أجرا لها على مضاجعته السفاحية اياها). وكما احتوت الإلاهة رمز الجدي، احتوت الأسد، فصُوّرت- كما أسلفنا- واقفة على ظهره، أو ممسكة بمقوده، أو متّخذة منه عرشها، أو واضعة مولودها على ظهره أو مستخدمة إياه في جرّ مركبتها. وفي الوقت ذاته، إذ هي المكوّن الأندروجيني للإله الذكر المرمّز بالأسد، نجدها متخذة هوية اللبؤة، مرمّزة بها.(*)

غير أن ذلك كله، على الرغم من ترسخه في عبادة يهوه، تعرض لعملية الطمس والإزالة بالغة التصميم التي أعطتنا العهد القديم في صيغته المراجَعة المحرَّرة الراهنة. وبطبيعة الحال، لم يكن كل أثر للألوهة المؤنثة هو ما تعرض لهذه الإزالة دون سواه، اذ شملت العملية: (١) قطع كل صلة ليهوه بمن ابتلعهم من آلهة منافسة، و(٢) تنظيف يهوه تحريريا من كل صفة استمدت ليهوه من آلهة وإلاهات مصر وأرض الرافدين وكنعان، ومن كل تسمية تسربت إلى أسطوريته في سياق ذلك النهب.

ولقد كانت المحصلة النهائية لكل ذلك السطو واخفاء آثار السطو عن طريق التشهير لا بالمعبودات التي تعرضت للسطو وحدها، بل وبالشعوب التي سُلبت أسطورياتها الدينية بوصفها شعوباً عابدة أوثان وحيوانات، ترسيخ أسطورة ما من شك في أنها أحرأ عملية من عمليات الاحتيال الثقافي في تاريخ السعي الانساني بحثا عن الألوهة.

وفيما يخص زماننا والأزمنة التي ستأتي بعده، أمكن ذلك وسيظل فاعلاً فعله من طريقين: (١) طريق المراجعة الجذرية والتحرير والحذف والاضافة والشطب والقص واللصق إبّان العملية التي اضطلع بها عزرا، و(٢) طريق الترجمة، وبخاصة إلى اللغات الحية المعاصرة، وهي "ترجمة" مازالت- كما أشرنا- آخذة طريقها جذلة لا يقف في وجه

(*) ارجع إلى الفصل ٦ من الباب الأول.

"تقواها" عائق من أمانة أو حقيقة، عبر أكثر من خمسين عملية ترجمة/مراجعة أُنجزت حتى الآن.

ولنأخذ، من نصوص العهد القديم، بعض أمثلة على ما اضطلعت "الترجمة" بتغييره ومحوه من صفات يهوه وألقابه الكاشفة.

في "ترنيمة مصاعد (درجات) "، بسفر المزامير، يصدح داود مخاطبا يهوه:

"أذكر يا رب داود كلّ ذلّه (واذكر) كيف حلف (آمن) وكيف نذر (قدم النذور) إلى بعل، ثور يعقوب" (مزمور ١٣٢: ١ و٢).

وفي إشعياء، تكررت تسمية يهوه بـ"بعل، ثور يعقوب" مرتين:

"وأطعم ظالميك لحم أنفسهم ويسكرون بدمهم كما من سلاف فيعلم كل بشر أني أنا الرب مخلصك وفاديك، ثور يعقوب" (إشعياء ٤٩: ٢٦)، و:

"وترضعين (يا اسرائيل) لبن الأمم وترضعين ثدي ملوك وتعرفين أني أنا الرب مخلصك وبعلك ثور يعقوب" (إشعياء ٦٠: ١٦).

والتسمية، كما هو واضح، دليل كتابي قاطع على أن يهوه دعا إلى عبادته باعتباره (١) بعلاً، و(٢) معبوداً من أبرز قدراته ألوهة الفحولة الجنسية المرمّزة بـ"الثور" كغيره من البعليم الفحول، ولكن مع التحفظ المتمثل في أن فحولته هي الأعظم وهي الحقيقة والمجزية: "عوضا عن النحاس آتي بالذهب وعوضا عن الحديد آتي بالفضة" (إشعياء ٦٠: ١٧)، ومع التخصيص اللازم بوضع خط تحت كونه إلهاً خصوصياً لـ"الشعب" من خلال القول بأنه "ثور يعقوب" ولا أحد غيره.

وعند ترجمة هذه النصوص، يبدو أن المترجمين الأتقياء استفظعوا ذلك، أو وجدوه كاشفاً بأكثر مما ينبغي عما اتجه الزخم كله في التحرير والترجمة إلى طمسه وإزالته تنقية للنصوص وتنظيفاً للمعبود، فسارعوا بصرف النظر عن الأمانة في التوصيل بل وعن حكاية أن النصوص "كلام الله" الذي لا يناقض ولا يحرّف أو يغير منه حرف، وأزالوا "بعل، ثور يعقوب" الفاضحة هذه ووضعوا مكانها، في الترجمة العربية "عزيز يعقوب"، وفي الترجمة الانكليزية المعتمدة (الملك جيمس) "واحد يعقوب القوي! ("The mighty one of Jacob").

وبطبيعة الحال، اقتضى ذلك امعان النظر جيدا في نصوص التوراة بحثاً عما قد يكون أفلت فيها من رقابة المحرر من كلام تعلق بالثور المتعِب ذاك. وإذ فعل المترجمون ذلك، توقفوا عند نصٍ كاشف آخر بسفر العدد ورد في كلام بلعام بن بعور المسكين (الذي ذُبح بعد ذلك بقليل) قال ذلك الحبر فيه:

"يهوه أخرجه (أخرج يعقوب) من مصر بقوة قرني ثور بري" (عدد ٢٤: ٨).

وبغير امهال، رُفع ذلك القول المزعج من النص، ووضع مكانه "له مثل سرعة الرئم"، في الترجمة العربية، وفي الترجمة الانكليزية المعتمدة (الملك جيمس)، غيرّ إلى "يهوه أخرجه من مصر بقوة كأنها قوة الحصان وحيد القرن" "He has as it were the strength of an unicorn"! (باعتبار أن قرناً واحداً أفضل من قرنين!):

وقد امتدت تلك "التنقية" للنصوص إلى ما أسمي تجاوزاً بـ"الأسفار التاريخية" من العهد القديم. ففي سفر الملوك الأول نص كان يقول أصلاً أن صدقيا، آخر ملوك يهوذا قال أن "يهوه، الثور، سوف ينطح أعداء يهوذا بقرنيه الحديد حتى يفنوا"، لكن النص غُيّر في الترجمة إلى "وعمل صدقيا لنفسه قرني حديد وقال هكذا قال يهوه: بهذه تنطح الآراميين (السوريين) حتى يفنوا"! (٢٢:١١).

الا أن صورة يهوه بعل، ثور يعقوب ترسخت في صلب الديانة، فيما بدا، إلى درجة جعلت مثل هذه التسابيح الكاشفة تفلت في سفر المزامير: "أنت هو ملكي يا يهوه.. بك ننطح مضايقينا"! (مزمور ٤٤: ٤ و٥).

(٩/أ/٣) معركة اليم والإنتصار القضيبي على الإلاهة ممثلة في المياه والتنين

غير أنه لا مقصات الرقباء ولا حيل المحررين ولا تبعية المترجمين أجدت. لسبب واضح هو أنه مهما كانت دواعي الإصعاد والتنظيف ممعنة في الإلحاحية، ظل الكم الهائل من نصوص الديانة مستعصياً على تلك التنقية الرقابية التي لم تكن لتتحقق بشكل كامل مصمّت إلا بعملية- شبه مستحيلة- من إعادة تأليف النصوص من أول حرف إلى آخر حرف من "كلام الله الذي لا يحرّف ولا يغيّر".

فـ"كلام الله" الوارد مثلاً في سفر حبقوق كان ينبغي أن يرفع من النصوص، لأن بقاءه في الكتاب لا مؤدّى له إلا الكشف عن أن يهوه اختلس لنفسه، أو اختلس له صانعو أسطوريته مكونات بطولة بعل المتمثلة في إلانتصار على يَمّ الشقي، أي طغيان المياه واجتياحها، كما اختلسوا له انتصاراً لم يحققه على ذلك الوحش المائي الخرافي "تنين" أو "لوتان".

ولنبدأ من ذلك "النبي" الطيب حبقوق. فحبقوق يترنم ليهوه، ثور جبل صهيون، بأمجاد هي لبعل، ثور جبل صفون:

"هل على إلانهار حمى يا يهوه، هل على إلانهار غضبك،
أو على البحر سخطك حتى انك ركبت خيلك
ركبت مركباتك، مركبات الخلاص (الفوز)..
شققت الأرض أنهارا
سلكت البحر بخيلك (وقهرت) خضم المياه العاتية"

(حبقوق ٣:٨ و٩ و١٥)

وهذه معركة بعل الملحمية مع أخيه العاصي "يَمّ" الذي تمرد بفضل جبروت المياه العاتية على مجمع الآلهة، وطالب بأن يكون له ذهب بعلٍ وعرشه.

ومعركة الإله البطل القضيبي مع الإلاهة الأم ممثّلة في المياه وقهره إياها تقليدية في سياق عملية إلاطاحة بالإلاهة على عباب التحول الباتريارکي في الشرق الأدنى القديم.

والمثال الكلاسيكي على تلك المعركة الكونيـة صـراع مـردوخ مـع تنينـة الفوضـى الأولـى تيامات أو تعامة،(*) في صيغتها البابلية التي أُخذت عن السومريين وأخذهـا الإشـوريون عـن البابليين فأحلّوا فيها إلههم أشور محل مـردوخ وأخـذوا لـه أمجـاده. وفـي بـابل، فـي زمـن السبي، وحكايات الديانة بما فيها من مسروقات من الديانات الأخـرى توضـع فـي صيغتهـا التي تألّف منها العهد القديم كما تُرجم إلى اليونانية في الترجوم السبعيني وإلى اللاتينيـة فـي ترجمة القديس جيروم، أُدمج ذلك كلّه في بعضه البعض ومُزِج مزجاً جيداً ثم سـكب علـى وثن يهوه فتشرّب ذلك الوثن أمجاد مـردوخ، وأشـور، وبعـل، بيـن مـا تشـربه مـن صفـات وقدرات وأسطوريات آلهة وإلاهات شعوب الحضارات العليا.

والذي يعنينا هنا على أية حال ما سُرق من بعـل، ثـور كنعـان. والـذي يعنينـا أكـثر الوجه القضيبي لتلك المعركة، وهو الوجه عينه الذي نجـده بـارزاً فـي معركـة مـردوخ مـع تيامات (تعامة) ومجسَّدا في صولجان ذلك الإله الذكر الذي يحقق صعوده إلى مكانـة رأس الآلهة على جثة الإلاهة الأم عندما يهشـم رأسـها بذلـك الصولجـان ويشـق جسـدها شـقين يجعل من أحدهما الجَلَد الذي سيضع عليه عرشه ويجعـل مـن الاخـر "وعـاء" يحتجـز فيـه المياه التي ظلت تهدد بابتلاع الخليقة لتعيد كل شيء إلى ما كـان عليـه فـي زمـن الفوضـى الأولى، أي أنه "جعل لها تخما وأقام لها حدا لا تتعداه" كما قيل عن يهوه في العهد القديم.

وإن كان مردوخ قد صعد على جثة الإلاهة الممزقة بصولجانه (قضيبه الإلهي)، فان بعل حقق نفس إلانتصار علـى الميـاه (التي مثّلـت فـي أسـطوريات الشـرق الأدنـى القديـم باستمرار العنصر الأنثـوي الكونـي، أي الألوهـة المؤنثـة، وعُـزي اليهـا، فـي غمـار الاعـلاء الباترياركي، التهديد باجتياح الخليقة) بأن طعنها برمحه (أي قضيبه الإلهي). وهو ما نجـده مصوراً أيقونياً بخاتم من ماري يعود تاريخه إلى الألف الثانية ق.م.(١٦) . وفي معركتـه مـع يَمّ نهر، الإله المذكّر الذي حاز، أندروجينياً، القدرة الكونيـة الانثويـة الممثلـة فـي جـبروت المياه وتأهبها الدائـم (فيمـا صـوّره خـوف الإنسـان القديـم أسـطورياً) لاجتيـاح المعمـورة والأحياء (كما هو مجسَّد في أسطورية الطوفان التـي سُرقت ليهـوه)(**) كـان خـوض بعـل للصراع بهراوته (قضيبه) التي زوده بها "الصـانع الإلهـي" كوثارحاسـيس مثلمـا زوّد الآلهـة مردوخ بصولجانه. وكلا الرمزيـن، الصولجـان والهـراوة، فـي كلتـا الاسـطورتين، تجسـيد لإعلاء الألوهة المذكرة من خلال غَلَبة القضيب على الرحم الكوني، وهو ما يتباهى به يهوه في سفر ايوب:

> "ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج مـن الرحـم (أي حيـن أوشـكت الإلاهـة/الرحـم أن تجتاح الخليقة وتبتلعها في دوامة الغمـر البدئـي) اذ

(*) ارجع الى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص١٥٦-١٦٥.

(**) ارجع الى "قراءة سياسية للتوراة": أسطورية الطوفان، ص ص١٦٦-١٩٤.

جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه وجزمت
عليه حدّي وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى
هنا تأتي ولا تتعدى وهنا تتخم كبرياء لججك".
(أيوب ٨:٣٨-١٠).

والذي يتباهى به يهوه هنا الانتصار على الألوهة المؤنثة ممثّلة في البحر. فهو، كمردوخ وأشور وبعل، قد هزمها وجزم عليها حده. وهو- كأسلافه هؤلاء- محقّق ذلك الانتصار بـ"سيفه القاسي العظيم الشديد" (قضيبه) الذي "يعاقب به لوياثان، الحية الهاربة، لوياثان، الحية المتحوية، ويقتل التنين الذي في البحر" (إشعياء ١:٢٧). وبذلك، كما في الاسطوريتين البابلية والكنعانية، تتحقق غلبة القضيب على الرحم الكوني، ويعلو الإله الذكر المنتصر على الإلاهة الممثلة بالمياه وبالحية الهاربة المتحوية ويفرض سيادته على الكون.

فلا غرو إن كان العهد القديم، وبخاصة في سفر المزامير وأسفار النبيين، يطالعنا مترعاً بالترانيم الممجِّدة لذلك الانتصار:

"لك ينبغي التسبيح يا يهوه من صهيون (وأنت) المتنطّق بالقدرة المهديء عجيج البحار عجيج أمواجها" (مزمور ١:٦٥ و٦ و٧).

"يهوه مَلِكي منذ القدم فاعل الخلاص وسط الأرض. أنت قهرت البحر بقوتك" (مزمور ١٢:٧٤ و١٣)

"يا يهوه يا رب الجنود من مثلك قوي (وأنت) المتسلّط على كبرياء البحر. عند ارتفاع لججه أنت تسكتها" (مزمور ٨:٨٩ و٩).

"يا يهوه قد عظمت جدا، مجدا وجلالا لبست. المياه من انتهارك تهرب. من صوت رعدك تفر. وضعت لها تخما لا تتعداه (حتى) لا ترجع لتغطي الأرض" (مزمور ٦:١٠٤ و٧ و٩).

ولقد كان من الطبيعي، إلهيا، وقد حقق يهوه ذلك الانتصار الماحق على المياه، العنصر الأنثوي الكوني المجسّد لقدرة رئيسية من قدرات الإلاهة الأم، أن يستشيط غضباً فـ"يصعد غضبه إلى أنفه (فوهة البركان)" كما ظل العهد القديم يصوّر فورات ذلك الغضب، وهو يجد محبوبته اسرائيل "تخرج من تحته" لـ"تزني" مع الألوهة المنافسة، وبخاصة الإلاهة الأم، فينفجر صائحاً في وجه تلك العشيقة اللعوب على لسان إرميا:

"أإياي لا تخشون أو لا ترتعدون من وجهي أنا الذي وضعت الرمل تخوما للبحر فريضة أبدية لا يتعداها فتتلاطم أمواجه وتعج ولا تتجاوزها؟"
(إرميا ٢٢:٥).

وحتى لا تغمض الصورة كثيراً، نذكّر أنفسنا بأن "الشعب" الذي أُفعم الأدب الديني المُؤلّف له بكل هذا الانشغال بسطوة المياه وخطورتها لم يكن شعباً بحرياً تطلبت طريقة حياته ركوب مخاطر البحر، أو شعباً معرضاً للفيضانات "كشعب الرافدين"، بل كان شعبا صحراويا، شعب رعاة يبحث عن المياه كما يبحث عن الكنز طلبا لتأمين حياته وحياة

قطعانه. ومتى كان ذلك كذلك، بات واضحاً أن كل ذلك الانشغال بانتصار المعبود الذكر على "المياه" كان تعبيراً عن انتصار الباترياركي على عبادة الإلاهة الأم العظمى التي كانت المياه في كل اسطوريات الشرق الأدنى القديم العنصر الأنثوي الكوني المجسد لقدرة رئيسية من قدراتها. وبنفس القدر من الوضوح يبين أن ذلك الانشغال عرف طريقه إلى الأدب الديني الذي نسج حول المعبود البركاني الصحراوي يهوه من خلال التأثر بالغ العمق بأسطوريات الشعوب التي تشرد "الشعب" من أراضيها وبين ثقافاتها في الشرق الأدنى القديم.

(٩/أ/٤) انتصار القضيب الإلهي على الرحم الكوني ممثلاً في الحية/التنين

من الخصائص التي تظل مربكة للعقل المعاصر في أسطوريات الشرق الأدنى القديم وبالذات فيما تعلّق بالآلهة والإلاهات خاصية الاندروجينية (كون الإله أو الإلاهة ذكراً وأنثى في آن معا). غير أن تلك الخاصية لم تكن مربكة اطلاقاً للعقل القديم، بل كانت أساسية في تصور ذلك العقل لمعبوداته التي، في العديد من العبادات، أسماها بـ"الأب والأم" في آن معاً. ولذلك فإننا، في تعاملنا مع تلك المعبودات، نجد صعوبة بالغة في الإمساك بكل خيوط الحكي الأسطوري إذا لم نبق تلك الخاصية باستمرار نصب أعيننا.

ففي صراع بعل مع أخيه يم، مثلاً، كانت عانات طرفاً ثالثاً في الصراع من حيث أنها كانت الوجه الأنثوي لكل أخ من أخويها، تماماً كما كانت آست (ايزيس) الوجه الأنثوي من كلا الأخوين: أوسير (أوزيريس)، وست. وعندما تغلبت فيها طبيعة الأخت، عندما أوشك ابنها حورس أن يجهز على ست انتقاماً لأبيه أوسير، فأنقذته أو تدخلت لصالحه، فاستشاط حورس غضباً وانقض عليها وأطاح برأسها، كان ذلك- أسطورياً- في الديانة المصرية القديمة ممثلاً للإطاحة بالإلوهة المؤنثة إعلاءً للألوهة المذكّرة، كما أسلفنا، وكان- في الوقت ذاته- المثال الأسطوري الواضح على ازدواجية جنس الآلهة.

وفي الديانة الكنعانية، في ظل الوضع نفسه، كان صراع بعل مع أخيه يَمّ، صراعاً- في الوقت ذاته- مع أخته عانات. وهكذا فانه، بعد انتصار بعل على يَمّ (ألوهة المياه) وانتزاعه "العرش" منه، وجد بعل من الحكمة أن يتصالح مع عانات. ففي رسالته التي سبقت الإشارة إليها، قال بعل لأخته عانات:

"رسالة من العليّ القويّ بعل
ادفني الخصومة في أرض المعركة
وضعي اللفاح في التراب
واسكبي تقدمة سلام وسط الأرض
تقدمة تصالح وسط الحقول"

و"اللفاح" هو "ثعالب نشيد الإنشاد الصغيرة"، النبات المحرك للشهوة الجنسية والمانح للخصوبة الذي تشبه درناته أشكال رجال عراة ونساء عاريات. فبالاشارة اليه، يشير بعل إلى الإرتباط الجنسي بين عانات ويَمّ، وهو ارتباط طبيعي، من حيث أن عانات- كإلاهة أنثى- هي التي يندفق اليم من رحمها، ويظل بعد اندفاقه عشيقاً لها. وفي الوقت ذاته، اذ يدعو عانات إلى سكب تقدمة سلام، تقدمة تصالح وسط الحقول التي دعاها إلى أن تدفن اللفاح فيها، يدعوها إلى ارتباط جنسي جديد، إذ ينبت اللفاح من التراب الذي سترويه تلك التقدمة.

ونحن واجدون صدى تلك الدعوة إلى عانات في أبيات نشيد الإنشاد التي تقول "قد دخلت جنتي يا أختي العروس. قطفت مرّي مع طيبي" (٥:١)، غير أن الحديث عن ذلك النشيد العارم سابق لأوانه. فالذي يعنينا هنا أن عانات، الأخت والعشيقة، في أسطورية بعل، والإبنة والزوجة، في أسطورية إيل، كانت، أندروجينياً، الوجه الأنثوي لألوهة بعل، ويم، وإيل، وأنها- بوصفها ذاك- كانت، في سياق تحولات الأسطورة، طرفاً أصيلا في صراع أخويها بعل ويَمّ. فألوهة المياه التي "جلس يَمّ نهر" على عرشها كانت- تحديداً- عانات رحماية، الرحم الذي تباهى يهوه في سفر أيوب (٣٨:٨-١٠) بأنه حجز البحر (اليَمّ) بمصاريع حتى لا يندفق فيخرج منه "ليعود فيغطي الأرض" (مزمور ١٠٤:٩).

وهكذا فإن بعل، عندما "انتزع عرش يم"، انتزع منه تلك الألوهة المؤنثة، ألوهة المياه، عانات، ليتخذها "عرشاً له" (كما كانت آست، الإلاهة العرش، عرشاً لأخيها زوجها أوسير). غير أن عانات، كما صورتها الميثولوجيا الكنعانية، كانت مستقلة الرأي، عنيدة، وكما قال لها إيل في نص ممتع من نصوص رأس شمرا، "مندفعة": "أنا أعرف أنك مندفعة، يا ابنتي، وأعرف أن الإلاهات لا يعرفن ضبط النفس، فما الذي تريدين، يا عانات العذراء؟". ولذلك، تعيّن على بعل، بعد هزيمة يَمّ نهر، أو "القاضي نهر" كما أسمي في النصوص، أن يخطبها لنفسه، أن يستميلها ويكسبها، كما قال يهوه لاسرائيل- مردداً صدى مفاتحات بعل لعانات- في النص الذي أوردناه قبلا من هوشع ٢:١٩- "وأخطبك لنفسي إلى الأبد، وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم". وفي محاولته استمالة عانات، بعث اليها بعل بتلك الرسالة التي صدر عنها هوشع في إجراء هذا الكلام على لسان يهوه، قائلا- في مستهلها- "ادفني الخصومة وضعي اللفاح في التراب"، ثم داعيا اياها "أن تسرع اليه الخطى وتجعل قدميها تعجلان فتحملانها اليه، لأن لها عنده كلمة يخبرها بها.

وفي حين أن اسرائيل لم تستجب لإغواء يهوه، كما يوقفنا "التاريخ المقدس"، ولم تصغ إلى "الرسالة" التي سرق له صانعو أسطوريته من رسالة بعل إلى عانات فكرتها ومضمونها بعد صبه في قالب يهيوي، أصغت عانات، فيما توقفنا عليه نصوص رأس شمرا، لمفاتحات بعل بذلك الضرب من البراغماتية الذي نجده باستمرار في تصرفات الآلهة والإلاهات في أسطوريات العالم القديم: فإيل قد شاخ وشاب شعره وضعف، ويَمّ نهر قد

هزم وأسقط عن عرشه" (عانات)، وبعل المنتصر قد صار (كمردوخ في الأسطورية البابلية) النجم الصاعد في مجمع الآلهة، فلم لا؟

تحكي نصوص رأس شمرا أن عانات عندما وصلتها رسالة بعل كانت قد انتهت لتوها من المعركة الرهيبة التي صورت سابحة خلالها في الدم متمنطقة بالجماجم والأيدي المبتورة، وهي المعركة التي سرقت من وصف النصوص الأوغاريتية لها أمجاد يهوه الحربية وبالذات في تغني إشعياء ٦٣:١-٣ و٦ بتلك الأمجاد وبعد المعركة،

"سكبت عانات الماء لتغتسل
عانات اغتسلت بندى السماء من فوق
ودسم الأرض قطر من يديها
وهي تغتسل بمطر راكب السحاب"

والنص بأكمله، كلمة بكلمة وحرفاً بحرف، أُخذ فوضع في التوراة وشكل جزءاً لا يتجزأ من أوصاف يهوه في المزامير والنبييم. فنحن واجدون النص في بركة اسحق السلبية لابنه المظلوم عيسو بعد أن سرق يعقوب من أبيه بركة الأب وحق البكورية:(*)

"قال عيسو لأبيه ألك بركة واحدة فقط يا أبي؟ باركني أنا أيضا يا أبي. ورفع عيسو صوته وبكى. فأجاب اسحق أبوه وقال هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك. وبلا ندى السماء من فوق" (تكوين ٢٨:٣٨ و٣٩).

وباعتبار ما سوف يكون، أي عندما يأخذ يهوه صفة راكب السحاب ومانح المطر من "البعليم"، يعني القول الظالم أن عيسو، لأن يعقوبا أخاه غش أباه وسرق منه البركة وحق البكورية، عوقب- وهو المجني عليه- بأن حُرم من فيض راكب السحاب مانح المطر، أي من ندى السماء وما يمنحه ندى السماء من خصب يعطي دسم الأرض. وفيما يخص اسحق ويعقوب وعيسو، كان راكب السحاب مانح المطر ذاك إيل، غير أن- يهوه- بابتلاعه إيل، ثم بابتلاعه بعل، بات هو راكب السحاب مانح المطر.

غير أن الذي يعنينا هنا النص الأوغاريتي الذي وقع ذلك السطو اليهيوي عليه. ففيه نجد منفذنا إلى فهم مدار الأسطورية الكنعانية التي أوجدته. فعانات إلاهة أمّ كعشيرة، أو هي تجلٍّ آخر لعشيرة. وهي، بذلك، ابنة من أنجبها وزوجته، وأم من أنجبته وزوجته. وهي، كإلاهة أم، تنجب الحياة، وتغذيها (بندى السماء ودسم الأرض)، وهي، من وجهها الآخر (المدمر الذي مثلته في آست (ايزيس) نت وسخمت) تفترس الحياة وتتشرب دمها، وتغيبها في باطنها، والوجه المذكّر لها هو "زوجها"، الأب (إيل)، والأخ (يَمّ، وبعل.. وموت).

ذلك الثالوث الكنعاني: الأب، والإبن، والرحم (وقد أسميت عانات بـ"رحماية" أي الرحم) جسّد أسطورياً، في النصوص الأوغاريتية التي يمكن أن نعتبرها بكل حق توراة

(*) ارجع الى "قراءة سياسية للتوراة" ص ص٤٣-٥٢.

كنعان، تطلّع الإنسان في ذلك الجزء من العالم إلى انتظام قوي الطبيعة في أدائها لما أوجدت له وهو منح الوفرة والخصب والخصوبة للانسان لقاء عبادته للقوى الخفية المتحكمة في الكون، والى خيرية تلك القوى الخفية (الآلهة والإلاهات) في استجابتها لعبادته.

في هذا السياق الأسطوري الإبداعي الذي لجأ اليه الإنسان في كل مكان من المعمورة في غمار سعيه إلى الألوهة يمكننا أن نقترب من فهم ما حفل به ذلك الإبداع من صراعات الآلهة وتحولاتها وتغير علاقاتها، وبخاصة فيما تعلق بالحلول الباترياركي بعد قرون وقرون من علو الألوهة المؤنثة وتسيّدها.

في نصوص أوغاريت، نجد أن بعل تعيّن عليه أن يخوض نفس الصراع الذي خاضه مردوخ مع الألوهة المؤنثة، ولكن في سياق مختلف، وعلى مرحلتين. فهو لم يقتل الإلاهة كما قتل مردوخ تعامة أو تيامات، بل أخذها، خطبها وصار بعلها، وهو عين ما فعله يهوه مع ابنته وعروسه اسرائيل، لاطفها وخطبها وصار بعلها، ثم لما أراد أن يتميّز عن بعل، قال لها لا تدعينني "بعلي"، بل رجلي، أي زوجي.

غير أن بعل، قبل أن يصبح بوسعه أن يأخذ الإلاهة لتكمِّله أندروجينياً وتصبح عرشه، اضطر أن: (١) يقاتلها بمعركته الملحمية مع يَمّ نهر، ثم (٢) يعود فيقاتلها مرة أخرى بمعركته الملحمية الثانية مع التنين. وذلك عين ما فعله، أو حاول فعله يهوه، ولكن بطريقة ملتوية وبأسلوب الإرهاب والتخويف. فهو- طيلة الوقت- ظل يهدد بأن يقتل ابنته/عروسه اسرائيل (يبيد "الشعب") أو "يكشف عورتها"، أو يحرمها من منيّه المخصب (من المطر والخصب)، أو يطلّقها، وطيلة الوقت ظل يذكّرها بمعركته الملحمية مع "رَهَب"، أي مصر، التي أخرج تلك الإبنة/العروس من أرضها "بذراع قوية وآيات"، وبمعركته الملحمية الأخرى مع البحر والتنين الذي أصبح اسمه لوياثان.

والخلل في كل ذلك الإجتهاد التوفيقي واضح. فاليهيويون حاولوا صنع ديانة كانت- بطبيعة مراميهم وبطبيعة الزخم الأصلي لمحاولة موسى- مختلفة اختلافاً جذرياً عن الديانات التي ظلوا يسرقون أقانيمها وآلهتها. فالديانة التي توخاها من أُسمي بـ"المحرر"، أي الكاتب عزرا، والتي حاول أن يحيي فيها قصد موسى الأصلي (أي التشبه بالديانة المصرية)، ديانة توحيدية إعلائية وبوصفها هذا كان من المحتم أن تنطوي على قدر كبير مما قد نستعيره لها من الفن باسم "التجريد". وذلك ما كان المصريون في زمن موسى، بل وقبله بوقت طويل في الواقع، قد توصّلوا اليه عبر تطور طويل طويل بدأ منذ أقدم عصور التاريخ المصري وبلغ ذروته في إلاخناتونية. وقد كان ذلك التطور الطويل هو- تحديداً- ما افتقرت اليه الديانة المغتصبة التي بدأها موسى من فراغ حاول أن يملأه بالسرقة من ديانته الأصلية. فالدين ينشأ من المعبود، لا العكس. البشر، في سعيهم الذي لم يتوقف عبر عصور التاريخ إلى الألوهة، أقاموا عباداتهم على هوية المعبود وقدراته واستمدوا ما عرف باسم "الدين" منه. أما في حالة موسى ويهوه فلم يكن هناك ما يستمد منه دين: كانت هناك فقط

قضيبية المعبود (كونه قضيباً مختّناً منتصباً)، والشعائر الفجة التي كانت تمارس اكتفاء لأذى وجهه البركاني واستجلاباً لمنيه (مطره) المخصب. وكان هناك أيضا طموح موسى المعذب. ففي الإخناتونية- التي كان من كبار كهنتها قبل أن يدمرها الأمونيون إثر موت اخناتون- كان آتون ينقل "جماله" (خيريّته وبهاءه "نيفيرو") إلى الفرعون وبذلك بالانتقال يصبح الفرعون ملكاً، وبكونه قد أصبح ملكاً (حائزا لـ"نيفيرو" الإله) يصبح وسيط البشر وشفيعهم لدى الإله.

وذلك ما حاول موسى أن يحوزه من خلال تأليه وثنه المستورد يهوه بالمسروقات من الديانة المصرية ومن خلال محاولته (التي لم تنجح) تحويل الشراذم المطرودة إلى "شعب" و"أمة مقدسة" لذلك الإله المخلّق اصطناعيا ليصبح هو باستمداده صفات المعبود (التي لم تكن، في حالة يهوه الـ"نيفيرو" المصري، أي الجمال والخير والرحمة والعدل، بل كانت التدميرية البركانية والجبروت الدموي والإنتقام والعسف) "ملكاً" وسيطاً بين المعبود و"الشعب" وشفيعاً لـ"الأمة المقدسة". وفي عصور متأخرة، بعد موسى بقرون عديدة، فطن كهنة يهوه إلى أن صفاته الإرهابية التدميرية والدموية ونقماته لم تجدِه أو تجدِهم كثيراً لدى "الشعب"، فأخذوا يغيرون- بقدر من الهرولة الكهنوتية بدا واضحاً في انسحابات النبييم من المواقف "الإيديولوجية" السابقة، فأبطلوا تقديم أبكار "الشعب" ذبائح على مذبح يهوه، وأنكروا أنه طالب "الشعب" بتقديم كل تلك الأضحية الحيوانية اليه، ونفوا أنه ينتقم من الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع أخذاً بحقه منهم لذنوب آبائهم، وجعلوا يهوه يلاطف عروسه اسرائيل ويقول لها "انقلب عليّ قلبي (يا اسرائيل) قد اضطرمت عليّ مراحمي جميعا. لا أجري حمو غضبي، لا أعود أخرب" (هوشع ١١:٨ و٩)، ويتودد اليها: "وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم" (هوشع ٢:١٩).

والنصوص التصالحية التي من هذا النوع كثيرة في أسفار النبييم. وهي نصوص لم يكن منها بد وبخاصة بعد تدمير "المملكتين" وعدم ابتلاع "الشعب" حيلة أن ذلك التدمير على أيدي الأشوريين والبابليين كان بايعاز من يهوه تأديباً لعروسه الزائغة لخروجها من تحته. فالذي كان قد ثبت لـ"الشعب" أن كل ذلك الكلام عن فتوة يهوه الحربية وتفوق سحره على سحر كل الآلهة الآخرين كان كذباً، ولهذا تعين على الكهنة اليهويين أن يغيروا صورة المعبود تماماً لئلا يفلت مقود "الشعب" من أيديهم تماماً ويضيع نهائياً حلم المُلك. وسعياً إلى ذلك، انخرط الكتبة والنبييم في محاولة مستميتة بدأت بصيحة "حقا إنك لإله محتجب يا إله اسرائيل المخلّص" وأوصلها الكاتب عزرا إلى ذروتها في تحريره للنصوص بغية إحياء قصد موسى الأصلي.

ذلك الإجتهاد التوفيقي (الذي جاء متأخراً عن زمانه بعدة قرون) الرامي إلى صنع ديانة توحيدية إعلائية كان من المتعين أن تنطوي على قدر كبير من "التجريد"، اتصف- كما قلنا- بخلل واضح هو الشرخ الفاغر، الاختلاف الجذري بين الديانة التي اتجه الجهد

إلى إعادة تصنيعها وبين ما ترسّخ في بنيتها من المسروقات التي نهبت من الديانات الأخرى، سواء في ذلك الديانة المصرية أو ديانات الهلال الخصيب.

فالديانة الكنعانية، مثلاً، التي بلغ السطو عليها حداً جعل نصوصها الدينية الأوغاريتية مستحقة لأن تعتبر، كما أشرنا، توراة كنعانية، نبعت أساساً من نزوع الإنسان في ذلك الجزء من العالم القديم إلى ضرب من العلاقة، القائمة على المسالمة والمصالحة والاستجابة، مع قوى الطبيعة وما وراء الطبيعة، كما يوقفنا النص الذي أوردناه من رسالة بعل إلى عانات.(*) فهي، من هذا المنظور، ديانة موصوفة في رطانة البحث المقارن في الأديان بأنها "عبادة خصب". وفي صميم عبادة يهوه- بالنظر إلى سير يهوه (تبعا لما جعلته أقلام مخلّقيه يفعل) خطوة بخطوة وراء بعل ليلتقط من ورائه كل منجزاته الإلهية فينسبها لنفسه- ترسخت، بالضرورة، مكوِّنات وملامح وشواغل "عبادة الخصب" هذه، وهي مكوِّنات وملامح وشواغل متعارضة تماما مع طبيعة الديانة الإعلائية التوحيدية التي اتجه الجهد التلفيقي إلى صنعها تحريرياً في العهد القديم.

هذا الشرخ، هذا الخلل الجوهري في بنية الديانة اجتهد آباء الكنيسة المسيحيون، عندما وقعوا في فخ الجمع بين العهد القديم والعهد الجديد في كتاب واحد باعتباره "كتاب" ديانتهم "المقدّس"، في محاولة الإفلات من مأزقه عن طريق اللوذ بحكاية "الكناية" و"الرمزية" وضرورة عدم أخذ النصوص مأخذاً حرفياً. غير أنه إن كان الكاثوليك، لوذاً بحيلة أوغسطين، قد لاذوا بهذا المخبأ، فان البروتستانت- في غمار حربهم مع الكاثوليكية- أعلنوا ملء الفم أن كل كلمة في "الكتاب المقدس"، من أول حرف في أول كلمة إلى آخر حرف في آخر كلمة، هو "كلام الله" الذي يجب أن يؤخذ بحرفيته فلا يُحرّف أو يُحوّر أو يُغيّر أو تفرض عليه تفسيرات من صنع البشر كما يحاول الكاثوليك.

إلا أنه، بصرف النظر عن هذا الجدل الكاثوليكي البروتستانتي الذي يرجع في الحقيقة إلى شطط المغامرة التوفيقية التي انخرط فيها آباء الكنيسة المسيحية (استنادا- فيما بدا- إلى ظاهر الإعلان الديبلوماسي لمؤسس الديانة الذي أكد فيه أنه "لم يأت لينقض الناموس (الموسوي) بل ليكمله" بينما كان منخرطا بكل نشاط في نقضه ومناقضته)، يظل ذلك الخلل، ذلك الشرخ في المعمار الأيديولوجي لليهودية ماثلاً بقوة وكاشفاً، في الكثير من نصوص العهد القديم على الرغم من كل ما تعرضت له من رقابة ومراجعة وتحرير و"ترجمة". حقيقة أن جهدا متصفاً بالتصميم بُذل (وما زال يبذل) سعيا إلى طمس بعل بعد السطو عليه مثلما اتجه الجهد إلى طمس غيره ممن سلبوا من آلهة والإلاهات، إلا أن آثار قدمي يهوه وهو سائر في أعقاب بعل ظلت واضحة وضوحاً لم ينجح كل ذلك الجهد في محوه أو الإتاهة عنه.

(*) ص ص٣٤٨ و٣٤٩ أعلاه.

فسير يهوه في أعقاب بعل واضح، مثلاً، بشكل لم يعد محل إنكار من أحد، في مسألة "تنين" بعل الذي سُرق وأسمي، بدلا من "لوتان" بـ"لوياثان". ولسوف يتطلب الأمر جرأة، بل "هوتسبا" ممعنة في الصفاقة، و"أستاذية" ما بعدها أستاذية، ان كان للمحررين/المترجمين المعاصرين أن ينجحوا في طمس تلك المسألة في غمار عمليات "الترجمة" المتلاحقة. غير أن تلك الهوتسبا والأستاذية سيتعين على من يمارسونهما أن يقوموا بعدة عمليات جراحية تجميلية للنصوص تزيل منها- مثلاً- هذا الوصف الاخباري الذي أُجري على لسان يهوه للحيّة المتحوية، التنين الذي في البحر، رمز الإلاهة وتجسدها الأسطوري، لوتان (الذي تغير اسمه كما تغير اسم ابرام واسم يعقوب، فأصبح لوياثان)، في معرض تباهيه أمام أيوب المبتلى:

"ليس من شجاع يوقظه، فمن يقف اذن بوجهي (وأنا الذي غلبته)؟ لا أسكت (لن أمل من) (وصف) أعضائه (والتحدث) عن قوته وروعة عدّته. منذا الذي يكشف وجه لبسه ومن يدنو من مثنى لجمته؟ منذا الذي يفتح مصراعيّ فمه ودائرة أسنانه مرعبة؟ فخره مجان مانعة (وهو يزهو بحراشف كأنها الدروع القوية تحميه) محكمة مضغوطة معا (كأنما) بخاتم، الواحد يمس (كل حرشف/مجنّ منها لصق) الآخر حتى أن الريح لا تدخل بينها. كل منها ملتصق بصاحبه متلكّدة لا تنفصل (متماسكة لا انفكاك لها). عطاسه يبعث نورا (اذا عطس يحدث وميض) وعيناه كهدب الصبح. من فيه تخرج مصابيح. شرار نار يتطاير منه. من منخريه يخرج دخان كأنه من قدر يغلي أو من مرجل. أنفاسه تشعل جمرا ولهيب يخرج من فيه. في عنقه تبيت (مكمن) القوة وأمامه يدوس الهول. مطاوي (طيات) لحمه متلاصقة مسبوكة عليه لا تتحرك. قلبه صلب كالحجر وقاس كالرحى. عند نهوضه يفزع الأقوياء. من الرعب يتيهون (وصحتها يبولون على أنفسهم). سيف الذي يهاجمه لا يقوم (قضيب من يتصدى له لا ينتصب) ولا رمح ولا مزراق (أي كرمح بعل) ولا درع (كدرع عانات). (فهو) يحسب الحديد كالتبن والنحاس كالعود النخر. لا تجعله نبال القوس يهرب. وحجارة المقلاع ترتد عنه (كأنها) قش. يحسب السهام كقش ويضحك على اهتزاز الرمح. تحته قطع خزف حادة وهو يمدد على الطين

مخالب حادة مسنونة كأسنان النورج. يجعل الأعماق تغلي كقدر ويجعل البحر كقدر عطارة (يهدئ هياج البحر فيصبح كأنه حق من دهن العطار). يضيء السبيل وراءه (يخلف وراءه أخدوداً مشعا في ماء البحر) فيحسب اللج أشيب. ليس له في الأرض نظير. فهو لا يعرف الخوف. وهو يشرف على كل متعال. وهو ملك على بني الكبرياء (أي وهو فرعون)".

(أيوب ١٤:١٠-٣٤)

وحقيقة الأمر أن يهوه، عندما وقف يتباهى أمام المسكين أيوب ليجعله يشعر بمدى حقارته ومدى ضآلة شكواه في مواجهة بطولة الإله الفحل قاهر التنين المخوف، لم يكن مقتفيا أثر بعل وحده، بل كان سائراً في أعقاب حشد له وزنه من الآلهة القضيبية التي (بالقضيب الإلهي) علت على الإلاهة الأم وانتصرت على الرحم الكوني من خلال هزيمة الإلاهة ممثلة في المياه وفي التنين.

فالإنسان القديم لم تكن قد غامت في ذاكرته الجمعية بعد ذكرى النوع كله عن انبثاق الحياة من البحر. ولهذا ارتبط البحر ارتباطاً عضوياً بالإلاهة الأم منجبة الحياة من البحر بوصفه رحمها الكوني الذي ولدت منه الأحياء. وتأسيساً على ذلك، عزيت إلى ألوهة الأم البدئية، في أسطوريات التحول الباترياركي (إعلاء الألوهة المذكّرة) "الفوضى الأولى"، أو "عجيج البحر وعجيج أمواجه وعدوانيته المهدِّدة أبدا باجتياح الأرض" التي تغنى سفر المزامير بـ"الخلاص" الذي حققه يهوه منها بانتصاره على "البحر". وفي الوقت ذاته، كان الإبداع الشعري الأسطوري للإنسان القديم قد جسّد قوة الإلاهة ومنعتها ورهبتها وملوكيتها على المياه (البحر)- تماما على النحو الذي صوّر به يهوه في تباهيه أمام أيوب قوة لوياثان ومنعته ورهبته- بذلك الحيوان الأسطوري "التنين"، الذي لم يوجد أي أثر في الطبيعة يشير إلى أنه وجد إلا في المخيلة الجمعية المبدعة للأساطير.

وتبعا لذلك، ظل متعيناً على الإله الذكر عند تصعيده في عبادات التحول الباترياركي ليحتل، بقضيبه (ذراع قوته) قاذف المني موجد الحياة، المكانة الإلهية الأعلى التي كان الرحم الكوني للإلاهة الأم قد احتلها لقرون عديدة لا تحصى، أن يشتبك في صراع بطولي ملحمي مع ذلك التجسد الأسطوري للإلاهة ويهزمه فيصعد على أشلائه إلى "العرش" (أي يركب الإلاهة) ملكاً على الكون بدلا من "ملكة السموات" التي أُطيح بها وأُخضعت من خلال استلال ملوكية المياه منها و"رضّ رأسها" ممثلة في التنين. والمثال الكلاسيكي على ذلك في أسطوريات العالم القديم انتصار مردوخ على تيامات (تعامة) في "سفر التكوين" الذي تضمنته النسخة الإكدية السامية (البابلية) من أسطورة الخلق السومرية. وهو ما تكرر في الأسطورية الكنعانية معدَّلاً بانتصار بعل على الإلاهة في صراع ذي مرحلتين، أولاهما هزيمة "يَمّ"، "القاضي نهر" (السطوة البدئية للمياه/البحر/النهر)

وثانيتهما صراعه الذي انتهى بهزيمة "تنين"، الذي دعي أيضا باسم "لوتان". وفي الميثولوجيا الكنعانية، أُسبغت هوية الأخوين العدوّين لبعل (أي الوجهين المذكّرين للإلاهة الأندروجينية) يم، وموت، على "تنين"، أي "لوتان"، وبانتصار بعل على يَمّ بات هو الوجه المذكّر للإلاهة (عانات، أخته) وظل موت يقتله كما قتل ست أخاه أوسير (أوزيريس) فتتعقب عانات موت فتقتله وتمزقه وتحرقه وتذروه وتعيد بعل إلى الحياة لتعود الحياة إلى الأرض كما في النسخة السومرية من نفس الأسطورة (اينانا ودوموزي)، والنسخة الإكدية السامية (البابلية) عشتار وتموز. وبذلك الولاء لبعل وتصديها للدفاع عنه، أعلنت عانات الصيادة، المحاربة الضارّية، وربة الجنس، في نصوص أوغاريت، قبول الألوهة المؤنثة لذلك الإعلاء الباترياركي للإله البطل القضيبي بعل، وهو قبول وصل، بذلك الضرب من التحول السلس الذي نلتقي به تكراراً في الأسطورة والحكاية الفولكلورية، إلى حد اعلانها أنها هي التي قهرت يم، "القاضي نهر"، وهي التي وضعت خزامة في خطم تنين وألجمته وكسرت رؤوس الحية المتحوية السبعة، مثلما قتلت "موت" الأخ الشرير عدو بعل وظلت تقتله كلما بعث حياً ليقتل بعل من جديد:

"عانات رفعت صوتها وصاحت:
أي خصم قد قام في وجه بعل؟
أي عدو قد عادى راكب السحاب؟
ألم أسحق أنا يم، إبن إيل المدلل؟(*)
ألم أضع خزامة في خطم تنين وألجمه؟
ألم أكسر رؤوس الحية المتحوية
الهوَلة ذات الرؤوس السبعة؟
ألم أسحق موت محبوب آلهة الأرض وأذروه؟"

ولا غرابة أو تناقض في اتخاذ عانات انتصارات بعل لنفسها، فهي قد باتت، بانتصاره على يَمّ، نصف بعل الأنثوي المكمِّل للواحد الاندروجيني فيه. إلا أن الغرابة في اغتصاب كل ذلك ليهوه. فـ"راكب السحاب"، لقب بعل بوصفه إله عواصف، أُخذت فجُعلت لقباً ملكياً من ألقاب يهوه. ووضع خزامة في خطم تنين، عدو بعل المسمى لوتان، فعلٌ بطوليٌ ادّعاه يهوه لنفسه في تباهيه أمام أيوب: "أتصطاد لوياثان بشخص أو تضغط لسانه بحبل؟ أتضع أسلة في خطمه أم تثقب فكه بخزامة؟" (أيوب ٤١: ١ و٢). وكذلك

(*) قولها "إبن إيل المدلل" إشارة الى أن قُدرَة، أو ملوكية، المياه كانت قبلا لإيل. ولهذا بدا إيل في الأسطورة، كما أوردتها نصوص أوغاريت، منحازا في أول الأمر الى "يَمّ نهر، القاضي نهر" الى أن أرغمه تمرد يم وتهديده كل مجمع الألهة على الوقوف بجانب بعل على مضض. وفي الأسطورية، ينتهي إيل بعد أن يهرم وتؤخذ منه قدراته بأن يصبح "إيل- زبوب"، وهي التسمية التي حرفت في العهد الجديد الى "بعل زبول، رئيس الشياطين" (متى ١٢: ٢٤). من "بعل زبوب إله عقرون" كما وردت في الملوك الثاني ١: ١٦.

الحية المتحوية، ترنم المزمور ليهوه قائلا "أنت ( ) بقوتك كسرت رؤوس التنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس لوياثان (السبعة)" (مزمور ١٣:٧٤ و١٤)، وأكد إشعياء أن يهوه سيعاقبها عقابا شديدا بقضيبه/سيفه: "في ذلك اليوم يعاقب يهوه بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان الحية الهاربة، الحية المتحوية ويقتل التنين الذي في البحر" (إشعياء ١:٢٧) وحقيقة أن إشعياء غلبته في استخدامه لسرقاته من الديانة الكنعانية كراهيته لمصر فسيّس انتصار يهوه (المغتَصَب من بعل) وجعله انتصاراً على مصر: "ألست أنت القاطع رَهَب، الطاعن التنين؟" (إشعياء ٩:٥١)،(*) إلا أن المضمون الجوهري لانتصار يهوه على التنين، متى أشحنا عن هذه الشطحة الجانبية، ظل انتصاره على الألوهة المؤنثة. أو- في سياق الإزدواجية اليهودية- انتصار النور على الظلام. وذلك ما عاد فنطق في ذيل العهد الجديد عندما أُلصق فيه هذيان الكاهن اليهودي الذي أسمي بيوحنا اللاهوتي.(**) ففي سفر الرؤيا تطلع لنا حية بعل وعانات المتحوية هذه برؤوسها السبعة، باعتبارها تجسد قوى الشر التي سيهزمها يهوه في آخر الزمان فيحقق انتصار أبناء النور على أبناء الظلام:

"وظهرت آية أخرى في السماء. هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٣:١٢)

(٩/ب/١) الضرورات الكهنوتية فيما تعلق ببعلمة يهوه

غير أن الغرابة تزول متى ألقينا بالاً إلى الضرورات التي واجهها الكهنة اليهيويون في كنعان. فالمعبود الذي أقيمت الديانة حوله كان من مبدأ الأمر، كما قلنا، مُملِقاً أسطورياً. وعندما حاول موسى أن يكسو ذلك العري الأسطوري، بدأ بالسرقة من آلهة وإلاهات مصر. غير أن الضرورات السياسية اضطرته إلى تمييع الهوية المصرية التي كان قد شرع في إسباغها على يهوه بادخال المعبود المكنعن "بعل صفون" في مكوِّنات عملية التخليق. وهكذا فان الكهنة اللاويين الذين وصلوا إلى كنعان مع من أسموا بـ"الشعب"، أي مع عباد بعل صفون الذين واصل أولئك الكهنة عملية فرض يهوه عليهم، وجدوا أنفسهم مواجهين، هم ويهوه معاً، بأسطورية عريقة زاخرة وغنية، هي أسطورية عائلة أوغاريت الجليلة من آلهة وإلاهات كان أبرزهم الأب، الإله العليّ إيل، وابنه بعل سيد جبل صفون الذي كانت هويته قد أسبغت من قديم على إله "الآراميين التائهين" حدّاد المرعد، راكب السحاب، ومانح المطر، والإلآهتين عشيرة وعانات.

(*) ومما يوضح الطبيعة "السياسية" لهذه الشطحة قول إشعياء، في موضع آخر من السفر، أن يهوه سوف" يبيد لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بقوة ريحه ويضربه الى سبع سواق ويجيز فيها بالأحذية. وتكون سكة لبقية شعبه التي بقيت من أشور كما كان لاسرائيل يوم صعوده من أرض مصر (مع موسى)" (إشعياء ١٥:١١ و١٦).

(**) ارجع في شأن اللاهوتي الى كتابنا "المسيحية والتوراة".

ولما كان من المقضي به أن يلوذ من أُسموا بـ"الشعب"، أي من طُردوا من مصر وعلق بهم موسى وطغمته اللاوية، في أرض غربتهم الجديدة هذه، كنعان، بأبناء عمومتهم من "الآراميين التائهين" الذين كانوا قد استوطنوا من زمن طويل في كنعان وتشرّبوا عبادات كنعان وطريقة حياة أهلها، فإنه كان من أكثر الأشياء طبيعية أن يطغى العنصر الكنعاني، المتمثل في آلهة أوغاريت، بقوة، على ذلك المعبود الوافد يهوه (الذي كانت عملية كنعنته قد بدأت فعلا بادماج هوية بعل صفون في هويته إبان التيه الذي أعقب الطرد من مصر) في سياق عملية توفيق العبادات التي وجد الكهنة اللاويون أنه لم يكن مهرب من الإنخراط فيها حتى لا يفلت مقود "الشعب" من أيديهم ويُستوعب استيعاباً كاملا في عبادات كنعان.

والذي يوقفنا عليه "التاريخ المقدس"- حتى بعد تحريره- في أسفار العهد القديم "التاريخية" أن ذلك القرار البراغماتي الذي اتخذه، فيما يمكن استظهاره مما بين السطور في أسفار "القضاة" و"صموئيل" و"أخبار الأيام"، الجيلان الأول والثاني من الكهنة اللاويين صانعي الديانة، بعدم التناطح مع "الشعب" رأساً برأس في شأن التأثر الكنعاني، كان هو الذي لم يكفّ النبييم عن أخذه على "الرعاة الذين أضلوا الشعب" والذي تكررت إشارات المحرر اليه نمطياً بقوله "وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني يهوه، فساروا وراء البعليم والعشتاروث". وقد كان تفسير المحرر لذلك، في تحريره لسفر القضاة أنه بعد موت السفاح (يشوع) وكل جيله "قام بعدهم جيل آخر لم يعرف يهوه ولا العمل الذي عمل لاسرائيل" (قضاة ٢: ١٠).

غير أن ذلك التبرير، الذي يرجَّح أن المحرر زجّ به في النص، يبدو مغتصباً ويظل غير مقنع في مواجهة عدد من الحقائق التي لا تكفّ عن خرق الأستار التحريرية المسدلة بكثافة. وبطبيعة الحال، لم يكن لدى المحرر من العلم المسبق ما يوقفه على ويحذره من التمادي في "الأستاذية" في محاولته شطب شرائح بأكملها من تاريخ الديانة وبتر الكثير من مكوِّنات المعبود، ووبالأخص مكوِّنه القضيبيّ، في معرض سعيه المتصف بالتصميم في زمن السبي إلى إعادة الديانة إلى قصد موسى الأصلي وردّ المعبود إلى الهوية الاخناتونية التي كان موسى قد شرع في إسباغها عليه. وهو ما لاحظه فرويد في كتابه عن موسى والتوحيد بقوله "ونحن، على كل حال، لا نعرف الديانة الموسوية إلا في شكلها النهائي كما صاغه وثّبته الكهنة اليهود بعد موسى بثمانمائة سنة".(١٧)

تلك الحقائق الكاشفة توقفنا على أن "رعاة الشعب" من الكهنة الذين وفدوا مع ذلك "الشعب" إلى كنعان، تماما كـ"الملوك" الذين أثقل النبييم الوطء عليهم لـ"فعلهم الشر في عيني يهوه" كانوا- في حقيقة الأمر- أبرياء من تلك التهمة نظراً لأن يهوه، عندما وفد مع اللاويين والمطرودين من مصر إلى كنعان، كان مدخولاً بالفعل بـ"البعلية" نتيجة لإدماج هوية بعل صفون في هويته. وبالمثل، كان هرون مظلوماً في واقعة "العجل الذهبي" التي حكى سفر الخروج أن ذلك الكاهن صنعه لـ"الشعب" بناء على مطالبة القوم له "أن يصنع لهم آلهة تسير أمامهم" لأن موسى صعد إلى الجبل فطال غيابه. فـ"الشعب" عندما أقام حفل

قصف جنسي مورس فيه اللواط والجنس الجماعي حول تمثال "العجل المسبوك" أي الثور الذي "صنع بالإزميل" من ذهب أقراط "الشعب"، كان يمارس ذلك النشاط الجنسي وهو يتصايح بإعلان إيمان واضح المغزى: "هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك (صعدت معك) من أرض مصر" (خروج ٣٢:١-٦). وذلك المغزى، الذي يُستقرأ من النصوص السابقة لتلك الواقعة واللاحقة لها، هو أن "الشعب" أقام شعائر "آلهته" التي صعدت معه من أرض مصر (بعل صفون الذي أدمج فيه يهوه) ممثلة في ذلك الثور. فالثور كان رمز بعل، والذهب كان الغلاف الذهبي الذي كان يلبّس لوثن يهوه عند القيام بشعائره التي عُبد بها بين المديانيين والمؤابيين. والذي يشير اليه ادعّاء موسى أن يهوه أمره بغتة "بضرب المديانيين" وإبادتهم أن من خرج معهم عندما طردوا من مصر وحاول أن يجعل من يهوه إلهاً لهم ثم اضطر أن يدمج لهم فيه معبودهم الرئيسي الأصلي، بعل صفون، اتصلوا أثناء "التيه" (التشرد في الصحراء بعد الطرد من مصر) بالمديانيين ووقفوا منهم على أسطورية ذلك المعبود الذي كان الرجل موسى آخذاً في محاولة فرضه عليهم. وذلك ما جعل فرويد يقول أن "بني اسرائيل" (الذي دعاهم بـ"القبائل اليهودية") "يحتمل أنهم عرفوا يهوه عن طريق القبائل المديانية العربية (وأنه) من المحتمل أيضا أن عدداً من القبائل الأخرى في تلك المنطقة (أطراف سيناء) كانت تعبد ذلك الإله الذي ما من شك في أنه كان إلهاً بركانيا".(١٨)

فلا هرون، ولا "الشعب" أخطأ- متى حاذرنا لعقولنا من الإسقاطات التي عولجت بها النصوص بيد المحرر- في عبادة الثور الذهبي بتلك الطقوس الجنسية بوصفه "الآلهة (بصيغة الجمع) التي صعدت معه من مصر، لأن يهوه- كما كان قد خلّق حتى تلك المرحلة من تاريخه، كانت قد غامت فيه المكونات المصرية التي حاول موسى في مبدأ الأمر جعله إلهاً شبيهاً بآلهة مصر عن طريق إعطائه إياها، وبرزت فيه هويته الأصلية البركانية/القضيبية، ممتزجة بهوية بعل صفون الذي كان بدوره معبوداً قضيبياً رمّز بالثور (التي حُولت في الترجمة العربية على سبيل التحقير إلى "العجل").

وكذلك لم يخطئ "الملوك" الذين اتهمهم سدنة حركة "يهوه وحده" بالزيغ و"عمل الشر في عيني يهوه" عندما عبدوا "البعليم" و"البعلات" جنبا إلى جنب مع يهوه أمام تماثيل ثيران، بل كانوا رجال دولة.

فعلى الرغم من كل الخطابيات الكهنوتية والنبؤات التهديدية من أفواه النبييم، ظلت هناك تلك الحقائق الكاشفة التي قلنا أنها لا تكف عن خرق أستار تلك الخطابيات والنبؤات وتطل من حيث أريد لها أن "تطمر" كما قال سفر التكوين أن يعقوباً طمر ترافيم لابان المسروقة تحت البطمة (بلوطة العائفين، أي السحرة) التي عند شكيم.

وكل هذه حقائق يوثّقها "التاريخ المقدس" بما لا يقبل التأويل. فلا الكهنة، ولا رؤساء "الشعب"، ولا الملوك الذين وصفوا بأنهم "فعلوا الشر في عيني يهوه بعبادتهم البعل والـ"عشتاروث" (الحيلة اللغوية التي استخدمت في طمس الإلاهة)، كان بوسعهم أن يفعلوا

سير ذلك. لأن يهوه، من جانب، كان قد بات فعلاً وواقعاً بعلاً آخر من بعليم كنعان نتيجة لعمليات الإبتلاع المتعاقبة التي أجريت ازاحة للمنافسين والمنافسات (البعليم والـ"عشتاروث") من طريقه بأيدي كهنة "يهوه وحده". ومن جانب آخر، كان هناك العامل السياسي بالغ الفعالية في توجيه مسار ديانة تأسست بشكل جوهري على مرام سياسية وطموحات أرضية تعلقت بإقامة المُلك وحيازة الأرض والثروة أكثر مما أنبنت على أي انشغال حقيقي بما هو ليس من الدنيويات، يشهد بذلك مفهوم الثواب والعقاب (الأرضي تماما) في "ناموسها".

ومن ذلك العامل السياسي نشأ- بمفارقة غريبة بحق- الصراع بين الجناح الأصولي الذي تمسك بتوجُّه "يهوه وحده" من المؤسسة الكهنوتية، وبين من استجاب من "الملوك" والكهنة الآخرين (الذين وصفهم النبييم بلسان يهوه بأنهم "الرعاة الذين أضلوا رعيته") استجابة براغماتية للضرورات السياسية العملية المتعلقة بشغلة الحكم. والمفارقة متمثلة هنا في أن ذلك الجناح الأصولي من المؤسسة الكهنوتية كان هو بالذات الذي أفضى بيهوه، في سياق الاجتهاد بالغ التصميم على جعله الوحيد الذي يعبده "الشعب"، ذوداً عن سطوة ومكانة الكهنوت اليهيوي على ذلك "الشعب" دافع العشور ومقدم التقدمات والمشكّل لـ"الرعية" من المنافسة الخطرة التي تعرض لها ذلك الكهنوت من كهنة آلهة كنعان الذي أغوت عباداتهم "شعب يهوه". ففي حين ظل ذلك الجناح الأصولي يلقّم يهوه الآلهة والإلاهات المنافسين والمنافسات عملاً على جعله يتمثل في هويته الصفات والقدرات والخصائص التي ظلت تغوي "الشعب" بالخروج "من تحت يهوه" و"فعل الشر في عينيه" بالانخراط في العبادات المنافسة، كان ذلك الجناح الكهنوتي عينه، بنجومه من الـ"نبييم"، هو الذي دخل في صراع مع "الملوك" حين واصلوا- استجابة للدواعي السياسية العملية المتعلقة بشغلة الحكم- تلك المسيرة البراغماتية عينها التي كان موسى، في واقع الأمر، هو الذي بدأها، وسار على خطاه في شأنها، بعد الاستيطان في كنعان، كهنته اللاويون.

(٩/ب/٢) الضرورات السياسية الملكية في السير وراء بعل

ليس هناك من الدارسين الجادين من عاد يشك أو يجد في مكنته أن يشكك في ان العديد من الصفات والقوى والوظائف التي أُصعد بها يهوه إلى وضع "إله الآلهة"، و"الملك بين الآلهة"، بل والرموز التي رمّز بها، حتى رمز الثور، اختلس ليهوه أسطورياً من إيل، ومن المرعد راكب السحاب، بعل سيد جبل صقون (الذي أخذ حتى اسمه ليهوه بتعديل بسيط جعله "جبل صهيون")، ومن غير هذا وذاك من آلهة وإلاهات، بل وحتى أبطال مؤلهين كبعل ملكارت (هرقل الفينيقي) الذي يبدو أنه شكّل، في "العصر الملكي" خطراً حقيقياً على الكهنوت اليهيوي فأشعل شرارة الحرب الدينية الضروس التي شنها المتنبئ الساحر إيليا

التشبي على بيت عمري "الملكي" والتي بلغت ذروتها في الصدام بين إيليا وأخاب بن عمري "ملك" اسرائيل وزوجته ايزابل ابنة أثبعل ملك صيدا.(*)

وهناك من الباحثين من يرى أن المعبود الذي كان مدار الصراع بين إيليا وبيت عمري لم يكن بعل ملكارت، بل كان بعل سميم (بعل السموات). ويستشهد الباحث مارك سميث في ذلك(١٩) بالصيغة الأصلية للمزمور ٢٠ التي وردت فيها صراحة الإشارة إلى "بعل سميم" ذاك، والى "إيل بيت إيل" (أي الإله الذي يعبد في بيت إيل)، والى بعل صفون. وفي ترجمة النص كما هي واردة الآن بالعهد القديم، رُفعت تلك الأسماء والإشارات الكاشفة، ووضعت مكانها كلمات وعبارات مموّهة وصلت في بعض المواضع إلى حد الإسفاف والسخف، كاحلال لفظة "يستسمن" محل اسم "بعل سميم"، وتحويل الدعاء الوارد في النص الأصلي للمزمور من "ليستجب لنا إيل الملك من بيت إيل" إلى "ليستجب لنا الملك في يوم دعائنا"، وتحويل "يرسل لك بعل عونا من جبل قدسه، جبل صفون" إلى "يرسل لك عونا من قدسه ومن صهيون ليعضدك". وكما هي العادة في التهرب من مثل هذا المآزق الكاشفة في النصوص الأصلية، هبّ بعض المعتذرين لمساعدة المترجمين فقالوا أن النص الأصلي للمزمور لم ترد فيه مثل هذه الإشارات الوثنية، وأن تلك الإشارات أقحمت عليه بتحريف نصه الأصلي. وكان المنفذ إلى هذه المراوغة المألوفة أن نسخة من الصيغة الآرامية الأصلية كُتبت، في إدفو، بمصر، بالكتابة الديموطيقية (الشعبية) وأن حورس ورد ذكره في تلك الصيغة المصرية. إلا أن ذكر حورس في الصيغة المصرية لا يشير- بالمناقضة لما رمت اليه تلك المماحكة الهروبية- إلى أكثر من أن المزمور، عندما استعير في إدفو من أصله الآرامي فأسبغت عليه صبغة مصرية، كان من المقبول دينياً أن يكون إسباغ تلك الصبغة المصرية عليه بإدخال ذكر حورس فيه، لا ذكر إيل أو بعل، وهو ما لا يجعل صيغة إدفو أصلاً للمزمور أو أصلاً لذكر إيل وبعل صفون فيه، وبالتالي لا يتيح طمس أصله الكنعاني الواضح، وهو ما سلّم به باحث يهودي كواينفلد.(٢٠)

إلا أن الذي يعنينا هنا ترجيح مارك سميث لبعل سميم كمدار للصراع بين إيليا وأخاب وزوجته إيزابل (التي كانت كاهنة لـ"عشتارت"). غير أنه يسلّم بعد ذلك بأن كلاً من بعل ملكارت وبعل سميم يحتمل أنهما أُدمجا في "بعل الكرمل"، والكرمل هو المكان الذي وصل فيه صراع إيليا مع "كهنة البعل" (دون ذكر لكاهنات الإلاهة) ذروته والذي أخذهم منه حسب رواية سفر الملوك فذبحهم عن بكرة أبيهم عند نهر قيشون. والذي لا يجب أن يغيب عن الذهن، على أية حال، فيما يتعلق بأسماء أولئك الآلهة الكنعانيين، أن كل "بعل" منهم تجلٍ من تجليات "العليون" ("الإله العليّ" الذي كان كاهنه ملكي صادق والذي "بارك ابرام) أي إيل، كبير آلهة مجمع الآلهة الكنعاني. ومن الجدير بالملاحظة في ذلك الشأن أن بعل صفون، عندما أعلي ليتخذ الوضع المعلّى الذي اتخذه

(*) ارجع في ذلك الى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص ٣٧١-٣٧٤.

إنكي في مجمع الآلهة السومري، ومـردوخ في مجمـع الآلهـة البـابلي، أُعطي لقباً شـديد الشبه بلقب إيل، "العليون"، فدعي بـ"العليان". أما بعل سميم، فكانت الصفة التـي استمدت منها تسميته (بعل السموات) صفة أخرى من صفات إيـل، هـي "باسـط السـموات"، وهـي مصدر لقب من ألقاب إيل الرئيسية التي اختلست بين ما اختلس من صفات وألقاب ليهوه.

ولقد كان ذلك الاختلاس ضرورة لم يكن منها مهرب، لاهوتياً وسياسياً. وذلك ما فطن اليه موسى من مبدأ الأمر فاستنّ سنّة اختـلاس صفـات وقـدرات وألقـاب المعبـودات المنافسة ليهوه. لأنه لو كان موسى قـد ركـب رأسـه وتمسـك، بصلابـة كهنوتيـة أصوليـة، بالخط الإعلائي الإفرادي الذي توقفنا النصوص التوراتية على أنـه كـان قـد اختطـه لمعبـوده المستورَد (الذي لم يكن أحد، باعتراف المعبود نفسه، قد سمع به أو عبده قبلاً) لكـان قـد ضيّع كل امكانية في التسيّد كشامان و"نائب للإله الملك" على من طردوا من مصـر وعلـق هو بهم هو وطغمته اللاوية بأمل جعلهم "أمة مقدسة" ليهوه. ولهذا فانه- ببراغماتية "رجـل الدولة" عينها التي تعامل الملوك بها، بعده بقرون، مع "الشعب"، تساهل فقبل بتعديل ذلـك التوجّه الإعلائي وقبل بإنزال معبوده المستورد إلى المستوى الذي وجد أن "الشعب" يمكـن أن يقبله، وأدمج في هويته هوية معبود "الشعب" الأصلي الأساسي، بعل صفون. وبعيش مـن كانوا قد طردوا من مصر (وأخذوا معهم- بطبيعة الحال- معبودهم المكنعن ذاك) مـع أبنـاء عمومتهم الذين لـم يكونـوا قـد "انحـدروا إلـى مصـر" بـل استوطنوا بعـد الهجـرة مـن أور أو من غيرها من أرض كنعان، بين الكنعانيين (الذين سلّمت التـوراة بـأنهم "كـانوا آنئـذ فـي الأرض")، وصلت تلك الضرورة السياسية عينها، التي أرغمـت موسـى علـى أن يدمـج بعـل صفون في يهوه، حداً جعل جناحاً كبيراً من الكهنة اللاوييـن ورثـة موسـى (الذيـن وصفهـم النبييم بـ"الرعاة الذين أضلّوا السرائيل") يصلون بعملية بعلَمَة يهوه (جعلـه "بعـلاً" مـن بعليـم كنعان) التي بدأها موسى بإدماجه بعل صفون في يهوه، إلى حدودها القصوى التي جعلتهـم يدعون يهوه صراحة بـ"بعل يهوه"، كما أسلفنا، ويرمّزونه، كإيل، وبعـل صفـون، وغيرهمـا من البعليم، بـ"الثور" مع تخصيصه باسم "ثور يعقوب".

ثم جاء العصر "الملكي" (الذي قاوم آخر الكهنة الحكام (القضاة) صموئيـل مجيئـه بكل قواه لكنه في نهاية الأمـر رضـخ بادّعـاء أن يهـوه هـو الـذي أمـره بـأن يفعـل مـا أراده "الشعب" ويمسح عليه ملكا)، وبمجيئه أخذت الضرورات السياسية التي فعلت فعلها القوي في الديانة مـن مبـدأ أمرهـا تتبلـور وتتضـح وتصبـح لهـا اليـد العليـا فـي قـرارات "الملـوك" و"البلاط" والجناح الرسمي (والأكبر حجماً) من الكهنوت بشأن مـا انبغـى أن تكـون عليـه الديانة التي انبنى على أساسها المُلك.

ولم يكن مهرب- سياسياً و"ملكياً"- من أن يكون التوجُّه الأساسي لتلك القرارات "الملكية" والكهنوتية متمثلاً في مواصلة عملية "السير وراء بعل". ولم تكن هنـاك أي غرابـة أو يكن شذوذ في ذلك. فالملوكيـة، فـي العـالم القديـم (بـل وفـي العـالم الحديـث إلـى أن أطاحت الثورة الفرنسـية بفظاظـة دمويـة بدعـوى "المَلِـك، ظـل اللـه علـى الأرض") كـانت

منبنية- بشكل جوهري- على أيديولوجية غيبية تمثلت في الإيمان بملوكية المعبود وبما يمكن- بمفاهيم عصرنا- تسميته بـ"تفويضه سلطاته" إلى الملك البشري (الذي كان يصعد، في الديانة المصرية، وحده- إلى أن أسبغ الطابع الديموقراطي على مفهوم الخلود فبات حقاً للجميع نابعاً من الصلاح- تلقائياً، إلى السماء ليُستوعَب في الألوهة التي كان نائباً لها على الأرض) ليصبح "نائبه على الأرض". ولقد كان ذلك طموح موسى عندما أراد أن يعوّض انهيار طموحه القديم نتيجة لموت اخناتون واضطراره إلى الهرب من انتقام كهنة آمون: أن يجعل من العبيد المطرودين من مصر "أمة" و"شعباً" تحت جناح يهوه، ليصبح هو ملكاً ونائباً ليهوه على الأرض. ونفس الشيء كان قد حدث في سومر عندما جُعِل مردوخ رأساً للآلهة الأكديّة التي استنسِخت من سومر، وفي أشور عندما جُعِل أشور رأساً للآلهة الأشورية التي استنسِخت من الآلهة الأكديّة، وفي كنعان عندما حل بعل صفون محل إيل رأساً لآلهة أوغاريت التي استنسِخت من أسطوريات سومر وبابل ومصر.

وفيما يخص عبادة يهوه، لاشك في أن إضفاء صفة الإله/الملك عليه بدأ- في سياق مصري- على يد موسى، وكما أسلفنا، تعزز بالاختلاس لحسابه من أسطورية أوغاريت عملاً على درء خطر منافسة الكهنة الكنعانيين لكهنته على عشور "الشعب" وتقدماته النباتية والحيوانية، وبالأهمّ درءاً لخطر الاستيعاب وضياع فرصة تحقيق القصد الأصلي من الديانة وهو إقامة دولة لاهوتية يحكمها الكهنة اللاويون. وذلك مسار، كما قلنا، واصله بقدر كبير من التصميم والبراغماتية من دُعوا بـ"الملوك"، أي الحكام الدنيويين الذين، ابتداءً من شاول، حلّوا محل الكهنة "القضاة" رؤساءً لـ"الشعب".

ويوقفنا سفر الملوك الأول على معلومة هامة في هذا المجال مفادها أن يهوه، عندما بدأ يفرض نفسه في كنعان، كان ذلك على عدد من الأسباط (التي تألفت منها في "العصر الملكي"، "مملكة اسرائيل"، أي "المملكة" الشمالية) كان قد استوطن بين الكنعانيين في "الجبال"، وذلك في قول "عبيد ملك آرام" عن القوم "إن آلهتهم آلهة جبال ولذلك قووا علينا" (الملوك الأول ٢٠:٢٣).

ومن الواضح أنه لم يكن من الممكن جعل ذلك الإله الجبلي المحلي لبعض الأسباط إلهاً عاماً لكل الأسباط (أي العشائر المستوطنة في أماكن مختلفة من أرض كنعان بين أصحاب الأرض الأصليين) إلا من خلال عملية اختلاس شاسعة لصفات وقدرات وألقاب وسحر عدد كبير من البعليم الذين كانوا يُعبَدون في أنحاء كنعان.

وقد كانت البداية، أو كان التركيز بالأخص على، ترسيخ مفهوم الإله الملك. وكما أسلفنا، كان ذلك شاغلاً أولاهُ موسى أهميةً بالغةً آملاً أن يصبح من خلال تحقيقه "نائب الملك" الذي يحكم المُلك المنشود ممثلاً- لا كمجرد ظل بل كتجسدٍ أرضيّ- للملك السماويّ. وفي حالة موسى، كان ذلك طبيعياً متى أخذنا في اعتبارنا أن الثقافة

الدينية السياسية التي تربّى موسى في رحابها اعتبرت الفرعون فعلاً وواقعاً كتجسد أرضيّ لملوكية المعبود.

وذلك، فيما يوقفنا سفر المزامير، و"التاريخ المقدس" في طرحه لـ"تواريخ الملوك"، شاغل استمر وتعمّق واكتسب أهمية كبرى من خلال الاستيطان في كنعان، على النحو الذي تبيّنه وتفسّر ما توخاه الكهنة من ورائه، نصوص كهذه من سفر المزامير:

"يهوه قد ملك إلى الدهر وإلى الأبد: فبادت الأمم (من غير رعيته/شعبه) من أرضه" (مزمور ١٠:١٦).

"لأن يهوه ملك كبير مخوف على الأرض: (فهو) يخضع الشعوب تحتنا والأمم تحت أقدامنا" (مزمور ٤٨:٢ و٣)

وفي ذلك التنصيب ليهوه إلهاً ملكاً، نجد مقومات ملوكية إيل وبعل قد أُخِذت وأُدمجت في هويته النارية (البركانية) الأصلية:

"يهوه قد ملك: السحاب والضباب حوله (من بعل).. قدامه تذهب نار وتحرق أعداءه حوله (هوية بركانية بالإضافة إلى استنساخ أسطوري من سَخمت) أضاءت بروقه المسكونة (من بعل إله العواصف بالإضافة إلى استنساخ أسطوري من سهام سَخمت النارية، حياتها المحرقة) اسجدوا يا جميع الآلهة. سمعت صهيون (بدلا من "صفون" بعل) ففرحت، لأنك أنت يا يهوه العليّ (العليون) على كل الأرض، علوت جداً على كل الآلهة" (مزمور ٩٧:١ و٢ و٣ و٤ و٧ و٨)

وفي المزمور ٩٣ نجد قدرة ألوهة المياه (إيل/يَمّ- يَمّ/بعل) واضحة وضوحاً لا يحتمل التأويل:

"يهوه قد ملك.. رفَعَت الأنهارُ يا يهوه، رفَعَت الأنهارُ أصواتَها. ترفع الأنهارُ عجيجها. من أصوات مياه كثيرة، من غمار أمواج البحر يهوه في العُلى (من إيل، العليون) أقدر" (مزمور ٩٣:٣ و٤)

وبتنصيب يهوه ملكا، بات ذلك المعبود الذي دخلت في تخليقه مكونات عديدة شتى من ثقافات وعصور بالغة التنوع والتعدد، النصير الغيبي القوي والمخوف لـ"الملوك". ولم يكن ذلك- في حالة يهوه- صعباً أو بعيد المأخذ. فهو- من بداية عملية تخليقه- صَنِع

أصلاً وأساساً ليقوم بوظيفة النصير القوي والمخوف. فبالنسبة لـ"الشعب" صُوِّر يهوه كدرع ذلك "الشعب" وسيفه والمحارب عنه والإله الملتزم بـ"أمته المقدسة" الآخذ على نفسه عهداً بإبادة "الأمم" وإعطاء أراضيها وثرواتها لـ"ابنه البكر"، كما صُوِّر أيضا كصاحب السحر الذي فاق سحر كل الآلهة الآخرين، ابتداء من آلهة المصريين. وعندما وصل إلى كنعان في مخلاة ورثة موسى من الكهنة اللاويين، جُعِل- بذلك السحر المتفوق، وبقدر لا يستهان به من الاختلاس من إيل، العليون- "الإله العلي على كل الأرض، الذي علا جدا على كل الآلهة"، كما صدح المزمور ٩٧.

وفي نفس الوقت، وبشكل أعظم فعالية وأضخم مردوداً، اتُخِذ يهوه نصيراً- ومانحاً للسلطة وللحقوق الامتيازية- لكهنته/شاماناته اللاويين، الذين ما لبثوا أن تحولوا إلى حكام "قضاة".

وهكذا فان اتخاذ "الملوك" يهوه نصيراً(*) لهم في ممارستهم لما فوضه اليهم من سلطاته كان أمراً تماشى مع طبائع الأشياء، وكان إجراء ناجحاً من اجراءات رجال الدولة

(*) وذلك ما يصوره بوضوح ويبين أبعاده السياسية المتعلقة بالحكم في الداخل والعلاقات مع "الأمم" في الخارج مزمور، فريد بحق بما تضمنه من معلومات، "لإمام المغنين" الملك "داود الذي كلم يهوه بكلام هذا المزمور":

"يهوه صخرتي وحصني ومنقذي. ترسي وقرن خلاصي وملجأي. أدعوه فأتخلص من أعدائي... في ضيقتي دعوت يهوه واليه صرخت. فسمع من هيكله صوتي (وهب لنجدتي) فارتجت الأرض وارتعشت، وأسس الجبال ارتعدت وارتجت لأنه غضب. صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. جمر اشتعلت منه. طأطأ السموات ونزل وضباب تحت رجليه. ركب على كروب وطار على أجنحة الرياح. جعل الظلمة سترة حوله وجعل مظلته ضباب المياه وظلام الغمام. ومن الشعاع قدّامه عبرت سحبه. برد وجمر نار. أرعد يهوه من السموات العلى والعليّ أعطى صوته بردا وجمر نار.. فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة" (مزمور ١٨).

وكما هو واضح من النص، ركّب المزمور من خلال عملية مزج (أشبه بالميكساج السينمائي في عصرنا) لقدرات "إلهية": قدرات يهوه الأصلية وهو معبود بركاني: "صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت.. جمر اشتعلت منه.. جمر نار.. جمر نار"، بقدرات إله العواصف بعل صفون: "(أرعد من السماء. الأرض ارتجت والجبال ارتعدت. هف على أجنحة الريح. عبرت سحبه. ومن هول العاصفة أعماق المياه انكشفت وظهرت أسس الأرض"، بقدرات إيل العلي في السموات". فهو يوم قيامة مصغر لكنه مخيف في الوقت ذاته. ولم؟ لأن أعداء أشرار أساءوا الى داود الملك وتهددوا ملكه. وبفضل ذلك النصير القوي، يهوه (بصرف النظر عن أن قدراته مسروقة)، ينشد المنصور داود متهللا:

"يمينك تعضد ولطفك يعظمني (فـ) أتبع أعدائي وأدركهم ولا أرجع حتى أفنيهم. أسحقهم فلا يستطيعون القيام. يسقطون تحت قدمي. تمنطقني بقوة للقتال.. فأسحقهم كالغبار قدّام الريح.. (و) تنقذني من مخاصمات الشعب. تجعلني رأسا للأمم. الشعوب التي لا أعرفها تتعبد لي.. بنو الأغيار (الجوييم) يتذللون لي. بنو الأغيار يبلون ويزحفون من حصونهم (بفضل يهوه) إلهي المنتقم الذي يخضع الشعوب تحتي.. برج خلاص لملكه والصانع رحمة لمسيحه داود ولنسله الى الأبد" (المزمور ١٨).

الجدد (الذين حققوا لأنفسهم حلم موسى الذي ذُبح قبل أن يحققه) أخذ طريقه بمنتهى السلاسة.. لولا الحزازة- والمخاوف من ضياع المكانات والمكاسب- التي قدحت شرارة الصراع بين الجناح اليهيوي الأصولي (جناح "يهوه وحده") من المؤسسة الكهنوتية، وبين الملوك الذين دُمِغوا بـ"فعل الشر في عيني يهوه" تصيداً من جانب الكهنة الأصوليين لاضطرار الملوك، كما أوضحنا، إلى مواصلة عملية توفيق العبادات من حيث أوصلها- عبر ما لا يحصى من عمليات الابتلاع- ذلك الجناح المتشدد ذاته.

وكما لم يكن اتخاذ "الملوك" يهوه نصيراً ومانحاً- بالتفويض- للسلطة أمراً صعباً أو فيه شذوذ بالنسبة لسيرة المعبود ذاته، لم تكن فيه، على صعيد أوسع هو عبادات الشرق الأدنى القديم، غرابة أو شذوذ أو خروج على النمط. فـ"رأس الآلهة"، أو "إله الآلهة" كما أسمي يهوه في سفر المزامير وغيره من أسفار العهد القديم، تـوّج باستمرار- في عبادات الشرق الأدنى القديم- "ملكاً"، وشيّد له بيته، قصره، هيكله السماوي، أسطوريا، على "الأرض المرتفعة"، أو على قمة الجبل، أو فوق الجَلَد، وأقيم ظلّ قصره، المعبد أو الهيكل الأرضي الذي مورست فيه شعائر العبادة على الأرض، في حمى الملك البشري المفوضة إليه السلطة من الإله.

وفي حالة بلدان الهلال الخصيب، تظل سومر- بطبيعة الحال- المنبع الذي انتشرت منه شمالا وشرقاً التقاليد الأساسية المجسّدة (أسطورياً، ودينياً في الممارسة الفعلية) لأوجه ذلك الاعتقاد في ملوكية المعبود وفي كونه حائزاً لـ"بيت"/"قصر" وصاحب "بلاط" مكّون من آلهة دونه مرتبة في التسلسل الهرمي للسلطة الكونية.

والذي لا يجب أن يغيب عن الذهن، فيما تعلق بمحاولة استظهار الأغوار العميقة لذلك ولغيره من معتقدات وممارسات الشرق الأدنى القديم في صنع أسطورية يهوه، أنه- جنبا إلى جنب مع المكونات الأولى والأساسية التي سرقها له موسى من مصر، ومع الاختلاس الأسطوري والديني من عبادات كنعان- يظل هناك العامل بعيد الفعالية الذي تمثل في أن تلك الأسطورية اليهيوية عندما اتخذت شكلها النهائي الذي وصلتنا به اتخذت ذلك الشكل في بابل. وحتى بعد السبي واستئناف الاستيطان في كنعان، ظلت بابل ماثلة فاعلة فعلها بقوة في الصياغة النهائية للنهب الأسطوري متعدد المنابع الذي لُفقت منه تلك الأسطورية.

والذي لا يجب أن يغيب عن الذهن فيما تعلق بهذه الحقيقة التاريخية اعتبار ذو شقين، أولهما أن النصوص البابلية التي توافرت لمن انخرطوا في عملية وضع أسطورية يهوه

ونظرا لأهمية الموضوع (كون يهوه النصير لبيت داود) تكرر نص المزمور بحرفيته في سفر صموئيل الثاني، الأصحاح ٢٢. ومما يحمد لصموئيل أو لمحرر السفر أنه كان أكثر إبانة من المزمور بقوله أن يهوه "أرسل سهاما فشتت أعداء داود وأرسل برقا فأزعجهم".

في الشكل الذي استقرت عنده، وأهمهم الكاتب عزرا،(*) كانت (كما بينت الكشوف الآثارية الحديثة) كنزاً حقيقياً من عيون التراث الأسطوري السومري الأصلي ونسخته الأكديّة (السامية) البابلية. وبين الأصل والنسخة لم تكن هناك، في واقع الأمر، إلا تباينات وتنويعات تعلقت بأسماء الآلهة والمواقع وبعض التفاصيل، في حين ظلت المعتقدات الأساسية واحدة. أما الشق الثاني من ذلك الاعتبار الهام فهو أن عزرا ومن تعاون معه من كهنة يهيويين في محاولته رد عبادة يهوه إلى الصورة المصرية الأصلية التي حاول موسى صوغ تلك العبادة بها،(**) وجدوا استحالة عملية في أية محاولة لإلغاء ما سُرق من مصادر لا تحصى تخليصا لعبادة يهوه مما كان قد أُدمج فيها وأُدخل في صب سبيكة المعبود ذاته مما أُخذ له من آلهة الشرق الأدنى القديم واصطُنع منه "تاريخ" لـ"الشعب"، فقصر جهدهم- لا عجزاً، بل اضطراراً حتى لا ينهار المعمار الملفّق كله- دون الإلغاء والإزالة وانصرف إلى التمويه والإتاهة، قدر ما وسعت الحيلة، عما كان قد اختلس للديانة والمعبود و"الشعب" قبل زمانهم، وفي الوقت ذاته عما لم يجدوا مهرباً- في سياق حبكهم للأسطورية- من اختلاسه بأنفسهم مما توافر لهم- بحكم التواجد في بابل- من كنوز

(*) "كانت الأساطير والملاحم باللغة الأكدّية معروفة على نطاق بالغ الاتساع في العالم القديم، ولم تكن قاصرة على اللغة الأكدّية، فمن المؤكد أن منها ما كان قد عرف طريقه الى لغات أخرى منها الحثية والعبرية، ومن المؤكد المقطوع به الآن أن ما كانت تحكي عنه راج بشكل تخطى حدود أي لغة بعينها وأي جماعة عرقية. وقد كان ذلك راجعا- جزئيا- الى أن اللغة الأكدية كانت لغة الديبلوماسية في أرجاء الشرق الأدنى القديم من منتصف الألف الثانية الى منتصف الألف الأولى ق.م.، بل ووصلت حتى الى مصر والأناضول وايران، والى أن من كانوا يتتلمذون ليحترفوا حرفه الكتبة حتى في تلك البلدان البعيدة كانوا يتدربون باستخدام النصوص الأدبية باللغة الأكدية، والى أن بعض العناصر الهامة من سكان بلدان الشرق الأدنى القديم، كالبدو الرحل وتجار القوافل، كانت تقوم (بعملية الانتشار الثقافي) من خلال أسفارها الواسعة والمستمرة. وهكذا فان الحكايات الأسطورية والملاحم المروية باللغة الأكدية ذات أرضية مشتركة مع حكايات العهد القديم، والالياذة والأوديسة، وأعمال هزيود بل وحكايات ألف ليلة وليلة. فكلها حكايات تمتعت بشعبية واسعة بين جمهور واسع دوليا منذ ذلك التاريخ السحيق" - المرجع [٣١]:

(Dalley, S: "Myths from Mesopotamia", Oxford U.P., 1990, pp. xviii, xix).

(**) "عزرا هذا صعد من بابل وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها يهوه إله اسرائيل" (عزرا ٧:٦)

" و( ) اجتمع رؤوس آباء جميع الشعب والكهنة واللاويون الى عزرا الكاتب ليفهمهم كلام الشريعة ( ) التي أمر بها يهوه عن يد موسى" (نحميا ٨:١٣ و١٤)

"بعد موسى بثمانمائة سنة، مرت منذ الخروج من مصر (والى) تثبيت نص العهد القديم في ظل عزرا ونحميا، غيِّرت عبادة يهوه لتصبح مطابقة لديانة موسى الأصلية، أي الديانة المصرية، بل- وفيما يحتمل- لتسبغ عليها هوية تلك الديانة. وقد كانت تلك النتيجة الجوهرية، والمؤدى بالغ الأهمية لتاريخ الديانة اليهودية" - [المرجع ٨٢] :

(Freud, Sigmund: "The Origins of Religion", Penguin: Vol.13, 1985, p.287) وارجع في ذلك تفصيلا الى "قراءة سياسية للتوراة" ص ص١٤٠-١٤٢.

حضارات الرافدين وهم آخذين في التحرير وإعادة التأليف بما أسمي بـ"الوثيقة الكهنوتية P" وبالتثبيت الأخير لما أسمي بـ"سفر التثنية" الذي عُزي إلى موسى.

نتيجة لذلك الإحتياج الذي أملاه العوز الحضاري لمحرري الديانة والقائمين في سياق تحريرهم باعادة تأليف وتعديل وتحوير وتمتين أسفارها "المقدسة"، وفرضه الإملاق الأسطوري المتأصل في سيرةٍ المعبود وافتقار "الشعب" إلى تاريخ حقيقي خلا التيه الذي تحدثت عنه التوراة مكرراً، ظلت عمليات السطو الثقافي والاختلاس الديني والتلفيق التاريخي ماثلة في الديانة والمعبود و"تاريخ" ما أسمي بـ"الشعب" الذي أُرجع اعتسافاً إلى من أُسموا بـ"الآباء"، كاشفة عن الأصول التي وقع السطو عليها والمنابع التي جرى الاختلاس منها.

ولنبدأ من سومر (التي تقول التوراة أن التيه بدأ بالخروج منها)، وتحديداً من الإله المحارب نينجرسو ومَلِك لَجَش الصالح جوديا. ونينجرسو تعني رب جرسو أو سيد جرسو. فـ"نين" السومرية معادلة لـ"بعل" الكنعانية. وكما نعرف، دُعي يهوه وخوطب باستمرار في العهد القديم بلقب "السيد الرب". وأما جوديا، فنمط طرزبدئي للملك الأرضي الذي فَوَّضت إليه الآلهة بعض سلطاتها على البشر ووهبته بعض حكمتها ليحكم كـ"نائب ملك" للإله الملك السماوي أو مجمع الآلهة الحاكم للكون. فالسومريون آمنوا، كما يخبرنا كريمر(٢١)، بأن مسيّري شؤون الكون كانوا آلهة لهم هيئة انسانية (انتروبومورفية) لكنهم امتازوا على البشر بأنهم لا سلطان (في الغالب) للموت عليهم، ورغم أنهم محتجبون (لا تراهم أعين البشر العاديين، لكن الأبطال يرونهم ويتحدثون اليهم ويتحدونهم أحيانا) فإنهم يسيّرون كل ما في العالم ويتحكّمون في مصائر البشر وفقاً لمخطط إلهي نبع مما تمتع به الآلهة من حكمة وناموس ملزم لكل من في الكون. وعلى رأس ذلك المجمع الحاكم كان الآلهة الرئيسيون الأربعة (تبعا لما استقرت عنده أوضاع الآلهة في الميثولوجيا السومرية) آن، الإله السماء، وكي، الإلاهة الأرض الأم الأولى، وإنليل، الإله الهواء، نسمة الحياة، وإنكي، الإله خالق البشر والأحياء ورب المياه. وفي النسخة الإكدية (السامية، البابلية) ظلت لأولئك الآلهة اختصاصاتهم مع تغيير طفيف في أسمائهم، فـ"آن"، أصبح "آنو"، و"كي" أصبحت "آنتوم"، و"انليل" بات "إيليل" و"إنكي" أصبح "إيا". وفي أسطورية أوغاريت، يبدو بعل صفون قريناً لإنكي السومري، وهو ما لا غرابة فيه متى اعتبرنا بأن "إيشكور"، ابن إنكي، كان- في نسخته البابلية السامية أدد/هدد/حداد الذي أُدمج في هوية بعل صفون، كما أسلفنا.

غير هؤلاء الآلهة الرئيسيين الأربعة، كان سائر آلهة وإلاهات البانثيون السومري (إن صح استخدام هذا المصطلح اليوناني الذي يعني مجمع الآلهة)، من المعبودات المحلية والمعبودات الموكلة إليها اختصاصات معينة، ومنهم نينجرسو، الذي عُرف أيضا باسم "رب المعبد" ووصف بأنه "رجل الحرب".

(٩/ب/٣) حلم ابرام وحلم جوديا

في ترتيل سومري يعود تاريخه إلى ما قبل سنة ٢٠٠٠ ق.م.، نعثر على الأصل السومري الذي "اقتبس" منه حلم ابرام بـ"العليون" (إيل الكنعاني كما جعل في الأسطورة التوراتية) وهو الحلم نذير السوء الذي "قطع فيه الإله العهد مع ابرام الذي غير اسمه بعد ذلك إلى ابراهام. فتماما كما ظهر "العليون" (الإله العليّ) لابرام في المنام وقطع معه العهد، ظهر نينجرسو لجوديا، الأب/الملك الصالح الذي اختارته الآلهة في النصوص السومرية "لهداية السومريين ورعايتهم وتوفير كل ما من شأنه أن يمكنهم من أن يزيدوا ويتكاثروا ويعيشوا في رغد وسلام"، وقطع معه عهداً.

ابرام/"العليون"	جوديا/نينجرسو
"لما صارت الشمس إلى المغيب وقع على ابرام سبات واذا رعبة مظلمة واقعة عليه" (تكوين ١٥:١٢)	"كان نوم. وارتجف جوديا رعبا. كانت رؤيا"
"صار كلام الرب إلى ابرام فى الرؤيا" (تكوين ١٥:١) "وقال انظر إلى السماء وعد النجوم" (تكوين ١٥:٥) "واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز" (تكوين ١٥:١٧)	"صوب النائم. صوب النائم تقدم نينجرسو وبيده لمسه، وقال له: "جئت لأنبئك بطقوسى طبقا لنجوم السماء. "نار سوف تلفح ذراعك فتعرف عندئذ علامتى".
"لا تخف يا ابرام.. أجرك كثير جدا" (تكوين ١٥:١) "قم امش فى الأرض طولها وعرضها. لأنى لك أعطيها. لأن جميع الأرض التى ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الابد. واجعل نسلك كتراب الأرض، اذا استطاع أحد أن يعدّ تراب الأرض فنسلك يُعدّ.. فبنى هناك مذبحا (بيتا) للرب" (تكوين ١٣:١٥-١٨)	"أيها الراعى الأمين جوديا. عندما تضع يدك من أجلى سومر سوف تسكب الكثير من الزيت لأجلك. والحقول الفسيحة سوف يعلو زرعها من أجلك. وفى الليل، سوف يضىء القمر من أجلك. وفى النهار، الشمس الساطعة سوف تشع من أجلك. عندما تضع يدك على بيتى، بتأسيس بيتى".(٢٢/أ)

فان كانت شعائر "قطع العهد" بين ابرام و"الإله العليّ" ("العليون"، إيل، المطلوب منا أن نعتبره يهوه) قد أُخذت من الطقوس الكنعانية، فان فكرة التعاقد ذاتها بين "الرجل البار" (وهو بار لأنه صدق كلام الإله الذي ظهر له في المنام) ابرام "فآمن بالرب فحسبه له برا" (تكوين ١٥:٦)، وبين "العليون"، إيل، رفعت رفعاً من الترتيلة السومرية عن منام

"الرجل البار الراعي الصالح" جوديا والعهد الذي قطعه معه الإله السومري نينجرسو قسماً بنجوم السماء وهو أن ينعم عليه بالوفرة ويجعل "أجره عظيما" لبره، وايمانه، وجعله يده في خدمة الإله، وبناء معبد له. وفي ختام المسروق التوراتي من كل ذلك نجد ابرام مقيما مذبحا للإله الذي ظهر له في الحلم، تماما كما فعل جوديا. ولم يكن من قبيل المصادفة والحال هذه أن ينص العهد الذي قطع مع ابرام، أخذاً من أسطورة الإله السومري والملك السومري بأرض الرافدين، على جعل نهر الفرات التخم الشرقي للأرض الممنوحة بموجب ذلك التعاقد: "لنسلك أعطي هذه الأرض: من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات" (تكوين ١٥:١٨)، وهو ما قد يبدو كشطحة غريبة من الإله الواعد بهذه الهبة الأبدية، حيث أن قائمة الشعوب التي انطوى العهد على إعطاء أراضيها لنسل ابرام لم يكن بينها شعب واحد من شعوب أرض الرافدين وسكان الأرض التي فيها "النهر الكبير، نهر الفرات". غير أن الغرابة تزول متى تذكرنا الموقع الجغرافي للأرض التي اختلس حلم قطع العهد منها، وتذكرنا أن كلاً من الإله الذي ظهر في الحلم المستنسخ لتعاقد ابرام مع "العليون" إيل، و"الرجل البار" الذي ظهر الإله له في ذلك الحلم كانا من أرض الرافدين ومرتبطين، أسطورياً وجغرافياً، بـ"النهر الكبير، نهر الفرات".

وليس الاختلاس من حلم جوديا وتعاقد نينجرسو معه هو كل المسروق لابرام ويهوه و"الشعب". فاختصاصات نينجرسو وبركاته اختلست في صنع الأسطوري اليهيوية:

"أيها الراعي الأمين، يا جوديا، عندما تضع يدك على بيتي
آنئذ سوف أدعو السماء لتمنحك المطر
وأدعو الفيض لينزل اليك من السماء
فينعم شعبك.
بتأسيس بيتي سوف يأتي الفيض
الروابي التي لم يعل فيها ماء
سوف يعلو الماء فيها من أجلك
وسوف تهب ريح الشمال من أجلك" (٢٢/ب)

وهذا، كما نعرف، الوعد الذي لم يكف يهوه عن وعد "الشعب" به اذا ما عبده وانضوى تحت لواء هيكله، "بيته"، أن يمنحه المطر والوفرة.

وفي الوقت عينه، نجد التركيز الواضح في سيرة الراعي الصالح والرجل البار جوديا على أهمية بناء البيت (المعبد) للإله، منعكساً بقوة في صنع "التاريخ المقدس" ليهوه في العصر "الملكي".

وغير نعمة الفيض، والدور بالغ الاهمية لـ"البيت" المقدس، معبد الإله أو هيكله، نجد أيضا بطولة نينجرسو الحربية منعكسة بقوة في صنع صورة يهوه العسكرية، وهي بالغة الاهمية في صنع أسطوريته كلها.

(٩/ب/٤) السطو على إنكي

وهو ما يقودنا إلى إله رئيسي آخر من آلهة سومر، هو إنكي، الإلـه البطـل الخـالق، إله المياه، ورب الحكمة. ففي الميثولوجيا السومرية نجد أن ذلك الإلـه "تـوّج" ملكـا على الكون، وشيّد له قصره السماوي، الذي كان "بيتـه" (معبـده) الأرضـي فـي أريـدو (تبـة أبـو شهرين حاليا) ظلاً له:

"بعد أن تقرر إيجاد مياه الخلق الأول،
بعد أن ولدت الوفرة في السماء
فكست الأرض بالعشب والشجر،
سيد الغمر العظيم، إنكي المتوج ملكا
الرب إنكي الذي يتقرر المصير بكلمته،
شيد قصره من الفضة واللازورد
فكانت فضته ولازورده نورا تلألأ
عندما شيد الإله الأب قصره فوق هاوية الغمر،
كما انبغى أن يكون
البيت الطاهر قد أقيم، بناه إنكي باللازورد،
ووشّاه بالذهب الوفير اذ شيده فوق هاوية الغمر،
وفي أريدّو شيد بيته الاخر، بيت ضفة المياه
بيت النبوءات الذي ينطق آجره بالكلمة ويمنح المشورة
عندما يعلو منه صوت الرب إنكي مدويا كصوت ثور بري،
بيت إنكي الناطق بالنبوءات".(٢٣/أ)

من الواضح الذي لم يعد يمـاري فيـه أحـد أن إنكـي مـن الآلهـة السـومريين الذيـن انصبّ عليهم السطو الديني والثقافي، في بابل، خلال عملية تحريـر وتثبيـت أسـاطير العهـد القديم كما وصلتنا (ولا علم لأحد بما قد تصير اليه عبر المزيـد مـن عمليـات "الترجمـة"). ولا مدعاة للعجب في ذلك. فإنكي، لكونه السلف الأسـطوري المباشـر لكـل مـن مـردوخ البابلي، وعن طريق وليده إيشكور، لحداد/بعل صفون، كان أكثر الآلهـة السـومريين الكبـار مواءمة للصورة التي كان يهوه قد أُكسِبها من ابتلاعه لبعل الكنعاني. ولنتأمل، مثلاً في ذلـك اللازورد الأزرق الشفاف الذي قالت الترنيمة أن إنكي استخدمه فـي بنـاء قصـره السـماوي (أي هيكله الذي في السماء، في حين بنى "بيته الاخر"، أي معبده الأرضـي، بـالآجر) وبيـن "شبه صنعة العقيق الأزرق الشفاف" التي انبهر بها أشراف اسرائيل السـبعون عندمـا صعـدوا برفقة موسى وهرون وناداب وأبيهو ليزوروا يهوه في قصره على قمة الجبل ويروه رأي العين ويتناولوا الطعام ويشربوا الشراب على مائدته (خروج ٢٤:١٠). أو لنتدبر في ذكـر "هاويـة الغمر" التي شيد إنكي قصره فوقها (بسـط سلطانه عليهـا)، وهـو بطـل آلهـة سـومر خـالق

الأحياء والمنتصر على المياه وخضم الفوضى الأولى، ونقارنـه بـ"ظلمـة الغمـر" التـي كـان "روح يهوه يرف على وجهها" قبل خلق العالم والاحياء (تكوين ١:٢). أو لنتفكر فـي كـل ذلك الذهب الوفير الذي تقول الترنيمة السومرية أن إنكي وشّى به قصره السماوي ونقارنـه بقائمة جرد "آنية بيت الرب يهوه" الواردة في سفر عزرا، وهي الآنية التي "أخرجهـا نبوخـذ نصر من هيكل يهوه وردها قورش الفارسي: ثلاثون طستاً من ذهب، وألف طست من فضة وتسعة وعشرون سكيناً وثلاثون قدحاً من ذهب وأربعمائة قدح مـن الفضـة.. جميـع الانيـة من الذهب والفضة عددها خمسة آلاف وأربعمائة" (عزرا ١:٧-١١). فكأن الأمر تعلق هنا بمقتنيات قصر ملكي لا معبد إله. ويهوه، على أيـة حـال، كـان قـد أصيـب بحـواذ الذهـب مبكراً، على يد موسى، نتيجة لسرقات موسى لحسابه مـن الديانـة المصريـة، غـير أن ذلـك الحواذ الذي كان في منشئه سحرياً(*) تضخم فيه عنصر الفخامة الملكية بشكل لافت للنظـر في الصياغة البابلية المتأخرة زمنياً عن موسى بثمانية قرون.

ولقد يوقفنا على مدى قوة التأثير السومري في تلك الصياغة التأمل قليـلاً فـي هـذه الترنيمة السومرية التي يعدد فيها إنكي بعض مناقبه الإلهية ومقارنتها ببعـض نمـاذج التفـاخر اليهيوي في العهد القديم:

الترنيمة السومرية	**العهد القديم**
	(سفر إشعياء)
"أنا الرب وليس آخر"	"أنا أنا الرب وليس غيري" (٤٣:١١) "أنا الرب وليس آخر" (٤٥:٥) "أنا الرب وليس آخر" (٤٥:٦) "أليـس أنـا الـرب ولا إلـه آخـر غـيري؟" (٤٥:٢١)
"أنا من يـأمر فـلا يسـأل ولا يـرد لـه أمر"	"من اليوم أنا هو ولا منقذ من يدي. أفعل ومن يرد؟" (٤٣:١٣) "لأنى أنا الرب وليس آخر.. رأيى يقوم وأفعـل كـل مسرتى. قـد تكلمـت فأجريـه. قضيـت فأفعله" (٤٦:٩-١١)
	(سفر المزامير)
"أنـا مـن اذا مسـت قدمـه الأرض فاضت ينابيعها"	"تعهدت الأرض (يـا يهـوه) وجعلتهـا تفيـض. تغنيها جدا. سواقى يهوه ملآنة ماء" (٦٥:٩)

(*) ارجع في شأن سحر الذهـب وحـواذ الذهـب عنـد يهـوه الـى "السـحر فـي التـوراة والعهـد القديـم" ص ص٢٣٣-٢٣٧.

"وإذا مـــرت قدمـــه قـــرب مروجهـــا تكدســـت فيهـــا الغـــلال وكـــثرت القطعان"(٢٣/ب)

"تبــارك غلتهــا وآثــارك (آثــار أقدامــك) تقطــر دســما. تقطـر مراعـى البريـة وتنطـق الاجـام بالبهجة وتكتسى المروج غنما"

(٦٥:١٠-١٣)

من هذه المقارنة المحدودة نرى أن قول إنكي "أنا الرب وليس آخر. أنـا مـن يـأمر فلا يسأل ولا يرد له أمر" ركب دماغ إشعياء بشكل جعله يكرره تكراراً مفرطاً في الإلحـاح لم يخدم يهوه كثيرا بل جعله يبدو كما لو كـان مخلوقـاً بشـرياً (ربمـا كـان إشـعياء ذاتـه) مصاباً بعقدة نقص خطيرة، ثم- في النهاية- يتساءل، ليطمئن قلبه، "أليس أنا الـرب ولا إلـه آخر غيري؟"

أما قول ذلك المعبود السومري أنـه اذا مسـت قدمـه الأرض فـاضت ينابيعهـا، وإذا مرت قدمه قرب المروج تكدست فيها الغلال وكثرت القطعان، فإعلان سيادة إلهي متكـرر في أسطوريات كل آلهة الشرق الأدنى القديم القضيبية التي اغتصبت- علـى عبـاب حلولهـا الباترياركي- وظائف الإنعام بالخصب والخصوبة علـى الأرض والبشـر وسـائر المخلوقـات من الألوهة المؤنثة. وذلك إعلان سيادة إلهي باترياركي نجده تاركاً بصماته بقوة لا تخطئها عين في التوراة وسائر أسفار العهد القديم فيما تعلق بقدرات عزيت إلى يهوه بالاختلاس من الآلهة القضيبية الأخرى ذات الكهنوت المنافس للكهنوت اليهيوي بشأن منح المطر أو منعه والإنعام بالخصب (بـ"فتح رحم" أنثى الإنسان والحيوان) والخصوبة، بقـذف المنـي الإلهـي المخصِّب (ماء الروح، ماء الحياة، ماء السماء) فـي رحـم الإلاهـة الأم الأرض، أو الابتـلاء بالقحط و"اقفال رحم" أنثى الإنسان والحيوان، والامتنـاع ع.ن إمـداد رحـم الأرض بـالمني الإلهي.

ولقد ظل الشرخ في كل ذلك الاختلاس الأسـطوري لألوهـة المعبـودات القضيبيـة الأخرى المنافس كهنوتها لكهنوت يهوه ناجماً عـن التنـاقض الجـذري بيـن الإصـرار علـى اختـلاس القـدرات القضيبية لتلـك المعبـودات والإصـرار- إبـان عمليـة التحريـر والتثبيـت للنصوص التي تواكبت مع جعل يهوه إلهاً محتجباً أثيرياً لا مشخّص ولا جنسي ورفعـه إلـى ما فوق الجَلَد. فالسومريون، والبابليون، والكنعانيون، الذين جرى ذلك الاختلاس منهم، لم يكونوا قد ابتلوا أنفسهم أو ابتلاهم صـانعو أسـطورياتهم بـداء التطهريـة المكذوبـة العضـال (الذي ابتليت به عبادة يهوه في الصياغة الكهنوتية لحكاية آدم وحواء و"الخطيئة الأصليـة")، ولم يكونوا قد فصلوا في وعيهم الجمعـي بيـن الديـن ومنابعـه الجنسية، ولـذا فـانهم كـان بوسعهم أن يرنموا لـ"الأب إنكي":

"وهو واقف بخيلاء كثور عارم
رافعا قضيبه قاذفا منيّه مالئا دجلة بالماء الزلال
ودجلة مستسلم له كبقرة برية لثور لا يغلب،

إنكي رافعا قضيبه، قاذفا مهر عروسه
مفعما بالنشوة مياه دجلة كثور فحل في لحظة الإخصاب،
مريقا ماءه، نبيذه حلو المذاق،
منبتا الغلال، الغلال الوفيرة ليقتات البشر،
وليملأ بيت إنليل بالخيرات،
بإنكي إنليل يسرّ وتبتهج نفر".

هذه القضيبية، الأصيلة في يهوه عندما عثر عليه موسى في ركن قصي من صحراء سيناء معبوداً للمديانيين العرب، هي ما استمات محررو "الأسفار المقدسة" في طمسه بإخصاء يهوه إذ وجدوها غير لائقة بالمعبود المخلّق عندما شرعوا في إعلائه وإصعاده إلى ما فوق الجَلَد. غير أن مترتباتها ظلت من النعم الأساسية التي لم يكفوا عن التأكيد بأن يهوه ينعم بها على من اتبعه وأعطاهم العشور وقدم اليهم الذبائح والقرابين النباتية و"ملأ أيديهم". وكما هو واضح، تجاهل الكهنة تماماً الحقيقة الماثلة في أن من لم يتبّع يهوه من "الأمم" ظل، بغير عون من يهوه، متمتعاً بالنسل الوفير، وخصوبة الأرض، وكثرة المحاصيل، وتكاثر الماشية، ورغد العيش، والتقدم الحضاري، كما يوقفنا قول يهوه ذاته لـ"شعبه":

"ومتى أتى بك يهوه إلهك إلى مدن عظيمة لم تبنها. وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها. وآبار محفورة لم تحفرها. وكروم وزيتون لم تغرسها. وأكلت وشبعت فاحترز لئلا تنسى يهوه"
(تثنية ٦:١٠-١٢)

فالنص الذي وضعه الكهنة في زمن لاحق لموسى بثمانية قرون وأجروه على لسان موسى كان شهادة بحقيقتين أساسيتين، أولاهما أن تلك الشعوب التي لم تعبد يهوه ولم تعرفه كانت- بآلهتها هي، تبعا للمنطق الأسطوري القديم، وبغير حاجة إلى يهوه- متمتعة برغد العيش والبذخ الحضاري والخصب والوفرة مما جعل التوراة تصف أرضها بأنها "الأرض التي تفيض لبنا وعسلاً"، وثانيتهما أن الإنجاز الحقيقي ليهوه لم يكن منح الخصب والرغد والوفرة بل الاقتحام بالعنف وأخذ ما لدى الغير نهباً و"إعطائه" لـ"الشعب" الجائع حتى يأكل ويشبع فيعترف بفضل يهوه ويعبده بكل ما ترتب على ذلك الإنضواء تحت لوائه من مزايا لكهنته. وفيما تعلق بالحقيقة الأولى التي أشرنا اليها، نكتفي بهذا النص الواضح من نصوص لا تحصى:

"اسمع يا اسرائيل. أنت اليوم عابر الاردن لتدخل وتمتلك شعوبا أكبر منك وأعظم ومدنا عظيمة محصنة إلى السماء، (مدن) قوم عظام وطوال ( ) الرب يهوه إلهك العابر أمامك كنار آكلة هو (الذي) يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعا كما وعدك يهوه إلهك. (آنئذ) لا تقل في قلبك حين ينفيهم يهوه من أمامك أنه من أجل برّي أدخلني يهوه لأمتلك هذه الأرض ولأجل

اثـم هـذه الشـعوب يطردهـم مـن أمـامي. بـل لأجـل اثـم أولئـك الشعوب (؟) يطردهم يهوه إلهك من أمامك ولكي يفي بـ(العهـد) الذي أقسم عليه لآبائك ابراهام واسحق ويعقوب. فاعلم أنه ليـس لأجل برّك يعطيك يهوه إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها، لأنك شعب صلب الرقبة" (تثنية ٩:١-٦)

والعسف الفكري والاخلاقي ظاهر هنا في قوله "من أجل إثم هذه الشـعوب"، لأنـه أي إثم يمكن أن تكون تلك الشعوب قد ارتكبته في حق يهوه وهو ليس معبودها، ولم تكن لديه- تبعاً للنصوص- أدنى نية أو رغبة في أن يكون إلهها؟ وهـو عسـف واضـح أيضـا مـن خلال وصفه للرغد الذي عاشت فيه تلك الشعوب. فبمعيار التوراة ذاتها، يثبت ذلك الرغـد أن آلهة تلك الشعوب كانت راضية عنها. ويهوه ذاته لم يُنكر ألوهة تلك الآلهة. كل ما فـي الأمر أنه ادعى أنه أقواها سحرا وأعظمها قدرة. وفي الوقت ذاته نجـده معلنـا فـي النـص أن "شعبه" شعب عاص "صلب الرقبة" وأنه لم يقرر إبـادة تلـك الشـعوب ليملّكـه أراضيهـا مـن أجل بره وصلاحه. وهكذا لا يبقى مبرر أخلاقي/إلهي واحد(*) هنا الا التزام يهـوه بـالبريث، بـ"العهَد" الذي قطعه لـ"الآباء" (الذين لا يوجد أي دليل موضوعي واحـد علـى أنهـم كـانوا حقيقة وواقعا "آباء" لـ"شعب" ذلك وصفه) وهـو المـبرر الوحيـد الـذي يبـدو واضحـا مـن صياغة النص أن المحرر لم يجد سواه ليستند اليه.

وأما فيما تعلق بالحقيقة الثانية، المتعلقة بطموح المُلك، فنجد هذا النص الواضح:

"متـى أتيـت إلـى الأرض التـي يعطيـك يهـوه إلهـك وامتلكتهـا وسـكنت فيهـا فـان قلـت أجعـل علـي ملكـاً كجميـع الأمـم الذيـن حولـي، فـانك تجعـل عليـك ملكـاً ذلـك الـذي يختـاره يهـوه إلهـك. مـن بيـن أخوتـك تجعـل عليـك ملكـاً. لا يحـل لـك أن تجعـل عليـك رجـلا أجنبيـا ليـس هـو أخـاك.. وعندما يجلس على كرسي مملكته يكتب لنفسه نسخة من هـذه الشريعة في كتاب من عند الكهنة اللاويين فتكون معه ويقرأ فيها كل أيام حياته.. ولا يحيد عن الوصية يمينا أو شمالا"

(تثنية ١٧:١٤-٢٠)

(*) "لم يكن في يهوه ما يجعل من الممكن اسباغ صبغة روحانية عليه".. "ولـم يكـن إلَهـا اقـام أي وزن لوضع تقنين أخلاقي أبدي أو إلَها يمكن تقييمه أخلاقيا. فالمفهوم الأخلاقي لم يبزغ في ديانته الا متـأخرا وبشكل تدريجي كنتاج للتوجه العقلاني. فهو قد تصرف دائما كملك، وملك مـن طبعـه الحـدة وسـرعة الغضب العارم لأي إخلال بأي شرط من شروط التعاقد (البريث) المبرم بينه وبين رعايـاه. فالمسـألة فيمـا يخصه ظلت متعلقة بالواجبات التي تطلب، كسيدٍ مختار، من رعاياه الوفاء بها كالتزامات محـددة تمامـا ولا مهرب منها بلا أدنى تفكير في أية قيمة أخلاقية مطلقة قد تكون أو لا تكون لها" [المرجع ١٢٠]:
Max Weber: "Ancient Judaism", Macmillan Free Press, 1967, pp.210 & 136.

على الرغم من أن النص- فيما تنبئ صياغته المتضمنة خبرة صموئيل الواردة تحديداً هكذا: "اجعل لنا ملكا يقضي لنا كسائر الشعوب" (صموئيل الأول ٨:٥)، "لا بل يكون علينا ملك. فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا" (صموئيل الأول ٨:١٩ و٢٠)- قد زُج به في سفر التثنية أثناء تحريره ليبدو كما لو كان وصية يهيوية أعطاها يهوه لـ"الشعب" عن طريق موسى.. على الرغم من ذلك، ومن أن الهدف من حشر النص في سفر التثنية كان الحفاظ على مكانات وحقوق الكهنة اللاويين، فان أهميته الحقيقية كامنة في أنه جاء ناطقاً بالطموح إلى اقامة المُلْك الكهنوتي الكامن من مبدأ الأمر في أساس الديانة.

غير أن كل تلك الاعتبارات السياسية الكهنوتية والشواغل الملوكية، على أهميتها، اتخذت- فيما تفصح عنه النصوص- مكانة لاحقة للمطلب الأهم والأخطر عند صانعي الديانة وهو إبقاء "الشعب" في حظيرة يهوه، ابقاءً لمقوده الروحي والدنيوي في أيديهم، وحرصاً على المغانم والعشور والتقدمات والمكانة، وحرصا- في الوقت ذاته- على تلك "الشواغل الملوكية" كما أسميناها.

وهكذا فانه- في حين اجتهد نبييم وكتبة عصر السبي في تجديد يهوه وتحويله إلى إله أثيريّ سماوي لا مُشخص ولا جنسي وغير مرئيّ، محرِّرين إياه من هويته الانتروبومورفية (التشبيهية) القديمة ومحاولين فصله عن قضيبيته الأصيلة فيه- تعين على أولئك النبييم والكتبة، حرصاً على تقبل "الشعب" ليهوه، أن يُبقوا على خصائصه المترتبة على الهوية القضيبية، أي على الوظائف المتعلقة بالخصب والخصوبة التي نجدها موكولةً باستمرار في عبادات الشرق الأدنى القديم إلى الإله/الملك البطل القضيبي كـ"إنكي" وكـ"بعل صفون" وغيرهما.

ومثلما وجد عزرا وكل من تعاون معه على رد يهوه إلى الصورة المصرية المعلاّة التي كان موسى قد شرع، في مبدأ الأمر، في إعطائه إياها، الاستحالة التي أشرنا اليها في أية محاولة لإلغاء ما كان قد سُرق وأُدخِل في السبيكة التي صُب منها المعبود واصطنِع تاريخ لـ"الشعب"، وجد "الملوك" أن تأمين استمرار المعمار كله الذي شُيِّد على ألوهة يهوه والذي تحقق من خلاله قيام المُلك المنشود تطلب ترسيخاً وتعميقاً لبعلية يهوه.

نتيجة لذلك، ورغماً عن الانكار ومحاولات الاعلاء، ظل يهوه، في النهاية، نسخة أخرى من آلهة الهلال الخصيب. فهو قد ظل يقتات على غيره من آلهة وإلاهات ويستوعب صفاتهم وخواصهم ووظائفهم ويغتصب ألقابهم، ونتيجة لذلك الالتهام، بات تجسُّدا لما التهم. بات -كغيره من آلهة الشرق الأدنى القديم- إلهاً/ ملكاً. وذلك تحديداً هو ما حرص "الملوك" حرصاً خاصاً على تأمين استمراره. وحقيقة أن "عرشه" الإلهي

الملكي رُفِع إلى ما فوق الجَلَد،(*) وحقيقة أنه جُعِل "محتجباً"، إلا أنه- متى أخذنا بما لم يكف النبييم عن ترديده باعتباره كلاماً إلهياً قاله لهم- ظل حريصاً غاية الحرص على هويته القضيبية ووظائفه المتعلقة بالخصب والخصوبة النابعة من تلك الهوية. وذلك أيضا ما حرص "الملوك" على تأمين استمراره. وحقيقة أنه عُزيت اليه قدرة الخَلق بالكلمة استنساخاً من الديانة المصرية، ثم- في زمن السبي- تحريرياً في الوثيقة الكهنوتية، على سبيل التعزيز، استنساخا من آلهة سومر،(**) وحقيقة أيضا أنه افتعِلَت له صفة الإله المشرِّع مانح القوانين اختلاساً من آلهة سومر ومن ملوك بابل،(***) الا أنه، نتيجة لما كان مخلّقوه قد ظلوا يلقمونه إياه، ونتيجة لحاجة "الملوك"، ظل- في النهاية- "بعل، ثور يعقوب". ولقد كان ذلك تحديداً هو ما رمى يربعام إلى تأمينه بالثورين الذهبيين اللذين وضع أحدهما في بيت إيل ووضع الاخر في دان ليتعبد "الشعب" أمامهما. وقد كانت كل مشكلته التي شُوِّهت سمعته بسببها في العهد القديم أنه "صيّر كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بني لاوي" (الملوك الأول ١٢:٢٨-٣٢)، فنتيجة لذلك التعدي جُعِل شرير الحلقة بحق، وجُعِل اسمه علما على "عمل الشر في عيني يهوه" بعبادته لـ"البعل"

(*) وهذا ما يصوره بوضوح:
"رأيت السيد جالسا على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل" (إشعياء ٦:١)
"وفوق المقبب (رأيت) شِبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق، وعلى شبه العرش شبه كمنظر انسان عليه من فوق.. كمنظر القوس التي في السحاب يوم مطر (قوس قزح).. هذا منظر شبه مجد يهوه" (حزقيال ١:٢٦ و٢٨)
"ونظرت فإذا باب مفتوح في السماء والصوت كبوق يتكلم معي قائلا اصعد الى هنا فأريك.. وللوقت صرت في الروح (تحولت الى روح) وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس. وكان الجالس في المنظر شِبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شِبه الزمرد.. ومن العرش تخرج بروق ورعود وأصوات" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٣:١ و٤ و٥)

(**) "كل ما كان على الإله (في الديانة السومرية) أن يفعله ليمارس عملية الخلق التفوه بالكلمة ونطق الإسم". المرجع [٢٨]: Samuel Kramer's "The Sacred Marriage Rite op, cit.

(***) وضعت آلهة سومر "المِي"، الشريعة الكونية الأخلاقية الحاكمة للكون، التي لا تتغير، والملزمة لكل ما في ومن في الكون، وقد دُعيت في التراتيل السومرية بـ"الناموس الأعظم". بعد الحفائر الآثارية التي كشفت عن كنوز الحضارة السومرية ونسختها البابلية (الأكدية والأشورية) انكشف النبع الذي أُخذ منه لموسى وليهوه، أثناء التحرير في بابل، مفهوم "الناموس"، كما انكشف أيضا النبع الذي اختلِس منه التقنين الموسوي، وهو الملك البابلي حمورابي أشهر مشرع في الشرق الأدنى القديم (١٧٢٨-١٦٨٦ ق.م.)، ذلك التقنين الذي عُزي الى يهوه حتى لا يكون أقل مكانة من آلهة سومر الذين كان الـMi، الناموس، أعظم ما اعتزوا به من مقومات ألوهتهم. فنينجرسو، مثلاً، يعلن في نصوص جوديا أن "معبده سوف يعلو ناموسه على السماء وعلى الأرض "أي سيحكم السماء والأرض. وذلك ما نجده مرددا- في سياق يهيوي أرضي- في قول إشعياء الأول" وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد الى جبل يهوه الى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة يهوه فيقضي (يحكم) بين الأمم" (إشعياء ٢:٣ و٤).

وسجوده له وإغاظته يهوه إلـه اسـرائيل (الملـوك الأول ٢٢:٥٣) وإبعـاده اسـرائيل مـن وراء يهوه وجعلهم يخطئون خطية عظيمة (الملوك الثاني ١٧:٢١).

الا أنه، على الرغم من هذا الضرب المتكرر في العهد القديم مـن النفـاق الكهنوتـي المتلفع بعباءة الصلاح الذي ما بعده صـلاح والتقـوى التـي مـا بعدهـا تقـوى والـذي اتخـذ باستمرار شكل إدانات ثاقبة الصوت ليربعام وغيره من "الملوك" البراغماتيين الذين لم يفعلوا أكثر من أنهم قاموا بما لم يكن من القيام به بد صوناً للمُلك وتماسك "الأمة" ودرءاً للخطر الذي ظل ماثلاً باستمرار وهو خطر الخروج كلية من تحت يهوه والاندماج فـي الكنعـانيين والانضواء تحت معبوداتهم، تظل هناك الحقيقة الماثلة في أنه إن كانت محاولة الإعلاء فـي زمن السبي جاءت متأخرة بعدّة قرون، فإن محاولات العزل الصحـي الدينـي المتفرقـة التـي سبقتها والتي اجتهد الأصوليون اليهيويون خلالها في الإبقاء على مقود "الشعب" في أيديهـم تحت شعار صون العفة الدينية لعبادة يهوه كانت- في الحقيقة- ضرباً مـن التعـامل بـالتمني مع واقع ديني كان الكهنة اللاويون أنفسهم هـم الذيـن صنعوه بسرقاتهم التـي لـم تتوقـف لحساب يهوه متصورين أنه كان سيصبح بالوسع الهرب من مترتباتها.

وهكـذا فإنـه كـان مـن أكثر الأمـر طبيعيـة أن يحـدث مـا صوره "المـؤرخ" فـي سـفر الملـوك بالرطانـة المألوفـة بقولـه "وكـان أن بنـي اسـرائيل أخطـأوا إلـى يهـوه إلههـم الذي أصعدهم من أرض مصر من تحت يد فرعون ملك مصر وعبدوا آلهة أخرى. وسـلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردهم الرب (وهو ما لم يحدث) من أمام بني اسرائيل (وحسب فرائض) ملوك اسرائيل الذين أقاموهم. وعمل بنو اسرائيل سرا ضد يهوه إلههم أمورا ليسـت بمسـتقيمة، وبنـوا لأنفسـهم مرتفعـات فـي جميـع مدنهـم، مـن بـرج النواطـير إلـى المدينـة المحصنة. وأقاموا لأنفسهم أنصابا وسـواري (عشيرات) علـى كـل تـل عـال وتحـت كـل شجرة خضراء. وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات (قدموا التقدمات على مذابح غير مذبح يهوه ولغير كهنته) مثل الأمم الذين ساقهم الـرب يهـوه مـن أمـامهم وعملـوا أمـورا قبيحـة لإغاظته. وأشهَد يهوه على اسرائيل وعلى يهوذا عن يد (على ألسنة) جميع النبييـم وكـل راء (وكل عرّاف) قائلا ارجعوا عن طرقكـم الرديـة.. فلـم يسـمعوا بـل صلّبـوا أقفيتهـم كأقفيـةً آبائهم الذين لم يؤمنوا بيهوه إلها لهـم(*) ورفضـوا فرائضـه وعهـده الـذي قطعـه مـع آبـائهم وشهاداته التي شهد بها عليهم وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا وراء الأمم الذيـن حولهـم

(*) "من المقطوع به أن التقليد القديم لم يدّع ليهوه صفة الإله الأصلي لاسـرائيل أو حتـى الإلـه الخـاص باسرائيل، ولم يدّع أنه "سكن" اسرائيل. ومـن الثـابت أن المراجعـة الأخيرة للأسـفار الأولـى مـن العهـد القديم (التوراة زائداً سفر يشوع) هي وحدها التي ادّعت ذلك وجعلت من يهـوه إلهـاً للعـالم واعتـبرت- كقضية مسلم بها- أن "الآباء" أيضا لم يعبدوا أي إله سواه".

(ارجع الى المرجع رقم [١٢٠] لفيبر: Max Weber: "Ancient Judaism", op. cit. p.123).

وهذا الذي لاحظه فيبر صحيح تماما، وقد سلم به مؤلف سفر الخروج عندما جعل يهـوه يقـول لموسى أنه لا "الآباء" ولا أي فرد من "شعبه الذي في مصر" عرفه باسمه يهوه" لكنـه كـان "يظهـر للآبـاء باسم الشداي (شداد) الإله القادر على كل شيء" (خروج ٦:٣).

والذين أمرهم يهوه بالا يعملوا مثلهم. وتركوا جميع وصايا يهوه إلههم وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين (ثورين) وعملوا سواري (عشيرات) وسجدوا لجميع جند السماء (الآلهة الأخرى التي في السماء) وعبدوا البعل" (الملوك الثاني ١٧:٧-١٦).

ويحار العقل: ما الذي كان يمكن أن يتوقعه مخلّقو ذلك المعبود وهم الذين- بسرقاتهم المتواصلة التي لم تتوقف حتى وعزرا آخذ في محاولة الاعلاء في زمن السبي- جعلوا منه نسخة أخرى (مركّبة وملغّزة نعم، لكنها نسخة) من إنكي ومردوخ وبعل صفون وغير هؤلاء الثلاثة كثرة من "الآلهة الأخرى الغريبة والدخيلة" على رأسها الأب قديم الايام إيل؟

(٩/ب/٥) المفارقة الأساسية في أسطورية يهوه وإشكال "عالميته"

غير أن حيرة العقل لا تطول اذا ما تعمّق ما لا سبيل إلى تسميته الا بالمفارقة الأساسية في عبادة يهوه. وهي المفارقة التي ظلت كامنة وفاعلة فعلها في الصراع الكهنوتي الذي خاضته زمرة "يهوه وحده" ضد براغماتية الملوك وواقعية "الشعب" في آن معا.

فهؤلاء الكهنة كانوا سلالة الطغمة اللاوية التي أرست تقليد يهوه الإله الملك ووضعت مراسم تتويجه. ونتيجة لتوسع طموح موسى الأصلي في أذهانهم إثر الاحتكاك المباشر، من الداخل، باحدى أكبر امبراطوريات العالم القديم، الأمبراطورية البابلية، وتحوّله من طموح إلى إقامة الملك على رقعة محدودة، أيا كان حجمها، من الأرض- كـ"الأرض التي تفيض لبنا وعسلاً" (كنعان) التي لم يكف موسى عن التأكيد بأن يهوه قطع له عهداً بأن يبيد كل أصحابها ويعطيها لـ"الشعب"، أو حتى كـ"أرض العهد اليهيوي مع الآباء" الذي جعل المؤلفون يهوه يقطعه مع ابراهام واسحق ويعقوب، أي الأرض من نهر مصر حتى نهر الفرات- إلى طموح لإقامة المُلك على كوكب الأرض، كل كوكب الأرض، تحوّل التقليد الموسوي بين أيديهم إلى تقليد مسيحاني(*) وسّع مُلك يهوه ليشمل كل أرجاء المعمورة، وجعل له معاوناً عسكرياً هو المسيح المنتظر.

وقد كانت المشكلة، فيما تعلق بتنصيب يهوه ملكاً، من مبدأ الأمر، ماثلة في أن الطابع الدنيوي الأرضي الصرف لعبادة يهوه غلب على مفهوم الملوكية وعلى عملية التنصيب وعلى مترتباتها، فاختلطت في هوية يهوه هوية الإله/الملك السماوي، كما هي في الديانتين المصرية والسومرية، وهوية ظله الملك الأرضي الذي كفرعون أو جوديا.

ولنتوقف هنا، قبل أي استطراد في متابعتنا لأغوار ما أسميناه بالمفارقة الأساسية في عبادة يهوه، عند هذا النص الواضح وضوحا يغني عن أي شرح من سفر زكريا:

(*) ارجع في ذلك الى "المسيحية والتوراة"، الباب الثالث.

"ويكون يهوه ملكا على كل الأرض.. وهذه تكون الضربة التي يضرب بها يهوه كل الشعوب الذين تجندوا على أورشليم (الذين يرفضون ملك صهيون): لحمهم يذوب وهم واقفون على أقدامهم وعيونهم تذوب في أوقابها ولسانهم يذوب في فمهم... ويكون أن كل الباقي من جميع الأمم الذين جاءوا على أورشليم يصعدون من سنة إلى سنة ليسجدوا للملك رب الجنود وليعيِّدوا عيد المظال. ويكون أن كل من لا يصعد من قبائل الأرض إلى أورشليم ليسجد للملك رب الجنود يهوه لا يكون عليهم مطر. وإن لا تصعد ولا تأتي قبيلة مصر ولا مطر عليها تكن عليها الضربة التي يضرب بها يهوه الأمم الذين لا يصعدون ليعيِّدوا عيد المظال.. في ذلك اليوم كل قدر في أورشليم وفي يهوذا تكون قدسا لرب الجنود وكل الذابحين يأتون ويأخذون منها ويطبخون فيها. وفي ذلك اليوم لا يكون بعد كنعاني في بيت رب الجنود" (زكريا ١٤: ٩ و١٢ و١٣ و١٦-١٩ و٢١).

المشكلة اذن تمثلت في أن من وضعوا الديانة في صيغتها التي أخذها العالم والتي انعكست في غيرها من الديانات كانوا قاعدين بأعجاز كهنوتية مباركة على قرني مفارقة خطرة تمثلت في: (١) محاولة إعلاء يهوه عن طريق ردة فكرية إلى قصد موسى الأصلي، الذي سقط في الطريق عند بعل صفون، وجعله إلهاً عالمياً سماوياً و(٢) الاحتفاظ له بملوكيته على "شعبه الاخص" و"أمته المقدسة" كيما تتمكن، بتعبير زكريا، من "جمع ثروة كل الأمم" (١٤:١٤)، أو- بتعبير إشعياء- من "أكل ثروات الأمم" (٦:٦١)، أو بتعبيره أيضا كيما "يؤتى اليها بغنى الأمم وتقاد ملوكهم" (١١:٦٠)، أو- بتعبير مؤلف سفر التثنية- "كيما تُقرض أمما كثيرة وهي لا تقترِض" (١٢:٢٨)، وهذا أضعف الإيمان.

لهذا فان القول "العالمي" الذي أجراه إشعياء التثنية على لسان يهوه (بعد أسطر قليلة من اكتشافه، الذي يذكرنا بصيحة أرخميدس وقد خرج من الحمام يجري عارياً في الطرقات "وجدتها! وجدتها!"، أن يهوه كان قد ظل طيلة الوقت إلهاً محتجباً دون أن يفطن إلى ذلك أحد) باعتبار الاكتشاب دعوة لعبادته: "التفتوا اليّ واخلصوا (نالوا الخلاص) يا جميع أقاصي الأرض" (إشعياء ٢٢:٤٥) يظل قولاً- في أفضل حالته- دعائياً، وفي أسوأها مشبوهاً، لا لمجرد أن الرجل لم يطاوعه لسانه على قول "يا جميع شعوب أو أمم الأرض" فقال "يا أقاصي الأرض" وخلص، بل لأن يهوه- قبل هذا النداء المشكوك في عالميته بقليل- كان قد أكد لاسرائيل أنه "ملكهم" (إشعياء ١٥:٤٣)، وقبل ذلك التأكيد بقليل كان قد أعلن أنه، لأنه إله اسرائيل ومخلصه:

"جعلت مصر فديتك وجعلت كوش وسبأ عوضك. فلأنك صرت عزيزا في عيني مكرما عندي وأنا قد أحببتك أعطي أناسا عوضك وشعوبا عوض نفسك". (إشعياء ٤٣: ٣ و٤)

فالمعنى واضح، ولا يعقل أن يكون يهوه قد غيّر نظرته إلى المسألة بين قوله هذا وصيحة إشعياء الثاني، على بُعد أصحاحين اثنين من الحكي، وقرر أنه مادام قد بات محتجباً وكل ذلك لن يعود يفتدي اسرائيل الذي أحبه وصار عزيزاً عنده بغيره من شعوب كانت قد ظلت حتى تلك اللحظة التاريخية خارجاً حيث الظلمة وصرير الاسنان موصدة في وجوهها أبواب جنة يهوه.

ولا حاجة بنا إلى التخمين، فيهوه ذاته، وهو الذي أعلن أنه "الرب المتكلم بالصدق والمخبر باستقامة" (إشعياء ٤٥: ١٩)، ما يلبث أن يجلو المسألة ويزيل أي لبس:

"قومي استنيري (يا اسرائيل) لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك. لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس يحتوي الأمم. أما عليك فيشرق يهوه ومجده عليك يُرىَ. فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء اشراقك.. وبنو الغريب (الاغيار، الجوييم) يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك.. الأمة التي لا تخدمك تبيد وخرابا تخرب الأمم. مجد لبنان اليك يأتي السرو والسنديان والشربين معا لزينة مكان مقدسي (عرشي).. وبنو الذين قهروك يسيرون اليك خاضعين وكل الذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدميك ويدعونك مدينة الرب صهيون.. وترضعين لبن الأمم وترضعين أثداء ملوك فتعرفين أني أنا يهوه مخلصك ومليكك بعل ثور يعقوب (حُرِّفت إلى "عزيز يعقوب")" (إشعياء ٦٠: ١-٣ و١٠ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦)

فيهوه قد يكون حُجب وأُعلي وادّعيت له العالمية، الا أنه- بحكم النواة الفكرية الصلبة لأسطوريته- لم يكن من الممكن الا أن يظل ملك اسرائيل، بمعنى الملوكية الأرضية، مع محاولة اضفاء صبغة علوية عليه عن طريق جعله بعلا كسائر بعليم كنعان كيما تدعى "أرضه"، اسرائيل، "بعولة" و"تصير ذات بعل" كما أكد إشعياء الثالث (إشعياء ٦٢: ٤). ومثلما تزوج بعل بناته الثلاث زُوّج يهوه من ابنته حبيبته معشوقته اسرائيل ليكون الإله الملك العاشق "بعل، ثور يعقوب". وفي سفر إشعياء نص قاطع بذلك، حتى بعد المعالجة التحريرية المكشوفة. فالنص، بعد أن يؤكد لاسرائيل أن أرضها ستصبح ذات بعل (كأي أرض في كنعان) يخبرها أنه "كما يتزوج الشاب عذراء يتزوجك يهوه. وكفرح العريس بالعروس يفرح بك بعلك" (إشعياء ٦٢: ٥)، وفي المعالجة التحريرية، رفع اسم يهوه

ووضع مكانه "بنوك"، ليصبح القول "يتزوجك بنوك". غير أن بقية القول، أي "كفرح العريس بالعروس يفرح بك بعلك (حتى مع تحويل "بعلك إلى "إلهك")، ناقضت ذلك التمويه المسكين بعض الشيء الذي لم يكن هناك ما يدعو اليه الا الشعور بأن النص جاء كاشفاً بأكثر مما ينبغي. وكما ظل "فرح العريس بالعروس" ماثلا في النص مناقضاً وكاشفاً مراوغة المحررين، ظلت هناك، في العديد من النصوص الأخرى، مصارحات يهوه عن مدى عشقه لابنته حبيبته اسرائيل، عروسه اسرائيل، وزواجه منها، وزناها بالخروج من تحته لـ"تفتح فخذيها" لغيره من البعليم، وطلاقه منها، ثم حنينه اليها وملاحقته إياها وملاطفته لها لتعود اليه فتصبح له وحده.(*)

ونحن، متى صرفنا نظرا عن محاولات المعتذرين الأمميين واجتهادات المترجمين، واجدون في كل ذلك ما يشير بقوة وجلاء لا سبيل إلى الهرب منهما إلى أن المشكلة الاخطر في محاولة إعلاء يهوه وجعله عالميا تمثلت في: (١) أن الإعلاء- ككل شيء آخر في هذه الديانة- ظل مغتصباً ومفروضاً من خارجها لمآرب لا علاقة لها بالسماوية ولها كل علاقة بالأرض والثروة وأكل الثروة ورضع "لبن الأمم" والتسيّد على الاغيار ليتمددوا ويلعقوا باطن قدم صهيون كما وعدها النبييم، و(٢) أن الإعلاء، مثلما استهدف القصد السياسي الأصلي الذي وسّع في زمن السبي، اصطدم بالاختلاف الجذري الذي افتعله موسى لما اختلسه من الديانة المصرية حتى يطمس النبع الذي اختلس منه، وهو الاختلاف الذي جعل العبادة كما أقامها حول يهوه مفتقدة البعد الأخروي، وبالتالي مفتقده المقومات الأساسية لأي إعلاء حقيقي يجعل من الإله/الملك إلها سماويا لا مجرد ملك أرضي ادُّعيت له الألوهة.

فيما يخص الشق الأول من المشكلة، كان بروزه بشكل لافت للنظر في أي تدبر جاد لتاريخ الديانة دافعاً لفرويد إلى محاولة استظهار دوافعه ومراميه:

> "في ظل الاسرة الثامنة عشرة المجيدة التي قادت مصر إلى وضع القوة العالمية في زمانها، ارتقى عرش مصر الفرعون الشاب اخناتون، وفرض على المصريين ديانة توحيدية صارمة في توحيديتها كانت أول ديانة توحيدية في تاريخ العالم لكنها لم تكن- في حالة مصر- ظاهرة مباغتة أو طفرية، لأن منابع التوحيد لم تكن طارئة فيما تعلق بالديانة المصرية. فلوقت طويل قبل اخناتون، كانت هناك اتجاهات قوية ظلت فاعلة فعلها بين كهنة معبد الإله الشمس في أون (عين شمس) دافعة لاهوتيته صوب

(*) ارجع الى استظهارنا كل ذلك من واقع نصوص التوراة وسائر أسفار العهد القديم أعلاه.

مفهوم الإله الواحد العالمي وصوب التأكيد على الوجه الأخلاقي من طبيعته.

"وكان الوقت مواتيا لذلك، فأوضاع مصر السياسية كانت آخذة في ممارسة تأثير قوي ومستمر على الديانة المصرية. بمعنى أن الوضع الأمبراطوري الذي كانت مصر قد صارت اليه بفضل فتوحات الفاتح العظيم تحتمس الثالث انعكس على ديانة مصر عالميةً وتوحيدية. فبالنظر إلى أن مسؤوليات الفرعون كانت قد تخطت حدود مصر وامتدت إلى ما حولها وما كان بعيداً عنها بمقاييس العالم القديم، فان الإله تحلّل هو الاخر من قيود المحلية الوطنية. فطالما أن الفرعون بات الحاكم الأوحد المطلق لكل العالم كما كان العالم بالنسبة للمصريين، انسحب نفس الوضع على إله المصريين (كما أقام اخناتون ديانته).

"ونحن، متى أخذنا بكون بلوغ الفراعنة وضع الأمبراطورية العالمية كان العامل الحاسم في ذلك البزوغ القوي لمفهوم التوحيد، سنتبين أن ذلك الوضع وقد خرج إلى ما وراء حدود مصر قد انتقل إلى قوم آخرين (أي إلى قوم الكاتب، "اسرائيل") فظل- لوقت طويل- في حالة كمون لديهم، لكنهم- في النهاية- استحوذوا عليه وجعلوه أصلاً ثميناً من أهم أصولهم، وسيوقفنا تاريخهم أن ذلك هو ما مكّنهم من البقاء والاستمرار اذ ملأهم فخراً واعتداداً بكونهم الشعب المختار واطمئناناً إلى حيازتهم لعبادة أبيهم البدئي (التي أُعليت وجُعل ذلك الأب البدئي باعلائها عالميا) فتعلق به أملهم في الجزاء الحسن المتمثل في الأمتياز والخصوصية والتسيّد على العالم".(٢٤)

الا أن الذي لم يتعرض له فرويد هنا- وله عذره، متى أخذنا باضطراره إلى نفي قصد "التسيّد على العالم" بعد أسطر قليلة عن طريق الإشارة إلى البروتوكولات المزورة- هو تحديداً- انقلاب العملية ذَنَبا إلى رأس فيما يخص من أعلوا يهوه ليكون إلهاً عالمياً انطلاقاً من التوحيدية المصرية التي سارت يداً بيد مع علو مصر إلى وضع الأمبراطورية في زمن اخناتون الذي بلغت فيه الاتجاهات التوحيدية الأصلية في لاهوتية أون (عين شمس) ذورتها بعبادة آتون. فسير التوحيدية يداً بيد مع وضع القوة العالمية في حالة مصر عُكِس في

حالة صانعي أسطورية يهوه المطوّرة، لأنهم عندما فعلوا ذلك لم يكونوا في وضع قوة عالمية بل كانوا كهنة قوم في وضع سبي. وهكذا فان جعلهم يهوه إلهاً محتجباً سماوياً "عالمياً" (مع خصوصيته لاسرائيل) لم يكن- كما في حالة مصر، تبعاً لتحليل لفرويد- بلوغا لذروة توحيدية فعلت فيه فعلها وضعية القوة العالمية، بل كان اغتصاباً لعالمية (ظلت حصرية) تراءت لأذهان من اضطلعوا بالعملية الإعلائية كمنفذ إلى وضع القوة العالمية الشاملة التي تتسيد العالم كله تحت راية الملك يهوه.

وقد كان ذلك، في نطاق الرؤية الموسوية المحدودة، الغرض الأساسي من الديانة: اقامة المُلك. الا أنه وُسِّع على أيدي مصعّدي يهوه في زمن السبي إلى وضع الإله العالمي، فبات ملكاً تحكم صهيون من خلاله العالم بأسره. وذلك ما يلاحظه ماكس فيبر بقوله أن:

"عالمية يهوه سارت معها يداً بيد رسالة عالمية. وعلى الرغم من أن إشعياء التثنية لم يعن بتحديد تلك الرسالة تفصيلاً فإنه لم يكن من قبيل المصادفة أن مجمع سفر إشعياء كما هو وارد في العهد القديم ألحقت فيه بكلام إشعياء الثاني مباشرة كتابات إشعياء الثالث مجهول الاسم الذي كتب في زمن ما بعد السبي والذي كان من أنشط الممارسين للدعاية الدينية العالمية" (حكم صهيون).(٢٥)

وإشعياء الثالث مجهول الاسم ذاك الذي يشير اليه ماكس فيبر، هو القائل:

"من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح موقد. فترى الأمم برك ويرى كل الملوك مجدك وتسمين باسم جديد يعينه فم يهوه. وتكونين اكليل جمال بيد يهوه وتاجا ملكيا بكفه" (إشعياء ٦٢:١-٣)

وذلك سليم تماماً ومطابق لمقتضى الحال فيما تعلق بعبادة يهوه من مبدأ أمرها، ولم يكن الرجل حين قاله ممارساً لأية دعاية دينية عالمية، بل كان يهيويا حقيقيا ومخلصا، في حين ظل المنغمسون في "الدعاية الدينية العالمية" أضداده الفكريون من المعتذرين اليهود، والمسيحيين الأمميين الاتقياء، الذين لم يكفوا لحظة عن الترويج ليهوه بادعاء أنه "الله" إله كل البشر السماوي.

وذلك ما يقودنا إلى الشق الثاني من المشكلة. وهو- تحديداً- ما وضع "العالميون" الأواخر من مخلّقي يهوه على ذينك القرنين المسنونين للمفارقة الأساسية في الديانة عندما حاولوا رد يهوه إلى الصورة المصرية المعلاة التي توخاها موسى في مبدأ أمره ثم عدل عن التمسك الصارم بها استجابة لبراغماتية رجل الدولة في شخصه الكريم. فأولئك "العالميون" الأواخر اصطدموا بالاختلاف الجذري الذي افتعله موسى، كما قلنا، ليخفي آثار أقدامه وهو رائح غاد بين كنوز الديانة المصرية ووثن المعبود المدياني المملق

أسطوريا يهوه. فالأخروية كانت الجوهر الحقيقي للديانة المصرية، وهي ما مكّن الأذناب الأمميين من مرتزقة الفكر إلى وصفها بأنها ديانة توجُهُها الموت. تلك الأخروية، كانت بالذات ما حاول موسى التمويه عن سرقاته من ديانته الأصلية بتغييبها من العبادة التي اقامها حول يهوه. وبتغييب ذلك المكون الجوهري صار أساس الديانة المخلّقة دنيوياً بحتاً انصب على حيازة الثروة واغتصاب ما بيد الغير من أرض وخيرات بمبرر فاقد للمشروعية الاخلاقية هو أن الغير ليسوا "شعب يهوه" وليسوا "ابنه البكر"، وجعل الثواب والعقاب دنيوياً بحتاً: فـ"الصلاح"، أي اتباع يهوه وتقديم العشور والتقدمات النباتية والحيوانية إلى هيكله والى كهنته وحده، يستجلب رضى يهوه فيحدث لـ"الصالح" رخاء ووفرة وتسيّدا على من هم خارج مجال ذلك الرضى من "أغيار" لا أمل لهم في أي رضى، والضلال، الزيغ، الزنا، الخروج من تحت يهوه وعدم تقديم العشور والقرابين إلى هيكله وكهنته، يحدث لـ"الضال" خراباً وعوزاً ويمكّن منه الاغيار الأشرار بدلاً من أن يتمكن هو من جز رقابهم وأخذ كل ما بأيديهم. وكل ذلك، كما هو واضح، سواء كان ثواباً أو عقاباً، هنا على هذه الأرض الصلبة، لا في أية سماء، والآن، في الحياة الدنيا، لا في أية حياة باقية.

- - - - -

(١٠) تتويج الملك يهوه

في الديانة المصرية، كانت ملوكية الإله السماوية، وظلها الأرضي، ملوكية الفرعون، وجهيّ نظام كوني سماوي/ ونظام حكم أرضي غايته سياسة أمور البشر على الأرض بما يحقق لهم حياة سوية متمدينة في إطار مفاهيم الديانة الاخلاقية، ويمكّنهم- متى تحلوا بالصلاح- من عيش حياتهم الأرضية بطريقة توفر إشباعاً سوياً حُددت أبعاده تحديداً بالغ الوضوح في الاعترافات الاثنين والاربعين التي كانت الروح تقدمها بعد الموت (التي سُرقت منها وصايا موسى العشر) حتى يُحكم بصلاحها ويُنعم عليها بحياة باقية وبأمل البعث.

وفي الديانة السومرية، حتى مع غيبة البعد الأخروي، ظل البعد الأخلاقي ماثلاً بقوة. فالإله الملك السماوي عندما كان يفوض بعض سلطاته للملك البشري كان يُنعم عليه في نفس الوقت ببعضٍ من حكمته الإلهية لكي يهدي البشر إلى سبل الحياة السوية ولكي يوفر لهم ما يمكنهم من عيش تلك الحياة بالطريقة التي ترضى عنها الآلهة والتي تحقق لهم السعادة وتتيح لهم أن يكثروا ويعيشوا في سلام ويخدموا الآلهة التي خلقتهم ليخدموها.

أما في عبادة يهوه كما صاغها موسى وطوّرها ورثته من الكهنة اللاويين، فاختلف الوضع اختلافاً جذرياً على الرغم من كل البراعات الكهنوتية التي تمثلت في اقحام مضامين "أخلاقية" في النصوص عند تحريرها. ففي النهاية، ظل يهوه- بالنسبة لـ"الشعب"، وللكهنة ولـ"الملوك"- الملك القوي رب الجنود المحارب الذي يمكّن "الشعب" من "تحريم" كل من اشتهى أرضه، ويدفع عنه انتقام كل من تعرض لجشعه وعدوانه، ويمكّن "الملوك" من ممارسة شغلة الحكم وتسيير شؤون "شعب" عاص "صلب الرقبة"، ويكفل للكهنة استمرار المغانم والعشور والتقدمات والمكانة.

والذي يرجحه العقل أن اضطرار "الملوك"، بتعاون قلبي من جانب جناح كبير من المؤسسة الكهنوتية، إلى بَعلَمة يهوه (جعله بعلاً آخر من بعليم كنعان، أو "بعل،ثور يعقوب") نشأ عن الوعي بذلك العوز الذي جعل من يهوه- في حقيقة أمره، وفي وعي "الشعب"- "رجل حرب" كما أسماه موسى في النشيد الذي يقول سفر الخروج أنه أنشده احتفالا بـ"معجزة البحر الاحمر"، و"رجل حرب"، شرس سريع الغضب مؤذ يحسن بالعاقل أن يهادنه ويكتفي شره ببعض التقدمات لتوفير "طعامه غذائه" كما أصر في سفر العدد.

وتشير الإقحامات الغريبة للوصايا الزراعية في وصايا يهوه ومناهيه، كما يشير الاهتمام الذي أولاه المؤلفون لاختلاس صفة "مانح الشريعة" لموسى وليهوه من حمورابي ومن غيره من واضعي القوانين الحقيقيين في الشرق الأدنى القديم، إلى أن الوعي بما عاناه ذلك المعبود من إملاق فكري واسطوري وأخلاقي وزراعي لم يكن غائباً عن أذهان الكهنة وهم آخذين في اقناع "الشعب" بأن يهوه هو الإله الذي ينبغي أن يُعبد ولا إله سواه.

ذلك العوز، الذي كان ناجما عن: (١) أصل يهوه المدياني المتواضع، و(٢) محاولة جعله إلهاً هاماً وفرضه على "شعب" رافض له لم تكن له علاقة به تاريخياً أو دينياً، و(٣) محاولة تركيب ديانة متكاملة حوله من فراغ، من لا شيء، عن طريق السطو والنهب من عبادات آلهة الاقوام التي جرى الاحتكاك بثقافاتها، كان، فيما يرجحه العقل، كما قلنا، السبب في الاضطرار- انصياعاً لحكم الضرورة- إلى معايشة يهوه مع بعل أو آخر من بعليم كنعان، تبعا لمقتضيات الظروف. وهو ما لم يكن متعذراً بالنظر إلى الإدماج المبكر لهوية بعل صفون (الذي كان، بدوره، معبوداً مركباً من عدة معبودات بدأت من إيشكور السومري، مرورا بحداد/شداد، النسخة السامية من إيشكور، وانتهاء إلى بعل الكنعاني سيد جبل صفون) في هويته. ومما يساند هذا الترجيح ما توقفنا عليه نصوص العهد القديم من أن نجم يهوه لم يكن يعلو لدى "الشعب" وأنه لم يكن يصبح المعبود الأهم الا في أوقات العدوان أو الانهزام، أي في الملمات الحربية. ففي تلك الاوقات، كان هو الذي يحتل دائرة الضوء بوصفه "رجل الحرب ورب الجنود" (وذلك كان على رأس قائمة الواجبات الموكلة إلى الملك الأرضي من الآلهة السومرية والبابلية: التحلي بالبطولة العسكرية، ودحر العدو وتوسيع أراضي "المملكة" وبسط نفوذها). فبصرف النظر عن أن قدراً كبيراً مما عزي إلى يهوه من بطولة عسكرية كان مسروقاً له- كغيره- من الآلهة القضيبية الأخرى، كنينجرسو ومردوخ، ومن الإلاهات المحاربات كإينانا السومرية وعانات الكنعانية، ومن الملوك المحاربين العتاة في مصر والهلال الخصيب، ظل ذلك المسروق المكون الرئيسي من مكونات صورة "الملك يهوه" منذ بدأ موسى عملية تخليقه عسكرياً. وبالمقابل، توقفنا نصوص العهد القديم على أن نجم "رب الجنود" الملك المحارب يهوه كان يميل إلى الهبوط تاركاً دائرة الضوء لآلهة الزرع والخصب (التي سُرقت له منها القدرات المائية والجوية وقدرات منح الخصب)، أي لتخصصات البعليم والبعلات المتعلقة بشغلة الحياة اليومية وهمومها ومطالبها.

في بداية الاستيطان في كنعان (أي في بداية التئام الشمل بمن كانوا قد ظلوا في كنعان والشروع في تنفيذ المشروع الموسوي بـ"الغزو" تحت قيادة السفاح يشوع ثم في زمن القضاة) كان الوضع الذي تمثل في تولي الكهنة وظائف القيادة "الروحية"، والزمنية (الحكم)، والعسكرية وصفةً كهنوتية ناجعة وتكتيكاً فعالاً من تكتيكات الدولة الشمولية اللاهوتية أثبت امكانية ابقاء مقود "الشعب" في أيدي الكهنة اللاويين من خلال العنف الدموي المستمر، إما هجوماً وإما دفاعاً، على النحو الذي صوره هذا النص من سفر القضاة تصويرا بالغ الوضوح:

> "ومات يشوع بن نون.. وكل ذلك الجيل أيضا انضم إلى
> آبائه (مات).. فكان أن عمل بنو اسرائيل الشر في عيني
> يهوه (اذ) عبدوا البعليم وتركوا يهوه وساروا وراء آلهة
> أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها

وأغاظوا يهوه بعبادتهم البعل وعشتاروث. فحمي غضب الرب يهوه على اسرائيل، فدفعهم إلى أيدي ناهبين نهبوهم وباعهم ليد أعدائهم المحيطين بهم ولم يقدروا هم على الوقوف أمام أعدائهم.. فضاق بهم الأمر جدا. (فلما) أقام لهم الرب يهوه قضاة (كهنة/حكام/قواد) خلصوهم من يد ناهبيهم.. لأنه عندما أقام لهم يهوه قضاة كان يهوه مع القاضي (حارب معه) وخلصهم من يد أعدائهم كل أيام ذلك القاضي، لأنه ندم من أجل أنينهم بسبب مضايقيهم وزاحميهم. إلا أنه عند موت القاضي من القضاة كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها".

(قضاة ٢:٨ و١٠ و١١-١٩)

وهكذا دواليك وهلم جرا، من زمن القضاة، مرورا بزمن الملوك، إلى زمن السبي. فتاريخ القوم كله، من حيث التقطه مؤلفو الاسفار "المقدسة" إثر واقعة الطرد من مصر ولصوق موسى وطغمته اللاوية بالمطرودين، ظل تاريخ صراع دموي بالغ الشراسة لم يتوقف إلى أن بلغ ذروته بالغزو الأشوري ثم الغزو البابلي.

وفي خضم ذلك التاريخ العاصف المفعم بالكراهيات وصنوف الجشع والمذابح، ظل الثابت الوحيد في المعمعان كله "الملك يهوه" رب الجنود ورجل الحرب الذي تُوِّج، كأي ملك أرضي.

وهذا- كما ندرك- قول قد يقع موقعاً غريباً لدى كثيرين. لكنه ماثل هناك، في أسفار التوراة، والمزامير، وزكريا. فعيد المظال، الذي أعطاه موسى أهمية كبرى في سفر الخروج (١٦:٢٣ و٢٢:٣٤) وتكرر ذكره بإلحاح في سفر اللاويين ٢٣، وسفر العدد ٢٩، وسفر التثنية ١٦، كان عيد تتويج الملك يهوه. وبطبيعة الحال، موّهت تلك الحقيقة عند التحرير، غير أن النصوص ظلت، رغم التمويه، ناطقة مفصحة، وزادتها افصاحاً نصوص لا لبس فيها بسفر المزامير، وسفر زكريا.

في سفر اللاويين نجد أن "يهوه كلم موسى قائلا: كلم بني اسرائيل فقل لهم في اليوم الخامس عشر من هذا الشهر السابع (تقيمون) عيد المظال سبعة أيام للرب. في اليوم الأول محفل مقدس.. وفي اليوم الثامن محفل مقدس.. عندما تجمعون غلة الأرض تعيِّدون عيدا للرب سبعة أيام. في اليوم الأول عطلة، وفي اليوم الثامن عطلة. وتأخذون لأنفسكم في اليوم الأول ثمر أشجار بهجة وسعف النخل وأغصان أشجار غبياء(*) وصفصاف الوادي.

(*) و"غبياء" هذه، بمعنى "عارمة الخضرة" لعبة لفظية من ألاعيب المترجمين الأتقياء للاتاهة عن حقيقة الشجرة التي يقول النص أن يهوه أملى استخدام أفرعها في مراسم تتويجه في عيد المظال: شجرة الغار، وهي شجرة الآلهة القضيبية البطولية كأبولّو اليوناني الذي تداخل اسم تلك الشجرة مع اسم محبوبته

وتفرحون أمام يهوه إلهكم سبعة أيام. تعيدونه عيدا للرب سبعة ايام في السنة فريضة دهرية في أجيالكم. في مظال تسكنون سبعة أيام. كل الوطنيين في اسرائيل يسكنون في المظال. لكي تعلم أجيالكم أني في مظال أسكنت بني اسرائيل لما أخرجتهم من أرض مصر. أنا يهوه إلهكم" (لاويين ٢٣:٣٣-٤٤).

وفي سفر العدد يتكرر التنبيه باقامة المحفل المقدس ويرد تفصيلاً، يوما بيوم، عدد الذبائح وأنواع القرابين التي تقدم لـ"إحداث رائحة سرور للرب يهوه" (عدد ٢٩:١٢-٤٠). وقبل ذلك بقليل، كان يهوه قد أمر موسى قائلاً "أوص بني اسرائيل وقل لهم: قرباني طعامي مع وقائدي رائحة سروري تحرصون أن تقدموه اليّ في وقته" (عدد ٢٨:١ و٢). وهو ما يشير بوضوح بالغ إلى أن الأمر هنا تعلق بتقدمات إلى ملك، لا إلى روح أثيري لا يطلب طعامه غذاءه ولا تحدث له رائحة سرور عندما يتنسم أبخرة الشواء المقدمة على مذبحه.

وفي سفر التثنية ورد النص القاضي بعيد المظال باعتبار العيد مهرجان تتويج يمرح فيه "الشعب" وكل من له ومن معه ويأكل ويشرب احتفالاً بعيد الملك: "تعمل لنفسك عيد المظال سبعة أيام عندما تجمع من بيدرك ومن معصرتك (معصرة نبيذك). وتفرح في عيدك أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك واللاوي والغريب واليتيم والأرملة الذين في أبوابك. سبعة أيام تعيد للرب يهوه إلهك في المكان الذي يعينه لك الرب. لأن الرب الهك يباركك في كل محصولك وفي كل عمل يديك فلا تكون الا فرحا" (تثنية ١٦:١٣-١٥). وكما هو واضح، انتقل التركيز هنا من الاحتفال بتتويج يهوه "الذي أخرجك من أرض مصر"، أي الملك رب الجنود رجل الحرب، إلى الاحتفال بتتويج الملك يهوه صاحب الأفضال الزراعية ونعم الخصب والوفرة والتنعم "الذي يباركك في كل محصولك" ويعطي الوفرة "في بيدرك وفي معصرتك".

فاذا ما انتقلنا إلى سفر المزامير، وجدنا يهوه، متوحداً بإنكي وحداد وبعل، ووجدنا أنه "بالطوفان جلس (على العرش)" وأنه "يجلس ملكا إلى الابد"، وأنه (كملوك سومر تماما) "يعطي عزا لشعبه ويبارك شعبه بالسلام" (مزمور ٢٩:١٠ و١١).

"دافني"، (انظر ٦/أ/٣ أعلاه). وهي أيضا شجرة قريبة الصلة في تأثيرها بفطر الأمانيتا موسكاريا الذي كان كهنة يهوه يستحلبونه ليصبحوا في حالة هذيان ديني. فعرافة أبولو (الأفعوانة المقدسة بمعبد دلفي) كانت تمضغ أوراق الغار وتستنشق دخانها اذ تحرق لتصل الى نفس حالة الهذيان "المقدس" وتتنبأ.

فلا غرو ان هرول المترجمون فحولوا شجرة الغار في نص يهوه، من عظم تقواهم، الى "شجرة غبياء"، خاصة وأن التاج الذي توج به بعل بعد انتصاره على التنين لوتان (وهو الانتصار الذي سرق ليهوه مع تغيير اسم التنين الى لوياثان) كان تاجا من أغصان تلك "الشجرة الغبياء"، شجرة الغار!

انظر في شأن رمزية نبات الغار في الديانات القديمة:

Ogle, M.: "The Laurel in Ancient Religion and Folklore", American Journal of Philology (1910), pp.287-311.

غير أن ذلك الإله الملك المُعطي العِـز لشعبه والمبـارك شعبه بسـلام رب الجنـود الذي يدحر ويردع كل عدو، يطالعنا في بداية المزمور بوجه حَـداد/بعـل صفـون، المرعـد: "إله المجد أرعد. صوت الرب بالقوة. صوت الـرب بـالجلال. صـوت الـرب مكسـر الارز ويكسر الرب أرز لبنان.. صوت الرب يزلزل البرية" (مزمور ٢٩:٣-٥ و٨)، ويطالعنا أيضـا في صورة الثور البري، تماما كإنكي وكبعل، فهو يدوس أرز لبنان "كثور" (وقد غيرت فـي الترجمة العربية إلى "فريـر البقـر الوحشـي" وفـي الترجمـة الانكليزيـة، الملـك جيمـس إلـى "حادي القرن" الحصان الأسطوري الذي لـه ذيـل أسـد وقـرن واحـد فـي جبهتـه) (مزمـور ٢٩:٦) ويطالعنا أيضا في صورة البطل قاهر المياه وملزمها حدهـا، إنكـي وبعـل ومـردوخ: "صوت يهوه على المياه.. فوق المياه الكثـيرة" (مزمـور ٢٩:٣). ونحـن قـد تابعنـا انتصـار مردوخ على المياه، وانتصار بعل على يَمّ، فلنتدبر في الترنيمة السومرية التي تقول أنه "عندما يهل إنكي، يحط الخوف على مياه الغمر، ويطبق الرعب على النهر العارم". لهـذه الأمجـاد كلها، يستهل المزمور بهذه الكلمات: "قدموا ليهوه يا بني الآلهة، قدموا ليهوه مجدا وعـزا. قدموا ليهوه مجد اسمه. اسجدوا ليهوه في زينة مقدسه (أمام عرشه)" ويختتم، كما أسـلفنا بجلوس يهوه على العرش إلى الأبد ملكاً يعطي العِزّ لشعبه ويؤمّن له السـلام (مزمـور ٢٩:١ و٢ و١٠ و١١).

ثم، متى ذهبنا إلى المزمور ٩٣، وجدنا الاحتفال عينـه بـاعتلاء العـرش: "يهـوه قـد ملك. لبس الجلال. إئتزر بالقدرة.. كرسيك مثبتة منذ الازل. رفعت الأنهار صوتهـا. ترفـع الأنهار عجيجها. من أصوات مياه كثيرة الرب يهوه أقوى، في علاه يهوه أقـوى مـن أمـواج البحر.. ببيتك تليق القداسة يا يهوه" (مزمور ٩٣:١-٥).

غير أن سفر زكريا يظل أصرح النصوص جميعا في شأن سلطان الملك يهوه الـذي تسيَّد على كل الأرض (زكريا ١٤:٩). فهو- بعد أن يفترس كـل الأمـم ذوداً عـن اسـرائيل يصبح مقصداً لكل "الباقي من جميع الأمم. يصعدون من سنة إلى سنة ليسجدوا للملك رب الجنود ويعيِّدوا عيد المظال" (زكريا ١٤:١٦).

فيهوه توّج ملكاً حقيقة لا مجازاً في ذلك النـوع مـن الوعـي الأسـطوري بوجـوده وبملوكيته الذي تركز كل الجهد، منذ بدأ موسى المشروع، على محاولـة تخليـق المعبـود من خلاله. وفي أسطورية الكهنة "التاريخية" التي نسجت حول سليمان ما يوقفنا على نوعية الملك/الإله الذي كمن النزوع إلى تواجده في جذور تلك المحاولة:

> "وكان سليمان متسلطا على جميع الممالك من النهر إلـى أرض فلسطين والى تخوم مصر. (والكل) كـانوا يقدمـون الهدايا ويخدمـون سـليمان كـل أيـام حياتـه.. لأنـه كـان متسلطا على كل ما عبر النهر من تفسح إلى غزة على كل ملوك عبر النهر وكـان لـه صلـح (معـاهدات) مـن جميـع جوانبه حواليه. فسكن يهوذا واسرائيل آمنيـن كـل واحـد

تحت كرمته وتحت تينته من دان إلى بئر سبع كل أيام سليمان.. وأعطى يهوه سليمان حكمة وفهما كثيرا جدا.. ففاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر. فكان أحكم من جميع الناس" (الملوك الأول ٤:٢١-٣١).

وكان أقوى من جميع الناس، وأغنى من جميع الناس، وأذكى من جميع الناس، وأعظم فحولة (قضيبية) من جميع الناس اذ كانت له "سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من النساء السراري (المحظيات)" (الملوك الأول ١١:٣)، وكان الحائز لكمية ضخمة من الذهب ولأكبر قطعان من الغنم والبقر ولأعظم حظائر وأكبر اسطبلات. فكان- باختصار- التجسد الكامل أسطورياً لما تطلع القوم إلى أن يكون إلههم الملك عليه والى أن يحققه(*) لهم بامتيازه وفحولته وثرائه من علو وتفوق على كل من عداهم. فهي عقدة النقص القديمة ومشاعر الضآلة والضياع وحقارة الشأن التي فطن اليها موسى وكان علاجه لها من خلال ابتلاء من خرج معهم هو وطغمته اللاوية عندما طردوا من مصر بوهم الخصوصية وبذلك الضرب من البارانويا العرقية الذي أفرخ لنكد حظ القوم والعالم معهم أسطورة "شعب الله المختار"، صيغة التفضيل القصوى.

(*) ولعل أصرح ما عبر عن ذلك سفر صموئيل الأول في صلاة حِنّة أم صموئيل (التي كانت عاقراً هي الأخرى فصلّت ليهوه وفتح يهوه رحمها فأنجبت صموئيل). وصلاة حِنة أكثر من مجرد شكرٍ للمعبود على إنعامه عليها بالانجاب بعد عقم، كما يوقفنا النص ذاته:

"فصلت حِنة وقالت: فرح قلبي بيهوه. اتسع فمي على أعدائي... ليس صخرة مثل إلَهنا يهوه. لا تكثروا الكلام العالي المستعلي ولتبرح وقاحة من أفواهكم. لأن يهوه إله عليم.. قِسي الجبابرة انحطمت والضعفاء تمنطقوا بالبأس. الشباعَى (مِن شبعان) آجروا أنفسهم بالخبز (خدموا بلقمتهم) والجياع شبعوا.. الرب يفقر ويغني. يضع ويرفع. يقيم المسكين من التراب. يرفع الفقراء من المزبلة ليجلسوا مع الشرفاء ويملكهم (يملك الفقراء) كرسي المجد.. أرجل أتقيائه يحرس.. مخاصمو يهوه ينكسرون، من السماء يرعد عليهم. يهوه يدين أقاصي الأرض ويعطي عزا لمِلكِه ويرفع قرن مسيحه" (صموئيل الأول٢:١-١٠).

فالنص، كما قلنا ليس شكر امرأة عاقر لإله فتح رحمها المبارك لتنجب "بطلا" آخر من أبطال "الشعب"، بل هو في حقيقته تعبير عن التمني الرئيسي لقوم ظلوا في أسفل الهرم بين شعوب الشرق الأدنى القديم التي وصفها النص بـ"الجبابرة" و"الشباعى" و"الأغنياء" و"الشرفاء" الذين تمنى أن يجلس "الشعب" معهم ويملكه يهوه "كرسي المجد" ويعطيه عزا ويرفع قرن مسيحه (من يقوده). وعلى الرغم من أن النص، كدأب أسفار العهد القديم، لم يعد كونه اختلاسا أدبيا من شكاة الحكيم المصري ايبو ور التي قال فيها أن أحوال الدنيا انقلبت "فبات الذهب واللازورد يحلّيان جيدَ الأَمَةِ، في حين تمشي كرائم السيدات في طول مصر وعرضها قائلات يا ليت إنا كان لدينا ما نأكلهَ، وبات من كان يضطجع في فراشه يتوسد الأرض ومن كان يرقد في التراب يحشو لنفسه وسادة"، فان الذي يعنينا منه أنه أسفر عن أن ذلك ظل التوقع الذي روج له سدنة حركة يهوه الملك الإله وهو أن ذلك الملك، بذراعه القوية (قضيبه القوي) سيرفع "شعبه" ليضعه فوق أقوياء العالم وأغنيائه.

وبازاء تحقق فخامة المعبود وعلوه وتسيده لحساب "الشعب" على كل من حولـه، تضاءل في زمن سليمان وفي كل زمن الملوك بعده دور النصير العسكري الذي لا يُغلَب في شخصية المعبود، ولم يبق- في الواقع- الا ما لم يكن بوسع "الشعب" أن يتصوره من قدرات جوية وقدرات متعلقة بالخصب لدى الملك (البشري). وذلك ما أعلنه سليمان تحديداً في الصلوة التي صلاها ليهوه يوم تدشين المذبح. فذلك الملك "الحكيم الذي فاقت حكمته كل حكمة بني البشر"، بعد أن تملق يهوه بترديد المفهوم القديم عن وظيفته كنصير عسكري للمملكة بقوله "اذا انكسر شعبك اسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا اليك ثم رجعوا واعترفوا باسمك وصلوا وتضرعوا اليك نحو هذا البيت، فاسمع أنت (لهم) من السماء واغفر خطية شعبك اسرائيل وارجعهم إلى الأرض التي أعطيتها لآبائهم" (الملوك الأول ٨:٣٣ و٣٤)، ذهب إلى بيت القصيد رأساً وذكر القدرة الحقيقية التي كانت قد ظلت منسوبة إلى يهوه (من خلال إسباغ هوية البعليم آلهة المطر والخصب عليه) فقال:

"اذا أغلقت السماء ولم يكن مطر لأنهم أخطأوا اليك ثم صلّوا في هذا الموضع واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيتهم لأنك ضايقتهم، فاسمع أنت (لهم) من السماء واغفر خطية عبيدك وشعبك اسرائيل.. واعط مطرا على أرضك التي أعطيتها لشعبك ميراثا".

(الملوك الأول ٨:٣٥ و٣٦)

من الواضح أن الجزء الأول من الصلوة كان ترديداً باللسان للصيغة القديمة، ربما مهادنةً للكهنة. ففي زمن سليمان، بشهادة سفر الملوك ذاته، لم يكن هناك انكسار لـ"الشعب" أمام عدو ولم يكن هناك سبي يتطلب الإرجاع إلى الأرض التي "أعطاها يهوه لآبائهم"، بل كان كل اسرائيل في رغد وسلام وكل امرئ تحت كرمته وتحت تينته وسكن اسرائيل ويهوذا آمنين في ظل قوة الملك سليمان ومعاهداته مع كلٍ من حوله.

وبذلك كان ذلك الجزء من وظيفة المعبود قد توافر بشرياً بفضل "حكمة سليمان ومنعته". أما الذي لم يكن سليمان قادراً على التكفّل به فكان "المطر" والخصب. وقد كان ذلك من أيام السومريين، مروراً بالبابليين، ووصولاً إلى الكنعانيين، حِكراً للآلهة. فالسومري كان يرتل، مثلاً، لنينورتا (الذي أُدمِج في نينجرسو) قائلا "سأستظل، يا مليكي، باسمك العظيم فأردده المرة تلو المرة"، وسفر التثنية عني بأنِ يؤكد لـ"الشعب" أن "اسم يهوه قد سمي عليه" (تثنية ٢٨:١٠). ومثلما صلّى السومري لنينورتا قائلا "بفضلك، ما دُمت ملكا، النهر يفيض بالماء حلو المذاق" (وكان نينورتا إلهاً تُوِّج كيهوه ملكاً بوصفه "آمر الريح، رجل الحرب، فلاح السماء والمني واهب الحياة، الحُيّيّ المنجب لكل نبت وكل حي)، أكد سفر التثنية لـ"الشعب" أن يهوه- متى رضي عنه- "يفتح كَنزه الثمين، السماء، ليعطي مطر أرضك في حينه" (تثنية ٢٨:١٢).

فاذا ما أخذنا في الاعتبار أن سفر التثنية وُضع بعد زمن سليمان بوقت طويل، أدركنا الأهمية القصوى للقدرات الخاصة بالأرصاد الجوية كمكوِّن أساسي من مكونات ألوهة يهوه وملوكيته. وفي ثنايا ذلك، إذا ما أمعنا النظر قليلاً، بات بوسعنا أن ندرك أيضا مدى قوة التأثير المصري الذي أورثه موسى للديانة. ففي ذلك السفر، الذي أُلِّف ثم حُرِّر بعد موسى بقرون عديدة، وكان تأليفه ثم تحريره في بيئة ثقافية غير مصرية (كنعان ثم بابل)، نجد أن التركيز على قدرة توفير المياه ومنح الخصب أو منعهما، ظل- على الرغم من كل المؤثرات الكنعانية والسومرية والبابلية- ناطقاً بذلك التاثير المصري. وهو ما لا غرابة فيه، متى تذكرنا أن الزخم الأساسي لعملية إحياء الديانة في زمن السبي كان متجهاً بقوة، كما قلنا، إلى رد تلك الديانة إلى موسويتها الأولى.

مما يرويه الكاهن نحميا، نتبين أن قراءة عزرا لـ"سفر شريعة يهوه كما أعطيت لموسى" على "الشعب"، وقيام معاونيه من الكهنة اللاويين بالشرح والتفسير، اقترن بعملية اعادة تتويج ليهوه ملكاً على اسرائيل. فنحميا يقول أنهم:

"وجدوا مكتوبا في سفر الشريعة التي أمر بها يهوه عن يد موسى أن بني اسرائيل يسكنون في مظال في عيد الشهر السابع، وأن يسمعوا وينادوا في كل مدنهم وفي أورشليم قائلين اخرجوا إلى الجبل وأتوا بأغصان زيتون، وأغصان زيتون بري، وأغصان آس، وسعف نخل، وأغصان أشجار غبياء لعمل مظالّ كما هو مكتوب.. فعمل كل الجماعة الراجعين من السبي مظال وسكنوا فيها لأنه لم يعمل في اسرائيل هكذا من أيام يشوع بن نون إلى ذلك اليوم، وكان فرح عظيم جدا. وكان يُقرأ في سفر الشريعة يوما فيوما طوال العيد سبعة أيام" (٨:١٤-١٨).

فالملك يهوه كان قد أُعيد من منفاه في بابل ليتربع على عرشه ثانية في أورشليم. ولم يكن من الغريب وكهنته آخذين في تتويجه في اهاب مصري (كان قد اختلسه له موسى) أن ينطق في ملوكيته ذلك التأثير المصري.

في كتابهما الهام والممتع بحق، "قبل الفلسفة"، توقف عالما المصريات والسومريات هنرى ومسز فرانكفورت عند دور الفرعون في منح المياه والخصب، فقالا(٢٦) أنه، وهو المفوضة إليه السلطة من السماء، بوصفه ابن رع الإله الشمس، ليحكم مصر حكماً يحقق لها الخير والسعادة والرغد، كان الملك/الإله الذي يأتي بالخصب لمصر، ويوفر لها المياه مانحة الحياة، ويقدم إلى الآلهة حزمة من بواكير الحنطة تدليلاً على أنه قائم بما هو مطلوب منه، أي تحقيق وفرة الغذاء للمصريين. فالفرعون كان المحتكم في مورد المياه (النيل) منبع كل حياة وكل خصوبة ووفرة. فهو الموكل من الآلهة بذلك المورد، اذ وضعت الآلهة النيل في خدمته وأتمنته على فتح الكهف (الرحم) الذي يدفق

مياهه. وقد عبرّت النقوش المصرية عن ذلك بما سجلته من قول نبلاء بلاط فرعون لمليكهم الأرضي بأنه حتى اذا أمر النيل قائلا "لتصعد مياهك فتغطي أعلى الجبال" فان النهر العظيم سوف يستجيب لأمره. ومثلما كان الفرعون محتكماً في مورد المياه لمصر، اعتبر أيضا مانح المياه للبلاد الأخرى المحيطة مطراً. وهذا ما عبر عنه نص مصري أجري فيه الكلام على لسان ملك من ملوك الحثيين قال النص أنه بعث برسالة إلى الفرعون قال فيها أنه "اذا لم يقبل الإله تقدمتنا، فإن بلادنا لن تعود ترى قطرة ماء من فيض السماء الذي يحتكم الفرعون فيه". وفي التعليق على النص، يقول الفرانكفورتان أن الفراعنة أنفسهم كانوا أكثر تواضعاً من النصوص التي مجّدتهم، فلم يدّعوا أنهم كانوا مانحي المطر أو فيض المياه للأرض بل كانوا مجرد وسطاء لدى الآلهة كيما تنعم بذلك المورد الثمين.

وفي ذلك السياق، نجد الفرعون مخاطباً الإله بقوله "إن السموات ملك يديك والأرض موطئ قدميك، فانعم بفيضك". أما في العهد القديم، فنجد ذلك القول وقد سرق في إشعياء الثالث: "هكذا قال يهوه. السموات كرسيّ، والأرض موطئ قدمي" (إشعياء ٦٦:١). وفي ترنيمة الفرعون، نجده متضرعاً إلى الإله بقوله: "أفلا تؤخر المطر، ألا تمسك بريح الشمال، الا تكفّ البرد عن السقوط على سوريا حتى يعود رسلي سالمين إلى مصر؟". ومن تلك الضراعات، سُرقت ليهوه قدرة منح المطر أو منعه، وهي قدرة جُعلت، في وجهها السلبي ووجهها الايجابي، مؤسسية في ملوكية يهوه في كنعان التي كان سقوط المطر فيها أو عدم سقوطه مسألة حياة أو موت بالنسبة للأرض وللبشر وللزرع والماشية كما تنبئنا أسطورية بعل/موت، كما سرقت قدرة التحكم في الرياح، وسرقت قدرة انهمار البرد.

ومن كل ما حفلت به "الاسفار المقدسة" من استخدامات كهنوتية بأسلوب الجزرة والعصا لقدرة منح المطر أو منعه، نتبين كيف انبنى قدر لا سبيل إلى الاستهانة به من "جبروت يهوه" على الأرصاد الجوية. ففي سفر اللاويين، مثلاً، يقول يهوه لـ"الشعب" بصريح العبارة: "اذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها (أي "اذا ما سرتم تبعا لما يمليه عليكم الكهنة اللاويون") أعطي مطركم في حينه، وتعطي الأرض غلتها وتعطي أشجار الحقل أثمارها. فيلحق دراسكم بالقطاف، ويلحق القطاف بالزرع فتأكلون خبزكم للشبع وتسكنون في أرضكم آمنين" (لاويين ٢٦:٣-٥). وبعد قرون، يعود الكهنة فيجرون على لسان يهوه، في سفر التثنية، هذا الكلام، باعتباره كلاماً قاله لموسى: "أعطي مطركم في حينه، المبكر والمتأخر. فتجمع حنطتك وخمرك وزيتك. وأعطي لبهائمك عشبا في حقلك فتأكل أنت وتشبع" (تثنية ١١:١٤ و١٥). وبالمقابل، اذا ما غضب يهوه: "احترزوا من أن تنغوي قلوبكم فتزيغوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها، فيحمي غضب يهوه عليكم ويغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطي الأرض غلتها، فتبيدون سريعا عن الأرض الجيدة التي يعطيكم يهوه" (تثنية ١١:١٦ و١٧). و"اذا أغلقت السماء ولم يكن مطر لأنهم أخطأوا اليك ثم صلوا في هذا الموضع واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيتهم، لأنك ضايقتهم

(بمنع المطر)، فاسمع أنت من السماء واغفر.. واعط مطرا على أرضك التي أعطيت لشعبك ميراثا حتى لا (يصير في الأرض جوع أو يصير وباء" (الملوك الأول ٨:٣٥-٣٨)، و"أجعل (أرضكم) خرابا.. فيطلع شوك وحسك وأوصي الغيم أن لايمطر عليه مطرا" (إشعياء ٥:٦). ولم تقتصر تلك القدرة على يهوه وحده، بل تمتع بها نبييمه، كإيليا التشبيّ: "وقال إيليا حيّ هو يهوه إله اسرائيل، لا يكون طل ولا مطر في هذه السنين الا عند قولي" (الملوك الأول ١٧:١).

وكذلك قدرة التحكمّ في الرياح وركوب السحاب وإحداث الرعد والبرق، فيهوه-في سفر المزامير، الذي قلنا أنه أكثر الاسفار كنعانيّة- هو "الجاعل السحاب مركبته، الماشي على أجنحة الريح، الصانع ملائكته رياحا" (مزمور ١٠٤:٣ و٤)، وهو الذي يجب أن تسبّحه التنانين وكل اللحج لأن "النار والبرد والثلج والضباب والريح العاصفة كلمته" (مزمور ١٤٨:٧ و٨). ففيه عبدت ألوهة الارصاد الجوية التي أعطيت أقوى تجسد لها في تأريخ سفر الخروج بالتمني لـ"ضربات موسى العشر" التي نطق فيها الحقد وتوقّد الاشتهاء الكهنوتي المنسكب صديداً على صفحات العهد القديم لخراب مصر:

> "ثم قال يهوه لموسى مد يدك نحو السماء ليكون برد على كل أرض مصر. على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل في ارض مصر. فمد موسى عصاه نحو السماء. فأعطى يهوه رعودا وبردا، وجرت نار على الأرض، وأمطر يهوه بردا على أرض مصر. فكان برد ونار متواصلة في وسط البرد. شيء عظيم جدا لم يكن مثله في كل أرض مصر منذ صارت أمة. فضرب البرد في كل أرض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم. وضرب البرد كل عشب الحقل وكسر جميع أشجار الحقل.. الا أرض جاسان حيث كان بنو اسرائيل، فلم يكن فيها برد" (خروج ٩:٢٢-٢٥).(*)

ففي أسطورية يهوه كما اختلست ورقّعت مِزقها الأسطورية والفولكلورية المغتصبة المسروقة من هنا وهناك في الشرق الأدنى القديم، تواكبت البطولة الحربية ("رجل الحرب، رب الجنود" الذي يذبح كل من اشتهى "الشعب" ما بيده) مع البطولة الجوية ("المرعد، رب العواصف، راكب السحاب، سيد الريح، قاذف المطر، مانح المياه") مع الفحولة القضيبية التي احتوت- في نهاية الأمر- كل تلك البطولات المتوّج يهوه، بعل، ثور يعقوب، بفضلها ملكاً في عيد المظال، والذي يتجدد تتويجه سنوياً مثلما ظل بعل، ودوموزي، وتموز، وأدونيس يتوجون مع دورة كل عام.

(*) ارجع الى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص١٩٣/١٩٤.

وفي سفر إشعياء، وهو سفر لا شك في تأثره القوي بالميثولوجيا السومرية في نسختها البابلية كما يوقفنا النص الذي سرق فيه إشعياء الأول رؤيا دلمون السومرية (١١:٦-٨)(*)، نجد يهوه مفاخراً بقوله:

"افتح على الهضاب أنهارا وفي وسط البقاع ينابيع. أجعل القفر أجمة ماء والأرض اليابسة مفاجر مياه" (٤١:١٨).

ثم نجده قاذفاً منيه المخصب في رحم الأرض لـ"يجعلها تلد" (٥٥:١٠)، ونجده أيضا، قريناً لثور السماء الذي صنعه آن/آنو لإينانا/عشتار، "ينفخ وينخر معا، يخرب الجبال والاكام ويجفف كل عشبها ويجعل الانهار يبسا وينشف الاجام" (٤٢:١٤ و١٥)، ونجده، عندما يأتي ليخرب مصر ويجفف كل عشبها وينشف كل مائها، يدهمها من الجو كايشكور، وحداد، وبعل صفون، "راكبا سحابة سريعة" (١٩:١)، في حين يعطي "شعبه" الاثير إلى قلبه "مطر زرعه الذي يزرع الأرض به ويكثر له خبز غلة الأرض، فيكون دسماً وسمينا، ويجعله يرعى ماشيته في مرعى واسع، ويجعل أبقاره وحميره التي تعمل في الأرض تأكل علفاً مملحاً مذرّى بالمنسف والمذراة، ويجعل له على كل جبل عال وعلى كل أكمة مرتفعة سواق ومجاري مياه "وفي نفس الوقت، ينقض على أعداء شعبه" وغضبه مشتعل وحريقه عظيم بشفتين ممتلئتين سخطا ولسانه كنار آكلة، ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة، لغربلة الأمم (الاغيار، أعداء يهوه وشعبه) بغربال السوء وتهشيم فكوك (جمع فك) الشعوب" (٣٠:٢٣-٢٨).

فنحن نرى، شيطان البراكين الذي حريقه عظيم ولسانه نار آكلة، قد ابتلع كل آلهة الأرصاد الجوية، من ايشكور إلى بعل صفون، وبات يركب السحب، ويرعد، ويمطر، وتقمّص ثور السماء فبات يخرّب بالجفاف ويحرق بالقحط ويميت بالعطش، وأُدمج في قضيبه كل معبود قضيب آخر، فبات يقذف منيه في رحم الأرض الإلاهة فيخصبه ويجعلها تلد وتنبت ليكثر الخبز وغلة الأرض لشعبه، ويمنح دسم السماء الذي تحدّث عنه يعقوب، ويوسع له المراعي، بل ويطعم ماشيته أفضل العلف المنقّى بالمنسف والمذراة، وأخذ لنفسه كل بطولة عسكرية من آلهة وإلاهات العالم حوله، فبات الملك البطل الصنديد الذي يغربل الأمم بغربال السوء ويهشم فك كل شعب يرغب شعبه في أرضه. فلم يعد ثور السماء الجامح فحسب، بل وبلطجي الأرض أيضا، في خدمة شعبه، ابنه البكر. وفي ظل عضلاته القوية، يخاطب "النبي" إشعياء شعبه متهللا:

"الملك يهوه ببهائه تنظر عيناك. تريان (كل) أرض بعيدة.. الشعب الشرس (لا تعود) ترى. الشعب الغامض

(*) ارجع الى استظهارنا ذلك في المرجع السابق الاشارة اليه، وارجع أيضا الى المرجع [٤٥]:
Hooke, S.: "Middle Eastern Mythology", Penguin, pp.31-33, 114 and 130.
والى المرجع [٢٧]:
Kramer, S.: "Sumerian Mythology", Greenwood Press, pp.54-56, 58and 98.

اللغة عن الادراك (الذي لا تفهم له لغــة) العيـي بلســان لا يفهم (لا تعود تخشى). انظر صهيون مدينة أعيادنا. عيناك تريان أورشليم مسكنا مطمئنــا، خيمـة لا تنتقـل ولا تقلـع أوتادها إلى الابد وشيء من أطنابها لا ينقطع. (لأن) هناك الرب العزيز (الثور القــوي يهـوه) لنـا مكـان أنهـار وتـرع واسعة الشواطئ.. يهوه قاضينا. يهوه ملكنا هو يخلصنا".
(٣٣:١٧-٢٢)

- - - - -

(١١) الوليمة المسيحانية والصانع السماوي

على الرغم من كل المعالجات في تحرير النصوص، نجد في سفر الخروج، غير مراسم التتويج وحواذ الفخامة الملكية، عنصرين هامين وواضحين غاية الوضوح في كشفهما عن السطو على أسطوريّة بعل، أولهما الوليمة التي مثلت الجزء الأكبر والأهم من مراسم الاحتفال بالانتصار والإصعاد، وثانيهما الصانع السماويّ الذي يصنع للإله عدّته الشعائرية ويبني له مسكنه.

بعد انتصار بعل على يَمّ نهر وفوزه بملوكية المياه، ذلك الفوز الذي وضع خاتم التصديق الأسطوريّ بالانتصار على التنين لوتان والذي بفضله استخلص من الأب إيل الموافقة على بناء مسكنه، قصره، هيكله المعلّى، على قمة جبل صفون، تحكي نصوص أوغاريت عن مأدبة كبرى أقامها بعل على قمة جبل الرب، جبل صفون، احتفالاً بذلك الانتصار وما ترتب من اصعاد واعلاء لمكانته بين آلهة الكنعانيين، وعن أبناء وبنات عشيرة السبعين من الآلهة والإلاهات وقد صعدوا الى حيث أقام لهم بعل تلك الوليمة وتلذذوا كثيرا بما قدمه إليهم من نبيذ ومن أطباق شهية من لحم لوتان، الحية المتحوية، ولحم الحيوان الخرافيّ الذي يصفه النص ٧٥ من تلك النصوص بأنه ذو جرم مهول، وله قرون مسنونة كقرون الثور وحدبة عظيمة في ظهره، فأكلوا وشربوا في حضرة سيد الجبل ومجّدوه معلنين تقبلهم لملوكيته.

ونحن نعرف أن يهوه،سيراً على خطى بعل وكل الآلهة الأبطال الذكور في الشرق الأدنى القديم، سجّل انتصاره على الألوهة المؤنّثة بالانتصار على المياه (البحر، المحيط، الأنهار) وتوّجه بالانتصار على التنين "لوياثان"، لفياتان،الذي حرفّ اسمه من لوتان باستخدام اسم "ليفي"، "لاوي".

ذلك الانتصار على "المياه"، في أسطوريات الشرق الأدنى القديم، سواء كان المنتصر مردوخ أو بعل أو يهوه، كان الانتصار الباترياركي للإله المذكّر على الإلاهة الأم، ملكة السموات. ففي التصور الشعريّ الأسطوريّ للانسان القديم، كان التداعي بين المياه (مياه الفوضى الأولى، مياه الغمر البدئي) وبين مياه المشيمة، مياه الرحم البدئي الذي خرجت منه الحياة فيما لا يحصى من أساطير، الذي في سياقه فصل مردوخ ويهوه المياه السفلية، مياه البحر والنهر والمياه التحتية، عن المياه الفوقية، كما في سفر التكوين: "وقال يهوه ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فصلا بين مياه ومياه. فعمل يهوه الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد" (١:٦و٧) وهو عين ما فعله مردوخ في أسطورة الخلق السومرية البابلية "عندما في العلى"(*)، عندما شق جسد تيامات (تعامة) الإلاهة الأم التنينة بطوله شقّين صنع من العلوي منهما الجَلَد وجعل أفقه متطابقاً مع أفق

(*) ارجع الى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص١٥٠-١٦٥.

الأرض ووضع فيه "المياه العلوية" التي باتت مذكّرة (منيّ الإله)، ثم صنع من الشق السفلي وعاء للمياه التي تحت الجَلَد، مياه البحر والنهر والمياه التحت أرضية، التي ظلت مؤنثة.

فالمياه كانت في الرؤية الشعرية الأسطورية للانسان القديم أحد تجليات قدرة الإلاهة الأم العظمى التي أنجبت كل حياة من رحمها وأمدّته بالغذاء من ثديها بمياه التحول، من الكائن أو النبات الصغير الى الكائن أو النبات الكبير. وهكذا فإنه كما كانت المياه "ماء المشيمة"، كانت أيضا لبن ثدي الأم الأرض الذي ترضعه لوليدها ليحيا ويكبر وينمو. ومن هنا كانت صورة حت حور (هاتور) في الديانة المصرية كـ "بقرة السماء" المقدسة. وحت حور، كما نعرف، كانت أحد التجلّيات الرئيسية للإلاهة الأم العظمى، العرش،آست (إيزيس).

غير أن الألوهة، في التصوّر الشعريّ للإنسان القديم، سواء كانت ألوهة الإلاهة الأم أو ألوهة الإله الأب، كانت أندروجينية، أي مؤنّثة/مذكّرة في آن معاً، وهو ما نجده في سفر التكوين واضحاً غاية الوضوح في خلق يهوه البشر "على صورته، ذكراً وأنثى" (١:٢٨). ولما كانت الألوهة أندروجينيّة، فإن المياه (التي خرجت منها كل حياة) كانت مؤنّثة مذكّرة في آن معاً (والا لما انبثقت منها الحياة)، وبهذا يكون انتصار الإله الذكر في أساطير الإعلاء الباترياركي للألوهة المذكّرة كما في أسطوريات مردوخ وبعل ويهوه بمثابة انتزاع لملوكية المياه من الإلاهة الأم، واخضاعها، وركوبها كعرش، واخصاب رحمها بمنيّ القضيب السماوي، المطر، وهو ما صارحنا به إشعياء في نص يبدو أنه أفلت من أقلام الرقباء المحررين، بقوله، كما أسلفنا، أن يهوه عندما يمطر على الأرض يخصبها ويجعلها تلد (٥٥: ١٠).

ونحن واجدون التهللّ لانتصار يهوه على الإلاهة الأم العظمى وركوبه إياها وتسيّده عليها ممّثلةً في المياه،متردّداً بشكل لافت للنظر في جُلّ أسفار العهد القديم: "ومن (سواي) حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم (رحم الإلاهة). إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه. وجزمت عليه حدّي، وأقمت له مغاليق ومصاريع. وقلت الى هنا تأتي ولا تتعدّى، وهنا تتخم كبرياء لججك" (أيوب ٣٨:٨-١١) وهو عين ما فعله بعل عندما انتصر على يَمّ نهر وفرض سلطانه على البحر فألزمه حدّه، ووصف به إشعياء معبوده يهوه بقوله أنه "مزعج البحر فتعجّ لججه" (٥١:١٥) ووصفه أيضا بأنه "الذي يكيل البحر بكفّه" (٤٠: ١٢)، ووصفه إرميا بأنه الذي "إذا ما أعطى قولا تكون كثرة مياه" (٥١:١٥)

في تجلّيها بالمياه والبحر والنهر والنبع، كانت الإلاهة الرحَم الذي خرجت منه كل حياة والثدي الذي أرضع كل حياة. لكن الإلاهة، كما أسلفنا، كان لها أيضا وجهها المدمّر والمخيف. وهكذا فإنها، في ذلك التجلّي بالمياه، اتّخذت صورة التنين الرهيب الذي لا يُقهر كما وصفه يهوه لأيوب، واتخذت في الوقت ذاته، من خلال ذلك الترميز بالتنين، صورة طوفان مياه الفوضى الأولى التي تقضي على كل حياة وتبتلعها، كما في أسطورة

الطوفان التي سُرقت لديانة يهوه.(*) وفي كل أسطوريات العالم القديم، كان الآلهة الأبطال، والأبطال أنصاف الآلهة سواء بسواء لايحصلون على بطولتهم بغير معركة ينتصرون فيها على التنين، الرمز البدئي لخطر اجتياح الفوضى الأولى للخليقة وتدميرها. وتهديد المياه ذاك متردد بكثرة في العهد القديم، كقول إشعياء أن يهوه "يصعد على ملك أشور وكل مجده مياه النهر القوية والكثيرة" ليدمّره (٨:٧)وكرعب داود في المزمور ٦٩: "خلصني يايهوه لأن المياه قد دخلت الى نفسي. غرقت في حمأة عميقة وليس مقر (وليس مكان أضع عليه قدمي). دخلت الى أعماق المياه والسيل غمرني.. نجّني من الطين فلا أغرق نجّني من مبغضيّ ومن أعماق المياه. لايغمرني سيل المياه ولا يبتلعني العمق ولا تطبق الهاوية عليّ فاها" (١و٢و١٤و١٥).

ومن هنا كانت الأهمية القصوى التي أُعْطيت في ديانات الإعلاء الباترياركي لانتصار الإله الذكر بقضيبه على الألوهة المؤنثة ممثلة، كما أوضحنا، في المياه ومجسّدة أسطورياً في "الحية الهاربة من قوة الإله"، "الحية المتحوية"، التنين.

وهكذا فانه، مثلما انتصر مردوخ بـ"صولجانه" على تيامات (تعامة) في الميثولوجيا السومرية/البابلية، انتصر بعل بـ"رمحه" على "الحية المتحوية"، لوتان، وانتصر يهوه بـ"سيفه القاسي العظيم الشديد" (أي بقضيبه القوي، وهو "شداد"، "الشداي" كما عبده "الآراميون التائهون "قبل أن يكنعنوه باسم بعل صفون) على "الحية الهاربة، الحية المتحوية، وقتل التنين الذي في البحر" (إشعياء ٢٧:١).

في تأليف أسفار التوراة، سبّق المؤلفون وجود التنين على خلق العالم ذاته. فعلى الرغم من أن لفظة "تنانين" لم ترد صراحة الا في قول مؤلف السفر أن "خلق التنانين العظام" كان في اليوم الخامس من أيام الخلق الستة، مع "كل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه" (تكوين ١:٢١)، فان السفر وضع التنين قبل ذلك اليوم الخامس بوقت طويل، فسبّق وجوده على وجود أي كائن، بل وعلى وجود الأرض والسماء والنور وكل ذلك، بقوله أنه "في البدء لم يكن الا توهو وبوهو وعلى وجه تهوم كان هوشخ وكان رواه يهوه يرف على وجه تهوم" وهو القول الذي وصلنا ووصل عشرات الأجيال قبلنا محرراً على الوجه التالي، في الترجمة العربية:

"وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه" (تكوين ١:٢). وفي الترجمة الانكليزية (الملك جيمس):

"And the earth was without form, and void; and darkness was upon the face of the deep. And the Spirit of God moved upon the face of the waters".

في تعليقهما على النص الأصلي قبل تغييره في الترجمة، يقول جريفز وباتاي أن محرر سفر التكوين الموحّد بيهوه لم يجد لديه استعداداً لأن يترك في النص الأصلي أي

(*) ارجع الى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص١٦٦-١٩٤، في شأن الأسطورة وسرقتها لعبادة يهوه.

قول يعطي أي دور في عملية الخلق لأي ألوهة سوى يهوه، ولذا فانه حذف كل العناصر والكائنات ذات الصبغة الإلهية (كالألوهة المؤنثة) ووضع بدلاً منها مجردات مثل "الفوضى الأولى (تهو ويهو)، والغمر (تهوم) والظلمة (هوشخ)، مطمئناً الى أن مثل هذه المجردات ليس فيها ما يغوي أحدا بعبادتها بدلاً من يهوه، وبذا حلّت تلك المسميات محل ما كان هنالك من معبودات ماترياركية.(٢٧)

ثم يعود الباحثان فيقولان(٢٨) أن معنى "تُهو وبُهو مازال محل جدل وخلاف، إلا أننا اذا ما أضفنا حرف ميم الى كل من المسميين، أصبح "تُهو"-"تُهوم"، وأصبح "بُهو"-بُهوم". وبُهوم، كما هو واضح، هو بُهموث الوارد ذكره في سفر أيوب، الحيوان البري الخرافي قرين لوياثان، الحيوان البحري الخرافي. ويشير الباحثان الى أنه لا سبيل الى التفرقة "بسهولة" بين لوياثان، ورهب، وتنين، ونحش (حنش العربية) أو أي مخلوق أسطوري آخر مشخص للمياه. وهكذا فان الحكي الكامن تحت السطح في نص سفر التكوين ١:٢ يمكن أن يكون أن العالم في حالته البدئية تألّف من وحش مياه خرافي هو تُهو، ووحش بري خرافي هو بُهو. وفي ذلك نجد تطابقاً لهوية تهو مع هوية تُهوموت، وهوية بُهو مع هوية بُهموث وهو تطابق رُفِع من النصوص لدواعٍ متعلقة بالعقيدة، بحيث حوِّل تُهو وبُهو الى الفَوضى أو الخراب والخواء، مع جعل كل مِن تُهوموت (أو لوياثان) وبُهموث مخلوقين خلقهما يهوه. والهَوَلة المائية البابلية القرينة لتُهوموت التوراة هي تيامات (تعامة)، الإلهة الأم البدئية محبوبة الإله أبسو الذي دُعي سومرياً بـ"أبزو"، بوصفه غمر المياه العذبة الذي بزغ منه إَله الحكمة السومري إنكي. وأما "رَهَب" (أي "العجرفة والكبرياء") فمرادف لتعامة (تيامات) تُهوموت التوراة.

فأرومة كل من حية يهوه المتحوية (التنين الذي في البحر، لوياثان) وبُهموث، أرومة عريقة بحق تعود إلى السومريين والبابليين والكنعانيين، ومن فرعها الخاص بالتنين تدور وتدور فتعود الى الحواذ المقيم، مصر ذات "العجرفة والكبرياء".

إلا أن الذي يعنينا هنا أساساً تعقب النصوص التي عولجت في الحكي عن معركة بعل يهوه مع اليم فرفع منها اسم تهوموت، للشبه الكاشف عن الأصل البابلي (تيامات، تعامة)، مع تحويل تنين كنعان، لوتان، الى "لوياثان" أو لفياثان، تيمناً فيما بدا باسم "سبط الأفعى"، كهنة موسى اللاويين الذين كانت أيديهم المباركة وراء كل ذلك النهب الأسطوري وضروب التمويه والتعمية.

فنص إرميا ٣١:٥، الذي يصف يهوه بأنه "رب الجنود الزاجر البحر عندما تعج أمواجه"، كان قبل تحريره: "الزاجر تهوم عندما يثور".

ونص إرميا الآخر، كما استشهدنا به قبلاً، الذي يقول فيه يهوه لبني اسرائيل "أفإياي لا تخشون أو لا ترتعدون من وجهي وأنا الذي وضعت الرمل تخوما للبحر فريضة أبدية لا يتعّداها فتتلاطم لججه ولا تستطيع وتعج أمواجه، ولا تتجاوزها" نص تفاخر فيه يهوه بانجاز بعل، ومردوخ، وإنكي، المتمثل في "لجم" الألوهة المؤنثة المتمثلة في المياه

وايقافها عند حدها أو "وضعها في مكانها، باستخدام كنية "تعامة" البابلية في التعبير عن ذلك: ".. وأنا الذي وضعت الرمل تخوما لتهوم.." (٢٢:٥).

وفي سفري إشعياء وأيوب، تتخذ تهوم اسم رَهَب. ورَهَب في كتابات الربانيين اليهود كان "أمير البحر" (=يَمّ بن إيل، الذي قهره بعل) الذي قال بعض الربانيين أن يهوه قهره، بل أجهز عليه ركلاً في مؤخرته، ويقول بعضهم الآخر أنه بعد أن لقنه درسا قاسياً (كما في إشعياء: "يعاقب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان" ٢٧:١)، عفا عنه، وفيما بعد استخدمه في استرداد سفر الحكمة الخفية الذي كان قد أعطي لموسى من قاع البحر. وقد وصف رَهَب (ربما بسبب "كتاب الحكمة الخفية" التي تعلمها موسى عند المصريين) بأنه "أمير مصر السماوي"، وباسباغ هوية لوياثان عليه، بات الرمز الذي استخدم في صب كراهية النبييم على مصر خاصة وأن اسمه، رَهَب، يعني العجرفة والكبرياء، كما قلنا. فحزقيال مثلا يدعو فرعون مصر، كما أشرنا قبلاً، بـ"التنين الكبير الرابض وسط أنهاره" (٣:٢٩) وإشعياء يمجّد يهوه بقوله "ألست أنت (يا ذراع يهوه = قضيبه) القاطعة رَهَب الطاعنة التنين؟" (٩:٥١)، فيجمع بين شفاء الغليل بالتمني في تمزيق أوصال رَهَب (مصر) والسطو على طعن بعل التنين لوتان لإلهة يهوه. وهو ما نجده أيضا في سفر أيوب ٩:١٣ "يهوه لا راد لغضبه. ينحني تحته أعوان رَهَب (يلوط كل من يساعد مصر، انطلاقاً من عادة لواط الأسرى)"، و٢٦: ١٢ و١٣" بقوته يزعج البحر (تهوم) وبفهمه يسحق رَهَب (وهو الذي) خلقت يداه الحية الهاربة"، و"بفهمه" هذه تعبير مصري أصيل عن الذكاء الذي جعل المصريون مركزه القلب.

أما في سفر ناحوم ٣:١ و٤، فنلتقي بيهوه "في الزوبعة" و"في العاصف" ونجده سائراً على السحاب، "السحاب غبار رجليه"، تماماً كبعل وكحداد، وكإيشكور، ونجده منتهراً تهوم، منشّفاً البحر، مجففا جميع الأنهار.

وهو عين ما نجده في المزمور ١٨. فداود استغاث بيهوه من مخاصميه ومن شاول (الذي كان يهوه هو الذي أمر صموئيل بمسحه ملكاً ثم ندم). واذا استغاث داود، سمع يهوه صوته من هيكله السماوي، ودخل صراخ داود في أذنيه، فاذا به: يرعد كحداد "فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال وارتجت لأنه غضب" (١٨:٦ و٧)، ثم اذا به يرتد الى صورته الأصلية كشيطان براكين: "صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. جمر اشتعلت منه" (١٨:٨) ثم تحول الى إيل، فـ"ركب على كروب وطار" (١٨:١٠)(*)،

(*) يلاحظ فريدمان أن "إيل، المعبود الكنعاني، لم يكن مرتبطا بالثيران فحسب، بل وبالكروبيم (جمع "كروب"، الكائن انساني الشكل المذكر أحيانا والمؤنث أحيانا، والمجنح) أيضا، ويقول أن ذلك يشير الى أن إيل ماثل في يهوذا كما هو ماثل في اسرائيل، من حيث أن سليمان عني بأن يضع تمثالي كروبين ذهبيين في قاعدة عرشه في يهوذا. وفريدمان- بالقدر المتاح في سياق محظورات النشر حتى بالنسبة الى باحث أكاديمي مثله- قد أظهر تقبلا قويا لما تشير اليه كل الأدلة التاريخية من أن "بني اسرائيل"، أي الآراميين التائهين كما أسمتهم التوراة، الذين استوطنوا في كنعان كانوا هم "الشعب" وأن من وصفوا بأنهم "خرجوا" من مصر بعد "استعبادهم فيها" (أي من طردوا، متى أخذنا ببراهين أسفار التوراة ذاتها)

وكبعل وحداد "هف على أجنحة الريح" (١٨: ١٠)، وتلفع بتفنوت المصرية "جعل الظلمة سترة حوله مظلته ضباب المياه وظلام الغمام" (١٨: ١١)، ثم أصبح مركّباً من إله شمسي، كإيل وشمش، وإله عواصف ورعد (حداد وبعل) وشيطان براكين: "من الشعاع قدامه عبرت سحبه. برد وجمر نار. أرعد يهوه من السموات، والعلي (العليان)(*) أعطى صوته برداً وجمر نار (١٨: ١٢ و١٣) ثم انقلب فأصبح سخمت "أرسل سهامه فشتتهم" وحداد في آن معا "وبروقا كثيرة فأزعجهم" (١٨: ١٤)، ومن شدة الهول، كما حدث يوم المعركة الكونية بين مردوخ وتيامات، وبين بعل ويم وبعل ولوتان، "انكشفت أسس المسكونة من زجره، من نسمة ريح أنفه" و"ظهرت تهوم، أعمال المياه" (١٨: ١٥)، وبهذه السلسلة من التحولات الأسطورية، قام بعمله كنصير بطل سماوي للملك الأرضي، داود، "فأرسل من العلى وأخذه، انتشله من المياه الكثيرة" (١٨: ١٦).

وفي المزمور ٣٣: ٧، نجد يهوه، "مكوما أمواج اليَمّ ككومة، مكدسا اللجج في أهراء" كالتبن والغلال، استنساخاً مباشراً من بعل ومعركته مع يَمّ نهر وألوهته للخصب التي تملأ الأهراء بالغلال.

الا أن المغزى البطولي الملكي للانتصار على المياه وعلى تجسد الإلاهة في التنين كما سرق من أساطير بلدان الهلال الخصيب لا يتضح قدر ما يتضح في مزامير كهذه:

المزمور ٨٩: الأصل، قبل التحرير "يا يهوه يارب الجنود. من مثلك قوي؟ أنت المتسلط على كبرياء تهوم. عند ارتفاع لججها أنت تسكنها. أنت سحقت تهوم مثل القتيل. بذراع قوتك (بقضيبك القوي) بددت أعداءك (الألوهة المؤنثة)"

النص المحرَّر: "يارب إله الجنود من مثلك قوي وحقك من حولك. أنت متسلط على كبرياء البحر. عند ارتفاع لججه أنت تسكتها. أنت سحقت رَهَب مثل القتيل. بذراع قوتك بددت أعداءك" (٨-١٠).

كانوا أقلية صغيرة، بل ويقول أن تلك الأقلية الصغيرة التي قامت بـ"الخروج" مع موسى كانت "سبط اللاويين" الذي يرجح أنه مجموعة من الكهنة المصريين بدليل شيوع الأسماء المصرية بينهم. ارجع الى كتابه: Friedman, R.E.: "Who Wrote the Bible?" op. cit. pp.81/82.

(*) لقب "العليون" ظل اللقب الرسمي لإيل، كبير آلهة كنعان، وهو الذي ورد في التوراة "الإلَه العلي" (كما نجده في المزامير وأسفار النبيين أيضا). وبعد إعلاء بعل وبنائه "قصره" علىقمة جبل صفون، استعيرت صيغة "العليان" لبعل من ذلك اللقب الخاص بإيل.

المزمور ٨٩: الأصل، قبل التحرير، "رفعت تهوم يا يهوه صوتها. يعلو
عجيجها. يهوه في العلى أقوى من أصوات المياه
الكثيرة، من غمار أمواج تهوم"
النص المحرَّر: "رفعت الأنهار يا رب رفعت الأنهار
صوتها. ترفع الأنهار عجيجها. من أصوات
مياه كثيرة من غمار أمواج البحر يهوه في العلى
أقدر" (٣ و٤).

المزمور ١٠٤: الأصل، قبل التحرير: "فوق الجبال تقف تهوم. من
انتهارك تهرب. من صوت رعدك تفر. تصعد الى
الجبال. تنزل الى البقاع. الى الموضع الذي حددته
لها ووضعت تخما لا تتعداه لئلا تعود فتجتاح
الأرض"
النص المحرَّر: "فوق الجبال تقف المياه. من
انتهارك تهرب من صوت رعدك تفر. تصعد الى
الجبال. تنزل الى البقاع الى الموضع الذي أسسته
لها. وضعت لها تخما لا تتعداه. لا ترجع لتغطي
الأرض" (٦-٨).

في كل هذه النصوص الأصلية للمزامير،(*) نجد تعامة (تيامات) البابلية ناطقة (في شخص تهوم) بحقيقة الصراع مع "المياه" وبأنه صراع الإله القضيبي يهوه مع الإلاهة الأم العظمى بـ"ذراعه القوية" أي قضيبه القوي الذي اسماه إشعياء "سيفه القاسي القوي

(*) ارجع في شأن المزامير ونصوصها الأصلية وتحولاتها ومعانيها الى:

Pritchard, James (editor): "Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament", Princeton University Press.

Winston, T.d. (editor): "Documents from Old Testament Times", Thomas Nelson & Sons, N.Y., 1958.

Blackman, A.M.: "The Psalms in Light of Egyptian Research" and:

Driver, G.R.: "The Psalms in Light of Babylonian Research", in: "The Psalmists", Oxford, 1926.

Dallas, A.K. (Translator): "What Remains of the Old Testament and Other Essays", Macmillan, N.Y. 1928.

Kissane, E.J.: "The Book of Psalms, Translated from a Critically Revised Hebrew Text", Two Volumes, Browne and Nolan, Dublin, 1953&1954.

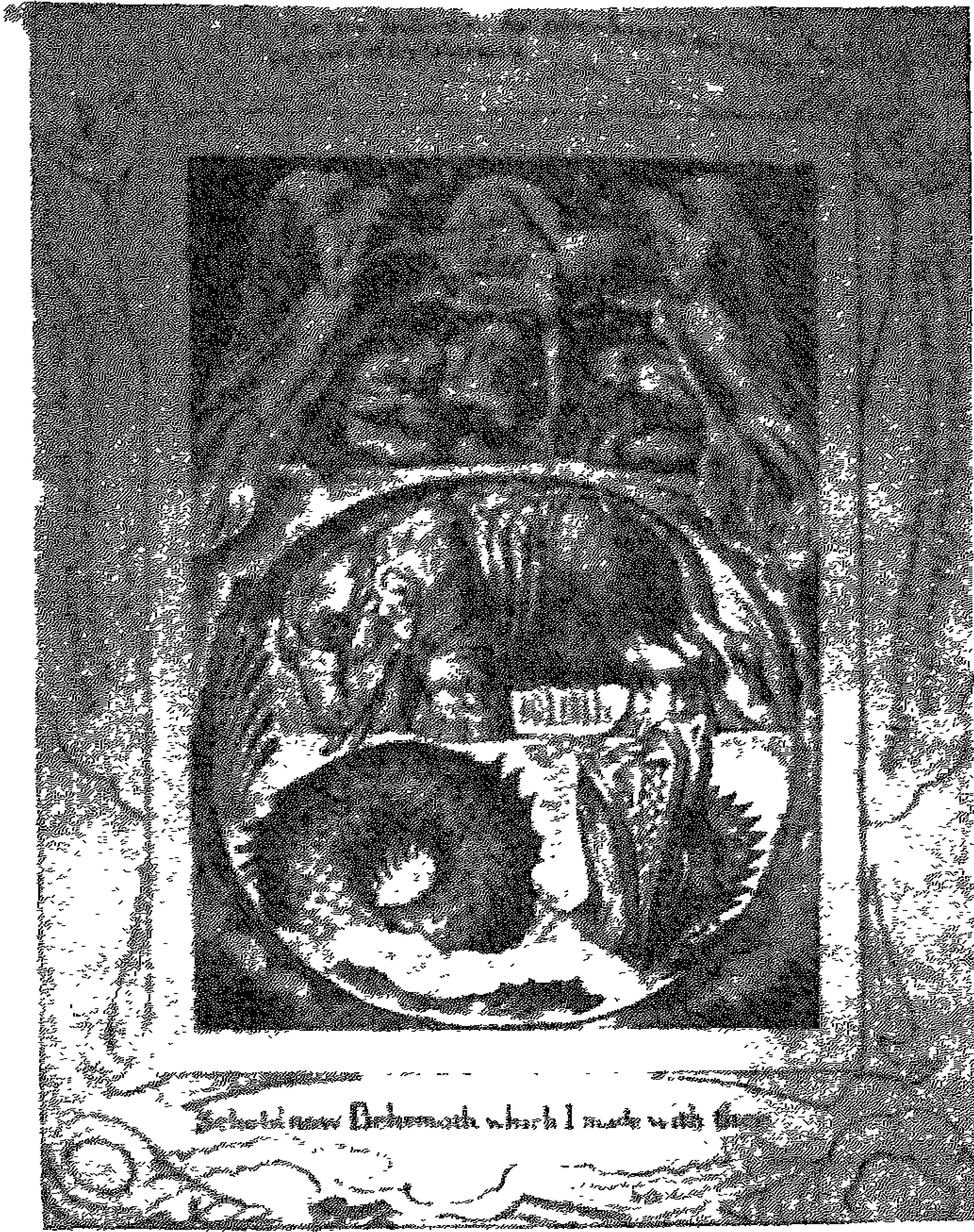
Dahood, M.: "Psalms I", Psalms 1 to 50, Anchor Bible # 16, 1966 and "Psalms II", Psalms 51 to 100, Anchor Bible # 17, 1968, Doubleday, with special emphasis on Ugaritic parallels in the 1966 edition.

الشديد"، ونقف على مغزى صراع يهوه مع تنين بعـل المدعـو لوتـان، الـذي حُـرِّف اسـمه تحريفاً مكشوفاً في العهد القديـم الـى لوياثـان أو- إن توخينـا الدقـة وأفلتنـا مـن مراوغـات المترجمين الأتقياء الذين تصوروا أن مهمتهم كانت التستر علـى سـرقات الديانـة- لِفياتـان. واذ نقف على مغزى الصراع، نستطيع استظهار العلاقة الوثيقة بين مأدبـة الاحتفـال بانتصـار يهوه وبين مأدبة الاحتفال بانتصار بعل. تلك العلاقـة لـم تقتصـر علـى سـرقة "أبنـاء عشـيرة السبعين" وتحويلهم الى "أشراف اسرائيل السبعين"، ولم تقتصر على إقامة المأدبة علـى قمـة جبل بعل، جبل صفون، بعد تحويله الى "جبل صهيون"، بل شملت تقديم لحـم تهـوم التـي حُوّلت في الحكي الى لوتان/لفياتان، (أي لحم الإلاهة الأم التي هُزمت ومزق يهوه جسدها بسيفه القاسي الشديد) وتقديم لحم بهموث، وشرب دم الإلاهة باسم النبيـذ، وقـد اعتـبرت إينانا، ملكة السموات السومرية (عشتار البابلية وعشـيرة الكنعانيـة) "الإلاهـة الأم السـماوية مانحة النبيذ".

ولكن، من كان أو ماذا كان بهموث؟ يهوه نفسه يصفه لنا في سياق تفـاخره أمـام أيوب:

"هو ذا بهموث الذي صنعته معك (يوم صنعتـك). يأكل العشب مثـل البقـر. هـا هـي قوتـه فـي متنيـه وشدته في سرة بطنه. يخفـض ذنبـه كشـجرة أرز. عروق فخذيه مضفورة. عظامـه كأنـابيب نحـاس. جرمها كحديـد ممطـول. هـو أول أعمـال يهـوه، والـذي صنعـه يصنـع السـيف الـذي يغلبـه. جبـال الأرض تطـرح لـه مرعـى حيـث كـل وحـوش الـبر تلعب. السدرات تظلله بظلها وهو فـي مكمنـه فـي ستر القصب والغمقة. يحوطه صفصاف السـواقي. اذا ما فاض النهر فانـه يشـربه ولا يهـرب منـه لأنـه مطمئـن الـى أن فمـه يتسـع لمـاء الأردن والـى أن خطمه يخترم كل الشراك" (أيـوب ٤٠:١٤-٢٥). (انظر الشكل رقم ١٦).

فهو-كما نرى من وصف يهوه-حيوان خرافيّ الحجم خرافيّ القوة أشبه بدينـاصور عصور ما قبل التاريخ، ولابد أن لحمه-مع ذلك-شهيّ أو أن مطبخ يهوه في السماء أو على قمة الجبل لديه وصفة خاصة جيدة لطهيه، لأنه سيقدم لحمـه، مـع أطبـاق شـهية مـن لحـم لوياثان، لضيوفه صفوة العالم وشيوخ اسرائيل في المأدبة الكـبرى التـي أورد سـفر الخـروج بروفتها، ثم ورد ذكرها خطفاً في الترجمـة المعالجـة بصرامـة للمزمـور ٥٠: "اجمعـوا الـيّ أتقيائي القاطعين عهدي على ذبيحة" (٥:٥٠) ففيما بين تغنّي ذلـك المزمـور بقـدرات بعـل صفون المدمج فيه يهوه "نار قدامه تأكل وحوله عاصف جداً" وتغنّيه بـ "عدل" يهوه "يدعو



الشكل رقم (١٦)
بهموث ولوياثان ويهوه يحكي لأيوب عنهما
للشاعر الانكليزي ويليم بليك
(أيوب ٤٠ : ١٤ - ٢٥ و ٤١ : ١ - ٣٤)

السموات من فوق والأرض من تحت الى مداينة شعبه، وتخبر السموات بعدله لأنه هو الديان" اختزلت كل أوصاف المأدبة الى هذه الكلمات القليلة "اجمعوا أتقيائي اليّ على ذبيحة"، دون كبير افاضة في التحدث عن الأطباق الشهية التي سيقدمها يهوه بعد الانتصار الأخير لصهيون بالمذبحة العالمية التي ستباد فيها كل الأمم(*) مثلما قدمها الى شيوخ اسرائيل السبعين (أبناء عشيرة وبناتها السبعين) في حكي سفر الخروج. وبذلك الاختصار غير المبرر الا بـ"تقوى" المترجمين أو بالأحرى حيرتهم ازاء ما واجههم به النص الأصلي، غُيّب من النص، لا لحم لوياثان ولحم بهموث فحسب، بل ولحم الزيز أيضا، كما غُيّب أيضا ذكر كل تلك الخمر التي يصبها يهوه بيده في أقداح ضيوفه أتقيائه على جبل قدسه، وبطبيعة الحال، غُيّب أيضا قيام يهوه بالترفيه عن ضيوفه بالرقص لهم مثلما رقص بعل أمام ضيوفه على قمة جبل صفون (صهيون، في حالة يهوه) احتفالا بانتصاره على يَمّ نهر، وعلى الأب إيل بالتبعية، وضمنا على الألوهة المؤنثة، بحيازته قدرة المياه (قدرة التحكم في مياه النهر والبحر وماء خزان السماء، المطر) وحق قذف منيه المخصب (المطر) في رحم الإلاهة (التي أصبحت- نتيجة لذلك الانتصار- ممددة تحته مفتوحا فرجها).(**)

والمترجمون، إن شئنا الحق، معذورون. فهم- بعقلية العالم الحديث- واجهوا، واستفظعوا معاني وصياغات الابداع الشعري الأسطوري للعالم القديم متمثلاً فيما لم يجد محررو "الأسفار المقدسة" حيلة فيه من اختلاسات وسرقات لا تحصى صُنعت من جماعها أسطورية يهوه، ومنها مأدبة بعل التي تحولت في حالة يهوه الى ما بات يعرف الآن باسم "الوليمة المسيحانية".

وفي تدبرنا لمشكلة المترجمين مع النصوص الأصلية، لنأخذ الـ"زيز" مثلاً. فهؤلاء المترجمون اصطدموا، في نص المزمور الأول، ونص المزمور ٨٠، وفي سفر أيوب بطائر خرافي دُعي بذلك الاسم، "زيز". ولماذا دعي بذلك الاسم؟ لأن مذاق طعمه "هكذا" (زه) و"هكذا" (زه)، أي أنه متعدد المذاقات تبعا للجزء الذي يُؤكل من لحمه، فصار اسمه "زيز". والذي تحكيه المصادر غير التوراتية (المدراش، الخ)(٢٩) أن ذلك الطائر خُلق مع سائر الطيور في اليوم الخامس من أيام الخليقة ولذلك فانه توسط حيوانات الأرض، كبهموث، وحيوانات البحر، كلوياثان. وبتقديم يهوه لحم الزيز لمفدييه في وليمته على جبل قدسه يكون قد أطعمهم (بكل ما ينطوي عليه ذلك من مضامين شعائرية) لحوم كل

(*) فبهموث يوحي- ببهيميته ولحمه العظيم واستعداده لأن يذبح- بـ"الأمم" أي الأغيار، اذ تتداعى منه كلمات حزقيال التي أكد أن قائلها له يهوه:

"اجتمعو تعالوا احتشدوا من كل جهة الى ذبيحتي التي أنا ذابحها لكم. ذبيحة عظيمة على جبال اسرائيل لتأكلوا لحما وتشربوا دما. تأكلون لحم الجبابرة وتشربون دم رؤساء الأرض.. تأكلون اللحم حتى الشبع وتشربون الدم الى السكر من ذبيحتي التي ذبحتها لكم فتشبعون على مائدتي" (حزقيال ٣٩:١٧-٢٠).

(**) وهو ما صور به سفر إشعياء، حرفيا، قذف يهوه منيه في رحم الإلاهة:

"ينزل المطر والثلج.. ويرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت" (إشعياء ٥٥:١٠).

حيوانات خليقته، البرية، والمائية، والتي بين المائية والبرية. ومثلما خلق يهوه الأسد ليكون ملكاً على وحوش البر، خلق الزيز ليكون ملكاً على الطيور، وكاعلان لسيادة الزيز على الطيور، يرف بجناحيه العظيمين ويطلق صيحته فيرعب الطيور الكواسر ويردعها عن مواصلة افتراسها للطيور الأخرى حتى لا تنقرض. ويحكي المدراش أن يهوه عندما خلق الزيز أوقفه على زعنفة من زعانف التنين لوياثان فوجد أن رأس الزيز يصل الى ما تحت قدمي عرش السماء وأن جناحيه متى فردهما يحجبان نور الشمس ويمنعان ريح الجنوب من تجفيف مياه الأرض. فالزيز، في النهاية، ديك بري من طيور الماء (كالديك السلطاني) استولدته الأساطير التي صنع منها هذا الحكي من حكايات فولكلورية فارسية هي عينها التي تولّد منها طائر الرخ في حكايات ألف ليلة وليلة.(*)

واذ اصطدم المترجمون بكل ذلك، ما الذي كان بوسعهم أن يفعلوه وهم أناس أتقياء إلا أن يستروا ذلك العرى الفولكلوري الفاضح بأن يرفعوا ذكر الزيز تماماً من المزمور الأول والمزمور ٨٠، وأن يغيروا اسمه في سفر أيوب الى "النعامة" في الترجمة العربية، والى "النعامة" و"الطاووس" في الترجمة الانكليزية لنص أيوب ١٣:٣٩ عند التحدث عن جناحي الزيز في النص الأصلي، ليصبح القول "جناح النعامة يرفرف" ويصبح، في ترجمة الملك جيمس، بدلا من "أأعطيت أنت الزيز جناحيه وريشه؟"، "أأعطيت أنت الجناحين للطواويس أو أعطيت النعامة الجناحين والريش؟":

"Gavest thou the goodly wings to the peacocks? or wings and feathers unto the ostrich?"

(*) وعلى صعيد أكثر لصوقا بأرض الواقع، قد يكون الزيز تضخيما أسطوريا للطائر الحقيقي المسمى بالنعامة (وقد أسميت زوجة نوح ابنة ليليث الشيطانية بـ"نعامة").

فالمخيلة المحمومة التي تفتقت عن هذه التضخيمات المهولة كانت بدائية للغاية ومثقلة بالجهل وفي الوقت ذاته بحمى الرؤى المنبجسة من أبخرة عقار الهلوسة (الأمانيتا موسكاريا) في الأدمغة المباركة.

ومن نفس زاوية النظر الى المسألة، نجد التمساح المصري الذي كان متكاثرا في النيل في الأزمنة القديمة، والذي جعل حيوانا مقدسا، كما أسلفنا. ومما يرجح أن ذلك التمساح كان الأصل الذي انبجست منه في أدمغة النبييم ومؤلفي المزامير وصانعي الأسطوريات المنهوبة في سائر أسفار العهد القديم تلك الرؤى التي دارت حول تهوم، لوتان، لفياتان. ومما يرجح ذلك وصف حزقيال لفرعون مصر بأنه التنين العظيم، التمساح الكبير الرابض وسط أنهاره (حزقيال ٣:٢٩ و٤) ووصف يهوه لـ"لوياثان" في سفر أيوب وتباهيه بأنه الوحيد الذي يستطيع التصدي له، وحديثه عن "مصراعيّ فمه"، و"دائرة أسنانه المرعبة" و"دروعه المانعة المحكمة المضغوطة بعضها الى بعض كأنما بخاتم حتى إن الريح لا تجد منفذا بينها" (أيوب ١٢:٤١-١٧).

وبالمثل، يبدو أن فرس النهر (الذي يدعوه المصريون "السيد قشده" حتى الآن) والذي كان حيوانا مقدسا هو الآخر في مصر لارتباطه بالنيل، كان هو الأصل الذي حولته الأمانيتا موسكاريا الى بهموث، وحوله التعصب الى الأغيار، الجوييم كما يوقفنا التلمظ الى لحم "الأمم" والظمأ الى دمائها في أسفار النبييم وبخاصة إشعياء وحزقيال.

في كل ذلك الذي عانى منه المترجمون، لا يلام الا بعل ووليمته التي أقامها وقدم فيها لضيوفه لحوم الحيوانات الخرافية التي ناصبته العداء والتي انتصر عليها (جعلها ضحايا حيوانية على مذبح ألوهته).

تلك الوليمة رُفعت من الصلوات والترانيم والحكايات التي كشفت عنها نصوص أوغاريت عندما ظهرت الى الضوء في الربع الأول من القرن العشرين، فجُعلت- في أسطورية يهوه- كما يقول باتاي، "الوليمة الواعدة بالملذات التي تنتظر مفديي يهوه في جنة عدن في آخر الزمان". وإن كان مؤلّفو سفر الخروج جعلوا في صعود أشراف اسرائيل السبعين ليأكلوا ويشربوا في حضرة يهوه على قمة جبله المقدس كما صعد أبناء عشيرة وبناتها السبعون ليأكلوا ويشربوا مع بعل احتفالاً بانتصاره وبناء قصره على قمة جبل صفون، فإن الأسطورية المسيحانية جعلت وليمة بعل هذه الوليمة العظمى التي سيقيمها يهوه لـ"صفوة العالم"، شيوخ (قادة) شعبه المقدسين بعد الانتصار النهائي للمسيح المنتظر وقيام حكم صهيون على كل الأرض، والتي سيصب يهوه خلالها بيده الخمر في أقداح مفدييه بل وسيرقص لهم وهو يلقنهم التوراة الجديدة، أي "الشريعة" التي ستخرج الى كل العالم من صهيون.(٣٠)

وكما استنسخت ليهوه احتفالات بعل ومأدبته، اختُلس من أسطورية بعل أيضا كوثار حاسيس، الصانع السماوي (الذي نجد قرناء له في الميثولوجيات اللاحقة، كهايفستوس اليوناني وفولكان الروماني) والذي اخترع لبعل وصنع له أسلحته التي انتصر بها في المعركة الكونية مع يَمّ نهر على ملوكية المياه وأكمل انتصاره بها بقتله لوتان التنين، وبنى لبعل بعد ذلك الانتصار "قصره" السماوي من السحاب واللازورد والذهب على قمة جبل صفون، كما صنع له عدّته الشعائرية. فكوثار حاسيس حُوِّل في التوراة الى "بصلئيل بن أورى بن حور "الذي نسب الى سبط يهوذا" الملكي "بصرف النظر عن اسم "حور" المصري الذي يرجّح أنه كان من طغمة موسى اللاوية:

> "وكلم يهوه موسى قائلا انظر. إني قد دعوت بصلئيل بن أورى بن حور من سبط يهوذا باسمه. (أي قد "أسميته" = "عينته") وملأته من روحي بالحكمة والفهم والمعرفة (وكلها مسميات مصرية لما نعرفه الآن باسم "النبوغ") وكل صنعة لاختراع مخترعات (تصنع من) الذهب والفضة والنحاس ونقش الحجارة (الكريمة) للترصيع، ونجارة الخشب، ليعمل في كل صنعة.. وجعلت معه أهولياب من سبط دان وفي قلب كل حكيم القلب (هذا التعبير المصري ثانية، من حيث أن مركز "الفهم" أي الذكاء، عند المصريين، كان القلب) جعلت حكمة ليصنعوا كل ما أمرتك: خيمة الاجتماع، وتابوت

الشهادة، والغطاء الذي على التابوت، وكل آنية الخيمة (العدة الشعائرية)، والمائدة وآنيتها، والمينورا الطاهرة وكل آنيتها، ومذبح البخور، ومذبح الحرقة وكل آنيته، والمرحضة وقاعدتها، والثياب المنسوجة (ثياب الكتان ككهنة مصر) والثياب المقدسة لهرون الكاهن (كأردية كبار الكهنة المصريين) وثياب بَنِيه للكهانة، ودهن المسحة، والبخور العطر لقدس الأقداس. حسب كل ما أمرتك به (حسب كل التصميمات والوصفات التي أعطيتك إياها) يصنعون" (خروج ٣١:١-١١).

والواضح أن المحرر، عند مراجعة النص، وجد أن تلك المهام أضخم من أن يقوم بها شخص واحد، حتى إن كان بصلئيل المبارك وحتى ان ساعده أهوليآب، فأضاف الى النص "كل حكيم القلب" وجعل يهوه يمنحه حكمة، لمساعدة بصلئيل. وقد كان ذلك طبيعياً. فالأصل الذي اختلس منه بصلئيل (كوثار حاسيس) كان صانعاً سماوياً، أي "إلها صانعاً"، في حين كان بصلئيل كائناً بشرياً. لأن يهوه لم يكن على استعداد لتقبل أي مساعدة من أي "إله أجنبي أو دخيل" أو من أية قوة أخرى وهو "الشدّاي" الإله القادر على كل شيء.

غير أن ذلك الإله القادر على كل شيء كان مدقع الفقر دينيا وأسطورياً وشعائرياً، وكان إملاقه ذاك سبباً في كل أنواع السطو التي مورست بلا انقطاع منذ عثر عليه موسى لدى المديانيين. وفي ذلك السطو، كما وجدنا في حالة اختلاس كوثار حاسيس وتحويله الى "بصلئيل"، كان المكون الأسطوري يُختلس من أي مصدر يقع عليه مخلّقو يهوه، ثم يضفى عليه الاحترام باضافات مصرية. وهو ما حدث على نطاق أوسع وأهم في حالة "قصر" يهوه.

في عبادات الشرق الأدنى القديم، تواكب باستمرار مع إصعاد أي معبود الى مكانة عليا في التسلسل الهرمي للآلهة والإلاهات إنشاء "قصره" السماوي، ثم تشييد ظله الأرضي، أي معبده، كما في حالة إنكي السومري. ومثلما توّج ذلك الإله وأنشئ قصره العلوي ومعبده الأرضي، توّج مردوخ وأنشئ قصره ثم شيد معبده الأرضي، إثر حلوله محل إنكي بأسطورة "عندما في العلى"، وهو ما تكرر في حالة أشور عندما اغتصب الأشوريون له مكانة مردوخ وأسطوريته، كما توقفنا الكشوف الآثارية في موقع أشور القديمة وهي الكشوف التي أخرجت إلى ضوء النهار أسطورة الخلق الأكدية في نسختها الأشورية، فوفرت نموذجاً دقيقاً لتلك العملية من عمليات الحلول، أي عملية اتخاذ الإله من الآلهة مكانة وألقاب وخصائص وقدرات وبطولات إله آخر أقدم في سياق مسيرة البحث عن الألوهة من خلال الإبداع الشعري الأسطوري لإنسان الشرق الأدنى القديم، وهو بحث

يوقفنا تاريخه على أنه سار دائما يداً بيد مع العوامل السياسية ودواعي شغلة الحكم والشهوات الإقليمية.

ففي حالة مردوخ، النسخة البابلية الأولى من الأصل السومري، كان إعلاؤه الصدى الإلهي لصعود أسرة بابل الأولى التي كان حمورابي أشهر ملوكها، وفي الوقت ذاته، كان تكريساً مجدداً، أوضح بكثير من أصله السومري، للحلول الباترياركي محل الإلاهة الأم العظمى (تيامات، تعامة، في الأسطورة البابلية) بقتلها والتمثيل بجثتها والاستيلاء على "ألواح القدر" ("لوحي شريعة" يهوه)، أي على التجسد الأسطوري للسلطة الإلهية العليا. فسومرياً، ولكن بغير العنف الذي اتسمت به أسطورية مردوخ، كان إنكي قد صعد الى قمة البانثيون السومري بأخذه قُدرَة المياه من أمه الإلاهة نامو، التي كانت- هي الأخرى- كتعامة، تنينة الغمر العظيم، وبذلك أصبح إنكي الإله الملك وحل محل الإلاهة. غير أنه لجأ الى ضرب إلهي من الديبلوماسية الرفيعة في تحضّرها في مهادنة الألوهة المؤنثة ممثلّة في شخص إينانا (عشتار الأكدية) بما ظل ينعم به عليها من قدرات واختصاصات دُعيت بفضلها، في آخر الأمر، بـ"ملكة السموات":

"بحق اسم قدرتي، بحق اسم قدرتي
الى إينانا النقية أعطي السيادة،
أعطي الألوهية، وأعطي التاج الرفيع الباقي،
وعرش الملك، والصولجان السامي،
أعطي الملوكية، والهيكل المعلّى، وأجعلها الراعية"(٣١)

في تعليقه على ترجمته للنص السومري لهذه المراسيم الملكية الإلهية، يقول كريمر(٣٢) اننا متى ذكّرنا أنفسنا بأن هذه أسطورة سجلت حوالي سنة ٢٠٠٠ق.م. عقائد ومفاهيم كانت شائعة من قبل ذلك بقرون عديدة، لا نجد أدنى مبالغة في القول بأنه، خلا الحضارة المصرية، لم توجد حضارة يمكن أن تقارن- من حيث السمو والقدم- بالحضارة التي أبدعها السومريون.

ولهذا دعونا الحلول الباترياركي للألوهة المذكّرة محل الألوهة المؤنثة، في ديانتي مصر وسومر، بالتحول الباترياركي. وقد كان بالفعل تحوّلاً سلسلاً متحضّراً لم يتسم بالعنف الإلهي الذي جعل من الحلول، في الديانة البابلية (الأكدّية والأشورية) وفي ديانة يهوه، انقلاباً شرساً.(*)

قبل أن يذهب مردوخ لمقاتلة تيامات، يعقد الآلهة اجتماعاً يقولون في نهايته لذلك الإله، البطل السماوي:

"لقد أعطيناك المُلك، ومنحناك السلطة على كل الأشياء
فخذ مكانك في مجلس الآلهة، ولتسُد كلمتك

(*) ارجع الى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص٣٣٧ و٤٥١.

وليُسد سلاحك فيقضي على كل أعدائك
من اليوم ستصبح واهب البقاء لكل إله يضع ثقته فيك
أما من سار في طريق الشر فتهدَر حياته."

واذ تقرر ذلك، تعطي الآلهة العرش والصولجان لمردوخ، وتضع على كتفيه عباءة المُلك، وتسلِّحه ليخوض غمار الصراع المقبل. والذي ينبغي أن نلاحظه هنا أن الأسلحة التي تسلّح بها مردوخ هي تلك التي يحتكم فيها من يحتكم في قوى الجو، قوى الرعد والعاصفة: فسلاحه الأكبر قوس قزح الذي يطلق منه سهام البرق، وشبكة عظيمة تمسك بأطرافها الرياح الأربع، وبطبيعة الحال، صولجانه الذي يطلق الطوفان من عقاله. أما مركبته الحربية فالاعصار الذي لا يقف في وجهه شيء".(*)

وصولجانه الذي يدفق الطوفان ذاك، قضيبه، وبه، اذ يحقق له انتصاره ويهشم رأس تعامة، يتوّج إلهاً ملكاً، ويقتفي خطى إنكي، فيبني قصره السماوي، "إيشارا"، ويجعل بقية الآلهة شبه بلاط له (="جند السموات" في أسطورية يهوه). وذلك عين ما حدث لأشور عندما استنسخت له أسطورية مردوخ وأحل فيها اسمه محلّ اسم سلفه الأكدي: يعلى، ويتوّج إلهاً ملكاً، ويشيّد قصره، مقتفياً- بدوره- خطى الإله الذي اغتصب أسطوريته.

أما في حالة بعل، فاننا- وإن كنا لا نجد تحددا واضحا لعملية التتويج لاستمرار الأب إيل في وضع "العليون" رئيس مجمع الآلهة، "الكيدوشيم"، حتى بعد انتزاع بعل قدرة المياه منه بانتصاره على يَمّ نهر (ابن إيل المفضل)- نجد عمليتي الإعلاء وبناء القصر بالغتي الوضوح. ففي أعقاب انتصاره، يبعث بعل بأخته عانات، التي باتت زوجته، الى الأب إيل، طالبا منه الاذن ببناء قصره "أسوة بكل الآلهة العظام" على قمة جبل صفون. وفي مبدأ الأمر، لا يتحمس إيل كثيرا للفكرة، بل ولا يبدي أدنى رغبة في الاستجابة لهذا الطلب، أولا لحزنه على فقدان "يَمّ نهر"، أي قدرة المياه أو ملوكية المياه، وهو الإله "الواضع عرشه في المكان القصي، عند منابع الأنهار"، وثانياً لفقدان ابنته/زوجته عانات التي "خرجت من تحته" (كما ظلت حبيبة يهوه ابنته، اسرائيل، "تخرج من تحته" لـ"تزني" مع غيره من الآلهة المنافسين، وبالذات مع "بعل") وباتت زوجة بعل، وثالثاً لتوجسه (كرجل دولة، إله/ملك أعلى) من طموح ابنه المقتحم بعل الذي لم يكتف باغتصاب ملوكية المياه من الأب إيل، فاغتصب عانات/رحماية من ذلك الأب وجعلها زوجته (أي مكوِّنه الأنثوي). ولهذا، لا تجدي مفاتحات عانات رغم خوف إيل من حدة طبعها واستعدادها الدائم للاندفاع الى العنف، لكن عانات توسط عشيرة لدى إيل، فيعطي في النهاية موافقته على مضض.

على خطى بعل وأسلافه السومريين والبابليين، سار يهوه. ولم يكن ذلك- في حالته- مستعصياً، رغم كل مكابرات النبييم. فوشائج الرحم كانت قوية في مكوِّنه السومري/ البابلي المكنعن. لأن إنكي السومري كان الأب الذي أنجب "إيشكور" الذي

(*) "قراءة سياسية للتوراة"، ص١٥٩.

عبده الساميون باسم أدد/حداد/شداد، وعبده الحثيون باسمه السومري، كما عبده الحوريون. وقد كان الحيوان المقدس له- كبعل صفون، وبعل يهوه- الثور الذي رُمِّز به كما رُمِّز "بعل، ثور يعقوب". وكان سلاحه- وهو إله عواصف- البرق، السهام النارية، وكان يتجلى في العواصف الرعدية ويقذف منيه على الأرض مطراً. وكانت مركبته كائنين سماويين مجنحين ("كروبيم"يهوه")، والسحاب، والإعصار، أو مركبة حربية تجرها الثيران التي تزفر اللهب. وقد دعي بـ"ملك السماء" وكان باستمرار نصيراً للملك البشري في زمن الحرب وأوقات الشدائد.

إيشكور هذا، ابن إنكي عُبد بابلياً، وفي سوريا عندما وفد اليها من بابل، باسم أدد/حداد كإله رياح وأعاصير ورعد ومطر، وأُسمي، كما أُسمي سومرياً، بـ"آمر سدود السماء" وبـ"سيد الوفرة". الا أنه عُرفت عنه سرعة الغضب، والاستعداد- متى غضب- لمنع المطر والتسبب في الجفاف والقحط والمجاعة. وكان رمزه، هو الآخر، الثور، و"شعاره الملكي" حزمة من البرق. وقد عُرف أيضا باسم المُرعد، وفي الترانيم البابلية وُصِف (كما وصف يهوه في سفر المزامير) بأنه الإله الذي تزلزل الأرض قدامه (مزمور ١٠٤:٧)، و"تذوب الجبال مثل الشمع" متى أرعد (مزمور ٩٧:٥)، وهو الذي أشار اليه سفر زكريا ١١:١٢). فوشائج الرحم كانت- كما نرى- قوية للغاية بين معبودات الشرق الأدنى القديم التي توالدت (أو استولدت) من بعضها البعض، في معظم الأمر، على اختلاف أسمائها. ولهذا وُصِف حداد، مثلا، بابلياً، بأنه " مردوخ عندما يمطر".

(١١/أ) يهوه يرقص لـ"مفدييه" في مأدبته

ولهذا، بصرف النظر عن كل ادعاءات الاستفظاع من جانب النبييم، وهي الادعاءات التي تجد آذاناً صاغية في زماننا، إن لم يكن بفعل بعد الشقة زمنياً بين عصرنا وبين العالم القديم، فبفعل التطهرية المفتعلة التي زج بها كهنة عصر السبي بحكاياتهم عن "السقوط" و"العري" و"الطرد من الجنة" وروَّج لها مسيحياً الخطيئون الأصليون، أي من ادّعوا الطهارة تحت مظلة "الخطيئة الأصلية"- نجد أن الربانيين اليهود، حتى بعد "تنقية النصوص" في زمن السبي بيد "المحرر" عزرا ومن تعاونوا معه من الكهنة اللاويين، أكدوا في تعليمهم لليهود أن يهوه رقص لمفدييه في الحفل الذي أقامه لهم وأولم لهم فيه الوليمة المسيحانية الكبرى. وقد كان الذي رقص أصلاً بعل صفون في الحفل الذي أقامه احتفالاً بانتصاره وصعوده وبناء قصره على قمة جبل صفون (=جبل صهيون يهوه).(*) والربانيون

(*) في كتابهما الهام، المرجع السابق الاشارة اليه "الأساطير العبرانية"، يقول روبرت جريفز ورافائيل باتاي، أن "جنة آدم الأرضية، الفردوس، جنة عدن، قال البعض أن مكانها كان "جبل الرب"، أي جبل صفون" (ص٧٣).

اليهود عندما علموا بذلك كانوا متصفين بواقعية دينية تُحمد لهم في الواقع، ان لم يكن لشيء فلأن النصوص- عندما حررت- قد تكون الرقابة الكهنوتية رفعت منها حكاية رقص يهوه، لكنها، تلك النصوص "المقدسة" (أي التي لا يصح تكذيبها ولا تجوز مناقضتها) كشفت عن أن ذلك الرقص كان هناك فعلاً. فالمحرر الذي رفع الحكي عن رقص يهوه لمفدييه فاته أن يرفع في نفس الوقت من سفر صموئيل الثاني النص الذي يوقفنا على أنه عندما أصعد داود تابوت يهوه الى مدينة داود، كان الملك داود "يرقص أمام الرب بكل قوته، وكان وهو يرقص متمنطقا بأفود من الكتان" (صموئيل الثاني ٦:١٤) أي أنه كان، كما يبين تمنطقه بالأفود الكتاني (جبة الكاهن)، يرقص بوصف الرقص من الشعائر الدينية أمام يهوه. وعندما أطلت ميكال، ابنة شاول، من الكوة، ورأت الملك يرقص ويطفر (يتواثب) أمام يهوه فاحتقرته في قلبها (صموئيل الثاني ٦:١٦)، ثم سفهته (صموئيل الثاني ٦:٢٠)، عاقبها يهوه بأن "أقفل رحمها"، فلم يكن لها ولد الى يوم موتها (صموئيل الثاني ٦:٢٣).(*)

ونحن، عندما نقرأ هذا "التاريخ" كما قرأته أجيال وأجيال قبلنا وسوف تقرأه أجيال بعدنا، باللغة التوراتية المفخّمة، وتنفجر في أدمغتنا القنابل اللغوية التي لا تحصى المدفونة في رماله المتحركة فتدير رؤوسنا بتشاعرها وصلاحها وتقواها، أو نسمع كل ذلك وأصوات من يقرأونه علينا ترتعش وتصل الى أسماعنا مضخّمة كأنما من استوديو الايكو (الصدى) الإذاعي، نميل بطبيعة الحال الى أن نستبعد مثل هذه القراءة لتاريخ وضيء كهذا، إن لم نستفظعها.

غير أن القراءة، سواء استفظعناها أو أعطينا عقولنا فرصة الطفو الى السطح والتنفس، توقفنا- من واقع النصوص وما هو مطمور فيها- على أن يهوه أُصعد نعم، وجُعل محتجباً وسماوياً وكل ذلك، الا أنه- في حقيقة الأمر- لم يكن هو الذي أُصعد، بل أُصعد من خلّق هو ليكون إلههم. فيهوه، في حد ذاته، في المُعمار الشاسع المموّه الذي أقامته أجيال وراء أجيال من الكهنة المقتبسين والمؤلفين والمحررين، لم يَعْدُ- في خاتمة

ويعودان فيقولان أن "جبل الله، الذي أقام بنو إيلوهيم الأتقياء من سلالة ست بن آدم عنده بالقرب من كهف الكنز عند أبواب الجنة لابد أنه كان جبل إيل المقدس، جبل صفون، لا جبل حرمون" (ص١٠٥).

Robert Graves & Raphael Patai: "Hebrew Myths", Anchor, Doubleday, 1989.

(*) وغضب يهوه على ميكال ابنة شاول لأنها احتقرت داود لا يُفهَم الا بأن رقص ذلك "الملك" عاريا وليس على جسده الا الأفود الذي تمنطق به كان رقصا شعائريا مقبولا من يهوه.

ومما يرجّح ذلك الفهم أن تلك العادة تلبثت عند أحبار اليهود وقادتهم في احتفالات اليوم الأخير من العيد السنوي احتفالا بتتويج يهوه ملكا (عيد المظالّ). فيوهان بكستورف عميد الباحثين التوراتيين، يخبرنا أن أعضاء السنهدرين (المجلس الديني الأعلى)، وكبار الكهنة والقادة والرؤساء والمبرزين في الحياة العامة دأبوا في ذلك الاحتفال على المشاركة في الغناء والانشاد، والرقص والتواثب وبأيديهم المشاعل حتى ساعة متأخرة من الليل.

Buxtorf, Johann (1564-1629): "Synagoga Judaica" (Basle, 1641) cap.21.

المطاف- كونه بيدقاً دينياً في لعبة شطرنج ظل أولئك الكهنة يلعبونها منذ وضع موسى قواعدها ورسم استراتيجيتها ووضب تكتيكاتها، جائزتها مُلك العالم بأسره. ففي المعمار الروائي الذي مازال هناك من يجد بوسعه أن يسميه بـ"الأسفار المقدسة"، ظل يهوه شخصية روائية مفيدة نعم في تحريك الحدث والنطق بأسطر الحوار، لكنها شخصية ثانوية بجانب "البطل" الحقيقي للعمل الروائي، وهو "الشعب"، أو كما بات يعرف الآن، "اليهود".

حقيقة أن الزخم الدعائي الاعلائي لتوجّه النبييم ومؤلفي الأسفار ومحرريها (والآن مترجميها) يندفق من صفحات أسفار التوراة وسائر أسفار العهد القديم كما هي بين أيدي من يقرأونها، شبه موجه مد عاتية من التألّه وادعاء الطيبة والصلاح والنورانية. غير أن الحقيقة- كما تكشفت ومازالت تتكشف بفضل الحفائر الآثارية، وكما أشرنا قبلا، بفضل حفر من نوع آخر، أفعل وأخطر، في تربة "الأسفار المقدسة" يقوم به النقد التوراتي- الحقيقة المتكشفة هذه توقفنا- ببراهين متعاظمة لا يمارى فيها إلا بضبابيات إيمانية- على أن ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة، تاريخية كانت أو دينية.

ولا حاجة بالنقد التوراتي الى الذهاب بعيداً عن النصوص ذاتها، التي مازالت تربتها عامرة- تحت طبقات الردم التي أهيلت بأيدي المحررين و"المترجمين"- بالآثار التي تقود، متى أخرجت ونفض عنها تراب الردم، الى صندوق كنز الحقيقة. وجنباً الى جنب مع النصوص، يجد النقد مكاشفات الربانيين التي لا تحصى، ومنها، كأمثلة قليلة موجزة فقط من كم رباني هائل بحق:

في التلمود البابلي، يخبرنا الرباني يوحانان أن يهوه: (١) في الأيام الآتية (آخر الزمان في رؤيا يوحنا اللاهوتي) سوف يولم وليمة لمفدييه يطعمهم فيها لحم لوياثان، وبعد أن يأكلوا ويشبعوا سوف يقتسمون ما يفيض من اللحم ويأخذونه معهم ليبيعوه في أسواق أورشليم، و(٢) في تلك الأيام الآتية، بعد أن يسلخ جلد التنين العظيم ليقدم لحمه للمفديين، سوف يصنع من جلده ظلة، "خيمة"، للأتقياء ويستخدم بقية الجلد ليكسو به أسوار أورشليم. ولما كان جلد التنين مشعّاً، فان اشعاعه سيجعل بهاء أسوار أورشليم يصل من أقصى الأرض الى أقصاها.

وفي المدراشين (اللذين وضعا في القرن الثاني عشر الميلادي تفسيرا لسفر العدد من أسفار التوراة) نجد أن يهوه، في الأيام الآتية، سوف يقيم مأدبة كبرى يولم فيها وليمة لمفدييه في جنة عدن التي طرد منها آدم وحواء لأنهما اكتشفا الجنس، وأن المفديين، بني اسرائيل، سيجدون يهوه متباعداً (كما قال بعد طرد آدم وحواء من الجنة واكتشافه أن بني الآلهة (بني إيلوهيم) كانوا يضاجعون بنات البشر: "لا يدين روحي في الإنسان الى الأبد لزيغانه (و) هو بشر" (تكوين ٦:٣)، ولذلك سيقولون له: "أي مضيف ذاك الذي يولم وليمة ولا يجلس مع مدعويه الى المائدة؟"، واذ ذاك سيقول لهم يهوه: "انظروا. سأفعل كما تشاؤون".. "وفي تلك الساعة، سيأتي الواحد القدوس تبارك ليجالسهم في جنة عدن.

ولأنهم تمرروت نفوسهم بمرارة السبي، ولأنهم تعطروا بعبق الاسم السماوي (=قول المصليِّ السومريّ للإله "يا مليكي، سوف أردد اسمك، وسوف أردد اسمك، فتحلّ النعمة عليّ")، فان الواحد القدوس تبارك سوف يكثر لهم من الأطباق الشهية في مأدبته وسوف يحرق أمامهم كل أنواع البخور (يتعبد أمامهم). ولأنهم عروا أرواحهم حتى الموت إبان السبي، وانشغلوا بالتوراة باعتبارها أحلى من العسل (من عسل "الأرض التي تفيض لبنا وعسلا"، كنعان)، فان يهوه سيقدم لهم نبيذا ظل معتقا في كرومه منذ أيام الخلق الستة وسوف يتيح لهم الاستحمام في غدران اللبن" (تعويضا لهم عما فاتهم إبان السبي من لبن أرض اللبن والعسل).

وفي نص بالعبرية من النص الأصلي لـ"شعر الأشعار"، نشيد الأنشاد، رُفع عند الترجمة، نجد يهوه قائما بدور الراقص الرئيسي بتتويجه ملكاً، فهو "كالعريس في يوم عرسه وفي يوم فرح قلبه" (٣:١١). والعريس، في غمرة فرحه، يرقص لمدعويه مثلما رقص بعل في الوليمة الأصلية التي أولمها احتفالاً بانتصاره وبناء قصره وأخذه أخته عانات عروساً له. ونتيجة لذلك الانتصار الذي أُخذ من أسطورية بعل وأُسقط علىآخر الزمان عندما يبيد المسيح المحارب كل من كان غير شعب يهوه ويعلي عرش صهيون على كل الأرض، ستقيم اسرائيل، عروس يهوه، في أمن طوال ألفين من السنين ويأكل المفديون لحم بهموث ولوياثان والزيز. فمذبحة الأمم ستكون ذبحاً لبهموث. أما لوياثان فسيقتله يهوه كما قتل بعل لوتان، وأما الزيز فسوف يأتي موسى ويقتله، كما يوقفنا الرباني شمعون بن يحيى في كتاب "الأسرار" المتضمن في المدراش.

وفي "بركة المسيح"، بنفس المصدر، نلتقي بيهوه وهو آخذ في اعداد الموائد ليقدم لمفدييه لحومٍ بهموث، ولوياثان، والزيز، ونجده - كأي مضيف عارف بأصول البروتوكول- آخذاً في اجلاس مدعويه حسب مقام كل منهم ومكانته، ثم نجده سائلاً إياهم بعد أن أجلسهم: "ماذا تشربون؟ نبيذ التفاح، أم نبيذ الرمان، أم نبيذ الكروم؟"، واذ يسألهم الواحد القدوس تبارك هذا السؤال، يجيبونه قائلين: "سنشرب ما تختاره لنا أنت"، ويحضر لهم النبيذ المعتق في كرومه منذ أيام الخلق الستة، واستجابة لرغبة مفدييه، يترك عرش المجد ويجلس معهم، فيراه كل واحد منهم ويعاين مجده ويشير كل واحد منهم باصبعه عليه قائلا "هذا هو الله. هذا إلهنا الى أبد الآبدين"، ثم يأكلون ويشربون ويمرحون. وفي تلك الساعة، يرفع الواحد القدوس تبارك تاجه من فوق رأسه ويتوّج به داود ثم يتوج به المسيح بن داود ويتغنى بمناقبهما ويحمد لهما تقواهما واعداً بأن اسرائيل ستعيش في أمن وسلامة ويصنع ظِلّه لكل تقي من شعبه ويصنع له مسكناً حسب مقامه ومكانته بين "الشعب"، ثم يسير مع مدعويه في حديقة القصر (الجنة) وهو يلوح بيديه ويصفق طرباً.

في "الزهار" (كتاب السناء)، عندما يسأل الرباني ألعازر عن حقيقة الأمر في شأن هذه الوليمة الكبرى التي سيعدّ يهوه فيها الموائد بيده ويصب الخمر لمدعويه في أقداح من الذهب مرصعة بالجواهر واللآلئ، ويطعمهم كل ما في حديقة قصره من أطعمة شهية

مترفة، واضعاً في خدمة كل منهم ثلاثاً من ملائكته، ويرقص لهم رقصا متقناً لا عيب فيه، يقوم وهو يؤديه بدور الراقص الرئيسي بين فرقة صغيرة من الأتقياء الصالحين، ويسير معهم ويجاذبهم أطراف الحديث مصفقاً بيديه جذلاً، يحيل الرباني ألعاز سائله الى ما هو مكتوب في التوراة: " ورأى (أشراف اسرائيل السبعون) يهوه إله اسرائيل وأكلوا (في حضرته) وشربوا ولم يمد إليهم يدا (بأذى)" (خروج ٢٤:١١).

فكل ذلك الحكي الذي يتخاذل أمامه العقل، وقد سُرق من بعل ومأدبته التي حضرها أبناء عشيرة السبعون على قمة جبل صفون واستمتعوا بلحوم الهولات التي قاتلها مضيفهم وبلحم التنين لوتان، تمثل إسهام ورثة موسى اللاويين عند استنساخهم اياه في جعله مشرباً بذلك الضرب الفريد من جنون العظمة الذي ابتلى به موسى الأشتات المطرودة التي أُطلق عليها تشاعراً اسم "الشعب" وجعله مؤسسيا في الديانة والذي تردد بقوة في استعارة ورثته اللاويين في كنعان لأبناء عشيرة وتحويلهم الى "أشراف اسرائيل" وإصعادهم الى قمة الجبل ليأكلوا ويشربوا في حضرة يهوه، رغم قول يهوه في موضع آخر من سفر الخروج أن كل من رأى وجهه يموت، كما تردد في تأكيد إشعياء الفريد بحق أن "كرم رب الجنود هو بيت اسرائيل وغرس لذته رجال يهوذا" (٥:٧).

وما علينا، إن استغربنا أو استفظعنا شيئاً من كل هذا، إلا أن نتذكر أن نبييم يهوه كانوا لا "يتنبأون" ولا يرون الرؤى الا وهم": (١) في حالة هذيان، تحت تأثير عقار الهلوسة، و(٢) وهم يتطوحون على إيقاع الموسيقى.(*)

فالتطوح والرقص والدروشة كانت كلها مؤسسية في ممارسات الديانة الطقسية والشعائرية ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتواصل مع المعبود. وهكذا نجد أن صموئيل، بعد أن يمسح شاول ملكاً، يوجهه هذا التوجيه:

> "ويكون عند مجيئك الى جبعة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبأون، فيحل عليك روح يهوه فتتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر (تصبح مقدسا)"
>
> (صموئيل الأول ١٠:٥ و٦)

ونجد أيضا أنه عندما يذهب "ملك اسرائيل" الى أليشع بن شافاط تلميذ إيليا لـ"يسأل يهوه" عن طريقه، يكون الطلب الذي يطلبه أليشع كيما يستطيع التنبؤ:

(*) ارجع في ذلك الى "قراءة سياسية للتوراة"، تحت بنود: انجذاب، دروشة، الفطر المقدس، عقار الهلوسة، موسيقي، من الفهرس الأبجدي.

والى "السحر في التوراة والعهد القديم"، تحت بنود: النبييم، التدروش، التخدير الذاتي الروحاني، الهذيان المقدس، تحت تأثير الفطر المقدس، عقار الهلوسة، من الفهرس الأبجدي.

"والآن فأتوني بعواد. ولما ضرب العواد بالعود كانت
على أليشع يد يهوه (حل عليه روح يهوه) فتكلم وقال
هكذا قال الرب" (الملوك الثاني ٣:١٢ و١٥ و١٦).

وفي سفر المزامير نجد وفرة من النصوص الصريحة التي تربط ما بين يهوه وبين الرقص والموسيقى والغناء، منها على سبيل المثال:

"سبّحوه بصوت الصور. سبحوه برباب وعود.
سبحوه بدف ورقص. سبحوه بأوتار ومزمار".
(مزمور ١٥٠:٣ و٤)

و"ليبتهج بنو صهيون بملكهم. ليسبحوا اسمه برقص".
(مزمور ١٤٩:٢ و٣)

ولقد لعبت الموسيقى كما لعب الرقص الشعائري دوراً هاماً في مختلف الديانات قديمها وحديثها. وفي ديانتي مصر وسومر كانت لهما مكانة هامة معبدية. غير أن الرقص كان طقساً يؤديه الكهنة الذكور والإناث ويشارك فيه العباد، أما الإله فلم يكن يرقص أو يغني. وحتى بعل الكنعاني عندما أقام حفل تنصيبه على قمة جبل صفون، لم يرقص للبشر على الرغم من أن شعائر العبادة الكنعانية (والسومرية والبابلية) ضمت بجانب الموسيقى والرقص شرب الخمر والاتصال الجنسي.

أما عِبادة يهوه، فرقص فيها يهوه لـ"مفدييه"، أي "شعبه" الذي افتداه، بل وقام بدور الساقي، فصب لـ"مفدييه" الخمر في أقداح قصره السماوي المصنوعة من ذهب والمطعّمة بالجواهر واللآلئ. وفي تعليقه على كل ذلك في كتابه "النصوص المسيحانية"، لم يجد باحث جاد كالأستاذ باتاي ما يقوله الا أن الحكاية كلها نجمت عن "خفة ظل" من وضعوها كفانتازي متصف بالهيومر!(٣٣). غير أنه، مع كل الاحترام الواجب لجدية الباحث وعلمه، لم تكن المسألة مسألة "خفة ظل" أو فانتازي أو هيومر، ولم تكن، كما حاول بعض الربّانيين القول، مسألة كناية ورمز عن الصلاح والطيبة وجزاء الأتقياء، بل كانت- وظلت- كما يوقفنا كتاب الأستاذ باتاي ذاته، جداً مميتاً في السياق المسيحاني الذي كان، من مبدأ الأمر، سياقاً لا مهرب منه للديانة.

- - - - -

(١٣) بناء قصر الملك يهوه

ان اتصفت "الأسفار المقدسة" بخاصية ثابتة راسخة تفوق كل ما عداها، فهي خاصية المراوغة والإتاهة المتعمدة بوصفها "طريقة حياة" مقدسة، ولكونها "مقدسة" فهي مشروعة.

تلك الخاصية الزئبقية هي في الواقع ما يجعل هذا النوع من البحث، من النبش في تربة النصوص، على ما فيه من ضنى، ممتعاً ومجزياً. فهو ممتع لأنه استقصاء، لأنه ضرب من الانتصار للعقل على اللاعقل. وهو مجز لأنه مفضٍ– في النهاية– الى الكنز المرصود، الى صندوق تحوت الذهبي الذي أُغرق في قاع النيل وكُلِّفت بحراسته حية متحوية لا تقتل ولا تموت،(*) الى الحقيقة، متى اعتبرنا الحقيقة– كما اعتبرها المصريون قديماً وألّهوها في شخص معات– أثمن ما في الوجود.

من أمضى حيل المراوغة والإتاهة المتكررة الممعنة في البراعة التي استخدمت في رتق أي خرق كاشف عن أي خيط أو بصيص ضوء يمكن أن يقود إلى الحقيقة في نصوص "الأسفار المقدسة"، حيلة التواثب بعباءة الصلاح والتقوى والطيبة والورع.

ولنأخذ مثلا وليمة يهوه المسيحانية. في مدراش هـ نعيلام بـ"الزهار"(٣٤) (كتاب السناء) أو التوراة القبّالية، لجأ القبّاليون الى تلك الحيلة في سياق حوار خفيف الظل بين الربانيين:

الربّاني يهودا بن شالوم– عُلِّمنا أن الواحد القدوس تبارك سوف يقيم في آخر الأيام وليمة للصالحين. فكيف ستكون تلك الوليمة؟

الرباني حيّا– ما أدراني أنا كيف ستكون؟ أنا لم أقف أمام الملائكة المباركين بعد لأسألهم.

الربّاني ألعازر– ستكون كما هو مكتوب في التوراة، بسفر الخروج: سيصعدون (أشراف اسرائيل) ويرون يهوه ويأكلون ويشربون في حضرته ولا يلحقهم ضر. هذا هو ما عُلِّمنا. وهذا هو ما سوف يكون. عُلِّمنا في موضع أنهم أمتعوا. وعُلِّمنا في موضع آخر أنهم أُطعِموا. فما الفرق بين أمتعوا وأُطعِموا؟ الفرق هو هذا: الصالحون الذين لا يتفوّقون على من عداهم بصلاح عظيم سوف يمتّعون بمعاينة السناء لكنهم لن يبلغونه تماماً أو يفهمونه تماما. في حين أن الصالحين الذين يتصفون بالمرتبة القصوى من الصلاح سوف يُطعمون الى أن يبلغوا مستوى الفهم. وهكذا فان الأكل والشرب المذكورين لا يعنيان أي شيء خلا ذلك. فتلك هي الوليمة وذلك هو الأكل والشرب فيها. وكيف نعرف ذلك؟ نعرفه من خلال موسى لأنه مكتوب أن موسى دخل في وسط السحاب وصعد الى الجبل وكان في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة، ولم يأكل ولم يشرب. فما معنى أنه لم يأكل ولم يشرب؟

(*) ارجع الى "السحر في التوراة والعهد القديم" ص ص٢٢٥-٢٣٧.

معناه أنه أُطعم طعاماً آخر وسُقِي شراباً آخر. أُطعم السناء الذي فوق. وهو ما سوف يكون في الوليمة التي ستقام في آخر الأيام.

الرباني يوشه– أما النبيذ المعتق في كرمه منذ أيام الخلق الستة الذي سيُسقى للصالحين في الوليمة فهو كلمات الحكمة القديمة التي لم تكشف لانسان منذ خلق العالم والتي ستكشف للصالحين في آخر الأيام. ذلك هو الشرب.

الرباني يهودا– إذن فما هو لوياثان وما هو الثور (بهموث) الذي سيؤكل مع لوياثان في الوليمة؟

الرباني يوشه– إنهما مجرد كناية عن الأمم، عن ممالك الأغيار التي سيدمرها يهوه.

الرباني يهوشع– إن هذا الاعتقاد الذي عبر عنه الحاخامات موجّه الى السواد الأعظم من شعب الرب، وهو أنهم سيدعون الى تلك الوليمة ليأكلوا لحم لوياثان والثور (بهموث) ويشربوا نبيذاً معتقاً منذ خلق العالم. وقد وجد الحاخامات نصاً في التوراة يوضحه، وهو قول الرب في سفر اللاويين ٢٦:٥ "فتأكلون خبزكم حتى الشبع"، لأن الرباني زيرع قال أن الواحد القدوس تبارك استخدم كل أنواع المغريات ليجعل اسرائيل يعود الى طريق الصواب، وكان أعظم مغرياته ذلك، قوله لهم "فتأكلون خبزكم حتى الشبع" اذا ما اتبعتموني وحفظتم وصاياي وعملتم بها. وبالمثل، عند رأي الحاخامات أن السبي كان قد طال، قالوا للشعب، معتمدين على آيات التوراة، أن اسرائيل سوف يأكل ويمرح في الوليمة الكبرى التي سيولمها لهم الواحد القدوس تبارك.

فنحن نرى، المسألة ليست كما يبدو من النص، بل مسألة أسرار عليا إلهية ومسألة مباهج روحية يعدّها الواحد القدوس تبارك لـ"شعبه" ويعِدَهُ بها ليعزيه ويشجعه وكل ذلك. والمسألة في النهاية مسألة "صلاح"، من حيث أنه كما جُعِل لوياثان وبهموث كناية، حُوِّل الـ"مفديون" إلى "الصالحين"، بل وجُعِل "الصالحون" درجتين: درجة معتدلة ستمتع بالسناء فقط، ودرجة عليا ستطعَم بـ" الحكمة".

غير أنه، في ختام الحوار الدرامي هذا كما أورده "الزهار" (كتاب السناء)، يرتفع صوت الرباني يوحانان محذراً من التمادي في هذه التفسيرات الميتافيزيقية، معترضاً على هذا التحريف كله، بقوله:

"لاتدعونا ندمّر ما نؤمن كلنا به. بل يجب أن نتمسك به. لأن التوراة ذاتها شهدت به".

ففي النهاية، بعد كل المحاولات، ظلت الوليمة أكلاً وشُرباً وقصفاً في حضرة يهوه. وكل ما يبدو أنه قُدِّم من تنازلات في شأن المسألة تعلّق بمسألة رقص يهوه لـ"مفدييه"، وهو– كما رأينا– ما لم يستطع الربانيون تحويله الى كناية كما حاولوا في شأن لحم لوياثان وبهموث وفي شأن النبيذ المعتق منذ بدء الخليقة. ففي ترنيمة بلغة اليدِش أُعفي يهوه من مهمة الرقص، وحلّت محلّه ميريام أخت هرون وموسى:

"ربيّنيو تَرمْ تَرمْ تَمْ تَمْ
ماذا سيكون هناك في الوليمة، هِه؟
يهوه ذاته بكل مجده سيكون في الوليمة
في جنة عدن سوف نجلس إليه
وسوف يباركنا الكاهن هرون
وسوف يعلمنا موسى سيدُنا التوراة
وسوف ترقص لنا ميريام النبيّة
ويعزف لنا الملك داود، ويغني الملك سليمان
والنبيذ المعتق سوف نشرب
ولحم البهيم ولحم التنين سوف نأكل حتى الشبع
في وليمة يهوه"

غير أنه، في غمار كل هذه المراوغات والإتاهة، يظل هناك ثابتٌ واحد لا يتغير ولا يتحوّل كما يتغير الحلم وتتحوّل الحكاية الخرافية. ذلك الثابت هو ما توقفنا عليه مصارحة الرباني يوشه المقتضبة عن اللحم الذي سيؤكل في وليمة الملك يهوه لرعاياه/شعبه، وكيف أنه سيكون لحم الأغيار وممالكهم، تماما كما رددت الترنيمة التي خوطب فيها يهوه، تدليلا، بـ"ربينيو"، بقولها أن لحم البهيم (الأمم) والتنين (ممالك الأمم)(*) سوف يؤكل حتى الشبع.

وذلك هو المعنى عينه في نص حزقيال ٢٩:١٧-٢٠ السابق الاستشهاد به،(**) وفي نص من صفنيا:

"لأن يهوه قد أعد ذبيحة ودعا مدعويه. ويكون في يوم ذبيحة يهوه أن يعاقَب الأمراء وبنو الملوك وجميع اللابسين لباساً غريباً" (١:٧).

غير أن النصوص المفسِدة لعملية رتق الخروق الكاشفة في نصوص العهد القديم تظل الاستثناء، في حين نجد أن القاعدة التي اتُبعت باستمرار، منذ بدأت عملية تنقية النصوص في القرنين السادس والخامس ق.م.، هي تلك التي عبر عنها سفر إشعياء بقوله، على لسان يهوه: "لا تذكروا الأوليات. والقديمات لا تتأملوا بها. هأنذا صانع أمرا جديدا" (إشعياء ٤٣:١٨ و١٩)، أي اصرفوا نظرا عن كل ما قيل لكم قبلاً، وتفكروا فقط فيما يقال وسوف يقال لكم من الآن فصاعداً. وهو قول كان استهلالاً لعملية الإصعاد الى ما فوق

(*) قارن، مثلا "وعلى فكوك الشعوب (الأغيار) رسن (حبل)" (إشعياء ٣٠:٢٩) بقول يهوه لأيوب "أتصطاد لوياثان بشص أو تضغط لسانه بحبل؟ أتضع أسلة في خطمه أم تثقب فكه بخزامة؟ (٤١:١).

(**) ارجع أيضا الى "المسيحية والتوراة" عن مذبحة هرمجدون، ص ص٢٩٣-٣١٣، والى نشيد إشعياء عن مذبحة الأمم" لأن ليهوه سخطا على كل الأمم وحموا على كل جيشهم، قد حرمهم دفعهم للذبح" (إشعياء ٣٤:١-٣)

الجَلَد وتحويل المعبود من إله متجسِّد ساكن وسط شعبه- كان قد ظل كذلك منذ "نزل" ومعه ملاكان لتناول طعام الغداء مع ابراهام قبل تدمير سدوم، وحتى جُعِل، في زمن تأليف إشعياء الأول: "رب الجنود الساكن في جبل صهيون" (إشعياء ١٧:٨) الذي نزل من "جبل صهيون للمحاربة" (إشعياء ٤:٣١)- الى إله محتجب لا يُرى، عرشه في السماء (فوق الجَلَد المصقول كمرآة).

وكما رأينا، وصلت عملية الإشاحة عن "القديمات" الى حد مناقضة ما كان موسى قد أكّد أن يهوه أمر به عن "الزِباح" (الذبائح) وبخاصة عن "زِباح الإبن" (ذبيحة الوليد البكر) التي استبدِلَت، عندما بدَا واضحاً لورثة موسى أن "الشعبَ" كان سيرفض يهوه نهائياً اذا ما استمرت، بـ"فدية الإبن".

نفس عملية التنظيف هذه، استُخدِمت عندما شرع الكهنة في القرنين السادس والخامس ق.م. في التعمية عن المكونات البعلية (نسبة الى "بعل") في صورة يهوه التي كانت قد استقرت بكل ما احتويَ فيها مما سُرِق لذلك المعبود من "الآلهة الغريبة والدخيلة"، في شأن بطولة المياه. وكان طمس ما نافَس يهوه آلهة الشرق الأدنى القديم عليه من بطولة مائية (التغلب على المياه وقهرها والتحكم فيها وهزيمة التنين)، زئبقياً "متحوياً" كالعادة، فالمياه حُوِّلت الى كنايةٍ عن خطر داهم، كما في قول سفر إشعياء "لا تخف يا يعقوب لأني قد فديتك، دعوتك باسمك فأنت لي. اذا اجتزت في المياه فأنا معك وفي الأنهار فلا تغمرك" (٢:٤٣ و٣)، وكل تلك العيون والآبار التي لم يكفّ المؤلفون عن التأكيد بأن يهوه كان مفجِّرها لا كل أولئك الآلهة "الدخلاء"، تبين فجأة- في غضون تحول كتحولات الحلم والحكاية الخرافية- أنها لم تكن عيوناً أو آبار ماء بل "ينابيع خلاص يستقي الشعب مياهها بفرح" (إشعياء ٣:١٢).

ولم يكن ذلك الضرب السلس شديد النعومة من التحول صعباً، لأن الأساس الفكري المنطقي (إن صح ذكر الفكر أو المنطق في سياق كهذا) قد أُرسي بالقول بأن للتوراة، وبالتالي لكل ما أينع من تربتها الخصبة، أكثر من ستمائة ألف معنى، وتحديداً- متى توخينا الدقة الواجبة في هذا السياق المقدس- "ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين" معنى، بعدد "جميع المعدودين من بني اسرائيل حسب بيوت آبائهم من ابن عشرين سنة فصاعداً كل خارج للحرب في اسرائيل" بدون "سبط لاوي الذين لم يعدوا بينهم" (عدد ١:٤٥-٤٧). فبذلك الترابط السحري بين معاني التوراة وعدد "الذكور المتجردين للحرب" ممن طردوا من مصر حسب تهويل سفر العدد، باتَ متاحاً باستمرار، بمنتهى الطيبة والصلاح والتقوى، الإفلات من أي مأزق والهرب من أي "معنى" بـ"ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وتسعة وأربعين" معنى مغاير أو مناقِض. وبإضافة شيء من التشاعر وشيء من "التوحيد" من خلال التألّه على الآلهة الأخرى التي وقع السطو عليها، وشيء من المسكنة والطيبة حيناً، وأشياء من الضراوة الوحشية أحياناً، صُنِعت "الأسفار المقدسة" المُذهِبة للعقل المشتتة للانتباه المستدرِجة الروح والعقل والضمير الى متاهة أشد

التواءً "وتحوياً" من حيّة يهوه المتحوية، وأشد إماتة من متاهة الهولة الأسطورية، المينوطور، في ميثولوجيا اليونان.

تلك المتاهة عينها هي ما استُدرج العقل اليها بأستاذية تفوقت على نفسها فيما تعلق بـ"بيت" يهوه ومسكنه وسكناه.

ولقد كان من الضروري إسكان يهوه في سكن يخصه وتنصيبه في قصر يتفوق على قصور كل أولئك الآلهة "الدخلاء" الذين استتبع إصعاد كل إله بطل منهم إلى مكانة الإله الملك في أساطير الشرق الأدنى القديم تشييد "قصره" العلوي، على قمة الجبل أو فوق الجَلَد، ثم بناء الظل الأرضي لذلك القصر، أي الهيكل أو المعبد الذي تقام فيه الشعائر والذي من خلال التعبُّد للإله فيه تحت وصاية كهنته كانت المدينة المقام بها المعبد، و"ملكها" الذي كان رأس كهنة الإله صاحب المعبد، يحصلان كلاهما على وصاية ذلك الإله ويتمتعان بنِعَمِه وحمايته. ذلك، كما استظهرنا فيما سبق، كان النمط الأسطوري الذي تكرر في أسطوريات كل الآلهة الأبطال الذين نُصِّبوا كملوك على الكون والآلهة الآخرين في عبادات الشرق الأدنى القديم، أمثال إنكي السومري، ومردوخ البابلي، وإيل الكنعاني ثم ابنه (ولي عهده) بعل المدمجة فيه هويات إيشكور السومري وأدد/هدد/حداد معبود الآراميين التائهين.

ذلك النمط الأسطوري عينه تكرر في حالة يهوه. وقد كان ذلك طبيعياً للغاية من حيث أن يهوه كان قد ابتلع كل أولئك الآلهة "الدخلاء" الآخرين، وبالأخص إيل وبعل، ومن خلال ابتلاعه لبعل ابتلع ضمناً إيشكور وأدد/هدد/حداد.

غير أن الأمر، في حالة يهوه، اختلف اختلافاً أساسياً. فكل أولئك الآلهة "الدخلاء" شُيِّدت "قصورهم" العلوية أولاً ثم بعد ذلك أقيمت معابدهم الأرضية. فإنكي كان إله إريدّو، غير أن "قصره" شيّد "في العلى العظيم "أولا، ثم- بعد أن خُلق البشر ليكونوا خدماً للآلهة- أُقيم معبده الأرضي وحوله نمت مدينة إريدّو. وكذلك كانت الحال بالنسبة لمردوخ، ولكبير آلهة الكنعانيين إيل، ولابنه بعل. أما في حالة يهوه، فعُكِست الحكاية ذَنَباً الى رأس كما في كل حكي عن يهوه، و"الشعب"، و"الآباء"، اذ أقيم مسكن يهوه، "بيته" ("بث") على الأرض، ثم أُسكن على الأرض، وبعد وقت طويل للغاية من بدء سيرة ذلك المعبود على يد موسى، عندما جُعل "محتجباً" في زمن السبي وأُصعد الى "العلى العظيم"، الى ما فوق الجَلَد، رُفِع "بيته" أو بالأحرى أُسقِط ظله المعلّى، فوُضِع في "السماء".

وفيما تعلّق بـ"ياه"، يهوه ("لأن ياه يهوه قوّتي" إشعياء ١٢:١٢، "لأن في ياه إيلوهيم صخر الدهر" إشعياء ٢:٤٦)، كان قَلب الحكاية ذَنَباً الى رأس بهذا الشكل طبيعياً للغاية ومتماشياً مع واقع الحال. فـ"ياه يهوه إيلوهيم" كان، عندما عثر عليه موسى مقيماً في مضارب المديانيين بعد أن خرج (في أسطوريته المؤابية الأصلية التي استعاره المديانيون منها) من فوهة البركان (فتحة القضيب الإلهي) حمماً (منيّاً إلهياً متقداً) تحوّل عندما برد

فبات صخراً عبده المديانيون كما عبده المؤابيون في شكل قضيبيّ ثعبانيّ مختّن منتصب باسم يهوه مديانياً، وباسم بعل فغور مؤابياً.

وفي العهد القديم، عندما انغمس النبييم والمؤلفون والمحررون في عملية الإشاحة عن "القديمات" رتقاً للخروق الكاشفة في النصوص، تحوّل المعبود "الصخرة" القضيب المختّن المنتصب، بالسلاسة الناعمة المنسابة عينها التي شهدناها في حالة "الزباح" (الذبائح)، والمكونات البعلية، الى "صخرة" معنوية فقط أي الى الأساس الصلد الراسخ لكل مؤمن. وبذلك الضرب من خفة اليد الكهنوتية، أُسقطت عن المعبود، بضربة واحدة بارعة، هويته الحجرية القضيبية الثعبانية، مثلما أُخفيت قبلا صورته التشبيهية التجسدية فجُعِل أثيرياً مختفياً لا يُرى.

الا أن ما لم يستطع المؤلفون والمحررون التخلص منه كان التابوت والخيمة. غير أن صنّاع الديانة الأواخر لم يعدموا حيلة في الدوران حول مشكلة التابوت.

"ولقد حار الباحثون طويلا في محاولة استظهار غرض محدد (لذلك التابوت) الذي استنسِخ من مصر وجُعِل رمزاً أساسياً من رموز عبادة يهوه. وهي حيرة تضاف- في الواقع- الى الحيرة في سبب تسمية ذلك الصندوق المغشّى بالذهب النقي من داخله وخارجه باسم التابوت أو باسم الفلك. فمما قال موسى أن يهوه قاله له، كان القصد أن يصنع بنو اسرائيل ليهوه مسكنا: "فيصنعون لي مقدسا لأسكن في وسطهم" (خروج ٢٥:٨). لكن ذلك بدا غير لائق للكهنة المؤلفين في بعض المواضع، فقالوا أن "خيمة الاجتماع"، لا "التابوت" هي "المسكن".. وبعد ذلك، اخترع اختراعٌ اتصف بالشطارة المعهودة، دُعي- بالغموض المألوف المغلّف بالقداسة- بـ"الشكينة"، أي المسكن، من الجذر "شكن" أي سكن. وتراكمت كتابات الأحبار على ذلك المسكن، وبالتدريج، تحولت السكنى فيه من سكنى بالجسد إلى حلول بالروح، بالنور، إلى حلول بالإسم. وفي النهاية، جاء عزرا، وبيده الحازمة حسم المسألة فقال "والله الذي أسكن اسمه هناك" (عزرا ٦:١٢).

"إلا أن ذلك التسامي الترانسندنتالي الذي لاذ به عزرا، ورسَّخه في سفر التثنية عند تحريره إياه، كان في واقع الأمر تجديداً ثوريا اقتضته رؤية عزرا لما تعين أن تصبح عليه النصوص التي حررها. فيهوه، في مبدأ الأمر، كان يسكن السحاب وينزل به على رأس الجبل ويجتمع بموسى هناك (خروج ٢٤:١٦-١٨)".(*)

وقد كان اسكانه السحاب، بغير "بيت" أو "قصر" نتيجة لتلقيمه الأسطوريات المدمجة في بعل صفون، أسطوريات إيشكور وحداد، وقد كان كل منهما "راكب سحب". كما كان افتقاره الى "بيت" راجعاً الى أنه- أصلاً- كان ساكن نيران، أو شيطان براكين كما أسماه ادوارد ماير، على النحو الذي يبينه ظهوره الأول لموسى في العليقة

(*) "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ٢٤٩.

المتوقدة بالنار التي لم تكن رغم توقدها بالنار تحترق (خروج ٣:٢).(*) ولما كان كل من إيشكور وحداد، كما كان بعل صفون، قاذفي سهام نارية من أعلى، بات بالوسع جعل ذلك الإله ساكن البركان، عندما أدمج أولئك الآلهة فيه، إلهاً راكب سحب. غير أنه، رغم ركوبه السحب، ظل بغير "بيت" الى أن طلب من موسى أن يصنع له بنو اسرائيل مقدسا (التابوت) ليسكن وسطهم بنفسه (خروج ٢٥:٨)، ثم أدخلت الخيمة في الحكاية، فصار تلميح الى أن السكنى فيها لا في التابوت (خروج ٢٩:٤٥)، وكانت كل تلك السكنى بالطريقة التجسدية القديمة التي عرفها "الآباء"، أي بتجسد الإله ليصبح مرئياً مسموعاً مناقشاً مملياً التصميمات المعمارية وتصميمات النجارة والثياب ووصفات الطهي المقدس داخل المذبح لتقديم وجبات الطعام اليه، والمحرقات لإحداث رائحة سرور له.(**) ثم- لما بدأ ذلك التصور للألوهة يفصح عن بدائيته- بدأت السكنى تصبح بالحلول: بالمجد أولا، ثم بالاسم. غير أن شيئا من كل ذلك لا يلغي الحقيقة الماثلة في أن سكنى يهوه كانت في التابوت، على النحو الذي أفصح عنه صموئيل الأول ٥:٢-٤ بحكيه عن استيلاء الفلسطينيين على التابوت ووضعهم إياه تحت قدمي إلههم داجون وخروج يهوه من التابوت ليلاً وعثور الفلسطينيين في الصباح على داجون ساقطاً على وجهه أمام تابوت يهوه ورأس داجون ويداه على العتبة بعيداً عن بدن السمكة الذي كان كل ما تبقّى منه، وكما في حكي نفس السفر ٦:١٣ و١٩ عن قتل يهوه خمسين ألفاً من الفلسطينيين في بيت شمس لأنهم فرحوا برؤية التابوت فنظروا اليه.(٣٥)

في سعي صانعي الديانة لايجاد مكان يسكنون فيه المعبود الذي خلقوه من الوثن المؤابي/المدياني، سُرق التابوت في مصر.(***) ولما كان المؤابيون والمديانيون قد وضعوا ذلك الوثن داخل قدس أقداس بدائي في خيمة خصصت لكهنته ولعدتهم الشعائرية (كما بينت الكشوف الآثارية التي توصل اليها الآثاري اليهودي بنو روذنبرج(٣٦) في وادي عربة في موقع أقيم فيه قديماً معبد مصري كرّس للإلاهة حت حور (هاتور) قرب منجم نحاس مصري من مناجم سيناء)، وكان بعض الشعوب في الهلال الخصيب قد أقام خيمة للبعل الذي كانوا يعبدونه (كما بين نقش بارز على جدران أحد المعابد بتدمر)، كان من الطبيعي- عندما أخذ صانعو أسطورية يهوه من ورثة موسى اللاويين في اختلاس ما اختلسوه له من عبادات الهلال الخصيب- أن يجدوا له أخيراً مسكناً يسكنونه فيه كما أسكنه المديانيون والمؤابيون قبلا، هو الخيمة.

تلك الخيمة (التي كانت- في الحكي- معبداً، مسكناً، قصراً، بيتاً) أقيمت ليهوه الذي استولى عليه موسى وورثته من عباده الأصليين، كما يقطع الحكي، على الأرض،

(*) بشأن النار في أسطورية يهوه، ارجع الى "السحر في التوراة والعهد القديم"، بالفصل المعنون "النار والحية"، ص ص١٤٩-١٥٩.

(**) وذلك ما فعله يثرون عندما زار موسى وقدم محرقة ليهوه.

(***) ارجع الى "السحر في التوراة والعهد القديم"، "خزانة الديانة السحرية" ص ص٢١٠-٢٩٠.

لا في أية سماء أو على قمة أي جبل، بل "بين الشعب"، "وسط بني اسرائيل". ويوجد من كبار الدارسين التوراتيين كجوليوس وولهاوزن، وكارل جراف، وادوارد رووس، وغيرهم، من يقول- نتيجة للبحث- أنها، كالكثير غيرها مما تضمنه حكي التوراة وسائر العهد القديم، اختلاق روائي.

إلا أنه، سواء كان الأمر اختلاقاً روائياً القصد منه ايجاد سكن ليهوه كغيره من آلهة الشرق الأدنى القديم الكبار (كما قال بعل وهو يطلب من أبيه إيل الاذن ببناء قصره: "ليكون لي بيت ككل الآلهة العظام")، أو كانت قد وجدت خيمة حقيقة صنعت بالاستنساخ من الخيمة المديانية التي كان قد "أُسكن" فيها أصلاً بوضع وثنه القضيبي في "قدس أقداسها" (في مكان اقامة المعبود بالهيكل)- وفريدمان يؤكد أن من قالوا بأنها لم توجد ارتكبوا "غلطة في منتهى الذكاء"! معتمداً في معارضته لهم على مقارنات لفظية بين نصوص من أسفار النبيبم ونصوص من "الوثيقة" الكهنوتية(P)، متناسياً ما سلّم به هو نفسه من أن المحررين كرروا في أسفار نصوصاً من أسفار أخرى- قد بات من الجلي الذي لم يعد هناك من يجد بمكنته أن يتعرض له بمناقضة أو تجريح:

(١) أن يهوه كان معبوداً أخذه موسى من المديانيين، و

(٢) أن ذلك المعبود عُبد عند المؤابيين والمديانيين كوثن ثعباني قضيبي مغلّف بالذهب يُرجّح أنه ما جسدته حية موسى النحاس (عدد ٢١:٧-٩) التي عبدها "الشعب" حتى زمن حزقيا (٧١٥-٦٨٧ ق.م.) باسم "نحشتان"، الى أن "سحقها الملك الصالح حزقيا" (الملوك الثاني ١٨:٤).

(٣) أن وثنه ذاك عثر عليه في تلك الخيمة البدوية التي اكتشف روذنبرج بقاياها وأوتادها بل ومدقات تلك الأوتاد، والتي أشبهت في الطول والعرض والارتفاع الخيمة التي قال مؤلفو سفر الخروج وما بعده من أسفار التوراة أن يهوه أُسكن فيها. (٣٧)

(٤) أن من طُردوا من مصر و"تاهوا" في سيناء زمناً طويلاً خالطوا المديانيين وعايشوهم زمناً طويلاً عمل المديانيون خلاله كأدلة لهم في القفر كما يوقفنا هذا النص من سفر العدد:

> "وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المدياني حمي موسى اننا راحلون الآن الى المكان الذي قال يهوه أعطيكم إياه. اذهب معنا فنحسن اليك.. فقال له حوباب لا أذهب بل الى أرضي وعشيرتي أمضي.." (خروج ١٠:٢٩ و٣٠).

وبمعايشة موسى للمديانيين أربعين سنة كما قالت حكاية التوراة، ومخالطة "الشعب" لأولئك القوم، لاشك في أن الكثير من المعلومات انتقل منهم إلى من كانوا مع موسى، عن معبودهم، وشعائره، وخيمته. وقد كانت تلك المعلومات سبباً في محاولة

موسى اللاحقة إبادة المديانيين بحجة أن يهوه أمره بذلك لأن "المديانيين كادوا لهم في أمر بعل فغور" (الاسم المؤابي ليهوه)، أي كشفوا لـ"الشعب" عن اشياء لم يكن من المرغوب أن يقف "الشعب" عليها، منها أصل يهوه المؤابي وشعائره الجنسية التي يبدو أن الإلمام بها كان مما شجع "الشعب" وهرون على اقامة حفل قصف "العجل الذهبي".

فنحن، حتى اذا ما نحينا جانباً كشوف علم الآثار، وركزنا على النصوص التوراتية، واجدون عند كل منعطف ورد فيه ذكر يهوه عند بدء ظهوره، في سفري الخروج والعدد، كاهنه الذي أسمي بـ"كاهن مديان"، ودُعي بعدة أسماء متباينة. ففي الخروج ٢، دعي بـ"رعوئيل" وهو اسم كاشف عن أن ذلك الجزء من السفر أُخذ من تقليد وضع في كنعان، بعد موسى بوقت طويل، نظراً لانتساب صاحب الاسم فيه الى إيل، وفي الخروج ٣، دعي الرجل بـ"يثرون"، ثم دعي في القضاة ٤ بـ"حوباب"، رغم أن سفر العدد، كما في الاستشهاد الذي أوردناه (١٠:٢٩) قال أن حوباب كان اسم "ابن رعوئيل المدياني حمي موسى". أما القضاة ١ فأسقط الاسم تماماً مكتفياً بتسمية كاهن مديان ذاك بـ"القيني حمي موسى" (١:١٦) نظراً لأن ذلك الكاهن كان من القينيين الذين سكنوا مديان وأقاموا مضاربهم بين فلسطين وسيناء شرق خليج العقبة.

ومن ذلك النص في سفر القضاة نقف على المعلومة الهامة المتمثلة في أن من طردوا من مصر وعلق بهم موسى واللاويون بغية تحويلهم الى "شعب" ليهوه المدياني يقوده موسى خالطوا قوم يثرون/رعوئيل/حوباب القيني المدياني الذي علّم موسى عبادة إلهه المدياني يهوه (الذي أخذه المديانيون عن المؤابيين الذين عبدوه باسم "بعل فغور") و"سكنوا معهم":

"وبنو القيني حمي موسى صعدوا من مدينة النخل
مع بني يهوذا الى برية يهوذا التي في جنوبي عراد
وذهبوا وسكنوا مع الشعب" (قضاة ١:١٦).

ومن الثابت، بنص صريح من سفر الخروج، أن كاهن يهوه المدياني، أياً كان اسمه، شارك موسى في اقامة شعائر عبادة يهوه، وبنفس الطقوس:

"فأخذ يثرون حمو موسى محرقة وذبائح ليهوه
(وقد غُيّرت في الترجمة الى "الله")، وجاء هرون
وجميع شيوخ اسرائيل ليأكلوا طعاما مع حمي
موسى أمام يهوه ("الله")" (خروج ١٨:١٢).

وهو ما تتداعى منه إلى الذهن حكاية صعود "أشراف اسرائيل السبعين" ليأكلوا ويشربوا بمحضر من يهوه على قمة الجبل، كما أسلفنا بشأن الوليمة المسيحانية.

إلا أن الذي يعنينا هنا تحديدا "الخيمة".

وفي شأن تلك الخيمة، نجد تأثيرين واضحين لا سبيل الى تجاهلهما: (١) تأثير مدياني مباشر، و(٢) التأثير المصري الذي يبدو أنه لم يكن مهرب منه فيما تعلق بموسى.

أما التأثير المدياني، فكشفت عنه حفائر الآثاريّ اليهـوديّ بنـو روذنبرج فـي وادي عربة بجنوب النقب عند تمنه المشار اليها في أخبار الأيام الثاني ١٨:٢٨، وكان المصريون قد أقاموا في ذلك المكان معبداً لحت حور (هـاتور) قـرب منجـم كـانوا يستخرجون منـه النحاس. وهو الموقع الذي يحكي سفر العـدد ٢١ أن يهـوه سلّط فيـه "الحيـات المحرقـة" على "الشعب" لأنه تمرد على موسى، والذي صنع عنده موسى حيته النحاس المشهورة التي أوقفت هجوم الحيات عندما رفعها موسى على راية، أي عندما رفـع رايـة يهـوه ممثـلاً فـي تلك الحية النحاس التي ظلت محل عبادة بعده حتى زمن حزقيا "ملك" يهوذا، كما أسـلفنا. ولنرجع هنا الى دارس أقام شهرته الواسعة عالمياً من خلال التعاطف القوي مع حكي العهـد القديم:

"زودتنا الكشوف الآثارية مؤخراً بتأييد لصحة واقعتين في حكي التـوراة عـن رحلـة (موسى ومن معه) في القفر، وهو تأييد لم يكن أحد يتوقعه.. تمثل في اكتشاف عالم الآثـار الاسرائيلي بنو روذنبرج لحية نحاس وخيمة في منطقة تعدين النحاس في تمنه (وادي عربه).

"و"الحية النحاس" وثن ثعباني عزيت اليه قـدرة سـحرية (عـدد ٩:٢١)، ويقـال أن وثناً كهذا كان في المعبد بالقدس وأنه لم يرفع منه الا عندمـا هشـمه حزقيـا، ملـك يهـوذا، الذي حكم حوالي سنة ٧٠٠ ق.م. (الملوك الثاني ٤:١٨). وبطبيعة الحـال، يذكّرنـا ذلـك الوثن الثعباني بالصولجان السومريّ الثعباني المصوّر على قاعدة انـاء شـعائري مكّـرس لإلـه الحياة السـومري نينجيزيدا.(*) كمـا يذكرنـا أيضـا بـالعديد مـن الرمـوز الثعبانيـة فـي مصـر القديمة. وفي مطلع هذا القرن كان العالم الألماني جريسمان قـد أكـد أن "الحيـة النحـاس" في التوراة استعيرت من المديانيين الذين كان بنو اسرائيل على اتصال بهم أثناء ارتحالهم في الصحراء.

"وطبقا لما يقوله العهد القديم، انحـدر المديـانيون مـن ابراهـام عـن طريـق زوجتـه قطّورة (تكوين ٢٥:٢-٦)، وكـان رعوئيـل (أو يـثرون)، الكـاهن المديـاني، حمـو موسـى وناصحه ومستشاره، يقيم الشعائر مع موسى "أمام الـرب" (خـروج ١٦:٢ و٣:١، و١٨:١ وما بعد).

"ولما كان قد قيل أن بني اسرائيل كانوا مدينين لرعوئيل بذلك الضرب الغريب مـن العبادة للحية النحاس، فانه كان اكتشافاً دراميا بحق ذلك الذي اكتشـفه بنـو روذنـبرج فـي موقع آثاريّ فيه من الأدلة ما يشير الى أن المديانيين أقاموا فيه. والذي اكتشفه روذنبرج وثن مشكّل على هيئة حية من نحاس طولها خمسة بوصات مازالت عليها آثار توشـية بـالذهب. (انظر الشكلان ١١ و١٢).

(*) نينجيزيدا "رب الشجرة الصالحة" إله من آلهة السومريين السفلية (التحت أرضية) أي الثعبانية وكـان رمزه الثعبان ذو القرنين، وهو- كما توقفنا الترانيم التي عثر عليها باللغة الأكّديّة، سجان الأبالسـة المنفيـة تحت الأرض (التي نلتقي بها في سفر يوحنا اللاهوتي)، وقد صـور أيضـا بوصفـه رب الشـفاء (ومـن هنـا كان تقليد استخدام الثعبان كرمز للشفاء).

"وكأنما لم يكن ذلـك الاكتشـاف المثير (والمثبـت لصحـة تفصيـل مـن تفـاصيل السجل التوراتي عن الرحلة عبر الصحراء كان قد ظل محل نقاش لوقت طويل) كافياً، كان العثور على ذلك الوثن الثعباني المصغر داخل قدس أقداس خيمة! ولقد كان ذلك في الواقـع هو ما توّج اكتشافات روذنبرج، لأن الكشف عن خيمة كان أمرا ذا أهمية فائقة نظـراً لأنـه منذ القرن التاسع عشر ظل هناك من الباحثين التوراتيين من مختلف المشارب من أعربوا عن الشك في وجود خيمة قالت عنها التوراة الشيء الكثير.." (٣٨)

وكما هو واضح من النص المستشهد به، تعامل كلر مع موضوعه بقفاز مـن حريـر وبحرص من يسير على أرض حقل ألغام في طرحه لمغزى الكشف الآثاري الذي توصل اليه المنقّب الاسرائيلي. وهو- في النهاية- يعتبر ذلك الكشف انتصارا لصحـة الحكـي التوراتـي ويتهلل لكون اكتشاف الخيمة المديانية قد جعل بمكنته، "من حيث المبـدأ، أن يفـترض أن اسرائيل، في وقت مبكر للغاية، كانت عندها خيمة، وأن تلك الخيمة كانت- بقدر يزيد أو ينقص- شبيهة بتلك التي وصفتها التوراة" هللويا!

وبطبيعة الحال، لم يخطر للباحث أن يتساءل، فـي غمـار ذلـك التهلـل، عـن: (١) استخدامات ذلك الوثن الثعبـاني (القضيبـي) الـذي طولـه خمـس بوصـات والـذي وجـدت عليهآثار ما أسماه بـ"توشية" بـالذهب، لا تغليـف بـالذهب، أو (٢) عـن مغـزى مـا أسـماه بـ"استعارة" بني اسرائيل لخيمة يهوه المديانية من قـوم يـثرون، "كـاهن مديـان" الـذي أقـام شعائر يهوه أمام يهوه مع موسى.

فمسكن يهوه الأول، خيمته المقدسة، اذن، "استعيرت له من المديانيين. وقد كـان ذلك الاستنساخ لـ"المسكن"، لـ"بيت" المعبود، أكثر الأشياء طبيعية، حيث اسـتعير المعبـود نفسه من المديانيين، الذين كانوا قد استعاروه بدورهم من جيرانهم المؤابيين. وبالمثل، كان وجود ذلك الوثن الثعباني المصغر المغلّف بالذهب في "قداس أقداس" بيت المعبود، طبيعيـاً هو الآخر، متى تذكرنا الهوية القضيبية لذلك المعبود الذي كانت شـعائره تقـام فـي الليـالي المقمرة أمام وثن حجري مغلف بالذهب باسم "بعل فغور"، الذي يجعل الفرج يفغر ويفتـح الرحم.

وتوقفنا تواريخ العبادات القديمة على الميل القوي والمستمر لاسـباغ هويـة ثعبانيـة على قضيب الذكر وهو في حالة انتصاب،(*) وبخاصة فيما تعلـق بـالصلّ المصـري (حيـات موسى المحرقة) وثعبان الكوبرا، نظرا لأن كلا الثعبانين قـادر علـى "الوقـوف" منتصبـاً قبـل الانقضاض على هدفه وقذف سمه في الجـرح الـذي يحدثـه بنابيـه. وفـي التـاريخ الجنسـي للشعوب المترفة، كالرومان، استخدم القضيـب المصنـوع بذلـك الشـكل الثعبـاني المغلـف بالفضة أو بالذهب نفس الاستخدام المعاصر لما يعرف باسم "اللعب الجنسية".

(*) وهذا ما سنحاول استظهاره بتعمق في مستهل الكتاب الثاني من هذا المبحث عند تنـاول المعطيـات المتعلقة بالهوية القضيبية/الثعبانية في صورة المعبود، سعيا الى استيضاح العلاقة بين العمق الجنسي للديانـة وظاهرة بورنوجرافيا الدين.

ذلك عن التأثير المدياني للحكي في التوراة عن "الخيمة" المقدسة التي أدارت رؤوس الملايين من المؤمنين الأمميين طوال قرون، سواء كانت تلك الخيمة قد وجدت فعلا أو كانت- كالكثير غيرها- مجرد اختلاق روائي كان الغرض منه ألا يظل يهوه مشرداً كشعبه بلا مأوى، فصُنع له ذلك "البيت" الخيمة، إما حقيقة وإما خيالاً، حتى لا يكون أقل من أحد من أولئك الآلهة "الدخلاء" العظام.

أما عن التأثير المصري، فالذي لاشك فيه أن ذلك التأثير كان أكثر الأشياء طبيعية في حالة إله مستعار اضطلع كاهن مصري مرتّد بتخليقه. ولقد كان المحفّز الأول لموسى فيما تعلق باسكان معبوده يهوه، بغير شك، كون آلهة مصر كانت كلها آلهة ذات معابد. غير أن موسى عندما علق بالمطرودين كان مدركاً لاستحالة انشاء معبد كمعابد مصر لإلهه المخلّق، ان لم يكن لشيء فلكونه- بخروجه مع المطرودين- كان مُقْدِماً على مغامرة لم يكن يدري الى أين ستنتهي به (وقد انتهت نهاية سيئة للغاية) وبحكم كونه المخترع لما ظل يؤكد لـ"الشعب" أن يهوه وعد به من وعود باخلاء أرض كنعان من أصحابها وإعطائها هدية لتلك الشراذم المريضة المطرودة، كان أول من فطن بغير شك الى أن تلك الوعود لم يكن من المؤكد أن تتحقق بالسرعة التي تمكنه من تشييد مسكن لمعبوده على غرار معابد آلهة مصر. ولذا فان الخيار الوحيد الذي كان أمامه ظل خيمة يهوه المديانية، خاصة وأن المطرودين الذي لصق بهم وظل يؤكد لهم وهم لا يصدقونه أنه "التقي إله آبائهم في الصحراء وأن ذلك الإله اسمه يهوه"، كان لديهم مزار/ خيمة (كذلك الذي اكتشف رسمه على جدران معبد بتدمر) هو الذي داروا فعادوا اليه" عند بعل صفون، بين مجدل والبحر" (خروج ١٤:١ و٢).

ومثلما ادّعى مؤلف سفر الخروج أن دوران المطرودين على أعقابهم ورجوعهم لـ"ينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون "كان بتعليمات من يهوه" حتى يقول فرعون عن بني اسرائيل هم مرتبكون في الأرض قد استغلق عليهم القفر. فيسعى وراءهم" لأن يهوه انتابته فجأة رغبة لم يستطع مقاومتها "في التمجد (مرة أخرى) بفرعون وبجميع جيشه" (خروج ١٤:٣ و٤)، لا يُستبعد إطلاقا أنه- ذلك المؤلف عينه- لفّق حكاية الخيمة ليسكن يهوه فيها فلا يظل بغير مسكن "وسط شعبه".

والذي لا سبيل الى تغليفه ضبابياً بأي شك، مهما تشبث "الأتقياء" بحيلة عزرا المتمثلة في القول بأن "سكنى" يهوه في وسط شعبه اسرائيل كانت حلولاً بالاسم، أن المسألة تعلقت هنا بايجاد محل اقامة، ببناء "بيت" للمعبود. فالخيمة المديانية التي كانت مستقراً لوثن يهوه القضيبي كما اكتشف الآثاري الاسرائيلي روذنبرج، سواء كانت قد صُنعت فعلا (كبديل عملي للمعبد المصري الذي أدرك موسى بغير شك استحالة تشييده ليهوه) أو كانت قد اختلقت روائياً في تأليف أسفار التوراة، صُنعت، أو اختُلقت، كمسكن أرضي ليهوه يقيم فيه بشخصه اقامة دائمة "في وسط شعبه" ولهذا دعيت بـ"بيت الرب" أي

"بيت يهوه"، و"هيكل الرب" أي "معبد يهوه"، و"مقدس الرب"، أي "حرم يهوه". ويهوه ذاته كان صريحا غاية الصراحة فيما أملاه على موسى:

"فيصنعون لي مقدسا (حرما) لأسكن في وسطهم. بحسب جميع ما أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنيته هكذا تصنعون" (خروج ٢٥:٨ و٩)

"وأسكن في وسط بني اسرائيل وأكون إلها لهم. فيعلمون أني أنا يهوه إلههم الذي أخرجهم من أرض مصر لأسكن في وسطهم" (خروج ٢٩:٤٥ و٤٦)

"و(عندما) فرغ موسى من إقامة المسكن مسحه وقدسه وجميع أمتعته" (عدد ٧:١)

فبناء ذلك "المقدس"، الحرم، المزار، الهيكل، الخيمة، البيت، كان لغرض واضح ومحدد تحديداً قاطعاً، هو سكنى المعبود فيه. وهذه، تبعاً لما قالته التوراة، علامات سكناه في ذلك المسكن:

"وأقام موسى الدار حول المسكن والمذبح ووضع سجف باب الدار. و(عندما) أكمل موسى العمل، غطت السحابة الخيمة وملأ بهاء يهوه المسكن. فلم يقدر موسى أن يدخل خيمة الاجتماع (الجزء الخارجي، البهو، المدخل من الخيمة)(*) لأن السحابة حلت عليها وبهاء يهوه ملأ المسكن (قدس الأقداس، الحرم الداخلي، الخيمة التي داخل الخيمة). وعند ارتفاع السحابة عن المسكن كان بنو اسرائيل يرتحلون في جميع رحلاتهم. وان لم ترتفع السحابة لا يرتحلون إلى يوم ترتفع. لأن سحابة يهوه كانت على المسكن نهارا. وكانت فيها ليلا نار أمام عيون كل بني اسرائيل في جميع رحلاتهم" (خروج ٤٠:٣٣-٣٧).

ونفس القول تكرر في سفر العدد:

"وفي اقامة المسكن غطت السحابة المسكن خيمة الشهادة. وفي المساء كان على المسكن كمنظر نار الى الصباح. هكذا كان دائما. السحابة تغطية ومنظر النار ليلا. ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة

(*) كما هو ملاحظ في النص، لا تفرقه هناك بين الجزء الخارجي من الخيمة وبين الحرم الداخلي أو "قدس الأقداس" حيث كان يسكن يهوه، وبذلك أمكن التراوح في التسمية بين "المسكن" و"خيمة الاجتماع" و"خيمة الشهادة". وذلك ما حاول بولس (متى أخذنا بنسبة الرسالة الى العبرانيين اليه) حسمه بالتحدث عن "المسكن الأول الذي يقال له القدس الذي كان فيه المنارة والمائدة وخبز التقدمة. ووراء الحجاب الثاني المسكن الذي يقال له قدس الأقداس (والذي) فيه مبخرة من ذهب (مذبح البخور) وتابوت العهد المغشى بالذهب.. وفوقه كروبا المجد مظللين الغطاء. أشياء ليس لنا الآن أن نتكلم عنها بالتفصيل" (الرسالة الى العبرانيين ٩:٢-٥).

كان بعد ذلك بنو اسرائيل يرتحلون. وفي المكان حيث حلّت السحابة، هناك كان بنو اسرائيل ينزلون. حسب قول الرب كان بنو اسرائيل يرتحلون وحسب قول الرب كانوا ينزلون.. واذا تمادت السحابة على المسكن أياما كثيرة كان بنو اسرائيل يحرسون حراسة الرب" (٩:١٥-١٩).

وان لم تكن السحابة وعمود النار كافيين، أو لم تكن "حراسة الرب" وهو ساكن داخل الخيمة كافية في تبيان الإقامة الفعلية ليهوه داخل الخيمة، فاننا نجد أن القرابين كانت تقدم ليهوه أمام باب الخمية، لإحداث "رائحة سرور" للرب الساكن الخيمة:

"ودعا يهوه موسى وكلمه من خيمة الاجتماع قائلا: كلم بني اسرائيل وقل لهم اذا قدم انسان منكم قربانا للرب من البهائم فمن البقر والغنم (يكون).. الى باب خيمة الاجتماع يقدمه للرضا عنه أمام الرب.. ويذبح العجل أمام الرب ويقرب بنو هرون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديرا على المذبح الذي لدى باب خيمة الاجتماع.. ويقدم الكاهن التقدمة محرقة وقود رائحة سرور للرب" (لاويين ١:١-٩).

ولقد كانت تلك التقدمات من الأهمية لدى يهوه بقدر جعله يعود فيؤكد في تعليماته الى موسى على وجوب تقديمها بانتظام في مواعيدها:

"وكلم يهوه موسى قائلا: أوص بني اسرائيل وقل لهم قرباني طعامي مع وقائدي (محرقاتي) رائحة سروري تحرصون أن تقربوه اليّ في وقته (عدد ٢٨:١ و٢).

وعلى امتداد ٢٨ "آية" هي بقية هذا الأصحاح من سفر العدد، و٤٠ "آية" هي كل "آيات" الأصحاح ٢٩ من نفس السفر، يعدد يهوه لموسى تفصيلاً الخراف والثيران والكباش التي بلا عدد والتي يتعين تقديمها اليه عند باب مسكنه قرباناً طعاماً له ومحارق لاحداث رائحة سرور لديه.

فالمعبود الساكن في الخيمة لم يكن يتهاون فيما تعلق بطعامه وبرائحة سروره (الرائحة المحدثة التذاذاً لديه).

فان لم يكف ذلك للابانة عن الاعتقاد الراسخ بسكنى المعبود في مسكنه الأرضي (بيته الخيمة) في وسط شعبه، فلدينا قيامه من داخل الخيمة بوظيفة القاضي لـ"شعبه": فالمباركات محله، ونوعه، وحجله، وملكه، وترصه، بنات صلفحاد" وقفن أمام موسى وألعازر الكاهن وأمام الرؤساء وكل الجماعة لدى باب خيمة الاجتماع "مطالبات بميراث أبيهن الذي مات ولم يكن له ابن ذكر فحذف اسمه من بين عشيرته. واستمع يهوه من داخل الخيمة لدعواهن، ثم "كلم موسى قائلا بحق تكلمت بناء صلفحاد. فتعطيهن ملك نصيب لهن بين أخوة ابيهن وتنقل نصيب أبيهن اليهن" (عدد ٢٧:١-٧).

ومن الواضح أن ذلك كان تعديلاً أُدخل على نظام الإرث بعد موسى بزمن طويل، نتيجة لمعايشة نساء "الشعب" للكنعانيين ووقوفهن على الفرق الشاسع بين المعاملة التي عوملن بها في ظل كهنة يهوه وتحت إمرة يهوه، وبين ما تمتعت به نساء الكنعانيين في ظل "ملكة السموات" (وهو ما قد يكون من مسببات تمرد نساء "الشعب" على يهوه كما يحكيه سفر إرميا بالأصحاح ٤٤)، الا أن المحررين رأوا ادماجه في سفر العدد اسقاطاً لـ"عدل" يهوه على زمن التوراة، واستخدموا في ذلك سكنى يهوه داخل الخيمة فجعلوه القاضي العادل الذي حكم لبنات صلفحاد وأملى القانون التالي، تبعا للحكم الذي أصدره، على موسى: "وتكلم بني اسرائيل قائلا أيما مات رجل وليس له ابن تنقلون ملكه الى ابنته" (عدد ٢٧:٨).

فـ"الملك" يهوه، من داخل "قصره" الأرضي، خيمته، "قضى" للقوم، وعدّل قوانين الإرث. وعندما انتهى دور موسى، عيّن من فوق عرشه ("محط الرحمة") داخل "قصره" نائب الملك الجديد، السفاح، يشوع بن نون، خادم موسى وقاتله:

"وقال يهوه لموسى هوذا أيامك قد قربت لكي تموت. ادعِ يشوع وقِفا في خيمة الاجتماع لكي أوصيه. فانطلق موسى ويشوع ووقفا في خيمة الاجتماع. فتراءى يهوه في الخيمة في عمود سحاب، ووقف عمود السحاب على باب الخيمة. وقال يهوه لموسى ها أنت ترقد مع آبائك.. وقال ليشوع بن نون تشدّد وتشجّع لأنك أنت تدخل بني اسرائيل الأرض التي أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك" (تثنية ٣١:١٤-١٦ و٢٣).

وعندما وضع بولس رسائله، أفصح عن تنبهه لهذه الأرضية التي اتصفت بها سكنى يهوه بين "شعبه" في "بيته"، "قصره"، كقاض وملك لاسرائيل، بتحدّثه عن "المسكن الحقيقي الذي نصبه الرب لا انسان" (الرسالة الى العبرانيين ٨:٢).

غير أن كلام بولس وكل التبريرات اللاحقة التي تعلّق بأهدابها المسيحيون الأول لم تعدُ كونها تبريرات. وتظل هناك الحقيقة الراسخة التي لا مهرب منها بأية تبريرات، وهي أن الملك يهوه سكن بيته على الأرض لا في أي "ملكوت سموات" وكان عليه أن ينتظر بعد موسى قروناً عديدة عديدة الى أن أتى كاهن يهودي متخف تسمى باسم يوحنا اللاهوتي، فرفع له قصره الى ما فوق الجلد:

"بعد هذا نظرت واذا باب مفتوح في السماء والصوت.. يتكلم معي قائلا اصعد الى هنا فأريك.. وللوقت صرت في الروح واذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس. وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد.

وحول العرش أربعة وعشرون عرشا. ورأيت على العروش اربعة وعشرين شيخا جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب. ومن العرش تخرج بروق ورعود وأصوات. وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة أرواح الله. وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٤: ١-٦).

غير أن ذلك كان فيما بعد، وفي الواقع- متى أخذنا بهذيان اللاهوتي- في آخر الزمان. أما في بداية القصة، أيام كان موسى آخذاً في صُنع المعبود وتنصيبه ملِكاً على الأشتات البدوية المطرودة، فلم يكن ذلك البهاء السماوي قد توافر ليهوه بعد. كل ما كان متوافراً له خيمته القديمة التي نصبها له المديانيون والتي أخرجها من الرمال قرب موقع معبد حت حور (هاتور) آثاري يهودي. غير أن موسى، كما تبين نصوص أسفار التوراة، الخروج، واللاويين، والعدد، مع صرف النظر عن سفر التثنية الذي وضع في أزمنة متأخرة، وإن لم يتجه طموحه، تبعا للحكي، الى إصعاد يهوه الى ما فوق الجلد، اكتفاء بـ"قمة الجبل"، لم تكن لديه رغبة في الإبقاء على أية ملامح يمكن أن تكون كاشفة عن أصل يهوه المدياني، بل والواقع أنه استمات في ذلك الاخفاء لذلك الأصل المدياني الى حد الشروع في إبادة المديانيين.

وهكذا فانه في حين لم يقيّض ليهوه "سكن" أو "بيت" يجعله قريناً لغيره من آلهة الشرق الأدنى القديم المحترمين الا خيمته البدوية القديمة، خفّت خلفية موسى المصرية لنجدة معبوده المخلّق، فزودت مؤلفي أسفار التوراة بالمادة الروائية التي باستخدامها حوّلوا الخيمة المديانية الى معبد متنقل مهيب وضعوا في قدس أقداسه تابوت العهد الذي اختلس هو الآخر من مصر، ووضعوا على غطائه "عرش" الملك يهوه، " محط الرحمة"، بين الكروبين اللذين خلّقاهما أيضا من إيزيس ونفتيس حول تابوت أوزيريس، ومن المخلوقات السومرية/البابلية المجنّحة، ومن كروبيم إيل الكنعاني.(*)

في كتابه المعنون "حكمة العهد القديم"، يعترف مانلي هول، وهو من الباحثين التوراتيين المدلهين مع لمسة من التصوف، بالتأثير المصري بالغ القوة في شأن خيمة يهوه:

"برز موسى، لا كمجرد ممثل لإله اسرائيل الخفي، بل وكقائد عملي ومصلح للشعب. فالأسباط الاثنى عشر (استهدفت خطة موسى) جعلها عالماً مصغراً للكومونولث الديموقراطي للنوع البشري من خلال النظام الذي أرساه موسى بين شعبه والذي كان تكراراً، خلاصة للمقومات الأساسية لنمط الامبراطورية

(*) ارجع الى استظهارنا للمغزى الجنسي للكروبيم في الكتاب الثاني بالفصل المعنون: "عشق الذكور واللواط والكروبيم".

الخفية القائمة على مؤسسات كهنوتية شكلاً ومعماراً. ومن الجلي أنه كان قد اختير ليقود شعبه، أو- متى اعتبرناه مصريا- ليقود الشعب الذي اختار هو أن يخدمه، بعيدا عن الهيكل بالغ الشكلية لمعمار النظام الاجتماعي المصري، هناك، في مكان قصي يخلق فيه هوية دينية ثقافية جديدة. ولقد كان ذلك خطوة صوب القصد النهائي للتجربة الفلسفية الكبرى الرامية الى جعل الانسانية جماعة دينية مقدسة واحدة. وفي كل ذلك كانت مدينة ممفيس (ميت رهينة) المصرية ذات الأسوار البيضاء النمط الطرزبدئي لأورشليم الجديدة، مدينة الله العالمية.

"ولقد كان بيت ممفيس (معبد بتاح، الإله الخالق بالكلمة، بقوله للشيء كن فيكون)(*) هو أول ما أعيد بناؤه (من الديانة المصرية) بين اليهود في القفر على شكل الخيمة. فتلك الخيمة صممت بشكل مباشر من النمط الكلاسيكي للمعبد المصري، ووزعت أسباط اسرائيل حول الخيمة توزيعاً تطابق مع علامات دائرة البروج، وقد تبين أن ذلك استمد رأساً من المعارف الفلكية المصرية التي كانت النمط الطرزبدئي للشكل الذي سيتخذه في خاتمة المطاف مجتمع العالم (الموحد تحت حكم صهيون).

"وقد كانت خيمة يهوه معبداً متنقلاً قسم الى ثلاثة أقسام وكانت عدته ورموزه مأخوذة من العدة والرموز الشعائرية المصرية كما هي مصورة نقشاً على جدران معبد فيله بأسوان.. وفيما بعد أدمجت الخواص المميزة لتلك الخيمة في بنيان معبد سليمان. وبحلول ذلك العصر، كان التفسير الديني قد طمس بشكل كامل تقريباً الأصل (المصري) للتصميم كله. الا أنه لما كانت رمزية التصميم قد بقيت بغير تحريف أو إفساد، فانها ظلت كاشفة عن الحقيقة لكل من لديه عينان ليرى وعقل ليفهم".(٣٩)

- - - - -

(*) ما بين أقواس في نص مانلي هول، للمؤلف.

هوامش الباب الثاني

(١) ارجع الى جون أَلِجْرو، [١٦٦]، "الشعب المختار"، ص٣٠.

(٢) ارجع الى جوزف كامبل، [٥٢]، "أقنعة الإله- الميثولوجيا الغربية"، ص ص٧ و٨.

(٣) انظر في ذلك النص الصريح الناطق بأقصى درجات الاعتداد بحيازة إله خاص مخصص، ص١٠٠ من "كتاب المعارف اليهودية"، لناتان أوزوبل، [١١١]، ومحاولة أوزوبل الدوران حوله، وانظر أيضا "الله واليهود والتاريخ"، لماكس ديمونت، [١١٠]، وبخاصة الصفحات ٢٩، ٣٧، ٤٠، ٦٣، ٦٩، ١٢٠، ٣٤٩، ٤١٤، ٤١٨، ٤٢٠، وارجع الى تعليق فرويد على هذه الظاهرة في كتابه "نشوء الدين"، [٨٢]، ص٣٥١ وما بعد، وارجع الى تناول جون إَلِجرو للظاهرة ومناقشته إياها في كتابه "الشعب المختار- تهشيم الأسطورة"، وبخاصة الصفحات ١٤، ٢٧، ٤٢، ٤٥، ٦٠، ٦٨، ١٠٦، ١٤٨، ١٧٤، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٣٩، ٢٥٣، ٢٦٥، وانظر تناول برتراند رصل لمفهوم "الشعب المختار" في الفصل الأول من الباب الأول، الكتاب الثاني، من عمله الكبير، "تاريخ الفلسفة الغربية" ص ص٣١١-٣٢٤:

Russell, B.: "History of Western Philosophy", Unwin Paperbacks, London 1979

وارجع كذلك الى أرنولد توينبي، (٨)، "دراسة للتاريخ"، عن مفهوم الخصوصية، ص ص٥٠٢-٥٠٥، ومفهوم الألوهة اليهودية، ص ص٣١٠، ٥٠٠، ٥٠٤، ٥٢٣ وتأثير الزرادشتية وسائر العبادات الفارسية، ص ص٣٨٧-٣٨٨، ٤٧٥، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٥.

وارجع أيضا الى[٥]، "تاريخ العالم لجامعة كولومبيا"، ص ص١٤١، ١٥١/١٥٢، ١٦١-١٦٣، ١٦٧-١٦٩، ٢١٦ و٢١٧.

(٤) ارجع الى فريدمان، [١٤٦]، "من الذي ألّف التوراة؟" وبخاصة صفحتي ٨١ و٨٢.

(٥) انظر المرجع السابق نفسه، وبخاصة الصفحات من ٨١-٨٣.

(٦) ارجع، فيما يتعلق بنصوص أوغاريت، الىالمرجعين [٤٧] و[٤٨] لسايروس جوردون، والمرجع [١٧٥] تحرير جيمس بريتشارد، والمرجعين الآخرين المذكورين قبلاً، وارجع أيضا الى:

Mendelsohn, I. (ed.): "The Religion of the Ancient Near East: Sumero-Akkadian Religious Texts and Ugaritic Epics", N.Y., 1955.

Beyerlin, W. (ed.): "Near Eastern Religious Texts Relating to the Old Testament", SCM Press, 1978.

Kapelrud, A.: "Baal in the Ras Shamra Texts", Copenhagen, 1952

Pope, M.: "El in the Ugaritic Texts", Leiden, 1955.

(٧) انظر [٨٥]، "التاريخ المبكر لله" لمارك سميث ص٩.

(٨) أورد الاستشهاد مارك سميث في المرجع السابق، الصفحة نفسها، ارجع الى كتاب برتلر عن مفهوم يهوه ملكاً في اليهودية:

Brettler, M.: "God is King: Understanding an Israelite Metaphor", Journal for the Society of Old Testament, Supplement, 1989

وانظر أيضا [١٤٨]، "الملوكية"، لهوكارت، وارجع كذلك الى كتاب صموئيل هوك "الأساطير والطقوس والملوكية":

Hooke, S.: "Myth, Ritual & Kingship", Oxford University Press, London, 1958.

(٩) ارجع الى [١٢٥]،"العبادة القضيبية"، لجورج رايلي سكوت، ص٢٠.

(١٠) ارجع الى لايارد، "نينوى وبابل":

Layard, A.: "Nineveh & Babylon", British Museum Publications, London, 1853.

(١١) ارجع الى استشهاد سكوت بأوزبورن في [١٢٥]، "العبادة القضيبية"، ص٤٣.

(١٢) Davies, P.: "Macrobius: Saturnalia", Columbia U.P., N.Y., 1969.

Borneque, H.: "Macrobe: Les Saturnales", Librairie Garnier, Paris, 1937

(١٣) ارجع الى برستد [١٣]، "فجر الضمير"، المقدمة ص xi

(١٤) ارجع في شأن رسالة بعل الى عانات التي اختُلست ليهوه ووجهت منه الى اسرائيل، الى كتابي سايروس جوردون "الأدب الأوغاريتي" [٤٧]، و"الدليل الأوغاريتي" [٤٨]، والى "التاريخ المبكر لله" [٨٥]، والى كتاب كروس، "أساطير كنعانية وملاحم عبرانية- مقالات في تاريخ ديانة اسرائيل"، [٤٣].

(١٥) انظر في شأن تعدد الآلهة في "ديانة اسرائيل"، مقدمة كتاب مارك سميث [٨٥]، "التاريخ المبكر لله"، ص xxxi، وارجع أيضا الى الصفحات ٢٢، ٧١، ١٠٢، ١٤٦، ١٥٦، ١٦٥ من نفس المرجع، وارجع أيضا الى فرويد، "نشوء الدين"، [٨٢]، ص ص٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦١، ٣٠٦، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٨٢، وارجع كذلك الى [١٢٠]، "اليهودية القديمة"، لماكس فيبر، ص ص١٥٢، ١٥٤، ١٦٢، ٢١٢ و٢١٤، وارجع أيضا الى "قراءة سياسية للتوراة"، الباب الرابع: "من تعدد الآلهة الى الإفراد"، ص ص٢٠٥-٣٦٠.

(١٦) ارجع، في شأن الأصول الأيقونية لحكي العهد القديم، الى:

Keel, O.: "The Symbolism of the Biblical World: Ancient Near Eastern Iconography and the Book of Psalms", N.Y., 1978

Gorelick & Williams-Forte (eds.): "Ancient Seals and the Bible", Malibu, California, 1983

وارجع أيضا، في شأن الاختلاق الأسطوري في حكي العهد القديم نتيجة لقراءات مغلوطة لرسوم الأيقونات، الى روبرت جريفز، [٦٢]، "الإلاهة البيضاء"، بالصفحات ٢١٩، ٢٢٩، ٢٥٦، ٢٧٨، ٣٣٢.

(١٧) والنص الكامل لما قاله فرويد في هذه الخصوصية بالغة الأهمية في الوقوف على مدى أهمية المنابع المصرية للديانة التي ركّبها موسى حول يهوه مما ظل يختلسه له من الديانة المصرية:

"انصرف هم من وضعوا التقنين الكهنوتي بتركيز خاص الى إرجاع تعاليم ومؤسسات زمانهم الى أزمنة سابقة، عملا أن يوفر ذلك "القدم" القداسة والإلزام لما أرسوه من تعاليم ومؤسسات: وقد فعلوا ذلك (في زمن السبي وما بعده) أساساً بأن أرجعوها- كقاعدة- الى الشريعة الموسوية. وعلى الرغم مما في ذلك الإرجاع الى الوراء من تزييف لصورة الماضي، لم يكن ما

أقدم عليه الكهنة عارياً من المبرر السيكولوجي. فقد كان انعكاساً للحقيقة الماثلة في أنه بمرور العصور الطويلة- فيما بين الخروج من مصر وتثبيت نص "العهد القديم" في ظل عزرا ونحميا، أي بعد مرور ثمانمائة سنة- كانت عبادة يهوه قد غُيِّرت لتصبح مطابقة لديانة موسى الأصلية، أي الديانة المصرية، بل- وفيما يحتمل- لتسبغ عليها هوية تلك الديانة. وقد كانت تلك هي النتيجة الجوهرية، والمؤدى بالغ الأهمية لتاريخ اليهودية" (فرويد [٨٢] "نشوء الدين"، ص٢٨٧. وكان قد مهد لذلك بقوله "ونحن، على كل حال، لا نعرف الديانة الموسوية الا في شكلها النهائي كما صاغه وثبّته الكهنة اليهود بعد موسى بثمانمائة سنة" (ص٢٦٣).

(١٨) ارجع الى فرويد، المرجع السابق نفسه، ص ص٢٧٢/٢٧٣، والنص الكامل لما كتبه فرويد يصارحنا بأنه:

"لا وجود لمؤرخ يمكن أن يرى في الحكي التوراتي عن موسى والخروج أكثر من اختلاق روائي تقي من محض المخيلة أخذت عناصره القصصية من تقليد ضارب في القدم فأعيدت صياغته تحقيقاً للمرامي المغرضة لمن اختلقوه. ومن أسف أن الصيغة الأصلية لذلك التقليد ليست متاحة لنا، ولهذا فاننا قد قطع الطريق علينا في اية محاولة للوقوف على تلك المرامي المغرضة التي من أجلها حرّف التقليد الأصلي بحرماننا من الوقوف على الحقائق التاريخية كما حدثت فعلا. وبازاء ذلك لا يبقى أمامنا الا أن نحاول اعادة تركيب المنفذ الى تلك الحقائق وهو ما لا يدع مكاناً لعدد من المكونات الاستعراضية للحكاية التوراتية كمسألة الضربات العشر، وحكاية عبور البحر الأحمر، وحكاية تلقي الشريعة على جبل سيناء. غير أن ذلك لا يقلقنا. لأن ما هو حريّ بأن يقلقنا حقاً أن نجد أنفسنا- اذا ما سايرنا الحكي- في وضع التضاد مع ما يفضي اليه البحث العلمي الجاد في هذا العصر.

"فالمؤرخون المحدثون، الذين يمكن أن نأخذ كمثل لهم ادوارد ماير (١٩٠٦)، يتفقون مع الحكي التوراتي في خصوصية حاسمة. فهم أيضا يرون أن من أصبحوا فيما بعد شعب اسرائيل اعتنقوا ديانة جديدة في نقطة بعينها من الزمان. الا أن ذلك، في رأيهم، لم يحدث في مصر، أمام جبل في شبه جزيرة سيناء (كما يحكي سفر الخروج) بل في منطقة أخرى تعرف باسم مريبة قادش، وهي واحة اشتهرت بكثرة عيون الماء والآبار في جنوب فلسطين، بين المخرج الشرقي من شبه جزيرة سيناء والحدود الغربية لشبه الجزيرة العربية. ففي ذلك الموقع أخذوا عبادة اله اسمه يهوه، وكان أخذهم لتلك العبادة، فيما هو محتمل، من قبيلة المديانيين العرب المجاورة. ويحتمل أن عدداً من القبائل الأخرى في تلك المنطقة كانت من أتباع ذلك المعبود.

"والذي لاشك فيه أن يهوه كان معبوداً بركانياً. ومصر- كما هو معروف- ليست أرضاً بركانية ولم تكن جبال شبه جزيرة سيناء بركانية في أي عصر من عصور تاريخها، في حين أنه وجدت براكين قد تكون ظلت نشطة الى أزمنة قريبة نسبيا على الحدود الغربية لشبه الجزيرة العربية. وبالتالي، لابد أن مكمن يهوه الجبلي (الذي تراوحت تسميته بين "جبل سيناء" و"جبل حوريب") كان أحد تلك البراكين. والمشاهد أنه على الرغم من المراجعات الكثيرة المتعاقبة التي أخضعت لها الحكاية التوراتية، ظلت الصورة الأصلية لشخصية المعبود صورة يمكن، طبقا

لما يراه ادوارد ماير، احتلاؤها فاذا هي صورة شيطان رهيب متعطش للدماء كان يعس ليلا ويتجنب ضوء النهار".

(١٩) انظر مناقشة مارك سميث، [٨٥]، "التاريخ المبكر لله"، ص ص٤٣/٤٤ لقضية هذا المزمور المُتعِب الذي أثار الكشف عن تحريف المترجمين لأصله جدلاً لم ينقطع ظلت الغاية منه التنصل مما كشفت عنه "الآيات" ٢-٦ من أصله الآرامي من وجود ضارب بجذوره لإيل والبعليم في هوية يهوه التي دخلت في تركيبها عناصر كثيرة أُخذت من أولئك الآلهة المنافسين. وظلت الغاية الأخرى من الجدل والمراوغة التغطية على الدور الذي لعبته وتلعبه الترجمة في تزوير النصوص الكاشفة التي من هذا النوع المزعج (كما في حالة تلقيب يهوه بـ"بعل ثور يعقوب" التي زوّرت في الترجمة الى "عزيز يعقوب"!) بدافع من "تقوى" زائفة مشكوك في عفافها، من حيث أن المترجم الذي يقدم على مثل هذا التزوير لنصوص مدعى لها أنها "مقدسة" تاركاً لـ"الباحثين" المعتذرين المهرة التغطية على أنشطته التزويرية، اما أن يكون مرتزقاً وضعيف الإيمان، واما أن يكون إيمانه من طراز فريد بحق.

(٢٠) والطريف أنه في حين استمات الباحثون الأمميون في التغطية، وجد من الباحثين اليهود، كواينفلد، (انظر المرجع [٨٥] ، الهامش ١٩) من لم يجد حاجة للنزول الى ذلك المستوى، فسلّم- وأمره الى يهوه رب الجنود- بأن المزمور لم يُؤخذ من أصله الآرامي فيزوّر، بل كان "كنعانياً أو سامرياً (من المملكة الشمالية)، وأن ذكر إيل وبعل سميم (بعل السموات) وبيت إيل وبعل صفون فيه قاطع بذلك وكاشف عن أنه "استورد" في عبادة يهوه"!

ارجع أيضا، في شأن هذه الحكاية الشيقة، الى:

Nims, C. & Steiner, R.: "A Paganized Version of Psalm 20 from the Aramic Text in Demotic Script", Journal of the American Oriental Sty., pp.269/272.

(٢١) ارجع الى صموئيل نوح كريمر، [٢٦]، "السومريون، تاريخهم، وثقافتهم، وطباعهم"، و[٢٧] "الميثولوجيا السومرية".

(٢٢/أ) و(٢٢/ب) انظر كريمر [٢٨]، "طقس الزيجة المقدسة".

(٢٣/أ) و(٢٣/ب) المرجع السابق نفسه.

(٢٤) ارجع الى [٨٢]، "نشوء الدين" لفرويد، وانظر خاصة الصفحات ٢٥٨، ٢٥٩، و٣٢٩.

(٢٥) انظر ماكس فيبر، [١٢٠]، "اليهودية القديمة"، ص٣٧٢.

(٢٦) ارجع الى [١١]، "قبل الفلسفة"، لهنري فرانكفورت وآخرين، ص ص٨٩ و٩٠.

(٢٧) انظر جريفز وباتاي، (١٥٢)، "الأساطير العبرانية"، وبخاصة ص٢٧.

(٢٨) انظر المرجع السابق نفسه، ص٣١.

(٢٩) انظر المرجع نفسه، وبالأخص صفحتي ٥٥ و٥٦.

(٣٠) ارجع الى [١٦١]، "النصوص المسيحانية"، لباتاي وانظر بالأخص ص صxxv وxxxiv و٢٣٥/٢٤٦.

(٣١) كريمر، [٢٨]، "طقس الزيجة المقدسة".

(٣٢) كريمر [٢٧]، "الميثولوجيا السومرية".

(٣٣) انظر [١٦١]، "النصوص المسيحانية"، وبالأخص صفحتي ٢٣٥ و٢٣٦.

(٣٤) انظر [١٥٤]، "الزهار، كتاب السناء"، ١/١٣٥/ب و١٣٦/أ.

(٣٥) ارجع في ذلك الى "السحر في التوراة والعهد القديم"، ص ص٢٤٩/٢٥٠.

(٣٦) انظر فرنر كلر، [٩٠]، "الكتاب المقدس كتاريخ"، ص ص١٤٩ و١٥٠.

(٣٧) ارجع الى فريدمان، [١٤٦]، "من الذي ألف التوراة؟"، وبالأخص الصفحات من ١٦٢-١٦٧.

(٣٨) انظر كلر، [٩٠]، "الكتاب المقدس كتاريخ"، ص ص١٤٩/١٥٠.

(٣٩) ارجع الى مانلي هول، [٧٤]، "حكمة العهد القديم- مداخل إلى تفسير العهد القديم"، ص ص٦٨ و٦٩.

الباب الثالث

الإطاحة بملكة السموات وإركاب القضيب الإلهي على عرشها

مدخل

ليس بوسع الباحث، في سعيه الى استكشاف مسارب الإطاحة الأسطورية بملكة السموات في عبادة يهوه، إلا أن يرجع- فيما تعلّق بالإعلاء الباترياركي وإحلال القضيب الإلهي محل الرحم الكوني- فيبدأ من سومر. ولا يسعه، في الوقت ذاته- نظراً لاستماتة صانعي أسطورية يهوه في إرجاع بدء عبادته، على الرغم من نفيه هو ذلك، الى زمن "الأب القوي" (أي "القضيب القوي المنجب لسلالة كثيرة")- إلا أن يرجع الى تسابيح سومر وتراتيلها وأسطوريات معبوداتها. فتلك المادة الأسطورية الدينية التي ظهرت الى الوجود من المخيلة الجمعية للسومريين في أزمنة ضاربة في القدم، وظلت تُحَكّي وتُنشَد وترتل طوال قرون حول الإلاهة الأم وتجلياتها، ثم حول تنافس آلهة قضيبية مذكّرة صاعدة على الحلول محلها كملوك للسموات، كانت من مكونات ثقافة (طريقة حياة بأوجهها المادية وغير المادية) عريقة، بلغت أوج ازدهارها في عصر أسرة أور الثالثة، حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م.

ذلك الواقع الحضاري التاريخي، الذي أخرجته من الظلام الذي كان مغيبا فيه الى دائرة الضوء كشوف آثارية متلاحقة وفك لشفرة الكتابة المسمارية، واقع يوقفنا على نوعية التراث الديني الأسطوري الذي صاغ معتقدات وشعائر وعبادات كل من سكن الأرض التي سادتها تلك الحضارة، أو عاش في رحابها، أو علق بحواشيها، قبل أن يجعله صانعو أسطورية لُفِقّت بعد الزمن الذي عاش فيه بثلاثة عشر قرنا يقوم بالخروج الأول من سلسلة "خروجات" أُلّفت تأليفاً بغية اختلاق نسب ضارب في القدم لمن دُعوا باسم "اليهود". فما لم يكن من خرجوا (أو، بالحقيقة، أخرجوا حكيا) طرازا فريدا بحق من البشر تمتع بمناعة كاملة مصمّتة لا منفذ في قشرتها الصلدة وَقَتْه من التأثر بالثقافة التي شكلت طريقة حياة كل من عاش في ظلها، لا مناص من التسليم بأن ثقافة سومر، بعبادتها وأساطيرها، كانت نبعا استقى منه الخارجون قبل أن يخرجوا مثلما استقت ماشيتهم وأغنامهم من مياه الفرات. فلا مناص من الوعي بأنهم لم يكن لهم مهرب من التأثر بتلك الثقافة الباذخة، سواء كان خروجهم لأن إلها غير محدد الهوية مبهما عن عمد (على أمل أن يؤدي الإبهام الى الإيهام بأنه كان يهوه، بصرف النظر عن نفيه هو ذلك) انتابته فجأة، بلا مقدمات، وبلا ابداء أية أسباب، رغبة عارمة لم يستطع لها دفعا في إخراج شيخ عشيرة بدوية هو تارح، الذي لم تعرف عنه أية مواهب تحبب إلهاً فيه أكثر من أنه كان صانع أوثان (ترافيم)، مع كل أهله، كيما يجعل من أحد أبنائه (بفضل قضيبه القوي كثير الذرية) "أمة عظيمة"، أو كان خروجهم هربا من نذر الخطر وعدم الاستقرار التي تبدت في الأفق عندما تقلقلت أوضاع أسرة أور الثالثة. فالعيش في رحاب حضارة سومر العظيمة كان أطول- في حالة من علقوا بحواشيها من البدو الذين أسمتهم التوراة بـ"الآراميين التائهين"- بما لا يقاس من عيش المسبيين من "مملكة" يهوذا الذين نسبوا اغتصابا الى أولئك "الآراميين التائهين". وكان- فوق طول مدته- عيش أناس بدو رعاة بلا ثقافة أصيلة تخصهم ولا أرض ينتمون اليها

كوطن لهم، في حين كان من سُبوا من "مملكة" يهوذا قد عاشوا لوقت لا يستهان به في إطار نظام سياسي/اجتماعي/اقتصادي مستقر، بل وفي ظل "مملكة" وفّرت لهم عيشا حضريا في مدن كانت مغتصبة من أهلها كما سلمت التوراة، لكنهم عاشوا فيها، وكانوا بذلك قد بدأوا يتطورون الى أناس لهم طريقة حياة (ثقافة) مميزة، حتى وان كانت مقوماتها قد استعيرت من ثقافة الكنعانيين، أصحاب الأرض الأصليين، الذين كان الاستيطان بين ظهرانيهم وإقامة "المُلك" على أرضهم. ومع كل ذلك، كان تأثر أولئك المسبيين بثقافة بابل (طريقة حياتها وما انطوت عليه من عقائد وأساطير وشعائر)، خلال الفترة القصيرة نسبيا من العيش في بابل، تأثرا بالغ العمق شمل كل أوجه حياتهم ومعتقداتهم وصياغاتهم الدينية، فيما يوقفنا الكم الهائل من المسروقات التي أخذت من بابل واستخدمت في أسفار التوراة وسائر العهد القديم. وقياسا الى ذلك، مع أخذ كل المتغيرات في الحسبان، يصبح من الجلي الذي ليس بحاجة الى إيضاح أن البدو الرعاة الذين كانوا بلا ثقافة أصيلة تخصّهم وبلا وطن ينتمون اليه ممن عاشوا في رحاب الثقافة السومرية لآماد طويلة- أطول بما لا يقاس من المدة التي عاشها المسبيون في بابل فتأثروا خلالها كل ذلك التأثر بثقافتها- لابد تأثروا بشكل أعمق وأشد فعالية بمكونات الثقافة السومرية باذخة الثراء التي عاشوا في رحابها ذلك العيش الطويل.

وهذا هو الثابت، على أية حال، بفضل ما ظل يفلت من أقلام المحررين ومقصات الرقباء الكهنة في مراجعتهم ومعالجتهم لما أدمجوا في "الأسفار المقدسة، من حكي عن أولئك الخارجين من أور في سياق الاستماتة في جعلهم "آباءً" تاريخيين مقدسين لمن استوطنوا بين الكنعانيين وقتا، و"انحدر" منهم من "انحدر" الى مصر وقتا، وأخرج منهم من أخرج في سلسلة الخروجات الأسطورية، وسبي منهم من سبي الى بابل، وعاد من فلولهم من عاد الى كنعان. فالخارجون من أور، فيما تكشف عنه الإشارات المتناثرة التي أفلتت من أقلام المحررين ومقصات الرقباء، مثلما خرجوا من أور بمعبود أسمي سومرياً بـ"إيشكور" (وكان- في الأساطير السومرية- إبنا لإله المياه والحكمة البطل الخالق إنكي)، وأُسمِيَ بابليا بـ"هدد/أدد/ حداد، خرجوا أيضا بعبادة التجلي الأهم للإلاهة الأم العظمى، إينانا (سومريا) التي أسميت بـ"عشتار" بابليا.

والأدلة التي تبرهن على ذلك والتي لا سبيل الى مناقضتها أو الدوران حولها ماثلة فيما يكشف عنه البحث المقارن مموها من أساطير السومريين والبابليين وترانيمهم الدينية في أسفار التوراة والعهد القديم، وهو ما تفتح المنافذ اليه تلك الفلتات التي أشرنا اليها والتي لم تكن كاشفة قبل فك شفرة الكتابة المسمارية. ونتيجة لانفتاح تلك المنافذ، لم يعد بوسع أحد أن يشك أو أن يشكك في أن:

> "صفحات التوراة يتردد فيها بقوة صدى أصوات المنشدين الذين كانوا يمتعون سامعيهم ويلقنونهم على ضفاف الفرات قبل خمسة آلاف سنة".(١)

واستخدام لفظة "يلقنونهم" هنا مُواتٍ للغاية، فـ"التوراة" تعني "التلقين"، بمعنى "التثقيف" في استخدام تلك اللفظة بالسياق الأيديولوجي المعاصر.

وبطبيعة الحال، لم يكن البدو الرعاة الذين عاشوا في سومر، أو على حواشيها، وولوا الأدبار حين بدت في الأفق نذر القلقلة والخطر ذاهبين الى كنعان، هم وحدهم الذين نهلوا (قدر ما مكنتهم خلفيتهم البدوية) من نبع الثقافة السومرية. فالبابليون والأشوريون، شمالاً، والفرس شرقاً، والكنعانيون غرباً، نهلوا كلهم من ذلك النبع العريق باذخ الثراء. إينانا العظيمة، عبدت مثلا، في بابل باسم عشتار، وفي كنعان عبدت متجلّية في كل من عشيرة وعانات، وفي فارس عبدت باسم أناهيتا.

ذلك الإشعاع الثقافي بالغ القوة، الذي كان أشبه بدفق قدرة روحية وفكرية عارمة من دينامو حضارة سومر، سطع على كل ما حوله وظل تأثيره مستمرا قويا ونافذا من خلال بابل.

ونحن، عندما نذكر في سياق حضاري عريق كهذا البدو الرعاة الذين أسمتهم التوراة بـ"الآراميين التائهين"، ثم استدارت ففبركتهم "آباء" لمن أسموا بـ"الشعب"، لا نذكرهم من منطلق أي اعتقاد يُقيمه برهان تاريخي أو استقرائي بوجود أية متّصليّة حقيقية، عرقية كانت أو ثقافية، مادية أو لا مادية، بين أولئك البدو التائهين وبين من أسموا، على مراحل، في التوراة بـ"العبرانيين" (أي الـ"عيبير"، الـ"عنبيرو" أو "الخبيرو")، ثم دعوا بـ" بني اسرائيل" ثم قيل إنهم اليهود. فنحن، في شأن ذلك، نأخذ منطلقنا من التعارض التام بين ما ادُّعيَ لأولئك البدو من "توحيد" بإله قرر هو بنفسه لداعيته الرئيسي، موسى، أنهم لم يعرفوه، وبين الواقع التاريخي الذي أقامت البرهان عليه كشوف علم الآثار واكتشافات علم الأساطير المقارن، ذلك الواقع الذي تمثل في أن أي جماعة بشرية عاشت في ذلك الزمان في أي مكان بالهلال الخصيب لم تعبد ولم يدّع أي تاريخ موثق توافرت له مقومات المصداقية أو الموثوقية العلمية أنها عبدت معبودا واحدا وحيدا بعينه عبادة توحيد أو إفراد باترياركية كتلك التي ادعيت لمن أسموا بـ"الآراميين التائهين" وفبركوا كـ"آباء" لمن أسموا بـ"الشعب".

فذلك الواقع التاريخي، كما كشف عنه العلم بمختلف تخصصاته، وبرهن عليه، تَمثّل في أن كل الجماعات البشرية التي عاشت في بلدان الهلال الخصيب، سواء كانت شعوبا مستقرة في أوطانها، أو كانت جماعات استوطنت في أوطان تلك الشعوب المستقرة بعد تيه وتجولات وتشرد، ظلت لقرون عديدة عديدة، بعد الزمن الذي تاه خلاله الآراميون التائهون وتشردوا، مفتقرة الى التوحيد بل والى إعلاء أي ألوهة مذكرة، وحتى بعد أن قادها التطور الاجتماعي/الاقتصادي الى إعلاء الألوهة المذكّرة، لم تتخلّ عن معبوداتها الأنثوية التي كانت قد قدستها لقرون عديدة مضت.

وهذا- تحديداً- هو ما تكشف عنه سرقات الكهنة المؤلفين والمحررين الذين-عن طريق الاختلاس من العبادات المختلفة واستخدام المسروقات مبعثرة مموهة بطريقة القص

واللصق- صنعوا أسطورية ليهوه، وأعطوه أوصافا، ونسبوا اليه قدرات، وأنعموا عليه بألقاب، وأسبغوا عليه أمجادا وأفضالا أخذت كلها من معبودات الجماعات البشرية الأخرى التي أُسميت بـ"الآلهة الدخيلة والغريبة" والتي وُصِفت بالعجز والخُواء والوحشية والانحطاط والتفاهة، في سياق عملية سياسية/لاهوتية ظل الغرض الحقيقي منها إقناع "الشعب" العاصي صلب الرقبة بأن الأربح له (والآمن) أن يعبد يهوه لأنه الإله الحقيقي الجيد المتين الذي يسعه أن يعطي الكثير ويمكنه أن يمنع الكثير، على العكس من الآلهة الأخرى غير الحقيقية وغير الجيدة التي لا تستطيع أن تمنح ولا تستطيع أن تمنع، في حين كان ما أعطي ليهوه من أوصاف، وما نسب اليه من قدرات، وما أنعم به عليه من ألقاب، وما أسبغ عليه من أمجاد وأفضال، بل وما أُرهِب به "الشعب" من نقمات وبلايا، مسروقا كله- بغير استثناء- من تلك الآلهة غير الحقيقية وغير الجيدة.

في مواضع مختلفة من المباحث السابقة ومن هذا المبحث، استعرضنا بعض عينات من هذا السطو الديني، ونتوقف هنا عند بعض عينات أخرى قليلة، نظرا لأن قائمة المسروقات أضخم وأطول من أن يتسع لها البحث الذي نحن بسبيله، والمنصبّ أساسا على محاولة استظهار الغور الجنسي في عبادة هذا المعبود، والوقوف على بعض أوجه تنافسه مع آلهة الشرق الأدنى القديم القضيبية المذكّرة.

صفات وقدرات وأفضال نسبت الى يهوه	**ومصادرها في التسابيح السومرية لإنليل(٢)**
"يهوه، جبل صهيون الذي لا يتزعزع" (مز ١٢٥:١)	"إنليل، الجبل العظيم الراسخ"
"أن لم يحفظ يهوه المدينة، فباطلا يسهر الحارس. إن لم يبن يهوه البيت فباطلا يتعب البناؤون" (مز ١٢٧:١)(*)	"لولا إنليل لا المدينة كانت ولا البيت بني"
"أعمال يديك يا يهوه الغنم والبقر وكل بهائم الحقل" (مز ٨:٧)	"لولا إنليل" لا بهيمة من بهائم الحقل كانت ولا الحظائر ملئت"؛
"يهوه إلهك يكثر نتاج(**) بقرك وإناث غنمك" (تثنية ٢٨:٤)	"لا لأبقار وضعت عجولها ولا النعاج ولدت الحملان"؛
"(بفضله) جرت المياه وفاضت الأودية (مز ٢٨:٢٠)	"لا الأنهار علت ولا أعطت فيضها.
"مطرا غزيرا نضحت يا يهوه" (مز ٦٨:٩)	" (لأنه) من علاه ينزل الفيض الى الأرض،

(*) كان جون كندي رئيس الولايات المتحدة السابق مولعا بالاستشهاد بهذا المزمور تدليلا على أنه لولا يهوه ما كانت الولايات المتحدة.

(**) والأصل "عشتاروث بقرك واناث غنمك" كما استظهرنا سابقا.

"المُسقّف بالمياه علاليه الساقى الجبال" (مز ٣:١٠٤)	"جاعل الغيوم المثقلة بالمطر فى العلى تفتح أفواهها.
"اذا أعطى قولا تكون كثرة مياه فى السموات" (إرميا ١٣:١٠)	"كلمته تمس السموات فتعطى فيضها، "كلمتك يا إنليل هى المطر الغزير".
"أعطى مطركم فى حينه فتعطى الأرض غلتها" (لاويين ٤:٢٦)	"كلمته تمس الأرض بفيض فتعطى الأرض غلتها "فتنبت الأرض خضرة وبراعم خصب وتفيض الحقول
"المنبت عشباً للبهائم وخضرةً لخدمة الإنسان" (مز ١٤:١٠٤)	"والمروج بالوفرة وتكتسى السهول بالعشب والمرعى".
"وأعطى لبهائمك عشباً" (تثنية ١٥:١١)	"إنليل المانح الخبز للانسان والكلأ للحيوان".
"ما أعظم أعمالك يا يهوه. كلها بحكمة صنعت. ملآنة الأرض من غناك" (مز ٢٤:١٠٤)	"حكمتك يا إنليل هى الزرع الوفير، حكمتك هى الغلال، حكمتك هى الخصب وحياة البلاد".
"(برضاه) تعطى أشجار الحقل أثمارها" (لاويين ٤:٢٦)	"لولاك ما أزهر شجر الحقل وأثقل بالثمار".
"هذا البحر الواسع الكبير (كثّر يهوه) فيه السمك بلا عدد" (مزمور ٢٥:١٠٤)	"لولا إنليل ما كان البحر امتلأ أسماكا بلا عدد ولا كان البحر أعطى خيره الوفير".
"وأمطر عليهم لحما وكرمل البحر طيورا ذات أجنحة" (مزمور ٢٧:٧٨)	"لولاك يا إنليل ما كانت طيور السماء نشرت أعشاشها فوق اتساع الأرض".
"وأجعل سلاما فى الأرض فتنامون وليس من يزعجكم" (لاويين ٦:٢٦)	"لولاك يا إنليل العظيم ما كان بنو البشر قد اضطجعوا فى مضاجعهم آمنين".

فـ"إنعامات" المَلِك يهوه المتعلقة بوفرة المياه وكثرة المطر وخصوبة الأرض وكثرة الماشية والمحاصيل على عباده/رعاياه الذين جعله مؤلفو أسطوريته وواضعو ترانيمه يخاطبهم بقوله "افغر فاك فأملؤه لك" (المزمور ١٠:٨١) كانت، فيما تفصح عنه هذه النصوص المتماثلة متى قورنت مع الوعي بأن التسابيح السومرية هي الأقدم بما زاد على ثلاثين قرنا، تندرج ضمن قائمة المسروقات التي حاول صنّاع الديانة أن يكسوا بها عري ذلك المعبود المُمْلِق أسطوريا.

والمشكلة "الجمالية" في ذلك كله، متى استخدمنا هذا المعيار في النظر الى المسألة، تتمثل هنا في عنصر المصداقية. فالمُبدِع الذي يخلق عملا روائيا أو شعريا يعرف جيدا، كما يعرف قارئ العمل أو سامعه، أنه اختلاق من محض الخيال، يظل مستطيعا الحصول له على القيمة الجمالية المتمثلة في قابلية ما يحكي عنه أو يصوره للتصديق. وتلك

قيمة تتحقق للعمل الفني الإبداعي بقدر ما تتوافر فيه مقومات العمومية الإنسانية التي تجعله، وهو مختلَق من محض الخيال، يحكي عن أو يصـور خبرة أو حالـة أو عاطفـة أو أزمـة أو طموحا أو نزوعا من الخبرة الإنسانية المشتركة.

أما في حالة الإبداع الروائي الديني فـالأمر يختلـف اختلافا جذريـا، مـن حيـث أن توافر المصداقية يتأتى هنا من صدق موضوعي لا من صـدق ذاتـي ينبـع مـن عموميـة خبـرة إنسانية. فالتوراة وسائر أسفار العهدً القديم ادعت، باستمرار وبتركـيز وإلحـاح، أن مـا هـو مسجل في حكيها إنما هو كلام إله. ومـادام الأمـر كذلـك، يظـل توافـر المصداقيـة لذلـك الحكي متوقفا بشكل لا سبيل الى المساومة فيه على تأصل الفعل المحكي عنه لدى المملي لذلك الكلام، أي الإله الذي يقول أنا فعلت هذا أو أنا فعلت ذاك، أو يهدد بأنه سوف يفعل هذا أو يفعل ذاك. وفي حالة المؤلّف البشري المبدع لعمـل روائي، قـد ينتقـص مـن قـدره ككاتب مبدع اكتشاف النقد لسرقة أو اختلاس أدبي من عمل كاتب آخر فـي عملـه، غـير أن ذلك قد لا ينتقص من قابلية حكيه للتصديق متى كان معبرا عن خبرة إنسانية مشتركة.

أما في حالة المؤلف الإله الذي يملي نصا دينيا علـى مسجّلٍ بشريّ، فـالأمر يختلـف كـل الاختلاف. فالمؤلّف الإله عندما يؤكد مثلا أنه هو، لا أي إلهٍ غيره، الإله الذي خلق الكون، أو صنع الإنسان، أو أوجد المخلوقات، أو أحدث الطوفان، أو عندمـا يهـدد بأنـه سيخرب هذا البلد أو ذاك، يفقد كلامه المصداقية تماما اذا ما تبين أن ذلك كلام سرق أو اختُلِس أو استنسخ من كلام إله آخر قال قبله بعدة قرون، أنه هو الذي خلق الكـون، وصنـع الإنسـان، وأوجد الخلوقات، ثم قرر إبادة الإنسان والمخلوقات، تحت تأثير نوبة غضـب، بالطوفـان، وهدد قبـل قـرون مـن استنسـاخ تهديـده بـأن يفعـل بعبـاده وبمدنهـم وبيوتهـم وزراعـاتهم ومواشيهم هذا أو ذاك من أفعال العنف الإلهي اذا ما أُغضب، أو اذا ما ضاق صدره أو انتابه ملل أو استاء لأن عباده كفوا عن تقديم القرابين والضحايا لكهنـة معبـده ليـأكلوا و"يمـلأوا كروشهم" ويحرقوا بعضها لـ"إحداث رائحة سرور" له.

ففيما يخص أقوالاً إلهية يظل يتبين أنها أقوال مسـروقة ممـا قالـه إلـه آخـر أو آلهـة عديدة أخرى، قبلا، حرفا بحرف، وكلمة بكلمة، عن أفعـال، أو تعليمـات بـ"نواميس" أو شعائر، أو إنذار بضروب من العقاب، تظل المصداقية الوحيدة التي يمكـن استنقاذها لتلـك الأقوال المسروقة هي تلك التي يمكن أن تستمد من التسليم بأن الأقـوال، علـى الرغـم مـن كونها مسروقة من فم إله آخر أقدم أو معاصر لمن سرق أو جرت السرقة لحسابه، انما هي تعبير عن تطلعات ومخاوف إنسانية أجرتهـا علـى لسـان الإلـه الـذي وقـع السـطو لحسـابه أساطير مـن إبـداع الخيـال الجمعي لمجموعـة بشرية مـن جملـة المجموعـات البشـرية المشاركة كلها- بحكم إنسانيتها- في الخـبرة الإنسـانية المشـتركة. وتلـك خـبرة تمثلـت باستمرار في السعي الدؤوب اللحوح الذي لم يتوقـف منـذ فجـر التـاريخ صـوب اسـتجلاء صفات وقدرات ألوهة يلوذ الإنسان بحضنها، إن صح التعبـير، أو يهادنهـا، فـي مواجهـة لا إنسانية العالم اللامبالية تماما بالإنسان أو بتطلعاته وضروب رعبه وحيرته وأشـكال معاناتـه،

مقابل "ثمن" يؤديه ذلك الإنسان اللائذ بحضن الألوهـة يتمثـل فـي "الصـلاح" (أي الالـتزام بتعليمات ونواه يقرر كهنة الإله أن الاله أملاها)، وإقامة الشعائر وتقديم الهدايا (الأضـاحي) والخضوع للشامانات والكهنة.

فعمومية ذلك التطلع الإنساني، ذلك الظمأ المشترك إلى الاعتقـاد فـي، والاطمئنـان إلـى، وجـود قـوة عليـا قـادرة فاعلـة، خيّرة أو بالوسع استمالتها وكـفّ أذاهـا بالشـعائر والتقدمات و"الصلاح"، حاكمة للكون وممسـكة بخيـوط المصير، تظـل الأسـاس الوحيـد الذي يمكن أن تستمد منه أي مصداقية لكلام إلهي يظل يتبين أنه مسـروق، أو "مقتبـس" أو مستنسخ أو مختلس من كلام إلهي سابق.

غير أن ذلك المنفذ الى ذلك النوع من المصداقية ينسد تماما فلا يعـود متاحـا لأي معبود يتمسك صانعو أسطوريته ومختلسو أقوال غيره من الآلهة له، تمسكا منشـؤه مـآربهم الكهنوتية ومصالحهم الدنيوية وطموحاتهم السياسية، بأنه هو الوحيد الأوحد الحقيقي، فـي حين تظل الأسطورية التي ألفوها تتكشف- بشكل لا سـبيل الـى مناقضتـه أو المراوغـة فـي شأنه- عما يثبت بأن مكوناتها مسروقة مختلسة "مقتبسة" مـن مكونـات أسـطوريات آلهـة أخرى باتت- لأنها هي التي وقع السطو علـى صفاتهـا وقدراتهـا وألقابهـا- موصوفـة بأنهـا "غير حقيقية" و"غير قادرة"، أو حُوِّلت الى أبالسة وشياطين.

وفـي سياق هـذا المـأزق "اللاهوتـي"، تظـل الادعـاءات المضخمـة بمنجـزات أو "آيات" أو قدرات أو "خوارق" منسوبة للإلـه الـذي تلفّـق لـه أسـطورية مختلسـة مـن آلهـة أخرى سابقة أو معاصرة منافسة له، أقل ضررا في مجال الكشف عن انعدام المصداقية، مـن أية منجزات أو "آيات" أو "خوارق" يدعي صنّاع أسطورية ذلك الإله أنه هدد أو توعـد بهـا عقابا لعباده الزائغين. لأنه من الأيسر الادعاء كذبا بأشياء يُدّعـى أنهـا حدثـت فـي المـاضي اطمئنانا إلى أنه يصعب التحقق من صدق الادعـاء أو كذبـه، فـي حيـن يظـل الوعيـد- متـى خاب- كاشفا عن الكذب. والحاصل، في ذلك الخصوص، أن كل أسـفار العهـد القديـم، ابتداء من أسفار التوراة، مترعة، وبالحقيقة مكتظة بشـكل فـائق الحـد بتهديـدات وضـروب وعيد أجراها الكهنة المؤلفون على لسان يهوه في إطار أسلوب الجزرة والعصا الذي اتبعـوه في محاولة (جعلتها إلحاحيتها مكشوفة) للابقاء على مِقْوَد "الشـعب" فـي أيديهـم فـي ظـل هيكل يهوه وحده. ونتيجة لكشوف علم الآثـار، وفـك شـفرة الكتابـة المسـمارية والكتابـة الهيروغليفية، واللغة الأوغاريتية، وبفضل مناهج العلوم الإنسانية المقارنة، بات مـن الواضـح المسلم به، الـذي لـم يعـد هنـاك مـن يجـد بوسـعه المراوغـة فـي شـأنه، أن تلـك الأسـفار المقدسة- عندما أُتْرِعتْ بذلك الطوفان من التهديدات وضروب الوعيد، تماما كمـا كُظّـت بالادعاءات المضخمة عن منجزات يهوه- لم تعد كونها نصوصا أدبية مسروقة مـن الآداب الدينية لشعوب الشرق الأدنى القديم، ولكن مع اختلافات جوهرية فيمـا تعلـق بـالنظرة الـى علاقة الألوهة بالبشر، وبالمنطلقات الفكرية لمن أبدعوا تلك الآداب الدينية في إطار مفاهيم عن تلك العلاقة.

ففي صلوات السومريين، مثلا، أُرجع العنف الإلهي الذي يعانيه البشر ممثلا فيما يحل بهم من بلايا وخراب وأذى- في سياق رؤية أشبه من نواح كثيرة بالرؤية التي أفصحت عنها الميثولوجيا اليونانية بعد السومريين بقرون عديدة- إلى عداء الآلهة للبشر، ونفورهم من تلك المخلوقات الضعيفة الفانية، وعدم اكتراثهم لما يحل بها نتيجة لأفعالهم وضيقهم بضجيج تلك المخلوقات الهزيلة التي من طين وكثرة مطالبها وشكاواها التي لا تنتهي. وقد كانت أسطورة الطوفان، التي أُبدعت سومريا وطُوّرت بابليا وسُرقت يهيويا، أوضح ما عبر عن تلك الرؤية لمنطق علاقة الآلهة بالبشر.

أما في أسفار التوراة وسائر العهد القديم، فكانت الآية معكوسة تماما ككل شيء آخر في تلك الديانة التي بنيت على مقدمة (بالمعنى الفلسفي) غريبة بحق في تاريخ العبادات قلبت الوضع، فيما يخص العلاقة بين الألوهة والبشر، ذنباً الى رأس، اذ جعلت المعبود هو الساعي الى عبادة البشر له، بالمناقضة الكاملة والتضاد التام للنمط الذي يوقفنا عليه تاريخ الديانات.

وتبعا لذلك، أرجعت كل "الأسفار المقدسة"، بلا استثناء، كل أشكال العنف الإلهي التي مارسها يهوه أو هدد بها الى أن "الشعب" ظل يُخيّب مسعى يهوه الذي تمثل في جعل ذلك "الشعب" وحده دون شعوب الأرض يعبده هو وحده دون آلهة شعوب الأرض.

وهذا، في التحليل النهائي، أمر يخص يهوه وحده وكهنته و"شعبه". غير أن المشكلة التي تواجه العقل (بل والاستعداد للإيمان) ماثلة هنا في أن يهوه، مثلما ظل يسرق أفعال الآلهة الآخرين والإلاهات الأخريات وينسبها لنفسه محولا تلك الآلهة جميعا إلى عيدان خشب وقطع حجارة أو إلى شياطين وأبالسة، لم يجد ما يهدد "شعبه" ويتوعده به إلا أفعال العنف الإلهي التي عاقبت بها آلهة أخرى غيره شعوبها قبله وقبل نبيه و"شعبه" بعشرات القرون، فيما نسج حولها من أساطير وما رُنّم لها من تسابيح.

فالسرقة الأدبية هنا لم تتعلق بالمؤلفين البشر بقدر ما انصب تأثير انكشافها على مصداقية الحكي الذي حكته التوراة وسائر أسفار العهد القديم وعلى مصداقية الشخصية الروائية في ذلك الحكي، أي يهوه ذاته الذي ادعى المؤلفون البشر لـ"الأسفار المقدسة" أنها "كلامه الذي لا يُناقَض ولايُشك فيه ولا يدحض".

فالراوية هنا- تبعا للتأكيدات القطعية في نصوص التوراة وسائر أسفار العهد القديم- هو المعبود ذاته الذي وُضِع الحكي كله ورُوِيَ، كما لو كان ضربا معلّىً من السيرة الذاتية، بلسان صاحب السيرة، بغرض واحد ومحدّد هو التدليل على أنه الإله الواحد الحقيقي القادر الذي ينبغي أن يعبده قوم معينون حدّدهم الحكي بشكل لا يقبل التأويل، هم من دُعوا بـ"الشعب".

وبطبيعة الحال، ظلّ الإبداع الشعري الأسطوري الذي أبدعته كل المجموعات البشرية على مر العصور حول معبوداتها، مؤنثة كانت أو مذكّرة، يؤكد- بحكيه عن

بطولات المعبود أو المعبودة ومنجزاته أو منجزاتها وعن ضروب العقاب الإلهي التي يُنزله أو تنزله بالعباد اذا ما كفروا وزاغوا- أن المعبود أو المعبودة الذي صيغ حوله أو صيغ حولها الحكي أقوى سحراً وأقدر وأشد عقاباً من كل من عداه أو عداها من آلهة وإلاهات.

وبطبيعة الحال أيضا- إن لم يكن لشيء فللمحدودية النسبية للآفاق التي يمكن أن يحلّق صوبها الخيال الإنساني على أجنحة الجواز الشعري الأسطوري- ظل الحكي عن بطولات الآلهة والإلاهات وقدراتها وأشكال عنفها الإلهي الذي تنزله بالبشر متى استثيرت، حكياً لم يخلُ من تشابهات قوية أو باهتة، في حالة هذا الإله أو ذاك، وفي حالة هذه الإلاهة أو تلك، منبئاً عن السطو أو الاستنساخ أو عن توارد الخواطر، نتيجة لعمومية المنابع الإنسانية المشتركة لمفهوم الألوهة ولما يمكن أن تفعله الألوهة بمخلوقاتها الفانية.

وفي حالات سرقات الآلهة والإلاهات من بعضها البعض يظل الأمر ممكنا ومقبولا متى اعتبرنا تلك السرقات نتاجا لنزوع انساني عام ومشترك بين الثقافات المختلفة لاستجلاء وجه الألوهة. وذلك ما عبر عنه مؤلف سفر الخروج عندما جعل موسى يطلب من يهوه أن يريه وجهه (خروج ٣٣:١٨-٢٣)، وعبر عنه مؤلف سفر العدد بقوله أن يهوه أملى على موسى هذه البركة (المسروقة من الصلوات المصرية):(*) "يضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك. يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاما" (عدد ٦:٢٥ و٢٦). ونحن نعرف أن يهوه، عندما طلب منه موسى ذلك الطلب الإنساني للغاية، راجيا منه أن يريه وجهه، يريه مجده، لم يعده يهوه الا بأن يمر أمامه فيريه "مؤخرته" (خروج ٣٣:٢٣). وكما أسلفنا، يظل ذلك لافتا للنظر، إن لم يكن لشيء فلأن كشف المؤخرة ذاك كان من شعائر عبادة بعل فغور الذي استمات مؤلفو التوراة في محاولة محو وجوده محواً روائيا.

وبمفارقة غريبة، يبدو ذلك متلائما مع الوضع فيما تعلّق بمعبود يجد الباحث كلما تعمق أسطوريته أن كل ما في تلك الأسطورية مقلوب ذَنَباً إلى رأس مأخوذة كل المسائل فيها من أعجازها، أي بادئة من الخلف، من وراء ومن أسفل، من الخلف، من الوراء بفعل السطو الذي لم يتوقف على أسطوريات أقدم وأسبق بما لا يقاس، ومن وراء بفعل إعلاء العجز (أو ما كان المفروض كما في حالة أي عبادة أخرى) أي العباد ("الشعب") في نسق ترتيب المكانات الروائية، أي ترتيب أهمية الشخصية الروائية للحكي، على المعبود، ومن أسفل، بالابتداء من الشواغل الأرضية (الشَّبَع والاستحواذ والتملك والثراء النابع من "أكل ثروات الأمم") السفلية انتهاء إلى "السماويات والإلهيات" مع الإخضاع المستمر لتلك السماويات والإلهيات لضروب الجشع وأشكال الجوع الأرضية.

فالدافع إلى استجلاء "وجه" الألوهة هنا ظل أرضياً والجزاء الحسن على الانصياع لأوامر الألوهة والتمسك بوصاياها والامتناع عن إتيان كل ما نهت عنه، ظل أرضيا بالمثل.

(*) ارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم"ن ص٤٨٨.

وهو وضع أخلاقي/ديني نجده ماثلاً بقوة في ديانات أرض الرافدين التي أُخِذت من هاوية أو"جبّ" العدم فيها شيول يهوه، الشديدة الشبه بهيدز الديانة اليونانية.

وبالتبعية، ظلت التهديدات وضروب الوعيد بأفعال العنف الإلهي التي ما أكثرها وأفظعها على لسان يهوه، منصبّة كلها على الخسائر المادية الأرضية التي سيلحقها المعبود بعباده. وذلك، كما قلنا قبلا، أمر يخص يهوه وعبادته (ولو أن الربانيين فطنوا في عصور متأخرة إلى مدى ما فيه من عوار فسارعوا بتلفيق جهنّا (جهنم) وجنّةٍ دسّوهما دسّا، من خارج "الأسفار المقدسة" ليحلا محل "شيول").(*)

الا أن ما يعنينا هنا في محاولة استظهار طبيعة الحرب الكهنوتية التي شُنّت بضراوة منقطعة النظير في مؤلفات الكهنة اللاويين المدعوة بـ"الأسفار المقدسة" على "الآلهة الدخلاء غير الحقيقيين" وبخاصة على الألوهة المؤنثة (الإلاهة الأم العظمى وكل تجلياتها التي تعرضت لعمليات سطو ونهب أسطوري بلا حدود من جانب صانعي أسطورية يهوه) هو- تحديدا- الاضطرار، الذي كان مصدره الإملاق الأسطوري، إلى سرقة التهديدات وضروب الوعيد بأفعال العنف الإلهي من تهديدات ووعيد آلهة سومر (وبابل وكنعان) وإلاهاتها، تماما كما سُرقت البطولات والخوارق والمعجزات ومقومات العظمة الإلهية التي لم يكفّ يهوه عن التفاخر بها في سرده لسيرته الذاتية.

في الأدب الديني السومري، نجد هذا النص الذي يبدو أنه لم تتوافر لدى أحد من "الدارسين" الصفاقة الكافية للإفلات من مأزق انكشافه بالحيلة المالوفة، وهي القول بأن السومريين هم الذين سرقوه من أقول يهوه المقدسة:

"هكذا قضى في عُلاهِم الآلهةُ العظام آن، وإنليل، والأم العظيمة،
الإلاهة الجبلِ، ننهرساج:
أن تهدَم المدن في سومر وتخرب البيوت
أن تتحول المدن والقرى جميعا إلى أرض يباب
فلا تعود تطأ طرقاتها قدم أو يعسّ في دروبها إنسان
أن يتحول ماء أنهارها إلى علقم
أن تخلو حظائرها من الثيران والبقر والخراف
فلا تعود ترتع ماشية في مراعيها
ولا تُنبت سهولُها الا الشوك والحسك
ألا يعودَ يُسمع من حظائرها صوت مخض الحليب الذي يُبهِج القلب
ألا تعود حظائرها تجود بالجبن والدسم

(*) ارجع إلى "السحر في التوراة والعهد القديم" "تابو التنجس بالموتى" وص ص٤٥١-٤٥٤ بالأخص. وارجع إلى البحث الجيد فعلا لـ: نائل حنون "عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة"، الناشر دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية". بغداد، الطبعة الثانية ١٩٨٦.

ألا تعود تحرَث حقولها أو تبذَر في ارضها بزرة
وإن بذرت أنبتت نباتا مريضا سرعان ما يعاجله العطب
ألا تُثمِر كرومُها أو تجود بساتينها بثمر
ألا تعرف شطآن دجلة والفرات الا المرض
أن تسلم رقاب أهلها للسيف
فلا يعود يعلو من سومر الا صوت العويل
أن ينتفي من أرضها صوت الفرح وصوت الغناء
ألا تعود تفرح عروس في حضن عريسها
أو تفرح أم بصغارها
أو يشب صبي علَى ركبتي أبيه".(٣)

فلنقــارن هــذا النــص، مثلا، بهذه التهديدات من سفر اللاويين ٢٦:١٤-٣٤:

"إن رفضتم فرائضي وكرهت أنفسكم أحكامي
(أجعلكم) تزرعون باطلا زرعكم
وأرضكم لا تعطي غلّتها وأشجار أرضكم لا تعطي أثمارها
وأطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الأولاد وتقرض بهائمكم
وأجلب عليكم سيفا ينتقم منكم نقمة
وأجعلكم تأكلون لحم بنيكم ولحم بناتكم تأكلون
وأخرب مرتفعاتكم وأصيّر مدنكم خربة
أجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم خربة"

أو لنرجع إلى وصف إرميا للخراب الذي سيلحقه يهوه بـ"شعبه":

"على الهضاب صوت بكاء" (٣:٢١)
"ويل لنا لأننا قد أخربنا" (٤:١٣)
"نظرت إلى الأرض واذا هي خربة وخالية
نظرت واذا لا إنسان وحتى طيور السماء هربت
نظرت واذا البستان بريّة وكل مدنها هدمت
كل المدن متروكة ولا ساكن فيها" (٤:٢٣-٢٦ و٢٩)
"هكذا قال يهوه عن البنين وعن البنات المولودين
وعن أمهاتهم اللواتي ولدنهم وعن آبائهم الذين ولدوهم فـي هـذه الأرض:
ميتات أمراض يموتون. لا يُندَبون ولا يُدفَنون وبالسـيف والجـوع يفنون
لا تدخل بيت النوح ولا تمضِ للندب ولا تعزِّهم

لا يكسرون خبزا في المناحة ليعزوهم عن ميت
ولا يسقونهم كأس التعزية عن أب أو عن أم
ولا تدخل بيت الوليمة لتجلس معهم للأكل والشرب
لأنه هكذا قال يهوه رب الجنود إله اسرائيل:
هأنذا مبطل من هذا الموضع أمام أعينكم وفي أيامكم
صوت الغناء وصوت الفرح. صوت العريس وصوت العروس"
(١٦: ٣-٥ و٧-٩)

فحتى في المواضع التي تنبأ فيها (وفي الحقيقة، "توقع"، لا "تنبأ"، من واقع استقرائه لمسار الأحداث) "النبي" من النبييم، كإرميا، بأحداث وتطورات كان موقنا من أنها سوف تحدث، كما قال في النص، "أمام أعين" من "تنبأ" لهم بها، وفي "أيامهم"، أخذ صياغة "النبوءة" من نص أو نصوص سابقة وردت فيها "تنبؤات" عما سوف يفعله آلهة آخرون غير يهوه بعبادهم، وذهب في ذلك إلى حد استنساخ الصيغ التي وردت بها تلك "النبؤات" السابقة لزمانه وزمان يهوه بقرون، استنساخا شبه حرفي، لا من الصور وحدها، بل ومن اللغة والتعابير والألفاظ ذاتها التي استخدمت في صوغ الصور.

وتلك- متى تفكّرنا فيها- تبعية غريبة، روحيا وفكريا، من جانب نبييم إله وصف بإلحاح بأنه الإله الحقيقي الوحيد، لصياغات دينية قديمة دارت حول آلهة وصفوا بإلحاح بأنهم آلهة غير حقيقيين وأصنام وقطع من خشب أو من حجارة. فلمَ؟

هل كان ذلك لأن نبييم يهوه والكهنة الذين ظلوا يسرقون تلك الصيغ بألفاظها وصورها ومضامينها، أي شكلا ومحتوى، كانوا مملقين فكريا وأدبيا مفتقرين إلى سعة المخيلة؟ ولكن كيف، وكل كلمة قالوها "أنزلت" عليهم من إله؟ هل، يا ترى، كان ذلك الإله- فوق إملاقه الأسطوري- "ثقيل اللسان" كما قال موسى عن نفسه" استمع أيها السيد. لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا من أول أمس ولا من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان" (خروج ٤: ١٠)؟

لا يبدو أن الأمر كان مرجعه هذا ولا ذاك. لأن يهوه، عندما قال له موسى ذلك عن نفسه، وبخه على قلة ايمانه قائلا له "من صنع للإنسان فما أو من يصنع الإنسان أخرس أو أصم أو بصيرا أو أعمى؟ أما هو أنا الرب؟" (خروج ٤: ١١)

المشكلة اذن (خاصة متى أخذنا في حسباننا المعاني المضمرة تحت السطح في هذه الصياغة التي يبدو واضحا أن أسطر هذا الحوار بين موسى ويهوه وضعت بها بعد موسى بقرون)، لم تكن مشكلة عيّ أو "ثقل لسان"، لا من جانب النبييم، ولا من جانب يهوه، بل كانت مشكلة خلقتها ضرورة احتواء واستلاب وابتلاع تلك الآلهة الأخرى، ازاحة لها من طريق يهوه، وازاحة لكهنوت ورث عباداتها من طريق كهنوت يهوه، عن طريق أخذ كل ما وجده كهنة يهوه لديها من أسطوريات وترانيم وتسابيح صورت بها

قدراتها وأشكال تعاملها مع البشر، ونسبة كل ذلك إلى يهوه تغييبا لتلك الآلهة وتضخيماً واعلاءً ليهوه.

وفي العهد القديم أمثلة عديدة على ذلك التغليب الأسطوري ليهوه على منافسيه من آلهة الهلال الخصيب القضيبية، كما في قول إشعياء الثاني: "قد جثا بيل (بعل، بكسر الباء، بابليا) انحنى نبو. صارت تماثيلهما على الحيوانات والبهائم (أي باتت صورهما صور حيوانات وبهائم)" (٤٦:١). وبعل (بكسر الباء) الأكدية، مقابل بابليّ لـ"بعل" (بفتح الباء) الكنعانية، وتعني "السيد" وهو اللقب الذي خوطب به يهوه، وبخاصة في التوراة، في مواضع متعددة. فـ"بيل"، "بعل" الذي أكد إشعياء الثاني، صاحب صيحة "حقا انك لإله محتجب يا إله اسرائيل المخلّص"، أنه "جثا" (وبالطبع كان جثوه أمام يهوه الذي، بغتةً، أصبح "محتجبا" وتسامى)، كان الإله البطل القضيبي مردوخ (النسخة الأكدية من إنكي السومريّ) الذي وقع سطو واسع عليه وعلى أسطورية الخلق التي دارت حول صراعه مع الألوهة المؤنثة، لحساب يهوه، وقد دعاه اليونان "بيلوس" في استنساخهم لنفس الأسطورة. أما "نبو" فهو الإله البابليّ الذي أخذ من إينانا السومرية ألوهة فن الكتابة وأخذ من الإله السومري إنكي صفة "إله الحكمة" وأعليت مكانته من القرن الثامن ق.م. بأن جعل "إبنا لمردوخ" وانتمى اليه الملك البابلي نبوخذنصر الذي يعني اسمه "نبو يحمي حدودي".

وحتى في المواضع التي لم يذكر الآلهة الذين أُعليَ يهوه عليهم بالاسم، نجد إعلانات الإيمان بعلو يهوه على كل من عداه مترددةً بإلحاح في أسفار النبيين والمزامير، كترنم المزمور ٨:٨٦، مثلا: "لا مثل لك بين الآلهة يا يهوه، ولا مثل لأعمالك"، أو تفاخر المزمور ١:١٣٨ بيهوه قائلا "قدام الآلهة أرنّم لك (يا يهوه).. لأنك عظّمت كلمتك (وأعليت) اسمك"، أو مصارحة المزمور ١:١٤٥ بحقيقة الإعلاء، وكونه لـ"الإله الملك": "أرفعك يا إلهي الملك وأبارك اسمك إلى الدهر والأبد"، وهو ليس الملك على "شعبه" فقط، بل و"الإله العظيم الملك الكبير على كل الآلهة" (مزمور ٣:٩٥)، فهو الإله الذكر البطل الذي انتصر على كل آلهة الشعوب والأمم (الأغيار) وعلا فوقها فبات "قاضيها" أي حاكمها: "يهوه قائم في مجمع الآلهة. في وسط الآلهة يقضي" (مزمور ١:٨٢) وبات "راكبا على سماء السموات القديمة" (مزمور ٣٣:٦٨)، واذ بات "إله الآلهة" وبات إلها ملكا لـ"الأرض من مشرق الشمس إلى مغربها" إذ "أشرق عليها من صهيون" (مزمور ١:٥٠ و٢)، "ملكا على الأرض كلها، ملكا على كل الأمم (الأغيار، عبدة الأصنام)، فتعالى جدا (على كل آلهة الأمم) وباتت له كل مجانّ (دروع) الأرض" (مزمور ٧:٤٧ و٩) "أخضع الشعوب تحتنا (نحن، شعبه) والأمم تحت أقدامنا" (مزمور ٣:٤٧)، لأنه الإله البطل القوي المحارب "عزيز يعقوب"، أي ثور "شعبه" الذي به "ينطح شعبه مضايقيه وباسمه يدوس على القائمين عليه" (مزمور ٥:٤٤).

فالمسألة، كما توقفنا النصوص، ليست مسألة سماويات ونورانيات وهيولي، بل- تحديدا- مسألة دنيا وصراعات وأرضيات وتسيُّد أرضي، ووضع لكل من عدا "الشعب" تحت أقدام "الشعب" إخضاعا لكل الشعوب تحته.

مثل هذه النصوص الواضحة في مغزاها، وما أكثرها في العهد القديم، تقرأ اليوم- على الرغم مما ظلّت، حتى بعد المعالجة، مفصحة عنه من شواغل أرضية دنيوية- بوصفها ترنما جذلا وتهلّلا نورانيا يمجد به أناس أتقياء بغير حدود العلّو الأثيري للإله الحقيقي الجيد الوحيد الذي أفضى اليه سعي البشرية منذ بدأت تبحث عن الألوهة لتلوذ بحماها وتستمد منها معنى لواقعة الوجود، ويتغنون بارتفاعه على كل تلك الآلهة الأخرى الوثنية الرديئة المنحطة، بصرف النظر عن أن صفاتها وقدراتها وألقابها وأسطورياتها هي ما وقع السطو عليه وصنع منه، تركيبيا، ذلك الإله الحقيقي الجيد والوحيد.

غير أن هذا التهلل يظل في جانب، وتظل قاعدة له في الجانب المقابل، محملقة إلى وجهه الورع المشتاق، النصوص "المقدسة" ذاتها التي استخدمت في صنع أسطورية ذلك الإله الذي كان التوصُّل إلى ايجاده إنهاءً لوجود كل إله آخر غيره. فتلك النصوص "المقدسة"، بما هو مطمور فيها وما هو مطل برأسه هنا وهناك من بين سطورها، تناقض، بل تدحض مثل هذه القراءة "الطيبة"، "الورعة"، المرتعشة بحمى الإيمان أو بحمى الشبق إلى الإيمان، فتكشف عن كونها قراءة مغلوطة تحت تأثير التمني، وتبين أن الإيمان ليس في حقيقته الا نتاج عملية طويلة ضارية من عمليات التحكم في العقل بدأت في بابل بمعالجة كل نص من نصوص الأسفار "المقدسة"، وتحريره، وتلوينه (كما يلون الصحفي المنحاز "تقريره") بهدف تحقيق مقاصد ظلت باستمرار أرضية ولم تكن لها منذ البداية أدنى علاقة بنورانيات أو بسماويات.

تلك حقيقة لا ينبغي أن ندعها تغيب (أو تُغيَّب) عن بصر العقل- ما لم نكن راغبين في تغييبه وطمره- ولا ينبغي أن ننسى ونحن جاهدين في إبقائها نصب العين أن كل ذلك التحرير والتلوين، وكل تلك المعالجة بل وإعادة التأليف بمنهج تلفيقي، كانت كلها أنشطة كهنوتية اتصفت بالضراوة والتصميم، مورست في بابل، إبان السبي (٥٨٦-٥٣٩ ق.م.)، بعد الزمن الذي أرجع الحكي وراء اليه ليحتوي "آباء" تائهين، بما لم يقلّ عن ثلاثة عشر قرنا، وبعد أكثر من سبعة قرون من الزمن الذي حكت التقاليد السابقة للمعالجة والتحرير أن إلها ظهر فيه لكاهن مصري آبق اسمه موسى وجعله نبيا له.

فالقرن السادس ق.م. كان الزمان، وبابل كانت المكان. في ذلك الزمان وذلك المكان صُنعت الديانة التي يعرفها العالم اليوم باسم "اليهودية" أخذا عن المسمى السياسي لكيان دُعي وقتا إلى أن أزاله البابليون من الوجود باسم "مملكة" يهوذا، وافتعِل لقوم أو بالأصح لتجمع سائب من عشائر بدوية متناحرة أُطلق عليه- روائيا- اسم "الشعب" نسب خيالي بغية إعطاء ذلك "الشعب" عمقا تاريخيا وأصلا عرقيا ودينيا عن طريق الحكي- روائيا- بأنه انحدر من أصلاب أسلاف عريقين أسموا- تشاعراً بـ"الآباء" في سياق عملية

شاسعة من إعادة الصياغة وإعادة التأليف لنصوص منشئة للاهوتية بـدا لمـن اضطلعـوا بتلـك المهمة الجليلة أنهم كانوا مستطيعين عـن طريقهـا انقـاذ مـا أمكـن العمـل علـى انقـاذه مـن المشروع الموسـوي بعـد انهيـاره مرتيـن متتـاليتين، بدمـار "المملكتيـن"، علـى رؤوس مـن ورثوه.

ولما كان المشروع كله، منذ خطرت فكرته لموسى، بـدأ بـاختلاق "روائـي" مـن محض الخيال (هو الذي تضمنته التقاليد التي ظلت تتناقل شفاها إلى أن حُـررت وعُولجـت وأُعيدت صياغتها، وفي بعض المواضع، أُعيد تاليفها، في بابل)، عن معبود خلّق تركيبيا مـن خلال عملية سطو بدأت بالنهب مـن الديانـة المصريـة ووسِّعت باستمرار بحيـث بـاتت- مؤسَّسيا- عملية ابتلاع لكل ألوهة منافسة، وعن كيان بدأ بـ"فريـق مـن عبيـد آبقيـن" كمـا قالت التوراة ذاتها، كان- فيما هو مرجح- الفلول التي تبقت في مصر بعد محق الهكسوس إلى أن ضاق المصريون بخطر العدوى من أمراضها الجلدية والتناسلية، وقد علق بهـا رهـط من كهنة مصريين هاربين من وجه كهنة آمون برئاسة "الرجل موسى"، لم يكن من الصعـب المستعصي على من اضطلعوا بعمليـة المعالجـة واعـادة الصياغـة إبـان السـبي فـي بـابل، أن يواصلوا صنع الديانة وتشكيل صورة المعبود بنفس منهج التـأليف الروائـي الـذي بـدأت بـه الحكاية من نقطة الانطلاق الأولى: وقوف موسى على عبادة الوثن القضيبي يهوه إبان إقامته بمضارب المديانيين العرب. فموسى، وهو منفيٌّ باختياره في مديان، اكتشف يهوه. وورثـة موسى، وهم في السبي، ببابل، أعادوا اكتشاف يهوه.

والذي لا ينبغـي أن ننسـاه هنـا أيضـا أن مـن أعـادوا اكتشـاف يهـوه أولئـك، بعـد اكتشاف موسى له بأكثر من سبعة قرون، كانوا- بحكم كونهـم قـادة المؤسسـة الكهنوتيـة التي اعتبرت نفسها الوريثـة الشـرعية للمشـروع الموسـوي والمسـتفيدة الرئيسـية مـن جـل مغانمه، حتى في ظل "الملوك" الذين ظلّت علاقاتها بهم علاقات شـحان- صفـوة "شـعب" يهوه، وسادته. ومن ذلك الوضع الاجتماعي/الاقتصادي المميز، كانوا- سيرا على هدى مـا تعلموه مما وصلهم من تقاليد تنوقلت عن موسى وخلفيته الكهنوتية المصرية- قد عُنوا بـأن يحذوا حذو كهنة المعابد المصرية، فلا يظلوا مجرد كهنة خداما يقيمون الشـعائر ويتلقـون العشور ويمـلأون كروشـهم، كمـا وصفـوا فـي بعـض نصـوص العهـد القديـم، بالتقدمـات والأضاحي. وبفضل ذلك الطموح، تحول البعض منهم إلى صفوة الصفوة، صفوة المؤسسة الكهنوتية، وكأنما كانوا يعدّون أنفسهم لاستعادة ما كان الملوك قد سلبوهم إياه منذ رضخ صموئيل فمسح شاول ملكا. وذلك ما حققته فعلا في القرن الثاني ق.م. الأسـرة المكابيّـة، إذ أعادت حكم "الشعب" إلى يد الكهنوت اليهيوي.

أولئك الكهنة، صفوة الصفوة، الذين سبوا مع من سبي من "رؤساء الشعب وقادتـه" إلى بابل (ولم يسبِ البابليون "مساكين الأرض" (الملـوك الثـاني ٢٤ و٢٥) أي العـوام مـن "الشعب" بل سبوا "الرؤساء والأقيان والصناع") عندمـا استقروا فـي بـابل، كـانوا ملميـن، بجانب إلمامهم بلغة مصر ومعارفها، بلغة سومر، ولغة بابل، وبالكتابة المسـمارية، إلمـامهم

بلغات الكنعانيين وأساطيرهم. وبتواجدهم في بابل، أتيحت لهم فرصة الاطلاع والتثقُف بشكل لم يسبق له مثيل. فبابل لم تكن عاصمة امبراطورية كبرى ومركزا تجاريا هاما فحسب، بل وكانت مركزا دينيا ضخما ضم ١٠٨ معابد لكبار الآلهة، منها ٥٥ معبدا لمردوخ وحده، غير ١٨٠ معبدا للإلاهة عشتار، ومثلها عددا للإلهين عيرّا/نرجال، وأدد/هدد/حداد (الذي عبد في كنعان باسم بعل صفون)، غير ٦٠٠ مزار ديني وهيكل لآلهة وإلاهات أقل شأنا. وفي معابد بابل توافرت كنوز لم تكن تقدر بمال تمثلت في آلاف الرقوم (جمع رقم، أي ختم) الأسطوانية الطينية المسجلة عليها بالكتابة المسمارية أساطير أرض الرافدين وترانيمها وتسابيحها الدينية.

وبالوقوع على ذلك الكنز من المعارف الأسطورية والدينية، قُيضت لأولئك الكهنة ذخيرة فطنوا إلى مدى فعاليتها فاستخدموها استخداما منقطع النظير في المعركة التي خاضوا غمارها، على الأرض، لا في أية سماء، للاجهاز على الإلاهة الأم واستكمال إصعاد يهوه وتنصيبه ملكا على الكون.

- - - - -

(١٣) حرب على الأرض لا في السماء

كما نعرف، ظلت التهمة الكبرى والخطيرة التي لم يكف الكهنة اللاويون عن توجيهها إلى "الملوك" و"الشعب"، بل وإلى بعضهم البعض، إما مباشرة، بألسنتهم، وإما تأليفا باجرائها على لسان يهوه، أن "الشعب" ظل يضل هو ورؤساؤه ("ملوكه") ورعاته (كهنته) فيخرج "من تحت يهوه" ويسير وراء معبودات "غريبة ودخيلة" تبين في خاتمة المطاف أن عددا لا يستهان به منها كان معبودات مؤنثة.

وكما نعرف أيضا، استخدمت تلك التهمة بالحاح بالغ في تبرير كل نكسة عسكرية لم يكن ينبغي أن تلحق بقطيع رب الجنود المحارب قوى الشكيمة وأقوى الآلهة جميعا، وكل نكبة حلت بابنته معشوقته اسرائيل. وقد كان ذلك الاستخدام الذكي درءا لتهمة العجز عن يهوه وإنقاذه لسمعته كأقوى الآلهة وأمضاها سحرا، تطبيقا كهنوتيا للعقيدة التي أرسى موسى أسسها واجتهد ورثته اللاويون في ترسيخها (كما في سفر اللاويين، وفي سفر التثنية). فتلك العقيدة انبنت على القول بأنه طالما عبد "الشعب" يهوه وظل "تحته" سارت أموره سيرا سلسلا فمُكّن إلّهيا من ذبح كل "من دفعه يهوه ليده" تعبيرا عن الرضا الإلهي، وأخذ كل ما اشتهى أخذه من الشعوب التي جعلها ذلك الرضا الإلهي مستباحة له. أما متى حرن وزاغ، فخرج من تحت يهوه وأغضبه بـ"الزنى" تحت الآلهة المنافسة فحرم كهنته من العشور والتقدمات ومن التسيد على ملك يقام تحت جناح يهوه، فان "غضب يهوه (المعبود البركاني) "يصعد إلى أنفه"، وينقذف "نارا آكلة" لا تبقي ولا تذر، ونقمة يهوه ("رب الوباء") تنبجس وباء كاسحا يقتل من "الشعب" الآلاف المؤلفة. وفوق هذا وذاك كله، إذ يسحب يهوه حمايته العسكرية ويرفع من فوق "الشعب" الزائغ و"ملوكه" وكهنته الضالين مظلته الحربية، لا يعجز "الشعب" فحسب عن افتراس الشعوب الأخرى وأخذ كل ما بأيديها، بل ويسوق عليه يهوه عامدا تلك الشعوب الأخرى (التي تعبد آلهة منافسة) لتحطمه وتذله وتسبيه.

وفي زمن خراب "المُلك" (الذي كان، منذ البداية، الهدف الرئيسي من تجميع "الشعب" تحت يهوه) والسبي، والكهنة يتجرعون غصة انهيار حلم موسى المميت وهوان الأسر ومرارة تبدد أحلام العظمة، اجتهدوا، في سياق عملية اعادة صنع الديانة، في ردها- كما أسلفنا- إلى ما أوقفتهم التقاليد المتناقلة عن موسى على أن موسى كان قد شرع في صنعها على مثاله، أي في ردها- كما سلم فرويد وماير وغيرهما، وكما أعلن جيوردانو برونو فأحرقه زبانية محاكم التفتيش- إلى الأصول المصرية التي استمدت أهم عناصر الديانة ورموزها من كنزها عديم المثال في تاريخ الفكر الديني.

في غمار ذلك الاجتهاد، وضع الكهنة في زمن السبي ما عرف باسم "الوثيقة الكهنوتية (P) لتكون الخلاصة المصفاة والقول الفصل والمرجع المعتمد الثقة لـ"التاريخ المقدس" كله، وعملوا على أن تكون "وثيقتهم" داعمة، صياغة وتحريرا، للقول بأن كل

"حدث" رواه "التاريخ المقدس" وقع، إن كان خيرا، لأن يهوه رضي عن "الشعب" فكافأه، وإن كان شرا، لأن يهوه غضب على "الشعب" فعاقبه. وهو ما تطلب ممن اضطلعوا بتلك المهمة جهدا خارقا واستماتة عديمة النظير في إعادة صوغ الديانة كما ثُبِّتت تحريريا سعيا إلى تحقيق هدف "يهوه وحده" الذي ناضلت المؤسسة الكهنوتية، منذ أنشأها موسى، نضالا بالغ الضراوة من أجل بلوغه.

ويتعين، حتى نتمكن من تفهم الكيفية التي طمح أولئك الكهنة الملتزمين بالمشروع الموسوي إلى بلوغ ذلك الهدف من خلالها، أن نذكّر أنفسنا بأن المسألة تعلّقت بحكي كان قد ظل يتناقل شفاها لنصوص لم تكن- بحكم مَنشَأها الإنساني، لا الإلهي، حيث هي مؤلفة لا "منزلة"، وبحكم ما مرت به عبر القرون من اختزال وازادة وتغيير وتعديل على ألسنة الرواة والمنشدين وفيما قد ثُبِّت من بعضها كتابة- لتستعصي على المعالجة والتحرير والتلوين أو على اعادة التأليف، يشهد بذلك أنها مازالت غير مستعصية على المعالجة والتحرير والتلوين أو حتى على إعادة التأليف في زماننا، من خلال عمليات الترجمة المتلاحقة.

واذ حُرِّرت تلك النصوص وعولجت وثُبِّتت كتابة، باتت "الكتاب". غير أن الحقيقة الماثلة في أن ذلك "الكتاب"، كما هو بين أيدينا وكما قرأته أجيال قبلنا وسوف تقرؤه (معالجا أكثر) أجيال بعدنا، لم يتألف أي فصل من فصوله من وحي منزل من إله، بل تألف من اجتهادات بشرية بالغة الاجتراء عاملت الألوهة كما يعامل المؤلف الروائي شخصية أبدعها خياله، فيجعلها تفعل ما يريدها أن تفعله، ويجري على لسانها كل ما يجده متفقا ومقاصده من التأليف ومن ابداع الشخصية من أسطر الحوار. تلك الحقيقة- التي لم يعد هناك من يمارى فيها جدّيا- توقفنا على أن "اليهودية"، كما عرفها ويعرفها العالم صنعت في بابل كمحصلة نهائية لضروب شاسعة وجريئة من الاستنساخ والاقتباس والنقل والمراجعة والحذف والاضافة واعادة الصياغة وراء أستار كثيفة من التمويه والتلغيز والإتاهة والاحتماء في حكاية الـ٦٣٠ الف معنى.

فكهنة عصر السبي- بالنظر إلى إلمامهم بحقيقة المآرب التي صنعت الديانة من أجلها أصلا- لم يجدوا "حراما" أو "خطيئة" في الانخراط بهمة فائقة في تلك العملية التي لا يمكن أن توصف الا بأنها اعادة صوغ للديانة، وإعادة تخليق للمعبود في آن معا. لأن نكبة ضياع المُلك (والديانة لم تصنع أصلا الا بغرض إقامة المُلك)، ونكسة السبي، أوقفتا الكهنة الملتزمين بالمشروع الموسوي على أن المسألة كانت قد وصلت إلى مرحلة لم يعد هناك مهرب في مواجهتها من أخذ أمور الديانة بيد حازمة وإعادة صنعها سدا لكل الثغرات السابقة التي بدا لهم أنها كانت المنافذ التي تسرب منها كل ما أفضى في النهاية إلى اضمحلال "المملكتين" ومكّن "الأغيار" (الأمم، اللابشر) من إزالة المُلك اليهيوي من الوجود (أي من "الأرض التي تفيض لبنا وعسلا" حيث لا وجود في الديانة الا لما هو أرضي ومدرّ للثروة وأطايب العيش) وهدم هيكل يهوه، وفتح تابوته واكتشاف سره الذي

جعل إشعياء الثاني يسارع بالقول بأن يهوه، حقا، إله محتجب، ويضيف قائلا "قد خزوا وخجلوا كلهم. مضوا بالخجل جميعا الصانعون التماثيل" (إشعياء ٤٥: ١٥ و١٦).(*)

ويتعين أيضا- كيما نتوصل إلى تقييم صائب لأهمية هذه الشواغل الدنيوية البحتة والوقوف على مدى ما باشرته من تأثير في تكييف رؤية الكهنة اللاويين لأوضاع الديانة وما انبغى أن تكون تلك الأوضاع عليه، ونظرتهم إلى ما هو أصلح وما هو أسوأ فيما تعلّق بمصيرهم كطبقة صفوة وبمصير "الشعب"، الذي لم يكن لهم غنى عنه كيما يعيدوا إحياء مشروع موسى- أن نظل نذكّر أنفسنا بما لا يستقيم أن ننساه في تعاملنا مع أي قضية من قضايا هذه الديانة، وهو البعد السياسي. فذلك البعد كان- بالضرورة، وبحكم التوجه الرئيسي للمشروع كما وضعه موسى- شديد المضاء في صنع دوافع الكهنة وتشكيل مواقفهم في كل شأن من شؤون الديانة، وبخاصة فيما تعلّق بالصيغة التي كان من الملائم لمطامعهم المتفق مع مقاصدهم أن تستقر عندها النصوص المسجلة كتابة.

فهم- وقد وضعوا للخليقة كلها "تاريخا مقدسا" ألّفوه مما اختلسوه من أساطير شعوب الشرق الأدنى القديم- عنوا، على سبيل المثال، عناية خاصة بأن يغلّبوا في ذلك "التاريخ"، حجما وأهمية، ما استماتوا في جعله تاريخا لـ"الله" (باعتباره يهوه) متلاحما بتاريخ "الشعب الأخص"، على الهذيان الأسطوري الذي صوروه على أنه "تاريخ لخلق العالم" بمن فيه وما فيه. وعلى الرغم مما نطق في ذلك من لوى عنق "التاريخ" بشكل صارخ من المؤكد أنه لم يغب عن فطنتهم، لم يتوقف ورثة موسى عند ذلك ذاهبين رأسا إلى مقصدهم من هذا اللوى لعنق التاريخ وهو إضفاء "مصداقية" إلهية على الادعاء الذي اهتموا به أكثر من أي ادعاء غيره، وهو أن إلها خاصا بـ"اليهود" تعاقد معهم، منذ القرن التاسع عشر ق.م.، من خلال "عهد قطعه" مع "آبائهم"، على إعطائهم أراضي شعوب كانت- تبعا للحكي ذاته- أقوى من "الشعب"، وأعظم عددا، وأعرق حضارة، وكان كل ذنبها أن يهوه لم يقع في هواها ولم يعشقها عشقه المشبوب (الذي يبدو أنه أفقده كل شعور إلهي بالعدل) لابنته، "حبيبة نفسه" اسرائيل.

ولما كان ذلك العهد الذي "قطع" عهدا إلهيا، وكان الطرف مانح الهبة فيه إلها وصف في الحكي بالحاح لافت للنظر بأنه اله غيور شديد الغيرة تهيج غيرته فيقذف حمما وشواظ نار ويخرج دخانا من أنفه اذا ما خرجت عروسه "من تحته" فخانته "خيانة، كما تخون المرأة بعلها" وذهبت ففتحت فخذيها وزنت مع منافسيه، فان الزخم الأساسي لصياغة النصوص كما حررها الكهنة وسجلوها كتابة تمثّل في التأكيد بأن ذلك الإله القضيبي (الذي لم يبذل الكهنة جهدا خاصا لاخفاء قضيبيّته وإن كانوا قد موهوا عن تمثاله المثير للخزي والخجل الذي تكشف عنه فتح تابوته) ظل، حتى بعد أن رُفِع إلى ما فوق

(*) ارجع في شأن ذلك "الخزى والخجل" كله، الذي لم يترك المحرر في النص ما يفسره، إلى مطلع الكتاب الثاني من هذا المبحث، حيث نستظهر حقيقة ما تكشف عنه مكمن يهوه عندما فتحه البابليون.

الجَلَد وجعل محتجبا، شديد الغيرة، مع إبراز عنصر "القداسة الرهيبة" في تلك الغيرة، وظـل مصرا على الذود عن فرج ابنته عروسه اسرائيل حتى تظل زوجة وفية مخلصـة لـه فـلا يعـود ينافسه عليهـا أي إلـه قضيبـي آخـر مـن الآلهـة الذكـور الذيـن ازدحمـت بهـم واصطخبـت بصراعاتهم الدينية الساحة الدينية للهلال الخصيب.

(١٤) طمر الإلاهة في ابنة يهوه معشوقته أم "الشعب"

في سفر حزقيال، يخاطب يهوه عروسه الزائغة اسرائيل ممثلة في "يروشلايم"، قائلا لها :

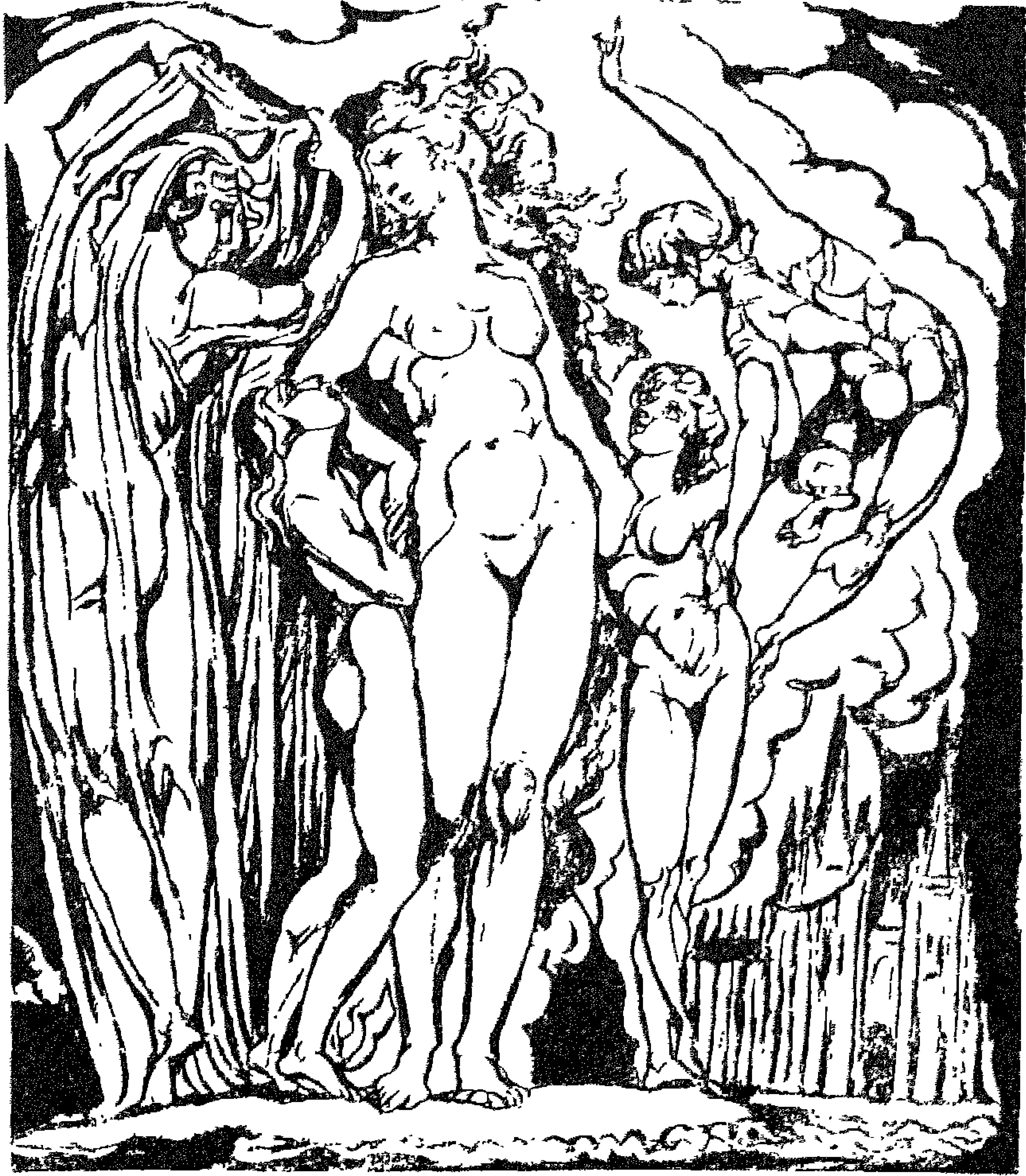
جعلتك ربوة كنبات الحقل فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان. نهد ثدياك ونبت لك شعر حيث كنت عريانة وعارية" (١٦:٧) (انظر الشكل رقم ١٧).

وفيما هو واضح من ترجمة النص، سواء إلى العربية أو إلى الانكليزية، وجد المترجمون أنفسهم في مأزق حرج حيال هذا القول. فالتلاعب بنص لحزقيال أمر صعب، أصعب بكثير من التلاعب بنص من سفر المزامير مثلا. ولذا فانهم تركوا النص على ما هو عليه، مع تغيير ذكي طفيف تمثل في تغيير "ونبت لك شعر حيث كنت عريانة وعارية" إلى "ونبت شعرك وقد كنت عريانة وعارية"، على أمل أن ينصرف الذهن بفعل هذه الصياغة إلى شعر الرأس. غير أن المحاولة كانت بنصف قلب، وكما قدر المترجمون فعلا، لم تكن لتصبح مجدية الا اذا غير النص كله فرفعت منه "ربوة"، و"ربوت"، و"عريانة وعارية" التي وردت في نص الملك جيمس واضحة المغزى في سياق القول:

".. and thine hair is grown <u>whereas</u> thou wast naked and <u>bare</u> "

وقد كان ذلك أقصى جهد المترجمين إلى الانكليزية سترا لعرى النص لكن ظلت، مع ذلك كاشفة، وزادتها كشفا لفظة bare بمعنى جرداء، أو بغير شعر، whereas وهو ما تعنيه أيضا "عارية" (عارية من الشعر) في الترجمة العربية، لأنه لو كان المقصود باللفظة العري من الثياب لباتت "عارية" تزيّدا لامعنى له بعد "عريانة". ولو كان الشعر الذي تحدث يهوه عن نموه شعر الرأس، كما أمل المترجمون إلى العربية أن يوحوا، لاستخدمت لفظة "حليقة"، أو لفظة "صلعاء"، ولو كان المقصود بـ"عارية" عري الرأس لكان الأصوب القول "مكشوفة الرأس". ولكن، ما الذي كان الداعي إلى استخدام لفظة "عريانة" (أي مكشوفة الجسم بلا ثياب)، لو كان الأمر متعلقا بشعر الرأس؟

وحتى، اذا أمكن الدوران حول عري العانة من الشعر، وحول التجرّد من الثياب، ما الحيلة في "ربوة" و"ربوت" و"نهد ثدياك" ؟



الشكل رقم (١٧)
رؤية الشاعر الانكليزي ويليم بليك ، بريشته ، لابنة يهوه معشوقته اسرائيل ممثّلة بيروشلايم مع بنيها وبناتها ، من واقع النصوص "المقدسة"
(حزقيال ١٦ : ٧ - ٢٦)

التصوير الجنسي لجسد أنثوي دخل مرحلة النضج بامتلاء الثديين ونموّ شعر العانة وامتلاء الردفين وعُلو(*) هضبة، تبةّ، ربوة العانة، ناطق في النص بشكل لا سبيل إلى الدوران حوله أو المراوغة في شأنه. وهو- على أية حال- قد تعزّز لفوره بقول يهوه في "الآية" التالية مباشرة:

"فمررت بك ورأيتك واذا زمنك زمن الحب. فبسطت ذيلي عليك وسترت عورتك" (١٦:٨)

فيهوه يتحدث هنا عن فرج معشوقته الذي تقبّبت عانته واكتست شعرا، علامة على البلوغ وعلى أن المحبوبة دخلت في طور "زمن الحب"، زمن المضاجعة. وتبعا لذلك، "يدخل معها يهوه في عهد"ويأخذها فيحممها بالماء ويدلك جسدها بالزيت ويلبسها أفخر الثياب ويزينها بالحليّ ويضع تاجا على رأسها لـ "تصلح لمملكة"، أي لتصلح أن تكون ملكة تليق بالملك يهوه، ويقول لها "قد صرت لي" (١٦:٩-١٣).

فهل كان حزقيال، ذلك "النبي" الجليل، مجنونا ؟ هل كان قد فقد صوابه فأجرى مثل هذا الوصف الجنسيّ المكشوف المشبوب على لسان إله صوّر، منذ بدايات حكايته في سفر التكوين، متعاليا على الحسّيات متنصلا من الجسديّات ؟ أم ترى كان الرجل "يتنبأ" وهو تحت تأثير عقار الهلوسة، الأمانيتا موسكاريا ؟ أم تراه كان، عندما "تنبأ" فقال ذلك، في حالة شبق جنونيّ، في قبضة هياج جنسيّ عارم أدار رأسه وملأ دماغه بهذه التصورات الباذخة لعري جسد أنثويّ بثدييه الناهدين وهضبة عانته وفرجه ؟

لا هذا ولا ذاك، فيما هو مرجّح، والا لما كان كلامه قد أدرج بغير تعديل (في الأصل، قبل الترجمة) في صلب "كتاب الديانة". وكل ما في الأمر أن كلامه يبدو لنا الآن، في زماننا، مستغربا، أو بذيئا، أو مستفظعا، لأننا نفكر في مثل هذه القضايا "الإلهية" ونتعامل معها عقليا وعاطفيا من منطلقات ثقافية مختلفة عن منطلقات حزقيال.

فحزقيال كان "يتنبأ" في زمانه وهو غائص، حتى قمة الرأس، في حمأة صراع مفروض أنه "إلهي" لكنه، بمفارقة خاصة بديانة حزقيال، دائر علىأرض البشر، لا في سموات أية آلهة. وفيما يخصنا نحن، هنا، الآن، لا وجود في عدتنا الثقافية لما يمكننا من رؤية المسألة في سياق تلك المفارقة. لأنه لا وجود للمفارقة عندنا. ففي حالتنا، هناك إله واحد، لا آلهة كثار. ومن وجهة نظرنا (التي دقت في أدمغتنا دقا) المسألة ليست مسألة أرضيات بل مسألة سماويات ومسألة صلاح وتقوى كل ما للبشر بها من علاقة خيار أن يكونوا صالحين أتقياء، أو طالحين أدنياء.

غير أن تلك لم تكن منطلقات حزقيال. لا لأنه كان شخصا رديئا، بل لأنه كان- كما أننا أبناء عصرنا ونتاج ثقافتنا- ابن عصره ونتاج ثقافته، وبالأهم والأخص نتاج أيديولوجية السلالة الكهنوتية اللاوية التي أنجبته والتي من خلال الانتماء اليها احترف شغلة

(*) في الترجمة الانجليزية: "waxen great"

"النبوة". ففي عصر الرجل وثقافته- على الرغم من الابراز ثاقب الصوت الذي أملته الضرورة الأيديولوجية للادعاء بأنه لم يكن، من مبدأ الأمر، إله إلا يهوه، والادعاء بأن المسألة كانت، من مبدأ الأمر، مسألة "صلاح" و"تقوى"- كان هناك صراع "إلهي" متقد الأوار (اتخذ في العديد من الحالات أشكالا دموية) أرضيّ السياق، أرضيّ المنطلقات، دار على صعيدين: (١) صعيد التنافس على وضع الإله الأعلى ملك الكون بين حشد عميم من الآلهة المذكرة القضيبية التي كان يهوه أحدها كما وصفه سفر المزامير وأفلتت من الرقابة الكهنوتية اشارات عديدة سواء في التوراة أو سائر أسفار العهد القديم وصفته بأنه إله بين آلهة، حتى وان تمسكت بأنه أعظمها وأعلاها وأقواها سحرا، و(٢) صعيد التنافس بين تلك الآلهة القضيبية التي اجتهدت في إصعادها مجتمعات كانت تمر بمرحلة انتقال من الماتريار كية إلى الباتريار كية، على امتلاك فرج الإلاهة الأم والتربع على تبته (عرش الكون) حلولا محلها في ملوكية الكون.

وفيما يخص حزقيال وهو آخذ في "التنبؤ" بنشاط بالغ تحت وطأة كارثة السبي، كان العامل الأساسي الجوهري في انشغاله بذلك الصراع بشقيه عاملاً أرضياً صرفاً يمكن ايجازه في كلمتين: "ضياع المُلك". وما على المرء اذا ما استفظع ذلك الا أن يقرأ بشيء من الامعان "نبوءات" نبييم عصر السبي وما بعده، ولسوف يجد أنه يقرأ كلاما قاله أناس مأزومون، في حالة حمى، وأن الأزمة نجمت عن انهيار المملكتين وهدم قصر الملك يهوه (هيكله) وضياع المكانة وتبدد المغانم الكهنوتية التي ظلت، منذ ابتدأ موسى مشروعه اليهيوي، المولّد الحقيقي للقوة المحركة للديانة.

وكما قلنا، استمات حزقيال وغيره من نبييم وكهنة حركة يهوه وحده في تصوير الأمر كما لو كان مسألة علاقة سببية مستمرة بين كل نكسة عسكرية أو نكبة تعرض لها المشروع الموسوي (إقامة المُلك بـ"الشعب" الموحَّد تحت يد الكهنة في ظل يهوه) وبين غضب يهوه لخروج "الشعب" من تحته. وعلى المستوى الدعائي الموجه إلى "الشعب"، كان ذلك التصوير للمسألة مفيدا على أكثر من مستوى. الا أن النبييم والكهنة، بوصفهم أعضاء مؤسسة في قمة المجتمع كانواعلى وعي كامل بالخطر الحقيقي الذي كان استخدامهم لذلك السلاح الدعائي في مواجهة "الشعب" وسيلة أساسية لدرئه، ونعني به خطر الاستيعاب الذي مازال موضوعا حتى اليوم على رأس قائمة المخاطر المهددة لمشروعات اليهودية النضالية ورأس حربتها، الحركة الصهيونية.

فمنذ البداية، لم يبد من اتجه القصد الكهنوتي إلى تجميعهم تحت راية يهوه ليكونوا "شعبا" له وأمة مقدسة يختص بها ويغدق عليها الأرض وثروات الأمم، أي تحمس حقيقي للانضواء تحت راية ذلك المعبود المستورد من المديانيين. وهو ما عبرت عنه التوراة بما وضع فيها من كلام أجري على لسان موسى قال به لـ"الشعب" أن "الشعب" منذ "عرفه موسى" ظل رافضا ليهوه. وبالمقابل لذلك الرفض العنيد ليهوه، وهو ما وصف "الشعب" بسببه، باستمرار، بأنه "صلب الرقبة"، ظل ذلك "الشعب" ينقاد بسهولة (أثارت

دائما غيظ الكهنة ومخاوفهم، يشهد بذلك اصرارهم فيما ظلوا يؤلفونـه مـن حكـي علـىأن ذلك الانقياد "جعل غضب يهوه يصعـد إلـى أنفـه") فـيرتمي فـي أحضـان ملكـة السـموات وغيرها من معبودات "الأمم" (الأغيـار، الجوييـم) ويُستوعَب فـي طريقـة حيـاة مـن كـانوا يعبدونها.

وبطبيعة الحال، كان ذلك مثار هلع حقيقـي مـن جـانب ورثـة موسـى مـن الكهنـة اللاويين. فهو، من جانب، ظل يحرمهم من العشـور والتقدمـات والمزايـا التـي كـان انقيـاد "الشعب" لعبادة "الآلهة الغريبة والدخيلة" يحولها إلى كهنة تلك الآلهة المنافسـة ليهـوه. الا أنه، من جانب آخر أجل وأخطر، ظل يتهدد المشروع الموسوي كله بالخطر الأكبر، خطر استيعاب "الشعب" وذوبانه في "شعب الأرض"، أي أصحـاب البلـد الأصليـين، الكنعـانيين. ولقد كان صمام الأمن الرئيسي الذي بثه موسى في بنية الديانة مـن مبـدأ الأمـر لـدرء ذلـك الخطر الذي يبدو أن وعيه بطبيعة من علق بهم وخـرج هـو وطغمتـه اللاويـة معهـم ليجعـل منهم "شعبا" يقيم به مُلكا وإدراكه لكونهم، وقد طردوا من مصر، كانوا متجهين بـالضرورة إلى الانضمام لأمثالهم من البدو الساميين الذين كانوا قد استقروا في كنعان والذوبان فيهـم، جعلاه يعني بأن يجعله مؤسسيا في الديانة التي حاول اقامتهـا، صمـام أمـن تمثـل فـي وهـم الخصوصيـة الحصريـة التـي ضربـت كسـياج حـول "الشـعب" ليقيـه مـن الانـزلاق إلـى أن يُستوعَب.

ومن هنا كانت النصوص الصريحة القاطعة التي من قبيل:

> "ومتى أتى بك يهوه إلهك إلى الأرض التي حلف لآبـائك ابراهام وإسحق ويعقـوب أن يعطيـك. إلـى مـدن عظيمـة جيدة لم تبنها. وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها، وآبـار محفورة لم تحفرها، وكروم وزيتون لم تغرسها، وأكلـت وشبعت. فاحترز لئلا تنسى يهـوه.. لا تسـيروا وراء آلهـة أخرى من آلهة الأمم التي حولكـم. لأن يهـوه إلهكـم إلـه غيور في وسطكم، لئلا يحمي غضب يهوه إلهكم عليكـم فيبيدكم عن وجه الأرض" (تثنية ٦: ١٠-١٤).

وحتى نفطن إلى العلاقة الوثيقة بين الخوف مـن الاستيعاب وبيـن هـذه التعليمـات الباترة، ينبغي أن نذكر أنفسنا أن هذا كلام ورد في سفر التثنية الذي ألف بعد موسى بقـرون ونسب اليه ثم عولج وروجع وربما أعيدت صياغته قبل أن يوضـع فـي صيغتـه النهائيـة التـي وصلنا بها وأنه يوجد من يرجح نسبة هذه الصيغة إلىحزقيال.

فخطر الاستيعاب كان واضحا غاية الوضوح لكهنة عصر السـبي ونبييمـه، وخاصـة بعد خبرة العيش في بابل واندماج أعداد كبيرة من المسبيين في طريقة حياتها (وهو اندمـاج جعل نسبة لا يستهان بها من أولئك المسبيين ترفض العودة إلى كنعان مفضلة البقاء في بابل حتى بعد انكسار بابل أمام الفرس) وكان بالغ الفعالية في تشكيل مواقفهم الفكرية وتحديـد

أشكال مخاوفهم، وبالتالي في تكييف ما ظلوا يجرونه على لسان يهوه في تأليفهم، كهذه التعليمات الصريحة، مثلا:

> "متى أتى بك (ونلاحظ أنه قال، في هذا النص والذي سبقه "متى أتى بك" ولم يقل "متى أدخلك"، مما يشير إلى أن الكاتب كان يكتب وهو في داخل كنعان) يهوه إلهك إلى الأرض التي أنت داخل اليها لتمتلكها وطرد من أمامك سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم يهوه إلهك أمامك وضربتهم (غلبتهم) فإنك تحرمهم (تذبحهم عن بكرة أبيهم). لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك. لأنه يردّ ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى فيحمي غضب الرب عليكم ويهلككم سريعا (تثنية ٧:١-٤)

فالكاتب، متصنعا أنه موسى، ومتظاهرا بأن هذه تعليمات أمليت قبل قرون على موسى، قبل دخول أرض كنعان (وهو التصنع الذي يحبكه بالتشبث بوعد يهوه الذي لم ينفذ بابادة أصحاب الأرض من أمام "الشعب") يضع هنا تقنينا ملزما (بحكم تضمن التوراة له، باعتبار سفر التثنية من "أسفار موسى الخمسة") لـ"الشعب". غير أن "الشعب" الذي كان في ذهنه لم يكن "الشعب" الذي تظاهر في النص بأنه الذي كان مع موسى وبأنه لم يكن قد دخل كنعان بعد (وهو ما كشفته زلة "متى أتى بك")، بل كان "الشعب" الذي ظل مؤلف السفر وغيره من كهنة ونبييم زمن السبي يأملون في أن يعيدوا تجميعه تحت راية يهوه في إطار تقنين حصري أشد صرامة وإحكاما من أي شيء كانت حركة "يهوه وحده" قد حاولته قبلا. وفي غمار انكبابه على حبك النص صوب هذه الغاية، أفلت الخيط من يد المؤلِّف، فانقلب المتكلّم من يهوه (الذي انتهى كلامه في النصّ بكلمة "أخرى" في قوله "لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى"، وبات هو المؤلف الذي أجرى الكلام السابق على لسان يهوه، والذي كشف عن نفسه في القول "فيحمي غضب الرب عليكم ويهلككم سريعا".

وأهم ما في النص، على أية حال، التنبيه المشدد بوجوب ذبح أولئك الأغيار، وابادتهم عن بكرة أبيهم، وعدم مصاهرتهم، أي عدم الانزلاق إلى الاستيعاب بين ظهرانيهم.

وقد كان ذلك، على وجه التحديد، أول اجراء كهنوتي اداري اتخذه عزرا إثر عودته ومن كانوا معه ممن رغبوا في ترك بابل، اذ أرغم كل من كان متزوجا من امرأة "من شعوب الأرض" على التخلص منها هي وبنيها وبناتها منه. وبطبيعة الحال، لم يترك في النصوص ما يبين كيفية ذلك التخلص من أولاء النساء ونسلهن، وهل كان "تسريحا" أم تحريما. كل ما ترك نص ورد في تضرع عزرا إلى يهوه راجيا منه أن يغفر لشعبه هذه المعصية، وهو نص يرجح أن التخلص كان تحريما، أي ذبحا:

"والآن ماذا تقول يا إلهنا بعد هذا لأننا قد تركنا وصاياك التي أوصيت بها عن يد عبيدك الأنبياء قائلا.. فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد لكي تتشددوا وتأكلوا خير الأرض وتورثوا بنيك إياها إلى الأبد" (عزرا ٩: ١٠ و١٢).

والتعبير مشؤوم بما فيه الكفاية في حثه اياهم أن "يتشددوا" و"ألا يطلبوا سلامة أو خير" النساء الأغيار وبنيهم وبناتهم" نظرا لأن وجودهن هن ونسلهن مؤد إلى "اختلاط الزرع المقدس بشعوب الأراضي" وتنجس الأرض بوجودهم (عزرا ٩: ٢).

والكلمة المفتاح هنا هي "المنيّ" التي خففت في الترجمة العربية إلى "الزرع" والتي ترجمت في نص الملك جيمس اطمئنانا للمعنى الاضافي الذي توحي به اللفظة فوق معناها الأصليّ، إلى: "Seed".

ولكن من أين جاء ذلك "المنيّ المقدس" "Holy Seed" الذي أنجب "الشعب" والذي بات على ذكور "الشعب" واجب ديني بالمحافظة على نقائه وقدسيته اذ اندفق من مصدره المقدس إلى أصلابهم بعدم قذفه الا في أرحام اناث "شعب يهوه"؟

ذلك ما نعود إلى حزقيال بحثا عنه. فيهوه يخاطب ابنته حبيبة نفسه التي نهد ثدياها وربت عانتهاونبت فيها الشعر فبلغت وباتت في زمن الحب (حزقيال ١٦: ٧ و٨)، قائلا لها "أيتها الزوجة الفاسقة (التي) تأخذ أجنبيين مكان زوجها" (حزقيال ١٦: ٣٢)، فهي ابنته، وهي معشوقته، وهي زوجته. وبوصفها زوجته فهي أم "الشعب"، وبكونها "أم الشعب" هي التي اندفق في رحمها من القضيب المقدس، يهوه، المنيّ المقدس، فأنجبت النسل المقدس، ابن يهوه البكر، شعبه الأخص الذي اجتهد عزرا في درء التنجُّس عنه.

في طوايا هذا كله، يغمض بعد بالغ الأهمية لمن يحاول استظهار المغزى الأسطوري لهذا التصور الناضح بالجنس للعلاقة بين المعبود وعباده. وهو بعد يغمض لأنه مدفون في غور مفهوم "النسل المقدس"، ابن يهوه البكر، شعبه الأخص. وهو بعد لا مهرب منْ ابهامه ودفنه وتغييبه لأنه- بشكل يمكن أن يكون بالغ الاضرار بدعاوى عمومية ألوهية يهوه وأثيريته السماوية- يكشف متى اتضح عن أن العلاقة بين الإله الخالق، والعالم، والبشر، في أسطورية يهوه، علاقة حصرية بأشد معاني الكلمة صرامة.

ومفتاحنا إلى متاهة السراديب الملتوية المتداخلة الزيجة المقدسة بين يهوه و"حبيبة نفسه" ابنته اسرائيل.

غير أن تلك متاهة ما أصعب النفاذ اليها وما أعسر العسّ وراء الحقيقة في سراديبها. ولذلك يتحتم النفاذ داخلا من الثغرات القليلة التي مازالت- لحسن حظ العقل- باقية في نصوص هي، بالضرورة، السبيل الوحيد الذي يركن اليه علميا في أية محاولة

للتوصل ولو إلى لمحة من الصدق بشأن أسطورية ركّبت، بعد أن اختلست كل مكوناتها من مصادر شتى، بأيد قادرة بحق.

ولنبدأ، في بحثنا عن تلك الثغرات القليلة، من الزيجة المقدسة. وفي مثل هذا البحث لا يجدي التخمين أو عقد المقارنات. فلنقتصر اذن على ما تبقى في النصوص ذاتها من مصارحات لم تزلها عمليات الترجمة بعد.

الذي لا سبيل إلى الشك أو التشكيك فيه أن يهوه تزوج اسرائيل. هذه حقيقة تثبتها نصوص صريحة:

"إني قد تزوجتكم" (إرميا ٣:١٤)

"وأرضك تدعى بعولة. لأن يهوه يسر (يلتذ) بك وأرضك تصير ذات بعل، لأنه كما يتزوج الشباب عذراء يتزوجك إلهك (غيرت في الترجمة إلى "يتزوجك بنوك" وكفرح العريس بالعروس يفرح بك يهوه" (إشعياء ٦٢:٤ و٥)

وان كان قد أمكن، بوضع "يسرّ" مكان "يلتذ"، ووضع "يتزوجك بنوك" مكان "يتزوجك إلهك"، حتى مع فضح الجملة التالية "وكفرح العريس بالعروس يفرح بك يهوه" لذلك التلاعب من جانب المترجمين الذين ما من شك في أنهم استفظعوا الأمر، لم يتح لهم- رغم صدق النية- أن يروغوا من مسألة "الطلاق" المثبتة لمسألة الزواج، لأنه من الواضح أن أحدا لا يطلّق الا من كان متزوجا بها:

"هكذا قال يهوه: أين كتاب طلاق أمكم التي طلقتها" (إشعياء ٥٠:١)

"قائلا اذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر، فهل يرجع اليها بعد؟ ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة؟ أما أنت (يا اسرائيل) فقد زنيت بأصحاب كثيرين لكن (ومع ذلك) ارجعي اليّ" (إرميا ٣:١)

"فرأيت أنه لأجل كل الأسباب اذ زنت العاصية اسرائيل فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها لم تخف الخائنة يهوذا أختها بل مضت وزنت هي أيضا (إرميا ٣:٨)

"حاكموا أمّكم حاكموا لأنها ليست (لم تعد) امرأتي وأنا لست (لم أعد) رجلها" (هوشع ٢:٢)

فالنصوص، سواء في الحديث عن الزواج، أو في الحديث عن الطلاق، واضحة بما فيه الكفاية: يهوه تزوج من ابنته، "حبيبة نفسه" (إرميا ١٢:٧)، "حبيبته التي في بيته" (إرميا ١١:١٥) اسرائيل، وعندما زنت مع غيره من آلهة منافسة، طلقها:

"ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى. لأن أمهم قد زنــت.
التــي حبلــت بهــم قــد صنعـت خزيـا. قـالت أذهــب وراء
عشاقي" (هوشع ٢: ٤ و٥).

في التعامل مع نصوص كهذه تشكل جزءا لا يتجزأ من "أسفار مقدسة" يتألف منها كتاب ديانة، ليس أمام العقل (وليس أمام الايمان أيضا ما لم يكـن الايمـان دروشـة) الا أن: (١) يتعامل مع النصوص بوصفها إبداعا أدبيا، أي تأليفا، من صنع بشر، أو أن: (٢) يتعـامل معها بوصفها كلاما إلهيا منزلا على "أنبياء" سجلوه بأمانة كما تلقوه.

في الحالة الأولى، حالة اعتبار النصوص تأليفا أدبيـا، يمكـن (عقليـا وايمانيـا) تقبـل المهرب الذي يظل التقاة من المعتذرين والمفسرين يلوذون به، وهو القول بأن هـذا الكـلام تعبير مجازي متّسم بالطيبة عن حقائق عليا سامقة فوق الإدراك العادي للبشـر. وينبـع ذلـك التقبل للمهرب من التسليم، متـى سـلمنا بـأن الكـلام تـأليف أدبـي، بـأن تصـورات الزيجـة والطلاق والزنى هي الصيغ التصوريـة التـي أنجبتهـا مخيلـة هـذا المؤلـف أوذاك فـي تفكـره بالمسائل العليا السامقة المتعلقة بعلاقة إله سـماويّ عـالميّ أثيريّ بمجموعـة بشـرية معينـة ينتمي المؤلف إليها، ويرى علاقة الإله بها من زاوية إنتمائه اليها. أي، باختصار، أن كل هذا الحكي عن عشق يهوه لتلك المجموعة البشرية وتزوجه منها وغضبه عليها لزيغهـا واعتبـاره ذلك الزيغ زنى، وتطليقه إياها (مع استعداده لردها إلى عصمته رغم أن ذلك الـرد مـؤد إلـى "تنجس الأرض نجاسة" كما نجد في إرميا ٣: ١) يمكــن أن يسـتمد صلاحيتـه جماليـا مـن النظر اليه باعتباره تعبيرا عن تطلع كاتبه إلى علاقـة خاصـة حميمـة تربـط الإلـه بالمجموعـة البشرية التي ينتمي إليها الكاتب، أي من كونه "تعبيرا عن رأي كاتبه".

غير أن ذلك النظر إلى المسألة غير ممكن اطلاقا بالنظر إلى تأكيد مؤلفي النصـوص أنها كلام إلهي أملي عليهم إملاء. وبذا يقطع الطريق على أي نظر إلى الكلام بوصفه "تعبيرا عن رأي كاتبه" البشري، ويتحتم التعامل معه من منطلق أنه كـلام إلهـي أنـزل علـى "أنبيـاء" سجلوه بأمانة كما تلقوه.

وفي هذه الحالة تنتفي تماما امكانيـة التحـايل علـى النصـوص مـن زاويـة المجازيّـة المنقذة. فالإله نفسه، ما لم نتهم أولئك "الأنبياء" بالافتراء عليه ونسبة أقوال لـم يقلهـا إليـه، يقرر بمنتهى الوضوح الإلهي أنه أنجب ابنه البكر، شعبه الأخص، من أم حبلت بـه وولدتـه، لكنها فسدت فزنت بأن "فرجت رجليها (باعدت ما بين فخذيها، فتحت فرجها) لكـل إلـه قضيبـي عـابر وأكـثرت مـن الزنـى" (حزقيـال ١٦: ٢٥)، فطلقهـا وأعطاهـا كتـاب طلاقهـا وسرحها ورفض أولاده منها فباتوا لقطاء، أولاد زنى (هوشع ٢: ٤ و٥).

وكما هو واضح، لم يحدث شيء مـن ذلـك جسـديا، ماديـا. لكنـه- بكـل تـأكيد يستمد من النصوص المقدسة ذاتها- حدث أسطوريا، تماما كما حكي على لسان يهوه.

فيهوه عندما يتحدث عن "أمهم"، وعن التي "حبلت بهم" وعـن ولادتهـا إيـاهم، لا يقول ذلك مجازا كالقديس أوغسطين أو غيره من المجازيين الأتقياء ووجهه متوقد خجلا،

بل يقوله (في دماغ نبيّه) عن ثقة ويقين كحقيقة لا تناقض، أسطوريا. وكل الآلهة فعلت ذلك. وكل عباد تلك الآلهة في العالم القديم تقبلوا ذلك التقرير عن ثقة وعن يقين لحقائق لم يراودهم أدنى شك في أنها لم تكن لتناقض وصدقوه، "فحسبته الآلهة برا" كما حسب الإله العلي (العليون، إيل) لابراهام برا (تكوين ١٥:٦).

أما نحن، هنا، الآن، في هذا الزمان، فتقطع الطريق علينا قرون وراء قرون من التطهرية ودعاوى المجازية وتجعل من الضروري الذي لا مهرب منه بالنسبة لمن يترجمون ويطبعون لنا ذلك الكلام "الإلهي" أن يعتدوا عليه بتعديلاتهم ومراوغاتهم اللغوية وحيلهم التحريرية "تنظيفا" له مما يتراءى لهم ككلام غير لائق إلهيا. فـ"إنسي قد تزوجتكم"، مثلا، ترفع بغير إمهال وتوضع مكانها "إني سدت عليكم" في الترجمة العربية، وان ظلت "I am married unto you" في الترجمة الانكليزية، و"يلتذ بك" ترفع وتحل محلها "يسر بك"، و"يتزوجك إلهك" تحوّل إلى "يتزوجك بنوك"!

والمترجمون، في الحقيقة، معذورون وما من شك في أنهم عانوا الأمرين في ترجمتهم لهذه النصوص التي ظلت تباغتهم فتزلزلهم بما فيها من جنس صريح وجدوه غير متوائم اطلاقا والصورة الإعلائية ليهوه التي بدأها نبييمه في زمن السبي لأسباب ودواع سياسية ودنيوية بحتة وأخذتها المسيحية فغمستها في تطهرية نجمت عن هذيان "الخطيئة الأصلية"، أي خطيئة "اكتشاف" العري، اكتشاف الجنس الذي لم يكن يمكن بدونه أن يتكاثر البشر ويثمروا كما أمرهم يهوه (تكوين ١:٢٨).

ونقول ان المترجمين معذورون، تحت وطأة هذا الهراء التطهريّ (الذي نبع من مآرب أرضية للغاية في صوغ الكهنة لحكاية آدم وحواء)، لأنه، من وجهة نظرهم، كيف يمكن أن "يلتذ" إله بعروس، وكيف يمكن أن يتزوجها ويجامعها ويقذف منيه في رحمها فتحبل وتلد له بنين وبنات؟ هذا لا يطاق!

لكن المشكلة ماثلة هنا في أن أولئك "النبييم" الأجلاء لم يتجنوا على يهوه، ولم يقولوا ما قالوا عنه وعن عروسه وعن زواجه منها ووطئه إياها وحملها منه وتطليقه إياها بعد أن زاغت، افتراء عليه أو فجورا منهم. كل ما في الأمر أنهم كانوا أبناء عصرهم وثقافتهم (التي استمدت من ثقافات الشرق الأدنى القديم) وأنهم، عندما عالجوا الصراع الذي كان دائرا بين معبودات تنافست- بأسطورياتها- على ولاء البشر في الهلال الخصيب وتطاحنت فيما بينها على وضع ملوكية الكون كما عرفه الإنسان القديم، وتصارعت في الوقت ذاته مع الألوهة المؤنثة التي كانت حائزة لذلك الوضع (تحت اسم ملكة السموات) منذ آلاف السنين، لم يعالجوا ذلك الصراع من فراغ، بل خاضوه بالأسلحة الثقافية الأسطورية التي كانت- من أقدم العصور- العدة الرئيسية لكل المؤسسات الكهنوتية في التعامل مع المؤسسات الكهنوتية المنافسة.

وفي حالة كهنة ونبييم حركة "يهوه وحده" كانت المشكلة معقدة بحق. فهي لم تكن قاصرة على مشاكل الإعلاء الباترياركي التي واجهتها كل عبادات الشرق الأدنى

القديم في عصر البرونز، أي مشاكل الصراع مع ملكة السموات، بل شملت أيضا مشكلة كانت في حالة المؤسسة الكهنوتية اليهيوية مسألة حياة أو موت، لا لتلك المؤسسة فحسب، بل وللمشروع الموسوي كله من أساسه، هي- كما قلنا- مشكلة الاستيعاب. وهكذا فانه كان متعينا على أولئك الكهنة والنبييم وهم آخذون، في زمن السبي، في بابل، في إعادة صوغ الديانة انطلاقا من جعل المعبود مختبئا وسماويا و"عالميا"، أن ينجزوا في سياق عملية إعادة الصياغة هذه ما تطلبه الاستكمال النهائي لعملية الابتلاع الطويلة التي بدأت منذ سمح موسى بإدماج هوية بعل صفون في هوية معبوده المدياني الذي كان قد شرع في جعله إلها محترما بما ظل يسرقه له من الديانة المصرية، وهي عملية كانت قد وُسِّعت وعُمِّقت خلال الاستيطان في كنعان وما تعين على الكهنة ممارسته من توفيق للعبادات، استيعابا لإيل وبعل وغيرهما من آلهة منافسة ودمجا لهويات الآلهة وألقابها وقدراتها وأسطورياتها في هوية يهوه وأسطوريته درءا لخطر "سير الشعب وراء البعليم" وخروجه من تحت كهنة يهوه إلى كهنة البعليم (ذلك الخطر الذي توقفنا معركة إيليا الرهيبة في الملوك الأول ١٨ مع "أنبياء البعل" على مدى تخوف أصحاب حركة "يهوه وحده" منه). وفي بابل، على ضوء خبرة السبي وفي مواجهة الخطر المتعاظم من استيعاب المسبيين وذوبانهم في المجتمع بالغ التحضر الذي وجدوا أنفسهم في خضمّه، تعين على الكهنة والنبييم أن يكثفوا جهودهم صوب توحيد يهوه، أي جعله الإله الوحيد لـ"الشعب"، بعد أن كانت جهودهم وجهود من سبقوهم قد ظلّت قاصرة على إفراده،(*) أي على جعله الأعلى والأهم بين حشد من آلهة أخرى،اضطروا إلى القبول لوقت طويل بتعايشه معها ريثما يستكملوا عملية تلقيمه إياها.

ولما كانت الديانة قد انبنت من مبدأ أمرها على جهد "إبداعي" تمثل في اختلاق أسطورية مما نهب وجمع من أساطير وحكايات فولكلورية أخذت من ثقافات شعوب الشرق الأدنى القديم استخدمت، في سياق النمط الذي ظل ملحوظا في شأن تلك الديانة، نمط الوضع المقلوب ذَنَباً إلى رأس، في تخليق المعبود كما لو كان شخصية روائية أو شخصية في حكي فولكلوري، كان من أسهل الأشياء في عصر السبي أن تؤلف الأسطورية(**) من جديد عن طريق مراجعة وتحرير وتعديل ما كان قد ظل يتناقل شفاها من مكوناتها، وأن يعاد تخليق المعبود في صورة جديدة وثوب سماوي قشيب، ورحيب.

(*) ارجع في شأن الإفراد والتوحيد وتعدد الآلهة إلى "قراءة سياسية للتوراة".

(**) ولم يكن ذلك من أسهل الأشياء فحسب، بل وكان واجبا دينيا مقدسا، لأنه مادامت الديانة قد صنعت تأليفا (معظمه ان لم يكن كله "اقتباس" واستنساخ من الغير) أصبحت الـ"أفودا" (=العبادة التي يستجيب بها المؤلفون للإله الذي أبدعوه تقديرا لما ظل ابداعهم اياه يسبغه عليهم من نعم ويمنحه لهم من مكاسب) متمثلة في "خدمة" ذلك المعبود بالمحافظة عليه وإبقائه متواجدا وسط حشد آلهة زمانهم وفاعلا بوصفه "الملك على كل أولئك الآلهة". تلك الأفودا، الخدمة، العبادة اتخذت شكل مواصلة التأليف، على النحو الذي يشهد به اعتراف هذين الباحثين اليهوديين:

فعلى عكس ديانات الآخرين التي وجد فيها المعبود أولا ثم نسجت حوله أسطورية استمدت كل خطوطها ومكوناتها من الاعتقاد الأصلي بوجود المعبود والتصور البدئي لهويته وقدراته، ثم طورت تلك الأسطورية تبعا لارتفاع المعبود وتطور شعائره وتصور عباده لـ"اختصاصاته وقدراته"، كان صنع يهوه كمعبود من خلال عملية تجميع تلفيقي لاختصاصات وقدرات آلهة أقدم وأعرق من الوثن الذي عثر عليه موسى بمضارب المديانيين، بغية تخليق إله من ذلك الوثن يستولد من تلك الأساطير المسروقة.

ونتيجة لذلك العيب المورّثي (المتعلق بجينات الوراثة) في عملية استيلاد يهوه، ظلت استعارة القدرات والألقاب والاختصاصات مطلبا حيويا بالنسبة لـ"تغذيته" وابقائه حيا وفعالا في بيئة ثقافية كانت زاخرة منذ أقدم العصور بمعبودات راسخة ذات لاهوتيات عريقة غنية تجسدت في أسطوريات كانت زادا ثقافيا ودينيا لشعوب تلك المنطقة من العالم القديم التي أدت متطلبات المشروع الموسوي إلى دخول يهوه ساحتها منافسا (وهو محدث نعمة ومملق أسطوريا) لتلك المعبودات الغنية بأسطورياتها. وهكذا فانه، طوال الاستيطان في كنعان، ظل يُلقّم المعبودات أو أجزاء منها، وظل يُمكّن من الاستيلاء على العديد من قدراتها، على النحو الذي حاولنا استيضاح بعض أوجهه في البابين السابقين، فيما تعلق بإيل، وبعل، وعانات.

غير أن ذلك كان في كنعان، أما في بابل، فاختلف الأمر تماما، ان لم يكن لشيء فلأن المُلك كان قد ضاع، و"الشعب" قد شتت، والهيكل قد هدم، والتابوت قد فتح وانكشف سره.(*)

"في سياق التغير المتواصل لديانة اسرائيل، من البداية وحتى السبي البابلي، ثم بعد العودة، وحتى عصر الاسكندر الأكبر، نشاهد مراجعة هائلة واسعة النطاق لشخصية يهوه كما صور في الوثيقة اليهيوية (التي يقول الكتاب أنها من وضع امرأة كاهنة) بأيدي أولئك (الكهنة) الذين كانت الكتابة (التأليف)، بالنسبة إليهم، "أفودا"، أي عبادة، خدمة للإله. فبالنسبة إلى أولئك المؤلفين، كانت الكتابة (تأليف نصوص الديانة) في ذاتها تقدمة للإله وشكلا من أشكال العبادة، من حيث هي ما نسميه نحن أنفسنا بـ"الكتابة الدينية" (أي تأليف الدين).."

Refer to: "The Book of J", translated from the Hebrew by David Rosenberg and interpreted by Harold Bloom, Grove Weidenfeld, N.Y. 1990, especially pages 280 and 281.

(*) والملاحظ أن هناك، منذ وقت، حملة "تثقيف وامتاع" من النوع المألوف والمجرب يبدو أنها في طريقها إلى المزيد من الأنشطة، في شأن تابوت العهد. وهي حملة بدأت قميئة بفيلم سينمائي إثاري عن "فتوة" استرالي قام بمغامرة للبحث عن "التابوت المفقود" ولانقاذه من الوقوع في أيدي النازيين الأشرار. ومؤخرا اتخذت الحملة شكل كتاب "مغامرة بحث" كتبه مراسل لمجلة الايكونوميست ووضع فيه حكاية عن راهب حبشي أكد له أن التابوت عندهم في الحبشة، كما أمتع القارئ على صفحاته بأوديسة بحث عما يمكن أن يرشده إلى مكان التابوت الذي اختفى من الوجود لأسباب لم يتطرق اليها صاحب الكتاب، وهو بحث أخذه إلى مقابر مصر وأهراماتها، وإلى حيطان أريحا، وإلى الصخرة المقام عليها المسجد الأقصى والمسماة في الكتاب طبعا باسم "جبل الهيكل":

ففي بابل، اكتشف كهنة يهوه ونبييمه، فيما بدا من تغير الاتجـاه، أن عمليـة توفيـق العبادات بما مورس خلالها من ابتلاع المعبودات المنافسة كانت قد بلغت منتهاها وأن أيـة محاولة للاستمرار فيها بعد الاحتكاك المباشر للعناصر التـي سـباها البـابليون مـن "الشـعب" بالثقافة البابلية لم يكن من الممكن أن تؤدي إلا إلى عكس المرجو منها. ومن هنـا، كـانت صيحة "حقا إنك لإله محتجب" (إشعياء ٤٥:١٥) التي بدأ التمهيد لها على يد إرميا باجراء القول التالي على لسان يهوه: "ألعلي إله من قريـب (فـي متنـاول البشـر أو بقربهـم مكانيـا) يقول يهوه، ولست إلها من بعيد؟ اذا اختبأ إنسـان فـي أمـاكن مستترة فمـا أراه أنـا؟ يقـول يهوه. أمـا أمـلأُ أنـا السـموات والأرض؟ يقـول يهـوه" (إرميـا ٢٣:٢٣ و٢٤). وهـو كـلام مخالف تماما لما أكد موسى لـ"الشعب" أن يهوه قاله له عن "المسكن" وعن "سكناه وسط شعبه" ومناقض تماما لمفهـوم التـابوت والخيمـة ومحـط الرحمـة وعمـود السـحاب نهـارا وعمود النار ليلا. بل وانه كلام مغـاير تمامـا لمـا ورد فـي سـفر التكويـن عـن نـزول يهـوه ليتمشى في الجنة ساعة الأصيل وعدم عثوره على آدم الذي كان مختبئا هو وامرأتـه بعـد أن اكتشفا أنهما عريانان، واضطراره إلى أن ينـادي علـى آدم قـائلا "أيـن أنـت؟ (تكويـن ٣:٨ و٩). وحقيقة الأمر أن الاختلاف من القوة بحيث يبرر التساؤل: هل الإلــه الـذي قـال هـذا القول لإرميا هو نفسه الذي نزل إلى الجنة ولم يسـتطع أن يـرى آدم لأن هـذا الأخـير كـان "مختبئا في مكان مستتر"، أو هو نفسه الذي كان ينزل ليتناول طعام الغذاء مع ابراهـام أمـام باب خيمته، أو هو نفسه الذي كان ساكنا وسط بني اسرائيل في "المسكن"، التابوت؟

وفي نفس الوقت الذي أخذ الكهنة والنبييم يغيرون خلاله يهوه إلى "إلـه مـن بعيـد" و"إله محتجب" وإله ينظر من فوق الجَلَد فيرى المختبئ فـي مغـاور الجبـال أو فـي أعمـاق البحر، وضع سفر التثنية. والتسمية مطابقة لمقتضى الحال تمامـا. فهـي تعنـي "مـرة ثانيـة"، "مرة أخرى". ولقد كان الغرض من السـفر صـوغ الديانـة مـرة ثانيـة، ونسـبة الصياغـة إلـى موسى، اسقاطا إلى الوراء، تماما كما فعل نفس الكهنة عندما أسقطوا نسب "الشعب" وراء إلى القرن التاسع عشر ق.م. ليجعلوا عبادة "الشعب" يهوه بادئة من زمن "الأب ابراهام".

وبذلك الجهد الكهنوتي بالغ التصميم لم يحاول الكهنة والنبييـم أن يحسـموا فقـط مسألة من الملك بين الآلهة أو من الأعلى أو من الأقوى سحرا بين الآلهة، أو أن يسـتكملوا فقط عملية الابتلاع الطويلة من خلال عملية تثنية صوغ الديانة، بل وأدخلوا بقوة، دفعا إلـى مقدمة الصورة، البعد الذي ظل مؤخرا في الخلفية طوال مرحلة الأفراد، وهو بعد الوحدانية. فبعملية التثنية وعملية الاحتجاب والإطلال على العالم ممـا فـوق الجَلَـد ورؤيـة كـل شـيء والتحكم في كل شيء، كانت محاولة انجاز الشق الثاني من جهد الإعلاء الباتريـاركي فـي حالة يهوه.

Hancock, Graham: "The Sign and the Seal: A Quest for the Lost Ark of the Covenant", BCA 1992 (Heinemann).

(١٥) بابل، المدينة التي سقت جميع الأمم من خمر زناها

ذلك الشق الثاني من جهد الإعلاء الباترياركي، أي جعل يهوه وحده بحق، هناك في السموات "الجديدة" التي أعليت أسطوريا على سموات إيل القديمة وبات من الواضح في بابل أنه كان من أشد متطلبات الإعلاء إلحاحية جعلها فوق سموات مردوخ أيضا،بات إبان السبي الشق الذي صارت له الأولوية الكبرى في اهتمامات كهنة يهوه ونبييمه.

هناك الآن في زماننا من يتحدث عن "الصدمة الثقافية" التي يعانيها من ينتقل من ثقافة ألفها وعاش في رحابها إلى ثقافة مختلفة وأكثر تقدما في ظلها غريبا ومعزولا إلى أن يستوعب فيها. وتلك صدمة بينت الملاحظة العلمية للجماعات المهاجرة أو اللاجئة التي تعرضت لها أنها تحدِث لدى من يعانون منها آثارا نفسية تمتد من رهاب الأجانب (كره كل ما هو أجنبي وغريب والخوف منه) إلى الانحباط والانطواء على الذات وغير ذلك من ضروب السلوك المعتلّ.

والذي توقفنا عليه نصوص العهد القديم، وتكشف لنا عنه بوضوح أكبر، متى تعمقناها من واقع أي نص، الدوافع التي أنجبت تلك النصوص، أن المسبيين في بابل تعرضوا بقوة لتلك الصدمة. ولعل هذا المزمور، الذي يرتعش كثيرون من الأغيار الأتقياء وهم يستشهدون به من فرط تأثر ومشاركة وجدانية وإيمان، التعبير التشاعري الذي يوقفنا على بعض ظواهر تلك الصدمة:

"على أنهار بابل هناك جلسنا. بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون. على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا. لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحا قائلين رنموا لنا من ترنيمات صهيون.

"كيف نرنم ترنيمة ليهوه في أرض غريبة؟ إن نسيتك يا أورشليم تنسى يميني. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرح.. يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم (يهشم رؤوسهم على) الصخرة" (مزمور ١٣٧)

ولا يغيب عن الذهن طبعا أن من صاغ المزمور كاهن وأن من مقاصده فيه أن يذكر المسبيين أنهم يجب ألا ينسوا صهيون وأورشليم بأي ثمن، حتى بـ"أعظم فرح"، كبهجة العيش في بابل مثلا. ولا يغيب عن الذهن أيضا أن نفس الأسلوب الذي استخدم حيال مصر فوصفت بـ"أرض العبودية"، انتهج حيال بابل، فوصف البابليون- كما وصف المصريون قبلا- بـ"معذبينا" رغم أن المزمور ذاته يقول أن البابليين تركوهم يجلسون ويغنون على العود هناك على أنهار بابل بل وطلبوا منهم أن يرنموا لهم ترنيمات دينية.

وبطبيعة الحال، يتفق مع العقل والمنطق، من منطلق الطبيعة الإنسانية، إن يشعر من يسبى إلى بلد غريب ويرغم على العيش بين المنتصرين في ظل ثقافتهم الغريبة بالنسبة اليه، بالغربة والضياع والتعاسة. غير أنه من الواضح في صياغة المزمور أن الأمر تعلق هنا، أكثر من أي شيء آخر، بـ"صهيون" وبيهوه الذي تساءل المزمور "كيف يمكن الترنم له في أرض غريبة" وكأنه لا يمكن أن يكون الا في صهيون، رغم أنه كان قد كان قد جعل محتجبا وأصعد إلى ما فوق الجَلَد فلم يعد مقيما في التابوت بل أصبح سماويا وعالميا وبات، بذلك، متواجدا في كل وأي مكان، سواء كان المكان بابل أو كان صهيون.

غير أن ما عبر عنه المزمور كان الرؤية الانحصارية شديدة التعصب للفرقة الأصولية من الكهنة والنبييم المنعزلة بخصوصية المعبود وبكراهياتها وطموحاتها الملوكية بمنأى عن كل عقل وعن كل بشر، أو- من وجهة نظرها- عن كل من لم يكن بشرا، أي لم يكن يهوديا. ففي اطار رؤية شديدة الانغلاق والخصوصية كهذه، كان من المقضي به أن يوصف البابليون بـ"المعذبين" لـ"الشعب" مثلما وصف المصريون قديما في الحكي الذي حول الطرد إلى خروج. وقد كان ذلك موقفا فطن إلى خطورته إرميا، لا أقل، فحاول التحذير منه:

> "هذا كلام الرسالة التي أرسلها إرميا النبي من أورشليم إلى بقية شيوخ السبي وإلى الكهنة والأنبياء وإلى كل الشعب الذين سباهم نبوخذنصر من أورشليم إلى بابل ..: هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل لكل السبي الذي (سبي) من أورشليم إلى بابل. ابنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. خذوا نساء وُلِدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء وأعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تقلوا. واطلبوا سلام المدينة وصلوا لأجلها إلىيهوه لأنه بسلامها يكون لكم سلام. لأنه هكذا قال يهوه رب الجنود إله اسرائيل. لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم وعرّافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلمونها. لأنهم انما يتنبأون لكم باسمي بالكذب. فأنا لم أرسلهم، يقول يهوه" (إرميا ٢٩:١-٩).

ومن الواضح تماما من قول إرميا أنه كان هناك من الكهنة اللاويين والنبييم من ظل "يتنبأ بالكذب لأن يهوه لم يرسله" أن أولئك "المتنبئين بالكذب" كانوا فريقا من المؤسسة الكهنوتية رأى رأيا خالف تماما دعوة إرميا إلى "طلب سلام المدينة" و"بناء بيوت وغرس جنّات". وذلك خلاف كان قد نشب بين إرميا والجناح الأصولي (أو الزيلوتي) منذ ما قبل السبي ووصل إلى ذروته المعلنة في تلك الرسالة. وبطبيعة الحال، لم يكن إرميا أقل تخوفا من إمكانية الاستيعاب (وبالتالي ذوبان المشروع كله بذوبان "الشعب" في البابليين أو في

الكنعانيين) مـن ذلـك الجناح المتشـدد من المؤسسـة الكهنوتية الوصيـة علـى المشـروع والمستفيدة الرئيسية منه. فالخلاف كان خلافا على التكتيك لا على الاستراتيجية، اذ جنح إرميا إلى جانب الليونة والمهادنة وكسب الوقت ريثما ينجز يهوه وعده الـذي صاغـه إرميا بقوله "لأنه هكذا قال يهـوه. إنـي عنـد تمـام سـبعين سنة لبـابل (مـن وجودكـم فـي بـابل) أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح بردكم إلى هذا الموضع (كنعان)" (إرميا ٢٩:١٠)، في حين جنح من وصفهم بـ"المتنبئين بالكذب" إلى وجهة عدوانية توقع إرميا أن تكون عاقبتها وخيمة.

فالمسألة كانت، في حقيقة أمرها، مسألة سياسة حتـى وان صبغـت بصبغـة ألوهيـة نتيجة للتوحد الكامل للسياسة وتطلعات إقامة المُلك بالدين في المشروع الموسوي. والذي يشير اليه تاريخ "شعب يهوه" في بابل، على أية حال، أن الغلبة كانت في النهاية للنهج الذي أوصى به إرميا، فيما يشهد به ازدهار المسبيين اقتصاديا واجتماعيا في بابل.

ويتعين، كيما نتمكن من الوقوف على أبعاد مشكلة الكهنة، أن نعـود إلـى التـاريخ. في فصل ممتع بحق من كتابه "الكتاب المقدس كتاريخ" يصف فرنر كِلَر بابل بأنهـا كـانت "أعظم مدينة في العالم القديم" ويقول أن خريطة تخطيطهـا كـانت أشبه بخريطـة تخطيـط مدينة كنيويورك في زماننا، وينبه قارئه إلى أن "المزارعين والرعاة تحولواإلى تجار وصيارفة" عندما سبوا وعاشوا في ظل حضارتها، ويرجع بداية احتراف اليهود لـ"المهنـة التـي كفلـت لهـم، بجانب تمسكهم بديانتهم، أن يبقوا كشعب"، أي مهنة التمويل والصيرفة، بل ويرجـع إليها نجاتهم من الاستيعاب بقولـه أنهـم "لـو كـانوا قـد ظلـوا مزارعيـن ورعـاة مسـتوطنين متناثرين في أرجاء أرض أجنبيـة لكـانوا قـد تزاوجـوا مـن الشـعوب مـن الأجنـاس الأخـرى (بمقولة أن اليهود "جنس"!) ولكانوا قد استوعبوا واختفوا خلال بضعة عقود "ويضيف قائلا أن القوم" لم يكن يمكن لهم أن يقعوا على معهد يتدربون فيه أفضل من بابل. فبابل، بكونها مركزا دوليا للتجارة والصناعة ومختلف الحرف والمهن في زمانهـا، كـانت قـد أصبحـت المدرسة الكبرى لمدن العالم كله وعواصمه وكانت قد أمسـت، بشـكل ظـل يتعـاظم منـذ ذلك الوقت، ملاذ من لا ملاذ لهم. وقد كانت عاصمتها- التي مازالت أطلالها ناطقة، بعـد ٢٥٠٠ سنة، بما تمتعت به من مجد ومنعه- مدينة لا قرين لها في كل العالم القديم"(٤)

وذلك وصف يؤيده اعتراف إشعياء بأن بابل "بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانييـن" (١٣:١٩) حتى وهو يتشهى(*) خرابها بما أجراه على لسان يهـوه مـن وعيـد بخـراب بـابل و"بتهشيم أطفال البابليين أمام عيونهم ونهب بيوتهم وفضح نسائهم" (١٣:١٦).

(*) وقولنا "يتشهى" مسايرة لمنطق الحكي لا أكثر. فـالحكي، متى توخينـا الحقيقـة، كـان تسـجيلا لمـا حكي عنه، بعد وقوعه، بادعاء أن الحكي كان تنبؤاً به. وحتى في تلك الحالات التي لـم يكـن صـاحب السفر هو القائل، كان ذلك "التنبؤ المكذوب يدس في الحكي بأيدي المحرريـن، حبكـا للقصـة، وعمـلا على اسباغ صبغة غيبية مهيبة عليه.

وهو ما يفرض التساؤل الذي لا مهرب منه: لِـمَ كـانت كـل هـذه الضغينـة؟ فعلى صعيد التفكير السويّ غير المشرب بسم الكراهية وسعار الاشتهاء الوحشي إلـى بقـر بطـون الحبالى وذبح البشر وتهشيم رؤوس الأطفال على الصخر (أو على أرصفـة الشـوارع) وإلى تحويل المدن العامرة الباذخة إلى خرائب، لم يكن الذنب في السـبي- إن صدقنـا أن ذلـك كان السبب في كراهية مشربة بالصديد ظلت تغلي في القلوب والأدمغة لكل المـدن وكـل "الأمـم"- ذنب بابل. فالبابليون، طبقا لهذيان الكهنة الذين استماتوا في إقناع "الشعب" بـأن كل نكساته كانت من فعل يهوه عقابا لـ"الشعب" على خروجه من تحت ذلك الإله شـديد الغيرة، لم يفعلوا إلا ما أراد يهوه وما أمر به يهوه.

فإشعياء ذاته يقول إنه "من أجل (زيغ "الشعب") حمى غضب يهوه على شعبه ومـد يده عليه وضربه حتى ارتعدت الجبال وصارت جثثهم كالزبل في الأزقة. ومع كل هـذا لـم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد. فيرفع رايـة للأمـم (الأغـراب) مـن بعيـد ويصفـر لهـم مـن أقاصي الأرض فاذا هم بالعجلة يـأتون سـريعا. ليـس فيهـم رازح ولا عـاثر. لا ينعسـون ولا ينامون ولا تنحل أحزمة أحقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم. الذين سهامهم مسنونة وجميـع قسيهم ممدودة. حوافر خيلهم تحسب كالصوان ومركباتهم كالزوبعة. لهم زمجرة كـاللبؤة ويزمجرون كالشبل ويمسكون الفريسة ويستخلصونها ولا منقذ" (٥:٢٥-٢٩). وقد ذهب إرميا إلى أبعد من ذلك اذ أعلن على لسان يهوه أن يهوه هو الذي حارب "شـعبه" لا جيش بابل:

> "الكلام الذي صار إلى إرميا من قبل يهوه حين أرسل اليـه الملك صدقيا.. قائلا اسأل الرب من أجلنا لأن نبوخذنصر ملـك بـابل يحاربنـا لعـل الـرب يصنـع معنـا حسـب كـل عجائبه (السـابقة) فيصعـد (ليردّ نبوخذنصر) عنـا. فقـال إرميـا هكـذا قـال يهـوه إلـه اسـرائيل: هـأنذا أرد أدوات الحرب التي بيدكـم التـي أنتـم محـاربون بهـا ملـك بـابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خـارج السـور وأجمعهـم في وسط هذه المدينة. وأنا أحاربكم بيد ممدودة وبذراع شديدة وبغضب وحمو وغيظ عظيم. وأضرب سكان هذه المدينـة (أورشـليم) النـاس والبهـائم معـا. بوبـاء عظيـم يموتون. ثم بعد ذلك قال يهوه أدفع صدقيـا ملـك يهـوذا وعبيـده والشـعب والبـاقين فـي هـذه المدينـة مـن الوبـاء والسيف والجوع ليد نبوخذنصر ملك بابل وليد أعدائهـم وليد طـالبي نفوسـهم فيضربهـم بحـد السـيف. لا يـترأف عليهم ولا يشفق ولا يرحم" (إرميا ٢١:١-٧).

وكان يهوه، قبل ذلك التصريح القاطع بأنه هو الذي قرر وهو الذي دفع نبوخذنصر إلى محاربة "مملكة" يهوذا، وهو الذي، في واقع الأمر، شن الحرب عليها بالوباء، والقحط وبسيف نبوخذنصر، قد أعلن فشحور الكاهن، ناظر أول بيت الرب (هيكل يهوه) والقوم كلهم، على لسان إرميا، قائلا: "هأنذا أجعلك خوفا لنفسك ولكل محبيك، فيسقطون بسيف أعدائهم وعيناك تنظران. وأدفع كل يهوذا ليد ملك بابل فيسبيهم إلى بابل ويضربهم بالسيف. وأدفع كل ثروة هذه المدينة وكل تعبها وكل مثمناتها وكل خزائن ملوك يهوذا ليد أعدائهم فيغنمونها ويأخذونها إلى بابل" (إرميا ٢٠:٤ و٥).

فالذنب لم يكن ذنب بابل أو ذنب ملكها نبوخذنصر، لأن دمار "المملكة" وسبي "الشعب" كان بإرادة يهوه وبأمر يهوه، وطبقا لمنطق الحكي الكهنوتي، كان الذنب في ذلك ذنب "الشعب" وملوكه وكهنته وسائر نبييمه، باستثناءات محدودة للغاية أظهرها إرميا.

وبطبيعة الحال، لم يكن إرميا خائنا لقومه أو ممالئا للبابليين، بل كان أوسع أفقا وأبعد نظرا من غيره، وكان- كنبي من نبييم يهوه- واقعا ككل المؤسسة الكهنوتية اليهيوية في مأزق خطر تعلق بمصداقية المعبود الذي صوروه باستمرار كـ"رجل حرب ورب جنود" صلب المراس لا يقهر ولا يغلب في أي نزال مع أي إله آخر. وكان إرميا قد رأى- من متابعته لتدهور العلاقات بين "مملكة" يهوذا وبين بابل- نذر الخطر في الأفق، ولم ينس درس ما حدث لـ"المملكة" الشمالية، السامرة، على يد الأشوريين. ولذا فانه ظل مستميتا في إعفاء صورة يهوه مما أدرك أنه كان من المحتم أن تتعرض له من هزيمة أمام آلهة بابل متى وصلت الأمور إلى مرحلة الصدام المباشر مع قوة الامبراطورية البابلية. واذ خيب صدقيا وكبار الكهنة مسعاه ذلك واتهموه بالغدر وبالجنون وهزأوا منه كما يوقفنا قوله ليهوه أنه لأنه اقتنع بكلام يهوه واستجاب إلى الحاحه تكلم ونصح "فصار للضحك كل النهار وكل واحد استهزأ به" (إرميا ٢٠:٧)، لم يعد أمامه، عندما وقعت الكارثة التي توقعها وأوشك يهوه على الانكشاف كرب جنود خائب في أعين "الشعب"، الا اللوذ بالحيلة الكهنوتية المجرّبة، وهي الادعاء بأن الهزيمة كانت بإرادة يهوه وبناء على أمره لأنه غضب وصعد غضبه إلى أنفه وكل ذلك.

وعلى ضوء ذلك الادعاء المتعين تصديقه ما لم يكذب ادعاء النبييم بأنه ما قاله لهم يهوه، لا يكون ملك بابل وشعبها هم أشرار الحلقة، متى استخدمنا هذه الصيغة الأمريكية المعاصرة، بل كان "الشعب" نفسه الذي جلب على رأسه ورأس "المملكة"، هو و"ملوكه" وشيوخه، غضب يهوه:

> "ثم صارت كلمة يهوه إلى إرميا قائلة: هأنذا يهوه إله كل ذي جسد، هل يعسر عليّ أمر ما؟ هأنذا أدفع هذه المدينة ليد الكلدانيين وليد نبوخذنصر ملك بابل فيأخذها. فيأتي الكلدانيون الذين يحاربون هذه المدينة فيشعلون هذه

المدينة بالنار ويحرقونها هي والبيوت التي بخروا على سطوحها للبعل وسكبوا سكائب لآلهة أخرى (كملكة السموات) ليغيظوني. لأن بني اسرائيل وبني يهوذا إنما صنعوا الشر في عيني منذ صباهم. لأن بني اسرائيل انما أغاظوني بعمل أيديهم، يقول يهوه. لأن هذه المدينة (أورشليم) قد صارت لي لغضبي ولغيظي من اليوم الذي فيه بنوها إلى هذا اليوم (فاني) أنزعها من أمام وجهي. من أجل كل شر بني اسرائيل وبني يهوذا الذي عملوه ليغيظوني به هم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم ورجال يهوذا وسكان أورشليم وقد حولوا لي القفا لا الوجه (أعطوني ظهورهم داخل الهيكل وسجدوا لعشيرة).. بل ووضعوا مكرهاتهم (تمثال عشيرة، والتماثيل القضيبية المسبوكة من ذهب على مذبحة كما اشتكى لحزقيال) في البيت الذي دعي باسمي لينجسوه" (إرميا ٣٢:٢٦-٣٤).

وفيما بعد، فطن النبييم إلى التناقض الصارخ بين اداناتهم لبابل وكرههم إياها واكثارهم من تهديدات يهوه ووعيده لها، وبين هذه الأقوال اليهيوية الصريحة بأن بابل لم تفعل هي وملكها وجيشها الا ما أمرها به يهوه وجعلها تفعله بأورشليم "والمملكة" لأن "الشعب" وملوكه وكهنته أغاظوه" (والغيظ، كما قد نلاحظ، عاطفة إنسانية وليست خصلة إلهية، حتى في أشد العبادات بدائية) بكل تلك المعاصي التي عددها إرميا. واذ فطن النبييم إلى ذلك التناقض المخل بالمصداقية والمهدر لما يفترض أن تتحلى به الآلهة من رجاحة عقل، واتزان وتوخ للعدل، فلا تأمر بالفعل ثم تعود فتنقلب على من أصدرت اليه الأمر فنفذه، داروا حول التناقض بقولهم أن البابليين الملاعين أساؤوا لـ"الشعب" كثيرا، ولم يرحموا شابا ولا شيخا(*)، مستخدمين في ذلك "وزر مصر" القديم الذي استخدم بفعالية قصوى في سلسلة حكايات موسى.

(*) ففي سفر إشعياء ٤٧ يستدير يهوه فينقلب على بابل ويقاذعها جنسيا على لسان ذلك المتنبئ الذي كان قد رفعه إلى السماء قبل قليل وجعله محتجبا وأثيريا وكل ذلك، فيقول لها:
"انزلي واجلسي على التراب أيتها العذراء ابنة بابل (أي يا عشتار، "المتهتكة العذراء") اجلسي على الأرض بلا كرسي (بلا عرش) يا ابنة الكلدانيين لأنك لا تعودين تدعين ناعمة ومترفهة... اكشفي نقابك شمري الذيل. اكشفي الساق (عري فخذيك). تنكشف عورتك وترى معاريك (يرى فرجك).. اجلسي صامتة وادخلي في الظلام".
ومن الواضح أن يهوه يخاطب بابل هناك من خلال إلاهتها المقلقة لراحته وراحة كهنته عشتار، ملكة السموات، "سيدة الممالك" كما أسميت في النص. ولكن- متى نحينا قليلا الحزازة الإلهية بينه

غير أن ذلك كله كذّبه التاريخ وكذّبه ازدهار المسبيين الاقتصادي والاجتماعي في بابل واختيار نسبة كبيرة منهم الاندماج في طريقة حياتها بعد أن ضربوا بجذورهم في تربتها السخية.

فلمَ كانت النقمة على بابل؟

كيما نتمكن من الذهاب إلى ما وراء النفاق الكهنوتي المسدل ستارا وراء ستار، نحاول أن نتلمس مدخلا إلى المتاهة من باب خلفي، ألحق بعجز العهد الجديد بعد تردد طال قرونا، هو سفر "رؤيا" الكاهن اليهودي يوحنا اللاهوتي.

الا أنه يتعين، قبل استظهار ما يفصح عنه سفر اللاهوتي فيما تعلق بأسباب الكراهية الكهنوتية المشبوبة لبابل، أن نذكر أنفسنا بأن المكان الذي أثار كل تلك الكراهية (وهي كراهية ظلت مدخولة منابعها باستمرار في حالة كهنة يهوه بعنصر قوي من الحسد الحضاري) في قلوب الكهنة والنبييم فأجروها صديدا على لسان يهوه بصرف النظر عن أنه كان هو (تبعا لحكيهم) الذي ساق بابل على "مملكة" يهوذا، كان أشبه بسوق، أشبه بمهرجان ديني لم يكن ينقطع فيه ترتيل المنشدين للتسابيح الدينية وأساطير آلهة أرض الرافدين، ولم تكن تتوقف فيه المواكب والأعياد الدينية، وبخاصة مواكب وأعياد عشتار بما اشتملت عليه من ممارسات جنسية ومن طقوس القصف الديني. (٥)

فالذي لاشك فيه أن تلك السوق المغوية، بالاضافة إلى الترف المادي والبذخ الحضاري اللذين لم يقلّا إغواء، أثارت كلها في نفوس كهنة يهوه ونبييمه ذعرا حقيقيا تلبثت أصداؤه، بعد قرون عديدة، في "رؤية" كهذه:

> "ثم رأيت ملاكا آخر طائرا في وسط السماء معه بشارة أبدية ليبشر الساكنين على الأرض وكل أمة وقبيلة ولسان وشعب قائلا بصوت عظيم خافوا الله (خافوا يهوه) واعطوه مجدا لأنه قد جاءت ساعة دينونته واسجدوا لصانع السماء والأرض والبحر وينابيع الماء (وكلها أوصاف يهوه في العهد القديم). ثم تبعه ملاك آخر قائلا سقطت بابل المدينة العظيمة لأنها سقت جميع الأمم من خمر زناها" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٤:٦-٨).

وبين عشتار- ماذا كان سبب الغضب على بابل، وهو الذي أمر ملكها" نبوخذنصر عبده" بأن يفعل ما فعل بـ"الشعب" وبـ"المُلك"؟ آه، حقيقة أنه هو الذي أمر، ولكن:

"غضبت على شعبي دنست ميراثي (بنفسي) ودفعتهم إلى يدك (حقيقة). (ولكنك) لم تصنعي لهم رحمة. على الشيخ ثقلت نيرك جدا. وقلت إلى الأبد أكون سيدة حتى لم تضعي (أية محاذير) في قلبك ولم [illegible]كري آخر فعلك (لم تستبصري الخواتيم)" (إشعياء ٤٧:١-٧). فـ"الهوتسبا" (الصفاقة)، كما نرى، [illegible]ست بدعة حديثة.

فبعد إعلان حلول موعد "الدينونة" مباشرة، جاء الإعلان بالغ الأهمية عن سقوط بابل (التي لم تكن قائمة في زمن اللاهوتي). ثم، بعد ذلك، ينزل في رؤيا اللاهوتي ملاك "يسكب جامه على النهر الكبير، نهر الفرات، فينشف ماؤه" (كما أنشف إشعياء ماء النيل قبلا انتقاما من مصر)، وبعد تجفيف مياه الفرات، ينزل "ملاك آخر من السماء له سلطان عظيم تستنير الأرض من بهائه" ويصرخ بشدة بصوت عظيم قائلا "سقطت سقطت بابل العظيمة وصارت مسكنا لشياطين ومحرسا لكل روح نجس ومحرسا لكل طائر نجس وممقوت لأنه من خمر زناها قد شرب جميع الأمم وملوك الأرض زنوا معها وتجار الأرض استغنوا من وفرة نعيمها". وبعد ذلك يسمع يوحنا اللاهوتي "صوتا آخر من السماء قائلا اخرجوا منها يا شعبي لئلا تشتركوا في خطاياها ولئلا تأخذوا من ضرباتها. لأن خطاياها لحقت السماء وتذكر يهوه آثامها.. بقدر ما مجدت نفسها وتنعمت بقدر ذلك اعطوها عذابا وحزنا. لأنها تقول في قلبها أنا جالسة ملكة ولست أرملة ولن أرى حزنا". وبعد هذا الانتقام اليهيوي الذي يبلغ ذروته بحريق بابل، يتهلل اللاهوتي قائلا "افرحي أيتها السماء والرسل القديسون والأنبياء لأن يهوه قد دانها دينونتكم"، ويسمع "صوت عظيم من جمع كثير في السماء قائلا هللويا. الخلاص والمجد والكرامة والقدرة ليهوه إلهنا. لأن أحكامه عادلة وحق اذ قد دان الزانية العظيمة التي أفسدت الأرض بزناها (وزيادة في التبرير:) وانتقم لدم عبيده من يدها" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٦-١٩).

ومما له مغزى أن اللاهوتي وهو ينتقم من بابل ذلك الانتقام، لم يجد ما يعبر به عن تهلله الا هذه الأقوال المسروقة من ترانيم بابل وسومر. "وصوت الضاربين بالقيثارة والمغنين والمزمرين والنافخين بالبوق لن يسمع فيك يا بابل فيما بعد. وكل صانع صناعة لن يوجد فيك فيما بعد. وصوت رحى لن يسمع فيك فيما بعد. ونور سراج لن يضيء فيك فيما بعد. وصوت عريس وعروس لن يسمع فيك فيما بعد. لأن تجارك كانوا عظماء الأرض. اذ بسحرك ضلّت جميع الأمم" (رؤيا اللاهوتي ١٨:٢٢-٢٤).

فهو، وقد ردد "الوحي الذي رآه إشعياء بن آموص من جهة بابل (إشعياء ١٣:١-٢٢) قد سار على خطى إشعياء وغيره من "نبييم" يهوه في سرقة ترانيم بابل وسومر وتسابيحها لآلهتها وإلاهاتها وعباداتها التي جعلت منها "الزانية الكبرى التي سكرت كل الأمم بخمر زناها."

فلمَ هذا السعار؟

بالوسع طبعا تلمس أسبابه فيما تفصح عنه جريرة بابل المتمثلة في أن "تجارها كانوا عظماء الأرض"، وهي الحزازة التي نطقت في سعار حزقيال تجاه صور "تاجرة الشعوب" (حزقيال ٢٧:١-٢٦) لأنه وزر فظيع وجريرة كبرى أن يكون بلد أو تكون مدينة من مدن الأرض ثرية ومترفة ولا "يأكل ثروتها" شعب يهوه" الذي ما خلق يهوه العالم الا لفائدته.

الا أن للسعار، على مستوى أعمق من تلك الجريرة التي تلبّث ما أوجدته من حقد منذ عهد الـ"نبييم" إلى زمن "يوحنا الإلهي"، أسباباً أخطر يمكننا أن نجملها في سببين رئيسيين: القضيب الإلهي المهيمن على الكون، وقضيب من انبغي أن يكون، وفرج الإلاهة المنافس الخطر، ومنبع كل الشرور.

فبابل لم تصبح "الزانية الكبرى التي سكرت كل الأمم بخمر زناها" ولم تصبح مستحقة لما فعله بها يهوه في هذيان اللاهوتي لمجرد أنها كانت ثرية ومنعمة وكان تجارها عظماء الأرض فحسب، بل ولأن آلهتها نافست بفحولتها القضيبية وبطولاتها، وفي التحليل النهائي، سحرها، قضيبية يهوه وبطولته وسحره، ولأن فرج ألوهتها المؤنثة تهدد القضيب الإلهي البطل الصاعد يهوه بأن يبتلعه فيغيبه بين شفريه المزمومين فيحمله في "القارب السماوي" مبحرا به إلى بحر النسيان.

وحتى لا نلوذ بعدم التصديق من مثل هذه الرؤية الكاشفة، نذكّر أنفسنا برمز انتصار يهوه الأكبر، ونبع سحره الأعظم، داخل تابوته المقدس، تمثاله المنحوت من حجر أحمر، كقضيب مختّن منتصب راكبا ذلك "القارب السماوي"، فرج الإلاهة مزموم الشفرين، مضطجعا بين شفريه.

فذلك الانتصار على الألوهة المؤنثة بركوبها في هذا الترميز القضيبي، كان- منذ صنع التابوت وجعل "مسكنا" ليهوه، وجعل غطاؤه "محطا لرحمته"، أي عرشا له، كما جعلت ايزيس الإلاهة الأم العظمى عرشا للألوهة والملك في الديانة المصرية- الهدف الأقصى الذي اتجه اليه طموح موسى في محاولته جعل الوثن لقضيبي المدياني ياه، يهوه، إلها "أبا قويا" (قضيبا قويا منجبا لـ"شعب") يعلو بفحولته وقوته وسحره على كل ألوهة منافسة، سواء كانت مذكرة أو كانت مؤنثة.

وذلك الطموح "اللاهوتي" الذي تأسس عليه المشروع الموسوي بكل مراميه السياسية الاقليمية الكهنوتية، هو- تحديدا- ما وجده الجناح الأصولي من المؤسسة الكهنوتية الوارثة للمشروع مهددا تهديدا خطيرا وحقيقيا في بابل، لا من جانب طريقة الحياة البابلية بثرائها وبذخها وازدهارها الاقتصادي فحسب، بل ومن جانب آلهتها، ومن جانب "ملكة سمواتها" عشتار، الفرج الإلهي الضاري. ومن هنا كان سعار الكره لبابل.

- - - - -

(١٦) شراسة يهوه المحاصر وتقمصه عيرا/نرجال إله الوباء

في سفر الإشعياءات الثلاثة نجد نصا لإشعياء الأول بالغ الدلالة (رغم تدخل المترجمين) يوجز ببلاغة ما ظل منذ موسى الهدف الأسمى والأقصى فيما تعلق بمستقبل يهوه كإله وسط حشد آلهة وإلاهات الشرق الأدنى القديم، وبالتالي- بطبيعة الحال- مستقبل المشروع كله الذي انبنى على "حيازة" ذلك الإله كمعبود خاص ملتزم، ومستقبل أول المستفيدين من المشروع، ورثة موسى من الكهنة اللاويين.

في ذلك النص، يزودنا إشعياء الأول برؤية بانورامية مجسدة ليوم هول هو اليوم الذي تنشب فيه المعركة الكونية الحاسمة المرتقبة كحدث محوري في الديانة، بين يهوه "رجل الحرب ورب الجنود" (أي الإله الملك القضيبي البطل المحارب) وكل منافسيه من الآلهة/الملوك الأبطال القضيبيين المحاربين، ومنافسته العاتية الإلاهة الأم "ملكة السموات". وبالتالي- لأن المعركة مع تلك المعبودات المنافسة، المذكّرة والمؤنثة، ظلت في حكي التوراة وسائر العهد القديم الوجه الغيبي المعلّى أسطوريا والمتمثل في مفهوم "الإله الملك المحارب" لمعركة "الشعب" بقيادة كهنة الإله رب الجنود مع كل "شعوب الأرض" عباد تلك المعبودات المنافسة- مع "ملوك الأرض" (الممثلين الأرضيين لمعبوداتهم) الذين كانوا، بمعيار الأخلاقية الدينية الموسوية، مذنبين في حق يهوه ومستحقين عقابه طالما امتنعوا عن تسليم رقابهم ورقاب شعوبهم وثروات أراضيهم لـ"شعب يهوه المختار وابنه البكر".

وحقيقة أن إشعياء المبارك لجأ هنا- كيما يتمكن من "التنبؤ"- كما ألفنا من النبيين ومؤلفي حكايات التوراة وسائر العهد القديم، إلى السطو على تنبؤات "شعوب الأرض" المستهدفة هي ومعبوداتها، ومن مراثيها الدينية التي ندبت فيها ما "يقرره الآلهة العظام من علاهم" من نكبات وبلايا وخراب ينزلونها بالبشر، على النحو الذي استوضحناه قبلا،(٦) فقال في مدخله إلى "نبوءته" أنه" ناح المسطار، وذبلت الكرمة، وسمع أنين كل من كان مسرور القلب قبلا، وبطل فرح الدفوف، وانقطع ضجيج المبتهجين، وبطل فرح العود، ودمرت القرى ولحقها الخراب، وأغلق باب كل بيت في وجه الداخل، وصار صراخ في الأزقة، فانتفى كل فرح، وغاب من الأرض كل سرور، وباتت المدن خرائب وهدمت أبوابها"، وكل ذلك، إلا أن ما يعنينا من قوله أساسا ليس استظهار سرقاته، بقدر ما يعنينا ما "تنبأ" به بعد ذلك المدخل المسروق عن يوم هول آتٍ وتصفية حسابات لا ريب فيها:

"ميازيب العلاء انفتحت، وأسس الأرض تزلزلت" (إشعياء ٢٤:١٨)

في الأصل الذي سرق القول منه، كان حكي ملحمة جلجامش عن غمة الطوفان(٧) كما يلي:

"وفي الليل أنـزل الموكـل بالعاصفـة مطـرا مهلكـا. ولمـا ظهـرت أضـواء السـحر علـت مـن الأفـق البعيـد غمامـة مظلمـة. ومـن قلـب الغمامـة أرعـد الإلـه أدد (حـداد).. وزلزلت رعود الإله أدد (حداد) السماء وتحطمت الأرض كما تتهشم الجرة"

أما إشعياء، فيواصل "التنبؤ" نقلا عن الأسطورة البابلية، فيخبرنا أن:

"الأرض انسـحقت انسـحاقا. تشـققت الأرض تشـققا. تزعزعـت الأرض تزعزعـا. ترنحـت الأرض ترنحا كالسكران وانهدمت ككوخ (وتدلدلت كالعرزال) اذ ثقـل عليهـا ذنبهـا فسـقطت ولا تعـود تقـوم" (إشعياء ٢٤:١٩ و٢٠).

وانسـحاق الأرض، وتشـققها، وتزعزعهـا مـن هـول رعـد يهـوه المسـروق مـن أدد/حداد، يمكن تقبله كوصف لظواهر زلزاليـة تحـدث لـ"الأرض" التـي هـي الأرض التـي نسير عليها والتي تتشقق وتنهار وتحدث لها كـل تلـك الأشـياء الطبيعيـة. ولكـن مـاذا عـن "الترنح، والسقوط، والانهدام، وعدم القدرة على القيام"؟ بـل ومـاذا عـن "الذنـب"؟ كيـف يمكن أن تترنح الأرض من ثقل ذنب فتنهار ولا تعود تقوم؟

يبدو أن من حدث لها ذلك، وأن ثقيلة الوزر التي سقطت في رؤيـا إشـعياء ليسـت الأرض الأرض، أي التراب بل الأرض الإلاهة، الأرض الأم، الإلاهـة الأنثـى المنافسـة ثقيلـة الذنب التي- في رؤيا "نبيه"- سحقها يهوه، ولطمها فجعلها تـترنح كالسـكرى، وهدمهـا كبيت منهار، ولعظم ذنبها (النـاجم عـن شـرور فرجهـا المسـنن الـذي ظـل يهـدد بـابتلاع القضيب البطل يهوه) جعلها يهوه تسقط فلا تعود تقوم. وذلك هوما نكتشفه من النص متـى واصلنا قراءته وتوقفنا متفكرين، وفي أذهاننا السياق الأسطوري للحكي، عند:

"ويكـون فـي ذلـك اليـوم أن يهـوه يعـاقب حشـد الآلهـة العليين فـي علاهـم ويعـاقب ملـوك الأرض علـى الأرض. فيجمعـون كلهـم معـا فـي الهاويـة ويسـجنون.. واذ ذاك يخجل القمر وتخزى الشمس لأن يهـوه رب الجنـود قـد ملك في جبل صهيون وفي أورشـليم وأمـام قديميـه تربـع ممجدا" (إشعياء ٢٤:٢١-٢٣)

والنص، فوق تلغيزه بيد إشعياء أو بيـد المحـرر أو بـاليدين معـا، معـالج بتدخـلات المترجمين. فلنحاول فك طلاسمه جزءا جزءا.

ابتداء، ما الذنب الذي سيعاقب من أجله يهوه من سيقع عليهم ذلك العقاب؟ يبـدو أنه ذنب منافسته على العرش الذي رآه إشعياء وقـد "تربـع عليـه ممجـدا أمـام قديميـه"، أي عرش "ملك الآلهة". فالذين سيعاقبهم يهوه، غـير "ملـوك الأرض" هـم "الآلهـة العلييـن فـي

علاهم". وقد تدخل المترجمون إلى العربية هنا متبرعين بتمويه النص لأسباب غير مفهومة، فحولوا "الآلهة العليين في علاهم" إلى "جند العلاء في العلاء"، وغيروا "يعاقب"، فجعلوها "يطالب"، في حين ظل النص في ترجمة الملك جيمس:

"shall punish the host of the high ones that are on high".

وإذ أدخل إشعياء "الآلهة العليين"، بعد أن أنزلهم من "علاهم" إلى الأرض، ثم أنزلهم إلى الهاوية مع "ملوك الأرض" الأمميين، خصوم "الشعب"، في سجن يهوه، استدار فسجل انتصار يهوه، أسطوريا، على الوجه التالي:

(١) خجل القمر (الإلاهة، ملكة السموات)، و(٢) خزي الشمس (كل إلَه شمسي قضيبي منافس)، و(٣) تربع يهوه، الإله البطل المحارب، "رب الجنود"، ملكا (على كل الآلهة التي قهرها وأسرها وسجنها في الهاوية ريثما يتفرغ ليقرر مصائرها! "ثم بعد أيام يتعهدون" عربياً وانجليزيا ("and after many days shall they be visited")، و(٤) كان تربعه على العرش على قمة جبل صهيون (كما تربع بعل على قمة جبل صفون)، و(٥) كان تربعه عاليا وهو مطل من فوق عرشه وسط "قديمية"، أي "كيدوشيم" إيل، "وأنوناكي" مجمع الآلهة السومري: ("and before his ancients gloriously").

فهو انتصار كامل ماحق ونهائي على كل من ظلوا ينافسونه (وينافس كهنتهم كهنته) على "الشعب" بغية استيعابه وتذويبه في شعوبهم الوثنية المرذولة، من آلهة وإلاهات الشرق الأدنى القديم.

فإشعياء هنا، جريا على سنة التأريخ بالتمني التي انتهجت في تأليف أسطورية يهوه، قد "تنبأ" بتأريخ مستقبلي بالتمني يتحقق فيه التطلع الذي ظل ملازما للديانة منذ أسسها موسى إلى ذلك المستقبل المرموق ليهوه متربعا ملكا على كل أرض طالتها معارف نبييمه وتلمظت إلى لحوم سكانها أنيابهم، من قمة جبل صهيون وحوله بلاطه الملكي من "قديميه" الذين لا يستبعد أن يكون إشعياء قد رأى نفسه بينهم هناك في القمة السامقة الحاكمة العالم.

هذا النص، وما أفصح عنه من تطلعات كهنة يهوه ونبييمه، يوقفنا على عظم الصدمة التي تعرضوا لها من جراء كارثة انهيار "المُلك"، والسبي. وأسطوريا- وكل ما يسع أي بحث جاد في سراديب متاهة المشروع الموسوي أن يفعله هو أن يحاول النفاذ إلى "واقع" الحكي من خلال منطقه الأسطوري- يمكننا النص من الاستبصار بمأزق يهوه وهو محاصر (كأي شخصية روائية) بين الصخرة والمكان الصلب، ان صح التعبير. والصخرة، هنا، بمجازية مواتية للغاية، هي شخصية يهوه ذاته كما صورها نبييمه وكهنته مؤلفو أسطوريته ومبدعوه روائيا. فهو الإله الصخرة، صخر الدهور، القوي، العتيد، القادر، الذي لا يقهر ولا يهزم. ومن فرط اصرار مبدعي الشخصية على تصويرها بهذه الصورة، باتت الشخصية تستمد القدر الأعظم من مصداقيتها الجمالية من كونها شخصية البطل الإلهي الصنديد الذي لا يقهر. "من مثلك قوي، يا يهوه"، يرتل المزمور. و"يهوه قد ملك.

ترتعد الشعوب.. تتزلزل الأرض. يهوه عظيم في صهيون وعـال هـو علـى كـل الشعوب"، يرنم مزمور آخر. وهو "صخرة خلاصنا"، يؤكـد مزمـور ثـالث. فـ"اسـجدوا لـه يـا جميع الآلهة"، يأمر مزمور رابع. وفي النهاية، "تفرح صهيون وتبتهـج بنـات يهـوذا لأنـك أنـت يـا يهوه على كل الأرض (وقد) علوت جدا على كل الآلهة" كما يهلل نفس المزمور.

أما المكان الصلب، الصعب بحق، فهزيمـة يهـوه أمـام آلهـة ظـل كهنتـه يصفونهـا بالعجز والزيف ويأمرونها بأن تسـجد لـه. لأن الهزائـم التـي تلاحقـت أمـام المصريـين، ثـم الأشوريين، ثم البابليين، مهما بررها الكهنة بأنها لحقت بـ"المملكتين" نتيجة لغضـب يهـوه على "الشعب" و"ملوكه" وكهنته المارقين، لم يكن من الممكـن أن تفسـر الا بأنهـا هزائـم ليهوه ذاته أمام آلهة تلك الشعوب الشريرة الأخـرى. وقـد كـان ذلـك فخـا وقـع فيـه يهـوه وكهنته معه من صنع الكهنة أنفسهم اذ ظلوا يلحون على أدمغة "الشعب" بأن يهوه هو الذي يحارب عنه، وأنه إله محارب بطل قوي لا يقهر يفوق سحره سحر أي إلـه آخـر مـن آلهـة الشعوب.

وقد بات ذلك المكان الصلب صلدا بحق وخشنا- علـى الرغـم مـن ثخانـة جلـود الكهنة- عندما هدم هيكل يهوه ولم يحدث لمن هدموه شيء، فلم يجد الكهنة مـا يقولونـه الا أن يهوه هو الذي أمر بهدم هيكله. وازداد المكان الصلب صلابة عندمـا أخـذ التـابوت فلم يحدث لمن أخذوه شيء. وبات وعرا بحـق عندمـا فتـح التـابوت فانكشـف سـره ممـا اضطر إشعياء الثاني إلى أن يجأر بأعلى عقيرتـه مؤكـدا أن يهـوه إلـه محتجـب وأن "صنـاع التماثيل" (كالتمثال الذي وجد في التابوت) يجدر بهم أن يتـواروا خزيـا وعـارا. ومـع كـل ذلك، لم يحدث لمن فتحوه وكشفوا سره (فجعلوا من المحتم أن يختفي فلا يعود يعـثر لـه على أثر) أي سوء من قبيل ما حكى سفر صموئيل أنه حدث للفلسطينيين في أشدود عندمـا نظروا إلى التابوت فأصيبوا كلهم بالبواسير، وأقفلت أرحام نسائهم. والأخطر من كل ذلـك أن "الشعب" المقدس سبي، واقتيدت صفوتـه الكهنوتيـة إلـى بـابل وهـي مكبلـة بـالأغلال. وبطبيعة الحال، لم يحدث لمن ارتبكوا تلك الجرائم شيء لأن يهوه، من فرط غيظـه، كـان هو الذي أمر بها.

وهو تصرف سرعان ما تبين أنه- ككل تصرف دافعه الغيظ- كـان وخيـم العاقبـة. فهناك، في بابل، تعرض يهوه لتلك المنافسـة الخطـرة مـن آلهـة بـابل وإلاهاتهـا العارمـات. وليت تلك المنافسة، في تلك الأرض الغريبة كانت كل ما ترتب على القرار المندفـع الـذي أملاه الغيظ بجعل الأشوريين والبـابليين يغزون الأرض ويزيلـون المُلـك. فمـن خـلال نهـج الترحيل والتوطين الـذي انتهجـه الأشـوريون بعـد إزالـة "المملكـة" الشـمالية مـن الوجـود، وترحيل أعداد كبيرة من "غنم يهوه" (المارقة نعم، لكنها غنمـه) وإحـلال مسـتوطنين جـدد محلها، وقع غزو إلهي بالغ الضرر تعرضت أرض المملكة الشمالية من جرّائـه لاجتيـاح قـام به آلهة كانت بينهم وبين يهوه عداوات سافرة.

فالمحنة، بالنسبة للكهنة والنبييم ورثة مشروع موسى الملوكي، كانت مركّبة بحق. فالنكبة لم تقتصر على زوال المُلك، وهدم الهيكل، وفتح التابوت، ولم تؤد فحسب إلى تشتيت وسبي "الشعب"، المورد البشري الذي لم يكن للمشروع أمل بدونه، بل وانطوت- فوق ما انطوت عليه من خطر اختفاء ذلك المورد إذا ما استوعب فذاب في "الأمم" واستمر ترحيله واحلال الأغراب الجوييم الأمم محله في أرض اللبن والعسل- على خطر أفظع، تعلق بيهوه ذاته. فيهوه- وان لم يُجعَل في تأليف الكهنة لعبادته روائيا الشخصية الأهم في الحكي، بل جُعِل أشبه بشخصية مساعدة للشخصية الروائية الأولى، بطل الرواية، "الشعب"- كان قد ظل السلاح الفعال شديد المضاء في يد الكهنة المؤلفين مبدعي شخصيته في مواجهة الأشتات البشرية التي حاولوا- بالترغيب والترهيب- أن يخلقوا منها "شعبا". ونتيجة للغزو، وزوال المُلك، و"دخول الأمم ميراث يهوه وتنجيسهم هيكل قدسه" (مزمور ٧٩:١) تعرض يهوه، داخل ميراثه، في أرض "هيكل قدسه" لعدوان تلك الآلهة الغريبة والدخيلة، وكأنها لم يكفها أنها نافسته على عقول وقلوب وجيوب "شعبه" في السبي وفي الملاذ، في بابل وفي مصر.

في سفر الملوك الثاني نص "تاريخي"، يوقفنا- رغم معالجته كيما يوحي بأن يهوه كان مازال صاحب اليد العليا في أرضه- على أبعاد ذلك العدوان على يهوه في "عقر داره".

والنص مرتبك، ربما عن عمد، لكنه يمكن أن يلخص في الحكي التالي:

(١) "سبي اسرائيل من أرضه إلى أشور "وكان سبيه" إلى هذا اليوم".

(٢) وأتى ملك أشور بقوم من بابل وكوث وغيرهما وأسكنهم في مدن السامرة مكان من سبوا فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها.

(٣) وعندما سكنوا بدلا من "اسرائيل" في السامرة وامتلكوها (استوطنوا فيها) "لم يتقوا يهوه" أي لم يقدموا إلى من بقي من كهنته عشورا أو تقدمات.

(٤) واذ شعر يهوه بالخطر، أرسل عليهم السباع فكانت تقتل منهم.

(٥) واذ ذاك (رغم أن السباع كانت متواجدة في شمال كنعان وفي سوريا عموما من أزمنة طويلة ولم يكن خطرها على السكان جديدا) أخطر ملك أشور بالأمر وأعلم أن السباع فعلت ذلك لأن "الأمم الذين أسكنهم في مدن السامرة لا يعرفون قضاء إله الأرض، أي يهوه، فأرسل عليهم السباع فهي تقتلهم لأنهم لا يعرفون قضاء إله الأرض" (ويوقفنا تكرار "إله الأرض" مرتين بهذا الشكل على الغرض من الحكاية).

(٦) فكان أن أمر ملك أشور بأن يرسل كاهن من كبار كهنة يهوه الذين كانوا قد سبوا من أرض "إله الأرض" ليذهب فيسكن هناك (في السامرة) ويعلمهم (يعلم المستوطنين) قضاء إله الأرض.

(٧) فأتى أحد الكهنة الذين كانوا قد سبوا من السامرة، وسكن في بيت إيل وأخذ يعلم المستوطنين "كيف يتقون (كيف يقيمون شعائر) يهوه".

(٨) غير أن المستوطنين، على الرغم من إثبات ملكية "إله الأرض" (يهوه) للأرض (السامرة) التي وطنوا فيها، ظلت كل أمة منهم" تعمل آلهتها في مدنها التي سكنت فيها وتضعها في بيوت (هياكل) المرتفعات التي كان السامريون قد عملوها" وأغضبوا يهوه بسببها فقضى عليهم بالسبي إلى أشور.

(٩) وهكذا "عمل أهل بابل سكوث بنوث. وأهل كوث عملوا نرجال (عيرّا). وأهل حماة عملوا أشيما" وهكذا. (و"عملوا" تعني صنع تماثيل تلك الآلهة ووضعها في الهياكل على المرتفعات).

(١٠) وبذلك فان المستوطنين، وقد علمهم الكاهن الذي بعث من أشور وأقام في بيت إيل شعائر يهوه، كانوا "يتقون يهوه"، وفي الوقت ذاته كانوا يقيمون لأنفسهم من بين أدناهم طبقة (أطرافهم) كهنة مرتفعات كانوا يقربون لأجلهم إلى آلهتهم في هياكل المرتفعات. "فكانوا يتقون يهوه ويعبدون آلهتهم كعادة الأمم".

ومن ارباك النص عمدا، يبدو واضحا اجتهاد المحرر (بقدر كبير من ثقل اليد) في الشوشرة على ما يبدو أن النص تضمنه من أن من كانوا قد بقوا من "اسرائيل" في السامرة، كانوا يفعلون نفس الشيء، وهو ما لم ينجح فيه المحرر تماما اذ يخبرنا النص إثر تلك المحاولة مباشرة أنهم "عادوا إلى عاداتهم القديمة، فلم" يتقوا يهوه ولم يعملوا حسب فرائضهم وعوائدهم ولا حسب الشريعة والوصية التي أمر بها يهوه بني يعقوب الذي جعل اسمه اسرائيل" (الملوك الثاني ١٧:٢٣-٣٣).

حتى نقف على مدى خطورة ذلك المأزق المزدوج الذي وجد يهوه نفسه محاصرا فيه ونوعية المحنة المركبة التي واجهها كهنته ونبييه نتيجة لمأزقه بين آلهة بابل وإلاهاتها في بابل، وغزو تلك الآلهة لأرضه، نذهب إلى إرميا.

فذلك "النبي". (الذي، لسبب ما، ظل أكثر نبييم يهوه شفافية)، ظل يؤكد أن يهوه أخبره أنه هو الذي دفع الأشوريين ثم البابليين إلى اجتياح المملكتين وتدميرهما، بل وجعل يهوه يقول:

> "إني أنا صنعت الأرض والانسان والحيوان الذي على وجه الأرض.. وأنا الذي أعطيتها لمن حسن في عيني. والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذنصر ملك بابل عبدي وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليخدمه. فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه.. ويكون أن الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذنصر ملك بابل والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل أني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء حتى افنيها بيده" (إرميا ٢٧:٥-٩).

فليس هناك ما هو أوضح من ذلك. يهوه هو الذي أمر. وبطبيعة الحال لم "يأمر يهوه" بذلك إلا لأن إرميا استبصر بما كان من المقضي به أن يحدث لـ"الشعب"،

ولـ" المُلك" اذا ما ركبت "مملكة" يهوذا رأسها وأثارت نقمة بابل بعد الصدام الأول، وهو ما يوقفنا عليه قوله "اخدموا ملك بابل واحيوا. لماذا تصير هذه المدينة خربـة؟" (١٧:٢٧)، وقوله لصدقيا "ادخلوا أعناقكم تحت نير ملـك بـابل واخدمـوه هـو وشـعبه واحيـوا. لمـاذا تموتون أنت وشعبك بالسيف وبالجوع وبالوباء كما تكلم يهـوه عـن الأمـة التـي لا تخـدم ملك بابل؟" (١٢:٢٧ و١٣).

غير أن إرميا ذلك ذاته هو الذي ندب اسرائيل وجعل يهوه يقـوم بحركـة "للخلـف دُرّ" حادة ومكشوفة الوجه بعد أن ظل يقول "لقد أقسمت أن هذا البيت (بيت ملك يهـوذا) يكون خرابا"، فاذا به يغير نغمته فجأة فيقرر أن ما فعله "ملك بابل عبده" وملك أشور الذي نفذ أمره كان ذنبا مخيفا يجب أن يعاقبا أشد العقاب بسببه:

> "اسرائيل غنم متبددة. فقد طردته السباع. أولا أكله ملـك أشور ثم هذا الأخير نبوخذنصر ملك بابل هـرس عظامـه. لذلك قال يهوه رب الجنـود إلـه اسـرائيل: هـأنذا أعـاقب ملك بابل وأرضـه كمـا "عـاقبت" ملـك اشـور (بصـرف النظر أن من عاقب ملك أشـور لـم يكـن يهـوه بـل ملـك مصر وجيشه) وأردّ اسرائيل إلى مسكنه فيرعى في الكرمل وباشان وفي جبل افرايم وجلعاد تشـبع نفسـه" (واذ شـعر إرميا بـلا معقوليـة التحـول هكـذا بغتـة مـن النقيـض إلـى النقيض، سارع فجعـل يهـوه يستطرد قـائلا): "فـي تلـك الأيام وفي ذلك الزمان، يقول يهوه، يُطلَـب إثـم اسـرائيل فلا يكون وخطيّة يهوذا فلا توجد لأني أغفر لمـن ابقيـه"! (إرميا ١٧:٥٠-٢٠)

غير أن حقيقة الأمر كانت غير ذلك. حقيقة الأمر أن نبييم يهوه، حتى إرميا- الذي ظل، ببراغماتية رجل دولة حصيف، يهيب بـ"الشعب" وبقادته أن "يدخلوا أعناقهم تحت نير ملك بابل ويحيوا"- فطنوا إلى أن السبي البابلي، والسـبي الأشـوري ومـا انطـوى عليـه مـن توطين مجموعات بشرية جـاءت معهـا بآلهتهـا فـي "أرض يهـوه" الـذي وصـف بأنـه "إلـه الأرض" كانت تطورات تهددت مشروع موسى الملوكي بخطر التبـدد النهـائي مـن خـلال استيعاب "الشعب"، واجتياح آلهة بابل لسلاح المشروع الرئيسي، يهوه.

وفي الاستجابة لهذا الخطر المهلك، برز بشكل خـاص اتجاهـان كهنوتيـان، تمثـل أولهما في طفرة عارمة من الشراسة التي كانت- منذ بدأت عملية تخليـق يهـوه- قويـة فـي شخصيته كما صُوِّرت روائيا في حكي أسفار التوراة وسائر العهـد القديـم، لكنهـا صُعِّـدت بشكل حاد على عباب ما بدا كهلع كهنوتي عديم الاتزان من مخاطر الاسـتيعاب واندحـار يهوه الكامل أمام منافسيه البابليين، وتمثل الاتجاه الثاني في تصعيد موازٍ لاتجاه طمر الألوهة المؤنثة والتخلص منها نهائيا.

والواقع أن عملية مراجعة نصوص الديانة وتحريرها وإعادة صياغتها، بل وتأليف اصحاحات بأكملها واضافتها إلى الأسفار كما في حالة النص الكهنوتي الذي أضيف إلى مستهل سفر التكوين، ووضع المادة التثنوية التي أعطت النصوص نواتها "الإيمانية" الصلبة، كانت من نتائج النهوض الكهنوتي المتصف بالتصميم لمواجهة ذلك التحدي.

وكما هي العادة في كل ما تعلق بعملية التأليف والتخليق في عبادة يهوه، كان اللجوء إلى الآلهة المنافسة ذاتها التي انصب الجهد الكهنوتي على إزاحتها من طريق يهوه، لأخذ كل ما وُجد ملائما لمقاصد اللاجئين اليها من قدرات ليهوه.

وفي ذلك، لم يفرق الكهنة كثيرا بين ألوهة مذكرة أو ألوهة مؤنثة. فهمهم الأول كان أخذ كل ما بدا لهم حريا بأن يغوي "الشعب" بالخروج من تحت يهوه والسير وراء هذه الألوهة أو تلك من قدرات وألقاب وبطولات. الا أن السطو على الألوهة المؤنثة، فيما يبين البحث المقارن في تعقبه لما وقع السطو عليه، وفيما تؤكد الصورة التي استقر عليها يهوه، تركّز بالقدر الأكبر على الوجه التدميري بالغ العنف من وجهيّ الألوهة المؤنثة، على النحو الذي استظهرناه بشأن ما سُرق ليهوه من أمجاد عانات الحربية.

وقد كان ذلك منطقيا ومتماشيا مع طبائع الأمور. فيهوه إله ذكر أُعلي كبطل قضيبي محارب في عصر عنفٍ دموي كانت الوحشية العسكرية خلاله المعيار الأساسي في تقييم علو الملوك الأرضيين وبطولاتهم. وتبعا لذلك لم يكن بوسع صانعي أسطورية ذلك المعبود التي ما صنعت إلا لإعلائه ملكا على كل الآلهة الذكور المحاربين الآخرين، حتى وهم يلقون في جوف يهوه الرحب بصفات وقدرات الألوهة المؤنثة، وبالأخص قدرة الأمومة في وصفهم إياه بأب الآباء وأم الأمهات وفي صوغهم النسخة التثنوية من أسطورة الخلق التي أُكدت فيها تلك القدرة له، الا أن يركزوا على ابراز رحم الإلاهة الذي سطوا عليه لحساب يهوه في صورته التدميرية، أي صورة الكهف المبتلع كل حياة- ولكن بلا أي أمل في حياة وراء الموت أو أمل في إعادة ميلاد (بعث).

وفي زمن السبي وضياع المُلك، ويهوه محاصر بين الصخرة والمكان الصلب، كان من أكثر الأمور طبيعية أن تضخم في صورته صورة الإله الشرس المفترس للحياة. وفي تمتين الكهنة التثنويين لتلك الصورة، كان عيرّا/نرجال، إله الوباء والموت السومري/البابلي الذي غزا أرض السامرة مع المستوطنين، هدفا مشروعا ومواتيا للغاية.

وبطبعية الحال، كانت الأوبئة ظاهرة مرعبة من أقدم العصور، ومازالت. غير أنها- بعقلية إنسان العالم القديم- بدت دائما كفعل بالغ الشراسة من أفعال العنف الإلهي. ونحن واجدون في أسطورية يهوه، ابتداء من سلسلة حكايات موسى، تهديدات مستمرة بإبادة "الشعب" بالوباء، وواجدون مقاطع من تلك السلسلة من الحكايات تؤكد أن يهوه نفذ تهديداته وتعزز ذلك باحصائيات عن أعداد من "أخذهم الوباء" من "الشعب".

غير أن البحث المقارن يوقفنا على أن قدرة الوباء هذه أعطيت ليهوه في زمن متأخر وأقحمت على الحكي عن موسى ومغامراته مع يهوه في القفر تثبيتا لحيازة يهوه لتلك الخاصية الوبائية من مبدأ الأمر.

وبطبيعة الحال، يمكن أن يبدو ذلك النظر اعتسافيا متى تعامل مع المسألة إيمانياً، تسليما بمصداقية تأليف الكهنة. إلا أنه نظرتمليه طبيعة يهوه ذاته، الناطقة في النصوص على الرغم من كل المعالجات، وهي طبيعة المعبود الناري البركاني، وطبيعة الوثن القضيبي المنجب للحياة. فالقدرة المزدوجة للألوهة في أسطوريات العالم القديم، والنابعة من الأندروجينية الملازمة لآلهة تلك الأسطوريات وإلاهاتها، قدرة انجاب الحياة وابتلاع الحياة، كانت- في أصل يهوه- الإنجاب كقضيب كونيّ والابتلاع كمعبود ناريّ يحرق ويحول الحياة إلى رماد. وعندما طوِّر يهوه بأيدي كهنته في سياق عملية ابتلاع الألوهة المؤنثة إلى أب وأم في آن معا، بات ممارساً لوظيفة الإنجاب كإله خنثى مخصب لذاته بذاته من ذاته، أي كقضيب كوني يخصب الرحم الكوني الذي بات فيه بمنيه الإلهي، فينجب الحياة، كما في حكاية إنجابه الإنسان "على صورته، ذكرا وأنثى" قبل أن يفصل الذكر الذي فيه عن الأنثى التي فيه. أما وظيفة إهلاك الحياة، الوجه الآخر من وجهي الألوهة المؤنثة، فظل ممارساً لها، كمعبود بركاني، بالنار: "نار قدّامه تأكل" (مز ٣:٥٠)، "وكان يهوه كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني اسرائيل" (خروج ١٧:٢٤)، "فحمى غضب يهوه فاشتعلت فيهم النار وأحرقت طرف المحلة.. لأن نار يهوه اشتعلت فيهم" (عدد ١١:١-٣)، (كأمثلة قليلة فقط على طبيعة يهوه النارية من كل كثير لا يكاد يحصى).

والنار، كما نعرف مناقضة تماما للوباء. وقد ظل دفاع الانسان القديم ضد الأوبئة إشعال النار في الأماكن (وأحيانا، عند الضرورة، في البشر) تطهيرا لها (ودرءا لعدواهم).

فمن أين تسللت الهوية الوبائية إلى صورة يهوه كقدرة مضافة من قدرات إهلاك الحياة وابتلاعها؟ تقودنا مقارنة النصوص السومرية/البابلية بنصوص العهد القديم إلى عيرّا/نرجال.

كان نرجال، في الميثولوجيا السومرية، إله الموت (الموت بالسيف وبالجوع وبالوباء) وزوج إلاهة العالم السفلي الرهيبة إريشكيجال. وفي ملحمة الطوفان السومرية، بوصفه إله السيول والفيضانات المدمرة، كان الساعد الأيمن لأدد/هدد/حداد إله العواصف والرعد والمطر في تنفيذ حكم الاعدام الذي أصدره إنليل على البشر وكل الأحياء بنكبة الطوفان. وفي ملحمة جلجامش، يحلم به انكيدو فيعلم أن نهايته دنت. ومن وظائف ذلك المعبود الجحيمي اختصاصات تنشي رابطة أسطورية أشبه بالقرابة بينه وبين إله الشر المصري ست قاتل أوزيريس (أوسير)، اذ شملت أدوات صناعته (الموت) الحر المهلك والقحط والجدب جنبا إلى جنب مع الحمى.

وفي أواخر الألف الثانية ق.م.، عرف نرجال طريقة- كسائر آلهة وإلاهات سومر- إلى عبادات بابل باسم عيرّا، وأقيمت له الشعائر استرضاء واكتفاء لشره، بوصفه إله الوباء الشرس الذي، متى غضب، جلب الحميات والأوبئة والمصائب على رؤوس البشر. وفي صورته البابلية، أعطى شامانا إلهيا هو خليصه الذي دعي بـ"إشوم". وفي حين صوّر إشوم كمحارب ضار، صور أيضا كالناصح لعيرّا والوحيد القادر على تهدئة ثورات غضبه وكبح جماح شراسته الفائقة.(٨)

وفي بابل، إذ التقى كهنة يهوه وجها لوجه بأسطورية عيرّا وإشوم، لم تفتهم- بطبيعة الحال- أوجه التماثل القوية: (١) بين عيرّا/نرجال وست إله الشر المصري الذي لوحظ أنه كان أشدآلهة مصر الذكور جاذبية وتأثيرا بالنسبة للهكسوس ولمن علق بجسد مصر في ظلهم من البدو الساميين مما جعل نفاذه إلى الوجه الشرس (وهو الأقوى والأظهر) في هوية يهوه أمرا بالغ السلاسة(*)، و(٢) بين ثنائي عيرّا/إشوم، وثنائي يهوه/موسى. فموسى كان هو الآخر- كما صُنِعت أسطوريته- مقاتلا ضاريا ممعنا في الوحشية (تجاه كل من تصدى لتسيّده على "الشعب" كما في تمرد قورح، وتجاه كل من تهدد معبوده يهوه بالانفضاح، كما في محاولته إبادة المديانيين الذين كان قد تعلّم عبادة يهوه منهم، وتجاه كل من تهدد لقيته هذه وكل من اقتضى التوجّه صوب تنفيذ مشروعه الملوكيّ إبادته) وكان، الوقت ذاته، خليص يهوه الذي ظل "يتكلم معه وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه"، وناصحه راجح العقل والوحيد القادر على تهدئة ثورات غضب يهوه وكبح جماح شراسته الفائقة تجاه "الشعب" كلما جعل ذلك "الشعب" غضبه يصعد إلى أنفه.

(*) الذي لم يعد هناك محل للشك فيه على ضوء بحوث علم الأديان المقارن أن ست، إله الشر والظلام، الإله الضدّ المصري، لعبت أسطوريته دورا هاما في تطوير هوية يهوه، ربما عن عمد وربما تأثرا بمفهوم للألوهة كان أقرب الى البنية العقلية والنفسية لمن انحازوا لعبادته. والأدلة على التأثر العميق بست كثيرة في سفر التكوين. فاسمه أطلق على ثالث أبناء آدم، مع تغيير التاء الى ثاء، على سبيل البراعة، كيما يصبح الاسم سث، وهو ما تعاون المترجمون الى العربية على حبكه حبكا جيدا باستخدام النطق العبري للسين شينا، فجعلوا الاسم "شيث" ليبعدوه قدر الامكان عن أصله الحقيقي وهو ست.

وغير اسم شيث المبارك تشير المكانة الشعائرية الهامة التي أعطيت للحمار وللبقرة الحمراء، وقد كان كل منهما حيوانا مقدسا في شعائر ست، في تعليمات يهوه الإلهية الى موسى. فالحمار كان الحيوان الوحيد الذي استثني بكرَه من القاعدة اليهيوية الخاصة بذبح بكر الانسان وبكر الحيوان متى كان ذكرا كتقدمة وحرقه لاحداثَ رائحة سرور ليهوه: "لي كل فاتح رحم (من الانسان) وكل ما يولد ذكرا من مواشيك (الا) الحمار فتفديه بشاه وان لم تفده تكسر عنقه (ولكن لا تذبحه ولا تحرقه)" (خروج ١٩:٣٤ و٢٠)، أما البقرة الحمراء فطلب يهوه أن يكون تقديمها إليه "ذبيحة خطيّة" أي ذبيحة استرضاء وكف أذىً، ووردت به تعليمات بالغة الدقة في سفر العدد ١:١٩-١٠. ولا غرو ان قال القباليون أن روح ست كانت قد تقمصت موسى! وفي نفس الوقت أخذ مؤلفو سلسلة حكايات يعقوب/اسرائيل لذلك "الأب" صفات "الشطارة" والمكر والغش من أسطورية ست. انظر مثلا:

Velde, H.: "The Egyptian God Seth as a Trickster", Journal of the American Research Center in Egypt, Issue #7 (1968), pp.37-40.

ومما تشير اليه النصوص التثنوية بقوة وتؤكده مقارنة تلك النصوص بالنصوص المأخوذة في صياغة "الأسفار المقدسة" من "الوثائق" غير التثنوية، مارست أسطورية عيرّا/إشوم جاذبية قوية (لفوائدها العملية) على الكهنة التثنويين والمحررين لـ"الأسفار المقدسة" في زمن السبي. ففتوّة يهوه الحربية المدّعاة له كمكوّن أساسيّ من مكوّنات بطولته الإلهية كانت قد باتت غير صالحة إطلاقا- بعد الهزائم العسكّرية المدمرة على أيدي المصريين والأشوريين والبابليين- في تأمين خضوع "الشعب" وتماسكه في ظل يهوه رب الجنود رجل الحرب الذي لا يغلب. والصندوق السحري الرهيب، تابوت العهد، كان قد أُخِذ دون أن يحدث لمن أخذوه شيء، وفُتِح وفُضِحَت محتوياته، فلم يعد صالحا في الإبهار والترهيب، بل ودعت الحاجة إلى اخفائه اخفاء كاملا من الصورة ومن حياة "الشعب".

وبفقدان كل تلك الأدوات الناجعة، ووقوع كهنة يهوه ونبييمه على أسطورية عيرّا/إشوم في بابل بين ما قُيِّض لهم من كنوز العبادات السومرية والبابلية في مكتبات المعابد وفي أناشيد وترانيم وتسابيح المنشدين في المهرجانات الدينية، يبدو أن أولئك الكهنة والنبييم فطنوا إلى أن تلك الأسطورية الوبائية تمثل فيها طوق نجاة لهم وليهوه وهو وهم بين الصخرة والمكان الصلب، و"الشعب" معرض لخطر الاستيعاب والتبخر من بين أيديهم وبالتالي حرمانهم من المورد البشري الذي تعلق به أملهم الأخير في إعادة إحياء مشروع موسى. وفوق هذا وذاك، كان نرجال/عيرّا قد غزا السامرة وحلّ فيها محل يهوه إلها يخشى غضبه وتقام له الشعائر استرضاء.

تحت تأثير كل تلك العوامل السياسية/الدينية، انخرط الكهنة التثنويون والنبييم، في زمن السبي، في عملية اتصفت بـ"الأستاذية" المعهودة وبالتصميم الكهنوتي الظامئ إلى المُلك المألوف في كل ما له شأن بتطورات صورة المعبود وتوجهات الديانة، لادماج نرجال/عيرّا في يهوه، وبالتالي تغليب الوجه الوبائي في صورة يهوه التدميرية على الوجه الناري والوجه الحربي اللذين تقادما وفقدا فعاليتهما.

ومما يحتمل أنه شجع كهنة يهوه ونبييمه على انتهاج ذلك النهج أن مسارا مماثلا كان قد بات ملحوظا في الديانة البابلية. فمردوخ، الذي كان يهوه مدينا له بقدر لا يستهان به من القدرات والبطولات المختلسة منذ ما قبل السبي عن طريق الانتشار الثقافي ومن خلال تأثر أسطوريات أوغاريت الكنعانية بأسطوريات سومر وبابل(*)، كان قد تعرض- لأسباب سياسية ونتيجة لأوضاع نجمت عن الغزو الحثي ثم الغزو العيلامي لبابل- لأزمة مكانة كتلك التي كان يهوه قد تعرض لها نتيجة للغزو الأشوري ثم الغزو البابلي. وعلى عباب أزمة المكانة التي تعرض لها مردوخ، كان نرجال/عيرّا البطل الإلهي الذي تحدى ملوكية مردوخ وفي بعض الإنشاد الدينى البابلي حل محله لفترات طويلة نسبيا ملكا على

(*) ارجع في ذلك الى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص١٤٨-٢٠١.

مجمع الآلهة البابلي. ونحن واجدون إشارات في العهد القديم إلى أزمة مكانة مثيلة تعرض لها يهوه، وردت- بطبيعة الحال- على عجل، وبغير تماد في ايراد التفاصيل، لكنها ظلت منبئة- مع ذلك- عما نشير اليه، كقول "إمام المغنين"، مثلا "قال الجاهل في قلبه ليس إله. ففسدوا ورجسوا رجاسة.. ويهوه من السماء أطل على بني البشر لينظر هل من فاهم (هل من انسان فهيم) طالب له. (فاذا) بهم كلهم قد فسدوا. ارتدّوا معا" (مز ٥٣:١ و٢).

ونحن متى ذهبنا باحثين عما قد يبين حقيقة ذلك التوجه الوبائي أو يدحضه، واجدون في سفر التثنية (باعتبار الحكي الذي عولج تحريريا في سفر العدد إطارا مرجعيا لـ"وقائع" التاريخ اليهيوي) أن المؤلف (الذي يرجح أنه حزقيال، في القرن السادس ق.م.) يحذر "الشعب" قائلا: "أعينكم قد أبصرت ما فعله يهوه ببعل فغور. ان كل من ذهب وراء بعل فغور أباده يهوه إلهكم من وسطكم (بالوباء، طبقا لتحرير سفر العدد) وأما أنتم الملتصقون بيهوه فجميعكم أحياء اليوم" (تثنية ٤:٣ و٤).

وفي هذا النص، على قصره، ثلاثة حيل متراكبة من حيل الصنعة (التي ما من شك في أنها كانت في ذهن فريدمان وهو يتحدث عن "الأستاذية التي ما بعدها أستاذية" في تحرير العهد القديم وإعادة تأليفه). وقد تمثلت الحيلة الأولى في قوله " ما فعله يهوه ببعل فغور". فيهوه لم يفعل شيئا ببعل فغور لكنه- في الحكي المعالج عملا على اتساق الكلام بين سفر التثنية وسفر العدد- فعل بـ"الشعب". لكنه، من منطق الديانة اليهيوية، يمكن القول أن ما فعله يهيوه بـ"الشعب" كان ضربة موجهة إلى "غريمة" بعل فغور، حيث أن حرمان المعبود حتى من عدد من عباده ينزل مكانته ويضعف سحره.

أما الحيلة الثانية فتمثلت، بشكل أشبه بالتمشي في الزمن في بهلوانيات الزمن الروائي في الرواية الحديثة، في إرجاع الزمن الروائي سبعة قرون إلى الوراء عملا على الايهام بأن الكلام الوارد في النص قاله موسى لا المؤلف الذي أجراه على لسانه روائيا. تلك الحيلة نجدها في قول المؤلف، دون أن يطرف له رمش، "أعينكم قد أبصرت"، ومن قوله "أما أنتم الملتصقون بيهوه فجميعكم أحياء اليوم". فباستخدام صيغة المضارع واجراء القول علي لسان موسى، توصل مؤلف النص إلى الإيهام بأنه السفر الخامس من الأسفار الخمسة(*) التي بُنِيَت صفة "الوحي" على الادعاء بأنها "أنزلت على موسى". وهو ما تطلب،

(*) ومما يقطع بأن سفر التثنية ألف في زمن السبي أو حرر في ذلك الزمن فاعيدت صياغته من "سفر الشريعة" الذي ادعى حلقيا الكاهن اكتشافه عند ترميم الهيكل سنة ٦٢١ ق.م. في زمن كان الصراع خلاله على أشده بين الملوك والكهنة، وجود هذا النص الصريح الواضح فيه:
"فان رددت في قلبك بين جميع الأمم الذين طردك يهوه إلهك اليهم. ورجعت الى يهوه إلهك وسمعت لصوته حسب كل ما أنا موصيك به اليوم أنت وبنوك بكل قلبك وبكل نفسك، يرد يهوه إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من بين جميع الشعوب الذين بددك إليهم. ان يكن قد بددك الى أقاصي السموات فمن هناك يجمعك ومن هناك يأخذك ويأتي بك يهوه إلهك الى الأرض التي امتلكها آباؤك" (تثنية ٣٠:١-٥).

عندما وُضِع ذلك النص التثنوي في التوراة مكان سفر يشوع الذي أُخـرِج فوضـع مـع سـفر القضاة في سلة "الأسفار التأريخية" (وقد وجد من الأتقياء الأمميين من رأى وجوب ضم سفر يشوع إلى ما هو منزل من يهوه وجعل التوراة ستة لا خمسة أسفار)- إجراء تعديلات تحريرية في الأسفار الأخرى من التوراة، وبخاصة سفر العدد، تأصيلا لهوية إله الوباء في هوية يهوه المجمَّعة المركَّبة.

وأما الحيلة الثالثة فمتمثلة، على النحو الذي نجده متكررا بالحاح لافت للنظر في العهد القديم، في جعل يهوه المؤابي، أي بعل فغور، خصما شريرا دنسا ليهوه المدياني الذي بات نورانيا اذ سرقه موسى من المديانيين، اختزالا، في هذا الموضع، للزمن الروائي، وبذلك جعل يهوه موسى المدياني هو هو الإله الذي جُعِل "محتجباً" وأثيرياً وأُصعِد إلى ما فوق الجَلَد في عصر السبي، وخسفت الأرض بيهوه/بعل فغور بوصفه الصنم القضيبي النجس المذموم الذي يضرب يهوه النوراني كل من يذهب وراءه أو وراء غيره من آلهة الأمم، كآلهة بابل المغوية مثلا التي دس النص على موسى تحذيرا لـ"الشعب" المسبيّ من الذهاب وراءها.

تلك المقابلة الروائية بين يهوه النوراني منزل الوحي ومعطي الشرائع الرفيعة (المسروقة من مصر ومن بابل) وبين يهوه القضيبي المؤابي بعل فغور الذي استمات يهوه مخلوق الكهنة في التنصل منه، نجد ملامحها واضحة بقدر من الإهمال الرقابي يؤاخذ المحررون عليه بغير شك، في اختيار المكان المقام فيه معبد بعل فغور ("بيت فغور") ثلاث مرات لا اقل، في سفر التثنية، ليكون مسرحا لحدثين من أهم أحداث الديانة، هما "انزال الشريعة" و"موت" موسى ودفنه:

(١) "فمكثنا في الجواء مقابل بيت فغور" (تثنية ٣:٢٩).

(٢) "وهذه هي الشريعة (التي أنزلها يهوه على موسى) والتي وضعها موسى أمام بني اسرائيل. هذه هي الشهادات والفرائض والأحكام التي كلم بها موسى بني اسرائيل في عبر الأردن في الجواء (الوادي) مقابل بيت فغور" (تثنية ٤:٤٤-٤٦).

(٣) "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب أمر يهوه. ودفنه (من الذي دفنه؟) في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فغور ولم يعرف انسان قبره إلى هذا اليوم" (تثنية ٣٤:٥ و٦).

فبهذه الـ"وقائع" الأسطورية، تنصل يهوه تماما من أصله المؤابي والمدياني كوثن قضيبيّ وخلّصه صانعو أسطوريته مؤلفو النصوص من الخزي والخجل اللذين تحدث عنهما إشعياء الثاني ونسبهما إلى صانعي التماثيل. فهو بـ"انزال الشهادات والفرائض والأحكام" في مواجهة "بيت فغور" بالذات دون أي مكان آخر، قد أصبح إلها آخر جديدا رفيعا متعاليا

فعلى الرغم من اللعب المتصف بالأستاذية المعهودة على كلمة آباؤك"، يظل من الواضح الذي ليس بحاجة الى ايضاح أن هذا كلام كتب بعد دمار المملكتين وتشتت "الشعب" المبارك وسبيه.

منزلا من عليائه لناموس، ولم تعد له صلة بذلك البعل فغور القضيبي الدنس. وهو ما أكده تأكيدا قاطعا إشعياء الثاني صاحب صيحة "حقا أنت إله محتجب يا إله اسرائيل المخلص. قد خزوا وذهبوا كلهم. مضوا بالخجل جميعا الصانعون التماثيل" (إشعياء ٤٥:١٥ و١٦)، وكان تأكيده ذلك بقوله أن يهوه أمره أن يقول لـ"الشعب": "لا تذكروا الأوليات. والقديمات لا تتأملوا بها. هأنذا صانع أمرا جديدا. الآن ينبت" (إشعياء ٤٣:١٨ و١٩)، أي دعكم مما فات ولا تتأملوا في التواريخ القديمة، لأني من الآن "صانع أمرا جديدا"، صانع نفسي إلها جديدا ناصعا، "من الآن ينبت"!

وان كان يهوه (روائيا، في حكي التثنويين) قد صنع ذلك الأمر الجديد وطمر الأوليّات والقديمات طمرا في مواجهة معبد بعل فغور بالذات، فانه، بـ"اماتته موسى ودفنه" هناك، في نفس ذلك المكان بالذات دون أي مكان آخر غيره، "في الجواء مقابل بيت (معبد) فغور"، قطع نهائيا كل ما كان قد ظل يربطه بهويته الأولى كبعل فغور، بـ"الأوليات والقديمات" التي قال دعكم منها وانظروا إلى الجديد الذي أنا فاعله. وبطمره موسى في "قبر لم يعرف إنسان مكانه إلى هذا اليوم" دفن نهائيا، أسطوريا، ذلك الماضي، باعتبار إخفاء موسى القرين لإخفاء تابوت العهد نهائيا بحيث لم يعد يعرف مكانه انسان حتى اليوم زوالا نهائيا لتلك القديمات الفاضحة.

وهو ما يعود بنا إلى "الأمر الجديد" الذي طرأ على الهوية الإبادية ليهوه فحوله من إله بركاني مبيد بالنار وأحيانا بالزلازل المصاحبة للهياج البركاني والاضطرابات الأرضية، كما في حالة "ابتلاع الأرض" لقورح اللاوي وفريقه الذي تمرد على موسى في حكي سفر العدد، وخروج نار من عند يهوه التهمت من لم تبتلعه الأرض، إلى إله مبيد بالوباء.

في أسفار التوراة غير سفر التثنية، ظل يهوه إلها بركانيا تجسُّده المرئي المحسوس النار، وظل غضبه يعبر عن نفسه بالنار، كما ظل انتقامه بالنار. وقد كان ذلك متماشيا مع أصل يهوه البركاني الذي تطورت منه هويته القضيبية. فالنار عبدت في الديانات القديمة وبالذات في عبادة يهوه وغيره من المعبودات القضيبية بوصفها الذات (كما في "الذات الإلهية") الأولية للمبدأ العُلويّ الذَكَريّ الموجد أو المنجب للحياة، في حين رمزت المياه المبدأ الأنثوي السالب أو الأرضي في ايجاَد الحياة أوَ إنجابها. وهو اعتقاد نبع، على الأرجح، من إيمان العقل القديم بأن شيئا في الطبيعة لا يظهر أو يوجد الا بفعل النار أو الماء(٩)، أو بتفاعلهما معا، وشكل نظرة ذلك العقل إلى منشأ الحياة، حيوانية كانت أو نباتية. فالوصلة الأسطورية بين هوية يهوه النارية كمعبود بركاني وهويته القضيبية (الثعبانية) كذكر مختن مخصب بجرثومة الحياة أي كالمبدأ الذكري العلوي (الراكب للمبدأ الأنثوي المتلقي لجرثومة الحياة من مني الذكر المختن) وصلة بالغة القوة والتأصل، لكنها أبعد ما تكون عن أية هوية وبائية.

وذلك ما نجده واضحا وضوحا لا يقبل التأويل في النصوص التوراتية التي لم تعالج باضافة الهوية الوبائية فيها إلى ترسانة أسلحة يهوه:

"وكان منظر مجد يهوه كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني اسرائيل" (خروج ٢٤:١٧)

"اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم" (خروج ٣٢:١٠)

"فتقدمتم ووقفتم في أسفر الجبل والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء.. فكلمكم يهوه من وسط النار" (تثنية ٤:١١ و١٢)

"انك قد أُريت لتعلم أن يهوه هو الإله وليس آخر سواه. من السماء أسمعك صوته لينذرك، وعلى الأرض أراك ناره العظيمة وسمعت كلامه من وسط النار" (تثنية ٤:٣٥ و٣٦)

"وجها لوجه تكلم يهوه معنا في الجبل من وسط النار" (تثنية ٥:٤)

"فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعل بالنار.. قلتم هوذا يهوه إلهنا قد أرانا مجده وعظمته وسمعنا صوته من وسط النار. هذا اليوم قد رأينا أن الانسان يكلم الإله ويحيا. وأما الآن، فلماذا نموت؟ لأن هذه النار العظيمة تأكلنا. ان عدنا نسمع صوت يهوه إلهنا أيضا (أكثر من هذا) نموت. لأنه من هو من جميع البشر الذي سمع صوت الله الحي يتكلم من وسط النار مثلنا وعاش؟" (تثنية ٥:٢٢-٢٦).

فالمؤلف التثنوي الذي صاغ حكيه كما لو كان تلخيصا لخبرات "الشعب" مع موسى ويهوه أيام كان يهوه يتجلى على رأس الجبل والجبل يدخّن بالنار، ظل متمسكا بتلك الذكرى النارية التي بدأت في سفر الخروج بظهور يهوه لموسى لأول مرة قرب مضارب المديانيين في "العليقة المشتعلة بالنار"، كيما يستفيد منها في إحياء وهم الخصوصية القصوى الذي استمات موسى في إفعام نفوس العبيد المطرودين به أملا في تحويلهم إلى "أمة مقدسة ليهوه"، وهو قصد يتضح من قوله "من هو من جميع البشر الذي سمع صوت "الله الحي" (فيهوه قد حُوِّل هنا حسما إلى "الله الحي") يتكلم من وسط النار مثلنا وعاش؟" وابتغاء لذلك، لم يكن من الممكن أن يضحي بـ"القديمات" التي من قبيل تلك الهوية النارية الناطقة بأصول يهوه البركانية والقضيبية. لكنه- بعد ذلك مباشرة- شرع في إضافة القدرة الوبائية إلى ترسانة أسلحة يهوه المسددة إلى صدور "الشعب"، بصرف النظر عن أي تناقض بين النار والوباء.

وكما يوقفنا السفر، كان الغرض الذي أُعطي أولوية على كل ما عداه اقناع "الشعب" المسبي والمشتت بين أشور وبابل بما ظل موسى وورثته جاهدين باستماتة تحسب لهم بحق في اقناع "الشعب" به، وهو أن "يهوه إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب الإله العظيم الجبار المهيب الذي لا يأخذ بالوجوه (الذي لا يقيم وزنا لشخص من أمامه) ولا يقبل رشوة!" (تثنية ١٠/١٧) اقناعا حاسما ونهائيا، وفي الوقت ذاته تذكير "الشعب" بمدى خصوصيته لدى ذلك الإله الأقوى والأعظم من جميع الآلهة: "هوذا ليهوه إلهك السموات وسماء السموات والأرض وكل ما فيها. ولكنه إنما التصق بآبائك لأنه أحبهم

فاختار من بعدهم نسلهم الذي هو أنتم فوق جميع الشعوب كما في هذا اليوم. فاختتنوا غرلة قلوبكم ولا تصلبوا رقابكم بعد" (أي اختتنوا ليهوه في قلوبكم كما في ذكوركم، وكفاكم صلابة عنق، ولا تكونوا هكذا!) (تثنية ١٠:١٤-١٦).

وتحقيقا لذلك الغرض، أدمج نرجال/عيرّا في يهوه بغير إمهال، فبات يهوه سلاحا وبائيا شديد المضاء في جعبة الكهنة بعد أن ثلمت أسلحتهم القديمة التي كانوا يرعبون "الشعب" بها قديما.

والحقيقة أنه لا وجود في قائمة سرقات كهنة يهوه ونبييمه، على طولها وامتلائها بالمسروقات من آلهة وإلاهات الشرق الأدنى القديم، ما هو أشد افصاحا عن الكيفية التي ظل الكهنة اللاويون يشكلون بها ويعيدون تشكيل هوية ذلك المعبود طبقا لمتطلبات المرحلة من مراحل مشروعهم الموسوي، من عملية السطو على أسطورية نرجال/عيرّا، إله الوباء.

وأدلّة السطو على أسطورية ذلك الإله الوبائي بالغ الشراسة ليهوه وهو محاصر وسط آلهة بابل وقد جردته الهزيمة وجرده السبي وانكشاف سر التابوت من كل دعاوى ملوكيته على "جميع الآلهة"، أدلة كثيرة موزعة بين أسفار التوراة وأسفار النبييم وسفر المزامير. والواضح أن الغرض من ذلك التقّمص لعيرّا/نرجال كان إرهاب "الشعب" المسبي، من جانب، والذود عن "الشعب" الذي ظل في كنعان، من جانب آخر، في وجه اجتياح عيرّا/نرجال لمعاقل يهوه القليلة المتهاوية التي كانت قد تبقت في "السامرة".

وتحقيقا لذلك الغرض، نجد القدرة الوبائية وقد تسللت فانضافت إلى قدرات يهوه التدميرية النارية والثعبانية (الحيات المحرقة) الأصلية، في حكي التوراة:

فبعد أن قام الموسويون والهرونيون من أتباع هذين "الرئيسين" النائبين عن يهوه بالقضاء على تمرد قورح اللاوي ومن انضم اليه من اللاويين و"الشعب"، بدفن بعض المتمردين وذويهم أحياء مدعين أن "الرب يهوه ابتدع بدعة فجعل الأرض (الإلاهة الأرض الأم) تفتح فاها (تفتح فرجها) وتبتلعهم وكل ما لهم فيهبطون أحياء إلى الهاوية لأنهم ازدروا يهوه" (عدد ١٦:٣٠-٣٣)، وأحرقوا من لم يتمكنوا من دفنه حيا مدعين أن يهوه حسم أمرهم بطريقته النارية الأصلية" وكل اسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم (أي من صراخهم وهم يدفنون أحياء) لأنهم قالوا لعل الأرض تبتلعنا نحن أيضا (لعل الموسويون والهرونيون يدفنوننا نحن أيضا)، خرجت نار من عند يهوه وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور (بغير اذن أي حاولوا اغتصاب وظيفة من وظائف الموسويون والهرونيين)" (عدد ١٦:٣٤ و٣٥)، بعد أن قام الكهنة بذلك التطهير الفاشي، يبدو أن "الشعب" (الذي لابد أنه رأى ما حدث) تمرد عليهم. فسفر العدد يحكي أن "كل جماعة بني اسرائيل تذمرت على موسى وهرون في الغد قائلين أنتما قد قتلتما شعب الرب، ولما اجتمعت الجماعة على موسى وهرون (تكاثروا عليهما بنية قتلهما) انصرفا (هربا فلاذا) إلى خيمة الاجتماع" (عدد ١٦:٤١ و٤٢). وهنا- فيما يبين الانفصام في سياق

النص- كان تدخل المحرر. فبعد أن يحكي النص أن موسى وهرون هربا من وسط بني اسرائيل الذين يبدو أنهم كانوا قد هموا بقتلهم فلاذا بالخيمة وأن يهوه خرج من مكمنه ليدافع عنهما فغطى الخيمة بالسحابة وتراءى مجده (عدد ١٦: ٤٢)، نجد أن موسى وهرون لم يكونا داخل الخيمة بل "جاءا إلى قدام الخيمة" عندما غطتها السحابة وتراءى مجد يهوه (١٦: ٤٣) وأن يهوه قال لهما "اطلعا من وسط هذه الجماعة فاني افنيهم بلحظة" (عدد ١٦: ٤٥) وأفنيهم بلحظة معناها "أفنيهم بطريقتي المألوفة، بنار تخرج من عندي فتأكلهم بلحظة"، أما الوباء، أي المرض، فهو يُفني نعم، ولكن ليس في لحظة. لكننا نجد أنه، عندما قال لهما يهوه "اطلعا من وسطهم لأني أفنيهم بلحظة"، خر موسى وهرون على وجهيهما وقال موسى لهرون فورا "خُذ المجمرة واجعل فيها نارا من على المذبح وضع بخورا واذهب بها مسرعا إلى الجماعة وكفر عنهم لأن السخط قد خرج من عند يهوه. قد ابتدأ الوباء" (عدد ١٦: ٤٥ و٤٦) فللفور، دون أن يرى، وهو ساقط على وجهه عند الخيمة، عرف موسى أن يهوه قد انقلب إلى إله وباء وأن سخطه عندما خرج من عنده إلى "الشعب" خرج على شكل وباء. وعندما ذهب هرون بالمبخرة ووقف بين الموتى- الذين كان عددهم قد بلغ أربعة عشر ألفا وسبعمائة في اللحظات التي انقضت ما بين قول موسى لهرون خذ المجمرة واجعل فيها نارا من على المذبح وضع بخورا واذهب مسرعا" وبين ذهابه ووقوفه بالمبخرة وسط "الشعب". وبمجرد أن وقف هرون بالمبخرة بين الموتى والأحياء، "امتنع الوباء" (عدد ١٦: ٤٧-٥٠).

بهذا التحرير المتصف بـ"الأستاذية"، أعطي يهوه قدرات عيرّا/نرجال، ولقن "الشعب" (والتوراة تعني "التلقين") أن درعه الوحيد في مواجهة تلك القدرة الرهيبة ظل الكاهن اللاوي ومجمرته وشعائره التي تكف أذى يهوه عنه، وفي الوقت ذاته أعطي موسى دور إشوم رفيق عيرّا/نرجال وناصحه والوحيد القادر على كف أذاه عن عباده.

وفي "واقعة مقدسة" لاحقة لتلك "الواقعة"، استخدمت قدرات عيرّا/نرجال الوبائية سلاحا شديد المضاء في الحرب الأسطورية التي دارت رحاها في تأليف الكهنة تخليصا ليهوه من هويته الأصلية كبعل فغور فاتح الأرحام. ففي "شطيم أقام اسرائيل وابتدأ الشعب يزنون مع بنات مؤاب. فدعون الشعب الى ذبائح آلهتهن، فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن. وتعلق الشعب ببعل فغور. فحمى غضب يهوه على اسرائيل" (عدد ٢٥: ١-٣).

في الحكي الأصلي، كف موسى أذى يهوه عن "الشعب" اذ "قال يهوه لموسى خذ جميع رؤساء الشعب وعلقهم (اشنقهم) للرب (قدمهم ضحايا لي) مقابل الشمس فيرتد حمو غضبي عن اسرائيل"، ولم يكتف موسى بذلك، فأضاف اليه من عنده آمرا "قضاة الشعب: اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور" (عدد ٢٥: ٤ و٥).

إلى هنا وكان المفروض أن تنتهي المسألة، اذ قرر يهوه ذاته (في النص الأصلي) أن حمو غضبه (ناره) سوف يرتد عن بني اسرائيل متى شنق رؤساؤهم أمام الشمس (بوصفه هو "الإله الشمس" المتعالي على دنس بعل فغور، أي على دنس هويته الأصلية كيهوه

القضيب المختن بعد أن رُفع إلى كبد السماء إلها كرعّ الإله الشمس)، وبخاصة أن موسى تبرع ليهوه من عنده بمذبحة إضافية حين أمر القضاة بذبح كل من كان قد تعلق ببعل فغور.

الا أنه، عند التحرير، وجدت هنا فرصة أخرى لتثبيت هوية إله الوباء ليهوه فزجت في النص حكاية عن امرأة مديانية، لا مؤابية- رغم أن النص قرر في البداية أن "الشعب" كان مقيما بين المؤابيين لا المديانيين وأنه استدرجته "بنات مؤاب" إلى "ذبائح آلهتهن"، وأنه استجابة لغواية "بنات مؤاب" ذهب فـ"أكل وسجد لآلهتهن "أي انغمس في حفلات القصف الجنسي الديني كما فعل قبلا في واقعة "العجل الذهبي".

تلك المرأة المديانية كانت- فيما يستشف من الحكي- كاهنة(*) مديانية أغوت أحد رؤساء بيت شمعون ودخلت معه خيمة (قبة) أمام باب خيمة الاجتماع لتمارس معه طقسا جنسيا أو آخر أو لمجرد أن تضاجعه، لولا أن عظم غضب يهوه يبين أن الأمر تعلق بما كان أخطر من مجرد المضاجعة، ربما بطقس جنسي كاشف عن أصل يهوه. فيهوه، طبقا لهذه الرواية، لم يحم غضبه نارا كما هي العادة ولم يرتد، كما جاء في الحكي الأصلي، اثر استرضائه بشنق رؤساء "الشعب" وبالمذبحة الاضافية التي استرضاه بها موسى، بل اندلع غضبه وباء قتل من "الشعب" أعدادا غفيرة: "كان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفا" (عدد ٢٥:٩). ولم ينقطع الوباء الا بعد أن دخل فينحاس (اسم مصري يعني "الأسمر") بن ألعازر بن هرون القبة وراء الرجل والمرأة وطعنهما وهما في حالة جماع في أعضائهما التناسلية وخرج رافعا رمحه وتلك الأعضاء التناسلية على قمته.

في هذه العملية من عمليات التحرير التي عدّلت فيها النصوص وأضيفت إليها تفاصيل وحكايات لم تكن فيها أصلا تحقيقا لمرامي المحرر الكهنوتي في زمن السبي، حقق المحرر، بجانب تثبيته ألوهية الوباء المختلسة من عيرّا/نرجال ليهوه، عدة مآرب أخرى. فهو، ابتداء، قد توصل من خلال ما أضافه إلى النص من حكي عن "امرأة مديانية"، وعن "فينحاس بن ألعازر بن هرون الكاهن" وعن "غيرة فينحاس غيرة يهوه وسط بني اسرائيل" (عدد ٢٥:١١) إلى إعلاء "غيرة الهرونيين" ليهوه على غيرة موسى. فعلى الرغم من أمر يهوه لموسى بشنق رؤساء "الشعب" أمام الشمس وأمر موسى لـ"قضاة الشعب" بذبح كل من تعلق ببعل فغور، جعل اجتزاء المحرر للنص الأصلي المأخوذ من الوثيقتين Y وE (اليهيوية والايلوهيمية) تنفيذ كلا الأمرين معطلا، أي جعله يبدو كأنه لم يحدث، وجعل انقاذ "الشعب" من غضب يهوه على يد فينحاس بن ألعازر بن هرون الذي نسب النص إليه غيرة على وحدانية يهوه لدى "الشعب" كان ينبغي أن يبديها موسى. ومن خلال ذلك أوحى النص التثنوي بانحياز إلى جانب الشق الهروني من المؤسسة الكهنوتية اللاوية الذي يبدو واضحا أن المحرر انتمى اليه، وهو انحياز أشار إلى ما بات فيما بعد ملحوظا من تنافس على الأصولية اليهيوية السليمة بين الهرونيين والموسويين. ومما يعزز ذلك النظر أن

(*) في الكتاب الثاني من هذا المبحث استظهار لوجود وأدوار كاهنات الإلاهة منافسات موسى.

المحرر الكهنوتي عندما عدل النص الأصلي بحكيه عن "غيرة فينحاس ليهوه"، غير جنسية النساء اللواتي أغوين "الشعب" وراء آلهتهن، وأهمها بعل فغور، من "بنات مؤاب" إلى بنات مديان، حيث أعلن أن المرأة (كزبي) التي دخلت القبة مع زمري بن سالو رئيس بيت من الشمعونيين أمام موسى، كانت مديانية وابنة لرئيس قبائل بيت أب في مديان. وصلة موسى بمديان معروفة، وقد كانت زوجته صفورة ابنة كاهن مديان، يثرون.

وفي الوقت ذاته، حقق المحرر من خلال ذلك التعديل للنص مأربا آخر هو جمع الإلاهة الأم (التي كانت كُزبي بنت صور كاهنة لها) وبعل فغور، في سلة واحدة. وذلك، كما توقفنا "الأسفار التاريخية" ابتداء من يشوع إلى أخبار الأيام الثاني، تقليد كهنوتي ثابت تمثل في الجمع بين "البعليم والعشتاروث" معا بوصف كل عبادات تلك الآلهة، مذكرة كانت أم مؤنثة، "عملا للشر في عيني يهوه" لأنها شكلت "خروجا من تحته وسيرا وراء الآلهة الغريبة والدخيلة".

ومن خلال ذلك كله، أُحِل فينحاس، بذلك الحكي، محل موسى بوصفه تجسدا لخليص إله الوباء يهوه الذي لا يرحم ولا يتهاون في حقوقه قبل عباده، وبدلا من موسى، تقمص فينحاس شخصية إشوم صفي عيرّا/نرجال وخليصه الذي ظل "يغير غيرته" ويذود عن ألوهيته، وفي الوقت ذاته ظل يعيده إلى جادة الصواب فيكبح جماح غضبه وشراسته كلما تمادى، خوفا من إثارة ثائرة الآلهة الآخرين، الذين أُحِل "الشعب" محلهم، في الحكي التوراتي.

ونحن واجدون، غير هذه النصوص التوراتية المعالجة، كثرة من النصوص في أسفار أخرى أسبغت فيها بتصميم واضح صفة إله الوباء هذه المختلسة من عيرّا/نرجال على يهوه، عند تحرير النصوص.

في سفر صموئيل الثاني نجد حكاية غريبة (وفاتحة للعين) عن التعداد الذي اعتبره القوم دائما كارثة كبرى تحل بهم لأنه يكشف عن حقيقة عددهم للأغيار. فـ"غضب يهوه حمى على اسرائيل، فأهاج عليهم داود قائلا امض واحص اسرائيل ويهوذا. فقال داود ليوآب رئيس الجيش طف في جميع أسباط اسرائيل من دان (شمالا) إلى بئر سبع (جنوبا) فأعلم عدد الشعب". وحاول يوآب إثناء داود عن ذلك، لكن داود أصر، فأجرى التعداد.

غير أنه، كما في الحكاية الخرافية دائما، تحول الأمر فجأة، فبات كابوسيا بلا أي تمهيد. فداود "ضرب قلبه بعد ما عدّ الشعب"، وعلى الرغم مما قاله له يهوه في أول الأصحاح: "امض واحص اسرائيل ويهوذا"، يبدو أن يهوه نسي تلك التعليمات واستاء للغاية من قيام داود "بعدّ الشعب". وهكذا نجد أن داود قال ليهوه "لقد أخطأت جدا فيما فعلت والآن يا رب أزل اثم عبدك لأني انحمقت جدا"! لكن يهوه لم يدع الأمر يمر هكذا بغير تأديب، فخير داود بين ثلاثة أنواع من العقاب: (١) اما سبع سني جوع في "المملكة" (أخذا من حكي السومريين والبابليين في أسطورة الطوفان)، (٢) وإما ثلاثة أشهر من الانكسار أمام العدو، (٣) وإما ثلاثة أيام من الوباء في أراضي "المملكة" (أخذا عن حكي

السومريين والبابليين في قصصهم الديني عن نرجال/عيرّا والوباء الذي ابتلى به العباد عندما حل مؤقتا محل مردوخ في "مملكته"). واختار داود الوباء "فجعل يهوه وباء في اسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل" غير أن داود قام في هذه الحكاية بدور إشوم في أسطورية عيرّا/نرجال، اذ قال ليهوه "أنا الذي أخطأت وأنا الذي أذنبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟" وذلك عين ما قاله إشوم لعيرّا:

"يا عيرّا يا رجل الحرب. لقد أَمَت الصالحين
وأَمَت الخطاة.
لقد قتلت من أخطأ اليك، وقتلت من لم يخطئ اليك"(١٠)

واذ قال داود ذلك الكلام المسروق من إشوم ليهوه المتقمص عيرّا، "ندم يهوه عن الشر"، واذ رأى "الملاك باسطا يده على أورشليم ليهلكها (بالوباء) قال للملاك المهلك كفى. الآن رد يدك". (صموئيل الثاني ٢٤). وهي حكاية تكررت في أخبار الأيام الأول ٢١ بحرفيتها تقريبا، نظرا للأهمية التي أعطيت لها تحريريا.

فالوباء أخذ من بابل وجعل سلاحا في يد يهوه. وإذ سلّح يهوه بذلك السلاح، بعد أن استلت منه كل أسلحته الأخرى واكتشف سر تابوته وأعول إرميا قائلا " قد خزينا لأننا قد سمعنا عارا. غطى الخجل وجوهنا لأن الغرباء (البابليين) قد دخلوا مقادس بيت يهوه (ووقفوا على سر أسراره، نحته الحجري القضيبي) لذلك ها أيام تأتي، يقول يهوه، وأعاقب منحوتاتها ولو صعدت بابل إلى السموات" (إرميا ٥١:٥١-٥٣)، انقلب ضاريا مرة أخرى، فأخذ يهدد يمينا وشمالا بذلك السلاح الجديد الذي سرقه له مؤلفو أسطوريته، ولم تقتصر تهديداته على "الشعب" عملا على اعادته إلى حظيرته، بل اتسعت فشملت كل من شعر كهنته بحزازة أو حسد حضاري أو تجاري تجاهه كالحسد الغريب الذي شعروا به تجاه مدينة صور.

وفي سفر المزامير، أينعت هوية يهوه الوبائية المسروقة فدعي بـ"إله النقمات"، وخوطب بنفس الألفاظ التي خاطب السومريون والبابليون بها إلههم نرجال/عيرّا:

يهوه	عيرّا (١١)
"قم يا يهوه. ارفع يدك. لماذا يهينك الشرير؟" (مز ١٠:١٢ و١٣)	"قم يا عيرّا. انهض. لسوف تهان من ذوي الرؤوس السود" (وذوو الرؤوس السود تسمية البشر فى ارض الرافدين)
"يا يهوه لماذا تقف بعيدا؟ لماذا تختفى فى أزمنة الضيق؟" (مز ١٠:١)	"يا عيرّا، يا رجل الحرب. لماذا تتباعد وتلوذ بالصمت؟ لماذا تتغافى فى المدينة كرجل هرم؟"
"استيقظ. لماذا تتغافى يا يهوه؟ انتبه" (مز ٤٤:٢٣)	"قم يا عيرّا واجلب الدمار"

"قم يا يهوه. أقم دعواك. لا تنس صوت أضدادك. ضجيج مقاوميك الصاعد دائما" (مز ٧٤:٢٢ و٢٣)

"قم يا عيرا. خذ بحقك. واخرس أصوات خصومك. اسكت ضجيج البشر الصاعد دائما ليزعج الآلهة العظام"

"فاستيقظ يهوه كنائم جبار معيّط من الخمر. فضرب أعداءه إلى الوراء" (مز ٧٨:٦٥ و٦٦)

"فقام عيرّا رجل الحرب كبطل يصحو من نومه ودحر أعداءه"

"واذا سألك هذا الشعب أو نبيّ أو كاهن قائلا ما وحى يهوه، فقل لهم أي وحى؟ انى رافضكم هو قول يهوه" (إرميا ٢٣:٣٣)

"أنا لن اعطى قولا. أنا لن أقيم عدلا. أنا لن أسمع صوتا. لأنى رافض كل البشر"

"أنا أحاربكم بيد ممدودة وبذراع شديدة وبحمو غيظ وغضب عظيم. وأضرب سكان هذه المدينة الناس والبهائم معا. بوباء عظيم يموتون. ثم بعد ذلك أدفع صدقيا ملك يهوذا وعبيده والشعب والباقين فى هذه المدينة من الوباء والسيف والجوع إلى السبى" (إرميا ٢١:٥-٧)

"انى أحاربكم. ومن لم يمت بالسيف يموت بالوباء، ومن لا يموت بالوباء يسبيه العدو. ومن يفلت يجرفه أدد بطوفانه. ومن ينجو يحرقه شمش بنيرانه ويقتله ظمأ"

"لأن كل من فى الأرض قد أصبحوا كغنم وأنا إلههم قد تحولت إلى ذابحهم"

"لأنى قد جعلت وجهى عليهم للشر" (إرميا ٢١:١٠)

"لأنى قد قررت أن أجلب عليهم الدمار"

"لأنهم من صغيرهم إلى كبيرهم كل واحد مولع بالربح. ومن النبى إلى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب.. (وقد قلت لهم انظروا) أين هو الطريق الصالح وسيروا فيه.. لكنهم قالوا لا نسير" (إرميا ٦:١٣ و١٦)

"لأنهم قد حادوا عن الصدق وتركوا العدل وفعلوا كل ما هو سيء

"لأنهم قد تركوا طريق الصلاح وسدروا فى طريق الشر".

"ويل لى يا أمى لأنك ولدتنى" (إرميا ١٥:١٠)

"من الويل يقول حاكم المدينة لأمه ليت رحمك كان قد أغلق يوم ولدتنى. ليتنا، أنت وأنا، متنا قبل أن تلدينى"

"ويخجل القمر وتخزي الشمس لأن يهوه رب الجنود قد ملك فى جبل صهيون" (إشعياء ٢٤:٢٣)

"ولسوف أطفئ ضياء الشمس وأحجب وجه القمر فى الليل"

وقائمة السرقات لا تنتهي. فليس بالوسع، في مبحث لا يخصص كله لجرد كامل لقائمة المسروقات الا ايراد بعض أمثلة قليلة قليلة على كلٍّ ما أكثره. والذي يعنينا هنا، على أية حال، تقمص يهوه لعيرًا إله الوباء في وقتٍ كان يهوه قد جُرِّد فيه من أسلحته الأسطورية القديمة وبات أعزل بين آلهة بابل في مواجهة "شعب" مهدّد، هو وكهنته، بالخطر الأعظم، خطر الاستيعاب وتبدُّد كل أمل في استئناف السعي وراء الحلم الموسوي.

- - - - -

(١٧) "أفودا" الكهنة وحيل التخلص من الإلاهة

في آخر استشهاد أوردناه من أسطورة عيرّا وأشوم بالصفحة السابقة، يهدد "رجل الحرب" عيرّا بأنه "سوف يطفئ ضياء الشمس، ويحجب وجه القمر في الليل"، ذلك التهديد الذي سرقه إشعياء ليهوه قائلا أنه بارتفاع يهوه على عرش العالم فوق قمة جبل صهيون (المسروق اسمه ورمزيته من بعل ليهوه) "سوف يخجلِ القمر وتخزى الشمس".

ففي حالة عيرّا/نرجال، لم يكن القول مجرد تفاخر. فأسطورية ذلك الإله السومري/البابلي الرهيب تحكي أنه طمع في اغتصاب مكانة "ملك الآلهة" من مردوخ، وبالتالي من الوجه الأنثوي لمردوخ، ملكة السموات، عشتار، التي توقفنا الأسطورية أنها لم يغب عنها مؤدى ذلك الطموح، فحاولت إثناء عيرّا عنه بمعسول القول ولم تفز منه بطائل، بل انه أعرض عنها مزدريا، تاركا لتابعه وخليصه إشوم الرد عليها. وفي رده المقتضب، خاطب إشوم عشتار باسمها الأصلي السومري، فدعاها مرة بـ"إينانا" ومرة بـ"إينيني"، ونبهها إلى أن عيرّا، ابن إنليل العظيم (نرجال) رفيع المقام قد أهين (من مردوخ)، وأنه لن يسكت بل سوف يأخذ بحقه، "فلتطأطيء الجبال" (وهو تعبير سرق أيضا ليهوه) ولتمجده كل الآلهة"، وكل الإلاهات، بطبيعة الحال.

وعلى ضوء ذلك، يتضح المغزى الأسطوري لتهديد عيرّا بأنه سوف يطفي ضياء الشمس ويحجب وجه القمر. فـ"الشمس" هنا كل ألوهة شمسية قضيبية مذكرة طمح عيرّا في العلو عليها واغتصاب ملوكيتها، أي مردوخ وشمش، بل وإنليل ذاته، ومن هنا كان قول إشوم لعشتار "فلتمجده كل الآلهة". وأما القمر، فعشتار ذاتها، أي الألوهة المؤنثة التي ازدراها عيرا (وعبر النص عن ازدرائه إياها، أسطوريا، بتركه الرد على مفاتحاتها لتابعه إشوم) والتي قرر أن "يحجب وجهها". وكلا القصدين أخذ، وحوّل اذ أخذ ليهوه، إلى "خِزي الشمس (خزي كل ألوهة شمسية قضيبية منافسة) وخجل القمر (تواري القمر وأفوله).

والذي يعنينا هنا أن كل هذا الحكي الأسطوري، سواء في صيغته السومرية/البابلية التي وقع السطو عليها، أو في صيغته اليهيوية المختلسة، متعلق بصراع على المكانات، على الملوكية الإلهية، وهو صراع ظل- رغم ما ادُّعيَ له من سماوية- أرضيا، بين كهنة (على النحو مكبوح الجماح الذي وجدناه في محاولة إنكي استخلاص وضع الملوكية من إينانا‌ملكة السموات، وبالتالي إعلاء كهنوته في أريدّو على كهنوتها في الوركاء، من خلال الحصول على قارب السموات منها وتجريدها بذلك من رمز ألوهيتها الملكية ومنبع قدرتها، فرجها، زورقها مزموم الشفرين)، اجتهدت كل مجموعة منهم، بما صاغته من أسطورية ووضعته من ترانيم وتسابيح للمعبود، في إعلاء ذلك المعبود وإعطائه، وبالتالي إعطاء مدينته وأرضه وهيكله المزايا المترتبة على حيازته لوضع "ملك الآلهة". وبالنظر إلى الازدواجية الأندروجينية التي كانت سمة ملازمة لأي ألوهة في العالم القديم، أي كون

المعبود ذكرا وأنثى في آن معا، على النحو الذي يبينه ازدواج المعابد في ثقافة الرافدين، معبدا للإله ومعبدا للإلاهة حيثما اقيمت المعابد، كان ذلك الصراع على المكانة المعلاة صراعا ذا مسارين: فهو صراع بين الآلهة الذكور فيما بينهم، وصراع كل إله ذكر منهم طامح إلى وضع الملك بين الآلهة مع الإلاهة الأم، ملكة السموات.

وفي حالة يهوه، اتخذ ذلك الصراع المزدوج المسارين صورة خاصة في شراستها نتيجة للإدعاء الرامي إلى جعله الإله الأوحد لـ"الشعب" ومحاولة تأسيس دعوى خصوصية ذلك "الشعب" على حيازته الحصرية لذلك الإله.

وذلك ما تطلب من الكهنة، الذين "اعتبروا التأليف واجبا دينيا وعبادة للمعبود" حتى وان ظلوا يجرون، في تأليفهم ذاك، أسطر الحوار على لسانه ويجعلونه يتغير ويتحول ويتلون تبعا لما رأوا أنه انبغى أن يكون عليه في أية لحظة أو واقعة من ذلك التأليف، أن يشنوا حربا- على الأرض لا في أية سماء- على جبهتين.

على أولى الجبهتين، شنت تلك الحرب على كل إله ذكر قضيبي آخر. وقد تمثلت الصعوبة الرئيسية هنا في أن كل آلهة الشرق الأدنى القديم التي شنت عليها الحرب، بما فيها يهوه التي شنت الحرب لحسابه، كانت- بشكل جوهري- عديمة التباين فيما بينها الا فيما تعلق بتفاصيل متعلقة بالمسميات والألقاب والشعائر وما قد ندعو بـ"التخصصات" أي القدرات التي أبرزت في أسطورية هذا الإله أو ذاك بفعل الدواعي الثقافية الخاصة بالجماعة البشرية عابدة الإله. وفيما تعلق بتلك الصعوبة، اتجه جهد الكهنة اليهيويين وجهة تمثلت في:

(١) الادعاء، بأصوات ثاقبة متصنعة الإيمان لائذة في مواضع معينة بالتشاعر وفي مواضع أخرى بمنتهى الطيبة والخيرية والصلاح النوراني والوله القدسي، بأن يهوه، من مبدأ الأمر، من بداية خلق العالم في الواقع تبعا لأسطورية التكوين (التي سرقت مكوناتها من مصر وسومر وبابل وكنعان)، اختلف اختلافا جذريا وكليا عن كل تلك الآلهة الأخرى، التي أسميت اما بـ"الدخيلة والغريبة" باعتبارها مقتحمة لحكر يهوه بغير حق، أو بـ"البعليم". وقد ظل ذلك الادعاء مجرد دعاية كهنوتية لم يصدقها أحد، حتى "الشعب" ذاته الذي جعل يهوه ينفجر من الغيظ قائلا "حتى متى يهينني هذا الشعب، وحتى متى لا يصدقونني (على الرغم من) جميع الآيات (المعجزات) التي صنعت في وسطهم؟ اني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر منهم وأعظم يا موسى" (عدد ١٤ :١١ و١٢) وعلى الرغم من انحماق المؤلف الذي أجرى هذا القول على لسان يهوه، كان "الشعب" معذورا في الواقع. فذلك "الشعب" كان بدويا ومتأخرا وكل ذلك، الا أنه لم يكن أعمى أو أصم، وبكل تأكيد لم يكن- على الرغم من كثرة أمراضه الجلدية والتناسلية- أبله. ولابد أنه، من مخالطته للأقوام الأخرى، كالمديانيين العرب، مثلا، الذين حاول موسى ابادتهم عندما فطن إلى ما مثلوه من مخاطر بالنسبة لمشروعه عندما أخذوا يوقفون "الشعب" على أصول يهوه وحقيقة

شعائره (وهو ما اتضح أثره في واقعة كواقعة "العجل الذهبي")(*)، كان قد فطن إلى أن الاختلاف الوحيد بين ذلك الإله الذي جاء به الرجل موسى وقال انه "إله الآباء" وبين سائر الآلهة الذكور، كبعل صفون مثلا، انحصر في مسألتين هما مسألة "السبت"، ومسألة التختن في لحم غرلتهم. وربما لم يفطن "الشعب" إلى أن مسألة "السبت" تلك كانت مسروقة من السومريين، الذين لم يكن موسى- ككاهن مصري مثقف- جاهلا بعباداتهم. الا أن "الشعب"، بكل تأكيد، بحكم العيش في مصر، أدرك أن "التختن في لحم الغرلة" ذاك كان محاكاة للعادة التي ما من شك في أن "الشعب" وقف عليها، عادة التختن الفخيمة تلك التي أقام ذلك الرجل موسى ضجة كبرى حولها.

(٢) وبازاء ذلك الرفض من جانب "الشعب" وما مثله من خطر على المشروع، اتجه جهد الكهنة اللاويين إلى تصوير يهوه، بعد الالحاح على خصوصية "السبت" و"الختان"، كأقوى الآلهة سحرا، تشهد بذلك الحكايات التي نسجت حول لقاءاته الأولى بموسى، وتحويله العصي إلى حيات (تلك الحيلة من حيل الحواة التي كانت شائعة في كل أرجاء الشرق الأدنى القديم) ثم حول ضربات رهيبة أنزلها يهوه عن طريق موسى وهرون بالمصريين ولم يرها "الشعب" لأن يهوه- من شدة حبه لـ"الشعب" وحرصه على ألا يصيبه مكروه- أنزل تلك الضربات بالمصريين في كل مكان من أرض مصر الا "أرض جاسان أفضل الأرض" التي أقام فيها "الشعب".

(٣) وبجانب القدرات السحرية الفائقة التي جعلت في تأليف الكهنة للحكي الديني الذي ظلوا ينشدونه تلقينا لـ"الشعب" أعظم من سحر أية آلهة أخرى، وبخاصة آلهة المصريين، أسبغت على يهوه في ذلك التأليف البطولة العسكرية الملازمة لأسطورية كل إله قضيبي طموح، وأسمي- كلقب رسمي- بـ"رجل الحرب"، وأسمي بـ"رب الجنود"، ووصف بأنه هو الذي يسير أمام "الشعب" ويحارب عنه ويقهر له كل من يقف في وجهه و"يدفعه ليد شعبه" كيما يذبحه ذلك "الشعب" ويأخذ كل ما عنده.

(٤) وفي الوقت نفسه، وصف يهوه بأنه "إله غيور" شديد الغيرة، وقيل لـ"الشعب" أنه من فرط تدلّه يهوه في حبه وعشقه إياه قرر أن يكون "الشعب" ميراثه الذي لا ينازعه عليه أي إله آخر.

(٥) وبطبيعة الحال، لم يكن الكهنة المؤلفون من السذاجة أو قصر النظر بحيث يطمئنون إلى أن تلك الحيل في تأليفهم لأسطورية المعبود الذي ظل "الشعب" رافضا له كانت كفيلة بأن تبقي ذلك "الشعب"، وهو المورد البشري بالغ الأهمية بالنسبة لتنفيذ المشروع، موحَّدا تحت هيكل يهوه.

(*) واقعة "العجل الذهبي" وملابساتها وخباياها، بآخر الكتاب الثاني من هذا المبحث، بالفصل الذي يتناول حفلات القصف الجنسي والعربدة الطقسية.

وقد كانت الآلية المبدئية التي ابتكرها موسى لحماية مشروعه من خطر تبدد ذلك المورد البشري حكاية "الخصوصية"، حيلة "الشعب الذي اختاره يهوه ليكون ابنه البكر وأمته المقدسة" وهي الحيلة التي طُوِّرت بأيدي ورثة موسى، تشاعرا في الظاهر، ولمرام عملية للغاية في الباطن، إلى عشق يهوه لابنته حبيبته اسرائيل.

غير أن تلك الآلية، وان كانت قد أثبتت جدواها في ابتلاء "الشعب" بضرب من جنون العظمة ظل ورثة موسى يغذونه بما لم يكفوا عن ضخه في الأدمغة من "براهين" على مدى تعلق يهوه بـ"شعبه" ومدى تصميمه على أن يجعله قمة الشعوب، لم تبين، في الممارسة العملية، أنها كانت ناجعة أو محكمة بما فيه الكفاية. فـ"الشعب" ظل "يسير وراء الآلهة الدخيلة والغريبة"، وابنة يهوه حبيبة نفسه معشوقته التي أصبح يهوه بعلها ظلت تخرج من تحته وتخونه وتفتح فخذيها لكل أولئك الآلهة القضيبيين الآخرين المنافسين وتزني معهم، بل وتمادت فأخذت ذهب يهوه وفضته وسبكتها تماثيل ذكور وضعتها على مذبحه وظلت تزني بها.

ومن هنا كانت الآلية الثانية التي رسخت في صلب الديانة صونا لعفة تلك الحبيبة الزائغة، آلية تحريم الاندماج بأي شكل في طريقة حياة الشعوب التي اضطر "الشعب"- حين فشل يهوه في تنفيذ وعوده الأولى بابادتها وطردها من أمام ابنه البكر- إلى العيش بين ظهرانيها وبالتالي التشرب بثقافاتها والتعرض لخطر "السير وراء آلهتها" التي وصفت بالحاح بأنها غير حقيقية ومن صنعة يد البشر وبأنها لا تنفع ولا تضر. وقد اتخذت تلك الآلية شكل عزل أو محاولة عزل ديني لـ"الشعب" أشبه بالعزل الصحي الذي نعرفه في زماننا والذي يقي "الأصحاء" من مخالطة المرضى بأمراض معدية ريثما يتسنى تحقيق المخطط الموسوي الأصلي (الذي صيغ على شكل وعد إلهي من يهوه) وهو المخطط الذي تمثل فيه وعي موسى، كرجل دولة، بأنه لا مهرب لأية جماعة بشرية تطمع في أرض جماعة بشرية أخرى مستقرة في تلك الأرض من أن "تحرّم"، أي تذبح، أي تبيد إبادة تامة الجماعة البشرية الأصلية صاحبة الأرض. وذلك ما صاغه كتعليمات إلهية صريحة، بعد موسى بقرون، مؤلف سفر التثنية، فأجراه- تأليفا- على لسان موسى بوصفه كلاما قاله له يهوه:

"لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم.
لأن الرب يهوه إلهكم إله غيور في وسطكم لئلا يحمي
غضب يهوه إلهكم عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض"
(تثنية ٦:١٤ و١٥)

غير أن ذلك العزل الديني لم ينجح. وقد كان فشله راجعا إلى عدم تمكن قادة المشروع من الكهنة اللاويين الذين حكموا "الشعب" كـ"قضاة" من زمن السفاح إلى زمن "الملوك" من تنفيذ الوعود المضخمة التي بذلت بابادة أصحاب الأرض الأصليين. فتماما كما توقع موسى (وربما كانت خبرته الخاصة بعودة المطرودين الذين علق بهم إلى بعل

صفون عاملا هاما من العوامل التي قادته إلى ذلك التوقع) كـان عيش "الشعب" بين أهل البلد الأصليين، أي الكنعانيين، سببا في سير ذلك "الشعب" وراء آلهة كنعان.

(٦) وبازاء ذلك، اضطر الكهنة اللاويون في كنعان، خاصة بعد التئام شمل المطرودين بغيرهم من البدو الرعاة الساميين الذين كانوا قد استوطنوا في فلسطين، وتحت تأثير ما انطوى عليه ذلك من عوامل مسرّعة للتشرب بثقافة كنعان الدينية، إلى اقتفاء خطى موسى والاستفادة من خبرته بشأن بعل صفون وما ترتب عليها في حالته من ادماج لهوية ذلك المعبود المكنعن في هوية يهوه. واذ فعل الكهنة اللاويون ذلك (ولا يجب أن ننسى أن الديانة والمعبود ظلا يتواجدان ويتحولان ويطوّران من خلال ممارستهم لـ"الأفودا" العبادة/الخدمة التي تمثلت في ابقاء المعبود حيا والديانة قائمة عن طريق "الكتابة"، أي التأليف لنصوص تنشد وتسجل في "وثائق")، بدأت عملية طويلة شاسعة الأبعاد من الازاحة، لا للكنعانيين أصحاب الأرض الأصليين الذين اكتشف الكهنة استحالة تنفيذ الوعود الخاصة بإبادتهم، بل للآلهة الآخرين، من طريق يهوه. وكما استوضحنا في هذا المبحث، والمباحث السابقة، أنجزت تلك الإزاحة للآلهة "الدخيلة والغريبة" عن طريق "تلقيمها" ليهوه، بادماج هوياتها وخصائصها وقدراتها وسحرها وكل ما وجد الكهنة المؤلفون أنه مغوٍ لـ"الشعب" من أسطورياتها، في يهوه.

ويوقفنا اضطرار مؤلف سفر التثنية الذي وضع بعد موسى بقرون إلى "تثنية" تكرار تعليمات يهوه الخاصة بعدم عبادة إي إله غيره، إلى أن مشكلة يهوه وكهنته مع تلك الآلهة "الدخيلة والغريبة" استمرت، بل ومتى أخذنا باتهامات النبييم لـ"الشعب"، تعاظمت إلى الحد الذي جعل يهوه، تبعا لتفسير أولئك النبييم للكوارث التي لحقت بـ"المملكتين"، يدفع البابليين، بعد الأشوريين والمصريين إلى مهاجمة "المُلك" وفي النهاية تدميره وسبي أعداد كبيرة من "الشعب" إلى أشور ثم بابل، وهرب أعداد أخرى كبيرة إلى مصر لوذا بها.

وكما رأينا، بلغت عملية ابتلاع يهوه للآلهة الذكور المنافسين له ذروتها بتقمصه إله الوباء السومريّ/البابليّ نرجال/عيّرا، من خلال اعادة الصياغة التي قام بها الكهنة لأسطوريته إبان السبي في بابل.

أما على الجبهة الثانية من جبهتي الحرب التي شنها الكهنة المؤلفون على كل ألوهة منافسة (وبالتالي على كل كهنوت منافس) فكان الخصم أعتى والحرب أصعب.

فان كان مولك (الملك) والـ"بعليم" قد شكلوا منافسين أقوياء على عقول "الشعب" وقلوبه إثر بدء الاستيطان وتهددوا- بذلك- مشروع توحيد "الشعب" في ظل هيكل يهوه وحده، كانت هناك عبادة منافسة، أخطر وأشد جاذبية، هي عبادة الإلاهة "ملكة السموات"، وهي عبادة وجد الكهنة اليهيويون أن مقاومتها كانت، كما قلنا، أصعب من أي حرب شنوها على الآلهة الذكور المنافسين ليهوه.

ففي حالة الألوهة المذكرة لم تتعلق المشكلة الا باعلاء معبود باترياركي ذكر قضيبي هو يهوه، على معبود باترياركي ذكر قضيبي آخر منافس هو مولك، أي

"الملك/الإله"، أو إيل "الأب قديم الأيام" أو غيرهما من آلهة وجـد الكهنـة مـن الضـروري اغتصاب ألقابها (فيهوه أسمي بـ"الملك" بدلا من مولك، ودعي بـ"قديم الأيام" بـدلا مـن إيل) أو قدراتها أو أسطورياتها أو سحرها لمعبودهم. وكل ما تطلبه الأمر هنا لـم يـزد علـى أخـذ مـا كـان منسـوبا إلـى الإلـه المنـافس ونسـبته، تأليفـا، إلـى يهـوه، علـى النحـو الـذي استوضحناه بشأن إيل وبعـل، ودق ذلـك فـي أدمغـة "الشعب" عـن طريـق الإنشـاد الدينـي والتلقين التثقيفي الذي أسمي بـ"التوراة". ولدينا في الاختلاسـات الواسـعة مـن آلهـة كنعـان وسومر وبابل وقبل تلـك، مـن آلهـة مصـر، كمـا استظهرنا فيمـا سبق مـن هـذا المبحـث والمباحث السابقة، نماذج ناطقة بمدى السلاسة و"الأستاذية" اللتيـن اتصفـت بهمـا عمليـة "تطعيم" يهوه بما اختلس له تطعيما ظل يطور صورته باستمرار حتى اللحظة التي فطن فيهـا صناع أسطوريته، في بابل، إلى أنه كان قد بات من المتعين- استنقاذا له بعد خراب الهيكل وفتح التابوت وافتضاح سره- اللوذ بقصد موسى الأصلي ورد يهـوه إلـى الصـورة المصريـة التي كان موسى قد شرع في صوغه عليها استنساخا من آتون، فهب إشعياء الثاني صائحـا، وكأنه (أرخميدس خارجا من الحمام عاريا يعدو وهـو يصيـح "وجدتهـا، وجدتهـا"، "حقـا إنك لإله محتجب يا إله اسرائيل المخلص.. ذهـب بـالخزي صـانعو التمـاثيل (المنحوتـات القضيبية الممددة بين شفري زورق الإلاهة مزموم الشفرين)"

أما في حالة الألوهة المؤنثة، فكانت المشكلة أعقد بمـا لا يقـاس. فـابتداء، كـانت الإلاهة هي الأقدم كأهم معبودات الشرق الأدنى القديم، من أي إلـه ذكـر قضيبـي محـدث نعمة متسلق لهرم المكانات الإلهية، بعدة آلاف من السـنين، وبذلـك كـانت أعظـم تـأصلا وأشد رسوخا في الوجدان الديني والممارسات الشعائرية من أي إلـه ذكـر، وبخاصـة يهـوه الذي كان آخر الوافدين على الساحة. وانتهاء، كان هناك زورقها مزموم الشفرين ذاك.

وفي حين كان بالوسع، في ديانة كديانة سومر أو ديانـة بـابل أو ديانـة كنعـان، أن يتنافس الآلهة الذكور فيما بينهم علـى مكانـة الملوكيـة الإلهيـة، كمـا فـي حالـة إنكـي فـي سومر، ومردوخ في بابل، وبعل صفون في كنعان، وأن يشمل تنافسهم علـى تلـك المكانـة محاولة الاستيلاء على "قارب السموات"، أي "زورق الإلاهة مزموم الشـفرين"، أي فرجهـا مصدر ألوهتها ومنبع قدرتها ورمز ملوكيتها كما في حالة إنكي/إينانـا، أو مـردوخ/عشـتار، أو بعل/ عانات، بمعنى اتخاذ الإله الذكر البطل القضيبـي منهـم الإلاهـة الأنثـى "عرشـا" لـه بجعلها الوجه الأنثوي التالي في المكانة لألوهته المذكرة نعم، لكنه المكمل في الوقت ذاتـه لهويته الأندروجينية كذكر وأنثى، كأب وأم في آن معـا- نقـول أنـه فـي حيـن كـان ذلـك بالوسع في تلك الديانات بطريقة معلنة صراحة أسطوريا وشعائريا وانشاديا في تراتيل المعابد والتسابيح في المواكب الدينية، بدا أنه لم يكن ممكنا في حالة ديانة يهوه الا "سـرا" بطريـق دائرية ملفوفة وملغزة.

وكما رأينا، كانت السرية، من مبدأ الأمر، وطيلة الوقت، سمة ملازمة، وظل التلغيز وسيلة دائمة لهذه الديانة. ولم يكن من الممكن أن يكونـا الا كذلـك حيـث ظـلا مطلبـا لا

غنى عنه في أي جهد لإسباغ مصداقية على تأليف بالاستنساخ وضعته وظلت تعدله أيدٍ بشرية لم تختلق المعبود وحده بل واختلقت لذلك المعبود "شعبا" اخترِع المعبود ليكون إلهه الخاص به.

وقد ظل ذلك كله ضروريا لأن الديانة، على عكس ديانات الحضارات العليا بالشرق الأدنى القديم، لم تتطور أسطوريتها تطورا سلسا طبيعيا سويا لا حاجة إلى الاختلاق أو السطو والاغتصاب فيه، ولم تنبع، كما نبعت تلك الديانات، من ثقافة عريقة متأصلة مستقرة ذات جذور تاريخية ضاربة في القدم مرتبطة بالأرض وبما أسماه جمال حمدان بـ"عبقرية المكان".

فبالمناقضة الكاملة لظهور ديانات الشرق الأدنى القديم وتطورها، ظهرت أسطورية يهوه بغتة، طفرة، من حيث لم يكن للمعبود وجود أو تاريخ أو ثقافة ينتمي إليها أو عباد خلا المؤابيين والمديانيين وهم الذين أنكر في الأسطورية كونه إلها قبليا لهم، حيث اغتصب له، في سياق عملية تلفيق لأصول تاريخية لـ"شعب" لم يعبده أو يعرفه، عباد قدامى لم يعرفوه، باعترافه هو، أسموا بـ"آباء الشعب".

وفي كل ذلك الاختلاق كان مما لا مهرب منه، نظرا لانعدام الجذور الثقافية والمنابع الأسطورية، أن يظل من مارسوا ذلك التلفيق كله، لمآرب أرضية سياسية وإقليمية بحتة، يقومون بسرقات أدبية بغير عدد سطوا على أسطوريات الثقافات المستقرة في أوطان أصحابها. ومن هذه السرقات التي رُكِّبت معا في حكي ديني، اختلق اختلاقاً من الأشتات العشائرية المتناحرة "شعب" طُوِّر -بمضي الزمن- إلى "جنسٍ"، وأعطي عمقا تاريخيا عاد به إلى بداية خلق العالم بل وجعل الغرض من خلق العالم أصلاً عن طريق نسبته إلى "آباء" اخترعوا له روائيا. وبنفس الأسلوب، كان تخليق "إله" لذلك "الشعب" المختلَق، فرض عليه بمقولة أنه "إله الآباء". غير أن "الشعب"، الذي اختلق في نفس الوقت الذي خلِّق فيه ذلك "الإله"، ظل رافضا بعناد تقبل ذلك "الإله" غير مصدق لحكي الكهنة عنه.

وقد تعين على الكهنة، في قيامهم بـ"الأفودا" (العبادة، الخدمة) لذلك الإله المرفوض من "الشعب"، بمواصلة التأليف عنه، أن يواصلوا السطو على الأساطير الدينية التي بدأت عملية تخليق الإله منها، سعيا إلى إزاحة الآلهة والإلاهات أصحاب تلك الأسطوريات من طريق إلههم المخلَّق، درءا لخطر "سير الشعب وراء" تلك المعبودات وبالتالي خطر استيعابه في المجموعات البشرية الأصلية العابدة لها، وبالتبعية تهدد المشروع الرامي إلى إقامة وإدامة المُلك. وبطبيعة الحال، تعين عليهم أن يسدلوا أستاراً كثيفة من السرية والتلغيز على الكم الهائل من المسروقات وما استخدم من تفاصيل أسطورية مختلسة في تطوير صورة الآله كيما يظل فعالا وذا مصداقية تمكنهم من الإبقاء على مقود "الشعب" في أيديهم.

وفي الخصوصية المتعلقة بالألوهة المؤنثة من تلك الضرورات الكهنوتية، تعين على المؤلفين أن يكثفوا السرية والتلغيز بقدر أعظم وأشد إحكاما في ممارستهم لـ"أفودا" إزاحة

الفرج الإلهي من طريق الوثن القضيبي الذي توقف نجاح المشروع كله على مدى النجاح في إصعاده إلى وضع الإله الملك الذي يحكم الكهنة "الشعب" كنواب له. ومن هنا، في هذا الركن من مأزق الكهنة في محاولة الإصعاد هذه، كانت المفارقة العجيبة بحق في شأن هذه الديانة التي نضحت بالجنس، وهي التي ادعت التطهرية باستماتة قل لها نظير في تاريخ الديانات.

فبقدر ما طمرت الألوهة المؤنثة، وبقدر ما استمات الكهنة المؤلفون في إعطاء المعبود هوية غير هويته الأصلية الحقيقية كإله قضيبي، نضح الجنس من مسام الحكي بشكل تناقض تناقضا جذريا مع التطهرية المفتعلة و"الأثيرية" اللاجنسية المدعاة.

فالكهنة، عندما حاولوا، أسطوريا، التخلص من الإلاهة، لجأوا إلى حيل عديدة كان منها طمرهم إياها في "أم الشعب"، ابنة يهوه معشوقته اسرائيل التي وضع "نشيد الانشاد" بوصفه سفرا دينيا في العهد القديم كغزل إلهي مشرب بالشهوة والحسيات في مفاتنها من النهدين إلى البطن إلى الفخذين إلى الفرج. ونتيجة لمحاولة دمج الإلاهة في إبنة يهوه معشوقته، اسرائيل، أرسي الجنس السفاحي، مضاجعة المحارم في جذور الديانة، وأفعمت أسفار النبييم بكل ذلك التوجع من "الزنى" و"الخيانة الزوجية" وطلاق الإله من ابنته زوجته أم الشعب لأنها سائبة "تفتح فخذيها" لكل إله قضيبي آخر منافس ليهوه. ومن خلال ذلك، تحولت علاقة الخصوصية الحصرية بين يهوه و"عروسه" اسرائيل إلى علاقة عشق ومضاجعة وغدر وخيانة وزنى، وبدت غيرة الزوج المخدوع، يهوه، كأقرب ما تكون من غيرة أي ذكر بشري تخونه زوجته اللعوب فتروح و"تفتح فخذيها" لأي ذكر آخر لأنه "يشبع شهوتها". ويهوه يقول لاسرائيل ذلك حرفيا على لسان "نبيه" الناري حزقيال:

"فرجت رجليك (فتحت فخذيك) لكل عابر وأكثرت زناك. وزنيت مع (آلهة مصر) وزدت في زناك لإغاظتي. وزنيت مع (آلهة) أشور اذ كنت لم تشبعي فزنيت بهم ولم تشبعي أيضا. وكثرت زناك في أرض كنعان والى أرض الكنعانيين وبهذا أيضا لم تشبعي. ما أمرض قلبك، يقول السيد (بعل) الرب يهوه، اذ فعلت كل هذا فعل امرأة زانية سليطة (زعونة). ببنائك قبتك (والقبة هنا اشارة صريحة إلى الفرج وتبة العانة) في رأس طريق ووضعت "مرتفعتك" في كل شارع. ولم تكوني حتى كزانية (قديشة، أي بغي مقدسة من بغايا المعبد) بل كـ(مومس، زعونة) محتقرة الأجرة. أيتها الزوجة الفاسقة التي تأخذ أجنبيين (بين فخذيها) مكان زوجها. لكل الزواني (الزعونات) يعطون هدية. أما أنت فقد أعطيت كل

عشاقك هداياك ورشيتهم ليأتوك من كل جانب (لينكحوك في كل مكان من جسدك) للزنا بك. وصار فيك عكس عادة النساء في زناك، اذ لم يزن وراءك بل أنت تعطين الأجرة ولا أجرة تعطى لك فصرت بالعكس.
"فلذلك يا زانية اسمعي كلام يهوه. هكذا قال السيد (بعل) الرب يهوه. من أجل أنه أنفق نحاسك وانكشفت عورتك بزناك بعشاقك وبكل أصنام رجاساتك ولدماء بنيك الذين بذلتهم لها. لذلك هأنذا أجمع جميع عشاقك (من الآلهة الذكور القضيبيين الآخرين غرماء يهوه) الذين لذذت لهم وكل الذين عشقتهم مع كل الذين أبغضتهم (لم تحبي أن تضاجعيهم) فأجمعهم عليك من حولك وأكشف عورتك لهم لينظروا كل عورتك" (حزقيال ١٦:٢٥-٣٧).

فالذي حدث هنا أن ثيمة الزيجة المقدسة بين الملك الأرضي والإلاهة، في الأسطورية السومرية، اختلست ليهوه، لكنها، ككل شيء آخر اختلس في تلفيق أسطوريته، اختلست بطريقة معكوسة ذنبا إلى رأس. فبدلا من زيجة سومر المقدسة، عكست الآية بهذه الطريقة:

(١) أنزلت الإلاهة، أسطوريا، من عرشها السماوي، ليتربع عليه يهوه.

(٢) ووريت الإلاهة، أسطوريا، بطمرها، بدمجها في "ابنة يهوه حبيبة نفسه "اسرائيل.

(٣) بات يهوه هو الذي بـ"أعلى"، والإلاهة، مطمورة في "ابنة يهوه"، بـ"أسفل".

(٤) زوج يهوه من الإلاهة، فباتت، باترياركيا، تحته، في "شخص" ابنته،معشوقته، اسرائيل.

(٥) وبذلك، أسطوريا (أي بالجواز الشعري الأسطوري) أركب يهوه، الإله الذكر القضيبي، باترياركيا، على الإلاهة فصارت هي التي "تحت" وهو الذي "فوق".

وحتى نتفهم الأبعاد الأسطورية لكل هذا، نعود إلى "اللعنة" التي وضعها يهوه على حواء في سفر التكوين: "إلى رجلك يكون اشتياقك (تشتهينه جنسيا ليركبك ويجامعك) وهو يسود عليك (وهو يعتليك جنسيا ويعلوك في إطار علاقتكما كسيد ومسودة)" (تكوين ١٦:٣).

وفيما تعلق بـ"ابنة يهوه حبيبة نفسه معشوقته اسرائيل"، تحددت العلاقة تماما بما حدد به يهوه العلاقة بين آدم وحواء (المصنوعة من جسد آدم) في هذا النص الصريح. فيهوه، ابتداء، يعلن أن اسرائيل ابنته: "وقلت تدعينني يا أبي من ورائي لا ترجعين" (إرميا ١٩:٣). ثم هو، بعد ذلك، يدعوها بـ"حبيبته في بيته" (إرميا ١١:١٥)، ويسميها بـ"حبيبة نفسه" (إرميا ١٢:٧). ويعلن أنه "تزوجها" (إرميا ٣:١٤) وأنجب منها "الشعب": "بنيك وبناتك الذين أنجبتهم لي" (حزقيال ١٦:٢٠)، ويقول أنه "رجلها" وأنه ينبغي ألا يكون اشتياقها لأحد سواه (إرميا ٤:١)، فهو وحده الذي "يسود عليها".

وبطمر الإلاهة (أم الخليقة وكل البشر في أسطوريات الشرق الأدنى القديم) في "ابنة يهوه معشوقته، أم الشعب"، بات يهوه، كآدم اذ "ركب حواء"، الذكر الراكب للإلاهة الأنثى، القضيب الراكب الفرج، وبات خضوعها له واشتياقها اليه وبات هو المتسيد عليها، راكب "عرشها" المبحر في السموات على زورقها مزموم الشفرين، فرجها، نبع ملوكيتها. وان كان يهوه قد دعى اسرائيل، في هذا السياق الجنسي الأسطوري، بـ"ابنته"، فنحن نذكر أن إنكي، هو الآخر، اذ شرع في أخذ زورق إينانا منها ليركبه هو ويبحر به في السموات ملكا، دعا إينانا بابنته، وأن حواء بكونها من جسد آدم، كانت هي الأخرى وليدته.

إلا أنه في حالة الاختلاس الأسطوري للزيجة المقدسة، في أسطورية يهوه، ظل هناك طابق أسطوري آخر غير كل مفاهيم تلك الزيجة في الديانات السومرية/البابلية، اكتسبه الكهنة كربح إضافي. فتحويل الإلاهة إلى "أم الشعب"، اسرائيل، وانجاب يهوه ذلك "الشعب" من رحمها المبارك تواءم أسطوريا، بشكل موات للغاية مع المفهوم الحقيقي لكون "الشعب"، مختار يهوه وابنه من الأم اسرائيل/الإلاهة الأم، هو وحده البشر.

وفي الوقت نفسه، من الوجه الآخر، جاء اختلاس ثيمة الزيجة المقدسة مواتيا في شأن زيغ معشوقة يهوه اسرائيل وخروجها المتواصل من تحته لـ"تزني" مع منافسيه. فتماما كما حدث لدوموزي في الأسطورة السومرية، وتموز في النسخة البابلية، تعرض يهوه، من جانب المحبوبة المشتعلة بالجنس التي لا تشبع كما وصفها حزقيال، لنفس الغدر الذي تعذّب به دوموزي/تموز حين خانته إينانا/عشتار فحكمت عليه بالاندفان في العالم السفلي والغياب عن دنيا الأحياء، ومعاناة الهجر والنسيان كيما تتفرغ هي لاشباع شهوتها وفتح فخذيها لكل عاشق يروق في عينيها (على النحو الذي أوضحه جلجامش بفظاظة بالغة وهو يعدد "فحشاء عشتار" كما لو كان يهوه آخذا في التوجع من زنى اسرائيل). فغدر اسرائيل بيهوه وخروجها من تحته لـ"تفتح فخذيها" لمعشوقيها من منافسيه لم يكن من الممكن أن تكون له من نتيجة الا اندفان يهوه (كدوموزي/تموز) في العالم السفلي، والغياب عن دنيا الأحياء، ومعاناة الهجر والنسيان اذ يستوعب "الشعب" الذي لم يكن هناك بقاء ليهوه بدونه في الشعوب العابدة لمنافسيه معشوقي ابنته حبيبته الزائغة اسرائيل.

والحقيقة أنه، من هذه الزاوية المبررة أسطوريا بالتماثل القوي للغاية بين يهوه ودوموزي/تموز في اختلاس كهنته للزيجة المقدسة طمرا للإلاهة في اسرائيل، كان ضربا

من "الهوتسبا" لا أكثر تضرر حزقيال، وهو الذي صور العلاقة بين معبوده وقومه من خلال أسطورة دوموزي/تموز، من جلوس نساء "الشعب" عند مدخل باب هيكل يهوه الذي من جهة الشمال "باكيات على تموز"، بادعاء أن يهوه هو الذي اشتكى له من ذلك (حزقيال ٨:١٣-١٥).

وبطبيعة الحال، يظل بالوسع- بقدر كبير من الاستماتة في التعامي الإيماني- التهرب مما يتحتم أن تفضي اليه مواجهة كل ذلك بحكايات كـ"الكناية"، و"الرمز" و"المجاز" وبالادعاء بأن حزقيال، ربما المسكين، تحت تاثير الانفعال والغيرة على شرف يهوه وكل ذلك، تمادى قليلا في الجواز الشعري في ذلك النص الناضح بالجنس الذي أوردناه من سفره الجليل، فانفلت عيار النص وبات فاضحا بهذا الشكل، سامحه يهوه.

غير أن مثل هذا التهرب يظل أعرج على ضوء الواقع المتمثل في أن هذا ليس النص الوحيد الذي صورت فيه العلاقة بين يهوه وعروسه ابنته اسرائيل هذا التصوير الجنسي العارم الذي لا مجال للادعاء بأنه نبع من فراغ أو من مجرد لحظات هياج جنسي عانى منه النبييم. فهو تصوير ما أكثر نصوصه الجنسية الباذخة في أسفار عديدة، كسفر إرميا، وسفر إشعياء، وسفر حزقيال، وسفر هوشع، وأسفار النبييم الأصاغر، وفي نشيد الأنشاد.

والذي يبدو أنه استدرج النبييم إلى هذا النخ كان التناقض الأساسي الملحوظ في الديانة. فالسلوك غير المألوف الذي أخذه يهوه على زوجته الخائنة اسرائيل بقوله لها أنها "على عكس كل النساء الساقطات" ظلت هي "التي تطارد معشوقيها ولا يطاردونها، وظلت هي التي تدفع لهم ليشبعوا شهوتها، ولا يدفعون هم لها"، ظل هو عينه، تحديدا، السلوك الذي سلكه يهوه، على عكس جميع الآلهة، وظل سالكه، من أول العهد القديم حتى آخره. فهو الذي ظل يطارد "عروسه، ابنته" اسرائيل متوسلا إليها أن تظل "تحته"، وأن تظل مخلصة له وحده فلا تفتح فخذيها لغيره، ولم تطارده اسرائيل أو تسعى اليه، بل رفضته ولم تصدقه (مما يتضح من شكواه التي لم تنقطع لنبييمه، ابتداء من موسى، من "الرقبة الصلبة" ورفض التصديق والامتثال)، وظل هو الذي يهرول في أعقابها وهي معرضة عنه واعِدا إياها بكل أرض شهية وبكل ثروات الأمم وكل مجد وكل تسيّد اذا ما استسلمت له وظلت تحته، بدلا من أن تهرول هي وراءه وتقدم إليه ما يقدمه البشر في كل الديانات إلى الآلهة استرضاء لها أو عرفانا أو كفا لأذاها. فاسرائيل المعشوقة لم تسعَ إلى يهوه إلا على مضض، وهي راغمة، تحت تهديدات الكهنة ووعيدهم بصعود غضب يهوه إلى أنفه وبما هو مترتب على ذلك من خراب عاجل ماحق وضياع للعز والثراء.

وفي غمار ذلك كله، نجد ثيمة ركوب الأنثى واضحة بشكل لافت للنظر. فمطلب يهوه الأهم من عروسه ابنته اسرائيل كان باستمرار أن "تظل تحته" فلا تخرج من تحته لتفتح فخذيها لغيره. ولما كانت تلك العروس قد احتوت، أو حوّلت أسطوريا إلى "الإلاهة الأم"، فإن ثيمة إعتلاء القضيب لفرج الإلاهة العرش ظلّت ماثلة بقوة في ذلك الوجه من أوجه استخدام الزيجة المقدّسة في التخلص من الألوهة المؤنثة بانزالها من عرشها وإصعاد الوثن

القضيبي فوقها. ولسوف نجد، عندما نسبر غور أسطورية ليليث، زوجة آدم الأولى، أن السبب في مجافاة آدم لها، وبالتالي تحولها إلى الشيطانة المعولة بليل، كما حوّلت عشتار، كان رفضها العنيد أن يركبها آدم وهو يضاجعها واصرارها على أن تكون هي التي "فوق" وهو الذي "تحت"، في حين تمسك يهوه بأن يكون آدم راكبها.

ولقد ظل ذلك الهدف الرئيسي للكهنة المؤلفين في كل ما أخذوه من أساطير وحكايات شعبية وترانيم وتسابيح وقصص دينية من كل مصدر طالته أيديهم فخلّقوا منه المعبود واصطنعوا "الشعب" واختلقوا له أصولا ضاربة في القدم: أن يوضع المعبود "فوق"، ويوضع "الشعب" فوق معه، وأن يظلوا هم فوق "الشعب"، وبحكم كونهم نواب الملك يهوه الحاكم للعالم من فوق جبل صهيون، فوق العالم بأسره.

ذلك الطموح الفوقي غرسه موسى ليداوي به مشاعر الضياع والنقص وحقارة الشأن لدى المطرودين الذين علق بهم، وليتمكن من خلال مداواته إياهم من أن يحولهم إلى "شعب" يقيم به مُلكا. وبعد موسى، ظل ذلك الطموح يتطور وينمو على أيدي ورثته الذين واصلوا عملية تخليق المعبود واختلاق "الشعب" حتى بلغ آفاقا من البارانويا العرقية التي تفاعل فيها جنون العظمة مع جنون الاضطهاد فخلق حواذا يعبّر عنه "إمام المغنين" مترنما بكل يقين:

"لأن يهوه عليّ مخوف ملك كبير على كل الأرض يخضع
الشعوب تحتنا والأمم تحت أقدامنا" (مز ٤٧ :٢ و٣).

وفي صنع الرحيق المسكر المبدد للعقل من عصارة ما ظل الكهنة يسطون عليه ويستقطرونه ليضخوه في الحلوق جيلا وراء جيل وراء جيل، امتزجت السياسة بكلبيتها وإهدارها لكل قيمة، إنسانية كانت أو إلهية، وما انطوت عليه من مطامع وتطلعات عديمة الاعتدال، بالسحر، بالكهانة، بالجنس في تركيبة مهلكة بحق ابتلت العالم بأسرة بمهالك وكوارث ومخاطر لم ولا يعادلها فظاعة ووحشية الا ما جلبته على رؤوس أتباع الديانة أنفسهم كبشر من عذابات واضطهاد ومذابح.

وكما رأينا، في سعينا إلى استظهار خيوط الجنس، ان وجدت، في لُحمة الديانة وسداها، ظل هذا الطموح الفوقي يفرض نفسه فيبرز بقوة من أيّما زاوية طرقها البحث في متاهة النصوص الملغّزة، وظل يباغت فيصدم عند كل منعطف من منعطفات سراديب الحكي.

وكما أوقفتنا قراءة النصوص وتعمقها وأظهر فك طلاسمها، كان ابتلاع الآلهة وسيلة الكهنة الرئيسية والمفضلة في إزاحة كل إله ذكر قضيبي منافس من طريق يهوه، وظل التعالي واصطناع السمو بما سرق من أولئك الآلهة وترانيمهم وتسابيحهم وأسطورياتهم أسلوب الكهنة التقليدي في إعلاء يهوه، بعد تلفيق صورته مما سرق له، فوق كل إله وقع السطو عليه لحساب يهوه. وبالمثل، ظلّ الطمس والإخفاء النهج الذي انتهجه الكهنة في التعامل مع الألوهة المؤنثة حتى وهم يسطون بنشاط بالغ على اختصاصاتها وصفاتها

وقدراتها بل وألقابها. وان كان التعالي واصطناع السمو شكلا أسلوب الحكي فيما تعلق بالآلهة الذكور، فان الإركاب ظل النهج الثابت حيال كل تجلّ للإلاهة الأم العظمى. وان كان القصد الأسطوري الكامن في الطبقات المتراكبة من الحكي ظل، في حالة الآلهة الذكور المنافسين، جعل القضيب اليهيوي القضيب الأقوى والأمتن والأعظم فحولة، وبالتالي الأسخى عطاء لكل خليقته، أي "شعبه" (باعتبار أنه لم يخلق بشرا الا "الشعب" ولم يخلق الخليقة الا لـ"الشعب")، فان الهدف الذي أعطي الأولوية الأولى فيما تعلق بالتعامل مع الألوهة المؤنثة ظل أخذ عرش تلك الألوهة منها، ممثلا في اركاب القضيب اليهيوي على ذلك العرش، أي فرج الإلاهة، واخضاع الإلاهة (كما يخضع الذكر أنثاه رمزيا في وضع الجماع) باعتلائها واقتحام القضيب الملكي الإلهي، الذي قهر كل قضيب ملكي إلهي منافس، فرج تلك الإلاهة التي دعيت قبل اعتلاء يهوه لها بـ"ملكة السموات".

ولقد يبدو كل هذا غريبا بعيد المأخذ، بل وقد يكون صادما أو جارحا. الا أننا- حتى اذا ما نحينا جانبا كل براهين العلم التي لا تدحض والتي تسبِّق عبادة كل البشر في الشرق الأدنى القديم، بل وفي كل العبادات القديمة حيثما وجدت، للرحم الكوني في شخص الإلاهة الأم العظمى بتجلياتها وأسمائها المتعددة- سنجد أن:

(١) كل العبادات الباترياركية نشأت من عبادة القضيب، و

(٢) أن كل الآلهة الباترياركية القضيبية المذكّرة اغتصبت (أو بالأحرى اغتصب لها صانعو أسطورياتها) أمومة الإلاهة الأم العظمى.

وسنتناول بالدراسة ظواهر وبراهين نشوء العبادات الباترياركية من عبادة القضيب في مدخل الكتاب الثاني من كتابي هذا البحث، تحت عنوان "الجنس والدين" وهي ظواهر وبراهين ما أكثرها وأغزرها في نصوص العهد القديم على الرغم من المعالجة التحريرية النشطة، ابتداء من إقامة خصوصية الديانة على قداسة القضيب المختن، وتأسيس الخليقة، بحكاية آدم وحواء، على مضاجعة المحارم، إلى قداسة المنيّ، إلى كمون (واخفاء) كهانة الاناث وظاهرة البغاء المقدس المذكر والمؤنث في تاريخ الديانة، إلى الغزل الإلهي الملكي الناطق بالجنس في أشد صوره اشتعالا (نشيد الأنشاد)، إلى الحريم الملكي الإلهي، ابتداءً من أدامه (الأرض الأم)، إلى اسرائيل (الابنة العشيقة)، إلى الشكينة (المسكن الرحم) إلى حواء وليليث.

كما يتناول البحث أيضا الايمان الراسخ (وان لم يعلن باستفاضة) بأندروجينية المعبود (كونه ذكرا وأنثى في آن معا). وذلك اعتقاد ضارب في القدم آمنت به كل العبادات القضيبية، كما في مخاطبة الكنعانيين للإله (بعل) بهذا الدعاء: "اسمع صلاتنا يا بعل، إلها كنت أو إلاهة".

ومرة أخرى، قد يبدو ذلك غريبا، وتبدو الحيرة في شأن جنس الإله صادمة. غير أن القرار المفاجئ الذي اتخذه آباء الكنيسة الغربية مؤخرا (بالنفاق المعهود، بحجة الرغبة في "تنقية" النصوص المقدسة من شبهة الانحياز إلى جنس دون آخر") بتغيير لقب الإله من

"أبانا" إلى "أبانا وأمنا" وتغيير صفته من "الإله الأب" إلى "الأب والأم"، قرار يشير بقوة إلى أن السلطات الدينية بدأت تشعر- في وجه المدّ المتعاظم من كشوف العلم المحدثة لنقلات فكرية بالغة العمق شاسعة الأبعاد- بضرورة الكف عن العناد القديم والإصغاء لصوت العقل الذي أحرق بسببه جيوردانو برونو عندما نصح بالعودة "إلى المنابع الحقيقية للدين"، أي إلى أصل الدين، الديانة المصرية. فمفهوم "الإله أب الآباء وأم الأمهات" و"الإلاهة الأم والأب معا" كان- من أقدم عصور الوعي الديني المصري- أساسا فكريا وروحيا للإيمان بألوهةٍ منجبةٍ للكون وللأحياء. وحتى اليهود الآن بدأت بعض فرق "اصلاحية" منهم تصغي لصوت العقل منسحبة خطوة من الادعاءات الذكورية المتخندقة. فبدلا من "مبارك أنت يا يهوه يا إله الآباء" نجد "مبارك أنت يا يهوه يا إله السلف (ذكورا وإناث)"!

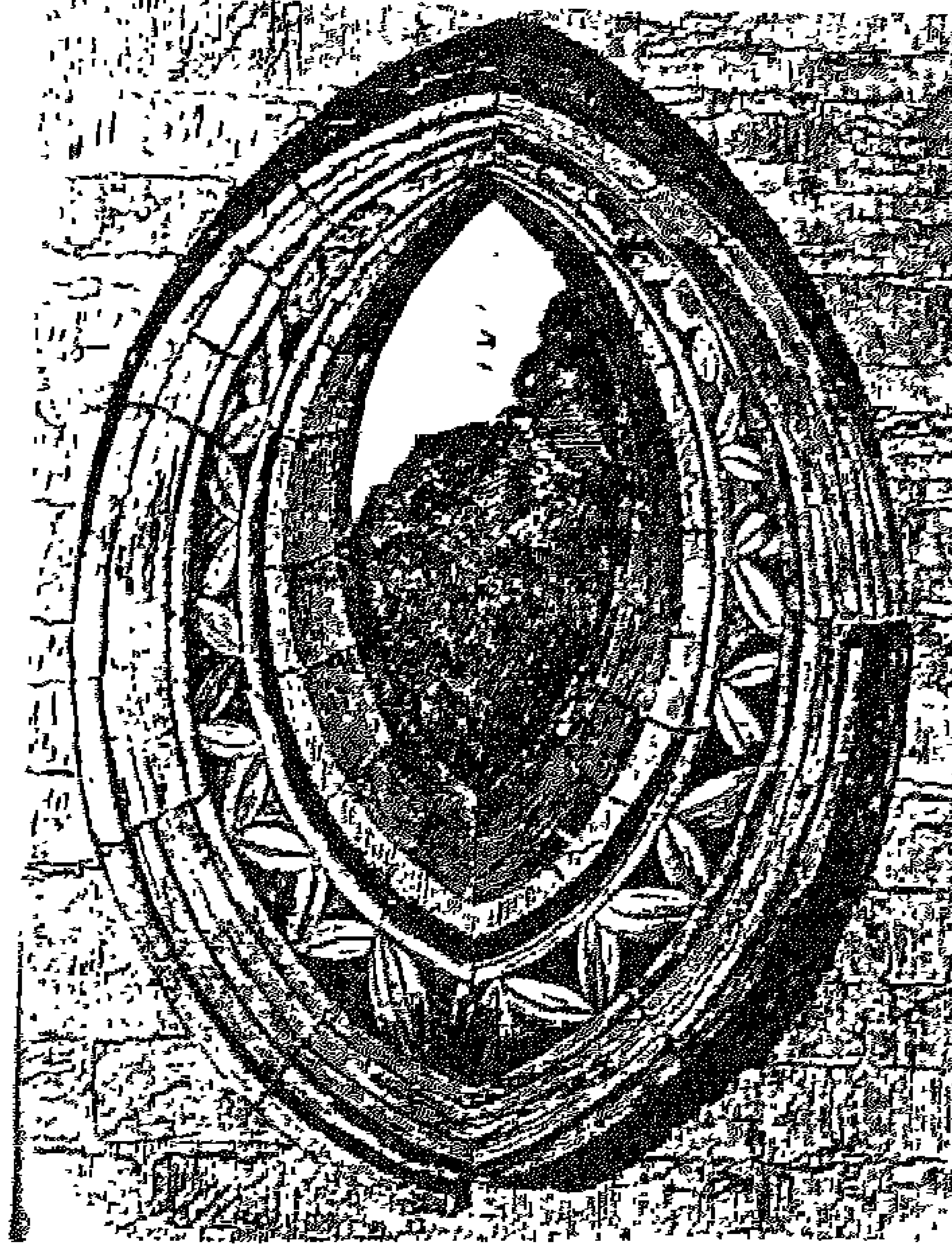
غير أن المسافة مازالت شاسعة، تماما كاتساع القفر الذي وضع الحكي التوراتي موسى و"الشعب" فيه طوال أربعين سنة سحرية، بين مطلب الإصغاء لصوت العقل ذاك، وبين أصولية التخندق الإيماني وما يمليه ذلك التخندق من ضرورات التشبث بالسرية والتلغيز إن لم يكن لشيء فلأن ارتفاع حجب وأستار السرية والتلغيز اذا ما رفعت سيكشف عن معمارٍ هشٍ للغاية ويسلط الضوء على ما في هيكل ذلك المعمار من أخلاط أسطورية شديدة التنافر فيما بينها وبالغة التناقض مع ما هو مدّعى على أساسها من سمو وعلو بلا قرين وصلاح بغير مثيل.

واستجابة لمقتضيات السرية والتلغيز، في التعامل مع الألوهة المؤنثة بشكل خاص، اتخذ إعلاء القضيب الملكي الإلهي مسارات أسطورية متعددة متنوعة، بدءا من مواراة الرحم الكوني بطمه أو ردمه، إلى إخفاء الإلاهة في اهاب اسرائيل، ابنة يهوه معشوقته وزوجته "أم الشعب": "أمهم التي حبلت بهم" (هوشع ٢:٥)، "فانك أنت يا يهوه أبونا وان لم يعرفنا ابراهام وان لم يدر بنا اسرائيل (يعقوب). أنت يا يهوه أبونا، وليّنا منذ الأبد اسمك" (إشعياء ٦٣:١٦)، إلى دمجها في الأرض الأم، أدامه، التي يمطر عليها (يقذف منيّه) يهوه فيجعلها تلد (إشعياء ٥٥:١٠)، والتي بـ"زرعه المقدس" (بزرته، منيه) أخصبها ومن "لحمها" (التراب) أنجب كل الأحياء وأنجب البشر ("الشعب") وغير البشر (الأمم) الغلف بالروح والجسد، إلى تغييبها في "الشكينة" (المسكن الرحم) التي أسميت هي أيضا بـ"أم الشعب"، إلى دمجها في "حواء أم كل حي"، إلى لعنها (كما لعنت عشتار) وتحويلها (كما حوّلت عشتار) إلى شيطانة في شخص ليليث التي- بعد أن رفضت الخضوع لآدم بالتمدد تحته أثناء المضاجعة- انتهت بأن ضُمَّت تلموديا إلى حريم الملك يهوه، فباتت واحدة من زوجاته أو محظياته، بين اسرائيل، وأدامه، والشكينة، وعشيرة، وعانات، بل و"السيدة السبت" التي ضمت إلى عشيرات/بعلات الملك الإله الفحل القضيبي بعل يهوه ثور يعقوب.

فذلك الإله الملك، بالمناقضة الكاملة لتأكيدات مؤلفي سفر التكوين ومحرريه بأنه ترفع وتعالى على الجسد، ظل إلها قضيبيا معشاقا عارم الاشتهاء. ولنصغ، مثلا، لهذه الترنيمة القبّالية من "الزهار"، كتاب السناء الفريد في نوعه بين كتب التفسير الديني:

"وإذ يشتاق الملك القدوس (يهوه) تبارك،
إذ يهزه الشوق إلى الملكة، إلى الشكينة واسرائيل
فانه يتسلق صاعدا إلى الأسطح،
ويعدو هابطا السلّم،
ويتسلق الحيطان،
يبص من الكوى من فرط شوق اليهما،
وإذ يفوز بنظرة إليهما، يبكي
لأنه، كما هو مكتوب:(*)
حبيبي شبيه بالظبي أو بغفر(*) الأيائل
واقف وراء حائطنا
يتطلع من الكوى، يوصوص من الشبابيك
يمد يده في الكوة فتئن عليه أحشائي".(١٢) (انظر الشكل رقم ١٨)

(*) أي كما هو مكتوب في "شعر هـ شعريم"، نشيد الأنشاد ٩:٢ و٥:٤. و"الغفر" (الذكر من أولاد تيوس الجبل) شفرة استخدمت أكثر من مرة في الإشارة الى يهوه بدلا من "الثور"، والمقصود على الحالين الذكر الفتي الفحل عارم الشهوة. أما "مد يده في الكوة" فواضحة المعنى: فالكوة هنا هي فرج المحبوبة، واذ يفعل ذلك، "تئن" عليه أحشاؤها أي تذوب من فرط اشتياق الى الجماع. (ونشيد الأنشاد أشد التواء وأكثر أغوارا من أن تستظهر معانيه في حيز هامش كهذا، وقد خصصنا له ولمصادره التي سرق منها فصلين من فصول الكتاب الثاني تحت عنوان "الغزل الإلهي الملكي"، و"الغزل الإلهي الملكي وأصوله السومرية".)



الشكل رقم (١٨)
الشكل الإهليلجي لـ"الكوّة" المرمِّزة لفرج الإلآهة في الكثير من أماكن العبادة قيدمة المعمار التي تأثر مصمموها ومنفذّوها بالرؤى الجنسية الشائعة في العهد القديم وبخاصة في نشيد الأنشاد الذي تقول فيه المعشوقة :
"ومدّ يده من الكوة فأنّت عليه أحشائي"
(نشيد الأنشاد ٥ : ٤)

(انظر أيضا الشكل رقم ١٣)

ولما كان الجنس العارم بغير حاجة إلى تسليط ضوء عليه في النص، فان القبّالي اورد النشيد مسبوقا بتبرير يجعله مشروعا دينيا، إذ مهّد له بما أسماه حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي:

"كان هناك في سابق الزمان ملك أساءت اليه الملكة زوجته
ومن فرط اساءتها طردها من قصره.
فما الذي ذهبت الملكة ففعلته؟
أخذت ابن الملك معها، ابنه الغالي المحبوب،
ولأن الملك كان مغرما بها، تركها تفعل.
لكن الملك ما لبث أن اشتاق اليها واشتاق إلى ابنه،
ومن عظم الشوق ظل يتسلق صاعدا إلى الأسطح،
ويعدو هابطا سلالم قصره،
ويتسلق من فرط الشوق حيطانه،
ويبص من الكوى آملا أن تكتحل عيناه بمرآهما،
واذ يلمحهما، يأخذ في البكاء وراء الحائط
ثم يمضي..
وهكذا كان الأمر في شأن اسرائيل (والشكينة)
فعلى الرغم من أنهما بارحتا قصر الملك (يهوه)
فان العهد بينهما وبينه لم ينقطع
ولأن الملك يحبهما، لم يقطع الملك عهده معهما".(١٣)

– – – – –

هوامش الباب الثالث

(١) ارجع إلى [٥] "تاريخ العالم لجامعة كولومبيا"، ص١٥، وانظر كذلك [١٠]، "الحضارات القديمة" لماكنزي، ص ص١١٣-١٢٤، و[٩]، "الحضارات قبل اليونان وروما"، للبروفسور ساجس، الفصل ١٣، "الدين في العالم القديم"، ص ص٢٦٧-٣٠١، و[٢٦]، "السومريون، تاريخهم، وثقافتهم وطباعهم"، لكريمر، و[٣٠]، "السجلات القديمة لأشور وبابل"، للوكنبيل.

(٢) انظر كريمر [٢٨]، "طقس الزيجة المقدسة".

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) ارجع إلى فرنر كلر، [٩٠]، "الكتاب المقدس كتاريخ"،ص٢٨٩، وانظر أيضا البروفسور ساجس، [٣٤]، "عظمة بابل التي كانت".

(٥) ارجع إلى الفصل (٢٩) من كتاب كلر، "الكتاب المقدس كتاريخ"، [٩٠]، وارجع أيضا إلى:

Hooke, S.: 'Myth and Ritual", Oxford Umiversity Press, 1933.

James, E.O.: "Myth and Ritual in the Ancient Near East", Thames and Hudson, London, 1958.

Langdon, S.: "Tammuz and Ishtar", Oxford University Press, 1914.

Roux, G.: "Ancient Iraq", Pelican 1976 (by far one of the most telling of scholarly works on Mesopotamian civilizations).

Contenau, G.: "Everyday Life in Babylon and Assyria", Arnold, 1954.

(٦) ارجع إلى:

Langdon, S.: "Babylonian Liturgies and Hymns", Oxford, undated.

Hooke, S.: "Babylonian and Assyrian Religion", Hutchinson, 1933.

Jastrow, M.: "The Religion of Babylon and Assyria", Atheneum, 1898.

(٧) ارجع إلى "قراءة سياسية للتوراة"، ص ص١٦٦-٢١٤، وانظر أيضا:

Frankfort, H.: "The Problems of Similarities in Ancient Near Eastern Religions", Clarendon, 1951.

Heidel, A.: "The Babylonian Genesis", Chicago, 1963.

________: "The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels", Chicago, op. cit.

(انظر الهامش (٩) من هوامش الباب الأول، بشأن هذا المرجع والذي يليه.

Budge, E.: The Babylonian Story of the Deluge and the Epic of Gilgamesh", op. cit.

(٨) انظر، في شأن عيرا/نرجال إله الوباء والحرب والموت السومري/ البابلي، "ميثولوجيا الشرق الأدنى"، لصموئيل هوك، و[٤٦]، "ميثولوجيا العالم القديم"، و[٢٧]، "الميثولوجيا السومرية- دراسة للإنجاز الروحيّ والأدبي في الألف الثالثة ق.م."، و[٢٨]، "طقس الزيجة المقدسة"، لصموئيل كريمر،

والى [٣١]، "أساطير من أرض الرافدين"، لستيفاني دالي، والى مانفرد لركر، [١٤٤]، "آلهة وإلاهات، شياطين وأبالسة".

(٩) انظر، في شأن النار والجنس، [١٧٠]، "الأم العظمى" لإريك نيومان، و[١٢٨] "الإيروتيكا اليهودية"، لآلن ادواردز، و[١٢٥]، "العبادة القضيبية"، لجورج رايلي سكوت، و[١٢٦]، "قصة العبادات القضيبية"، لستون (الجزء الأول)، والى [١٢٤/أ] "عبادة الطبيعة"، وارجع أيضا إلى المرجعين الموسوعيين التاليين تحت بند "العناصر" (elements)،

Chetwynd, T.: "A Dictionary of Symbols", Paladin, Crafton Books, Collins, London, 1986.

__________ : "Dictionary of Sacred Myths", Aquarian/Thorsons, London, 1993.

(١٠) انظر [٣١]، "أساطير من أرض الرافدين" لستيفاني دالي، و[٢٧]، "طقس الزيجة المقدسة"، و[٢٩]، "من شعر سومر: الخلق، والتمجيد، والتعبد"، لصموئيل كريمر.

(١١) انظر المراجع السابقة نفسها.

(١٢) ارجع إلى "الزهار"، كتاب السناء، [١٥٤] و[١٥٥]، ٣: ١١٤/أ-١٥٥/ب.

(١٣) ارجع إلى المرجع السابق نفسه، "الزهار"، النصوص نفسها.

تم الكتاب الأول

من

الجنس في التوراة وسائر العهد القديم

(من الإلاهة الأم إلى الإله الأب)

ويتبعه الكتاب الثاني

(بورنوجرافيا الدين "قراءة جنسية للأسفار المقدسة")

شفيق مقار

كاتب وناقد وباحث وصحافي وإذاعي نشرت كتاباته في مختلف العواصم العربيـة وفي لندن، وأذيعت برامجه للراديو من القاهرة ومن لندن.

الأعمال المنشورة :

دراسات وأبحاث :

تتار القرن العشرين بداية لنظرية في الابادة. القاهرة، بغداد.
باليه السلام الأميركي على مسرح الشرق الأوسط، بغداد.
الذئب الآتي من عند الإله، هرتسل والصهيونية، بيروت.
قضية الانشقاق في الاتحاد السوفياتي – سولجنتسين، بيروت.
الحلف الأسود – أميركا واسرائيل، لندن.
الإرهاب والإبادة في ظل الإله، لندن.
غباء المرء محسوب عليه – في العنصرية الجديدة، لندن.
مقالات في الحرية، لندن.
مشكلة الكاتب والسلطة، لندن.
غير عشرات المقالات والبحوث في الصحف والمجلات في النقد، والسياسة، والمسرح.
قراءة سياسية للتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.
قتل مصر من عبد الناصر إلى السادات، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.
السحر في التوراة والعهد القديم، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.
ظاهرة غورباتشوف، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.
المسيحية والتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.
السحر الأسود، رواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، نشرت باليابانية في طوكيـو، وتعد للنشر بالانكليزية والإيطالية.
الكـلام، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
دراسات في الأدب الأوروبي المعاصر، وزارة الاعلام، بغداد.
"شيء من الشعر"، الشعر الفرنسي فـي القرنيـن ١٩ و٢٠، الـدار القوميـة للطباعـة والنشـر، القاهرة.

أعمال معدّة للنشر :

بورنوجرافيا الدين "قراءة جنسية للأسفار المقدسة" – الكتاب الثاني من "الجنس في التـوراة وسائر العهد القديم".

التوجُّه الامبريالي في أسس اليهودية.

حافة الغد – دراسة في الأساطير.

القبّالة وشفرة التوراة.

التلمود وتكملة التوراة.

أساطير التوراة.

الجنس في التوراة وسائر العهد القديم:

من الإلآهة الأم إلى الإله الأب / شفيق مقار

دمشق: دار يعرب، ١٩٩٨ - ٥٥٢ ص،

١- ٢٢١،٨ م ق ١٠ ج ٢- العنوان ٣- مقار

مكتبة الأسد

مؤسسة غبور للطباعة

٦٤١٠٤٤٤-٦٤١٢١٣٥

هذا الكتاب

لقد انصرف الجهد في الكتاب إلى محاولة استظهار أبعاد التناقض الجوهري في ديانة أدعي لها التسمو الروحاني الأثيري على الجسيات والجسد بينما أترعت نصوصها- رغم كل المراجعات- بالجنس في أشد أشكاله توقداً، ابتداء من صورة المعبود ذاته كقضيب مختن منتصب أعلِيَ على عرش الإلاهة الأنثى، فرجها، إلى تصوير العلاقة بينه وبين ابنته المعشوقة اسرائيل كعلاقة مضاجعة زوجية في حكيٍ تكاملت له كل أبعاد الاثارة من تشبيب جنسي إلى مضاجعات سفاحية وسحاقية إلى زنا وخيانة زوجية جعلت الإله -من فرط عشق- يتسلق الحيطان، ويصعد على الاسقف، ويتلصص من الكوى.

المؤلف

دار يعرب